غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد الرابع والخمسون

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

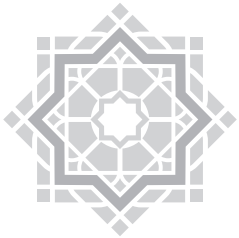
غير مرخصة للطباعة

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي



المِحْوَرُ الخَامِسُ

القُرْآنُ وعُلُومُهُ وتَفْسِيرُهُ

١٠٢ في رحاب القرآن الكريم

دروس قرآنيَّة

(الجزء الأول)

نسخة تجريبية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة



نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

المحور الخـامس

القرآن وعلومه وتفسيره

غير مرخصة للطباعة

١٠٢

في رحاب القرآن الكريم

دروس قرآنيَّة

(الجزء الأول)

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

نسخة مجانية

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾** [الفاتحة:٢]، **قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾** [الفاتحة:٣]، **قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجَّدني عبدي** ـ وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي ـ **فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة:٥] **قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾** [الفاتحة:٦، ٧] **قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**». رواه مسلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احرصْ على ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تعجز، وإنْ أصابك شيء، فلا تقلْ لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قلْ: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان**». رواه مسلم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

(أمَّا بعد)

فهذا الكتاب: «دروس في التفسير»، يجمع بعضًا من دروس التفسير المسجديَّة، التي ألقيتها على مدار عمري، الذي عشته مع القرآن منذ أن كنت صبيًّا أحفظه في كُتَّاب قريتنا (صفط تراب)، ثم حافظًا له لا أخرم منه حرفًا قبل أن أبلغ العاشرة والحمد لله، ثم إمامًا أصلي بالناس وقد راهقت البلوغ، ثم طالبًا في معهد طنطا الأزهري، ثم متخصصًا في قسم «التفسير والحديث»، بكلية أصول الدين، بجامعة الأزهر.

وجل هذه الدروس ألقيتها في رمضان، بين ركعات صلاة التراويح، أتناول فيها تفسير بعض آيات ممَّا قرأته إن كنت إمامًا، أو قرأه غيري وأتناول تفسيره، مع بعض لمحات تربوية ودعوية وإرشادية، وربط التفسير بالواقع ما أمكن.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

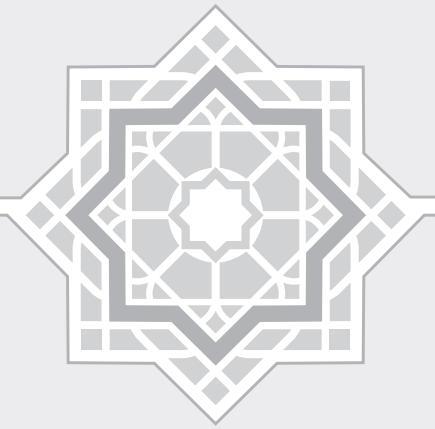
وهي دروس تتناول آيــات متفرقة، أو الموضوع العام للســورة، أو بعض قصصها، أو آيات مختارة منها، وقد يتكرر الحديث عن الموضع الواحد في سنوات مختلفة.

وقد قام الإخوة في مكتبي العلمي بتنسيقها وترتيبها وإعدادها للنشر، فجزاهم الله خيرًا، وشكر الله لكل من ساهم في ذلك، واللهَ أسأل أن ينفع بها قائلها، وقارئها، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

الدوحة في ٢٥ محرم ١٤٤٢هـ
١٣ سبتمبر ٢٠٢٠م
الفقير إلى عفو ربه
يوسف القرضاوي

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي



دروس في تفسير
سورة الفاتحة



غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

في رحاب سورة الفاتحة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسُنَّته، إلى يوم الدين.

ربِّ اشرحْ لي صدري، ويسِّر لي أمري، واحلُل عقدةً من لساني، يفقهوا قولي.

اللهمَّ يا مُعَلِّم آدم وإبراهيم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا، ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، اللهمَّ اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونُور صدورنا، وجلاء حزننا، وذهاب همِّنا.

(وبعد)

على بركة الله نبدأ رحلتَنا مع كتاب الخلود، ونورِ الوجود، مع القرآن، الوثيقة السماويَّة الوحيدة الباقية، الَّتي يملكها المسلمون وحدهم، مع منهاج الخالق لإصلاح الخلق، والدستور النَّازل من السماء لهداية الأرض، الكتاب الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الكتاب الَّذي أُحكمت آياته ثمَّ فصلت من لدن حكيم خبير.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القرآن أنزله الله للتدبُّر:

نعيش مع كتاب الله نتدبره، فإن الله سبحانه إنَّما أنزله ليُتدبر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، نريد أن نفتح قلوبنا للقرآن، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، نريد أن نعيش مع القرآن نتلقاه غضًّا طريًّا، نقرأه ونسمعه ونفهمه، كما كان يسمعه ويفهمه أصحاب رسول الله ﷺ، وكما قال أحد الصالحين: اقرأ القرآن كأنَّما عليك أنزل. نريد أن نقرأ القرآن معًا، ونفهمه معًا، حتَّى نجعل منه دستورًا ومنهاجًا لحياتنا، فبركة القرآن ليست في تعليقه على الجدران، إنَّما بركته في اتِّباعه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

بداية التفسير:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١ ـ ٧].

أسماء سورة الفاتحة:

نبدأ رحلتنا مع القرآن بسورة الفاتحة، وهي تسمَّى «سورة الفاتحة»، وتسمَّى «سورة الحمد»، و«أمَّ القرآن» و«أمَّ الكتاب»، و«السبع المثاني»[(١)]، و«سورة الصلاة»[(٢)].

---

(١) وردت هذه الأسماء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم**». رواه البخاري في التفسير (٤٧٠٤). والترمذي في التفسير (٣١٢٤)، وقال: حسن صحيح. ولفظه: «**الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني**».

(٢) إشارة إلى حديث: «**قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله: حمدني عبدي...**» الحديث. رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

قواعد التوجيه للحياة الإسلاميَّة في سورة الفاتحة:

سبع آيات قصار جاءت بها هذه السورة القصيرة الجامعة، كلُّ آية منها تمثِّل قاعدة من قواعد التوجيه للحياة الإنسانيَّة.

القاعدة الأولى: المسلم يبدأ أعماله باسم الله:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نقرأ في المصاحف هذه البسملة مع كل سورة إلَّا سورة التوبة، وهي آية من فاتحة الكتاب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

تبدأ سورة الفاتحة: بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، وهذا ما ينبغي أن يتعلمه كل مسلم، فقد سنَّ لنا القرآن الكريم سُنَّة بَدء كل أمر ذي بال باسم الله وحده، وأنَّ كلَّ شيء يجب أن يقترن بذكر الله، و«**كلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه باسم الله فهو أبتر**»(١).

فـ«**الدُّنيا** ـ كما قال ﷺ ـ **ملعونة ملعون ما فيها إلَّا ذكر الله، وما والاه، وعالمًا أو متعلِّمًا**»(٢).

لا تُبدأ الأمور باسم فلان أو علان، لا باسم ملك أو أمير، ولا باسم صنم من الأصنام الحجريَّة أو البشريَّة، إنَّما تبدأ باسم الله، وباسم الله وحده، ولا شيء معه، ولا شيء بعده، هكذا علَّمنا القرآن الكريم.

نوحٌ عليه السلام حينما ركب سفينته، وأركب فيها من معه من المؤمنين قال: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]. وسليمان حينما أرسل

---

(١) رواه أحمد (٨٧١٢)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. وابن ماجه في النكاح (١٨٩٤)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٥٥)، وصحَّح إسناده الشيخ شاكر في تعليقه على المسند برقم (٨٦٩٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤١١٢)، كلاهما في الزهد، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٠٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

كتابه إلى بلقيس بدأه بالبسملة: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١]. وأول آية نزلت على رسول الله ﷺ، خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وهكذا علمنا الإسلام أن نبدأ حياتنا وأعمالنا، وكلَّ شيء باسم الله، نأكل باسم الله، ونشرب باسم الله، ونذبح باسم الله، وفي الحديث: «**كلُّ كلام أو أمرٍ ذي بال لا يُفْتَح بذكر الله، فهو أبتر**». أو قال: «**أقطع**»[(١)]. وفي رواية: «**فهو أجذم**»[(٢)]. أي: مقطوع ناقص، قليل البركة.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تبدأ سورة الفاتحة بوصف الله تعالى بالرحمن الرحيم.

ولفظ الجلالة «الله» عَلَم على ذات الخالق الأعلى، الَّذي يفتقر إليه كلُّ ما عداه، ويستغني هو عن كل ما سواه ومن سواه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: وُصِف الله بهذين الاسمين الكريمين: الرحمن الرحيم، وهما اسمان من أسماء الله الحسنى، اشتُقَّا من الرحمة على طريق المبالغة، والرَّحمن أشدُّ مبالغة من الرحيم، ولم يوصف بهذا الاسم «الرحمن» غير الله تبارك وتعالى، ولهذا يُذكر على أنَّه عَلَم، كما يذكر لفظ الجلالة الله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]،

---

(١) سبق تخريجه صـ١٣.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٠)، وقال عقبه: رواه يونس، وعقيل، وشعيب، وسعيد بن عبد العزيز، عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلًا. وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٢٤٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ولا يجتمع الوصفان إلَّا لله، وهذا يدلُّنا على أنَّنا نلج إلى الله تعالى من باب الرحمة، لا من باب القهر والجبروت، فرحمته تعالى سبقت غضبه.

هذه هي القاعدة الأولى: أن نبدأ حياتنا باسم الله وحده.

ما تضمَّنته البسملة من أسماء الله الحسنى:

اشتملت البسملة على ثلاثة أسماء لله ﷻ:

الاسم الأوَّل: هو لفظ الجلالة «الله»، وهو عَلَم على الذات الإلٰهيَّة، غير مشتق على الصحيح، وهو المتَّصف بكل كمال، المنزَّه عن كل نقص، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

والاسم الثاني: هو اسم «الرحمن» وهو أيضًا علم على الذات الإلٰهيَّة، ولكنَّه مشتق من الرحمة، وهو أبلغ من «الرحيم»، وهو يعامل معاملة لفظ الجلالة، في إيقاعه مبتدأً يُخبَر عنه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. وهو يُدعى كما يدعى الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ويفرد بالذكر في كتاب الله كما يفرد لفظ الجلالة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].

QaradawiBooks.com

والاسم الثالث: هو اسم «الرحيم»، وهو مع الرحمن يعنيان: أنَّه تعالى صاحب الرحمة الواسعة، الَّتي وصفت بأنَّها ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال بعضهم: الرحمن: من وسعت رحمته كل شيء. والرحيم: من دامت رحمته.

والرحمة عند الإنسان: انفعال وجداني، أو رقَّة في القلب، تؤدِّي إلى العطف على الآخرين، والإحسان إليهم، وإيصال الخير إليهم، وإزالة الضرر عنهم.

ولكنها بالنسبة إلى الله تعالى، ليست انفعالًا، ولا رقة قلب، بل هي صفة ذاتية لائقة به تعالى، بها يعطف على عباده، وينعم عليهم بسائر نعمه، جليلها ودقيقها.

ومن حقها أن تكون صفة كسائر صفات المعاني الَّتي أثبتها الأشاعرة، مثل: القدرة، والإرادة، والحياة، والسَّمع، والبصر، فكما أنَّ له تعالى صفة تسمَّى: الحياة أو السَّمع، ليست كحياة البشر، أو كسمعهم، كذلك له صفة تُسَمَّى الرَّحمة، ليست كرحمة البشر.

اجتماع اسمَيْ «الرحمن الرحيم» في القرآن:

وقد اجتمع الاسمان ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ معًا في خمسة مواضع في القرآن الكريم[1]، غير مائة وثلاث عشرة مرَّة في البسملة في ابتداء سور

(١) الموضع الأول في سورة الفاتحة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]. والموضع الثاني في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. والموضع الثالث في سورة النمل: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]. والموضع الرابع في سورة فصلت: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]. والموضع الخامس في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

QaradawiBooks.com

القرآن الكريم، وتكرر اسم الرحمن وحده: (٥٢) مرَّة، واسم الرحيم وحده معرَّفًا ومنكَّرًا، مرفوعًا ومجرورًا (٩٤) مرَّة، ومنصوبًا (٢٠) مرَّة[١].

القاعدة الثانية: الاعتراف بالجميل لربِّ العالمين:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. بعد البسملة نبتدئ هذه السورة الَّتي من أسمائها سورة الحمد؛ لأنَّها بدأت بالحمد لله.

وقد افتتح الله في القرآن خمس سور من سوره المكيَّة بالحمد لله، هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

معنى الحمد:

و«الحمد» مقابل الذمِّ، وهو: الثناء الحسن الجميل على الله تعالى بما هو أهله، من صفات الجمال والجلال والكمال.

الحمد على النِّعَم:

كما يُحمد على ما أسبغ من نعمه الظاهرة والباطنة، فهو حينئذ ثناء يتضمَّن معنى الشكر، ولهذا كثيرًا ما يُذكر بعد النعم، كما في حمد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وكما في حمد داود وسليمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]. وكما في حمد أهل الجنَّة بعد دخولهم إيَّاها، وقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقد وصف الله أهل الجنَّة بأنَّ آخر دعواهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي مادة (ر. ح. م).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكما في قول الله تعالى لنوح: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وغيرها، فهذه كلُّها حمدٌ على نعم، وهو شكر باللسان.

الحمد والشكر:

قال الراغب في «مفردات القرآن»: الحمد أعمُّ من الشُّكر، فكلُّ شكر حمد، وليس كلُّ حمد شكرًا(١).

فمن الحمد ما هو ثناء على الله، وليس شكرًا على نعمة.

قال ابن كثير: الشكر أعمُّ من ناحية أخرى، وهو أنَّه يكون بالقول والعمل والنيَّة، أمَّا الحمد فيختص باللسان(٢).

و«الحمد» يتضمَّن المدح ويتضمَّن الشكر معًا، فنحمد الله على نعمائه، ندخل من هذا باب الحياة المُشرِق.. باب الشعور بنعمة الله تبارك وتعالى، وما أكثر نعمَ الله تعالى علينا! ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

القرآن يُعلِّمنا أن نحمد الله على نعمائه الكثيرة:

وبهذا يُعَلِّمنا القرآن، وتُعَلِّمنا فاتحة الكتاب أن ننظر للحياة من جانبها المشرق الوضَّاء، وأن ننظر إلى نعم الله الَّتي تغمرنا، وألَّا ننظر إلى الحياة بمنظار أسودَ قاتم، إذا فعلنا ذلك فإننا سنحمد الله دائمًا، ونلهج بالحمد لله.

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة (ح. م. د).

(٢) تفسير ابن كثير (١٢٨/١)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. هكذا يقول الإنسان المسلم بلسانه معبِّرًا عمَّا في قلبه، معترفًا بنعمة الله تعالى عليه، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

هناك أناسٌ دائمًا، ينسون ما هو موجود، ويبحثون عن المفقود، يقولون: ينقصنا كذا وكذا، ولا يقولون: عندنا كذا وكذا! لكنَّ القرآن يُعَلِّمنا أن نحمد الله تبارك وتعالى.

كان النبيُّ ﷺ إذا أصاب ما يحبُّ قال: «**الحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصَّالحات**»، وإذا أصابه ما يكره قال: «**الحمد لله على كلِّ حال**»[(١)].

وكان من هديه ﷺ يختم كثيرًا من أعماله بالحمد الله، إذا أكل طعامًا قال: «**الحمد لله الَّذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين**»[(٢)].

وإذا شرب الماء العَذْب الفُرات قال: «**الحمد لله الَّذي جعله عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا**»[(٣)].

وإذا استيقظ من النوم قال: «**الحمد لله الَّذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور**»[(٤)].

---

(١) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣)، والحاكم في الدعاء (٤٩٩/١)، وصحَّح إسناده، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٥)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (١١٢٧٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأطعمة (٣٨٥٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٧)، وسكت عنه. وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٣٦)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه الطبراني في الدعاء (٨٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٧/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٧٩)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٠٢)، عن أبي جعفر مرسلًا.

(٤) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، عن حذيفة.

QaradawiBooks.com

وبعد قضاء الضرورة البشريَّة والخروج من الخلاء يقول: «**الحمد لله الَّذي أذهب عنِّي الأذى وعافاني**»(١).

وأمرنا إذا رأينا مبتلًى في جسمه أو حواسِّه أن نقول: «**الحمد لله الَّذي عافاني ممَّا ابتلاك به، وفضَّلني على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلًا**»(٢).

وإذا استقبلنا الصباح نقول: «**اللهمَّ ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك، لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر**» من قالها «**فقد أدَّى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدَّى شكر ليلته**»(٣).

وإذا أظَّلنا المَساء قلنا مثل ما قلنا في الصباح.

هكذا تُعلِّمنا سورة الفاتحة هذا الشعور الَّذي يجب أن يملأ قلوبنا، الشعور بنِعم الله، وفضله علينا، والَّذي يوجِّهنا إلى حمده وشكره جل وعلا ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١١]. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ليس في القرآن كله: «إنَّ الحمد لله»:

وأودُّ أن أنبِّه هنا على مسألة مهمة، وهي أنَّ القرآن في كل المواضع الَّتي ذكر فيها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ذكرها بدون حرف «إنَّ» الَّذي هو للتوكيد؛

(١) رواه النسائي في الكبرى (٩٨٢٥)، وابن السني (٢٢)، كلاهما في عمل اليوم والليلة، مرفوعًا. ورواه النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٩٨٢٧)، وابن أبي شيبة في الطهارات (١٠)، موقوفًا على أبي ذر. وحسَّن الموقوفَ ابنُ حجر في نتائج الأفكار (٢١٦/١).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٣٢)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. والبزار (٩١٠٦)، والطبراني في الدعاء (٧٩٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٧٣)، وابن حبان في الرقائق (٨٦١)، وقال شعيب الأرناؤوط: عبد الله بن عنبسة وثَّقه المؤلف، وروى عنه اثنان وباقي رجاله ثقات. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٣٠)، عن عبد الله بن غنام.

QaradawiBooks.com

لأن الصيغة وحدها كافية في التوكيد، لأنَّ «أل» في «الحمد» إمَّا للاستغراق أو للجنس، وفيه من العموم ما لا يحتاج إلى مؤكِّد آخر.

ولهذا أستغرب أنَّ كثيرًا من الخطباء والكتَّاب أصبحوا ملتزمين بافتتاح خطبهم أو كتبهم، بقولهم: «إنَّ الحمد لله» بناء على رواية وردت عند مسلم[1] بهذا! وكل الأحاديث بعد ذلك جاءت بدون «إنَّ» كما جاء القرآن، فكيف ندَع استعمال القرآن الكريم في آياته الكثيرة، وفي مختلف المواقف، مثل ما نقله عن إبراهيم وداود وسليمان عليهم السلام، ومثل قول أصحاب الجنَّة، ومثل أمره بصيغة «الحمد لله» كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقوله لنوح عليه السلام: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

فلعلَّ في هذه الأدلَّة الناصعة ما يقنع أولئك الَّذين يتردَّدون في إيثار النصوص القرآنيَّة والحديثيَّة الواضحة على دليل واحد غير بيِّن من الحديث.

معنى الربوبيَّة:

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ربوبيَّة الله للعالمين، أكَّدها القرآن من أوَّل آية بعد البسملة.

والرَّبُّ هو السيِّد والراعي والمربِّي، وإذا وصف به غير الله لا يكون إلَّا بالإضافة، فنقول: ربُّ البيت، ربُّ الدَّار، ربُّ الدَّابة، لكن إذا أطلق وعُرِّف فهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٨)، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له...**».

QaradawiBooks.com

الله ربُّ العالمين أجمعين، تقرأ التوراة تجد فيها ربَّ إسرائيل، ربَّ الجنود، أمَّا في الإسلام فهو ربُّ العالمين، ربُّ المشارق والمغارب وربُّ الجميع.

معنى العالَمين:

حينما نقرأ هنا قول الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. نجده لم يبيِّن لنا المراد بالعالَمين، ومن هم؟ ولكن نجد في سورة الشعراء بيان المراد بالعالَمين، في خطاب موسى لفرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]. فعرَفنا أن ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تشمل السماوات والأرض وما بينهما.

والعالمون لها معنيان:

المعنى الأوَّل: العوالم الَّتي يشتمل عليها هذا الكون الكبير، كما سأل فرعون موسى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨]، فهو ربُّ العالمين: بمعنى أنَّه ربُّ السماوات والأرض وما بينهما، ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين، وربُّ المشرق والمغرب، فهناك عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم البحار، وعالم الجبال، وعالم الأفلاك، وعالم الجنِّ، وعالم الملائكة، وغيرها من العوالم.

وكلُّ عالَم من هؤلاء ينقسم إلى عوالم، فعالم الحيوان مثلًا، ينقسم إلى: عالم الدوابِّ، وعالم السباع، وعالم الطير، وعالم الحشرات، وعالم الزواحف، وعالم الأحياء المائية إلى آخره.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأمَّا المعنى الثاني للعالَمين: فهو العقلاء والمُكلَّفون من الجنِّ والإنس، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. وقال تعالى عن القرآن: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]. وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

معنى الربوبيَّة:

لم تُبَيِّن سورة الفاتحة معنى الربوبيَّة، لكن جاء في سورة الأعلى بيان معناها، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٥]. فبيَّن أنَّ الربوبيَّة تعني الخلق، فالتسوية والتقدير، فالهداية، فهو ربُّ العوالم كلِّها، عالم الإنسان، عالم الحيوان، علم النبات، عالم الجماد، عالم الأفلاك، كلُّ هذه العوالم يربِّيها ويرعاها ويرقِّيها في درجة الكمال.

«ربُّ العالمين» تأكيد للنزعة العالميَّة في الإسلام:

بهذا أكَّد القرآن الكريم من أوَّل آية بعد البسملة: نزعته العالميَّة، ورفضه للعنصريَّة والقبليَّة والإقليميَّة، وكلِّ ألوان العصبيَّة.

وقد تكرَّرت كلمة «ربّ العالَمين» في القرآن (٣٤) مرَّة[1].

وما قرَّره القرآن في أوَّل آية في فاتحة القرآن، أكَّده في آخر الآيات في آخر سورة في القرآن، وهي سورة النَّاس، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٦].

---

(١) معجم ألفاظ القرآن مادة (ر. ب. ب).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد ناقش أحد المستشرقين الفرنسيِّين الأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقال له: أنتم أيُّها المسلمون تعتمدون في وصف الله على وصف العظمة والجبروت والقوَّة والشدَّة، ولا تصفونه بصفه الرحمة والمحبَّة، أمَّا نحن النَّصارى فنصف الله بأنَّه الإلٰه الأب، والأبوَّة كلُّها رحمة ومحبَّة خلاف الربوبيَّة.

وردَّ عليه الإمام مُحَمَّد عبده وبيَّن له أنَّ وصف القرآن لله بالربوبيَّة أعظم من وصفكم اللهَ بالأبوَّة.

أولًا: لأنَّ الأبوَّة وصف يوهم، وقد يوحي بأنَّه يلد ويولد، كما فهم المسيحيُّون من هذا بأن المسيح هو ابن الله حقيقة، وقالوا: المسيح ابن الله.. بينما لفظة «الربِّ» لا توحي بهذا.

وثانيًا: لأنَّ لفظة الأب توحي بالحاجة؛ لأنَّ الأب حينما ينجب أولاده يحتاج إليهم، والله غنيٌّ عن عباده، وأحيانًا لا يريد أولادًا لكن من أجل الشهوة، كما قال أبو العلاء المَعَرِّي:

هَـذَا جَنَـاهُ أَبِـي عَلَـيَّ وَمَـا جَنَيْـتُ عَلَـى أَحَدْ[1]

الله ربُّ العالمين كلِّهم، ليس ربَّ المسلمين وحدهم، ولا ربَّ العرب وحدهم، هو ربُّ العالمين، وكلُّ ما نرى في الكون من عناية ورعاية وإحكام، إنَّما هي آثار ربوبيته جلَّ وعلا، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١) وقد أوصى أن يكتب هذا البيت على قبره، انظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (٣٢/١٩) تحقيق محمد بركات وآخرين، نشر دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

تكرار «الحمد» في القرآن:

وكما جاءت هذه الجملة آية كاملة في أوَّل الفاتحة، جاءت جزءًا من آية في سياقات شتَّى في القرآن. كما في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وقال عن أهل الجنَّة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

كما تكرر «الحمد» في آيات أخر، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]. وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦]. وقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

هذه هي القاعدة الثانية من قواعد التوجيه للحياة الإسلاميَّة من الآية الثانية من الآيات السبع: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وهي: الاعتراف بالجميل لله ربِّ العالَمين.

القاعدة الثالثة: الرحمة الواسعة الدائمة:

ثم تأتي القاعدة الثالثة، من هذه الآية الثالثة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. وإعادة وتكرير هذين الاسمين الكريمين، مع ذكرهما في البسملة، زيادة في تقرير وتأكيد معنى: «الرحمة الواسعة»، المأخوذ من تكرير الرحمانية والرحمة، ولا يوصف بالرحمانية إلَّا الله تبارك وتعالى، ولِيعلم النَّاس أنَّ رحمته ﷻ تسبق غضبه، وأن رحمته وسعت كل شيء،

QaradawiBooks.com

فليست كرحمة النَّاس، فرحمة الله وسعت المسلم والكافر، والبر والفاجر، والإنسان والحيوان والطير، وسائر المخلوقات، ولتكون أبلغ رد على الَّذين يزعمون أن إلٰه المسلمين إلٰه جبار منتقم، واسم «الجبار» إنَّما ذُكر مرَّة واحدة في القرآن(١)، وهو جبار على الجبابرة، كما أنَّه ينتقم من البغاة المجرمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

لم يوصف الله ﷻ بأنَّه الغضوب، وإن كان يغضب على الظالمين والجبابرة، والمستكبرين والمعاندين والمتمردين من عباده على تعاليمه، المستعلين على خلقه، وإن كان يعذب وينتقم، فالعذاب من فعله وليس من صفته، والعذاب خاصٌّ، والرحمة عامَّة، ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فهو الرحمن الرحيم، وهو خير الراحمين، وهو أرحم الراحمين.

القاعدة الرابعة: الله وحده المالك ليوم الجزاء:

ثم تأتي القاعدة الرابعة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، و(مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) [الفاتحة: ٤]. قراءتان من القراءات السبع المتواترة(٢). ولم يبيِّن هنا المراد بيوم الدين، ولكن نجد في سورة التكوير بيان المراد بيوم الدين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩].

---

(١) في سورة الحشر، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

(٢) (ملك يوم الدين) قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وحمزة، أمَّا ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، فهي قراءة عاصم والكسائي. انظر: معاني القراءات للهروي (١٠٩/١)، نشر مركز البحوث في كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ط١، ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

فهو المالك وهو المَلِك في ذلك اليوم، يوم الدين، يوم الدينونة والجزاء، كما تدين تدان، لا يملك أحدٌ في هذا اليوم شيئًا، فهو وحده المتصرِّف في هذا اليوم، لا شركاء ولا شفعاء كما زعم المشركون، وكما زعم أهل الكتاب أن هناك آلهة أو أندادًا أو شركاء يشفعون لهم.

الله وحده هو المتصرِّف المالك المَلِك في هذا اليوم، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

الجمع بين الترغيب والترهيب:

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ترهيب، ذكر بعد الترغيب في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. جمع الله في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه؛ ليكون المؤمن دائمًا جامعًا بين الخوف والرجاء، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه.

تقرير قضيَّة المصير:

وهذه الآية تُقَرِّر أهم قضيَّة وأخطرها بالنسبة للإنسان، إنَّها قضيَّة المصير الأبدي، جنَّة أبدًا أو نار أبدًا، إنَّها ليست كما قال الدهريُّون ومنكرو البعث: أرحام تدفع، وأرض تبلع!

إنَّ الموت ليس نهاية المطاف، إنَّه رحلة إلى عالم آخر، فالناس لم يُخلَقوا لهذه الدُّنيا، وإنَّما خُلقوا للأبد، وإنَّما يُنقَلون بالموت من دار إلى دار.

وهكذا نجد القرآن الكريم من أوَّل سورة يذكِّر النَّاس بيوم الدِّين، يوم الجزاء والحساب، من يقرأ أسفار التوراة لا يكاد يجد فيها ذكرًا

QaradawiBooks.com

للآخرة ولا للحساب ولا للجزاء ولا للجنَّة والنَّار، ولكنَّ القرآن الكريم من أوَّل سورة يربط النَّاس بالجزاء والمصير.

لا شفاعة يوم الحساب إلَّا بإذن الله:

لا يشفع أحد في يوم الدِّين إلَّا بإذن الله، لا نبيٌّ ولا ملَك، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]. وقال تعالى عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقال في آية الكرسي: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أمَّا الأصنام الَّتي اتَّخذوها آلهة، وزعموا أنَّهم سيشفعون لهم عند الله، فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

القاعدة الخامسة: حقيقة التوحيد إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وهذه خلاصة الرسالات السماويَّة جميعًا، عقيدة التوحيد تُحَرِّر الإنسان من العبوديَّة لكلِّ ما سوى الله، من العبوديَّة للطبيعة، والعبوديَّة للحيوان، والعبوديَّة للجنِّ، والعبوديَّة للبشر، والعبوديَّة للحجر، والعبوديَّة لهوى النفس، والعبوديَّة لأيِّ طاغوت عبده النَّاس من دون الله.

إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة به وحده لا شريك له، فلا يُتوجَّه بالعبادة إلَّا إليه، ولا يستعان ـ خارج الأسباب المعتادة ـ إلَّا به سبحانه، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وإفراد الله ﷻ بالعبادة والاستعانة هي

QaradawiBooks.com

حقيقة التوحيد، فلا عبادة إلَّا له، ولا استعانة إلَّا به تبارك وتعالى، وفي الحديث الصحيح: «**استعنْ بالله، ولا تَعْجِز**»[1].

فلا يستحقُّ أن يُخاطب بتخصيص العبادة إلَّا هو، ولا يخصص بالاستعانة به إلَّا هو، والعبادة أن تجعل له غاية الخضوع والذلِّ، المقترن بغاية الحبِّ والولاء له، فالعبادة مركَّبة من عنصرين اثنين: منتهى الخضوع له، ممزوج بمنتهى الحب له سبحانه، فلو وُجد خضوع من غير حب، لم يكن عبادة، كما قد يخضع بعض الرعية لبعض الجبَّارين من الملوك والرؤساء، ويحنون لهم رؤوسهم، في غاية من الذل، ولا يعدُّون عابدين لهم؛ لأنَّهم لا يحبونهم، بل يبغضونهم ويلعنونهم في قرارة أنفسهم.

وقد يحب بعض النَّاس رجلًا أو امرأة، ويُنزل حبَّه في شغاف قلبه، ولا يعد عابدًا له؛ لأنَّه لا يخضع له غاية الخضوع.

تقرير توحيد الإلٰهيَّة وتوحيد الخالقيَّة:

وجملة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تمثِّل توحيد الإلٰهيَّة، أو توحيد العبادة، وجملة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تمثِّل توحيد الربوبيَّة، وأُفضِّل تسميته «توحيد الخالقيَّة»، ولا بد من التوحيدَيْن.

وقد يعترف النَّاس بتوحيد الخالقيَّة، ولا يعترفون بتوحيد العبادة، مثل عرب الجاهلية، الَّذين أقروا بأن الله رب كل شيء، ومع هذا عبدوا الأصنام، ليقرِّبوهم إلى الله زلفى، وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. والقرآن يأمر بتجريد التوحيدين جميعًا لله، كما قال تعالى:

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]. أي: لا نتوكَّل إلَّا عليك، ولا ننيب إلَّا إليك، كما قال شُعَيْب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وكما أَمر الله رسوله محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

لماذا قدَّم الله العبادة على الاستعانة؟

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قدَّم العبادة؛ لأنَّها الغاية، والاستعانة وسيلة إليها، وليس معنى **تخصيص** الله بالاستعانة الاستغناء عن الخلق جميعًا، بل هو يردُّ على الَّذين يستعينون بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، كالذين يستعينون بالأصنام والكهنة وأمثالهم.

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يردُّ على الجبريَّة الَّذين نفوا كلَّ قدرة أو إرادة للإنسان؛ لأنَّ الَّذي يستعين لا بدَّ أن يكون له جهد، ولكنَّه يحتاج إلى معونة غيره، ولهذا أمر الله المؤمنين أن يتعاونوا على البرِّ والتَّقوى.

إنَّما حقَّت الحاقَّة، ووقعت الواقعة، وبُعث الرسل، ونزلت الكتب، لإقامة التوحيد في الأرض، جاء كلُّ نبي وكلُّ رسولٍ يدعو قومه أوَّل ما يدعو: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وإنَّما فسدت الحياة، وفسدت الأديان قبل الإسلام، بدخول الشرك فيها، فلا بدَّ من إعلان التوحيد، وكلمة التوحيد.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، إبطالٌ لكلِّ الآلهة الزائفة، والأرباب المدَّعِين والمُدَّعَيْن في الأرض، فلا إلٰه إلَّا الله.

QaradawiBooks.com

الفاتحة جامعة معاني القرآن، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جامعة معاني الفاتحة:

قال الإمام ابن القيِّم في كتابه: «مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين»: «وسرُّ الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبوديَّة والتوحيد، حتَّى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصَّل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في إيَّاك نعبد وإياك نستعين.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الربِّ وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى، وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. ونصفهما لعبده، وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[1].

وكما قال شيخنا سماحة الشيخ مُحَمَّد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللَّهُ: «القرآن هو دستور الإسلام، والفاتحة هي دستور القرآن، فهي دستور الدُّستور. ولذلك امتنَّ الله بها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧]»[2].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، التفات بالخطاب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فبعد أن كان الحديث من بداية الصورة حديثًا عن غائب، أصبح حديثًا للمخاطب.

---

(١) مدارج السالكين (٩٥/١)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(٢) مقال: نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم، مجلة المجلة، العدد (٧)، ذو الحجة ١٣٧٦هـ ـ يولية ١٩٥٧م.

QaradawiBooks.com

من استحضر نعم الله تعالى واستحضر رحمانيته ورحمته، واستحضر مُلكه ومِلكه ليوم الدين والجزاء وقف بين يدي الله مستشعرًا عظمته ومستحضرًا رقابته وقربه منه إلى عباده أقرب من حبل الوريد، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أي: نخصُّك وحدك بالعبادة، ونخصُّك وحدك بالاستعانة، وهذه هي حقيقة التوحيد: أن تفرد الله ﷻ بالعبادة فلا تعبد إلَّا إيّاه، وبالاستعانة فلا تستعين إلَّا به. «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[1].

الله تعالى قد فتح بابه للجميع، فليس على بابه حاجب ولا بوَّاب يرد النَّاس عنه، ولا يجوز أن يقاس الله على خلقه ويُنتظَر الشفعاء والوسطاء. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذه هي حقيقة الدين، أن تصل إلى هذه المنزلة، منزلة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الإسلام دين جماعي:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جاءت الآية الكريمة بصيغة الجمع، «نعبد» و«نستعين»، ولم تجئ بصيغة المفرد «إيّاك أعبد، إيّاك أستعين»، وإن كان المسلم وحده لا أحد معه ينطقها بصيغة الجماعة، ويدعو ربه بصيغة الجماعة «اهدنا»، ليستشعر الجماعة أبدًا، وتكون في ضميره، وعلى لسانه، وبهذا يتربَّى المسلم على التفكير الجماعي، وعلى الشعور الجماعي، وعلى السلوك الجماعي، ويد الله مع الجماعة.

فالمسلم وإن كان في قعر بيته، خاليًا منفرِدًا، يستحضر الجماعةَ في ضميره ويخاطب اللهَ تعالى بلسان الجماعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾،

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده قوي. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

فالمسلم لا يعيش فردًا منعزلًا بشعوره عن إخوانه، فالجماعة حيَّة في وجدانه، حاضرة على لسانه.

والعبادة الَّتي هي صلة بين العبد وربِّه أبى الإسلام إلَّا أن يُضفي عليها روحًا جماعيَّة، وصبغة جماعيَّة، فدعا إلى صلاة الجماعة ورغَّب فيها، حتَّى جعلها أفضل من صلاة المسلم وحده، بسبع وعشرين درجة، وكلَّما كان عدد الجماعة أكبر، كان ثواب الله عليها أعظم، بل هَمَّ الرسول ﷺ أن يَحْرق على قوم بيوتهم، لتخلفهم عن الجماعة في المسجد[١]، ولم يرخص لأعمى يسمع الأذان أن يصلي في بيته ويترك صلاة الجماعة[٢]، وقال: «**لا صلاة لِفَرْدٍ خلف الصف**»[٣]، كراهية منه للشذوذ والانفراد، ولو في المظهر.

وإذا صلى المسلم منفردًا في خلوة لم تزل الجماعة في وجدانه وضميره، فهو إذا ناجى الله ناجاه بصيغة الجمع، وإذا دعاه دعاه باسم الجميع: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦].

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب، فيحطب، ثم آمر بالصلاة، فيؤذَّن لها، ثم آمر رجلًا فيؤمَّ الناسَ، ثم أخالف إلى رجال، فأحرق عليهم بيوتهم**». متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٤٤)، ومسلم في المساجد (٦٥١).

(٢) إشارة إلى حديث: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول الله، إنَّه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخِّص له، فيصلي في بيته، فرخَّص له، فلما ولَّى، دعاه، فقال: «**هل تسمع النداء بالصلاة؟**». قال: نعم. قال: «**فأجب**». رواه مسلم في المساجد (٦٥٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٦٢٩٧)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. وابن ماجه (١٠٠٣)، وابن خزيمة (١٥٦٩)، وابن حبان (٢٢٠٢)، ثلاثتهم في الصلاة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٩)، عن علي بن شيبان.

QaradawiBooks.com

فالمؤمن لا يشعر أنَّه في عزلة عن إخوانه المؤمنين، إنَّهم إن لم يكونوا معه في عمله أو مسجده أو داره يعيشون دائمًا في ضميره، ويَحْيَون في فكره ووجدانه، فإنَّ الإسلام لا يتصوَّر الإنسان فردًا منقطعًا في فلاة، أو منعزلًا في كهف أو دَيْر، بل يتصوره دائمًا في مجتمع، يتأثَّر به ويؤثِّر فيه. ويعطيه كما يأخذ منه، ولهذا خاطب الله بالتكاليف الجماعة المؤمنة لا الفرد المؤمن «يا أيُّها الَّذين آمنوا».

والمسلم إذا صلَّى وحده، فإنَّه يتمثَّل جماعة المسلمين في ضميره، ويناجي ربَّه إذا وقف بين يديه باسم الجماعة، فيقرأ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، فهو لا يسأل الهداية لنفسه، بل يسألها لنفسه وللجماعة معه: «اهدنا»، فالجماعة حيَّة في وجدانه، حاضرة على لسانه.

لهذا قلنا: إن مقتضى عناية الإسلام بالإنسان، العناية بالمجتمع كله، فالإنسان اجتماعي بالفطرة، أو مدني بطبعه، على حد تعبير القدماء.

القاعدة السادسة: الهداية أعظم ما يطلب العبد من ربه:

بعد الثناء على الله بما يستحقُّ من المحامد، وبعد مناجاته بما يستحقُّ من إفراده بالعبادة والاستعانة، جاء التوجُّه إلى الله بالدعاء، وكان التوجُّه بالدعاء هنا إلى طلب «الهداية» من الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، كما اشتملت الفاتحة على أعظم ما يطلب الربُّ من عبده وهو التوحيد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، اشتملت على أعظم ما يطلب العبد من ربِّه، وهو الهداية: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

أنواع الهداية:

والهداية هدايتان: هداية بيانيَّة معرفيَّة، وهداية عمليَّة توفيقيَّة، توصِّل المكلَّف إلى الحقِّ ليؤمن به، ويعمل بمقتضاه.

QaradawiBooks.com

أولًا: الهداية البيانيَّة:

وللهداية البيانيَّة الَّتي بمعنى بيان الحقِّ، والدلالة عليه: عدَّة مراتب:

المرتبة الأولى: الهداية الكليَّة العامَّة الَّتي بثَّها الله في الكون، وجعل لكلِّ شيء فيه حظَّه منها، حتَّى الأرض والجبال والمياه، والشمس والقمر والنجوم، وعالم الأفلاك على سعته، يُهدى إلى غايته الَّتي يُتم بها ما خُلِقَ له. وهي الَّتي أشار إليها القرآن على لسان سيِّدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

المرتبة الثانية: هداية الحواسِّ، مثل السمع والبصر والذوق والشمِّ واللمس، وهي الَّتي تهدي الإنسان في عالم المحسوسات، وهي الهداية الَّتي يشترك فيها الإنسان والحيوان والطير.

المرتبة الثالثة: هداية العقل، وهي فوق هداية الحِسِّ، وهي الَّتي تفضح غلط الحواسِّ، مثلما ترى العين الظل ساكنًا، وهو يتحرك ببطء، ومثلما ترى النجم صغيرًا، وهو أكبر من الأرض آلاف أو ملايين المرَّات. وهي ما يُدْرَك بالفؤاد أو القلب كما يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فالسمع والإبصار: للهداية الحِسِّيَّة، والأفئدة: للهداية القلبيَّة.

والمرتبة الرابعة: هداية الوحي، أو النبوَّة، وهي أعلى مراتب الهداية، وهذه تستدرك على العقل ما غلط فيه، كما استدرك العقل على الحواس، ثمَّ هي تمنح العقل المعرفة فيما لا سبيل إلى معرفته مثل: الإيمان بالغيب، وما يتضمنه من الإيمان بالله وصفاته، وواجبه على خلقه، والإيمان بالعالم غير المنظور، وعالم الآخرة والجزاء، ممَّا لا يدخل

QaradawiBooks.com

تحت دائرة المختبرات، ونحوها. ولا سبيل إلى معرفته إلَّا بالوحي، ولكنَّه ليس من المستحيلات عقلًا، بل هو جائز في نظر العقل، بل هو موافق للحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

فهذه المرتبة الرابعة والعليا من الهداية البيانيَّة، هي الَّتي تنكشف فيها الحقائق لبصائر المؤمنين، وهي الَّتي يسألها المؤمنون من ربهم.

ثانيًا: الهداية التوفيقيَّة:

ومع هذه الهداية البيانيَّة، هناك هداية أخرى، يسعى إليها كل من يحب الحقيقة، وهي التوفيق إلى نور هذه الهداية، واتباع طريقها، وهي الَّتي جاء بها قوله تعالى لرسوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وهي الَّتي يسألها المؤمنون من ربِّهم في سورة الفاتحة: أن يعرفوا الحقَّ ويتَّبعوه، وهي الَّتي وُصفت في القرآن بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ومعنى قوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ ـ مع أنَّ الَّذي يدعو قد هُدي إلى الإيمان ـ زدنا هدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. أو معناه: ثبِّتنا على هذه الهداية، وعلى نور الإيمان.

QaradawiBooks.com

ما الصراط المستقيم؟

والهداية المطلوبة إنَّمـــا هي إلى «الصراط المســـتقيم» وهو الطريق الَّذي لا ينحرف يَمنة ولا يَسرة، فالحق لا يتعدد، أمَّا الباطل فسُبُله كثيرة، على رأس كل سبيل منها شـــيطان يدعو إليه، كما جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، فقال: «**هذا سبيل الله**». ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شـــماله، ثمَّ قال: «**وهذه سُبُل، على كُلِّ سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه**». ثمَّ تلا: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣][(١)].

الصراط المستقيم هو أقرب طريق مُوَصِّل إلى الغاية المطلوبة، وهي رضوان الله تعالى ومثوبته، ودخول جنَّتـــه، والتنعُّم برؤيته، وهو صراط متميِّز، ليس كطريق المغضوب عليهم، ولا كطريق الضالِّين، من الأديان الأخرى، أو ممَّن لا دين لهم.

والطريق أو الصراط المستقيم، الَّذي لا إفراط فيه ولا تفريط، مستقيم لا يميل إلى يمين ولا إلى يســـار، وإنَّما هو طريق متوازن، طريق وسط، كهذه الأمة المتوازنة.

وهذا الصراط المستقيم هو الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [يـــس: ٦٠، ٦١]. فهو منهج الله الَّذي شرعه لعباده، وهو يتضمَّن العقائد الصحيحة، والعبادات الخالصة، والقيم الأخلاقيَّة.

---

(١) رواه أحمد (٤١٤٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٧٤)، وابن حبان في المقدمة (٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. والحاكم في التفسير (٢/٢٣٩)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

من مفسِّري السلف من قال: الصراط المستقيم هو: الإسلام[١]. ومنهم من قال: الصراط المستقيم هو: كتاب الله[٢]. ومنهم من قال: الصراط المستقيم هو: السُّنَّة والجماعة[٣]. وآخر قال: الصراط المستقيم هو: اتِّباع أبي بكر وعمر وباقي الخلفاء الراشدين[٤]. وليس هذا الاختلاف اختلاف تضادٍّ وتناقض، إنَّما هو اختلاف تنوُّع، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]، أي أن كل واحد يضرب مثلًا بما يرى أنَّ الشخص يحتاج إليه، فيقال لمن كان مفرطًا في اتِّباع السنة: الصراط المستقيم أن تتبع السُّنَّة. ويقال لمن يهمل شأن القرآن: الصراط المستقيم أن تتبَّع القرآن.. وهكذا.

إلى من يُنسب الصراط المستقيم؟

قد يُنسب هذا الطريق إلى الله تعالى، باعتباره هو الغاية، وباعتباره شارعه والهادي إليه، كما قال تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥]. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد يُنسب إلى مُحَمَّد ﷺ بوصفه الداعي إليه بإذن ربِّه، والهادي

(١) رواه الحاكم في التفسير (٤٤٦/٢)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه الحاكم في التفسير (٤٤٦/٢)، وسكت عنه، وصحَّحه الذهبي على شرطهما. عن عبد الله بن مسعود.

(٣) رواه البغوي في تفسيره عن سهل بن عبد الله (٧٦/١)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

(٤) القائل هو أبو العالية والحسن البصري، رواه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٥)، تحقيق محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

(٥) مجموع الفتاوى (٣٨١/١٣، ٣٨٢)، تحقيق عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

وقد ينسب هذا الطريق إلى المؤمنين، الَّذين سلكوا هذا الصِّراط المستقيم ويسلكونه إلى يوم الدين، كما هنا في الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

كيف يسأل المسلم الهداية وهو مهتدٍ؟

والإنسان في حاجة متجدِّدة إلى أن يهديَه الله الصراط المستقيم، وهذا الصراط هو الَّذي أقسم الشيطان اللعين أمام ربِّه: أنَّه سيقف بالمرصاد لبني آدم، ليضلهم عنه بكل وسائله، قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

ولقد اتَّخذ اللعين أسلحته، واستطاع بجنوده وأعوانه أن يغويَ أكثر الخلق. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

إذا كان النَّصارى يقولون في دعائهم اليومي: «خبزَنا كفافَنا أعطنا اليومَ»، يسألون الخبز والقوت، فإنّ الإسلام علَّم المسلمين أن يسألوا ما هو أعظم من الخبز والقوت، فهذا يُوفَّر للطير والحيوان، علَّمهم أن يسألوا الله الهداية إلى الصِّراط المستقيم، الَّذي دعا إليه مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]. يسألون ربهم كل يوم سبع عشرة مرَّة على الأقل ـ إذا صلينا الفرائض وحدها ـ أن يهديهم إلى الصراط المستقيم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

QaradawiBooks.com

من يستغني عن هداية الله؟ إنَّ المسلم دائمًا في حاجة إلى هداية الله، لئلا تلتبس عليه الطرق، وتختلف عليه الأمور، إنَّه في حاجة إلى نور في الظلمات، وفرقانٍ في المتشابهات، الله تعالى يقول في الحديث القدسي الَّذي رواه مسلم عن أبي ذر: «**يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته، فاستهدوني أهدكم**»[(١)]. ثمَّ هو في حاجة إلى زيادة الهداية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]. وهو كذلك في حاجة إلى أن يُثبِّته الله على هذه الهداية، فالقلوب كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ قلوب بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبُها كيف يشاء**»[(٢)]. وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعائه: «**يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك**»[(٣)].

القاعدة السابعة: انقسام النَّاس مع الصراط المستقيم إلى ثلاثة أقسام:

يتَّضح من الآية الكريمة الَّتي ختمت بها السورة، وهي قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، أنَّ النَّاس مع هذا الصراط ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: وهم المهتدون، وهم الَّذين أنعم الله عليهم، من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، كما بيَّنتهم سورة النساء[(٤)]. وهم الَّذين هداهم الله وعرفوا الحق وتبيَّن لهم، فميَّزوا بينه وبين الضلال والباطل، فسلكوه على بصيرة، وأصبحوا أهله علمًا وإيمانًا وعملًا ودعوة.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧).

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٤)، عن عمرو بن العاص.

(٣) رواه أحمد (١٢١٠٧)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. والترمذي في القدر (٢١٤٠)، وحسَّنه، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)، عن أنس.

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

QaradawiBooks.com

القسم الثاني: وهم المغضوب عليهم، وهم الَّذين عرفوا الحق ولكنَّهم لم يتَّبعوه، بل عاندوه، وشاقُّوا الرسول من بعدِ ما تبيَّن لهم الهدى، ركونًا إلى التقليد، أو حبِّ الدُّنيا، أو اتِّباع الهوى، أو العصبيَّة العمياء، أو الكبْر، أو الحسد، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فاستحقُّوا غضب الله، وهم اليهود، الَّذين جاء بيانهم في سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

القسم الثالث: وهم الَّذين عميت بصائرهم، فلم يميِّزوا بين حقٍّ وباطل، وهدًى وضلالة، ولم يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث وراء الحقيقة، فعاشوا وماتوا ضالِّين، بعيدين عن الحقِّ، فاستحقوا أن يوصفوا بالضلالة، وهم النَّصارى الَّذين جاء فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. وقال في أمثالهم من المشركين: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقد جمع الله هذه الأصناف الثلاثة في هذه الآية الأخيرة من الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

طريق المسلم طريق متميّز:

الإسلام حرص بتشريعاته وتوجيهاته على أن تظلَّ الشخصيَّة المسلمة مستقلَّة متميِّزة في مَخْبرها وفي مَظْهرها، حتَّى لا يسهل ذوبانها في غيرها، وبالتالي تفقد خصائصها ومشخِّصاتها، وهذا معنى هذا الدعاء اليومي المتكرر للمسلم في صلاته، سبع عشر مرَّة على الأقل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

QaradawiBooks.com

وفي هذا ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه القيم: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم».

الصراط المستقيم طريق متميِّز، ليس هو طريقَ اليهود الَّذين غضب الله عليهم، ولا طريق النَّصارى الَّذين ضلُّوا عن الحقِّ، ليس طريق الَّذين عرفوا الحقَّ ولم يتَّبعوه، ولا طريق الَّذين تاهوا عن الحقِّ فلم يسلكوه، إنَّه طريق الَّذين أنعمَ الله عليهم من النَّبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، هذا هو الطريق المتميِّز، طريق الحق، طريق الله، طريق المؤمنين، المسلم يدعو ربَّه في كلِّ يوم أن يهديه ويوفِّقه ويثبِّته على هذا الطريق المستقيم، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]. لم يبيِّن هنا من هم المُنعَم عليهم، لكن جاء البيان في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وصدق من لا ينطق عن الهوى حين قال: «**لتتَّبعُنَّ سَنَن من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتَّى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لدخلتموه**». قالوا: اليهودُ والنَّصارى؟ قال: «**فمن؟**»[(١)]. وفي بعض الروايات: التعبير بـ «فارس والروم»[(٢)] بدل اليهود والنَّصارى.

والحديث ينكر على الأمة أن تفقد هُويتها وأصالتها، إلى حدٍّ تغدو فيه ذيلًا تابعًا للآخرين من أصحاب الديانات السابقة، أو أصحاب الحضارات السائدة.

و«جُحْر الضبِّ» يُضرب مثلًا لهذا النوع من الاتِّباع الأعمى، فجُحْر

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري.
(٢) رواه البخاري في الاعتصام (٧٣١٩)، وأحمد (٨٣٠٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الضَّبِّ يُعتبَر أسوأ صورة للالتواء والضيق والظلمة وسوء الرائحة، ومع هذا لو دخل أولئك «المقلَّدون» هذا الجُحْر الكريه، لدخله وراءهم المقلِّدون، وبتعبير عصرنا: تظهر «مودة» جديدة جذابة تعلن عنها الصحافة والإذاعة والتلفاز، تُسمَّى: «مُودَة جُحْر الضَّبِّ»!

اليهود والنَّصارى بين الإفراط والتفريط:

في كثير من القضايا نجد اليهود والنَّصارى يمثِّلون جانبي الإفراط والتفريط، فاليهود قتلوا الأنبياء، والنَّصارى ألَّهُوْهم، اليهود أسرفوا في التحريم، والنَّصارى أسرفوا في التحليل، حتَّى قالوا: كل شيءٍ طيبٌ للطيبين[1]. اليهود غَلَوا في الجانب المادي، والنَّصارى قصَّروا فيه. اليهود تطرَّفوا في اعتبار الرسوم في الشعائر والتعبُّدات، والنَّصارى تطرَّفوا في إلغائها.

وإنَّما اعتبر اليهود مغضوبًا عليهم لِمَا اقترفوا من مُوبقات، حتَّى إنَّهم تطاولوا على الله وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. واعتدوا على الأنبياء، فكذَّبوا منهم من كذَّبوا، وقتلوا منهم من قتلوا. وأمَّا النَّصارى فإنَّهم تاهوا عن الحقِّ، وشَرَدوا عنه فيما اقتبسوه من وثنيَّة الرومان وغيرها، فلهذا اعتبرهم ضالين. والإسلام يُعلِّم المسلم أن يحذر من تطرُّف كلا الفريقين، وأن يلتزم المنهج الوسط، أو الصِّراط المستقيم، الَّذي سار عليه كل مَنْ رضي الله عنهم وأنعم عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

هذه هي الفاتحة، فاتحة الكتاب الَّتي يحفظها المسلمون كلهم، صغيرهم وكبيرهم، رجالهم ونساؤهم، عربهم وعجمهم؛ لأنَّهم يقرؤونها

(١) رسالة بولس لتيطس (١٥/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

في صلواتهم، و«**لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[١]. إنَّها تمثِّل هذه القواعد للحياة الإسلاميَّة، يفتح المسلم الصفحة الأولى من القرآن، فيجد هذه السورة العظيمة الَّتي لم يوجد مثلها في كتاب من كُتُب الله ﷻ.

كلمة «آمين» ليست من الفاتحة:

وكلمة «آمين» ليست من الفاتحة بالإجماع، وهي تعني: اللهمَّ استجبْ، ويُستحبُّ للإمام أن يمدَّ بها صوته بعد قراءة الفاتحة، ويقولها المأموم والمنفرد كذلك، لقول النبيِّ ﷺ: «**إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا**»[٢]. وقوله: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين. فإنَّه من وافق قوله قول الملائكة، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه**»[٣].

ومن فضل التأمين قوله ﷺ: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فإنَّه إذا وافق كلامَ الملائكة غُفِرَ لمن في المسجد**»[٤].

وقال البخاري: قال عطاء: «آمين» دعاء، وأمَّن ابن الزبير ومَن وراءه، حتَّى إنَّ للمسجد لَلَجَّةً[٥]. وكان أبو هُرَيْرة ينادي الإمام: لا تَفُتْنِي بآمين (أي: لا تسبقْني). وقال نافع: كان ابن عمر لا يدعُه، ويحضُّهم عليه[٦].

نسأل الله ﷻ أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الَّذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وأن يجنِّبنا صراط المغضوب عليهم والضالِّين.. آمين.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٥٦)، ومسلم في الصلاة (٣٩٤)، عن عبادة بن الصامت.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠)، كلاهما في الصلاة، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٩٦)، ومسلم في الصلاة (٤٠٩)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (٩٦٨٢)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. عن أبي هريرة.

(٥) اللَّجَّة: ارتفاع الأصوات واختلاطها.

(٦) صحيح البخاري (١٥٦/١).

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير
سورة البقرة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الدرس الأوَّل

﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾

فضل سورة البقرة:

سورة البقرة أطول سورة في القرآن الكريم، وفيها أطول آية في كتاب الله: آيــة المداينة[١]، وفيها ســيِّدة آيِ القرآن: آية الكرســيِّ[٢]، وفيها من العقائد والعبادات والمعاملات والتشريع والقصص والمواعظ ما لا يوجد في أيّ سورة أخرى.

وقد اشتملت على كثير من الأحكام: أحكام الصيام، وأحكام الحج، وأحكام الصلاة، وأحكام الزكاة، وأحكام الجهاد، وأحكام الربا، وأحكام الديون، وأحكام الأســرة من زواج وطلاق ورضــاع.. إلى آخره. ولهذا عظَّم الرسول ﷺ شأنها، وكان يعظِّم من يحفظها من الصحابة، حتَّى قال أحدهم يومًا: معي سورة البقرة. فقال: «**معك ســورة البقرة؟**» قال: نعم. قال: «**اذهبْ فأنت أميرُهم**»[٣].

---

(١) وهي الآية (٢٨٢) من سورة البقرة.

(٢) وهي الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

(٣) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٦)، وحسَّنه، وابن ماجه في المقدمة (٢١٧) مختصرًا، وابن خزيمة في الإمامة في الصلاة (١٥٠٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٤١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هذه السورة الَّتي وصفها النبيُّ ﷺ بأنَّ أخْذَها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلة[١]. أي: السحرة.

وسمَّاها ابن مسعود رضي الله عنه: «سَنام القرآن»، فقال: لكلِّ شيء سَنام، وسَنام القرآن سورة البقرة[٢].

الحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾:

سورة البقرة سورة مدنيَّة، وهي أوَّل السور الَّتي بدأت بالأحرف المقطعة «الم»، وهذه حروف أو كلمات عجيبة، تطرق سمع العرب لأول مرَّة، لا يعرفون لها معنى. إنَّها بداية عجيبة لم تعهدها العرب، حينما نزل عليهم القرآن، لم يعهدوا أن تُقرأ عليهم الحروف بهذه الطريقة العجيبة، «الم»، أو «الر»، أو «طسم»، أو «المص»، أو «كهيعص»، أو «حم عسق»، أو «طه»، أو «طس»، أو «ص»، أو «ق»، مقدِّمة غريبة، تثير السامع، وتنبِّهه وتجذبه، وتلفت انتباهه ونظره.

وبعض السور بدأت بحرف واحد مثل: «ص»، و«ق»، و«ن»، وبعضها بدأت بحرفين مثل: «طه»، و«يس»، و«طس»، وبعضها بدأت بثلاثة أحرف، مثل: «الم»، و«الر»، و«طسم»، وبعضها بدأت بأربعة أحرف، مثل: «المص»، و«المر»، وبعضها بدأت بخمسة أحرف، مثل: «كهيعص»، و«حم عسق»، هذه كلُّها حروف مقطعة بُدئتْ بها بعض سور القرآن الكريم.

---

(١) عن أبي أُمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**». رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٤٦).

(٢) رواه الحاكم في فضائل القرآن (٥٦١/١)، وقال: صحيح الإسناد، وقد روي مرفوعًا بمثل هذا الإسناد... فذكره.

QaradawiBooks.com

﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ ليسا من أسماء النبيِّ ﷺ:

وأحبُّ أن أُنبّه هنا أن «طه» و«يس» ليسا من أسماء النبيِّ ﷺ، كما يظنُّ النَّاس، وإنَّما هما مثل «حم» و«طس»، النَّاس تسمَّوا بـ «يس» و«طه»، ظنًّا منهم أنَّهما من أسماء النبيِّ ﷺ، والحقيقة أنَّ «طه» و«يس» مثل «طس» و«حم» تمامًا، لا فرق بينهما، هي أحرف مقطَّعة بدأت بها بعض السور.

أقوال المفسرين في معنى الأحرف المقطعة:

هذه الأحرف ـ كما نعلم ـ اختلف المفسرون في معناها، فبعضهم قال: هذه الأحرف من المتشابه، والمتشابه لا يعلمه إلَّا الله.

وبعضهم قال: لكلِّ كتابٍ سرٌّ، وسرُّ القرآن في هذه الحروف في أوائل السور، ولذلك، كثيرًا ما نقرأ في بعض التفاسير قولهم: «الم» «الله أعلم بمراده»[1]. ولذلك لم يبحثوا عنها.

وبعضهم قال: لا شيء في القرآن غير معلوم، فقد سمَّاه الله كتابًا مبينًا، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]. ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]. ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]. ولا ينزل الله شيئًا غير مفهوم.

ثمَّ اختلفوا في بيان المراد منها، فقال بعضهم: هي أسماء للسور.

لكنَّك تجد في القرآن ستِّ سور ـ مثلًا ـ تبدأ بـ «الم»، البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة. فهل كلها تحمل نفس الاسم؟!

(١) انظر: تفسير الجلالين صـ ٣، نشر دار الحديث، القاهرة، ط١.

QaradawiBooks.com

ولكنَّ المحقِّقين من العلماء على أنَّها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، أنَّ هذا القرآن أعجز العرب أن يأتوا بحديث مثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، أو بسورة من مثله، وغُلبوا وانقطعوا، وحق عليهم قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. فهذا القرآن الَّذي أعجزكم معشر العرب مؤلَّف من هذه الحروف الَّتي تكوّنون منها كلامكم، لم يجئ بأحرف من لغة أجنبية أخرى، هذا هو أشهر الأقوال، وهو القول الَّذي انتهى إليه كثير من العلماء في تفسير هذه الأحرف.

ومما يُقوِّي هذا الرأي أنَّ السور المبدوءة بالأحرف المقطعة غالبا ما يأتي بعدها ذكر القرآن، كما هنا في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]. وكما في سورة يونس: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يونس: ١]. وفي سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. وفي سورة يوسف: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١]. وفي سورة الرعد: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]. وغيرها من السور الَّتي بدأت بالأحرف المقطعة.

الحروف المقطعة إشارة إلى الإعجاز القرآني:

هذا القرآن تحدَّى العرب أن يأتوا بمثله، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]. فلم يستطيعوا، فتنزَّل معهم، إلى أن طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

QaradawiBooks.com

فعجزوا، فتحدَّاهم بأن يأتوا بسورة من مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. ادعوا أعوانكم وأنصاركم وشركاءكم، وكل من تريدون، إن كنتم صادقين، فعجزوا ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، حتَّى بأقصر سورة في القرآن، الكوثر، أو الإخلاص، أو العصر.. لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها، مع أنَّ القرآن من الحروف نفسها الَّتي ينطقون بها، ويكوِّنون منها كلامهم المعتاد، فحق عليهم قول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

إذن القرآن كلام الله، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ولن يستطيع المخلوق أن يضاهي الخالق، فكانت هذه الأحرف إشارة إلى الإعجاز القرآني.

رأيي الَّذي أطمئنُّ إليه في معنى الحروف المقطعة:

والَّذي تطمئنُّ إليه النَّفْس: أنَّ لفواتح هذه السور معنى تدلُّ عليه، هذه الحروف نطق بها رسول أمِّيٌّ لا يعرف معنى «ألف لام ميم»؛ وهذه الحروف لا ينطق أسماءها إلَّا من يقرأ ويكتب، ولكن الله علَّمه أن ينطق بها، هذه الأحرف منها تكوّن القرآن العظيم، الَّذي أعجز العرب أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورةٍ مثله، من هذه الأحرف كان هذا القرآن، من الألف، واللام، والميم، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والصاد، والحاء، والقاف.. إلى آخر ما جاء في أوائل السور الَّتي بدأت بالأحرف المقطَّعة.

QaradawiBooks.com

الحروف المقطعة سِرٌّ من أسرار الله:

ولكن يبقى إشكال وهو: لماذا خصَّ الله هذه السورة بـ «الم»، وغيرها بـ «طسم»، وثالثة بـ «حم»، ورابعة بـ «المر» وخامسة بـ «ص».. وهكذا؟ ولماذا ذكرت هذه الأحرف دون غيرها؟! في هذه السور دون غيرها؟!

يبقى العقل البشري حائرًا أمام تفسير ذلك، فهناك سر لا يعلمه إلَّا الله ﷻ، والأحرف المقطعة مهما حاولنا تفسيرها سر من أسرار الله تبارك وتعالى.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى هذا القرآن الَّذي يتلوه محمد. ويقول علماء اللغة: «ذلك» اسم إشارة إلى البعيد، والبُعد تارة يكون بُعدًا ماديًّا، وتارة يكون بُعدًا معنويًّا، فهل القرآن بعيد؟ نعم هو بعيد المنزلة، رفيع المقام، رفيع المستوى، فالبُعد هنا بُعد معنوي، بُعد المقام وعلو المنزلة، ذلك الكتاب العالي المرتفع الَّذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الكتاب هو القرآن، وهو الفرقان، وهو الذكر:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ هو: القرآن، هذا الَّذي أنزل على مُحَمَّد ﷺ، يُسمَّى كتابًا؛ لأنَّه يُكتب، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]. ويسمى قرآنًا لأنَّه يُقرأ، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]. فالكتاب هو القرآن.

وهو أيضًا: الذكر؛ لأنَّه يُذكِّر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ولكن ممَّا أتتنا به الأيام، والأيام تأتي بالعجائب، أن ظهر مهندس

QaradawiBooks.com

في سـوريا، اعتبره الآن بعض التافهين علَّامة العصر، عمل كتابًا اسمه: «الكتاب والقرآن»[١]، يقول فيه: إنَّ القرآن شيء، والكتاب شيء، والذكر شيء، والفرقان شيء؛ لأن اللغة العربيَّة ليس فيها لفظة ترادف لفظة.

والترادف وعدمه أمر خلافي، والعجيب أنَّه بنى كتابه على هذا الأمر الخلافي، ولو أنَّنا سلمنا بذلك، وقلنا: إنَّه لا ترادف بين ألفاظ اللغة. فإن «الماصـدق» واحد، فعلماء المنطـق يقولون: هنـاك «المفهوم»، وهناك «الماصدق»، فقد يختلف المفهوم، والَّذي يصدق عليه هذا المفهوم وهذا المفهوم شيء واحد. مثلًا: «الحسام»: هو اسم من أسماء السيف، واسمه السيف، والبتَّار، والمهنَّد.. وغيرها، وكل اسم من هذه الأسماء له معنى، فالمُهنَّد: من الهند. والبتار: القاطع إلخ، هـذه مفاهيم، والـ «ما صدق» ـ أي الشيء الَّذي تصدق عليه ـ شيء واحد.

نقول: الشـيخ، العالـم، الداعية، العلَّامـة، كلُّها مفاهيـم مختلفة، وتصدُق على شـخص واحد، يتصف بهذه الصفات، فالأوصاف متعددة والموصوف واحد، فلا دخل لقضيَّة الترادف بين الألفاظ هنا.

هذا الشـخص يرى أنَّ الكتاب ليس هو القـرآنَ، والفرقان ليس هو القرآن، ويضحك على النَّاس ببعض الدعاوى.

والذي يتدبَّر القرآن يجد أنَّه عُبِّر في سياق واحد عن هذا المنزل على سـيد الخلق ﷺ بالذكر وبالكتاب وبالقرآن، ففي سورة فصلت يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

(١) محمد شحرور.

QaradawiBooks.com

هذا المتعالم يقول: الذكر شيء، والكتاب شيء، والفرقان شيء، والقرآن شيء، وهذا غير صحيح، فالآية الأولى قالت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]. فسماه ذكرًا، ثمَّ قال في الآية نفسها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ فسماه كتابًا، ثمَّ قال القرآن بعد ذلك في السياق نفسه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، فسمَّاه قرآنًا.

فالقرآن هو الذكر، وهو الكتاب، وهو القرآن، وهو الفرقان، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والعجيب ـ أيُّها الإخوة ـ أنَّ هذه الكتب تطبع طبعات جميلة، وغالية جدًّا، وتباع رخيصة جدًّا، وتُهدى للنَّاس بالمئات، والسؤال: مَن وراء هذا؟ ومن يروِّج لهذه البضاعة المسمومة والملوثة؟ إنَّها قوى معادية للإسلام.

فالكتاب هو هذا القرآن.

القرآن مقطوع بأنَّه من عند الله:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾، ليس فيه أدنى شك، كل الدلائل قد قامت على صدقه، وأنَّه من عند الله ﷻ، ألفاظه ومعانيه ونظمه، إنباؤه بالغيب، وما احتوى من هداية وتشريع، كل هذا يدل على أنَّه من عند الله، لا ريب فيه، لا يعتريه الشك، فهو مقطوع بأنَّه من عند الله، كل الدلائل تدل على أنَّه شيء متميِّز، نحن عندنا أحاديث الرسول ﷺ، وعندنا القرآن، اقرأ القرآن، واقرأ الأحاديث، يتميَّز لك كلام الله من كلام النبيِّ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حكى الشهيد سيِّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه كان في إحدى البلاد الأجنبية، وكان يلقي حديثًا، وكانت إحدى السيِّدات تستمع إليه، لا أدري هل هي إنجليزيَّة أم تتحدث بلغة أخرى، فقالت له بعد أن أنهى حديثه: أنت تقول كلامًا، وفي أثناء حديثك أسمع كلامًا له وقع خاصٌّ، وله تأثير خاصٌّ، ما هذا الكلام؟ قال لها: هذه آيات القرآن[1]. حيث كان يستشهد في خلال حديثه بآيات القرآن الكريم، المرأة الَّتي لا تعرف العربيَّة ميَّزت بين كلام البشر وكلام الله، وأحسَّت أنَّ هذا الكلام غير هذا الكلام.

من تأثير القرآن على المرضى وغيرهم:

حتَّى في أمريكا هناك مستشفى اسمها: «مستشفى أكبر»، يشرف عليها أخونا الطبيب الكبير الدكتور أحمد القاضي، أتم الله عليه العافية وشفاه، أَرادوا أن يجروا تجربة على عدد من المرضى تبين تأثير القرآن عليهم، بلغة العصر، بالكمبيوتر، يقيسون تأثيره على النبض وعلى العروق وعلى الدم وعلى التنفس، وأجروا التجربة على عدد من المرضى، فيهم عرب مسلمون، ومسلمون لا يفهمون العربيَّة، ومن ليسوا عربًا ولا مسلمين، وأسمعوهم القرآن، فوجدوا تأثير القرآن ـ حتَّى على غير العرب وغير المسلمين، ممَّن لا يفهمون القرآن ـ تأثيرًا إيجابيًّا، يستمع أحدهم للقرآن فتحدث له راحة وسكينة وانسجام، يدلُّ على ذلك النبضات والتنفُّس ودلائل أخرى.

هذا الكتاب العظيم، كلُّ الدلائل تدلُّ على أنَّه لا ريب فيه، ولذلك استمع إليه المشركون، كانوا يذهبون يستمعون لقراءة النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في

(١) للأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام رائع في كتابه: التصوير الفني في القرآن صـ ١١ ـ ٢٣، نشر ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، تحدَّث فيه عن القرآن وسحره لقلوب المشركين وشغف أفئدتهم به، وقد كتب الشيخ ذلك تحت عنوان: سحر القرآن، ومنبع السحر في القرآن، فليراجع.

QaradawiBooks.com

خلسة، هم يستشعرون حلاوة القرآن؛ لأنَّهم بلغاء، ويعرفون معنى البلاغة، ومعنى الإعجاز البياني، فكان يتسلل بعضهم من وراء بعض، ولكن في أثناء عودتهم يلتقون، فيكشف بعضهم بعضًا، ثمَّ يتفقون ألَّا يخبر أحدهم النَّاس بما حدث منهم من سماعهم للقرآن، ويتعاهدون ألَّا يستمع أحد منهم مرَّة ثانية للقرآن، ويعاودون الكرة فيستمعون، وهكذا.

ولذلك كانوا يحاولون التشويش على القرآن، حتَّى لا يسمعه الشباب والأولاد الصغار والنساء، فيتأثروا به، وهذا ما ذكره القرآن عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. حتَّى إنَّ الوليد بن المغيرة، أحد كبار المشركين من قريش، استمع إلى القرآن، فقال: والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أصله لمُورِق، وأعلاه لمُثْمِر، وما هو بقول بشر!

يعني هذا كلام مُتَفَرِّد، قالوا له: فما نقول فيه؟ فقال: قولوا: ساحرٌ يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته[(١)].

وقد وصفت آيات القرآن تحيره في وصف القرآن، قال تعالى[(٢)]: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ۝ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٩][(٣)].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٦٥/١٠)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

(٢) أي الوليد بن المغيرة.

(٣) انظر: المصدر السابق (٧٤/١٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حفظ الله للقرآن الكريم:

هذا القرآن كلام الله، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، لا ريب في ثبوت لفظه من عند الله، لا ريب في منع التحريف عنه أربعة عشر قرنًا أو تزيد، مرت وهو كما هو، لم يستطع أحد أن يزيد فيه، ولا أن ينقص منه، هناك عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف من المسلمين بل ملايين[1] يحفظون القرآن، من صبيان المسلمين، من يستطيع أن يزيد في هذا الكلام أو ينقص منه؟

أحد الصبية كان يقرأ في الكُتَّاب في سورة آل عمران، فقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فقرأ الصبيُّ: وما مُحَمَّد ﷺ إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل. فإذا بالتلاميذ زملائه يصيحون في وجهه قائلين له: كيف تزيد من عند نفسك على ما في المصحف؟! ليس في المصحف كلمة: «صلى الله عليه وسلم»، من أين جئت بها؟ وهؤلاء أطفال صغار، فكيف بكبار الحُفَّاظ؟!

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾ تقولها كما هي دون زيادة، فأعاد الآية دون أن يذكر فيها كلمة: «صلى الله عليه وسلم»، قرأها كما أنزلت على رسول الله ﷺ، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فالأطفال المسلمون الَّذين يحفظون القرآن لم يسمحوا بزيادة كلمات في القرآن بمجرَّد سماعهم للآية، فالقرآنُ كتاب محفوظ لا يعتريه الريب، لا ريب في ثبوته عن الله، لا ريب في أنَّه كلام الله.

---

(١) في إحدى الزيارات إلى ليبيا، قالوا لي: عندنا مليون حافظ الآن، وبدأنا من سنوات في المليون الثاني. قلت: أنتم تبالغون! قالوا: لا والله، هذه حقيقة، فكل فرد له عنوانه، وله مكافآته، ويدعى في المناسبات.

QaradawiBooks.com

وقد قال الإمام الرازي: «إنَّ الشيخ المهيب لو اتَّفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان: أخطأت أيُّها الشيخ، وصوابه كذا وكذا»[1].

الوقف الَّذي أستريح إليه:

ولذلك الوقف الصحيح الَّذي أختاره أن نقف عند قول الله: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾؛ لأن بعض القُرَّاء يقفون عند قول الله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ﴾، ثمَّ يقرؤون: ﴿فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وأنا لا أستريح لهذا الوقف؛ لأنَّه ضيَّع معنى كبيرًا، ضيَّع أن يكون القرآن لا ريب فيه، وقلَّل من الهدى الَّذي في القرآن، فبعد أن كان القرآن كله هدى للمتقين، صار ـ بهذا الوقف ـ فيه هدى، يحوي شيئًا من الهدى.

ما أعظم الفرق بين قوله: ﴿فِيهِۛ هُدًى﴾، وبيَّن أنَّه هدى، أي هو نفسه هدى، كما قال القرآن في آيات أخرى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولذلك الوقف الصحيح الَّذي أستريح إليه أن أقف على قوله: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾، ثمّ أبدأ بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فهذا أبلغ من أن يقرأ: ﴿فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أنتم النَّاس أيُّها الأتقياء:

وفي الآية الأخرى من سورة البقرة أيضًا قال الله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وهنا قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الَّذين

(١) تفسير الرازي (١٢٣/١٩)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

ينتفعون بهدى القرآن هم المتَّقون، وكأنَّ القرآن يشير إلى أنَّ النَّاس هم المتَّقون، وأنَّ ما عداهم ليسوا من النَّاس، من ليس من أهل التَّقوى، فليس من النَّاس، لا يستحقُّ أن ينسب إلى البشر، فالفجَّار ليسوا ناسًا، انسُبهم إلى الحيوانات، إلى الجمادات، إلى البهائم، لكنهم ليسوا ناسًا، النَّاس الَّذين لا ينتفعون بهذا الهدى وهذا النور هم ليسوا بناس، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. ولهذا حينما يقول الله عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، كأنَّه يقول: أنتم النَّاس أيُّها الأتقياء.

شوقي يقول:

أنتم النَّاس أيُّها الشُّعَرَاءُ[1]

وأنا أقول: أنتم النَّاسُ أيُّها الأتقياء.

الأتقياء هم الَّذين ينتفعون بالقرآن:

وذلك لأنَّ المتَّقين هم الَّذين ينتفعون بهذا القرآن، فليس كل النَّاس ينتفعون بالقرآن، وإنَّما ينتفع به أهل التَّقوى، تنتفع عقولهم به، وتستضيء قلوبهم بهذا القرآن، وتتحرك عزائمهم بهذا القرآن، فهم يتأمَّلون ويتدبَّرون في هذا القرآن، ويغوصون في بحاره، ويحصلون على كنوزه ولآلئه، وما فيه من جواهر الحِكَم، وجوامع الكَلِم، وأسرار التشريع، وأسرار الكون، وما فيه من حقائق.

(١) في قصيدته: خدعوها بقولهم حسناء. انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١١٢/٢)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

مفهوم التَّقوى وثمراتها:

اعتدنا في كلِّ رمضان أن نقف وقفات مع آيات من كتاب الله ﷻ، نتَّخذ منها الزاد، ونلتمس فيها النور والعبرة، فهذا القرآن فيه عبرة لأولي الألباب، وفيه شفاء للمؤمنين، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

نقف أيُّها الإخوة في هذه الليلة وقفةً مع آيات المتَّقين في أوائل سورة البقرة، فالله ﷻ في مطلع سورة البقرة وصف المتَّقين في ثلاث آيات، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥].

وقد قلنا في درسنا السابق، في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]: الله تعالى أنزل هذا القرآن هدى للناس. كما قال في موضع آخر في نفس السورة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وهنا قال:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وهذا ليدلَّ على أنَّ الَّذين ينتفعون بهداه هم المُتَّقون، والمُتَّقون هم النَّاس.

معنى التَّقوى:

ولكن ما التَّقوى؟ التَّقوى: أن تجعل بينك وبين ما تخافه من الله وقاية تقيك. وما الَّذي يخافه الإنسان من الله؟ يخاف غضبه وسخطه ونقمته وعذابه، فاجعل بينك وبين غضب الله وسخطه وقاية.

ولن تكون هذه الوقاية إلَّا بامتثال أمره واجتناب نهيه، إلَّا بفعل الطاعات وترك المحرمات، فمن فعل الطاعة، واجتنب المحظور، فقد اتقى الله، واتقى سخط الله، واجتنب عذاب الله.

التَّقوى أساسها القلب:

وأصل التَّقوى في القلب، النبي ﷺ أشار إلى صدره الشريف وقال: «**التَّقوى هاهنا، التَّقوى هاهنا، التَّقوى هاهنا**»[1].

أي التَّقوى ليست مظهرًا يخدع، وليست كلمات يلوكها الإنسان، وليست ثيابًا مرقَّعة، وليست مسبحة باليد، وليست طأطأة للرأس، ولا همهمة بالقرآن من غير عمل، ليس هذا كله هو التَّقوى. فكم من النَّاس يفعل ذلك، ولا يعدّه العارفون بالله متقيًا.

شهد رجل عند عمر بن الخطاب لرجل بأنَّه تقيٌّ صالح، فقال له: أأنت جاره الأدنى الَّذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: أصَحِبته في السفر، الَّذي يسفر عن أخلاق الرجال وتنكشف فيه

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

معادنهم؟ قال: لا. قال: أعاملته بالدينار والدرهم؟ قال: لا. قال: لعلك رأيته في المسجد يهمهم بالقرآن، يرفع رأسه تارة، ويخفضها أخرى؟ فقال: نعم. قال: لا، لم تعرفه إذن. ثمَّ قال للرجل: اذهب فأتني بمن يعرفك[١].

فليست التَّقوى بعض المظاهر إذا لم يكن وراءها القلب السليم، الَّذي يخشى الله ﷻ، فالقلب المليء بخشية الله هو سر التَّقوى ورُوحها، قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٢].

أعمال الجوارح من ثمرات التَّقوى:

فإذا وُجد هذا القلب كان الخلق وكان السلوك، وكان العمل مرآة لما في القلب، وعنوانًا لما تستكنُّه النفس.

ولهذا سئل أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه عن التَّقوى، فقال: هل سلكتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فماذا صنعتَ؟ قال: تشمَّرتُ وحَذِرْتُ. فقال: هذا هو التَّقوى[٣].

كأنَّك تمشي في طريق شائك، فتحذر وتتَّقي وتخشى.

قال الحسن البصري: لقد بلغت التَّقوى بالمتَّقين أن تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الوقوع في الحرام[٤].

---

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٨٢/٢، ٨٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.
(٢) الحديث السابق.
(٣) تفسير ابن كثير (١٦٤/١).
(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦١/١)، لابن أبي الدنيا.

QaradawiBooks.com

وقال أحدهم: التَّقوى أن تعمل بطاعة الله، علـــى نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عذاب الله[١].

هذه هي التَّقوى، فأصلها في القلب، ونَضْحُها على الجوارح، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

سورة البقرة تُعنى بالمتَّقين:

عُنيت سورة البقرة بالتَّقوى والمتَّقين، جاء ذلك في آيات كثيرة منها، من ذلـــك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقـــرة: ١٨٣]. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقـــرة: ٢٢٣]. ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

فنجد ذكر التَّقوى في أحكام الأســـرة، وفي الوصيَّة، وفي القِصاص والأحكام الجنائيَّة، وفي الصيام، وفي الجهـــاد.. في كلِّ الأحكام، يأتي الأمرُ بتقوى الله، فهي مِلَاك كل الأمور، ولا تنضبط الحياة بدونها.

الدول تُشَرِّع القوانين، ولكن ما أكثر ما يحتال النَّاس على القوانين، وقد قال أحد إخوتنا القضاة: «القانون حمار، النَّاس كلُّها تخدعه وتضحك عليه».

(١) رواه هنَّاد في الزهد (٥٢٢)، عن طلق بن حبيب.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإذا ضحك النَّاس واحتالوا على القانون، فهل يستطيعون الضحك على الله؟! لا يمكن. ولهذا: لن يصلح القانون فينا رادعًا، حتَّى نكون أصحاب ضمائر تردعنا، أصحاب خوف من الله، أصحاب قلوب تقية.

ولذلك يوصي الله كثيرًا بالتَّقوى، فهي أساس خيرات الدُّنْيا وخيرات الآخرة، وقد علَّق الله كل خير في الآخرة والأولى على التَّقوى، فالمتقون هم النَّاجون من النار، قال ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]. والجنة يرثها ويدخلها المتقون: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]. فمن أراد الجنَّة فعليه بالتَّقوى.

والصبر والتَّقوى من عزائم الأمور: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن أراد الخلاص من كيد الأعداء فعليه بالتَّقوى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ومن أراد الخلاص من الشدائد والخروج من المهالك فعليه بالتَّقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومن أراد أن يجعل الله له من أمره يسرًا، ومن همِّه فرجًا، فعليه بالتَّقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

عليك بالتَّقوى فإن الله وليُّ المتَّقين، ويحبُّ المتَّقين، ومع المتَّقين.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. وقال:

QaradawiBooks.com

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

غير مرخصة للطباعة

اتَّق الله حيثما كنتَ:

عليك بتقوى الله حيثما كنتَ، في أي مكان كنتَ، وفي أيِّ زمان كنتَ، وعلى أيِّ حال كنتَ، في المسجد، في المنزل، في المتجر، في المكتب، في الشارع، في الجلوة، في الخلوة، اتَّق الله حيثما كنتَ فربُّك معك، ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]. وفي الحديث النبويِّ الشريف: «**اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ**»[1].

(١) رواه أحمد (٢١٣٥٤)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثالث
صفات المتَّقين

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥].

في هذه الليلة أيُّها الإخوة، نقف مع آيات المتَّقين في أوائل سورة البقرة، ففي درسنا السابق تحدَّثنا عن التَّقوى، وحقيقة التَّقوى، وعرفنا أنَّ المتَّقين هم خلاصة البشر، وهم الَّذين اهتدوا بهذا القرآن العظيم، وقد ذكرهم القرآن في آيات شتَّى، وناط خيري الدُّنْيا والآخرة بتقواهم.

وفي هذه الليلة نريد أن نتعرَّف على صفاتهم كما جاءت في هذه الآيات الثلاث.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥].

الإيمان بالغيب:

وصف الله تعالى المتَّقين في هذه الآيات الثلاث بخمس صفات، الصفة الأولى الإيمان بالغيب: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

حقيقة الإيمان الإسلامي:

الإيمان الإسلامي ليس مجرَّد معرفة ذهنية تُنير العقل بما تكشف له من حقائق الوجود الكبرى: الله والوحي والإنسان والمسؤوليَّة والجزاء، إنَّه أعمق من ذلك وأوسع مدًى، إنَّه نور يضيء العقل، ويقين يغمر القلب، ومُثُلٌ تحفز الإرادة، وضمير يوجِّه السلوك، وإن شئنا عبَّرنا بما عبر به الأقدمون من سلفنا، فقلنا: إنَّه اعتقاد بالجَنَان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

الإيمان في القرآن:

ولا غرو أن عرض لنا القرآن الكريم الإيمان مجسَّدًا في أعمال وأخلاق ومواقف، لتكون مرآة، يرى كل امرئ فيها نفسه، ماذا أخذ منها، وماذا ترك، انظر إلى قوله تعالى في القرآن المكي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٩].

وانظر في القرآن المدنيِّ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ

QaradawiBooks.com

ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١].

الإيمان في السُّنَّة:

وعرضت السُّـــنَّة النبويَّة الإيمان في بضع وسبعين شعبة، تتمثل فيها العقائد الســـليمة، والعبادات الخالصة، والأخلاق الفاضلة، والمعاملات المستقيمة، والعلاقات الطيبة، والمُثُل الإنسانيَّة الرفيعة، وحسبنا أن نقرأ مثل هذه الأحاديث:

«**الإيمان بضعٌ وسبعون شُعبة، والحياءُ شعبة من الإيمان**»(١).

«**المؤمن من أمنه النَّاس على دمائهم وأموالهم**»(٢).

«**لا يؤمن أحدكم حتَّى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٣).

إيمان سحرة فرعون:

وقد عرض لنا القـــرآن الإيمان فـــي مواقف بطولية، نـــرى فيها أثر الإيمان يغني عن كل بيان، اقرأ قصَّة سحرة فرعون، وانظر كيف غيَّرهم الإيمان، وأنشأهم خلقًا آخر، من «حواة» يسحرون أعين النَّاس بالباطل،

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٩٣١)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده قوي. والترمذي (٢٦٢٧)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٤٩٩٥)، وابن حبان (١٨٠)، ثلاثتهم في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

QaradawiBooks.com

إلى «هُداة» يدعون النَّاس إلى الحق، لم يرعهم تألُّه فرعون، ولم يرهبهم جبروته، ولم يَثنهم وعيده وتهديده بالقتل والصلب.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۞ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۞ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۞ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۞ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۞ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١٢٦].

إنَّ البُعد الإيماني ليس مجرَّد بُعد روحي، إنَّـه كذلك ـ كما رأينا ـ بُعد أخلاقي، وبُعد بطولي، بُعد يجعل الإنسان لسان حق، وشعاع هدى، وينبوع خير ورحمـة للعالمين، وفي الحديث: «**أكمـل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**»[1].

الإيمان بالغيب دلالة على الرشد الإنساني:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾: هؤلاء المتقون لا يقفون عند المحسوسات، بل يتجاوزون دائرة المحسوسات والمشهودات إلى عالم آخر، عالم الغيب.

(١) رواه أحمد (٢٤٦٧٧)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح لغيره. والترمذي في الإيمان (٢٦١٢)، وقال: صحيح. عن عائشة.

QaradawiBooks.com

إنَّ الحيوان يقف عند دائرة الحس، أمَّا الإنسان الراشد فهو الَّذي يتجاوز المحسوسات إلى المعقولات والمعنويات.

ومن هنا كان الإيمان بالغيب دلالة على الرشد الإنساني، إنَّ هذا الكون الَّذي نعيش فيه ليس مقصورًا على هذه العوالم المشهودة، هناك عوالم مُغيَّبة عنا، ليس معنى أنَّنا لا نراها أنَّها غير موجودة، كم من عوالم لم يكن يراها الإنسان من قبل ثمَّ هُيِّئَ للإنسان وسائل، فرآها؛ الجراثيم، الميكروبات، البكتيريا. هذه الأشياء الَّتي أصبحت الآن من الأشياء المقطوع بها، يراها النَّاس بالأجهزة المكبِّرة بالملايين ومئات الملايين وآلاف الملايين. القطرة الواحدة من الدم كم فيها من الكائنات الحيَّة، هذا ما يراه العلم، وما يراه النَّاس بالمناظير والمجاهر، لم تكن معروفة من قبل.

وهل ينكر الإنسان شيئًا لأنَّه لا يراه؟! لا، هذا هو الحجاب، هذا هو العمى.

نحن في عصرنا هذا، وبكل ما أوتينا من أجهزة ومراصد لا نعرف إلَّا القليل من الكون، لا نعرف إلَّا ثلاثة في المائة، كما يقول علماء الفلك وغيرهم، يقولون: إنَّ ٩٧٪ من هذا الكون المادي محجوب عنا، لا نراه، يسمونه: «الأعماق السوداء».

هذا في شأن الكون الماديِّ، فما بالكم بما وراء الكون ممَّا لا يُرى ولا يُحَس؟ صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وما لا نبصره أكثر وأعظم ممَّا نبصره.

هناك عوالم مغيَّبة عنا، يجب أن نؤمن بها، فالإيمان بالغيب أحد الأشياء المميزة للمتقين عن غيرهم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣]. هذا هو ما يفرق بين المؤمنين والجاحدين.

QaradawiBooks.com

أعظم الإيمان بالغيب: الإيمان بالله:

وأعظم الإيمان بالغيب: الإيمان بالله تبارك وتعالى، فهو الَّذي غاب عن الحسِّ.. أي: لا تراه الأعين، ولا تسمعه الآذان، ولا تلمسه الأيدي، ولا تشمُّه الأنوف في هذه الدُّنيا، إنَّه سبحانه فوق الحس: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

القرآن يذكر أركان الإيمان مجملة ومفصلة:

الإيمان بالغيب يشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، النصوص القرآنيَّة تجمل أحيانًا، وتفصِّل أحيانًا، حسَب المقام، فأحيانًا تذكر كل متعلقات الإيمان وأركانه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ...﴾ [البقرة: ١٧٧]. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأحيانًا يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]. وقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٣٩]. وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]. وذلك: أنَّ الإيمان بالله والإيمان بالجزاء الأخروي هما أعظم أركان الإيمان.

وأحيانًا يذكر الإيمان بالله ورسله، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]. ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

QaradawiBooks.com

وأحيانًا يذكر الإيمان بالله وبما أنزل على رسله، كما في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة الآية: ١٣٦].

وأحيانًا يذكر الإيمان بما أنزل الله فقط، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧]. وقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤١].

وأحيانًا يذكر الإيمان بالله تعالى دون غيره من بقية الأركان، كقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. وقوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [الطلاق: ١١].

بل أحيانًا يذكر كلمة الإيمان مجرَّدة من متعلقاتها، كما في النداء القرآني المتكرِّر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وكما في قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]. وهذا كثير في القرآن.

وهذا الاكتفاء في بعض المواضع ببعض أركان الإيمان لا يعني الاستغناء عن بقية الأركان، فالقرآن يُفَسِّر بعضه بعضًا، ويصدِّق بعضُه بعضًا، فما أُجمل في مكان فُصِّل في آخر، وما أُبهم في موضع وضِّح وبُيِّن في غيره، وما أُطلق في موقع قُيِّد في موقع آخر، ولا بد أن يؤْخذ القرآن كله، ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض.

QaradawiBooks.com

ومن ذلك: الاكتفاء بشهادة أن لا إلٰه إلَّا الله في بعض النصوص، وذلك لأنَّ الكلام كان مع مشركي العرب، والمعركة الأساسيَّة معهم كانت على التوحيد، فإذا قالوا: لا إلٰه إلَّا الله، فقد استجابوا لمحمد ﷺ، ولم يفهم أحد في الأولين ولا الآخرين أنَّهم إذا قالوا: لا إلٰه إلَّا الله، وكفروا بمحمد، كانوا مؤمنين ناجين.

إقامة الصلاة:

إنَّ إيمانهم بالغيب وإيمانهم بالله تبارك وتعالى وبملائكته؛ جنده الَّذين لا يعلمهم إلَّا هو، كان له تأثيره في حياتهم وسلوكهم، فكانت هناك الصفة الثانية: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣]. أي: يؤدُّونها قائمة معتدلة.

لم يصفهم بمجرد أداء الصلاة، أو فعل الصلاة، ولكن بإقامة الصلاة، أي: يحافظون عليها، يؤدونها في أوقاتها، بخشوعها، بأركانها، بآدابها، كما يريد الله تبارك وتعالى، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. فالصلاة هي الصلة اليوميَّة بين الإنسان وربِّه، تجعله دائمًا على موعد مع الله، في كلِّ يوم خمسَ مرَّات.

الإنفاق من رزق الله:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. أي: إنَّهم بعد أن أدُّوا حقَّ الله تبارك وتعالى يؤدُّون حقَّ عباده، وهذا هو الإسلام، أداءً لحقِّ الله وأداءً لحقِّ النَّاس، وحقُّ النَّاس يتمثَّل أوَّل ما يتمثَّل في مساعدة الضعفاء وذوي الحاجة، بإعطائهم من مال الله الَّذي آتاك، حتَّى يقوى ضعيفهم، وحتَّى ينتصب عاثرهم.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. وهم ينفقون من رزق الله، من مال الله، وهذا إشارة إلى نظريَّة كبيرة في الاقتصاد الإسلامي، تُعرف بـ «نظريَّة

QaradawiBooks.com

الاستخلاف»، أي: أنَّ الإنسان مستخلَف في مال الله، فهو لا ينفق من ماله، إنَّما ينفق من مال الله، ومن رزق الله تعالى عنده، وقد قال الله تعالى في سورة الحديد: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. وهذا يشمل الزكاة كما يشمل ما بعد الزكاة؛ فإن في المال حقًّا سوى الزكاة، الزكاة هي الحق الأدنى، وهي الحق الثابت الدوري، ولكن هناك حقوق في المال تجب بموجباتها، كما إذا جدَّت مجاعة أو كان بجوار الإنسان جار جائع، فليس مؤمنًا من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. إنَّ الله لم يطالبهم بأن ينفقوا كل ما رزقهم، وإنَّما ينفقون بعض ما رزقهم، وهذا قليل من كثير، وهكذا يريد الإسلام؛ أن ينفق الإنسان بعض ما رُزق، ومن أنفق بعض ما رُزق فلن يفتقر ولن يضيع.

الإيمان بما أنزل الله على رسله:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]. وهذه واحدة من أهم ما جاء به القرآن، وهو الدلالة على وحدة الرسالات السماويَّة، لن يكون الإنسان مؤمنًا إذا آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، أو آمن ببعض الرسل وكفر ببعض، لا بدَّ أن يؤمن بكل ما أنزل الله من كتاب، وبكل من بعث الله من رسول، ولهذا يؤمن بما أنزل الله إلى مُحَمَّد وهو القرآن، ويؤمن بما أنزل الله من قبله من الكتب.

اليقين بالآخرة:

﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. وهي الصفة الأخيرة من صفات المتَّقين في هذه الآيات، وهي متعلقة بقضيَّة المصير.

QaradawiBooks.com

واليقين بالآخرة هو مفتاح التَّقوى، أن توقن بالجزاء بعد الموت، بأن تتذكر أن بعد هذه الحياة موتًا، وتوقن أنَّ بعد الموت بعثًا، وبعد البعث حسابًا وجزاء، وثوابًا وعقابًا.

﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، اليقين ثمرة العلم الَّذي به حياة القلب وطمأنينته، ولذلك مدح الله به المتَّقين المهتدين بكتابه فقال: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. وهم الَّذين فصَّل الله لهم الآيات، سواء أكانت آيات تنزيليَّة مسطورة، أم آيات تكوينيَّة منظورة، يقول تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤].

وأثنى الله على خليله إبراهيم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وذمَّ من لا يقين عنده بقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]. وجعل القرآن اليقين أحد عنصرين يرتقي الإنسان بهما إلى الإمامة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

والإنسان إذا كان إيمانه ويقينه مزعزعًا، ناوشته الشبهات من كلِّ جانب، وعَرَضَتْ له الشكوك عن يمينٍ وشمال، وذلك لضعف علمه، وقلة بصيرته، فيغدو كالريشة في مهبِّ الريح، لا تستقر على حال، أمَّا صاحب اليقين، فهو لرسوخه في علمه، وقوة إيمانه؛ كالطود الراسخ، لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا تؤثِّر فيه رياح الشكوك والشبهات.

إنَّ صاحب العلم واليقين، الَّذي رزقه الله البصيرة النافذة، والنور الكاشف، لا يلتبس عليه الحق بالباطل، ولا تروج عنده الشبهات، كما

QaradawiBooks.com

لا تُغريه الشهوات، فهو مزوَّد بسلاحين قويَّيْن يرد بهما جيوش الباطل، فهو يرد جيش الشهوات بسلاح الصبر، وجيش الشبهات بسلاح اليقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

معنى اليقين ومراتبه:

واليقين إنَّما هو العلم الراسخ في القلب الَّذي لا يعتريه شكٌّ ولا وهم، وهو قابل للزيادة والترقِّي من علم اليقين، إلى عين اليقين، ثمَّ إلى حقِّ اليقين. فأنت إذا أخبرتك جماعةٌ من الثقات بأنَّ صديقك رجع من سفره، وهو قادم إليك، فخبرُهم هذا يورث عندك علمَ يقينٍ بقدومه، فإذا كلَّمك صاحبك بالهاتف «التليفون» وقال: أنا قادم إليك، فقد أصبح عندك عين اليقين، فإذا قدم عليك بالفعل، وتلاقت الوجوه، وتصافحت الأيدي، فهذا هو حق اليقين.

ومن هنا وجدنا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يسأل ربَّه أن يريه كيف يُحيي الموتى، لينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، أو إلى حق اليقين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ولقد أسرى الله بعبده مُحَمَّد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمَّ عرج به إلى السماوات العُلا، ليريَه من آياته، ويشهده من ملكوته ما آمن به يقينًا من طريق الوحي، فيزداد يقينًا مع يقين، كما قال

QaradawiBooks.com

تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]. وقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

جزاء تحقيق التَّقوى هو الفلاح:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الأوصاف ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، على نور من الله، ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، إنَّهم المفلحون الفائزون؛ لأنَّهم سلموا من كل مكروه، وفازوا بالخير، وفازوا بالنجاة وبالجنَّات، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الرابع
الكفَّار المعاندون وجزاؤهم الدنيوي والأخروي

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

إعراض الكفَّار والختم على قلوبهم وأسماعهم:

بعد أن ذكرت السورة الكريمة ـ سورة البقرة الَّتي نعيش في رحابها هذه الليالي ـ صفات المتَّقين، ذكـرت صفات الكافرين، وبضدها تتميَّز الأشـياء، تحدثت عن الكفرة المصرِّحين المُصِرِّين على الكفر والعناد، ممَّن أعلنوا عن كفرهم، كأبي جهل وأبي لهب وأتباعهما، فهم معروفون مكشـوفون، قد أصموا آذانهم، وأغلقوا قلوبهم وعقولهم عن هذا القرآن الكريم، قال الله تعالى عنهم وعن أمثالهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

كما قال الله تعالى في سورة أخرى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥].

هكذا كان هؤلاء وموقفهم من القرآن الكريم، لا يريدون أن يفتحوا قلوبهم وعقولهـم ليتأمَّلوا ويتفكَّـروا، ولا يريدون أن يفتحـوا آذانهم ليسمعوا، ولا يريدون أن يفتحوا أعينهم ليبصروا.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

إنَّ الله ﷻ قد أعطاهم أدوات العلم والهداية، وهي: السمع والبصر والفؤاد، أعطاهم النوافذ الَّتي يُطلُّ الإنسان منها على هذا الكون، ليتعرف من الكون على مكوِّنه، وينتقل من الخلق إلى الخالق: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

خلق الله الإنسان لا يعرف شيئًا، وأعطاه هذه الأدوات، كما قال ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]. السمع والبصر والأفئدة هي مفاتيح المعرفة للإنسان، وكل إنسان عليه أن يستخدم هذه الأدوات والمفاتيح، ليعرف نفسه، ويعرفَ ربه، ويعرف الكون الَّذي يعيش فيه، ويعرف مكوِّن هذا الكون ﷻ، وسيسأل الله الإنسان عن هذه الأدوات. كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. سيسأل الله الإنسان عن سمعه وبصره وفؤاده، أي: عقله وقلبه.

هؤلاء الَّذين أعطاهم الله الأسماع والأبصار والأفئدة لم يستفيدوا منها، عطَّلوها، خرَّبوا هذه الأجهزة الَّتي منحهم الله تعالى إيَّاها، خرَّبوها بالكفر. كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. الجحود عطَّل هذه الأدوات، هنا يذكر القرآن هذا الصنف من الكفَّار المصرين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦].

معنى الإنذار:

الإنذار هو: الإخبار المصحوب بالتخويف.

QaradawiBooks.com

هناك تبشير وهناك إنذار، والرسل بعثهم الله مبشِّرين ومنذرين، يبشرون من آمن بالله وأطاعه وأطاع رسله بخيري الدُّنْيا والآخرة، وينذرون من كذّب بالله، وكذّب برسله وعصاهم، بالعقاب في الدُّنْيا والآخرة.

الكفار أغلقوا عقولهم وحواسهم عن الإيمان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ **الكفَّار** طالما سمعوا النُّذُر، وطالما جاءتهم النذر، وطالما تلا عليهم النبيُّ ﷺ القوارع من كتاب الله ﷻ، ولكن لم تغنِ عنهم شيئًا ﴿**سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ**﴾ [البقرة: ٦].

لا بدَّ أن يكون هناك استعداد للاستماع والتلقي والتأمل، ولكنَّ هؤلاء أغلقوا القلوب والأسماع والأبصار، لا يريدون أن يتأمَّلوا وأن يتفكَّروا، منعهم التقليد الأعمى، والجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] منعهم الكبْر أحيانًا أن يتَّبعوا هذا النبي الَّذي ليس من ذوي الجاه والمال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ [الزخرف: ٣١]. منعهم أحيانًا البغي والحسد، كما فعل ذلك اليهود وغيرهم ﴿**حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ**﴾ [البقرة: ١٠٩].

كثير منهم عرفوا أنَّ محمَّدًا ﷺ رسول من عند الله، وأنَّ القرآن الَّذي جاء به كلام الله، وليس من عنده، ولكنَّهم عاندوا الحق من بعد ما تبين لهم، شاقوا الرسول من بعد ما تبيَّن لهم الهدى، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، لم ينفع فيهم إنذار، لم تنفع فيهم القوارع.

QaradawiBooks.com

الختم على القلوب جزاء دنيوي من الله على إعراضهم:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم، كما أنَّه جعل على أبصارهم غشاوة.

إنَّ الله لم يخلقهم هكذا، ولكنَّه فعل بهم ذلك جزاء وفاقًا، أي: إنَّهم فعلوا ما فعلوا، وارتكبوا ما ارتكبوا؛ فتسبَّب ذلك أن خُتِم على قلوبهم، وطُبع عليها بذنوبهم.

إنَّ الله لم يخلق أحدًا مختومًا على قلبه، القلوب كلُّها مخلوقة مستعدَّة للهداية.. لهداية الله ﷻ، ولما قال اليهود: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]. أيْ: خُلقت هكذا مغلقة، عليها غلاف يغلقها ويغطيها، ردَّ الله عليهم وكذّبهم في هذه الدعوى، وقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. كذلك طبع الله على قلوب هؤلاء، وختم عليها بسبب كفرهم وعنادهم وإصرارهم، وهذا جزاؤهم الدنيوي.

جزاء الكافرين المعرضين في الآخرة:

أمَّا في الآخرة فلهم عذاب عظيم، ينتظرهم في الآخرة عذاب عظيم، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه!

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الخامس
صفات المنافقين وأقسامهم وضرب الأمثال لهم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۞ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۞ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۞ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٨ ـ ٢٠].

أصناف ثلاثة من البشر تجاه هداية القرآن:

وقفتنا هذه الليلة مع آيات المنافقين في أوائل سورة البقرة، فقد

QaradawiBooks.com

ذكرت سورة البقرة الكتاب الَّذي لا ريب فيه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. ثمَّ ذكرت مواقف النَّاس من كتاب الله ﷻ، فذكرت الطائفة الأولى، وهم المتقون المهتدون بالقرآن، ذكرتهم في ثلاث آيات، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥].

وذكرت الطائفة الثانية، وهم الكافرون المصرُّون على الكفر والعناد، والمصرِّحون به، ذكرتهم في آيتين، في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

ثم ذكرت الطائفة الثالثة، وهم المنافقون المذبذبون بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ذكرتهم في ثلاث عشرة آية، وهي الآيات من الآية الثامنة إلى الآية عشرين من سورة البقرة، والَّتي ذكرناها في أوَّل الدرس.

المنافقون الخطر الأكبر على المجتمعات:

وهنا سؤال: لماذا هذا التفصيل وتلك الإفاضة في شأن المنافقين، بينما الكفَّار الصرحاء لم يأخذوا هذه المساحة؟

هذا التفصيل لأنَّ هؤلاء المنافقين هم أخطر على الديانات وعلى الرسالات، هم آفة المجتمعات، هؤلاء المنافقون هم السوس الَّذي ينخر في عظام المجتمع، وهم الخطر الأكبر على الأمم والمجتمعات، الَّذي يفسد على النَّاس دينهم ودنياهم.

إنَّ الكافر المصرِّح بكفره تستطيع أن تعامله على أساس أنَّه مصرِّح

QaradawiBooks.com

بالكفر، أمَّا هؤلاء فهم الخطر، إنَّهم يعيشون في المجتمع كأنهم منه، وما هم منه، من هنا اهتمَّ القرآن الكريم بأن يذكرهم بأوصافهم ويجلِّيهم لنا، ذكرهم في هذه السورة «سورة البقرة»، وذكرهم في سورة آل عمران، وفي سورة النساء، وذكرهم في سورة التوبة، الَّتي سُمِّيت: «الفاضحة»؛ لأنَّها فضحت أسرارهم، وكشفت أستارهم، وذكرهم في سورة كاملة سُمِّيت باسمهم وهي «المنافقون»، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وذكرهم في سور كثيرة لما وراءهم من أخطار؛ حتَّى نعرفهم ونحذر منهم، ونحدِّد علاقتنا بهم على أساس أوصافهم الواردة في القرآن الكريم.

أقسام النفاق:

النفاق منه ما هو أكبر، وهو نفاق العقيدة، ومنه ما هو أصغر، وهو نفاق العمل، بمعنى أن يتصف المرء المسلم بصفات المنافقين وأخلاقهم، ولكن قلبه مؤمن بالله ورسوله وباليوم الآخر. وهذا ما جاء به الحديث: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[(١)].

نفاق العقيدة هو المقصود في هذه الآيات:

فأمَّا نفاق العقيدة، فهو أن يُظهر الإيمان بلسانه وببعض أفعاله، وهو في باطنه كافر بالله وبرسوله وبالدار الآخرة، فيختلف سرُّه عن علانيته، ويختلف قولُه عن فعله، وتختلف أخلاقه عن دعاويه، ويختلف مدخله عن مخرجه. وهو المقصود في هذه الآيات.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المنافق له وجهان:

فالمنافق له وجهان، وربَّما كان له أكثر من وجه، يلقى هؤلاء بوجه، ويلقى هؤلاء بوجه، وله لسانان، وربّما أكثر من لسانين، يتكلم مع هؤلاء بلسانٍ، فإذا خرج إلى خصومهم كلَّمهم بلسان آخر، يمدح الشيء ويَذُمُّه، وَيُطْرِي الإنسان ويهجوه في الوقت نفسه، أمامه يتكلَّم بشيء، ووراءه يتكلَّم بشيء.

النفاق ظاهرةٌ مرضيَّةٌ، ومن أخطر الأمراض نفاق العقيدة، النِّفاق الأكبر، أن يُضْمِرَ الإنسان في قلبه الكفر. فهو لا يؤمن بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا باليوم الآخر ولا بالقدر خيره وشرِّه، ولكنَّه يتظاهر بالإسلام، مثل عبد الله بن أبيٍّ ابنِ سلولَ الخزرجي ومن معه في المدينة، أولئك الَّذين كانوا يلقَوْن رسول الله ﷺ بوجه، ويلقَون أعداءه من اليهود والمشركين بوجه آخر، ويعتبرون من المهارة أنَّهم يخدعون المسلمين.

وفي هؤلاء جاءت هذه الآيات: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ ـ ١٠]. ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

اهتمام القرآن بذكر المنافقين:

ومن هنا اهتمَّ القرآن واهتمَّت السنَّة بهذا الصِّنْف من النَّاس، الَّذين هم أخطر شيءٍ على الشعوب والأمم، هم السوس الَّذي يَنْخَرُ في

QaradawiBooks.com

عظامها، والفتنة بهم جسيمة، والبليَّة بهم عظيمة، هم أعداء من داخل الأُمَّة، هم الَّذين يُؤَخِّرُون مسيرتها، هم الطَّابور الخامس، هم يدورون مع منفعتهم، فإذا كانت منفعتهم مع الكفَّار فهم معهم، وإذا كانت مع الفجَّار فهم معهم، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]. ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

هم عبيد الكسب، عبيد الدِّينار والدِّرهم، عبيد المنصب والجاه، كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]. ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥١].

والقرآن هدَّد المنافقين إذا أظهروا الكفر أن يصيبهم العذاب بأيدي المسلمين إذا ظهر منهم الكفر الَّذي أضمروه، فالمسلمون لا يشقُّون عن قلوبهم، إنَّما يعاملونهم بما يظهر منهم على ألسنتهم وجوارحهم، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

QaradawiBooks.com

حديث سورة آل عمران عن المنافقين:

تحدثت سورة آل عمران عنهم حديثًا طويلًا، من أجل غزوة أحد، الَّتي انكسر فيها المسلمون، فبرز هؤلاء، انكشفت أقنعتهم، ورفعوا رؤوسهم الَّتي تعودت الطأطأة والانحناء، هكذا صار هؤلاء، ولذلك تحدثت سورة آل عمران عنهم، وجعلت من فوائد هذه المحنة كشف هؤلاء: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. لينكشف أهل النفاق من أهل الإيمان؛ لأنَّهم بدؤوا يظهرون ويدَّعون أنَّهم على علم وعلى بصيرة، ونصحوكم ولم تستجيبوا لهم، ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨]. ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]. يعيبون على المسلمين أنَّهم جرُّوا أنفسهم إلى القتل، وقتل منهم من قتل، ويقولون: لو أنَّهم سمعوا كلامنا ما كان حصل لهم هذا.

المنافقون يطلبون العزَّة عند أعداء الإسلام:

كما نسمع في هذه الأيام، هؤلاء الَّذين يدَّعون الكياسة واللباقة، ويدعون إلى الصداقة والتفاهم مع الأمريكان وغيرهم، يدعوننا إلى أن نركع لهؤلاء باسم الصداقة، أن نسير في ركاب هؤلاء الَّذين يقتلوننا، الَّذين يقاتلوننا في الدين، وأخرجونا من ديارنا، وظاهروا على إخراجنا، الَّذين يوالون شارون وعصابة شارون، ويعتبرون شارون رجل سلام، وإسرائيل تدافع عن نفسها، أمَّا إخواننا في حماس والجهاد وكتائب الأقصى هؤلاء إرهابيون سفَّاحون.

QaradawiBooks.com

المنافقون في عصرنا يريدون أن نمدَّ أيدينا إلى الأمريكان لنصافحهم، ونطلب الصداقة معهم، وليذهب إخواننا هؤلاء إلى الجحيم، لتُقتل النفوس، ولتسفك الدماء، ولتهتك الأعراض، ولتدمر المنازل، ولتحرق المزارع، ولتخرب المدارس والمساجد.. لا يهمهم كل ذلك.

مشكلة المنافقين ـ أيُّها الإخوة ـ أنَّهم في الأزمات يكونون أبواقًا للكافرين، ففي سورة النساء ذكر القرآن أن من أبرز صفات المنافقين: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

نعم! هم يبتغون العزَّة عند الأمريكان، والحماية عند الأمريكان، والمناصب عند الأمريكان، ولولا أن ظهرهم مسنود بالأمريكان ما استطاعوا أن يتكلَّموا، فهم أذل من النعاج، وأحقر من الكلاب، وليس لهم أي قيمة ولا وزن. والَّذي جعل هؤلاء ينطقون أنَّهم محميُّون بالأمريكان، فيذهب إلى أيِّ صحيفة من الصحف أو فضائية من الفضائيات ويتكلَّم، ولو ظهر هذا للمجتمع لرجمه النَّاس بالحجارة، وضربوه بالأحذية، هؤلاء هم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

العزَّة لله أيُّها الأذلَّاء العبيد، هؤلاء العبيد الأُجَراء للدولار وما وراء الدولار، يبتغون عند الَّذين كفروا العزَّة، يعادون المؤمنين، ويوالون الكافرين، يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

QaradawiBooks.com

تخلُّف المنافقين عن الجهاد مع رسول الله:

ظهر هؤلاء في أيام غـزوة تبوك، وهذه الغزوة غـزوة متميزة؛ لأنَّها كانت لقاء مـع إحدى الدولتين الكبيرتين في العالـم، وهي دولة الروم البيزنطية، والأخرى كانت دولة الفرس.

والمسـلمون يلقون الروم لأول مرَّة، ويذهبون إليهم في ديارهم في الشام، ويذهب النبي ﷺ في ثلاثين ألفًا، فقال المنافقون: هذه هي النهاية لمحمد وأصحابه، سيلتقي بدولة الروم، وهي أعظم دولة، وتكلموا كلامًا كثيرًا، واصطنعوا أعذارًا شـتَّى حتَّى لا يشـاركوا في الجهاد، ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

وأطالوا الألسنة، وتكلَّموا بالسـوء على النبيِّ ﷺ، وقالوا: هو أُذُن. أي: من قال له شـيئًا صدَّقه، ومن حدَّثه منا صدَّقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدَّقنـا: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

وهذه السورة (سورة التوبة) سـماها علماء السلف: الفاضحة؛ لأنَّها فضحت المنافقين، كشفت أمرهم، وهتكت سـترهم، عددت أوصافهم وأفعالهم، تقول: ومنهم، ومنهم، ومنهم.. تعدد قبيح فعالهم.

في هذه الغـزوة اعتبر المنافقون أنَّ الرسـول وأصحابـه ذهبوا إلى مهلكة لن ينجوا منها: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

QaradawiBooks.com

هؤلاء تولَّوا أعداء الإسلام، والله يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

المنافقون أبواق للكافرين:

مشكلة هؤلاء المنافقين أنَّهم في وقت الشدائد يوجد لهم مكان، ويفسح لهم أن يقولوا وأن يظهروا، إنَّهم أبواق لسادتهم، وهم ـ والله ـ عبيد لهؤلاء السادة، لا يصلحون إلَّا عبيدًا.

والعجيب أنَّهم يدَّعون أنَّهم أهل الحكمة والسياسة والكياسة، تصوَّروا أن بعضهم يريد أن تنقلب المساجد والمنابر إلى أبواق دعاية للأمريكان، ويعيب على المساجد أنَّها تُمسك الأمة أن تسقط، وتُبقي على الأمة إيمانها وثقتها بربها، ويقينها بغدها وبمستقبلها، هم يريدون أن تسبِّح المساجد بحمد الأمريكان، الله يقول: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]. هؤلاء يريدون لهذه المساجد أن تُخفض ويُذكر فيها اسم الأمريكان والصهاينة وإسرائيل وشارون.

مشكلة المنافقين أنَّهم لا يجدون من يصدهم، فالناس ـ للأسف ـ فيهم شيء من الهوان والوهن، بحيث يُجرِّئون هؤلاء أن يتحدَّثوا، ولا أدري كيف يتاح لهم أن يتحدثوا، والنبي ﷺ يقول: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنَّه إن يك سيِّدًا فقد أسخطتم ربكم** ﷻ»[1]. لا نقول للمنافق سيد، فلا يمكن أن يكون سيدًا، بل هو عبد لشهواته، ولمطامعه، ولسادته، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

(١) رواه أحمد (٢٢٩٣٩)، وقال مُخَرِّجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الأدب (٤٩٧٧)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٠٠٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٧١)، عن بريدة الأسلمي.

QaradawiBooks.com

صفات المنافقين في سورة البقرة:

لهذا ـ أيُّها الإخوة ـ وجدنا القرآن حفيًّا بالحديث عن المنافقين حتَّى في أوَّل سورة من المصحف، وفي أوَّل ربع من القرآن، يتحدث هذا الحديث الفيَّاض عن المنافقين، وعن صفات المنافقين، لتحذر الأمة منهم، ومن شرهم، وتعرف خطرهم عليها، وتحذر أبناءها منهم، فإنَّهم لو وجدوا الفرصة لدمَّروا الأمة، وجعلوها أذنابًا لغيرها.

ادِّعاء الإيمان:

ذكرت سورة البقرة من أوصافهم أنَّهم يدَّعون الإيمان، وليسوا من الإيمان في شيء، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

إنَّ إيمانهم مجرَّد دعوى ليس لها حاصل، وليس وراءها عمل، إنَّما يريدون أن يضحكوا على النَّاس، وأن يخادعوا المؤمنين بالأقوال المعسولة.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]. إنَّما يحسبون أنَّهم يضحكون على الله ويخدعون الله ﷻ، وكذبوا، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] الله لا يُخدَع، والله لا يمكن أن ينطلي عليه مثل هذا الكذب.

بهذه المظاهر الكاذبة، وهذه الأقوال الزائفة، وهذه الدعاوى الباطلة، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]. إنَّما يخدعون أنفسهم، وإن كانوا لا يشعرون بذلك، يضحكون على أنفسهم، الله تعالى يعرف بواطنهم وسرائرهم؛ لأنَّه عليم بذات الصدور، لا تخفى عنه خافية، ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية، والمؤمنون يحفظهم الله تبارك وتعالى من كيدهم وشرِّهم.

QaradawiBooks.com

المنافقون مرضى القلوب:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. الآفة والعلة في قلوبهم، هذا المرض مرض الأنفس، إنَّ مرض الأجساد يمكن أن يعالَج، ولكن الأخطر هو مرض هذه القلوب، المريضة بحبِّ الدُّنيا، وحبِّ الشهوات، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض الشبهة، ومرض الشهوة ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. لأن الانحراف ينشئ انحرافًا، والمرض يؤدي إلى مرض آخر، وهكذا دواليك.

جزاء خداع المنافقين وكذبهم:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠]. في هذه الدُّنيا، عذاب الشك والقلق، ولهم عذاب في الآخرة أشق، هو أشد العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] كل هذا بما كانوا يكذبون، يكذبون على الله ويكذبون على النَّاس، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]. يكذبون بادعائهم الإيمان، وكذبهم بمخادعة المؤمنين.

ادِّعاء الإصلاح:

والغريب أنَّ شأن هؤلاء كشأن المنافقين في كلِّ مكان، أنَّهم يفسدون في الأرض ولكنَّهم يدَّعون أنَّهم أهل الإصلاح ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] يدّعون أنَّهم أهل الإصلاح، وأن كل ما يعملونه هو إصلاح، وما هو إلَّا الإفساد كل الإفساد، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] فقدوا الشعور والإحساس أن ما هم فيه هو الإفساد بعينه.

QaradawiBooks.com

تطاولهم على المؤمنين واستهزاؤهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣]. هكذا وصفهم الله تعالى ببذاءة اللسان، وبالتطاول على المؤمنين، هم السفهاء حقيقة، ولكنَّهم يدّعون أنَّ المؤمنين هم السفهاء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] أصحاب العقول والألباب. فالإيمان يدل على عقل ووعْي وإدراك، ولكنَّ هؤلاء المتطاولين المتكبرين يقولون: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وبخاصة أنَّ كثيرًا من المؤمنين هم من الضعفاء الفقراء الَّذين لا حول لهم ولا قوَّة، ولا مانع ولا سلطان، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. يقصدون بالأرذلين هؤلاء الضعاف والفقراء من النَّاس.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]. مصيبة هؤلاء أنَّهم لا يعلمون ما هم فيه، وهذا هو الجهل المركب، فالجهل البسيط يمكن أن يُعالَج.. إذا عرف الإنسان أنَّه جاهل، أمَّا الَّذي يَعِزُّ علاجه، فهو الَّذي يجهل، ويجهل أنَّه يجهل.

المنافقون أولياء للشياطين وأعداء الأمة:

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. هؤلاء بوجهين، وبلسانين، يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، ويكلم هؤلاء بلسان وغيرهم بلسان آخر، وكذلك إذا ﴿لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]. وهذه إشارة إلى اليهود، الَّذين كانوا يُعتبرون شياطين لهم يوسوسون في صدورهم، ويوحون لهم بالشرِّ، ويوحون إليهم بزخرف القول غرورًا.

QaradawiBooks.com

إذا خَلَوْا إلى شياطينهم من اليهود وأشباههم، قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. يستهزئون بالمؤمنين، ويضحكون عليهم، ويخدعونهم، ولكن الله ﷻ لهم بالمرصاد.

استهزاء الله بالمنافقين:

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. يجازيهم جزاء استهزائهم، فيعاقبهم عقابًا من جنس عملهم، وهذا غاية في العدل.

الله يستهزئ بهم، ومن استهزأ الله به، فإنَّه لا محالة هالك وضائع.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فيملي لهم، ويتركهم على حالهم تلك الَّتي يظنون فيها أنَّهم يخادعون الله ويخادعون الَّذين آمنوا، وهو ﷻ عليم بهم وبحالهم، وبما في قلوبهم من الكفر، وما على ألسنتهم من الكذب وإظهار عكس ما يبطنون، فيتركهم فيما هم فيه من الطغيان يعمهون.

والطغيان: الغلو في الكفر، والإسراف في العتو. والعَمَه: الضلال والعمى عن الرشد.

خسران المنافقين:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]. كان يمكن أن يهتدوا، وأن يسيروا في الطريق المستقيم، وأن يقبلوا هداية الله، الَّتي أرسل بها رسوله، وأنزل بها كتابه، ولكنَّهم اختاروا طريق الضلال والغَواية والشر، اختاروا الضلالة على الهدى، اشتروا الضلالة بالهدى، فبئست التجارة ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

QaradawiBooks.com

مثلان للمنافقين في القرآن الكريم:

ثم ضرب الله ﷻ للمنافقين مثلين: **المثل الأوَّل:** ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. لم يستفيدوا من النور الَّذي منحهم الله إياه وهيَّأ لهم فرصة الاهتداء به، لم يستفيدوا ولم يستضيئوا بنور الوحي وقد كان أمامهم.

فهم في دعواهم أنَّهم مؤمنون، كإنسان أوقد نارًا يستضيء بها، وينتفع بها، لكنهم لفساد قلوبهم ولنفاقهم، كانوا كمن ذهب بصره بعد أن أضاء النَّار الَّتي انتفع بها من حوله ولم ينتفع بها هو لعماه، وذهاب بصره.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] إن لهم حواسَّ، ولكنَّهم عطَّلوها، فلا يسمعون، لأن آذانهم لا تسمع الحق فهم صم، ولأن ألسنتهم لا تتكلم بالخير فهم بكم، وأعينهم لا ترى الهدى والنور، فهم عُمْي، هم لا يرجعون عن غيِّهم وضلالهم؛ لأنَّهم مستمرُّون فيه.

والمثل الثاني الَّذي ضربه الله للمنافقين: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]. هكذا صوَّر الله صورة هؤلاء النَّاس.. صورة أناس يمشون في الفلاة، في شدَّة الظلام، ثمَّ نزل بهم المطر، لكنَّه مصحوب بالرعد والبرق، فلم يستفيدوا من هذا المطر، ولم ينتفعوا به، ولم يشربوا، ولم يسقوا، ولم يزرعوا. وكان كل همهم توقي تلك الصواعق، وتلك الظواهر المصاحبة للمطر، من الرعد والبرق. والظلمات هي ظلمات الكفر، وظلمات النفاق.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ لأنَّ الإنسان إذا كان في مكان معتم كحال هؤلاء المنافقين، ثُمَّ تباشر عيناه ضوءًا قويًّا، فإنَّه لن يستطيع الإبصار.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ **لكنَّه** ضوء البرق ينطفئ سريعًا.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

تلك هي الصورة الَّتي رسمها الله تعالى لأولئك المنافقين، في ثلاث عشرة آية من هذه السورة، حيث ذكر الكافرين في آيتين، ولكنَّه ذكر هؤلاء المنافقين في هذا الكمّ من الآيات؛ ليحذِّرنا منهم، وحتَّى نكون على بصيرة من أمرنا.

تحذير النبيِّ من النفاق الأصغر والأكبر:

وكما حذَّر القرآن في سوره من خطر النفاق والمنافقين، حذر النَّبيُّ ﷺ في أحاديثه من النفاق أكبره وأصغره، حذَّر من نفاق العمل والسلوك، أن تكون للإنسان خصال المنافقين وأخلاقهم، أو أن يشبههم في أعمالهم وسلوكهم، وإن كان مصدِّقًا بقلبه بالله ورسوله وبالدار الآخرة.

وجعل له النبي ﷺ علامات: «**إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[1]. فهذه من خصال النفاق، من كان فيه شعبةٌ منها كان فيه شعبةٌ من النِّفاق حتَّى يدعها، ومن كانت فيه هذه الصفات جميعًا فهذا منافق ـ كما صحَّ في الحديث ـ وإن صلَّى وصام وزعم أنَّه مسلم[2].

---

(١) سبق تخريجه صـ٨٤.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٩)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

فهذا النِّفاق الأصغر قد يُؤدِّي إلى النِّفاق الأكبر، إذا استكثر الإنسان من خصاله وأصرَّ عليها، حتَّى أصبحت خلقًا له، وطابعًا لشخصه، فالصغائر تدفع إلى الكبائر، والكبائر تُؤَدِّي إلى الكفر.

المنافقون يريدون أن يجعلوا الأمة تابعة:

هؤلاء المنافقون يريدون أن يجعلوا هذه الأُمَّة الإسلاميَّة تابعة، وقد جعلها الله متبوعة، وأن يجعلوها ذيلًا، وقد جعلها الله رأسًا، ولكن هذه الأمة ستظل رأسًا، حتَّى وإن ضعفت ماديًّا، وإن ضعفت عسكريًّا، هي قوية برسالتها، قوية بإيمانها، قوية بأبنائها، قوية بما بينها وبين الله من صلة، والضعف لا يدوم أبدًا، ودوام الحال من المحال، ومن سنة الله المداولة بين النَّاس، كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فإذا كان اليوم علينا، فإن الغد سيكون لنا، والدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك. وإن مع العسر يسرًا، وإن بعد الليل فجرًا، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس السادس
نداء الله تعالى للنَّاس كافة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

نداءات القرآن:

يقول الله تعالى في أوَّل نداء في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

هذا أوَّل نداء في هذه السورة الكريمة، وهو أيضًا أوَّل نداء في القرآن الكريم، فسورة البقرة هي أوَّل سورة نزلت في المدينة، وأول سورة بعد الفاتحة، وهذا أوَّل نداء في القرآن الكريم.

والقرآن الكريم يمتاز بالنداءات الإلٰهيَّة، يمتاز على التوراة الَّتي بين أيدي اليهود والنَّصارى، أو الأناجيل الَّتي بين أيدي النَّصارى، بكثرة نداءاته، فلا نجد في كتاب مقدس ما نجده في القرآن من مثل هذه النداءات.

إنَّ القرآن هو نداء الله الأخير للبشريَّة، الَّذي تكفَّل بحفظه، فلم تتغيَّر

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

فيه كلمة، بل ولا حتَّى حرف، فنحن نقرأ القرآن كما كان يقرؤه صحابة رسول الله ﷺ، وكما جُمع في عهد سيِّدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، حتَّى الرسم العثماني (الكتابة العثمانيَّة) لم يجرؤ أحد أن يُغيِّره.

ونداءات القرآن متنوعة ومتعدِّدة، فمنها: النداء للنَّاس عامَّة، ومثله النداء لبني آدم، أو لعباد الله.

وقد يكون النداء إلى الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

وقد يكون النداء إلى جماعة المؤمنين، وهذا لم يجئ إلَّا في القرآن المدني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

جاء هذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في القرآن تسع عشرة مرَّة، بعضها في القرآن المكِّي، وبعضها في القرآن المدنيِّ، في القرآن المكيِّ مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، إلى آخر ذلك.

وفي القرآن المدني كما في سورة البقرة هذه، وكما في أوَّل سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]. وفي سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

نداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾:

وهناك نداء بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وهذا النداء لم ينزل إلَّا في القرآن المدني. لم ينزل في مكَّة أبـدًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ لأن الَّذين آمنوا لم يكونوا جماعة، كانوا في مكَّة متفرِّقين مضطهدين، فحينما أصبح للمسلمين جماعة في المدينـة، وأصبح لهم أرض، وأصبح لهـم كيان، وأصبح لهم قيادة، وأصبح لهم دسـتور، وأصبحوا أمة مجتمعـة، ناداهم الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، تسع وثمانون آية جاء فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

نداء بني آدم:

وجاء نـداء ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ فـي القرآن خمس مـرات، أربع في سـورة الأعـراف: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا ﴾ [الأعـراف: ٢٦]. ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [الأعـراف: ٢٧]. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف: ٣١]. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وفي سـورة يس جاء هذا النداء مرَّة واحدة: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

نداء عباد الله:

وفي القرآن نداء بـ «عبـادي»: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبـوت: ٥٦]. ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ ﴾ [الزمـر: ١٠]. ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

QaradawiBooks.com

نداء الإنسان:

وفي القرآن نداء للإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

سياق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

وجاء في سورة البقرة هذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

بعد أن ذكر كتابه الَّذي لا ريب فيه، وقسم النَّاس إلى أصناف ثلاثة في تعاملهم مع القرآن وما فيه من الهدى: المتقون الَّذين آمنوا بالله ورسله وكتبه وآمنوا باليوم الآخر، وهم أهل الانتفاع بالقرآن. والكافرون الَّذين عطلوا حواسهم عن الانتفاع بالقرآن وهدايته. والمنافقون الَّذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر.

بعد ذكر هذه الأصناف كان هذا النداء للنَّاس جميعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۞ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٤].

الحقائق الأولى في الإسلام:

وبعد هذا النداء يرشد الله النَّاس إلى الحقائق الأولى في الإسلام وهي: المبدأ، والمعاد، والنبوة، وهي العقائد الإسلاميَّة الأساسيَّة.

QaradawiBooks.com

الأمر بعبادة الرب الخالق وحده:

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أوَّل شيء يذكره لنا ـ نحن بني الإنسان، أو النَّاس ـ مبدأ هذه الحياة كلها، وهو الله ﷻ. ومبدأ هذا الدين، وهو عبادة الخالق ﷻ وحده لا شريك له (توحيد العبوديَّة أو توحيد الخالقيَّة).

والتوحيد أوَّل ما جاء به الأنبياء جميعًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فجاء القرآن ليدلنا على توحيد الله ﷻ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. لا تعبدوا أحدًا غير الله، ولا تعبدوا أحدًا معه، عبادة الله وحده هي الأساس الَّذي قام عليه هذا الدين، ولذلك نقرأ في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أمر بعبادة الله، موجه للنَّاس كل النَّاس، مسلمين وكافرين، كل هؤلاء يجب أن يعبدوا الله ﷻ، المسلم يستمر على عبادته، وغير المسلم يبدأ عبادة الله ﷻ.

عبادة الله وحده هي دعوة الأنبياء جميعًا:

والعبادة هي النداء الأوَّل لكل رسول، كل رسول قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩]. قالها نوح لقومه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وكذلك قالها هود لقومه عاد: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

QaradawiBooks.com

وقالها صالح لقومه ثمود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقالها شُعَيْب لقومه مدين: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وقالها إبراهيم لقومه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وكل رسول بعث إلى قوم مكذبين قال لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

معنى الرب:

يقول علماء اللغة: الرب هو السيد، المتكفل بالرعاية، والمربِّي. وإذا أطلقت فلا تطلق إلَّا على الله.

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾: سيدكم الَّذي يُصلح أعمالكم، والَّذي يرزقكم، والَّذي يحييكم، والَّذي يصنع لكم كل ما تحتاجون إليه.

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ الَّذي يربِّيكم ويرقِّيكم في مدارج الكمال، منذ أنْ كنتم أجنَّة في بطون أمهاتكم، وبعد أنْ صرتم أطفالًا، وبعد أنْ صرتم صبيانًا، وبعد أنْ صرتم يافعين، ثمَّ شبابًا، ثمَّ كهولًا، ثمَّ شيوخًا، طوال هذه المراحل الله هو الَّذي يربّيكم ويرعاكم، يرعاكم من الصغر إلى الكبر، بل قبل أن تولدوا، يرعاكم في بطون أمهاتكم: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [الزمر: ٦] ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

معنى الخلق:

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]. وما معنى خلقكم؟ الخلق هو الاختراع بلا مثال، أي الإبداع على غير مثال سبق، والإيجاد على تقدير وترتيب، فهو الَّذي يقدر كل شيء قبل أن يخلقه، ثمَّ يخلقه على وَفْق ما قدَّر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [سورة الأعلى: ٢، ٣].

ولذلك فإن من أسمائه سبحانه الخالق والبارئ والمصوِّر، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. فالخالق يُقدِّر، والبارئ ينفِّذ، والمصوِّر يهيِّئ.

﴿خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]. خلقكم وخلق الأجيال والأجيال من قبلكم إلى آدم، إلى ما قبل آدم، إلى ما شاء الله.

والقرآن من أوَّل آية نزلت فيه وهو يقرر هذه الحقيقة أنَّ الله هو الخالق: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [١، ٢].

وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢].

الله وحده هو خالق هذا الكون كله، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٣ ـ ٨].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ليس هناك خالق غيره، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ما أحد يستطيع أن يخلق غير الله ﷻ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

معنى العبادة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. اتجهوا إليه بالعبادة وحده، دعوا الأرباب الزائفة؛ ليس هناك رب غير الله، ما ادعاه العرب من أن لكل قبيلة ربًّا أو إلٰهًا، حيث يقولون: إلٰه بني فلان، أو رب بني فلان، وما ادعاه بنو إسرائيل أن لهم ربًّا خاصًّا هو ربُّ إسرائيل، هذا كله مردود؛ فالله ربُّ العالمين، ربُّ الجميع.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. اتَّجهوا إليه بالعبادة، والعبادة هي غاية الخضوع مع غاية الحب، هذا هو معنى العبادة.

والعبادة ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ هي: اسم جامع لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة[1].

فالعبادة تسع الحياة كلها، ولهذا نجد كتاب الله الكريم يخاطب عباده المؤمنين بأوامر تكليفية وأحكام شرعية، تتناول جوانب شتَّى من الحياة.

مجالات العبادة:

وعبادة الله تشمل كيان الإنسان كله ظاهره وباطنه، فهي تشمل الفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج. وتشمل الأعمال القلبيَّة من الخوف والرجاء والإخلاص والمحبة، إلخ.

(١) العبودية لابن تيمية صـ ٤٤، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٧، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهي تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وهي تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد، كبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان.

وهي تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانيَّة كلها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

الربط بين الخلق والعبادة:

والقرآن ربط في أكثر من آية بين استحقاق الله للعبادة وحده لا شريك الله وبين صفة الخلق، قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. فالرب الخالق هو وحده المستحق للعبادة.

بل إنَّ آيات القرآن جعلت الغاية من الخلق هي عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالرب المتفرد بالخلق، يجب أن يتفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

العبادة تؤهِّل للتقوى:

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. وكأن قائلًا قال: لماذا هذه العبادة؟ فقال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. هذه العبادة

QaradawiBooks.com

تؤهلكم للتقوى، لتكونوا من أهل التَّقوى، لتكونوا من المتَّقين، الَّذين حدَّثتنا عنهم سورة البقرة في مطلعها، ووصفتهم بالأوصاف الخمسة المعلومة.

فالتَّقوى ثمرة العبادة، وقد قال الله في آيات الصيام من سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فالتَّقوى هي ثمرة الصيام وهي ثمرة عبادة الله وحده لا شريك له: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. لا بدَّ أن تعبد الله وحده بتمام الخضوع وتمام الحب حتَّى تصل إلى التَّقوى.

ما معنى التَّقوى؟

التَّقوى أصلها في القلب، كما أشار النبي ﷺ إلى صدره ثلاث مرَّات وقال: «**التَّقْوَى هَاهُنَا**»(١).

التَّقوى في القلب، وليست أن تكون صاحب لحية كثَّة، أو تلبس ثيابًا قصيرة، أو تعمل لك عمامة كبيرة، لا، ليس هذا هو التَّقوى، «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الحج: ٣٧]. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. تقوى القلوب، وليست تقوى الأجساد، التَّقوى الحقيقيَّة هي النابعة من القلوب، «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألَا وهي القلب**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه صـ٦١.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير. وهو الحديث السادس من أحاديث الأربعين النووية.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من نعم الله على عباده:

بعد أن نادى الله النَّاس وأمرهم بعبادته وحده، فهو ربُّهم، الَّذي خلقهم وخلق الأجيال المتعاقبة من قبلهم، وأوضح لهم ثمرة هذه العبادة، وهي أن يصلوا إلى التَّقوى، وأن يكونوا من هذا الصنف الَّذي وصفه وبيَّن صفاته في بداية السورة وهو المتقون، قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

الله هو الخالق، وهو الرازق، وصاحب النعم الكبرى، الَّتي بها معيشتكم، وتسير بها أموركم كلها، كل النعم من عند الله، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

وأول النعم المذكورة هنا في هذه الآية: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾، أي جعلها مهيَّأة وممهدة لحياة الإنسان وراحته، مثل تهيئة الفراش الَّذي ينام عليه الإنسان ويجلس عليه.

وقد وصف الله الأرض في آية أخرى فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦]. أي كالمهاد الَّذي يُجعَل للطفل. وقال في بعض الآيات: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤]. وقال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

فالأرض مهاد، والأرض فراش، والأرض قرار، والأرض بساط، أي مبسوطة، ولذلك جعلها مكوَّرة، لو لم تكن الأرض مكورة وكان لها حواف من نواحيها، لسقط الإنسان منها، لكن حكمة الله جعلتها مكورة.

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، لا تظنن الفضاء الَّذي فوقك هذا فراغًا، لا، وإنَّما هو بناء مُحْكم، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]. ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٦، ٧]. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. والله هو الَّذي بنى السماء بناء مُحْكمًا.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، وأنزل من السماء، أي: من جهة السماء، من السحاب، وقد صرنا نعرف من الجغرافيا أنَّ الماء يتبخر ويتكون منه السحاب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

ثلاثة أرباع الأرض ماء، والربع يابسة، فالبحار ثلاثة أرباع الأرض، والبخار يرتفع إلى طبقات الجو ويتكوَّن منه السحاب، ثمَّ إذا برد السحاب نزل ماء الأمطار للناس، فتمتلئ منه أنهارهم وآبارهم وعيونهم، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

فالله تعالى هو الَّذي رزق النَّاس هذا المطر، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. جعل هذا المطر رزقًا لهم ولأنعامهم، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

QaradawiBooks.com

لا تجعلوا لله أندادًا:

ثم يقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، لا تجعل شركاء وأمثال ونظراء لله، إنَّ الله ليس كمثله شيء، كل ما في الكون مخلوق لله ﷻ، فالله وحده هو الَّذي يستحق أن يُعبد، لا شريك له، هو وحده الَّذي يستحق أن يُشكر فلا يُكفر، وأن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وهاتان الآيتان تدعوان البشر جميعًا إلى هذا الأساس الأوَّل الَّذي يبنى عليه صرح هذا الدين وبناء هذه العقيدة: وهو تفرد الله بالخلق، وأنَّه ﷻ هو الربُّ الأعلى الَّذي يخلق ويرزق ويهيئ أسباب العيش لخلقه، لذا فهو المستحقُّ للعبادة وحده لا شريك له، ولا نظيرَ له، ولا نِدَّ له، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وهناك أساسان مُكمِّلان لهذا الأساس الرئيسي وهما: النبوَّة والمعاد، فبهذه الأسس الثلاثة تكتمل عقيدة المسلم، وهما المذكوران في تكملة هذه الآيات الَّتي تخاطب النَّاس جميعًا، ونكتفي بتلاوتها، يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٥].

نسأل الله لنا ولكم الهداية والرشاد.

QaradawiBooks.com

الدرس السابع
ضرب الأمثال وموقف المؤمنين والكافرين منه

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن:

نقف أيُّها الإخوة الأحبَّة في هذه الليلة المباركة من ليالي شهر رمضان المبارك مع هذه السورة الكريمة سورة البقرة، مع قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

كان أعداء الدعوة الإسلاميَّة ينتهزون كل فرصة للتشويش على الإسلام، وعلى رسول الإسلام، وعلى كتاب الإسلام، فما إنْ ذكر القرآن بعضَ الأمثال الَّتي يضربها لتوضيح المعاني، ولتقريب المفاهيم،

QaradawiBooks.com

ولإظهار المعقول في صورة المحسوس، حتَّى اتخذ هؤلاء من ذلك ذريعة للتشكيك والتشويش، وقالوا: كيف يقول الله تعالى مثل هذا الكلام؟! كيف يضرب المثل بالعنكبوت والبعوض والذباب وغير ذلك؟

حيث جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وجاء في سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

هؤلاء العُمي لم يفقهوا سِرَّ هذه الأمثال الَّتي يضربها الله للناس، لأن الأمر كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ويقول في آية أخرى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. وهؤلاء ليسوا من أهل التفكر، وليسوا من أهل العقل والعلم، ولذلك لم ينظروا إلَّا إلى كلمة «عنكبوت» وكلمة «ذباب»، واستبشعوا أن يكون ذلك في كلام ربِّ العالمين، لم ينظروا إلى ما يؤدِّيه المثل من بيان وإيضاح، ولهذا لما قالوا هذا الكلام السخيف الفارغ أنزل الله تعالى من القرآن ما يرد عليهم ويبين تفاهتهم وسفاهتهم، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

ونسبة الحياء أو الاستحياء إلى الله ﷻ من هذه الأشياء الَّتي نصف الله تعالى بها كما وصف بها نفسه، ولا ندخل في معنى كُنْهِها

QaradawiBooks.com

وتفصيلها؛ فالاستحياء معلوم والكيف مجهول، وننزه الله تعالى عن مشابهة خلقه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ إنَّ الله تعالى لا يقول إلَّا الحق، وإذا ضرب مثلًا، فإنَّما ليبيِّن به ويوضح، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ يتخذون هذا المثل مثارًا للسخرة والاستهزاء والتشكيك للمؤمنين.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ هذه الأمثال يُضل الله بها من يشاء، ويهدي بها من يشاء، يضل بها كثيرين ويهدي بها كثيرين.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ما يُضل بهذه الأمثال الَّتي يضربها في كتابه المبين إلَّا الفاسقين، الَّذين فسقوا عن أمر الله وخرجوا عن طاعته، هؤلاء هم الَّذين يستحقُّون الإضلال؛ لأنَّهم هم الَّذين أضلوا أنفسهم، لم يخلقهم الله تعالى ضالين، إنَّما خلق الله عباده حنفاء، خلقهم على الفطرة، وإنَّما أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم.

من أوصاف الفاسقين:

ومن هم الفاسقون؟ يصفهم الله تعالى فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٧]. ينقضون عهد الله تعالى، سواء كان هذا العهد الفطري الَّذي كتبه الله بقلم القدرة في أعماق الفطرة حينما أخذ عليهم الميثاق: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. أو كان هذا العهد الَّذي أنزل الله به كتبه وبعث به رسله، العهد الَّذي بثَّه الله تعالى في وحيه المنزَّل على أنبيائه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

١ ـ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، بعد أن أخذ الله الميثاق، وقوَّاه ﷻ. هذه أوَّل صفة للفاسقين، نقض العهود والمواثيق.

إن الله تعالى وصف المؤمنين من أولي الألباب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠]. أمَّا الفاسقون فهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

٢ ـ يقطعون ما أمر الله به أن يوصل:

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يقطعون الوشائج الَّتي أمر الله تعالى أن توصل، كبِرِّ الوالدين أو صلة الأرحام أو إكرام الجيران أو الإحسان إلى الضعفاء من الأرامل واليتامى والمساكين والفقراء، يقطعون ما أمر الله به أن يوصَل، يقطِّعون هذه الوشائج الَّتي أقامها الله تعالى بين عباده.

٣ ـ يفسدون في الأرض:

﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الَّتي أمر الله بإصلاحها وتعميرها، كما قال الله ﷻ على لسان نبيِّ الله صالح: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ [هود: ٦١] أيْ: طلب إليكم أن تعمروها ولا تفسدوها ولا تخرِّبوها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أولئك هم الخاسرون الَّذين يضلهم الله تعالى بإنزال هذه الأمثال في كتابه؛ لأنَّهم استحقوا الإضلال؛ فهم ينقضون العهود والمواثيق، ويقطعون الصِّلات، ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون، الخاسرون في الدُّنيا، والخاسرون في الآخرة، خسروا أنفسهم وخسروا أهليهم يوم القيامة، أَلَا ذلك هو الخسران المبين.

QaradawiBooks.com

الدرس الثامن
من موجبات الإيمان

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨، ٢٩].

المخاطب بهذه الآيات:

هذه الآيات الكريمة خطابٌ من الله ﷻ للنَّاس كل النَّاس، وإن كان هناك من المفسِّرين من قال: هو خطابٌ للكفار، ولكن الأولى أن يكون خطابًا للجميع، إنَّ الله ﷻ خاطب النَّاس جميعًا فبيَّن لهم دلائل ربوبيته في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ثمَّ بيَّن لهم دلائل نبوَّة مُحَمَّد ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. ثمَّ أوعد وأنذر حين قال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]. ثمَّ وَعَد وبشَّر حين قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

QaradawiBooks.com

ثمَّ بيَّن موقف المؤمنين والكافرين من الأمثال القرآنيَّة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

كيف يكفر النَّاس بربِّهم الَّذي خلقهم؟

ثمَّ جاء هنا يلتفت مرةً أخرى ليخاطب الناس: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ كيف يكفر النَّاس بربِّ الناس؟ الكفر ضد فطرة الله الَّتي فطر النَّاس عليها، وتحدٍّ لمنطق العقل الَّذي ميز الله به الإنسان؟!

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾، انظروا في أنفسكم، تأمَّلوا ماذا كنتم؟ وكيف كنتم؟ ثمَّ إلام صرتم؟ لم تكونوا شيئًا مذكورًا ثمَّ كنتم، ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾، وهذا الموت هو العدم، يُعبَّرُ عنه بالموت.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾، أي: لم تكونوا شيئًا، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ فخلقكم الله ونفخ فيكم الروح، وجعلكم بشرًا أَسْوياء. كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١، ٢].

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾، وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدلُّ على أنَّ مبدعه ومدبره إلٰه واحد؟ ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل يدبر، وأكثر من يد تنظم، لاختلَّ نظامه، واضطربت سننه، وصدق الله:

QaradawiBooks.com

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

سِرُّ الحياة دليل على وجود الله:

كيف تكفرون بالله وتتحدُّون صوت الفطرة في صدوركم، وتتحدُّون الله الَّذي سوَّاكم؟

إنَّ سرَّ الحياة وحده كافٍ لأن يردَّ الإنسان من كفره ليرجِعَه إلى الإيمان.

مَن واهب الحياة؟ من الَّذي يستطيع أن يدَّعي أنَّه واهب الحياة؟ مهما ردُّوها إلى الخليَّة الأولى، فمن الَّذي وهب الحياة إلى الخَليَّة الأولى؟ إنَّه الله تبارك وتعالى.

هل يقولون الطبيعة؟ وما الطبيعة؟ الطبيعة مخلوقة، فكيف تكون خالقة؟ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. ليس هناك خالق إلَّا الله.

بعد الحياة موت، وبعد الموت حساب:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾، الله تعالى أحياكم وخلقكم من عدم، ثمَّ بعد ذلك يميتكم، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، أي: إنَّ حياتكم هذه ليست حياة مخلَّدةً على ظهر هذه الأرض، إنَّكم رَكْبٌ مسافر، ولا بد أن يأتي يومٌ تغادرون فيه هذه الدَّار، إنَّكم فيها ضيوف وسترتحلون يومًا، سيميتكم الله، وهذا أمر محسوس ملموس، لا بدَّ ـ إذن ـ أن تحسبوا حسابه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ألا تخافون من الإقدام على ما بعد هذه الحياة؟ وليت الأمر يقف عند الموت.

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا ... لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيِّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... وَنُسْأَلُ بَعْدَ ذَا عَنْ كُلِّ شَيِّ[1]

إنَّ الموت أشدُّ ممَّا قبله، وأهون ممَّا بعده، هناك حياةٌ أخرى، هناك البعث، وهناك بعد البعث الجزاء والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، تقفون بين يديه يسألكم عن كلِّ شيء، فحضِّروا ـ إذن ـ للسؤال جوابًا، كيف تكفرون **بالله** يا قوم؟ كيف تتحدَّون صوت الفطرة في صدوركم، وتتحَدَّون اللهَ الَّذي سوَّاكم، رحم الله أبا العتاهية حين قال:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَـ ... ـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ؟
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... عَلَيْنَا وَتَسْكِينَةٍ شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[2]

النعمة تدلُّ على المنعِم:

ثمَّ يقول الله تعالى ممتنًّا على عباده: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، كما قال

(١) البيتان لدلف بن أبي دلف في رؤيا رآها، رواهما الخطيب في تاريخ بغداد (٤٠٧/١٤)، تحقيق د. بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) الحماسة المغربية (١٤٢٠/٢)، تحقيق محمد رضوان الداية، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

في سورة نوح: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]. وفي سورة الرحمن: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٠ ـ ١٣]. وفي غيرها من آيات القرآن.

فالأرض هيَّأها الله لحياة الإنسان وهيَّأها للإنبات، فجعلها ذلولًا، وجعلها بساطًا ومهادًا، وهي لذلك نعمة للخلق، يجب أن يذكروها ويشكروها، والماء يسَّره الله تعالى، ينزله مطرًا أو يجريه أنهارًا، فيحيي به الأرض بعد موتها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩]. ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

والرياح يرسلها الله مبشرات، فتسوق السحاب، وتلقح النبات؛ وفي ذلك كله يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ١٩ ـ ٢٢].

خلق الله تعالى الأرض وما في الأرض للنَّاس كل النَّاس، إنَّ الله لا ينتفع بشيء ممَّا خلقه، وإنَّما هو مخلوق لكم، ولكم كلكم، ليس لفئة دون فئة، ولا لجنس دون جنس، كلُّ ما في الأرض مائدة مبسوطة مفتوحة لكلِّ النَّاس.

كلُّ ما في الأرض حلال إلَّا ما حرّمه نصٌّ قاطع:

وقد أخذ العلماء الأصوليون من هذه الآية أنَّ الأصلَ في الأشياء الإباحة، ما كان الله ليخلق الأشياء للناس، ثمَّ يَحْرِمُهم منها ويُحرِّمُها عليهم!

QaradawiBooks.com

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فالأصل في الأشياء الإباحة، ولا تحريم إلَّا بنصٍّ صحيح صريح من كتاب الله تعالى، أو سنَّة رسوله ﷺ، أو إجماع ثابت متيقن، فإذا لم يرد نصٌّ ولا إجماع، أو ورد نصٌّ صريح غير صحيح، أو صحيح غير صريح، بتحريم شيء من الأشياء، لم يؤثِّر ذلك في حِلِّه، وبقي في دائرة العفو الواسعة، قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا**»، ثمَّ تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤][(١)].

وقال ﷺ: «**إنَّ الله فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحرَّم حرمات فلا تنتهكوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**»[(٢)].

كل ما في الأرض مخلوق لكم أيُّها النَّاس، أمَّا أنتم، فمخلوقون لله ﷻ، كلُّ ما في الأرض مخلوق للإنسان، أمَّا الإنسان ذاته فهو مخلوق لله ﷻ.

---

(١) رواه البزار (٤٠٨٧)، وقال: إسناده صالح. والحاكم في التفسير (٣٧٥/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الضحايا (١٢/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩٤): رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون. عن أبي الدرداء.

(٢) رواه الدارقطني في الرضاع (٤٣٩٦)، والطبراني (٢٢١/٢٢)، والبيهقي في الضحايا (١٢/١٠)، وحسَّنه النووي في الأربعين النووية، الحديث الثلاثون، وقال ابن رجب: حسنه أبو بكر السمعاني في أماليه. جامع العلوم والحكم (١٥٠/٢)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م. عن أبي ثعلبة. والعمدة هو: حديث أبي الدرداء السابق.

QaradawiBooks.com

دعوة إلى التأمل في الكون واكتشاف مغاليقه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: هي دعوة للتأمل في الكون، واكتشاف مغاليقه، وقوانينه، فالله تعالى منح الإنسان من المواهب والطاقات ما يستطيع أن يفتح به مغاليق الطبيعة، ويتعرف على قوانين الكون، ويكتشف المجهول في الأرض، بحكم استخلافه فيها، وتسخير الكون له بسماواته وأرضه، وشمسه وقمره، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فإذا كان هذا الكون ـ في نظر القرآن ـ مسخَّرًا لمنفعة الإنسان، ولخدمة الإنسان، فلا جناح عليه أن يكتشف من أسراره يومًا بعد يوم ما غاب عنه، وخصوصًا الكون الصغير، وهو الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ولا يحسبن أحد من المتديِّنين أن هذا الاكتشاف فيه تطاول على الله تعالى، أو منازعة له في ملكه، فالحق أن ذلك لم يتم للإنسان إلَّا بفضل الله تعالى وتيسيره الأسباب للإنسان، والقرآن الكريم يُقرِّر في أوَّل آيات أنزلت منه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. كما قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وقد تدخل هذه الاكتشافات فيما وعد الله به في كتابه حين قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ونحن نعلم من ديننا أنَّ العلم بحر عميق زاخر، لا يكاد يُرى له ساحل

QaradawiBooks.com

ولا قرار، ومهما يكتشف الإنسان من مجاهيله، سيظل يجهل الكثير والكثير، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

كيف نفهم معنى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

استوى إلى السماء: قصد إليها، أو علا وارتفع، بلا تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ولا تحديدٍ ولا تعطيلٍ، ولا داعي لأن نخوض معركة في معنى «استوى»، وكما قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ وقد سُئل عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[1].

السماوات السبع:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، ما السماوات؟ لم يحدِّد القرآن ماهيَّة هذه السماوات السبع، ولو كان فيها نفع لنا في ديننا ودنيانا لحدَّدها.

إنَّ السماء هي تلك الأجرام العلويَّة الَّتي لا نعرف عنها إلَّا القليل، زيَّن الله السماء الدُّنيا منها بمصابيح، هي الكواكب والنجوم، أمَّا ما عدا ذلك فعِلْمُه عند الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ هذه الأجرام العظيمة سوَّاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأحسن صنعها، كما خلق الأرض وهيَّأها للنَّاس وبارك فيه، كما قال في

(١) العلو للعلي الغفار للذهبي صـ ١٦٨، تحقيق أشرف عبد المقصود، نشر مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط ١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

سورة فصلت: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١].

وكما قال في سورة ق: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]. في ستَّة أيام، ولم يتعب كما زعم اليهود أنَّه تعب ثمَّ استراح في اليوم السابع، لا، ما مسَّه من لغوب ولا تعب.

التسوية للخلق جميعًا:

وهذه التسوية ليست للسماوات وحدها بل لكل الخلق، قال تعالى عن خلق آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] وقال عن ذرية آدم: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٣٨]. وقال عن خلقه جميعًا: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣].

وقال هنا عن السماوات: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، ولهذا فهو يسوِّيها عن علم وخبرة، من هنا يظهر صنع الله متقنًا، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨]. ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة: ٧]. لأنَّه صنع العليم الحكيم، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]. ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، لا يخفى عليه شيء، ولا يغيب عنه شيء.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس التاسع
قصَّة خلق آدم

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

القرآن كما اشتمل على العقائد والعبادات والتشريعات، اشتمل على القصص، والقصص القرآني ليس الغرض منه التسلية ولا سرد الحكايات، وإنَّما غرضه أن يربِّي المؤمنين، لما فيه من عبرة، وما فيه من عظة، وهو ليس كقصص الأدباء الَّذين يخترعون الحوادث والأشخاص، ويُنطِقونهم بما يريدون، إنَّها قصص حقيقيَّة واقعيَّة، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١] ليس حديثا يُفترَى، ولكنَّها الحق، وهنا قصَّة آدم قصَّة الإنسان الأوَّل قصَّة حقيقيَّة.

قصَّة الإنسان الأوَّل (آدم عليه السلام):

تبدأ القصَّة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

﴿ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: وهذا الخطاب للنبيِّ ﷺ، يذكر له ربه فيه أوَّل قصَّة من قصص القرآن الكريم، وهي قصَّة خلق آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أيْ: اذكر يا محمَّد، إذ قال ربك ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، والملائكة خلق من خلق الله، ذكرهم الله تعالى في كتابه، وهم من عالم الغيب الَّذي يؤمن به المتَّقُون.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. لماذا قال الله هذا للملائكة؟

إنَّه يريد أن يستخرج ما عندهم، ويُظهر فضل هذا المخلوق الكريم آدم عليه السلام، ثمَّ يريد أن يعلِّم عباده المشاورة في الأمور، فهو الخالق، ومع ذلك يعرض الأمر على بعض مخلوقاته، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. لم يُرِدْ أن يخلق هذا الإنسان دون أن يُعلِم ملائكته وأهل سمائه عن هذا الأمر شيئًا.

معنى ﴿جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ما معنى كلمة خليفة؟ كلمة خليفة قد تعني: أنَّه خليفة عن الله، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

وقد تعني أنَّه خليفة عمَّن كان قبله، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

أو هي على معنى أنَّ ذريَّته تَخْلُف بعضها بعضًا، كما قال الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٩]. هذا ما ذكره المفسرون في معنى «خليفة».

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الأولى في تفسير معنى الخليفة:

ولست أريد هنا أن أرجِّح أحد الأقوال في معنى «الخليفة» في الآية الكريمة، وإن كان سياق القصَّة، من إعلان الله لملائكته مَقدَم هذا المخلوق الجديد قبل وجوده، وتعليمه الأسماء كلها، وإظهار تفوّقه على الملائكة في اختبار علني، وأمر الملائكة بالسجود لهذا الكائن الفريد، وجعل هذا السجود مترتبًا على قوله في سورتي الحجر وص: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩، وص: ٧٢] ـ فالقرآن يفسِّر بعضه بعضًا ـ وطرد إبليس من رحمة الله، ولعنه إلى يوم الدين، حين أبى أن يستجيب لأمر الله بسجود التحية والتكريم لهذا المخلوق ـ كل هذا قد يجعل النفس أميل إلى أنَّ الإخبار الإلٰهي للملائكة بأنَّه جاعل في الأرض خليفة، لا يدل على أنَّه مجرد مخلوق يخلف من كان قبله من سكان الأرض، أو تخلف ذريته بعضها بعضًا، بل نختار ما قاله السيد صديق حسن خان في تفسيره «فتح البيان» بعد أن ذكر الأقوال في المراد بالخلافة والخليفة: «والصحيح أنَّه إنَّما سُمِّي خليفة؛ لأنَّه خليفة الله في أرضه، لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه»[(١)].

وهذا التفسير هو الَّذي يتبادر إلى الذهن: أنَّه خليفة الله في الأرض، يحكم بأمر الله، ويسوس الأمور بعدل الله، وينفِّذ حكم الله، ويعمر الأرض وفق منهج الله ﷻ.

ولهذا كانت منزلة «الخلافة في الأرض» منزلةً اشرأبَّت إليها أعناق الملائكة، وَرَنَت إليها أبصارهم.

(١) انظر: فتح البيان (١٢٦/١)، نشر المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

تعبير «الإنسان خليفة الله في الأرض» من تعبيرات السلف:

وتعبير «خلافة الإنسان لله في الأرض» ليس تعبيرًا من مبتكرات الأدباء الإسلاميين المعاصرين، وليس أيضًا من مخترعات غلاة الصوفيَّة، بل هو مرويٌّ عن سادات المفسِّرين من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وهو أحد الآراء المذكورة في معنى الخلافة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ولم يَكَدْ يخلو من ذِكْره كتاب من كتب التفسير في القديم أو الحديث.

وأكتفي هنا بكتابين من كتب التفسير القديم:

الأول: ما ذكره ابن الجوزي في تفسيره: فقد ذكر في معنى خلافة بني آدم قولين أحدهما: أنَّه: خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه، ودلائل توحيده، والحُكْم في خلقه، وهذا قول ابن مسعود[١].

والثاني: ما قاله الفخر الرازي: إنَّما سمَّاه الله خليفة؛ لأنَّه يخلف الله في الحكم بين المكلَّفين من خلقه، وهو المرويُّ عن ابن مسعود وابن عبَّاس والسُّدِّي، وهذا الرأي متأكِّد بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦][٢] اهـ.

خلافة الأرض لآدم وذريَّتِه من بعده:

وإذا كانت الآيات الكريمة تتحدَّث عن قصَّة آدم، فإنَّ السياق يدلُّ على أنَّ المرشَّح للخلافة هو آدم وذريته مِن بعده، بدليل قول الملائكة:

---

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٥٠/١)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٢) تفسير الرازي (٣٨٩/٢).

QaradawiBooks.com

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فإنَّهم لا يقصدون بقولهم هذا آدم عليه السلام، بل يقصدون به هذا النوع الجديد من الخليقة بوجه عام.

كيف علم الملائكة أنَّ الإنسان سيفسد في الأرض؟

كيف عرف الملائكة أنَّ هذا الإنسان من شأنه أن يُفسِد في الأرض ويسفك الدماء؟

لعلَّ ذلك كان بإلهام من الله تبارك وتعالى، ركَزه في قلوبهم، أو عرفوا من مخلوقات كانت في الأرض قبل بني آدم، أو عرفوا من طبيعة هذا المخلوق الَّذي خلقه الله خلقًا مزدوجًا، يجمع بين الطين والروح، وهو مع ذلك مريد مختار، وله غرائزه وشهواته ودوافعه، له شهوة كشهوة البهائم، وله قوَّة غضبيَّة كقوَّة السباع المفترسة، معنى هذا: أنَّه تأتيه شهوته فتدفعه إلى أشياء، أو يأتيه غضبه فيدفعه إلى أشياء، فيفسد في الأرض ويسفك الدماء.

لعلَّ شيئًا من ذلك هو الَّذي جعلهم يقولون: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ بما عرفوا من طبيعة تكوينه، أو بقياسه على من سبقه من سكَّان الأرض، أو بإعلام من الله لهم، على اختلاف الأقوال والاحتمالات.

وهذا ما حدث في عهد آدم عليه السلام، قتل ابنُ آدم أخاه، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧].

عرفوا أنَّه لا بدَّ أن يقع منهم فساد وسَفْك للدماء، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؟ فقال لهم الله عز وجل: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

QaradawiBooks.com

تصوُّر الملائكة للخلافة في الأرض:

ونفهم من قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، تصوُّرهم أنَّ الخليفة لا بدَّ أن يكون للعبادة وحدها، وأن يكون مستغرقًا فيها، وأن يكون مفطورًا على العبادة، يفعلها طواعية من غير جهد كنفسه الَّذي يخرج منه ويدخل بغير جهد منه، وكما هو شأن الملائكة المفطورين على العبادة.

وكأنَّهم يشيرون إلى استحقاقهم لهذه الخلافة ولكنْ من طَرْفٍ خفي، فالملائكة مخلوقات لا تفتُر عن عبادة الله، ولا عن طاعته، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

إنِّي أعلم ما لا تعلمون:

ولكنَّ الله ﷻ يريد مخلوقًا جديدًا لحكمة، يريد منه أن يَعْمُر هذه الأرض، والملائكة لا تصلح لهذه المهمة، إنَّها لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل، إنَّ الله يريد نوعًا جديدًا مختارًا مريدًا، ولهذا ردَّ على الملائكة بهذا الرد الإجمالي: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وحسْب المؤمن إذا أراد أن يسأل عن حكمة أمرٍ خفيت عليه، أن يسمع هذا الجواب الإجمالي، ليطمئنَّ قلبه، ويعود إلى الصواب.

﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أنتم لا تعلمون ما عليه هذا المخلوق الجديد، وما أودعت فيه من مواهب وملَكَات وقُدرات يصلح بها أن يَعْمُرَ هذه البسيطة.

QaradawiBooks.com

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. فإذا عرف المخلوق هذه الحقيقة، فليس له ولا عليه إلَّا التسليم لله ﷻ، ليس من المطلوب دائمًا أن يعلم المخلوق تفاصيل حكمة الله وأسراره في كونه، إنَّما عليه أن يعرف بالإجمال أنَّ الله لا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يفعل شيئًا سُدًى ولا اعتباطًا، كلُّ خلقه بقدر، وكلُّ صُنْعِه بحكمة، وحسْب المؤمنين أن يقولوا ما قال أولو الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ٩١].

وَكَمْ لِلهِ مِنْ سِرٍّ خَفِيٍّ يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ[1]

أجاب الله الملائكة بهذا الجواب الإجمالي: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، ثمَّ عرَّفهم بعد ذلك بمنزلة هذا المخلوق وبقيمته وكرامته حين عقد الامتحان والمسابقة الَّتي أظهرت فضل آدم كما تدلُّ على ذلك الآيات التالية إن شاء الله.

إنَّ من أهداف خلق الله للإنسان أن يخلف اللهَ تعالى في الأرض ـ كما رجَّحنا في معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠] ـ أريد أن أجعل خليفةً في الأرض ينوبُ عن الله تعالى في إقامة أحكامه، وإقامة عدله، ونشر دعوته.

والملائكة غفلوا عن أن حكمة لله تعالى هي أكبر من علمهم وإدراكهم، أنَّ الله يريد نوعًا آخر من الخليقة ليس كالملائكة عقلًا بلا شهوة، وليس كالبهائم شهوة بلا عقل، ولكنَّه مخلوق يجمع بين العقل والشهوة، فيه الغرائز والشهوات، وفيه العقل، ولهذا يمكن أن يرتقيَ فيكون كالملائكة أو أعلى، ويمكن أن يهبط فيكون كالأنعام أو أضل سبيلًا.

(١) ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب، كما في الديوان المنسوب إليه صـ ١٥٤، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

QaradawiBooks.com

أراد الله أن يخلق هؤلاء المكلَّفين من الخلق، وأن ينوط بهم أمرَه ونهيَه، وأن يُبرِز فيهم آثار أسمائه وصفاته، وأن يجعل لهم الجزاء في جنته وناره، ولهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. أنتم لا تعرفون الحكمة من خلق هذا النوع.

تعليم آدم الأسماء كلها:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. أراد الله تعالى أن يُظهر للملائكة فَضْل آدم، وما خصَّه الله به من مواهب وقدرات ترشِّحه للخلافة في الأرض، فعقد ما يشبه «المسابقة» أو «الامتحان» بينه وبينهم، فظهر تفوُّق آدم على الملائكة في «العلم»، لأنَّ الله هيَّأه ليقوم بعمارة الأرض، وخلافة الله فيها، فقد منَحَه من المواهب والقدرات ما يمكِّنه من أداء مهمته.

ورسالة المؤمن في الحياة أن يعرف الله تعالى ويعبده، وأن يكون خليفةً له في أرضه، ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠]. هذه المنزلة الَّتي اشرأبَّت إليها أعناق الملائكة، ورَنَتْ إليها أبصارهم، وقالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

أراد الله أن يُبَيِّن لهم أنَّهم لم يُهيَّؤوا لهذا، ليس عندهم غرائز، ولا شهوات، لا يصلحون لعمارة الأرض، وأنَّ آدم هو الَّذي سيقوم بهذه الخلافة وذريَّته من بعده، لاستحقاقه لها لطبيعته الَّتي خلقه الله عليها.

تعليم آدم الأسماء كلِّها:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ آدم عليه السلام هو الخليفة المنتظر، علَّمه الله الأسماء

QaradawiBooks.com

كلَّها، والأسماء رمز للمُسمَّيات، علم الله آدم أنَّ هذا الشيء اسمه شجرة، وهذا اسمه جبل، وهذا اسمه بحر، وبهذا يستطيع أن يتفاهم مع غيره دون أن يُحضر الشجر، ودون أن يذهب إلى البحر، ودون أن يمشي إلى الجبل.

علَّمه الأسماء، والأسماء هي بداية اللغات البشريَّة، فالطفل أوَّل ما ينطق ينطق بالأسماء، ثمَّ تتطور لغته شيئًا فشيئًا.

واللغة هي أداة الارتقاء المعرفي. اللغة أداة لا بدَّ منها لعمران الحياة وتطويرها.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ لأنَّه في حاجة إلى ذلك للقيام بمهمة الخلافة والعمارة للأرض، ولم تكن الملائكة في حاجة إلى ذلك، ولهذا لم يعلموا ما علمه آدم، فكان هذا الأمر بينهم وبين آدم.

قيمة العلم في الإسلام:

والعلم قيمة من القيم العليا، الَّتي جاء بها الإسلام، وأقام عليها حياة الإنسان المعنويَّة والماديَّة، الأخرويَّة والدنيويَّة، وجعله طريق الإيمان وداعي العمل، وحامله هو المختار للخلافة في الأرض، وبه فُضِّل آدم أبو البَشر على الملائكة، الَّذين تطلَّعوا إلى منصب الخلافة؛ لأنَّهم أعبد من بني الإنسان الَّذين توقَّعوا منهم أن يفسدوا في الأرض ويسفكوا الدماء.

والإسلام هو دين العلم، والقرآنُ كتاب العلم، وأولُ ما نزل منه على الرسول الكريم ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. والقراءة هي باب العلم.

والقرآن يجعل العلم أساس التفاضل بين الناس: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. كما يجعل القرآن أهل العلم هم الشهداء

QaradawiBooks.com

لله تعالى بالتوحيد مع الملائكة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأهل العلم هم المؤهَّلون لخشية الله تعالى وتقواه، فلا يخشى اللهَ إلَّا مَن عَرَفَهُ، وإنَّما يُعرف اللهُ بآثار قدرته ورحمته في خلقه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد عجبتُ لبعض علماء الدِّين في عصرنا، جنحوا إلى رأي غريب، ذهبوا فيه إلى أنَّ كلَّ النصوص الَّتي وردت في آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم، في فضل العلم والعلماء، إنَّما يُقصد بها العلم الدِّيني وحده، وعلماء الدِّين دون غيرهم.

وقد يكون هذا صحيحًا في قليل من النصوص الواردة في الأصلين العظيمين في الإسلام: «القرآن والسُّنَّة»، ولكنَّ أغلب النصوص الَّتي تتحدث عن العلم وردت عامَّة ومطلقة، تشمل كُلَّ علم دينيٍّ أو دنيوي، وبعضها لا يمكن أن يُفهم منه إلَّا أنَّه العلم الدنيوي: العلم بالكون والحياة والإنسان، وما يجري عليها من سنن.

المراد بعلم أسماء الأشياء:

والعلم بأسماء الأشياء يعني ـ والله أعلم ـ: العلم بخصائصها وفوائدها، يتَّصل بذلك من مهماتها في الحياة، وهذا ـ بالقطع ـ ليس علما دينيًّا، ولعله لو كان علمًا دينيًّا لكان الملائكة أولى بالعلم به من آدم؛ لأن الملائكة هم الَّذين ينزلون بالوحي على رسل الله عليهم السلام.

فلا يمكن أن يكون علمًا دينيًّا؛ لأنَّ آدم لم يكن قد أُنزل عليه وحْي، حتَّى يتكوَّن من ورائه علم دينيّ، إنّما هو علم بأسماء الأشياء، الَّتي أودعها الله في الأرض، والَّتي سيحتاج آدم إلى التعامل معها.

QaradawiBooks.com

عرض الأسماء على الملائكة:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾، عرض الله ﷻ بعض الأشياء على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢] من أين نعلم ولم تُعلِّمْنا؟ وقفوا عند ما يعلمون.

وهكذا ينبغي أن يقف كلُّ إنسان عند حدود ما يعلم، ولا يتطاول إلى ما لا علم له به.

إثبات الله للملائكة استحقاق آدم للخلافة:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣]. إنِّي أعلم ما كان في ضمائركم، ومَا خفي عنكم، وأعلم ما تظهرونه، فعلمي محيط بكل شيء، أعلم كل ما غاب في السماوات والأرض، وأعلم الحاضر والمستقبل، وقد خلقت هذا الإنسان ليقوم بهذه المهمة الَّتي لا تقدرون عليها.

وبهذا دلَّنا القرآن على أنَّ العلم هو المؤهِّل الأوَّل والمرشِّح الأوَّل للخلافة في الأرض، فلا خلافة بلا علم، فبالعلم يقدر الإنسان على الحل والتركيب، وعلى عمارة هذه الأرض والرقي بها، وبهذا استحقَّ آدم الخلافة في الأرض، وتفوَّقَ على ملائكة الله المقرَّبين.

ونكمل قصَّة أبي البشر آدم عليه السلام عند بيان الآيات التالية في درسنا القادم إن شاء الله.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس العاشر
تتمَّة قصَّة آدم

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۞ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٤ ـ ٣٩].

تكريم الإسلام للإنسان:

هذه هي الحلقة الثانية من حلقات قصَّة أبي البشر آدم عليه السلام، الَّذي كرَّمه الله تبارك وتعالى أعظم تكريم، وخلقه في أحسن تقويم، ونفخ فيه من رُوحه، وخلقه بيديه، وأسجد له ملائكته.

يدلُّنا هذا على مكانة الإنسان في نظر الإسلام، فالإنسان ليس كَمًّا مهمَلًا، ليس مجرَّد حيوان متطوِّر كما ينظر إليه الداروينيُّون، ليس مجرَّد أداة للإنتاج والاستهلاك كما ينظر إليه الماديُّون، إنَّ الإنسان هو خليفة الله تعالى في أرضه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الله ﷻ خلق هذا الإنسان من طين، أو من صَلْصَال من حمأ مسنون، ولكنَّه بعد أن خلقه من مادة هذه الأرض وطينها وصلصالها، سوَّاه ونفخ فيه من روحه.

هذه النفخة الروحانيَّة الربَّانيّة هي الَّتي جعلته بشـــرًا سويًّا، وجعلته مستحِقًّا للخلافة في الأرض، وجعلته أهلًا لأن تسجد له الملائكة، كما جاء في سورة «الحجر» وفي ســـورة «ص»: أنَّ الله تعالى قال للملائكة: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩، وص: ٧٢]. هذا هو المخلوق الَّذي كرَّمه الله تبارك وتعالى واستخلفه في الأرض.

سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وعناده:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾، أمر الله الملائكة أن يسجدوا تحية لهذا المخلوق، أن ينحنوا تكريمًا وإكبارًا له بأمر الله ﷻ.

﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقـــرة: ٣٤]. وقف إبليس يعاند الله ﷻ، ويدَّعي أنَّه خير من آدم. وما كان لمخلوق أن يقف إزاء أمر خالـــق ويتمرَّد على طاعته، ومن هنا طـــرده الله ﷻ، حيث أبى واستكبر، وكان من الكافرين.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ معصيـــة إبليس كانـــت معصية قلب، وهي: الكِبْر، رفض أمْر الله بالسجود لآدم، وقال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعـــراف: ١٢]. ما منعه إلَّا الكِبْر، إنَّها الســـيِّئة الَّتي تحرم صاحبها من الجنَّة، وجاء في ذلك الحديـــث الصحيح: «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر**»[(١)].

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

هل كان إبليس من الملائكة؟

إبليس لم يكن من الملائكة، ولكنَّه كان معهم؛ فعومل معاملتهم، وخوطب خطابهم، وشمله الأمر بالسجود لآدم.

والدليل على أنَّه لم يكن من الملائكة أنَّ الله تعالى وصف الملائكة بأنَّهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وهذا عصى الله وأبى واستكبر، وعاند الله ﷻ، وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، وص: ٧٦]. ثمَّ إنَّ القرآن قال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. فدل على أن أصله من الجن.

وممَّا يدلُّ على ذلك أنَّه قال لله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢، وص: ٧٦]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]. ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]. وكل هذه دلائل على أنَّ إبليس لم يكن من الملائكة، وإنَّما كان من الجن. كل ما في الأمر أنَّه عاش معهم، فعومل معاملتهم، وعلى هذا الأساس شمله أمر السجود.

المعركة بين الشيطان والإنسان:

وقد بدأت المعركة بين الشيطان والإنسان، منذ أن خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من رُوحه، وأسكنه جنَّته، وأمر ملائكته أن تسجد تكريمًا له، فسجدوا كلُّهم أجمعون، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، استكبر إبليس على أمر الله، وأبى أن يسجد كما أمر الله، تمرُّدًا على ربِّه، وغرورًا بنفسه، وحسدًا لآدم على ما آتاه الله من فضله، ووقف موقف التحدِّي لخالقه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن ذلك اليوم، أعلن إبليس عداوته لآدم وبنيه، وأقسم بعزَّة الله أن يقف لبني آدم بالمرصاد، ويغويَهم أجمعين، كما حكى الله عنه في قوله: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

أقسم اللعين أن يأتيَهم من كلِّ الجهات، ليغويَهُم، ليرغِّبهم في الدُّنيا، ويزهِّدهم أو يشكِّكهم في الآخرة، ويثبِّطهم عن الحسنات، ويغريهم بالسيئات، حتَّى يضلَّ أكثرهم عن سبيل الله.

والإنسان يعينه على نفسه الَّتي بين جَنْبيه كبح هوى نفسه، فهي مع الشيطان عليه، كما أنَّ له أعوانًا من بني آدم، ممَّن اتبعوه ومشَوا في ركبه، فتشيطنوا مثله، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ومن شياطين الإنس هؤلاء مَن يرتقي في الشرِّ والغَيِّ، حتَّى يفوق بعض شياطين الجن، كما قال بعضهم:

وَكُنْتُ امْرَأً مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى بِيَ الْحَالُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي[(١)]

وقال بعض السلف: إنَّ شيطان الإنس أشدُّ عليَّ من شياطين الجنِّ، إنَّ شيطان الجنِّ إذا ذكرتُ الله تعالى خنس وهرب، وهذا يأتي حتَّى يأخذ برقبتي[(٢)].

وإبليس وجنده يعملون ليل نهار، في إغواء بني الإنسان، لا يأخذون

(١) نصر بن أحمد الخبزرزي. انظر: ديوانه صـ ١٢٣، قصيدة (٤٨)، ضمن مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول، المجلد الأربعون، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(٢) انظر: تفسير البغوي (١٥٣/٢)، من قول مالك بن دينار.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

راحة ولا إجازة، حتَّى سُـئل الحسن البصري يوما: يا أبا سعيد! هل ينام الشيطان؟ فقال لو نام لاسترحنا[١].

وقد حذَّر القرآن من الشـيطان، ومن عداوته وكيده للإنسان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

والله تعالى قد سلَّط الشيطان على الإنسان ابتلاء له، واختبارًا لصدق عبوديته لربه، ليصقُله بهذا الابتلاء في الدُّنيا، ويُعدَّه للخلود الأبدي في الآخرة.

عالَم الغيب:

والشـيطان نوع من خلق الله، ولكنَّه جزء مـن العالم غير المنظور الَّذي لا نبصره، كمـا قال تعالـى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

ففي عالمنا هذا: ما نراه بأعيننا، وندركه بحواسِّـنا، وفيه: ما لا نراه ولا نبصره، وممَّا لا نبصره أغلب العالم المادي الَّذي نعيش فيه، فنحن لا ندرك كلَّ أجزاء الكون المادِّي، بل قالـوا: إنَّ (٩٧٪) من هذا الكون لا ندركها، وهي الَّتي يسمُّونها «الأعماق السوداء».

وهناك في عالمنا هذا: أشياء غير ماديَّة في تكوينها، ولا يجري عليها ما يجري على المادَّة، من سُنن وقوانين.

منها: الملائكة، وهـم جند الله، المخلوقون من نـور، المفطورون على عبادته وطاعته، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ

(١) إحياء علوم الدين (٣١/٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

ومنها: الجنُّ، وهم خلق مكلَّفون مثلنا بعبادة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ولكنَّهم يروننا ولا نراهم، ولهم من الإمكانات ما ليس لنا، كما أنَّ عندنا من القدرات ما ليس عندهم، ولذلك سخَّر سليمان الجنَّ لخدمته، ولم نعلم أنَّ جنيًّا سخَّر الإنسان ليخدمه.

ومن الجنِّ مؤمنون وكافرون، وأخيار وأشرار، وصالحون وطالحون، كما ذكر لنا القرآن في سورة الجنِّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ۞ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

وشرُّهم «الشياطين»، وهم مَرَدَة الجنِّ، وشيخهم ورئيسهم إبليس الَّذي لعنه الله، وطرده بعد عصيانه لربِّه، ورفْضِه لأمره.

وعدم رؤيتنا لهؤلاء المخلوقين المستورين من الملائكة والجنِّ: لا ينفي وجودهم، فكم من أشياء كانت موجودة، ولها تأثيرها الكبير في حياتنا، ولم نكن نراها، مثل الجراثيم والفيروسات؛ لأنَّنا لم نكن نملك القدرة على رؤيتها، حتَّى علَّم الله الإنسان ما لم يعلم، وآتاه من الوسائل والآلات ما استطاع به أن يكتشف هذه الموجودات، ويشاهدها بعينه، بواسطة الأجهزة المكبِّرة. ولم يكن يعلم الإنسان: أنَّ «نطفة» الرجل، تحوي مئات الملايين من «الحيوانات المنوية».

فلا ينبغي للإنسان أن يسارع بإنكار وجود الشيطان، ويقول: شيء لا أراه كيف أومن به؟ فإن هذا خطر على العقيدة الَّتي تقوم أوَّل ما تقوم على الإيمان بالغيب، ومنه ـ بل أوله ـ الإيمان بالله جلَّ وعلا، الَّذي ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

QaradawiBooks.com

إنَّ هذه القوَّة الخفية نُحِسُّ بآثارها، وإن لم نكن نراها، سلَّط الله الشيطان على الإنسان ليوسوس له في صدره، ويزيِّن له المعصية، ويُغريَه بالقعود عن الخير واتباع الهوى، ويضلَّه عن سبيل الله.

أمر الله آدم وزوجه بسُكنى الجنَّة وعدم الأكل من الشجرة:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. أسكن الله آدم وزوجه الجنَّة، هل كانت الجنَّة دار النعيم الَّتي أعدها الله لعباده في الآخرة أو هي جنَّة من جنات الدُّنيا، بستان من البساتين في مكان لا يعلمه إلَّا الله؟ الله أعلم، لا ندخل في تفاصيل ذلك، وهناك خلاف في ذلك.

سُنَّة الازدواج في الكون:

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، الله تعالى خلق الكون كلَّه أزواجًا، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

كان النَّاس قديمًا يظنّون أنّ الازدواج ـ الَّذي يتمثل في الذكورة والأنوثة ـ قائم في عالم الإنسان، وفي عالم الحيوان فقط، وعرفوا في عالم النبات أنَّ في النخيل ذكورًا وإناثًا، ثمَّ جاء العلم الحديث فقال: كلُّ النباتات فيها ذكورة وأنوثة، بل كلُّ الكائنات، الكهرباء فيها موجب وسالب، الذرة ـ وهي أصْغر جزءٍ في عُنصر ما، يصحُّ أن يدخل في التفاعلات الكيميائية ـ فيها شحنة كهربائية موجبة وشحنة كهربائيّة سالبة «إلكترون وبروتون»، فالحياة كلُّها، والكون كلُّه قائم على سنة الزوجيَّة، ولا يوجد فرد إلَّا الله ﷻ.

ولمَّا خلق الله تعالى آدم لم يدعه وحده، وإنّما خلق له من جنسه زوجًا

QaradawiBooks.com

ليسكن إليها، وقال له: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، لأنّه لا معنى لجنّة يعيش الإنسان فيها وحده، لا أنيس له ولا جليس، النَّاس يقولون في أمثالهم: «الجنة من غير ناس ما تنداس». من أجل ذلك كان هذا الازدواج، خلق الله النَّاس من ذكر وأنثى، لم يذكر القرآن اسم زوجه، ولكن المعروف أنَّها حواء.

التكليف لآدم وزوجه جميعًا:

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ توجه الأمر إليهما معًا، كُلِّفت حواء كما كلف آدم سواء بسواء، وهذا دليل على أنَّ المرأة مكلَّفة كما كلف الرجل.

غواية الشيطان لآدم وزوجته:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، أزلهما الشيطان عنها، أي جعلهما يزلان وتنزلق أقدامهما، وسوس لهما: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. وما زال يوسوس له ويحلف له ويقسم له كاذبًا، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. ولم يكن آدم يظنُّ أن هناك من يقسم كاذبًا بالله، فغرَّه هذا الشيطان اللعين، ودلَّاه بغرور، فأكل من الشجر، وأكلت حواء تبعًا له، كما قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١].

القرآن حمَّل آدم مسؤوليَّة الأكل من الشجرة:

ليست حواء هي الَّتي أغرت آدم بالأكل من الشجرة كما في «سفر التكوين» في العهد القديم[1]، ليس في القرآن ما يدل على أن حواء تتحمل هذه المسؤوليَّة، بل القرآن يدل على أن آدم هو المسؤول الأول،

(١) انظر: سفر التكوين (٣: ٣ ـ ١٧).

QaradawiBooks.com

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طـه: ١٢١]. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. المسـؤوليَّة الأولى لآدم، وزوجه أكلتْ تبعًا له؛ فلا تتحمل وزر إغرائه كما يقول اليهود والنَّصارى.

الهبوط إلى الأرض:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ هبط آدم، وهبطت زوجه حواء، وهبـط إبليس، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. خُلِق آدم للأرض أساسًا، وإنَّما كانت هذه التجربة قبل الأرض ليعرف منها أنَّ هناك أشياء محظورة، وهناك تكاليف، ويتدرَّب على هذا الأمر، ويعرفَ أنَّ الإنسـان إذا عصى فلا بدَّ له أن يتوب، يعرف هذا كله بالممارسة والتجربة، قبل أن يهبط إلى هذه الأرض الَّتي فيها مستقره ومتاعه إلى حين.

الفرق بين معصية آدم وإبليس:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقـرة: ٣٧]. إن آدم عصى وإبليس عصى، ولكن ما أعظم الفرق بين المعصيتين! معصية إبليس كانت معصية إباء واسـتكبار على الله، كانت رفضًا لأمر الله ﷻ، ومحادَّة لله تبارك وتعالى ومعاندة، ولكـن معصية آدم كانت عن ضعف وغفلة ونسيان، ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

ثمَّ إنَّ إبليس عصى ربه ولم يرجع، ولم يتُبْ، ظل سادرًا في غلوائه، مستمرًّا في استكباره، يقول لربه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

QaradawiBooks.com

أمَّا آدم فسرعان ما عرف ذنبه، وندم عليه، واستغفر ربه، وقرع بابه تائبًا منيبًا مستغفرًا هو وزوجه، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. لهذا كانت النتيجة أن إبليس طُرد مذؤوما مدحورًا، وتُوعِّد بجهنم، أمَّا آدم فتلقى من ربه كلمات فتاب عليه، إنَّه هو التواب الرحيم، يقبل من رجع إلى بابه، ولا يرد أحدًا عنه.

المنهاج الَّذي ينبغي أن يسير عليه آدم وذريته:

ثم يقول الله تعالى مبيِّنًا المنهاج الَّذي ينبغي أن يسير عليه آدم وزوجه بعد إهباطهما إلى الأرض وذريتهما من بعدهما: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ إذا جاءكم هدى من الله.. وحي من الله ﷻ، فإن الله لم ينزله عبثًا، إنَّما أنزله الله ليُتَّبع، وليسار عليه، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، في الدُّنْيا ولا في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لأنَّهم يعيشون العيشة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

ومن أعرض عن ذكر الله ومنهجه فإنَّ له المعيشة الضنك في الدُّنْيا والعذاب في الآخرة، كما جاء في سورة طه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أيْ: الَّذين رفضوا هدى الله، الَّذين رفضوا منهج الله ﷻ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الحادي عشر
بنو إسرائيل في القرآن الكريم

تهنئة بقدوم رمضان

أتقدم إليكم جميعًا بالتهنئة بحلول هذا المبارك الكريم، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، شهر الصيام والقيام والتطهر والتزوُّد، فـ«**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[١] «**ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[٢].

ولذلك كان السلف رضوان الله عليهم يُسمُّون هذا الشهر الكريم موسم المتَّقين، ومتجر الصالحين، وكانوا إذا قدم رمضان يقولون: مرحبًا بالمطهِّر؛ لأنَّهم يتطهرون فيه، ويغتسلون فيه، لا يغسلون أجسامهم، ولكن يغسلون قلوبهم وأرواحهم ونفوسهم، من أدران الذنوب والخطايا، ويعتبرون هذا الشهر فرصة ليخرجوا منه بالمغفرة من الذنوب، كما قال ﷺ: «**غفر له ما تقدَّم من ذنبه**».

فنسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا على حسن صيام هذا الشهر وحسن قيامه، وأن يجعلنا فيه من السابقين في الخيرات، ومن المسارعين إلى

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.
(٢) متَّفق عليه: البخاري في الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

مغفرة من ربِّهم وجنَّة عرضها السماوات والأرض أعدَّت للمتَّقين، نسأل الله أن نكون منهم.

غير مرخصة للطباعة

وقفات مع التفسير الموضوعي:

نقف أيُّها الإخوة كعادتنا وقفات مع كتاب الله ﷻ، وقد اقترح عليَّ بعض الإخوة فقال: لك أربعين سنةً تتحدَّث عن آيات في كتاب الله، في كلِّ ليلة آية آو بضع آيات، تتحدَّث فيها بما نُسمِّيه التفسير التحليلي، فقال لي: هل لك أن تبدأ هذا العام بنوعٍ جديد من التفسير نطلق عليه أكاديميًّا التفسير الموضوعي للقرآن؟ وذلك بأن نختار موضوعًا من الموضوعات ونتتبَّعه في سور القرآن الكريم، فلعلَّ هذا يكون فيه جِدَّة على المستمعين والحاضرين، وسوف نحاول هذا إن شاء الله.

بنو إسرائيل في القرآن:

وإذا أردنا أن نبدأ بهذا النوع من التفسير، فلعلَّ أوَّل ما يخطر على بالنا ونحن نستمع إلى سورة البقرة، لعلَّ الموضوع الَّذي يخطر ببالنا لنتحدَّث عنه، هو موضوع بني إسرائيل، الآيات الَّتي استمعنا إليها معظمها يدور حول هؤلاء القوم، حول بني إسرائيل، حوالي جزء من القرآن الكريم في سورة البقرة، يتحدث عن بني إسرائيل، من قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] وما بعده من آيات إلى ربع ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الَّذي يتحدث عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وموقف بني إسرائيل منه، فقد أثاروا حولها ضجَّة، واتَّهموا المسلمين بالتحيُّر في أمر قبلتهم وعبادتهم وقالوا: إنَّ القبلة الأولى ـ وهي بيت المقدس ـ إن كانت على حقٍّ، فقد تركتم أيُّها المسلمون الحقَّ، وإن كانت على باطل

QaradawiBooks.com

فعبادتكم السابقة باطلة، ولو كان مُحَمَّد ﷺ نبيًّا حقًّا ما ترك قِبْلة الأنبياء قبله وتحوَّل إلى غيرها وما فعل اليوم شيئًا وخالفه غدًا.

ومقصدهم الأوَّل من وراء هذه المقالات المرذولة، الطعن في شريعة الإسلام، وفي نبوَّة النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

ولذلك تحدَّثت الآيات قبلها عن النسخ، ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وهذا رد على بني إسرائيل: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

التديُّن الصحيح:

لقد بيَّن لهم أنَّ التديُّن الصحيح لا يتحقَّق بالشكليَّات والطقوس مع البُعد عن حقيقة التديُّن وجوهره، والَّذي يتمثَّل في العقيدة السليمة، والعبادة الصحيحة، والأخلاق القويمة، والقِيَم النبيلة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فسورة البقرة سَبَحَتْ سبحًا طويلًا في الحديث عن بني إسرائيل.

حديث سورة آل عمران عن بني إسرائيل:

وفي سورة آل عمران حديث عن بني إسرائيل ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، هؤلاء

QaradawiBooks.com

يهود بني قينقاع الَّذين تحدَّوا رسول الله ﷺ، وقد غاظهم وآلم قلوبهم انتصارُ النبيِّ ﷺ في غزوة بدر، فجمعهم ﷺ بسوقهم، ثمَّ قال: «**يا معشرَ يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنَّكم قد عرفتم أنِّي نبيٌّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم**»، قالوا: يا محمَّد، إنَّك ترى أنَّا قومك! لا يغرنَّك أنَّك لقيتَ قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصة، إنَّا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس.

فأنزل الله قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣][1].

إعراضهم عن تحكيم التوراة:

وفي السورة نفسها جاءت هذه الآيات عن بني إسرائيل، تُنكر عليهم إعراضهم عن تحكيم التوراة الَّتي يزعمون التمسُّك بها، وتطبيق أحكامها، فيما يخصُّ نبوَّة النبي مُحَمَّد ﷺ والإيمان به: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

وقد حملهم على ذلك أنَّهم سهَّلوا على أنفسهم أمر العقاب، وتوهَّموا أنَّهم لن يُعذَّبوا عذابًا طويلًا، بل النَّار ستمسهم أيامًا قليلة، ثمَّ بعد ذلك يخرجون منها، لأنَّهم أبناء الله وأحباؤه، ولأنَّ آباءهم سيشفعون

(١) الروض الأنف في شرح السيرة النبويَّة لأبي القاسم السهيلي (٢٧٦/٥)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ ١٤١٢هـ.

QaradawiBooks.com

لهم في زعمهم، وهذا من الغرور الَّذي يبعد الإنسان عن حسن الاستعداد لما يجب عليه نحو دينه ودنياه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

ردُّ المسلمين عن دينهم:

وفي السورة نفسها في سورة آل عمران، جاءت هذه الآيات الَّتي تحكي عن طائفة من أهل الكتاب طريقة ماكرة لئيمة، هي تظاهرهم بالإسلام لفترة من الوقت ليحسن الظن بهم من ليس خبيرًا بمكرهم وخداعهم، حتَّى إذا ما اطمأنَّ النَّاس إليهم جاهروا بكفرهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه، ليوهموا حديثي العهد بالإسلام أو ضعاف الإيمان، أنَّهم قوم يبحثون عن الحقيقة، وأنَّهم ليس عندهم أي عداء للنبيِّ ﷺ، بل إنَّ الَّذي حصل منهم هو أنَّهم بعد دخولهم في الإسلام وجدوه دينًا باطلًا، وأنَّهم ما عادوا إلى دينهم القديم إلَّا بعد الفحص والاختبار وإمْعان النظر في دين الإسلام.

ولا شكَّ أنَّ هذه الطريقة الَّتي سلكها بعض اليهود لصرف بعض المسلمين عن الإسلام من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطاني؛ لأنَّ إعلانهم الكفر بعد الإسلام، وبعد إظهارهم الإيمان به، من شأنه أن يدخل الشكَّ في القلوب، ويوقع ضعاف الإيمان في حَيْرة واضْطراب، خاصَّة وأنَّ العرب في مجموعهم قومٌ أُمِّيُّون، ومنهم من كان يعتقد أنَّ اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدِّين، فيظنُّ أنَّهم ما ارتدُّوا عن الإسلام إلَّا بعد اطِّلاعهم على نقص في تعاليمه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ

QaradawiBooks.com

ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٢ ـ ٧٤].

الدسُّ والوقيعة بين المسلمين:

وفي السورة نفسها أيضًا جاءت آيات تتحدَّث عن بني إسرائيل وكيف أنَّهم عملوا على زرع الفتنة في صف المجتمع المسلم، وذلك بإحياء النعرات القوميَّة، وإذكاء العصبيات الجاهلية بين الأوس والخزرج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١] فهؤلاء فريق من أهل الكتاب من بني إسرائيل من اليهود.

حديث سورة النساء عن بني إسرائيل:

وإذا نظرنا في سورة النساء، نجد عريضة اتهام طويلة، تحتوي على تهم كثيرة في حقِّ الله تعالى وحقِّ رسله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ۞ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۞ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا

QaradawiBooks.com

لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۞ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٦١].

أساليب اليهود في رد المسلمين عن دينهم:

لقد دأب اليهود على الدخول مع الرسول ﷺ على استعمال أسلوب المجادلات الدينيَّة، والخصومات الكلاميـــة، لزلزلة الإيمان في نفوس المسلمين، مثل مجادلتهم في شـــأن نبوَّة النبي مُحَمَّد ﷺ والطعن فيها، بادِّعائهم أنَّه ليس هو النبيَّ المنتظر الَّذي بشَّرت به الكتب السماويَّة، بعد أن عرفوا صدقه كما يعرفون أبناءهـــم، وأنَّ محمدًا لم يأت بالمعجزات الَّتي أتى بهـــا الأنبياء الســـابقون، فهم معذورون في عـــدم الإيمان به، ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٨٣]

وكذلك مجادلتهم في شـــأن ملَّة إبراهيـــم عليه السلام وادِّعائهم أنَّهم أوْلى النَّاس به؛ لأنَّه كان يهوديًّا: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨] ادعوا أنَّهم أولى النَّاس به؛ لأنَّه كان يهوديًّا وغير ذلك من المجادلات والخصومات الدينيَّة الَّتي أرادوا بها تشكيك المسلمين في عقيدتهم، وزعزعة الإيمان في قلوبهم، فهم يودون أن يرتد المسلمون عن دينهم حسدًا من عند أنفسهم.

QaradawiBooks.com

توجيه الأسئلة المتعنتة للنبيِّ ﷺ بقصد تعجيزه:

فلما وجدوا أنَّ هذه المجادلات قد فشلوا فيها، وخرجوا منها بالخيبة والخسران؛ لأنَّ القرآن الكريم لقَّن الرسول ﷺ الإجابات الَّتي تبطل حجَّتهم وتخرس ألسنتهم، لجؤوا إلى وسيلة أخرى لتشكيك المسلمين في عقيدتهم، ألا وهو توجيه الأسئلة المتعنِّتة إلى الرسول ﷺ بقصد إحراجه، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مطالبهم.

لقد سألوا النبيَّ ﷺ كما بيَّنت هذه الآيات، أن ينزل عليهم كتابًا من السماء مكتوبًا جملة كما جاء موسى لآبائهم بالتوراة مكتوبة في الألواح جملة. أو أن تنزل على رجال منهم بأعيانهم كتبًا من السماء تأمرهم بتصديقه، وسؤالهم هذا مقصدهم من ورائه التعنُّت والجحود، ولو كانوا يريدون الإيمان حقًّا لما وجَّهوا إليك هذه الأسئلة المتعنِّتة لأنَّ الأدلة القاطعة قد قامت على صدقك.

من جرائم اليهود التي ذكرها القرآن:

قد ذكرت هذه الآيات عددًا من جرائم اليهود التي فعلوها.

الجريمة الأولى: طلبهم من موسى أن يروا أرنا الله جهرة:

وهذا خلق قديم معروف عن آبائهم فقد سأل آباؤهم موسى أسئلة أكبر من ذلك فقالوا له: أرِنا الله جهرةً، أي: رؤية ظاهرة بحيث نعاينه ونشاهده بأبصارنا، ويطلب إلينا الإيمان بك، فحاضر هؤلاء كماضي آبائهم الأقدمين، وهذا من التَّسلية والتَّسرية عن رسول الله ﷺ حتَّى لا يبتئس من أقوالهم، ولا يهتم بأسئلتهم.

فعاقبهم الله تعالى نتيجة سوء أدبهم وجرأتهم على خالقهم وعلى أنبيائهم، فقال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]،

QaradawiBooks.com

والصاعقة هي الصوت الشديد المجلجل في الجو، يسمعه الإنسان، فيهلك، وهذا ما حدث لبني إسرائيل، سمعوا هذا الصوت، فصعقوا أي هلكوا، بسبب ظلمهم وعنادهم وفسوقهم عن أمر الله.

الجريمة الثانية لبني إسرائيل: عبادتهم العجل:

والاتِّهام الثاني لبني إسرائيل في هذه الآيات: اتخاذهم العجل معبودًا لهم من دون الله من بعدما جاءتهم الدلائل القاطعة على وحدانيَّة الله وصدق أنبيائه: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [النساء: ١٥٣].

وهذا من أعظم الجرم في حق الله تعالى، لأنَّهم لم يعبدوا العجل عن جهالة، وإنَّما عبدوه من بعدما وصلت إلى أسماعهم وعقولهم الدلائل الواضحة وعلى وحدانيَّة الله، وعلى أنَّ عبادة العجل لا يقدم عليها إنسان فيه شيء من التعقل وحسن الإدراك.

﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ ومع عبادتهم العجل بعد وضوح الدلائل على وحدانيَّة الله تعالى، عفونا عنهم بعد أن تابوا وأقلعوا عن عبادته، لأن التوبة تجب ما قبلها.

الجريمة الثالثة: مخالفتهم أوامر الله:

الجريمة الثالثة في هذه الآيات: مخالفتهم لأوامر الله تعالى، وعدم التزامهم بها، فقال سبحانه: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ [النساء: ١٥٤].

وذلك أنَّهم حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عمَّا جاء به موسى عليه السلام رفع الله على رؤوسهم جبلًا. ثمَّ ألزموا فالتزموا، وسجدوا، جعلوا ينظرون إلى ما فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم. كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: ١٧١].

QaradawiBooks.com

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤] فقد أمرهم الله تعالى على لسان أنبيائهم أن يدخلوا باب القرية، وهي بيت المقدس ساجدين لله، أي: يدخلونها متواضعين خاضعين لله، شاكرين له فضله وكرمه، ولكنَّهم خالفوا ما أمرهم الله مخالفة تامة.

وقد تحدَّث القرآن عن قصَّة أمرهم بدخول هذه القرية ساجدين بصورة أكثر تفصيلًا في سورتي البقرة والأعراف، فقال تعالى في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩]

وخالف اليهود أمر الله تعالى، فاعتدوا في السبت ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحدود الَّتي أمركم الله بالتزامها في يوم السبت والَّتي منها: ألا تصطادوا في هذا اليوم، ولكنَّهم خالفوا أمر الله، وتحايلوا على استحلال محارمه.

وقد فصل الله تعالى مخالفة اعتدائهم في السبت في سورة الأعراف في قول الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]

الجريمة الرابعة: نقضهم لميثاق الله:

الجريمة الرابعة في هذه الآيات: نقضهم لما أخذ الله عليهم من مواثيق، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤] وهذا أيضًا من أخلاقهم الذميمة، فلن تجد قومًا مثل اليهود في الاستخفاف بالعهود والمواثيق، وفي عدم مراعاتها أو الالتزام بها، وفي جرأتهم عليها والقيام بنقضها وإبطالها وإلغائها.

QaradawiBooks.com

وفي القرآن الكريم كثير من هذه العهود والمواثيق الَّتي أُخذت عليهم ومع ذلك نقضوها، من هذه المواثيق الَّتي ذكرها القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٣ ـ ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

ثمَّ عدَّد الله جرائم أخرى من جرائمهم الَّتي عاقبهم عليها عقابًا شديدًا، من نقضهم للمواثيق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم لأنبيائه، وأقوالهم الكاذبة، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

إنَّ حديث القرآن الكريم عن بني إسرائيل حديث طويل، فكثير من سور القرآن الكريم تحدَّثت عنهم إمَّا بإجمال وإمَّا بتفصيل، وهناك سورة سُمِّيت باسمهم، وهي سورة الإسراء، فهي تُسَمَّى سورة بني إسرائيل، وقد قيل: كاد القرآن أن يكون عن بني إسرائيل.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثاني عشر
من وصايا الله لبني إسرائيل

الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتحذير من مخالفة الأعمال للأقوال

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٣، ٤٤].

هاتان الآيتان جاءتا ضمن عدة وصايا وأوامر لبني إسرائيل، أمرهم الله فيها أن يؤمنوا بما أنزل الله من القرآن، مصدِّقًا لما معهم، ولا يكونوا أوَّل الكافرين به، ولا يستبدلوا بالإيمان بالله ورسوله ﷺ الدُّنْيا وشهواتها فإنَّها قليلة فانية.

الزكاة شقيقة الصلاة:

ثم يُوجِّه القرآن لهم هذه الوصيَّة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

الصلاة والزكاة شقيقتان في القرآن والسُّنَّة، ولذا قال ابن زيد: رحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه[1]! يعني حين لم يفرِّق بين الصلاة والزكاة. قال

(١) تفسير الطبري (١٥٣/١٤).

QaradawiBooks.com

أبو بكر فيما قال بعد وفاة رسول ﷺ: أما والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزَّكاة حقُّ المال[١].

قرنت الزكاة بالصلاة في كتاب الله في ثمانية وعشرين موضعًا، تارة بصيغة الأمر، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وتارة بصيغة الخبر مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وتارة تأتي الزكاة مقرونة بالصلاة في صورة الشرط للدخول في دين الإسلام أو في مجتمع المسلمين، كما قال تعالى في سورة التوبة في شأن المشركين المحاربين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٥]. وقال بعد بضع آيات من نفس السورة: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. فلم يعترفْ لمشرك بالدخول في الإسلام، ولا بالانتساب إلى المجتمع المسلم، واكتساب أخوَّة أبنائه إلَّا بالتوبة من الكفر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

والزكاة عبادة قديمة كالصلاة، جاءت بها النبوَّات، وحثَّ عليها الأنبياء، وكانت في طليعة وصايا الله لهم، وفي طليعة وصاياهم إلى أممهم.

وقد أثنى الله على أبي الأنبياء إبراهيم وعلى إسحاق ويعقوب، فقال عنهم: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وأثنى على إسماعيل بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

وجاء في خطابه لموسى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وذكر في بيانه للميثاق المأخوذ على بني إسرائيل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال على لسان عيسى في المهد: ﴿وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

وقال في أهل الكتاب: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

في كلِّ هذه الآيات نرى الزكاة قرينة الصلاة، فهما شعيرتان وفريضتان وعبادتان.

الصلاة عبادة بدنيَّة روحيَّة، والزكاة عبادة ماليَّة اجتماعيَّة، تعالج أدواء الفقر والمسكنة والغرم والتشريد، ولكونها عبادة وقُرْبة إلى الله اشترطت الشريعة فيها النية والإخلاص، فلا تُقبل زكاة إلَّا بنيَّة التقرُّب إلى الله. وهذا بعض ما يميِّزها عن الضَّريبة الوضعيَّة.

وإذا كانت الصلاة فريضة واجبة الأداء في كلِّ مكان وزمان، فإنَّ الزكاة فريضة لازمة، واجبة الأداء كذلك في كلِّ مكانٍ وزمان، فهناك ثلاثة حُرَّاس على هذه الفريضة: حارس السلطان، الَّذي يجب أن يأخذها من أغنيائهم ليردَّها على فقرائهم، وحارس الضمير الاجتماعي للأُمَّة

QaradawiBooks.com

المسلمة، المتمثِّل في النصيحة في الدِّين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحارس الإيمان في قلب المسلم.

وقد كان المسلمون في العهد المكي يؤتون الزكاة، الَّتي وصف الله بها المؤمنين والمحسنين في كتابه في السور المكيَّة، وذلك قبل أن تقوم للإسلام دولة، فنقرأ في سورة النمل قول الله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٢، ٣]. وفي سورة لقمان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٣، ٤].

والزكاة هنا هي الزكاة المطلقة، غير المحدَّدة بالأنصبة والمقادير وتمام الحول، بل هي موكولة إلى إيمان المسلم، وحاجة الدعوة وجماعة المسلمين، بل وجدنا في القرآن المكي: التحذير الشديد من ترك إطعام المسكين، وترك الحضِّ على إطعامه، واعتبار ذلك من خصال الكفار، ومن موجبات دخول النار، كما قال تعالى على لسان المجرمين في سقر: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٤]. وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]

النكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله:

ثم قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وما زال سياق الآيات متوجهًا لبني إسرائيل.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ هذا هو شأن المنافقين الَّذين يقولون ما لا يفعلون، ويأمرون النَّاس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ويقرؤون الأحاديث.

QaradawiBooks.com

كأنَّما يشير القرآن إلى أنَّ مناقضة العلم للعمل، والقول للفعل، ضرب من الجنون، أو لون من الفصام الَّذي لا يليق بالعقلاء.

ومن قرأ الأحاديث النبويَّة في هذا الباب ينخلع قلبه من هول الوعيد الَّذي يتهدد هذا الصنف من حملة العلم، الَّذين سمَّاهم الإمام الغزالي: «علماء الدنيا»[١].

عن أسامة بن زيد أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**يُجاء بالرجل يومَ القيامة فيُلقى في النَّار، فتندلقُ أقتابُه**[٢]**، فيدور بها كما يدور الحمارُ برحاه، فيجتمعُ أهل النَّار عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ ألستَ كنتَ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشرِّ وآتيه**»[٣].

وعن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ: «**مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي على قومٍ تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نار**». قال: «**قلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدُّنْيا ممَّن كانوا يأمرون النَّاس بالبرِّ ويَنْسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟**»[٤].

هؤلاء الَّذين يُحسنون الكلام ولا يحسنون العمل، وينتسبون إلى العلم ولا يقومون بحقه. يكونون فتنة على الأمة؛ لأنَّهم موضع القدوة.

---

(١) إحياء علوم الدين (٥٨/١، ٥٩).

(٢) الأقتاب: الأمعاء. والِانْدِلَاقُ: خُروج الشَّيء مِنْ مَكَانِهِ، يُرِيد خُروج أمْعَائه مِنْ جَوْفه. النهاية في غريب الحديث مادتي (ق. ت. ب) و(د. ل. ق).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٩٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٩)، عن أسامة بن زيد.

(٤) رواه أحمد (١٢٢١١)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح. وابن حبان في الإسراء (٥٣).

QaradawiBooks.com

لا يصلح لسياسة غيره مَن لا يصلح لسياسة نفسه، ولهذا ذمَّ الله تعالى من ترشَّح لسياسة غيره، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وهو غير مهذَّب في نفسه، فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. أي: هذِّبوها قبل التَّرشح لتهذيب غيركم.

العلم إنَّما يراد للعمل به:

والعلم في الإسلام إنَّما يراد للعمل، فلا معنى لعلمٍ لا يُثْمر عملًا، وعلمٌ بلا عمل، كشجرٍ بلا ثمر، أو كسحابٍ بلا مطر.

والحقُّ أنَّ الرسوخ في العلم لا يُتصوَّر أن يكون بغير ثمرة، إنَّما الخطر في صورة العلم، أو قشور العلم، الَّذي يتمثل في الثرثرة والتفيْهق دون أن يكون وراءه فقه أو بصيرة.

ما قيمة أن يحفظ المرء القرآن الكريم عن ظهر قلب، وربَّما يقرؤه بالقراءات السبع أو العشر، ولكنَّ تفكيره ليس قرآنيًّا، وخلقه ليس قرآنيًّا، وحياته أبعدُ ما تكون عن القرآن؟

ما قيمة أن يحفظ الإنسان صحيحي البخاري ومسلم، أو الكتب السِّتَّة، أو التسعة، أو الأربعة عشر[1]، ولكنَّه لا يتأدب بأدبها، ولا يهتدي بهداها، ولا ترى أثرًا لها في صلته بالله ولا علاقته بالناس؟

(١) الكتب الستة هي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسنن الأربعة: سنن الترمذي، وأبي داود، وابن ماجه، والنسائي. والمقصود بالتسعة: الستة مع إضافة موطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الدارمي. أمَّا الأربعة عشر: فيضاف إلى التسعة: مسند البزار، وأبي يعلى، ومعاجم الطبراني الثلاثة.

QaradawiBooks.com

هل هو إلَّا نسخة زادت من هذه الكتب؟ وما يقال عن الإنسان الفرد يقال عن الجماعة والأمة، مـا قيمة أن يكون لدى الأمـة تراث حافل، وكنوز من الثقافة والمعرفة لا تُقَدَّر بملء الأرض ذهبًا، ولا تملك أمة من الأمم عشـر معشـار ما تملك من تراث ثقافي.. ومع هذا لم تحوِّل هذا التراث إلى حاضر مُعاش، يسري في كيانها، ويتغلغل في وجودها الظاهر والباطن، ويتفاعل مع كل ذرَّة فيها، فتمتصـه وتهضمه وتتمثله، ويغدو جزءًا من حياة يومها، كما كان جزءًا من أمس أسلافها؟

لقـد ذمَّ الله بني إسـرائيل حين لم يعملـوا بما علمـوا، وقال لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وضرب لهم مَثَل الحمار تبشـيعًا لموقفهم ممَّا حملـوه من العلم، وكونهم لم يقوموا بحقـه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثالث عشر
كفران بني إسرائيل

يقول الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦١، ٦٢].

كفران بني إسرائيل بنعم الله:

الآيات الكريمة الَّتي استمعنا إليها لا تزال في سياق خطاب القرآن لبني إسرائيل الَّذي بدأ بهذه الآية: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. فالآيات لا تزال تتحدث عن هذه القصَّة العجيبة، قصَّة أولئك القوم الَّذين أنعم الله عليهم بنعمٍ كثيرة، فقابلوا النعم بالجحود والكفران! ومن هنا استحقوا أن يقف القرآن معهم وقفات طويلة، يعدد فيها جناياتهم وجرائمهم في مقابلة نعم الله عليهم.

QaradawiBooks.com

الخطاب في الآيات للمعاصرين للنبيِّ ﷺ:

تأمَّلوا معي هذه الآية الكريمة، حيث يخاطبهم الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ..﴾، الخطاب هنا للمعاصرين لرسول الله ﷺ.

وربَّما سأل سائلٌ: كيف يخاطب هؤلاء بمثل هذه المواقف والجنايات الَّتي لم يفعلوها هم، وإنَّما فعلها آباؤهم وأجدادهم؟! وهل تزر وازرة وزر أخرى؟! وهل يحمل جيلٌ ثَقَل جيل آخر؟!

لا، إنَّ عدل الله يأبى ذلك، ولكن لأنَّ هؤلاء راضون عمَّا فعل آباؤهم، ومعتزُّون به، ويفخرون بما كانوا عليه، ولم يبرؤوا يومًا من مواقفهم تلك، فإنَّهم يتحمَّلون جزءًا من تبعة ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، ولهذا خوطبوا بهذه الجنايات وتلك الجرائم.

سوء أدب بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، انظروا إلى هؤلاء القوم كيف يخاطبون نبيَّهم ورسولهم ومنقذهم، الَّذي أنقذ الله به هؤلاء القوم من جبروت فرعون المتألِّه الجبَّار، يقولون له في غير أدب ولا احترام: يا موسى! يخاطبونه بهذا الأسلوب الَّذي خلا من الأدب معه، وهو سوء أدب مع الله الَّذي أرسله، فالأدب مع الرسول من الأدب مع المرسل.

﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ وبأسلوب يشعر كأنَّ نبيَّهم تحت أمرهم، وطوع بنانهم، وكان ينبغي أن يقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله. كما هو شأن القوم المتأدِّبين مع الله وأنبيائه، لكن هذه طريقتهم. والطعام الواحد ليس بمعنى الصنف الواحد، وإنَّما هو الطعام الَّذي لا يتغير.

QaradawiBooks.com

قالوا له: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، وانظر أيضًا إلى هذا التعبير، كأنَّ هذا الربَّ ليس ربَّهم، وكأنهم يتبرؤون منه، كأنَّ هذا الربَّ هو ربُّ موسى وحده، وليس ربَّهم، ادع لنا ربَّك، وبماذا يدعوه؟ ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

لقد أنزل الله عليهم المنَّ والسلوى، رزق سائغ طيب، بلا جهد ولا معاناة، أنزل الله عليهم «المنّ»، وهو شيء يظهر من الأرض، أو شيء حلو يظهر على الأشجار، وأنزل عليهم «السَّلْوَى»، طائر كالسُّمَانى يتناولونه بأيديهم بكل سهولة، غذاءٌ كافٍ فيه كلُّ العناصر الموجودة في الغذاء، غذاء طيِّب بدون تعب، ومع هذا يأبون إلَّا أن يطلبوا تغيير هذا!

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، يريدون الأشياء الَّتي اعتادوها وألفوها، يطلبون هذا الطعام في الصحراء في مكان يموت النَّاس فيه ويهْلِكون جوعًا. لم يشكروا نعمة الله، لم يقابلوا هذه النعمة بما تستحق من عرفان وطاعة لله ﷻ، بل قابلوها بمثل هذه المطالب، وبمثل هذا الأسلوب، ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، كأنَّ نبيهم تحت رحمتهم، وتحت أيديهم، فيخاطبونه بهذا الأسلوب الَّذي خلا من الأدب مع الله ومع نبي الله. ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

والبقل: ما يأكله النَّاس من نبات الأرض أخضر كالفجل والجرجير وهذه الأشياء.

والفُوم: الثُّوم. وقيل: القمح والحنطة. وقيل: الحمص بلغة الشام.

على كلِّ حال هم أخبروا رسولهم أنَّهم لن يصبروا على أكل المنِّ والسلوى، وأنَّهم يريدون منه أن يسأل ربَّهم أن يُنبت لهم هذه النباتات الَّتي اعتادوا على أكلها.

QaradawiBooks.com

وردَّ عليهم موسى عليه السلام قائلًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، أتريدون بدلًا بهذا المنّ والسلوى، الَّذي رزقكم الله إياه من غير تعب، العدس والبصل والفُّوم؟! أيُّهما خيرٌ، وأيهما أفضل؟!

استبدال حياة الهوان بحياة العزَّة:

وهناك رأي لبعض المفسرين: يرى أن هذا ليس مفاضلة بين طعام وطعام، وإنَّما هي مفاضلة بين حياة وحياة، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، أي إنَّ الله يريد أن يرتفع بكم إلى حياة الحريَّة والعزَّة، بدل حياة الهوان والذلَّة الَّتي كنتم تعيشونها في ظلِّ الفراعنة، وتحت سياطهم وعذابهم، أتريدون أن تعودوا إلى هذه الحياة من جديد؛ لتلقوا الذلَّ والهوان على أيدي فرعون وملئه؟

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ لأنَّ هذا يعني الرجوع إلى تلك الحياة؛ ولذلك قال: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾، اهبطوا أيَّ مصر من الأمصار، أو اهبطوا مِصْرَ، أي: ارجعوا إلى مصر الَّتي خرجتم منها: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، إذا كان كلُّ همّكم الطعام والشراب، وعلى طريقة معينة، على الطريقة المألوفة فقط، فعودوا إلى حياة الذلِّ، فلستم أهلًا للكرامة ولا للحرية إذن.

عقاب الله لهم لسوء أدبهم:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، عاقبهم الله بهذا، ما داموا يريدون أن يرجعوا إلى الحياة الذليلة لمجرد أن يأكلوا ويشربوا ما ألفوه، فليُعاقَبوا بالذلِّ والهوان والغضب من الله عزَّ وجلَّ، ولذلك سُمُّوا بالأمة الغضبيَّة، كما في الآية الأخرى ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

لماذا كان هذا الذلّ، وهذه المسكنة، وهذا الغضب الَّذي رجعوا به من الله ﷻ؟ إنّه ليس ظلمًا من الله، إن ربك لا يظلم أحدًا، ولكن ذلك بسوء أعمالهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والآيات الَّتي يرونها، آيات كونيَّة مشاهدة، وآيات تنزيليَّة يقرؤونها، كفروا بهذه وتلك.

وما أكثر الآيات والمعجزات الَّتي رأوها بأعينهم! ومع هذا لا تلين قلوبهم، بل كانت كالحجارة أو أشد قسوة، كفروا بآيات الله وحرفوا وبدَّلوا، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، ثمَّ بعد ذلك لم يقفوا إلى هذا الحد، بل كانوا يقتلون الأنبياء ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

إنَّ المطلوب من الإنسان المؤمن أن يشدَّ أزر النبيِّين، وأن يقف بجوارهم، وأن يكون عونًا وعَضُدًا لهم في دعوتهم الخيِّرة، فإن لم يفعل ذلك فعلى الأقل يكفُّ يده عنهم، أمَّا أن يعارضهم أو يقاتلهم، فهذه هي الجريمة الكبرى الَّتي لم تفعلها أمَّة كما فعلت أمّة اليهود، إنَّها قتلت الأنبياء بغير حقٍّ، إنَّهم ذبحوا من ذبحوا، مثل ما فعلوا بيحيى عليه السلام، الَّذي يسمونه «يوحنا المعمدان»، قطعوا رأسه، وقدَّموه في طبق ليرضوا به امرأة، ونشروا زكريا أبا يحيى عليهما السلام بالمنشار، وفعلوا ما فعلوا بكثير من الأنبياء والمرسلين؛ حتَّى قال المسيح يخاطب أورشليم: «يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء، ويا راجمة المرسلين»[1]، قتلوا

(١) إنجيل متّى (٣٧/٢٣)، ولوقا (٣٤/١٣).

QaradawiBooks.com

الأنبياء بغير الحقِّ؛ ولذلك استحقوا اللعنة والغضب، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

غير مرخصة للطباعة

أساس مثوبة الله تعالى: الإيمان والعمل الصالح:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

ومع هذا كانوا يزعمون أنَّ لهم من الله مكانة، وأنَّهم أبناء الله وأحباؤه! وأنَّ مجرد انتسابهم إلى إسرائيل (يعقوب)، ومجرد أنَّهم أتباع موسى ولو اسمًا، أنَّهم بهذا سيدخلون الجنَّة، وسيحصلون على رضا الله! لا، إنَّ الله يبين في الآية التالية أنَّ من ينال رضا الله، وينال الأجر عند الله، وينال المثوبة العظيمة عند الله بلا خوف ولا حزن، أساس هذه المثوبة ونيلها عند الله ليست العناوين والأسماء والأنساب، بل هي الإيمان والعمل الصالح، ولهذا قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كلُّ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من أيّ فئة كانت فله أجره عند ربِّه، لا يقف الأمر عند الأحساب ولا الأنساب ولا الأسماء ولا العناوين، هذه هي أسس الدِّين الحق: الإيمان بالله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، والإيمان باليوم الآخر والجزاء فيه، والعمل الصالح. فليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، هذه هي الأركان الثلاثة الرئيسية في كلِّ دين، إيمان بالله، إيمان بالجزاء واليوم الآخر، العمل الصالح، فمن فعل ذلك فله أجره عند ربِّه، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

QaradawiBooks.com

لا يسع أحدًا الكفرُ برسول الله ﷺ:

ليس معنى الآية كما يدَّعي بعض المجازفين والمجترئين أنَّ الإنسان يمكن أن يبقى على دينه اليهودي أو النصراني أو الصابئي، ثمَّ يكون له الأجر والمثوبة عند الله والجنة. لا، لا بـدَّ أن يؤمن بالله على ما جاء به محمدٌ ﷺ، والآية في الأمم السـابقة على الإسلام من يهودية ونصرانيَّة وصابئة مـن آمن منهم قبل بعثـة مُحَمَّد ﷺ بالله، وآمـن باليوم الآخر، وعمل العمل الصالح، نال الأجر والثواب عند الله، أمَّا بعد مُحَمَّد فلا بدَّ أن يؤمن بمحمدٍ ﷺ، فمن فعل ذلك ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الرابع عشر
قصَّة البقرة

يقول الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۞ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۞ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[البقرة: ٦٧ ـ ٧٤].

تشديد بني إسرائيل على أنفسهم وتشديد الله عليهم:

هذه الآيات جاءت في قصَّة البقرة، وهي من قصص بني إسرائيل الَّتي ذكرتها السورة الكريمة، وبها سُمِّيت، وهي تؤكِّد المعنى الَّذي

ذكرناه في الدرس السابق من أنَّ الله أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة، ولكنَّهم لم يشكروا نعمة الله تعالى عليهم، وأساؤوا الأدب مع الله، ومع أنبيائه، ووقفوا مواقف باؤوا بعدها بغضب من الله.

من هذه المواقف السيِّئة: موقفهم من نبيهم موسى عليه السلام حينما قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، الأمر ليس أمر هزل، النبي لا يهزل، فالهزل في موضع الجد شأن الجهلاء.

أمرهم نبيُّهم أن يذبحوا بقرة، ولكن طبيعة التلكؤ والعناد فيهم جعلتهم يسألون ويسألون، لو ذهبوا إلى أي بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكنَّهم ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٦٨]. بيِّن لنا كبيرة أم صغيرة، شابة أم عجوز أم وسط، أي نوع هي من البقر، البقر تختلف أسنانها وأعمارها، وأشكالها.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]. والبقرة الفارض: المُسِنَّة. والبكر: الشابة الفتية الَّتي لم تحمل. والعوان: الوسط من حيث السن، ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾.

كان المفروض بعد أن قال لهم: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ أن يسارعوا إلى أيّ بقرة وسط في السنِّ ويذبحوها، ولكن غلب عليهم هذا الطبع، وأخذوا يجادلون نبيهم، ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩].

شدَّدوا، فشُدِّد عليهم، ولم تعد أي بقرة وسط، بل لا بدَّ أن تكون بقرة وسطًا في السن، وتكون بقرة صفراء، وصفارها فاقع اللون، ومع هذا تسر الناظرين، من حيث شكلها وجسمها ورونقها تسر الناظرين.

QaradawiBooks.com

ولم يكتفوا بهذا أيضًا، بل رجعوا مرَّة أخرى يقولون: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۞ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٠، ٧١]. ﴿بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: بقرة غير مستأنسة، ليست كالبقر الَّذي يقتنى في البيوت، وليست كالبقر الَّذي يستعمله الزراع والفلاحون في سقاية الأرض وحراثتها، لا تجرُّ المحاريث، ولا تدور في الساقية، ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، ليس فيها «شية» أي علامة، لا بقعة سوداء، ولا بقعة بيضاء، ولا أي علامة، كلها لون واحد.

تكاثرت ـ إذن ـ الصفات والقيود، وهم الَّذين شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، وهذا صنع القدر، وصنع الشرع، أن من شدَّد يشدِّد الله عليه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**دعوني ما تركتكم، إنَّما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١).

والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢]. فخذ الأمور بما تيسَّر، ولا تشدِّد فيشدِّد الله عليك.

المهم أنَّهم شدَّدوا فشُدِّد عليهم، ولولا أنَّهم قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لما اهتدوا إلى هذه البقرة.

وانظروا إلى قولهم: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنَّه قبل ذلك لم يأت بالحق، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

لماذا كان الأمر بذبح البقرة؟

ثم ذكر القرآن سبب الأمر بذبح البقرة، فبيَّن أنَّهم قتلوا قتيلًا، ثمَّ تدارؤوا التهمة وتدافعوها، كل واحد يحاول أن يبرِّئ نفسه، وأن يلصق ذلك بغيره، هذا يقول: فلان الَّذي قتل. وهذا يقول: بل فلان، أنا لم أقتل. ولذلك القرآن يقول: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

وأراد الله سبحانه أن يريَهم آيةً، وهي أن يحيا القتيل فيعترف على القاتل بلسانه، بعد أن يُضرب القتيل ببعض هذه البقرة، فيحيا بإذن الله، ويقول: قتلني فلان، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

طلب منهم أن يضربوا القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة، ليروا آيات الله في إحياء الموتى، كما أحيا هذا القتيل يُحيي الموتى، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقد حدث هذا فعلًا، ضربوا القتيل بجزء من هذه البقرة، فقام ودلَّهم على قاتله، ومات مرَّة أخرى، وهي آية من آيات الله ليعرف النَّاس أنَّ الله قادر على إحياء الموتى، وليرى بنو إسرائيل أصحاب القلوب الغليظة ذلك بأنفسهم، ويعرفوا قدرة الله ﷻ.

الطبيعة الإسرائيليَّة طبيعة قاسية:

ولكنَّ بني إسرائيل بعد أن رأوا آيات الله بأعينهم قست قلوبهم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]. فقلوبهم كانت أشد قساوة من الحجارة الصمَّاء.

QaradawiBooks.com

الطبيعة الإسرائيليَّة طبيعة قاسية، وهذه القسوة كانت عقوبة من الله تعالى لهم، كما قال ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وقد تمثَّلت هذه القسوة في هذا العنف الَّذي رأيناه بأعيننا من اليهود، وهذه المذابح الَّتي اقترفوها في عصرنا: مذابح دير ياسين وبحر البقر وصبرا وشاتيلا ومذبحة قانا ومذبحة النَّفق ومذبحة مسجد الخليل، حيث قتل الصُّوَّم الرُكَّع السجود في مسجد الخليل. كلُّ هذا يمثِّل طرفًا من تلك القسوة الَّتي لا تبالي بشيء.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الخامس عشر
تكذيب بني إسرائيل للأنبياء

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٧ ـ ٩٠].

موقف بني إسرائيل من أنبيائهم وكتبهم:

لا نزال في سورة البقرة مع قصَّة بني إسرائيل وموقفهم من أنبيائهم وكتبهم، وتعاملهم بالكفران مع نعم الله تعالى عليهم.

اســتمعنا إلى هذه الآيات الكريمة الَّتي يقول الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

معنى الكتاب:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾، الكتاب هنا: هو التوراة.

وكلمة الكتاب تذكر في القرآن الكريم ويراد بها معانٍ ثلاثة، يحدِّدها السياق، أحيانًا يُذكر الكتاب ويراد القرآن، كما في أوَّل هذه السورة: ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢].

وأحيانًا يُذكرُ الكتاب ويراد به اللوح المحفوظ، كما في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٨].

وأحيانًا يُذكرُ الكتاب ويراد به التوراة الَّتي آتاها الله موسى عليه السلام؛ أنزلها عليه، وفَهَّمَهَا له، كما في هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وهذه نعمة عظيمة، ففيها موعظة وتفصيلٌ لكل شيء، كتابٌ جامع فيه تشريع وتوجيه، لكن حرَّف فيه القوم وبدَّلوا.

﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾، أرسل الله الرسل بعد موسى تَتْرى، يقفو بعضهم بعضًا، نبيٌّ بعد نبيٍّ، وما أكثر الأنبياء الَّذين بُعثوا في بني إسرائيل، عددٌ كثيرٌ من الأنبياء على كثرة مشاغبات القوم، ومواقفهم الرديئة، الله تعالى يبعث لهم أنبياء؛ ليصلحوا من أمرهم، ويقوِّموا من عوجهم، ويردُّوهم عن شرودهم إلى طريق الله.

اليهود يُحكِّمون الهوى ولا يتَّبعون الهدى:

ولكن ماذا صنع هؤلاء القوم بهؤلاء الرسل؟ إنَّهم للأسف كانوا يُحَكِّمون الهوى، ولا يتبعون الهدى! ومن هنا قال الله لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾، كأنَّهم يريدون أن تخضع الحقائق للأهواء، أن تكون شريعة الله تبعٌ لرغبات نفوسهم، مع أنَّ الهوى هو الَّذي يجب أن يَتَّبع الشريعة، إنَّما أنزل الله الشرائع، وبعث النبيين، وأنزل الكتب

QaradawiBooks.com

ليخرج النَّاس من أهوائهم، من التبعية لشـهواتهم وغرائزهم، حتَّى يكونوا وراء شرع الله، فتنضبط حياتهم بالحقِّ الَّذي لا يختل، هؤلاء عكسوا الآية، يريدون أن يكون كلُّ شـيء تبعًا لهواهم، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، يريدون أن يكون الرسول تبعًا لهم، يأمرهم بما يشتهون لا بما أمره الله ﷻ، أي قوم هؤلاء؟ ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، بعض الرسل كذبتم، مثل عيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ، وفريقًا قتلتم. فقد حاولوا أن يقتلوا المسـيح، بل زعموا أنَّهم قتلوه، وحاولوا أن يغتالوا رسول الله ﷺ، أي إنَّ جريمة القتل والرغبة في سفك الدماء، حتَّى دماء الأنبياء طبيعة كامنة فيهم.

ومعنـى ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تمردتـم على حكـم الله، وعلى رسـل الله، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، هـذا هـو موقـف هؤلاء القـوم من المرسـلين الَّذين بعثوا إليهم حتَّى من أقوامهم، وسـجَّلت ذلك عليهم أسفار العهد القديم نفسها، سجَّلت عليهم هذه المواقف، مواقف الخزي مع أنبيائهم، والتكذيب والقتل[1].

دعوى اليهود بأنَّ قلوبهم مغلقة:

ثمَّ ذكر القرآن موقفًا لهم: أنَّهم لا يريدون أن يستمعوا للهدى، ولا أن يقبلوه، ويريدون أن يُوئِسوا المسـلمين، ويوئسوا من دعاهم إلى الله، بأن قلوبهم مطموسة مغلقة، هكذا خلقت، لا ينفذ إليه شعاع من أشعَّة الهداية، فلا تحاولوا أن تدعونا، ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، قلوبنا مغلقة مغلَّفة، والحقيقة أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق قلبًا مغلقًا مطموسًـا، إنَّ الله تعالى خلق القلوب كلَّها

(١) انظر: سفر الملوك الأول (١٨: ١٣) و(١٩: ١٠).

QaradawiBooks.com

مستعدة للنور، فما من مولود إلَّا يولد على الفطرة، ولهذا إذا كانت قلوبهم مغلقة حقًّا، فإنَّما غلَّقتها وغلَّفتها ذنوبهم وكفرهم بأنبيائهم ورسلهم، ولهذا يقول الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: إنَّ قلوبهم لم تُخلق هكذا، وكما قال في آية أخرى من سورة النساء: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٥٥].

اليهود يستفتحون على المشركين بمحمد ﷺ ثمَّ يكفرون بنبوَّته:

وموقف آخر يسجِّله القرآن على هؤلاء القوم: أنَّهم كانوا قبل بعثة النبي مُحَمَّد ﷺ ينتظرون نبيًّا قد قرب أوانه، سيخرج وسيتبعونه، ويقاتلون معه الوثنيين، كانوا يقولون ذلك لمن يحاربهم من الأوس والخزرج في يثرب، فلمَّا بُعث هذا النبي الَّذي كانوا ينتصرون به من قبل، ويستفتحون به على المشركين، سرعان ما كفروا به، وسرعان ما أعرضوا عنه، وسرعان ما وقفوا في سبيل دعوته، وسرعان ما كادوا له المكايد!

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، كان المفروض أنْ تؤدِّيهم هذه المعرفة إلى الإيمان، كان من المفروض أن يسبقوا الوثنيين المشركين من العرب إلى الإيمان بهذا الرسول؛ لأنَّه جاء مصدِّقًا لما معهم، جاء مؤيّدًا لرسولهم ولكتابهم ولأصل دينهم، ولكن هكذا كان موقفهم.

لماذا كفر اليهود بالنبي ﷺ؟

ولكن لماذا وقفوا هذا الموقف؟ لماذا كفروا بالنبيِّ ﷺ؟

يقول الله تعالى: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، بئس المقابل الَّذي

QaradawiBooks.com

اشتروا به أنفسهم، الكفر بما أنزل الله، كفروا حسدًا وبغيًا أن يأتي نبيٌّ من غير بني إسرائيل، كأنَّ النبوَّة احتكارٌ لهم، كأنهم يريدون أن يحجِّروا ما وسَّع الله، يريدون ألا تخرج النبوة من بني إسرائيل، ولماذا لا تذهب إلى ذرية إسماعيل، وإسماعيل وإسحاق والد إسرائيل كلاهما ولد إبراهيم عليه السلام؟ إنَّما هو الحسد والبغي، ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

طالما ذكر القرآن بَوْءَهم ورجوعهم بغضب الله سبحانه وتعالى، غضب يتبعه غضب؛ لأنَّ جرائمهم تتلوها جرائم، جنايات وراء جنايات، مواقف رديئة تتلوها مواقف، سلسلة متصلة الحلقات من الكفر والفجور والعدوان على أنبياء الله وعلى رسله، وآخرها موقفهم مع رسول الله مُحَمَّد ﷺ، الَّذي جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة، كفروا به، وودُّوا أن يجعلوا كلَّ من معه كافرًا، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

لم تكن آفتهم الجهل، فقد كانوا يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم، كان يلتقي بعضهم ببعض ويقولون: أهو هو؟ فيقولون: هو هو. فيقول: فماذا تصنع؟ كما قيل لحُيَيِّ بن أخطب، قال: عداوته والله ما بقيتُ[1].

(١) إشارة إلى حديث صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها قالت: كنتُ أَحَب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر؛ لم أَلقَهُما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباءَ في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أَبي حييُّ بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلِّسين. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالَّين كسلانَين ساقطَين يمشيان الهُوَينى. قالت: فهششت إليهما كما كنتُ أصنع، فوالله =

QaradawiBooks.com

رغم معرفتهم أنّه النبي الخاتم المنتظر الَّذي بشَّرت به كتبهم، ووجدوه مكتوبًا عندهم، رغم هذا كلَّه فإنَّهم كفروا به بغيًا أن ينزِّل الله من فضله على من يشاء من عباده، وحسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق.

إنَّ المعرفة وحدها لا تكفي إذا لم يكن معها ضمير، وإذا لم يكن معها إيمان، وهؤلاء النَّاس فقدوا الضمير، واتبعوا الهوى، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، عذابٌ في الدُّنيا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

= ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم! قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته واللهِ ما بقيتُ. السيرة النبويَّة لابن هشام (٥١٨/١، ٥١٩)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

QaradawiBooks.com

الدرس السادس عشر
تحريم الإسلام للسحر

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

كلام العلماء عن: «هاروت وماروت»:

هاروت وماروت مَلَكان من الملائكة، كما هي رواية الجمهور، وفي رواية عن ابن عبَّاس والحسن وغيرهما أنَّهما مِلكان من الملوك، وليسا ملَكان من الملائكة.

والبعض يقول: إنَّهما ملَكان مجازًا، أي كالملَكين من الملائكة، وليسا ملَكين حقيقة، كما يقال عن الإنسان الصالح على سبيل التشبيه: إنَّه ملاك، يشبه الملائكة لطهارته، وكما قال النسوة في وصف يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]. فقد يقال هذا على سبيل المبالغة[1].

(١) انظر: تفسير المنار (٣٣٢/١)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وحتَّى لو أخذنا باللفظ على ظاهره، وهو أنَّهما ملَكان، فهما مَلَكان أنزلهما الله تعالى فتنةً للنَّاس لتعليمهم السحر، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، مع تعليمهم السحر يقولان: نحن فتنة فلا تكفر. وهذا نوع من الابتلاء، قد يبتلي الله النَّاس بأشياء كثيرة، ليعلم من يتَّبع الرسولَ ممَّن ينقلب على عقبَيْه[1].

موقف الإسلام من السحر والسحرة:

والسحر منه ضرب هو من التخييل والإيهام، ومنه ما هو تمائم ورقى وعقْد ونفْث، وهو من الشرك الَّذي حذَّر منه الإسلام، وإنَّما كان شركًا؛ لأن فيه استعانة بغير الله تعالى من الجنِّ والشياطين، ولهذا جاء في الحديث: «**من عَقَدَ عُقدةً ثمَّ نفث فيها فقد سَحَر، ومن سَحَر فقد أشرك**»[2].

---

(١) ذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره وجهًا قويًّا ظاهرًا يزيل الإشكال في قصة «هاروت وماروت»، ملخصه: أنَّ هاروت وماروت سواء أكانا ملَكَين أو مَلِكين، فالذي جاءا به عن طريق الوحي أو الإلهام إنَّما هو كشف حقيقة السحر، وأن ما يظهر على أيدي السحرة من خوارق لا يعني أنَّهم يملكون من الأمر شيئًا، وإنَّما يتعاطون خواصَّ بعض ما أوجد الله في الكون من معادن أو أشجار، أو يستعينون بالجن على وجه غير مشروع، فتظهر الخوارق أو يحصل الضرر، وكل ذلك إنَّما هو إساءة استخدام بعض ما خلق الله في هذا الكون، فلمَّا عظم تعظيم أهل بابل للسحرة، وأوشكوا أن يعتقدوا فيهم الألوهية أو يعبدوهم، جاء الله بهاروت وماروت يبيِّنان للناس حرمة استعمال خواصِّ المواد، وما أودع الله فيها من أسرار على طريقة السحرة المؤدية إلى الكفر والإضرار بالناس، فيكون معنى ما قص الله عنهما بقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: نحن فتنة بسبب ما يظهر على أيدينا من خوارق أثناء كشف حقيقة السحر، فلا تعجل بالاعتقاد أن لنا قدرة قبل أن تتبين لك الحقيقة لأن ذلك يؤدِّي إلى الكفر.
هذا أوضح ما وقفت عليه في توجيه قصة هاروت وماروت، انظر: التحرير والتنوير (٦٤٠/١) وما بعدها، نشر الدار التونسية، ١٩٨٤م.

(٢) رواه النسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩)، وفي الكبرى في المحاربة (٣٥٢٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٦٩)، وقال الذهبي في الميزان في ترجمة عباد بن ميسرة (٣٩٤٤): هذا الحديث =

QaradawiBooks.com

وهو من كبائر الذنوب في الإسلام وفي الأديان السماويَّة كلها، جاء في القرآن على لسان موسى عليه السلام قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]. ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وقد عدَّه النبي ﷺ في السبع الموبقات بعد الشرك(١).

وعلَّمنا القرآن أن نستعيذ بالله من شر السحر وأهله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]. أي السواحر، فإنَّ الساحرات إذا أردن عمل السحر عقدوا الخيوط، ونفثوا على كلِّ عُقْدة حتَّى ينعقد ما يريدون، ومعنى النَّفْث: النفْخُ مع شيءٍ من الريق.

مقاومة الإسلام للسحر والسحرة:

وقد ذهب كثير من أئمَّة السلف إلى أنَّ الساحر كافر، وأنَّ السحر كفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم، وجاء عن عددٍ من الصحابة أنَّ عقوبة الساحر ضربة بالسيف، ففي صحيح البخاري عن بَجَالة بن عَبْدَة قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اقتُلوا كلَّ ساحرٍ وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر(٢). وصحَّ قتل الساحر عن حفصةَ أمِّ المؤمنين(٣)،

= لا يصح للين عباد وانقطاعه. وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية بعد أن نقل كلام الذهبي (٨٢/٣)، نشر عالم الكتب: ويتوجه أنَّه حديث حسن. عن أبي هريرة.

(١) إشارة إلى الحديث المتَّفق عليه، عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**». رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٦٥٧)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده على شرط البخاري. وأبو داود في الخراج (٣٠٤٣)، والترمذي في السير (١٥٨٧)، وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه عبد الرزاق في اللقطة (١٨٧٤٧)، وابن أبي شيبة في الديات (٢٨٤٩١)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وعن جُنْدُب من الصحابة رضي الله عنهم[١]. وفرق بعضهم بين من يستعين في سحره بالكفر فيكفر، وإلَّا فهو فاسق.

وكما أنَّ السحر حرام فإنَّ المُصَدِّق لأهله، الساعي إليهم لعمل السحر، شريك لهم في الإثم، قال ﷺ: «**ثلاثة لا يدخلون الجنَّة: مدمن الخمر، ومصدِّق بالسحر، وقاطع الرحم**»[٢].

لقد قاوم الإسلام السحر والسحرة، وحرَّم الإسلام على المسلم الذهاب إلى العرَّافين لسؤالهم عن الغيوب والأسرار، حرَّم عليه أن يلجأ إلى السحر أو السحرة لعلاج مرض ابتلي به، أو حل مشكلة استعصت عليه، وقد برئ رسول الله ﷺ من ذلك، قال: «**ليس مِنَّا من تطيَّر أو تُطُيِّر له، أو تكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له**»[٣].

ويقول ابن مسعود: من أتى عرَّافًا أو ساحرًا أو كاهنًا، فسأله، فصَدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّد ﷺ[٤].

فالحرمة هنا ليست على الساحر وحده، وإنَّما تشمل كُلَّ مؤمنٍ بسحره، مشجِّع له، مصدِّق لما يقول، وتشتدُّ الحرمة وتفحُش إذا كان

---

(١) رواه الترمذي في الحدود (١٤٦٠) مرفوعًا وضعَّفه، وصحَّحه موقوفًا. والدارقطني في الحدود (٣٢٠٥)، والبيهقي في القسامة (١٣٦/٨).

(٢) رواه أحمد (١٩٥٦٩)، وقال مُخَرِّجوه: حسن لغيره. وأبو يعلى (٧٢٤٨)، وابن حبان في الكهانة والسحر (٦١٣٧)، والحاكم في الأشربة (١٤٦/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٢٥٣٩)، عن أبي موسى.

(٣) رواه البزار (٣٥٧٨)، والطبراني (١٦٢/١٨)، وجود إسناد البزار المنذري في الترغيب والترهيب (٤٦٠٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤٨٠): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة. وقال الألباني في غاية المرام (٢٨٩): حسن لغيره. عن عمران بن حصين.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (١٤٥٣)، والكبير (٧٦/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤٩٠): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن يريم وهو ثقة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

السحر يُستعمل في أغراض هي نفسها محرَّمة، كالتفريق بين المرء وزوجه، والإضرار البدني، وغير ذلك ممَّا يعرف في بيئة السحَّارين، وقد اعتبر بعض فقهاء الإسلام السحر كفرًا، وذهب بعضهم إلى وجوب قتل الساحر تطهيرًا للمجتمع من شرِّه.

وأمَّا ما قيل من أنَّ امرأةَ راودت هاروت وماروت عن نفسيهما، فهذا كلُّه لم يثبت به حديث صحيح، ولذلك نضرب بهذه الروايات عُرض الحائط، ولا نبالي بها أو نُلقي لها بالًا، ما دامت ليست ثابتة عن طريق الوحي المعصوم؛ عن النبيِّ ﷺ.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس السابع عشر
ظلم الكفَّار في حق الله وحق عباده

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۞ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٤ ـ ١١٧].

أشدُّ أنواع الظلم:

استمعنا إلى هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾، جريمة من أعظم الجرائم، ليس هناك أظلم ممَّن فعلها، هذا التعبير ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾، أي: أنَّه بلغ في الظلم حدًّا لا يتناهى، ليس هناك من هو أظلم منه، ولا أشدُّ ظلمًا منه، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾؟

إنَّ الله ﷻ إنَّما خلق المكلَّفين ليعبدوه، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والمساجد هي بيوت العبادة في الأرض، هي الَّتي تتحقَّق فيها هذه الغاية من خلق النَّاس، فعلى النَّاس أن يعمروها بذكر الله وعبادته، أمَّا أن يخرِّبوها، أمَّا أن يمنعوا بيوت الله تبارك وتعالى أن يذكر فيها اسمه، فهذه هي الجريمة كلُّ الجريمة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

عُمَّار المساجد:

إنَّ هناك أناسًا في مقابل هؤلاء الظالمين يعمرون بيوت الله، يعمرونها بالطاعة، بالعبادة، بالصلاة، بالذكر، بالعلم النافع، بتلاوة كتابه، وهم الَّذين قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]. وهم الَّذين يقول الله تعالى فيهم أيضًا في سورة النور: ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

انظروا هذا الفرق بين هؤلاء وهؤلاء، الَّذين يعمرون مساجد الله تعالى وبيوته، يرفعونها، وينيرونها بذكره ﷻ، ويذكرون اسمه ﷻ، وأولئك الَّذين يمنعون بيوت الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها.

عموم الآية لكل من منع إعمار المساجد بالعبادة:

اختلف المُفَسِّرون في أسباب النزول قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]. هل هم النَّصارى من الروم الَّذين منعوا اليهود أن يتعبَّدوا لله تعالى في بيت المقدس، وحوّلوه إلى خَرِبَة يُلقون فيها الكناسة والجِيَف وغير ذلك، أم هم المشركون الَّذين منعوا رسول الله ﷺ ومن معه من دخول المسجد الحرام وصدُّوه في الحديبية؟ أيًّا كان سبب النزول فإنَّ الآية عامَّة، والعبرة ـ كما يقول علماؤنا ـ بعموم اللفظ وليست بخصوص السبب.

QaradawiBooks.com

فليس هناك جريمة أكبر من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأن يسعى الساعون في خرابها، كما يفعل للأسف بعض النَّاس الَّذين يُنسبون إلى الإسلام اليوم، يسعون في خراب بيوت الله، وليس تخريب بيوت الله بأن تهدم حجارتها فقط، لا!

قد تُخرَّب بيوت الله بأن تُبنى بجوارها أو بالقرب منها ملاهٍ ومراقص، وبيوت أخرى تضاد وظيفة المسجد تجذب النَّاس وتأخذهم عن بيوت الله ﷻ، فهذا سعيٌ في تخريبها، كلُّ المؤسسات الَّتي تشغل النَّاس عن الصلاة والذكر وعبادة الله، إنَّما هي تخريب لمساجد الله وبيوته، ومنع لهذه المساجد أن يذكر فيها اسم الله ﷻ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١١٤]. كان ينبغي لهؤلاء ألَّا يدخلوا تلك المساجد إلَّا خائفين من الله، وَجِلِين من الله ﷻ، أو وجلين من المسلمين وسطوة المسلمين، فالمفروض أن كلمة الإسلام هي العليا، وكلمة الَّذين كفروا هي السفلى، والإسلام يعلو ولا يعلى، كان ينبغي ألَّا يدخلوها إلَّا خائفين، كما حدث للكفار في فتح مكَّة، حين نودي: ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن. فلجأ المشركون إلى البيت الحرام يحتمون به[١].

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]. هذا هو جزاء هؤلاء المشركين الَّذين يصدون عباد الله عن بيوت الله: الخزي في الدُّنيا، والعذاب في الآخرة، ولهذا كان النبي ﷺ يدعو ربه ويقول: «**اللهمَّ أَجِرْنا من خزي الدُّنْيا وعذاب الآخرة**»[٢].

---

(١) رواه أبو داود في الخراج (٣٠٢٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٦١١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٧٦٢٨)، وقال مُخَرِّجوه: رجاله موثقون غير أيوب بن ميسرة، فقد روى عنه اثنان، =

QaradawiBooks.com

الجهات كلُّها لله:

ثم قال الله تسريةً وتسليةً للمسلمين حينما هاجروا وتركوا المسجد الحرام والكعبة المشرَّفة، وكانوا يصلون إلى بيت المقدس، ولم ينزل الوحي بعد بالتوجُّه إلى مكَّة وفيها بيت الله الحرام، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]. فأراد الله سبحانه في هذه الآية أن يعلِّم المسلمين أنَّ كلَّ وجهة أمر بها مقبولة، فالله ﷻ تستوي عنده الجهات، فالله ﷻ له المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمعنى: إنَّكم إذا مُنعتم بفعل المشركين من مسجد من مساجد الله، فقد جعلت لكم الأرض مسجدًا وطهورًا فصلُّوا في أيَّة بقعة شئتم من بقاعها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. وكأنَّ هذا تمهيدٌ لنسخ القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، الله بين يديك حيثما كنت، تستطيع أن تصلي وتتعبد في أي مكان، وحدك أو مع غيرك، فالأرض كلها له مسجد، والله بين يديك حيث كنت، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]. وسع هذا الكون وعلم كلَّ ما فيه.

تنزيه الله عن الصاحبة والولد:

ثم ذكر القرآن هنا إحدى الجرائم الَّتي وقع فيها المشركون والوثنيون وانتقلت إلى أهل الكتاب للأسف! وهي القول بأن لله أبناء! والله ﷻ قد

= وذكره ابن حبان في الثقات، وبسر بن أرطاة مختلف في صحبته. وابن حبان في الرقائق (٩٤٩)، والطبراني (٣٣/٢)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (١١٦٩)، عن بُسر بن أرطاة.

QaradawiBooks.com

تنزَّه عن الصاحبة والولد، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۞ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

وقال المشركون: الملائكة بنات الله. وقال اليهود: عزيرٌ ابن الله. وقال النَّصارى: المسيح ابن الله. ولكن الحقيقة الَّتي لا مراء فيها: أن كلَّ مَن في السماوات ومَن في الأرض عبيد لله، وكلَّ ما في السماوات والأرض ملك لله، فليس أحد ولا شيء من العقلاء أو من غير العقلاء شريكًا لله، أو ولدًا له، كما يقول القائلون من الوثنيين وأشباه الوثنيين، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. الملائكة الَّذين زعموا أنَّهم بنات لله هم عبادٌ لله.

كلُّ ما في الكون خاضع لله وملك لله؛ ولهذا يقول هنا: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، لا تجتمع البنوة مع العبوديَّة والمِلكية، المسيح وعزير والملائكة كلهم عبيد ملك لله سبحانه، الملائكة في السماوات، والجن والإنس في الأرض، كلهم في قبضة قدرته، وطوع مشيئته، الملائكة جنده المطيعون بفطرتهم، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

والجنُّ والإنس ـ وإن أعطاهم الحريَّة والاختيار ـ لا يخرجون عن مشيئته وسلطانه، ولا يملكون لأنفسهم موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ومن تمرَّد منهم على العبوديَّة له اليوم، فسوف يعترف بها غدًا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

QaradawiBooks.com

كيف يكون هؤلاء أبناء لله ﷻ؟ لا، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

إنَّ الابن جزء من أبيه، والله تعالى منزَّه عن الجزئيَّة، إنَّ الأبَ في حاجة إلى الابن؛ ليكون امتدادًا لوجوده، والله ﷻ غنيٌّ عن سواه. وإنَّ البنوَّة تقتضي الزوجيَّة، والله ﷻ ما اتخذ صاحبةً ولا ولدًا، إنّ الله ليس كمثله شيء، ولذلك نزلت سورة الإخلاص تحدِّد هذه العقيدة وتوضِّحها، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

إنَّ المشركين واليهود والنَّصارى قد ضلُّوا عندما قالوا: إنَّ الله قد اتخذ ولدًا، أو إنَّ لله أبناءً، فليس لله ولد، إنَّه لم يلد ولم يولد، ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

لقد ضلَّ من ضلَّ من هؤلاء حينما وجدوا بعض العبارات في الكتب المقدَّسة الَّتي تصف الله بأنَّه «أبانا الَّذي في السماوات»[١]، وهو تعبير مجازي، وهو أبو الجميع، أبوكم الَّذي في السماوات، وأحيانًا تصف النَّاس بأنَّهم أبناء الله، «طوبى لصانعي السلام فإنَّهم أبناء الله في الأرض»[٢]، كما نقول نحن: «الخلق عيال الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله». هذه بنوة عامة، ليست بنوة جزئيَّة لإنسان بشخصه وعينه، الخلق جميعا عيال الله ﷻ، أي إنَّهم مخلوقاته الَّذين يرعاهم برحمته وبفضله،

(١) إنجيل متّى (٩/٦)، ولوقا (٢/١١).

(٢) إنجيل متّى (٩/٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويربِّيهم ويرقيهم في مدارج الكمال، ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: خاضعون مقرُّون بعبوديته، ومن لم يُقرَّ بذلك اليوم سيقر بها غدًا يوم القيامة.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، هذا هو الله ليس أبًا لأحد، هو الَّذي خلق السماوات والأرض، أبدعها على غير مثال سبق، لم يساعده أحد، ولم يشاركه أحد، أمْره بين الكاف والنون، فكيف يحتاج إلى ابن يساعده؟ وكيف يُقال عن مخلوق من المخلوقات أيًّا كانت منزلته، وعن إنسانٍ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويبول ويتغوَّط، كيف يقال عنه: إنَّه إلٰه حق، من إلٰه حق؟ هو إلٰه وهو ابن الإلٰه، كما يقول النَّصارى عن السيد المسيح. إنَّ قولهم هذا ضلالة كبيرة، ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥]. تعالى ربُّنا أن يتَّخذ صاحبة ولا ولدًا، إنَّما هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الَّذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثامن عشر
الإسلام دين الأنبياء جميعًا

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

معنى الإسلام:

هل كان هناك إسلام قبل بعثة النبي مُحَمَّد ﷺ؟ وما معنى هذه الآية الكريمة: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]؟

الإسلام هو: أن تُسلم وجهك وقلبك لله ﷻ. أي: أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين. فالإسلام بهذا المعنى قد بعث الله به الأنبياء جميعًا، وأنزل به الكتب كافَّة، الإسلام بهذا المعنى توحيد الله سبحانه، وإفراده جل شأنه بالعبادة، فهو دين الأنبياء جميعًا، لا دين غيره، وكل ما عداه من أديان ليس من السماء، ولم يُنزل الله به كتابًا، ولا بعث به نبيًّا، أو أرسل رسولًا.

دين الأنبياء هو الإسلام بهذا المعنى، ولهذا يقول الله تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فكل الأنبياء جاؤوا بأصل هذه الدعوة: عبادة الله،

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

واجتناب الطاغوت، ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فلا دين عند الله غيره.

ويقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ومن هنا نجد نوحًا عليه السلام شيخ المرسلين يقول لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وإبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢].

وموسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

والحواريُّون أصحاب عيسى يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وسَحَرة فرعون حين آمنوا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وسليمان عليه السلام حين بعث لبلقيس قال لها بعد البسملة: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١].

فالإسلام دين الأنبياء جميعًا، فكلهم دعوا إلى الإسلام، واعترفوا بالإسلام. والإسلام الَّذي بعث الله به محمدًا ﷺ هو خاتمة هذه الأديان، جاء ليكملها ويتممها، ويصحح ما حدث فيها من انحراف وزيادات أو من شوائب. يخلصها ويكملها كما قال مُحَمَّد ﷺ: «**إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»[1].

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق =

QaradawiBooks.com

ومن العجب أن يُقال عن إبراهيم عليه السلام: إنَّه يهودي أو نصراني: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. إنَّه صاحب الملَّة الحنيفيّة السَّمْحة، وإبراهيم عليه السلام هو الَّذي سمَّانا مسلمين.

فلهذا لا يُنسب لأية ديانة ذات عنوان خاص، ذلك لأن الله عز وجل ما شاء أن يطلق على هذا الدين إلَّا الإسلام، هذا الاسم للدين السماوي الأصلي، الَّذي أنزله الله لهداية عباده. وأرسل به رسله... ولم يسمِّه الله ولا المسلمون باسم «المحمَّديَّة» مثلًا كما هو شأن «المسيحيَّة» المنسوبة إلى المسيح عليه السلام، فهو الدِّينُ الإسلاميُّ العامُّ الَّذي اشترك فيه الأنبياء جميعًا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فالإسلام ـ إذن ـ هو مجموع العقائد وأُمَّهات الأخلاق والفضائل الَّتي جاء بها الأنبياء جميعًا، وأصول المحرَّمات الَّتي نهى عنها الأنبياء جميعًا.

اختلاف الشرائع:

ثُمَّ هناك أشياء اختلفت فيها الديانات وهي التشريعات الفرعيَّة التفصيليَّة الَّتي تعالج حياة النَّاس. فهذه اختلفت باختلاف الأعصار والأزمان والبيئات والأجيال، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. ولهذا كان في بعض الشرائع أشياء محرَّمة تحلها

= (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

شـــرائع أخرى، كما جاء مثل ذلك عن المسيح عليه السلام، حيث يقول القرآن عن المسيح: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وجاءت شريعة الإسلام هي الناسخة للشـــرائع جميعًا، وأبقت منها ما يصلح، وأزالت ما حُرِّف، وأتمَّت ما نقص، وشـــرعت الشريعة العامَّة الخالدة الصالحة المُصْلحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس التاسع عشر
تحويل القبلة

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٣، ١٤٤].

محاولة اليهود تشكيك المسلمين في عقيدتهم:

تعالوا ـ أيُّها الإخوة ـ نقف معًا وقفة عند هـذه الآيات الكريمة من سورة البقرة، الَّتي استمعنا إليها الآن، هذه الآيات نزلت في هذا السياق الَّذي يواجه تلك الحملـة الضارية، الحملة الضخمـة، الَّتي قادها يهود المدينة للتشـكيك في دين المسـلمين عقب ذلك الحدث، وهو حدث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام.

كان المسـلمون في أوَّل الأمـر يتَّجهون إلى بيـت المقدس، وكان النبي ﷺ وهو في مكَّة المكرمة قبل الهجـرة يتَّجه في صلاته إلى بيت المقدس ويجعل الكعبـة أمامه، ويصلي بين الركنيـن، فيتجه إلى بيت

QaradawiBooks.com

المقدس والكعبة معًا، فيجمع بين القبلتين، فلمَّا كتب الله له الهجرة، وذهب من مكَّة إلى المدينة، لم يستطع أن ينفِّذ ذلك، فكان يتَّجه إلى بيت المقدس، وحُرِمَ من الاتجاه إلى الكعبة، وكان يهوى أن يتَّجه إلى بيت الله الحرام الَّذي بناه أبواه إبراهيم وإسماعيل، ورفعا القواعد من البيت، وكان اليهود يتخذون من هذا الأمر تُكأة ليشيعوا ويقولوا: إنَّ محمدًا يصلي إلى قِبلتنا، إنَّ محمدًا تابعٌ لنا. يريدون أن يستغلُّوا كلَّ شيء للطعن في هذا الدِّين العظيم، والتشكيك في نبوَّة هذا النبي الكريم، فهو إذا وافقهم طعنوا، وإذا خالفهم طعنوا! من يريد الطعن والتشويه لا يعدم حيلة، ولا يفقد وسيلة، وهذا هو شأن هؤلاء.

لمَّا أذن الله تعالى لنبيِّه مُحَمَّد ﷺ والمؤمنين معه أن يتجهوا إلى بيت الله الحرام، وجاء الأمر الإلٰهي بذلك، قال اليهود ما قالوا، فنزلت الآيات الكريمة تبين أنَّه لا حرج أن ينسخ الله حُكْمًا بحكم، فنزلت آية النسخ فيما سبق من آيات هذه السورة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] للتمهيد لأمر تحويل القبلة، ولتُقرِّر حق الله تعالى في نسخ ما يشاء من الأحكام والآيات، وتبين أن نسخ بعض الأوامر والآيات هو وَفْق حكمة الله الَّذي يعلم ما يصلح لعباده. ونزل قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]. يعلم المسلمين أن هدف اليهود هو رد المسلمين كفارًا بعد إيمانهم، حسدًا من عند أنفسهم على اختيار الله لهم، واختصاصهم برحمته وفضله، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم، وانتدابهم لهذا الأمر العظيم.

QaradawiBooks.com

ونزلت كذلك تلك الآية الكريمة الَّتي تعرضنا لها من قبل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]. ثمَّ نزلت هذه الآيات الَّتي استمعنا إليها اليوم، والآية الَّتي سبقتها: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]. هؤلاء السفهاء من النَّاس الخفاف الطائشون هم أولئك اليهود، الَّذين واجه القرآن حملتهم بمثل هذه الردود.

الأمّة الإسلاميَّة هي الأمَّة الوسط:

ثم نوَّهت الآيات بعد ذلك بشأن الأمة الإسلامية، بأنَّها أمة خيّرة عادلة، شاهدة على الأمم، فقال تعالى مخاطبًا هذه الأمُّة، الأمّة الخاتمة، أمَّة القرآن، أمَّة مُحَمَّد ﷺ بهذه الآية الكريمة:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، إنَّ الله ﷻ يريد لهذه الأمُّة أن تكون وسطًا، وأن تكون مستقلَّة، وألَّا تكون تابعةً لأحد لا في المظهر، ولا في المخبر؛ ولهذا جعل لها قبلتها المستقلة، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، من الَّذي جعل هذه الأمُّة هكذا؟ إنَّه الله ﷻ، إنَّها أمَّة مجعولة بأمر الله، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، إنَّها أمَّة لم تنبت من نفسها نباتًا شيطانيًّا، كما يظهر بعض النباتات في الصحراء من غير أن يزرعها زارع، أو يغرسها غارس، ولكن أنبتها الله، أمَّة أُنبتت وأُخرجت، كما في الآية الأخرى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. والَّذي أخرج هذه الأمة للإنسانيَّة عامَّة، ولهداية النَّاس ونفع النَّاس، إنَّما هو الله، الَّذي جعلها هنا في هذه الآية ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المسلمون أُمَّة واحدة:

المسلمون أُمَّة وليسوا أممًا، لا يقال: أُمَمٌ إسلاميَّة، وإنَّما يقال: شعوبٌ إسلاميَّة، شعوبٌ داخل الأُمَّة الواحدة، هذه حقيقة يجب أن يعرفها المسلمون، أنَّهم ليسوا أممًا، إنَّما هم أُمَّة واحدة أُخْرِجَتْ للنَّاس، أمَّة تتبع نبيًّا واحدًا، وتتلو كتابًا واحدًا، وتؤمن بربٍّ واحد، وتُصَلِّي إلى قبلة واحدة، وتسير خلف منهج واحد، إنَّها أُمَّة القرآن.

معنى وسطيَّة الأُمَّة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، هذه الأُمَّة الإسلاميَّة وسط، سواءٌ فَسَّرنا الوسط بمعنى الخيريَّة، كما قيل عن الصلاة الوسطى خير الصلوات وأفضلها، وخير الأمور الوسط. أو فَسَّرنا الوسطيَّة بأنَّها وسط في كلِّ شيء، أي أنَّها تمثل التوازن والاعتدال بين الأمم، وبين الملل والديانات، فلا تقف في طرف الإفراط، ولا في طرف التفريط، إنَّها لا تميل إلى اليمين، ولا تميل إلى اليسار، إنَّها أمَّة الصراط المستقيم، صراط التوازن.

إنَّها ليست الأمَّة المسرفة في الماديَّة، ولا المسرفة في الروحيَّة، ليست الأمَّة الَّتي تتبع الفرديَّة المطلقة، ولا الجماعيَّة المطلقة، إنَّها ليست الأمَّة المبالغة في المثاليَّة، ولا المبالغة في الواقعيَّة، إنَّها وسط في كلِّ شيء، وسط في التصور والاعتقاد، وسط في التنسُّك والتعبُّد، وسط في القيم والأخلاق، وسط في العمل والسلوك، وسط في التشريع والتنظيم، وسط في السياسة والاقتصاد، وسط في العلاقات كلها داخلية وخارجية، وسط في كلِّ شيء، تُمثل الوسط الَّذي هو خير الأمور، هذا هو شأن هذه الأمَّة.

لا تهمل المادَّة لحساب الرُّوح، ولا الروح لحساب المادَّة، ولا يُضخَّم الفرد فيطغى على المجتمع، ولا المجتمع فيطغى على الفرد، وإنَّما يعطى

QaradawiBooks.com

لكلٍّ حقه، ويطالبه بواجبه في غير طغيان ولا إخسار، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩].

فإذا كان اليهود يميلون إلى الناحية الماديَّة، والنَّصارى وخاصَّة رهبانهم يميلون إلى الإسراف في الناحية الرُّوحيَّة، وإذا كانت بعض الأمم في عصرنا تميل إلى الفرديَّة، كالرأسماليِّين، وبعض الأمم تميل إلى الجماعيَّة كالاشتراكيِّين، وإذا كانت بعض الفلسفات تميل إلى المثاليَّة، وبعضها تميل إلى الواقعيَّة، فإنَّ أُمَّتنا أُمَّة وَسَط.

الأُمَّة المحمَّديَّة شاهدة على النَّاس:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، هي شهيدة على النَّاس، تقف موقف الشهادة، موقف الأستاذية، موقف الهداية للأمم جميعًا، فرسالتها رسالة عالميَّة، وللناس كافَّة، بيضًا وسودًا، عربًا وعجمًا، أغنياء وفقراء، رسالة للبشريَّة كلِّها، لا إقليميَّة، ولا قوميَّة، كما أنَّ كتابها أُنزل ذكرًا للعالمين، ونبيُّها أرسل رحمة للعالمين، وهي شهيدة على النَّاس في الآخرة، إذا سئل النَّاس يوم القيامة وأنكروا تبليغ أنبيائهم لرسالات الله، فإنَّ أُمَّة مُحَمَّد تشهد عليهم بما جاء في القرآن.

ووسطيَّتُها هذه تمكِّنها من الأستاذية، من الشهادة على النَّاس في الدُّنيا والآخرة، فإنَّ من معاني الوسطيَّة الَّتي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة ورتبت عليها شهادتها على البشريَّة كلها: العدل، الَّذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فإن لم يكن عدلًا، فإن شهادته مردودة مرفوضة، أمَّا الشاهد العدل والحاكم العدل فهو المرضيُّ بين النَّاس كافة.

QaradawiBooks.com

وتفسير الوسط في الآية بالعدل مرويٌّ عن النبيِّ ﷺ، فعن أبي سعيدٍ الخُدْري رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، فقال: «عدلًا»[١]. وقال المفسّرون في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]. أي: أعدلهم.

وقد فقه الصحابة هذا المعنى، وأدركوا أنَّهم مبعوثون لهداية أُمَم الأرض، وعبَّر عن ذلك أحدهم ـ وهو: رِبْعي بن عامر ـ في مواجهة رُسْتم قائد الفرس، محدِّدًا مهمَّة الأمَّة في عبارات بليغة موجزة، قال: إنَّ الله ابتعثنا لنخرج النَّاس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدُّنْيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام[٢].

الحكمة من تحويل القبلة:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، إنَّما غيَّر الله القبلة من جهة إلى جهة، امتحانًا واختبارًا، ليعلم علم ظهور من يتَّبع، وممَّن لا يتَّبع، لا بدَّ من تنقية الصف قبل مرحلة الجهاد المقبلة، الَّتي يواجه المسلمون فيها أعداءً كُثُرًا: الجبهة الوثنيَّة، والجبهة اليهوديَّة، والجبهة النصرانيَّة، والجبهة المجوسيَّة، وجبهة المنافقين. لا بدَّ من صف مؤمن متماسك كالبنيان المرصوص، فلا بدَّ من امتحان يميز الله به الخبيث من الطيب.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، لقد كان تحويل القبلة شيئًا ثقيلًا؛ لأنَّ هناك أناسًا يثقل عليهم أن يتغيَّروا من شيء إلى شيء، ويرون في ذلك شيئًا تضيق به نفوسهم وقلوبهم، ولكنَّ الَّذين هداهم الله يعلمون

(١) رواه البخاري في الاعتصام (٧٣٤٩).

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٥٢٠/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

QaradawiBooks.com

أنَّ لله ﷻ أن يأمر بما شاء، وأن ينهى عمَّا يشاء، وقد أثار اليهود في المدينة ضجَّة كبرى حول هذا التَّحوُّل، وقالوا: إنَّ صلاة المسلمين تلك السنوات قد ضاعت وأُهدرت؛ لأنَّها لم تكن إلى قبلة صحيحة. فردَّ عليهم القرآن وبيَّن أنَّ الجهات كلها لله، والله هو الَّذي يحدِّد أيُّها يكون القبلة لمن يصلى له، وطمأن الله المؤمنين على صلاتهم الَّتي توجَّهوا فيها إلى بيت المقدس قبل أن تحوَّل القبلة، وكذَّب اليهود فيما ادعوه من أن عبادة المؤمنين في الفترة الَّتي سبقت تحويل القبلة ضائعة وباطلة، فقال:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾، أي: صلاتكم الَّتي قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس، لأنَّها كانت صلاة إلى قبلة صحيحة مرضية عند الله، فلن تذهب عبثًا، إنَّها في ميزانكم عند الله محفوظة مسجَّلة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، لا يضيع أجر من أحسن عملًا، لا يُضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى.

فالذين صلَّوْا قبل ذلك نحو بيت المقدس صلاتهم كانت صحيحة في وقتها، ولو صلَّوْا بعد هذه الآية إلى بيت المقدس لبطلت صلاتهم؛ لأن كل حكم صحيح في وقته، فإذا نسخ فلا يجوز أن يعمل به.

ثمَّ قال الله تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]. كان النبي ﷺ ينتظر ويتطلَّع إلى السماء ينتظر الوحي يومًا بعد يوم، ينتظر من الله تعالى أن يوجِّهه إلى هذه القبلة الَّتي يرضاها، قبلة أبيه إبراهيم، وقد جاء بإحياء ملته، وتجديد دعوته، ولأنها أقدم القبلتين، وقد سمع اليهود يقولون مستهزئين: مُحَمَّد يخالفنا في ديننا، ويتَّبع قبلتنا، ويوشك أن يترك دينه ويتبع ديننا، فلولا ديننا لم يدر أين يتوجه في صلاته.

QaradawiBooks.com

فكره النبي ﷺ البقاء على قبلتهم، وكان ﷺ في مكَّة يحاول أن يجمع بين الأمرين، فكان يصلي بين الركنين: بين الحجر الأسود والركن اليماني، فتكون الكعبة أمامه، ويكون بيت المقدس أمامه أيضًا، وكذلك كان المسلمون في مكَّة يفعلون، وكان الأنصار في المدينة يصلون كذلك إلى بيت المقدس قبل الهجرة بثلاث سنوات، واستمر النبي ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة في التوجّه إلى بيت المقدس، وظل ستَّة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، كما يقول البراء بن عازب رضي الله عنه[1]؛ لأنَّه ﷺ لما هاجر إلى المدينة، تعذَّر عليه أن يجمع في صلاته بين القبلتين، فكان يتمنَّى أن يوجَّه إلى قبلة أبيه إبراهيم، باني البيت ورافعه، كان يتمنَّى ذلك وينتظر الوحي، وكان كثيرًا ما يرفع بصره إلى السماء قبلة الدعاء، ومحل نزول الوحي، دون أن ينطق لسانه بشيء، أدبًا مع الله تبارك وتعالى، حتَّى هيَّأ الله له ما أحبَّ ورضي، وأنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

انظروا إلى هذا الحبِّ، حقَّق له ما يرضاه في الدُّنيا، ووعده بإعطاء ما يرضاه في الآخرة، انظروا إلى هذه العبارة النديَّة في آية أخرى، حيث قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

استجاب الله له، ووجَّهه إلى القبلة الَّتي كان يتمنَّاها، وجَّهه إلى الكعبة البيت الحرام، قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، وكانت أوَّل صلاة صلاها النبي ﷺ مستقبلًا الكعبة صلاة الظهر، لكن تأخر وصول الخبر لأهل قباء حتَّى فجر اليوم التالي وهم يصلون الصبح، فتحوَّلوا عند ذلك.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٤٠)، ومسلم في المساجد (٥٢٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القبلة عنوانُ وحدة الأمَّة:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، اتَّجهوا إلى هذا البيت العظيم أينما كنتم، في شرق أو غرب، شمال أم جنوب، اتَّجهوا إلى قبلة واحدة، وقد جعل الإسلام اتَّجاه المسلم في صلاته إلى القبلة شرطًا لصحة الصلاة، وثبت بالسنة القولية والعمليَّة المتواترة توجه الرسول ﷺ وأصحابه إلى القبلة في كلِّ صلاة، كما أجمعت على ذلك الأُمَّة إجماعًا مقترنًا بالعمل في كلِّ القرون.

وتوحيد القبلة دليل على وحدة الأمة: وحدة الشعور، ووحدة الاتجاه.

المسلمون حول القبلة دوائر دوائر، لو نظر إليهم ناظرٌ من فوق لوجد دوائر حول الكعبة في كلِّ مكان، هذه الدوائر تمثل الأمَّة الإسلاميَّة في مشارق الأرض ومغاربها.

لا تخفى على الله خافية:

إنّ الله تعالى من حقِّه أن يأمر، ومن حقِّه أن ينهى، وأهل الكتاب يعلمون ذلك، يعلمون أنَّه الحقُّ من ربِّك، ولكنَّها المكابرة والعناد، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، الله يسجِّل عليهم ويحصي عليهم ذلك كلَّه، ويجازيهم بما عملوا، وهو سبحانه خبير بما يعملون، وليس بغافل عمَّا يعملون، فكل شيء عنده مرصود، ولا يحسبن الَّذين ظلموا أنَّ الله غافلٌ عنهم.

وقد أثار اليهود في المدينة ضجَّة، وأقاموا الدُّنْيا ولم يُقعدوها، وكان الله الَّذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عن علمه سر ولا علانية، قد أخبر رسوله ﷺ أنَّ السفهاء من اليهود والمنافقين سيقولون على سبيل الاستهزاء والاعتراض، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم، حين يتوجَّه النبي ﷺ والمؤمنون معه في صلاتهم إلى

QaradawiBooks.com

الكعبة: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]. كان وقع تحويل القبلة شديدًا عليهم، لذلك قالوا: إن كنتم قبل ذلك على الحق، فأنتم الآن على الباطل، وإن كنتم الآن على الحق، فقد كنتم قبل ذلك على الباطل.

فعلم الله رسوله والمؤمنين أن يقولوا ردًّا عليهم: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، نحن حينما نتوجَّه في صلاتنا إلى جهة المشرق، أو نتوجَّه إلى جهة المغرب، ليس لأهوائنا، ولا لتفضيل جهة على جهة، ولكن لأمر الله لنا، ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، العلة الحقيقيَّة لكل فعل وترك طاعةُ الله ﷻ وتنفيذ أمره. المشرق والمغرب لله، الجهات كلها لله، تستوي صخرة بيت المقدس في القدس، أو الكعبة في مكَّة، كلها لله ﷻ، الله هو الَّذي يخصِّص ويأمر، وإلا فالجهات مستوية، كما قال تعالى في نفس السورة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. وقال أيضًا في نفس السورة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]. فهو سبحانه من حقه أن يخصِّص الجهة الَّتي يريدها ويحبها لخلقه، ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقد هدى هذه الأمَّة إلى أحسن الجهات، اختار لهم أفضل الأماكن، أوَّل بيت وضع للنَّاس ليتَّجهوا إليه، وليكونوا متعلِّقين بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وليجدِّدوا ملَّته في التوحيد ومحاربة الأوثان والأصنام.

فالسجود لغير الله شركٌ وكفرٌ وحرامٌ ولا يجوز، ولكن لمَّا كان سجود الملائكة لآدم بأمرٍ من الله لهم، كان عبادة وطاعة لله، وليس شركًا ولا كفرًا.

وقتل النفس ـ خصوصًا قتل الإنسان لولده ـ من أكبر الكبائر، ولكن لمَّا كان الله هو الَّذي أمر إبراهيم بذبح ولده، كان قيام إبراهيم بذبح ابنه طاعة لله، وتنفيذًا لأمر ربِّه، وليس معصية ولا كبيرة.

QaradawiBooks.com

كذلك التوجُّه في الصلاة للبيت الحرام هو استجابة لأمر الله، ﴿لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ثم بيَّن الله أنَّ الَّذين أوتوا الكتاب يحاولون التشكيك في رسول الله ﷺ ودينه، مع علمهم أنَّه الرسول الخاتم، ويعرفون أوصافه الَّتي ذكرت في التوراة والإنجيل، ويعلمون أنَّه صاحب القبلتين، أنَّه سيتَّجه إلى بيت المقدس، ثمَّ إلى البيت الحرام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، ولو لم يتَّجه رسول الله من بيت المقدس إلى الكعبة لقالوا: إنَّ في التوراة والإنجيل أنَّ الرسول الخاتم محمدًا يُصلِّي إلى قبلتين، فلماذا لم يتحقَّق؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك، فكان المفترض في أهل الكتاب أن يكون هذا التحويل مثبتًا لإيمانهم بالرسول، وليس سببًا في زعزعة اليقين، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

ولذلك أقسم الحقُّ تبارك وتعالى أنَّه لو أتى رسول الله أهل الكتاب بكلِّ آية ما آمنوا بدينه، وما اتَّبعوا قبلته: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾، لماذا؟ لأنَّهم لا يبحثون عن دليل، ولا يريدون الاقتناع بصحَّة الدِّين الجديد.

وحين يخاطب اللهُ رسوله بهذه الآية: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، اللهُ يعلم أنَّ رسوله المعصوم لا يمكن أن يتَّبع أهواءهم، فكان المقصود بهذه الآية هم أمته، بيَّن الله لهم أنَّ كلَّ من يتَّبع أهواء أهل الكتاب وما حرَّفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان، فكشف بهذا دسائس اليهود

QaradawiBooks.com

وكيدهم للإسلام والمسلمين؛ تحذيرًا للجماعة المسلمة من ألاعيبهم وحيلهم، وحتَّى لا يتشبه المسلمون بالذين كفروا من أهل الكتاب في قول أو فعل.

لقد أرادوا أن يوجهوا المِعْوَل إلى أساس العقيدة في نفوس المسلمين، وجَّهوا المِعْوَل إلى أساس الثقة في نفوس المسلمين، فقالوا لهم: إن كان التوجُّه إلى بيت المقدس باطلًا فقد ضاعت صلاتكم وعبادتكم طوال هذه الفترة، وإن كان صحيحًا فلم التحوُّل عنه؟

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس العشرون
نعمة بعثة النبي مُحَمَّد ﷺ

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢]

الحمد لله الَّذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيِّدنا وإمامنا وأسوتنا وقدوتنا ومعلمنا وحبيبنا، مُحَمَّد عبد الله ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واستن بسُنَّته وجاهد جهاده، إلى يوم الدين.

وبعد:

خير ما أحييكم به أيُّها الإخوة والأخوات، تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام الله عليكم ورحمته الله وبركاته.

وأكرر تهنئتي إليكم بهذا الشهر المبارك، الَّذي أسأل الله تبارك وتعالى، أن يُهلَّ هلاله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما يحب ويرضى، وأن يجعله شهر خير وبركة، على أمة الإسلام، في مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها، وأن يرزقنا فيه القبول، وأن يخرجنا منه برحمة ومغفرة وعتق من النار، اللهمَّ آمين.

QaradawiBooks.com

منزلة النعم الدينيَّة:

أعظم النِّعَم أيُّها الإخوة هي النِّعَم الدينيَّة، نعم الله تبارك وتعالى كثيرة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، هذه النعم تغمرنا من رؤوسنا إلى أقدامنا، منذ ولدنا وقبل أن نولد، حتَّى ونحن أجنَّة في بطون أمَّهاتنا، نعم الله لم تغادرنا، سخر الله لنا ما في الكون جميعًا منه، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] سخَّر لنا السماوات والأرض وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ولكن هذه النعم الدنيويَّة، لا تساوي شيئًا إذا لم يكن معها النعم الدينيَّة، هبْ أنَّك أوتيتَ الصحَّة والعافية، وأوتيتَ العقل والذكاء، وأوتيتَ المنصب والجاه، وأوتيتَ الثروة والمال، وأوتيتَ الأولاد والبنين، وأوتيتَ النَّاس يتَّبعونك هنا وهناك، وأوتيتَ ملء الأرض ذهبًا، كنوزَ قارون، أو مُلْك سليمان، ثمَّ كان مصيرك إلى النَّار، ما قيمة هذا كلِّه؟ هذا كلُّه لا يساوي شيئًا، عندما يصبغ الإنسان في النَّار أوَّل ما يدخلها.

في الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعمِ أهلِ الدُّنْيا من أهل النَّار يوم القيامة، فيصبغ في النَّار صبغة، ثمَّ يقال: يا ابنَ آدم، هل رأيتَ خيرًا قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقول: لا، والله يا ربِّ. ويؤتى بأشدِّ النَّاس بؤسًا في الدُّنْيا، من أهل الجنَّة، فيُصبَغُ صبغةً في الجنَّة، فيقال له: يا ابنَ آدم، هل رأيتَ بؤسًا قطُّ؟ هل مرَّ بك شدَّة قطُّ؟ فيقول: لا، واللهِ يا ربِّ ما مرَّ بي بؤسٌ قطُّ، ولا رأيتُ شدَّة قطُّ**»[1].

(١) رواه مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٧)، وأحمد (١٣١١٢).

QaradawiBooks.com

صَبْغة واحدة، بمجرَّد أن يرمى في النَّار مرَّة واحدة، يلسع فيها لسعة واحدة فقط، يقال له: هل رأيت نعيمًا قطُّ؟ أنعم أهل الدُّنيا، أكثر أهل الدُّنْيا تنعمًا وترفهًا، إذا غمس في النَّار غمسة واحدة، ثمَّ قيل له: هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: ما رأيت نعيمًا قطُّ. أنسته هذه الغمسة الواحدة في النَّار كلَّ شيء، ولذلك كانت النِّعَمُ الدِّينيَّة أعظم النِّعَم.

النبيُّ ﷺ أعظمُ نِعْمَةٍ:

ومن هنا امتنَّ الله علينا في القرآن بنعمة النبيِّ مُحَمَّد ﷺ كما استمعنا في القراءة المباركة من سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وهذه البعثة كانت في رمضان أيضًا، نفحة من نفحات هذا الشهر الكريم، حينما كان النبيُّ ﷺ وهو يتعبَّد في غار حراء، وفي السابع عشر من رمضان جاءه جبريل بأوَّل فوج من آيات القرآن الكريم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، بعث الله تعالى محمدًا ﷺ إلينا، فكانت هذه البعثة.

نعمة الرسول تستحقُّ الذِّكْر والشكر لله:

وهذه البعثة والرسالة أعظم نعم الله على الإطلاق، ولهذا تستحقُّ الذكر والشكر لله، يقول الله تعالى فيما سمعناه قبل ذلك من سورة البقرة: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۞ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢]، كما أنعمنا عليكم بهذه النعمة فقابلوها

QaradawiBooks.com

بالذكر والشكر: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ رجل منكم، بشر مثلكم، يستطيع أن يتكلم بلغتكم، ويتفاهم معكم، لم يبعث الله إليكم ملكًا خُلق من نور وأنتم خُلقتم من طين، فهو من جنس غير جنسكم، لا تستطيعون التفاهم معه، ولا الاقتداء به، أنتم تأكلون وتشربون، وهو لا يأكل ولا يشرب، أنتم تتزوَّجون وتتناسلون، وهو لا يتزوَّج ولا يتناسل، أنتم تنامون وهو لا ينام، فأين تكون الأسوة، ولذلك قال الله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨]، واحد منكم: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولهذا يقول ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾.

مهمَّات النبيِّ ﷺ:

لهذا الرسول عدَّة مهمات:

أولى مهمَّاته: أنَّه يتلو عليكم آيات الله، يبلغكم ما أنزل من كتاب الله، كما قال الله سبحانه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۞ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣] يتلو علينا، يبلغنا، لا يكتم شيئًا ممَّا أوحاه الله إليه، تقول أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لوكان مُحَمَّد ﷺ كاتمًا شيئًا ممَّا أُنزل

QaradawiBooks.com

عليه من ربِّه، لكتم هـذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧][1]. ومثل ذلك الآيات: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ٤]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] الآيات الَّتي فيها عتاب للنبيِّ ﷺ، لو كان يستطيع أن يكتم شيئًا ممَّا أنزل عليه لكتم هذه الآيات، لا، هو مأمور بالتبليغ، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

القرآن ليس من كلام مُحَمَّد ﷺ:

ولذلك كلُّ مَن يقرأ القرآن بتدبُّر وإنصافٍ يستوثق ويستيقن أنَّ هذا الكتاب ليس من عند محمَّد، إنَّه من عند سلطة أعلى من مُحَمَّد ﷺ تأمره وتنهاه، وتعاتبه وتلومه، فلا يمكن أن يكون من عنده.

كلُّ نصٍّ أدبيٍّ ينضح بشخصيَّة صاحبه، حتَّى إنَّ رجال الأدب، رجال النقد الأدبي، يستطيعون أحيانًا أن يعرفوا أن هذا الشعر لفلان، وهذه الرواية لفلان؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ له شخصيَّته، فمن تدبَّر القرآن يدرك تمامًا أنَّه ليس من كلام مُحَمَّد ﷺ.

القرآن غيَّر العرب:

مُحَمَّد ﷺ مهمَّته أن يتلو آيات الله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ وتلاوة هذه الآيات هي الَّتي زلزلت هذه الأُمَّة، غيَّر مُحَمَّد ﷺ الأُمَّة بالقرآن، القرآن

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٧٧)، وأحمد (٢٦٠٤١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أحدث ثورة في أمَّة العرب، بمجرَّد أن قرؤوا القرآن أحدث عندهم زلزالًا فكريًّا ونفسيًّا، هذا هو القرآن الكريم. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ولذلك كان المشركون أنفسهم يتسمَّعون للقرآن، يستترون بعضهم من بعض، ويذهبون تحت ستار الليل ليسمعوا النبيَّ ﷺ وهو يتلو القرآن، كانوا يتلذَّذون به؛ لأنَّهم يجدون كلامًا غير الكلام، وأحيانا يضبط بعضهم بعضًا متلبِّسين بالتخفِّي لسماع القرآن، فيتلاومون ويتعاهدون على عدم الرجوع إليه مرَّة ثانية، كما حدث من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق.

أخرج ابن إسحاق والبيهقيُّ في «الدلائل» عن الزهري رضي الله عنه قال: حُدِّثْتُ أنَّ أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شَرِيقٍ خرجوا ليلة يستمعون من رسول الله ﷺ، وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كلُّ رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتَّى إذا طلع الفجر تفرَّقوا فجمعتهم الطريقُ، فتلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا. ثمَّ انصرفوا حتَّى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كلُّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتَّى طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أوَّل مرَّة، ثمَّ انصرفوا، حتَّى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل واحد منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتَّى نتعاهدَ لا نعود. فتعاهَدوا على ذلك، ثمَّ تفرَّقوا، فلما أصبح الأخنس أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني عن رأيك فيما سمعتَ من محمَّد؟ قال: والله لقد سمعتُ أشياءَ أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والَّذي حلفتَ به. ثمَّ خرج من عنده حتَّى أتى أبا جهل فقال: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

QaradawiBooks.com

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مَنَافٍ في الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتَّى إذا تجاثينا على الرُّكَبِ وكنا كفَرَسَي رِهَان، قالوا: مِنَّا نَبِيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُدْرك هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدِّقه. فقام عنه الأخنس وتركه[1].

ولأنَّهم يعلمون شدَّة تأثير هذا القرآن قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، الغَوْا فيه: شَوِّشوا على مُحَمَّد وهو يقرأ حتَّى لا يسمع أحد ولا يفهم عنه ما يقول فيتأثَّر به.

كان النبيُّ ﷺ يتلو عليهم الآيات، فأوَّل مهمَّة له ﷺ تلاوة آيات الله.

المهمَّة الثانية:

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ليست مهمَّة النبيِّ ﷺ تلاوة الآيات وتبليغها فقط، ولكنْ معها مهمَّة ثانية وهي التزكية ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وهي مهمَّة عظيمة عمليَّة، يمكن أن تقرأ القرآن، ويمكن أن تحفظ القرآن، ولكن ما أثر القرآن في نفسك؟ نحن الآن نقرأ القرآن، ونسمع القرآن، هناك محطات لتلاوة القرآن وسماعه، وهذا شيء طيب، حتَّى لندن تذيع القرآن، إسرائيل تذيع القرآن، وإنَّما تفعل ذلك لأنَّها مطمئنة إلى أنَّ القرآن لم يعد يحدث فينا ما أحدثه في المسلمين والمؤمنين الأوائل، القرآن غيَّر الأمة، وإنَّما غيرها بتزكيته ﷺ وتربيته للأمة.

معنى التزكية:

كلمة التزكية مثل كلمة التربية في عصرنا، لو أنَّهم ترجموا كلمة التربية بالتزكية لكان أوْلى؛ لأن كلمة التزكية تؤدِّي معنيين مهمَّين جدًّا،

(١) السير النبويَّة لابن هشام (٣١٥/١ ـ ٣١٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

كلمة زكا في لغة العرب تؤدي معنيين، معنى الطهارة، ومعنى النَّماء، يقال: زكا الشيءُ إذا طهر، وزكا إذا نما؛ ولذلك سميت الزكاة الَّتي هي الركن الثاني في الإسلام بالزكاة؛ لأنَّها طهارة ونماء، طهارة لنفس المزكِّي ولماله، ونماء لنفس المزكِّي ولماله، وفي القرآن الكريم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]

فالتزكية تطهير وتنمية، تطهير من الشرك، وتحلية وتنمية بالتوحيد، تطهير من الرذائل وتحلية بالفضائل، هدم وبناء، وهذا ما فعله النبي ﷺ أزال أنقاض الجاهلية، وبنى عليها بنيان الإسلام، بنى شخصيَّات جديدة بالتَّزكية، الَّذين كانوا يعبدون الأصنام أصبحوا لا يعبدون إلَّا الله، الَّذي كان يعبد صنمًا من العجوة فإن جاع أكله، انتهى عنه، أصبح لا يعرف إلَّا الله وحده، الَّذي كان يقتل ابنته «يئدها» وهي حيَّة، أو يقتل ولده مخافة أن يطعم معه، يقتله من إملاق أو خشية إملاق، من إملاق واقع، كما قال الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أو خشية إملاق متوقع، كما قال الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، وهذه جريمة لا يوجد أفظع منها، جريمة القتل فظيعة جدًّا، خصوصًا إذا كانت لبريء، وإذا كانت لطفل كانت أفظع وأفظع، قتل نفس زكية بغير نفس، فإذا كان هذا الطفل ابن الإنسان وفلذة كبده، تكون أفظع وأفظع وأفظع، فإذا كان يقتله مخافة أن يطعم معه، حتَّى لا يشاركه في اللقمة، تكون هذه أشد فظاعة، الإنسان يجوع ليأكل ابنه، فتقتله حتَّى لا يشاركك، فإذا كان يقتله بالوأد، إنَّه لا يقتله بالسيف ليستريح، وإنَّما يحفر له الحفرة ويضعه فيها، حتَّى إنَّهم ذكروا في بعض قصص العرب: أنَّه يأخذ البنت وهو يحفر لها، والغبار يتطاير على لحيته، فهي تنفض عنه الغبار، ولا تدري المسكينة أن هذه الحفرة هي قبرها وهي حية.

QaradawiBooks.com

جناية الجاهلية على الإنسان:

هذه جناية الجاهلية على الإنسان، الجاهلية جنت على عقل الإنسان حتَّى عبد الحجر، وجنت على قلب الإنسان وعاطفة الإنسان حتَّى قتل ولده وفلذة كبده، النبي ﷺ غيَّر هذا المجتمع وربَّاه بالتزكية، أصبح منه عمر بن الخطاب الَّذي يقف أمام الحجر الأسود ويقول له: إنِّي أقبلك وأعلم أنَّك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك[1]. وهذا القاسي في الجاهلية هو الَّذي يقول: لو هلك جدي في شط الفرات، لرأيتني مسؤولًا عنه أمام الله، أو لو عثرت بغلة بأرض العراق، لرأيتني مسؤولًا عنها أمام الله يوم القيامة[2]، لماذا لم أسوِّ لها الطريق؟ عقول جديدة، وقلوب جديدة، صنعها الإيمان، وربَّاها مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام، يزكيهم، هذه هي المهمة الثانية.

المهمة الثالثة:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: غير التلاوة: التعليم، يُفهمهم الكتاب والحكمة، كيف يفهمون النصَّ الإلٰهي؟ وكيف يُطَبِّقونه؟ وهذه هي الحكمة، وضعُ الشيء في موضعه، بعض النَّاس قد يأخذ النصوص على ظواهرها، وإن كانت ضد مقاصد الشريعة، ليس هذا من الحكمة في شيء.

أنواع الحكمة:

الحكمة نوعان:

الأولى: الحكمة النظريَّة، وهي أن تفهم النص على حقيقته، تفهمه بسرِّه وعلَّته.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠)، كلاهما في الحج.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥٣/١)، نشر دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

الثانية: الحكمة العمليَّة، وهي أن تضع الشيء في موضعه: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

لقد جاء عن بعض العلماء أنَّ الحكمة هي السُّـنَّة، ولكن إذا أخذنا السُّنَّة بالمعنى الحرفي، لا يصحُّ، لماذا؟ لأنَّ هذا ذُكر للسابقين، كما قال الله تعالى عن آل إبراهيم: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، آتاهم الله الحكمة مع الكتاب، ولم يكن عندهم سـنَّة، وقال في شـأن نبي الله عيسى عليه السلام ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمـران: ٤٨]، فالكتابُ المقصود به النص، والحكمة فهم النصّ على حقيقته، وهناك من قـال: إنَّ الحكمة هي الكتابة، أي: يُخرج الأمَّة من الأميِّة، وهذا محتمل، ولكن الحكمة هي حُسْـن الفهم، الَّذي لا يقف عند السـطح، ولكن ينفذ إلى الأعماق، لا يهتم بالقشور، وإنَّما ينفذ إلى اللباب، هذه هي الحكمة الَّتي من أُوتيها فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ولذلـك أبرز من تتجلَّـى فيهم الحكمة هـم أصحاب النبي ﷺ وخصوصًا فقهاء الصحابة الربَّانيين من هذه الأمة.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ مـن أمور الدين، وأمور الغيب، وأمور الآخرة، وأحوال الأمم السـابقة، وما يأتي في مستقبل الزمان، ويعلمكم أيضًا من شؤون الحياة، من سنن الله في الكون، ومن سـنن الله في الاجتماع البشـري، وآيـات في الأنفس والآفاق، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

وجوب ذكر الله تعالى وشكره:

وكما فعل الله بكم ذلك، كما أرسل فيكم هذا الرسول، من أجل أن يتلو عليكم آيات الله البيِّنات، ومـن أجل أن يطهِّركم وينمِّيكم بالتزكية،

QaradawiBooks.com

ومن أجل أن يعلمكم كلام الله والحكمة الَّتي تعين على فهمه، وحسن تطبيقه، ومن أجل أن يعلمكم ما لم تعلموا من أمر الدُّنْيا والآخرة، واجب عليكم، أن تذكروني وتشكروا لي ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ قابلوا هذه النعمة بالذكر والشكر، كما علَّم النبي ﷺ معاذ بن جبل أن يقول في دُبُرِ كلِّ صلاة: «**اللهمَّ أعنِّي على ذكرك، وشُكْرِكَ، وحُسْن عبادتك**»[1]، أن تذكروا الله فلا يُنسى، وأن تشكروه فلا يكفر، وأن تطيعوه فلا يعصى.

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: لا تكونوا كأهل مكَّة، الَّذين جاءهم هذا الرسول العظيم، هذه الرحمة المهداة، فكفروا بنعمة الله، ولذلك صدق في هذه القرية (مكَّة) عندما كفرت بمحمَّد ﷺ قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل١١٢ ـ ١١٣]، النعمة الَّتي كفروها، نعمة مُحَمَّد ﷺ، بعثة هذا الرسول العظيم.

أيُّها الإخوة، إنَّ الله تعالى أكرمنا وبعث فينا خيرَ نبيٍّ أُرْسِل، وجعل فينا خير كتابٍ أُنْزِلَ، فعلينا أن نشكر الله تعالى على هذه النعمة، وشكر الله تعالى عليها أن نتمسك بهذه الرسالة المحمَّديَّة، وأن نعتزَّ بها، وأن نجسدها في حياتنا، شكر نعمة الله لا يكون بمجرد الكلام، نعم نقول

(١) رواه أحمد (٢٢١١٩)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (١٥٢٢)، والنسائي في السهو (١٣٠٣)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، كلاهما في الصلاة. عن معاذ بن جبل.

QaradawiBooks.com

دائمًا: الحمد الله، ولكن ليس بالكلام فقط، بل بالكلام والعمل، أن نذكر هذه النعمة بألسنتنا، ونستشعرها بأعماق قلوبنا، ونجسدها في حياتنا وسلوكنا وأعمالنا.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من الذاكرين الشاكرين العاملين، اللهمَّ آمين.

وصلِّ اللهمَّ على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الحادي والعشرون
الابتلاء طبيعة الحياة الدنيا

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

بلاء ممزوج باللطف:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ البلاء هنا بلاء عامٌّ، يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع، والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات.

ومن لطف الله تعالى ورحمته هنا أنَّه جعل البلاء ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ وتنكير «شيء» هنا ـ كما يدل عليه السياق ـ للتقليل والتحقير؛ لأنَّ ما هو أكثر وأكبر لا يُطيقونه، فمسَّهم بشيء قليل من البلاء، تخفيفًا عنهم، ورحمة بهم، وتقديرًا لضعفهم.

وقد قال ابن عطاء الله: من ظنَّ انفكاكَ لُطفه عن قدره، فذلك لقصور نَظَرِه[1].

(١) حكم ابن عطاء الله صـ ٢٣٣، شرح العارف بالله الشيخ زروق، تحقيق د. عبد الحليم محمود، و د. محمود بن الشريف، نشر دار الشعب، القاهرة.

QaradawiBooks.com

فإذا نزل بالمرء نازلة سلبته شيئًا ممَّا عنده، فإنَّما استردَّ صاحبُ الملك بعض ما وهب، ولا ينبغي للمُودَع أو المستعير أن يسخط على المالك إذا استردَّ يومًا من الدهر وديعته أو عاريَّته. وقديمًا قالوا:

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ[1]

ومن ثَمَّ علَّم القرآن الصابرين الَّذين كتب لهم البشرى والصلوات والهداية والرحمة أن يقولوا إذا أصابتهم مصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

أجر الصابرين:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، بشَّرهم الله ﷻ بحسن المثوبة والجزاء، وعلَّمهم أن يقولوا عند المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، نحن ملك لله، يتصرَّف فينا كيف يشاء، أنفسنا ملك لله، أولادنا ملك لله، أموالنا ملك لله، فإذا أخذ منَّا ما يملك، فليس لنا أن نَجْزع ولا أن نسخط، بل نقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، كلُّنا لله، يتصرَّف فينا كيف يشاء.

﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، نجد عنده حسن المثوبة والجزاء، كما أخبرهم في الآية نفسها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

وهذا هو المطلوب من الإنسان المسلم إذا أصابته مصيبة، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ يقول سيِّدنا عمر: نِعْمَ العدلان، ونِعْمَت العلاوة[2].

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة في معلقته. انظر: ديوانه صـ ٥٦، تحقيق حمدو طمّاس، نشر دار المعرفة، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

(٢) علقه البخاري في الجنائز قبل الحديث (١٣٠٢)، ووصله الحاكم في التفسير (٢/٢٧٠)، =

QaradawiBooks.com

العدلان همـــا: الصلوات والرحمـــة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، والعلاوة هي: الاهتداء، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، بشِّـــرهم أن لهم عند الله أحسن الأجر والمثوبة، وقد قال النبي ﷺ فيما روته أم ســـلمة رضي الله عنها: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، اللهـــمَّ اؤجُرْني في مصيبتي، وأَخلِف لي خيرًا منها، إِلَّا أخلف الله له خيرًا منها**»[1].

استرجاع أمِّ سَلَمَة:

ســـمعتْ ذلك أمُّ ســـلمةَ من رســـول الله ﷺ، ثمَّ استشـــهد زوجها أبو سلمة، وهو من المؤمنين المهاجرين في سبيل الله، فامتثلت، وقالت ما علَّمها النبي ﷺ: «**اللهـــمَّ اؤجُرْني في مصيبتـــي، وأَخْلِفْ لي خيرًا منها**». وقالت في نفْسِـــها: ومن يكون خيرًا من أبي ســـلمة؟ فكان أن عوَّضها الله خيرًا من أبي سلمة، وهو رسول الله ﷺ، ما إن انتهت عِدَّتُها حتَّى جـــاء يخطبها، فاعتـــذرت في أوَّل الأمـــر، ثمَّ أقنعهـــا النبيُّ ﷺ فوافقـــت، وتزوَّجتـــه، وصـــارت مـــن أُمَّهـــات المؤمنيـــن، وزوجات رسول الله ﷺ في الدُّنْيا والآخرة.

من مظاهر الجزع عند المصيبة:

فلا يجوز للمســـلم أن يســـخط على قضاء الله وقدره، فيظهر الجزع بلطم خدِّه، أو شقِّ جَيْبه، أو وضع الطين على رأسه.. أو نحو ذلك، ممَّا

= وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الجنائز (٦٥/٤)، وصحَّح إسناده ابن حجر في تغليق التعليق (٤٧٠/٢).

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩١٨)، وأحمد (١٦٣٤٤)، عن أم سلمة.

QaradawiBooks.com

كان يفعلــه أهل الجاهلية الأولــى، يقول النبي ﷺ: «**ليــس مِنَّا مَن لطم الخدودَ، وشقَّ الجيوبَ، ودعا بدعوى الجاهليَّة**»(١).

أي هذه الأعمال ليست من شأن أهل الإسلام، أهل الإسلام يتقبَّلون المصائب بالصبر الجميل، والتسليم لله ﷻ، فالدنيا لا تخلو من الابتلاء، سئل ســيِّدنا عليٌّ عن الدُّنيا، قال له أحد الناس: صف لي الدُّنْيا يا أمير المؤمنين. فقال رضي الله عنه: ماذا أصف لك من دار أوَّلها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء(٢)؟!

الجنين عندما ينزل من بطن أمِّه ينزل باكيًا، فأوَّل الدُّنْيا بكاء، وأوسطها عناء وتعب ومشقَّة، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشــقاق: ٦]. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]. أي: في مشــقَّة منذ أن يولد، في مكابدة الحياة وآلامها، كلُّ النَّاس يعانون فيها، من المشــاغل والهموم فيها. وآخر هذه الدُّنْيا الفناء والعدم، كما قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. هذه هي طبيعة الدُّنيا، والصبر لا بدَّ منه للإنســان فــي معركته مع الحياة، لا يستطيع أن يخوض معترك الحياة ما لم يتسلَّح بالصبر والصلاة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وإذا صبر الإنســان، فإنَّ جزاءه لا يُقْدر قدره، ولا يُحصى عدُّه. كلُّ جزاء هو معلوم إلَّا الصبــر، جزاؤه غير معلوم ولا محســوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمــر: ١٠]. ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٤)، ومسلم في الإيمان (١٠٣)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه القالي في الأمالي في لغة العرب (١٢٠/٢)، ترتيب محمد عبد الجواد الأصمعي، نشــر دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثاني والعشرون
الأكلُ من الطيِّبات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۞ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٧٢ ـ ١٧٥].

معنى الطيِّبات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. جاء الخطاب قبل هذه الآيات للنَّاس عامَّة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ [البقرة: ١٦٨]. وهنا جاء النداء للمؤمنين خاصَّة: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. قد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، ففي آية أخرى قال للرسل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وهنا أمر من الله للمؤمنين أن يأكلوا من طيِّبات ما رزقهم.

والطيِّبات تشمل الحلال والمستلذَّ، ما تستطيبه الأنفس وتستلذُّه، لم يحرم الله هذا على النَّاس، ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. كلُّ

نسخة رقمية

ما يُطلبُ منهم أن يشكروا نعمة الله، ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. كما قال الله لقوم سبأ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ [سبأ: ١٥]. شكر نعمة الله أن تستعمل فيما خُلِقَت له، فيما يُرضي الله، لا أن يُستعان بنعم الله على معصية الله، كما يفعل كثيرٌ من النَّاس، يؤتيهم الله النعم، فيجعلون منها أدواتٍ لمحاربة الله، ومبارزته بالمعاصي والعياذ بالله! ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. فهو واهب النعم، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

المحرَّمات محدودة:

ثمَّ يبيِّن الله ﷻ في الآية الَّتي بعدها أنَّه لم يُحرِّم على النَّاس إلَّا أشياء محدودة من الأطعمة، لم يحرم القرآن عليهم إلَّا هذه الأصناف الأربعة المذكورة في الآية، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وقد ورد ذكرها في آيات أخر، أصرحها في الدلالة على حصر المحرمات في هذه الأربعة قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٥].

في سورة المائدة ذكر القرآن هذه المحرمات بتفصيل أكثر، فقال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

QaradawiBooks.com

ولا تنافي بين هذه الآية الَّتي جعلت المحرمات عشرة والآيات السابقة الَّتي جعلتها أربعة، إلَّا أن هذه الآية فصَّلت الآيات الأخرى، فإن المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، كلها في معنى الميتة، فهي تفصيل لها، كما أنَّ ما ذبح على النصب في حكم ما أُهِلَّ لغير الله به، فكلاهما من باب واحد، فالمحرمات أربعة بالإجمال، عشرة بالتفصيل.

الحكمة من تحريم بعض الأطعمة:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. والميتة هي: كلُّ ما هلك حتف أنفه من غير تذكية اختياريَّة، من غير الذبح الشرعي، حرمه الله تعالى؛ لأنَّه مصدرٌ للأمراض والقاذورات والدم، وقد بيَّنت آية أخرى تحريم الدَّم المسفوح، ولحم الخنزير؛ لأنَّه رجس، وقد بيَّن العلم الحديث بعض مظاهر هذا الرجس من بعض الديدان الَّتي لا تعمل فيها النظافة ولا غيرها، وإذا كان أربعة عشر قرنًا بينت لنا بعض ما في هذا الحيوان القذر، فلا يدري الإنسان ماذا سيكون في الغد، وعلى المؤمن أن يعلن سمعنا وأطعنا، سواء تبيَّن له هذا الرجس ما هو، أم لم يتبيَّن له؛ لأنَّ الله لا يُحرِّم إلَّا طيِّبًا، ولا يُحرِّم إلَّا خبيثًا في هذا الدِّين.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]. ما أُهِلَّ به لغير الله أي: ما ذُبح على اسم غير الله، والله ﷻ إنَّما يريد أن تُذبح الذبائح باسمه، كما قال في سورة الأنعام: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨]. هذه الحيوانات مخلوقات خلقها الله ﷻ، وهي حيوانات محترمة، فلا يجوز لإنسان أن يذبحها إلَّا

QaradawiBooks.com

باسم الله، كأنَّه حين يقول: باسم الله والله أكبر، كأنَّه يقول: إنَّ عندي إذنًا وترخيصًا من الله تعالى بإزهاق هذه الرُّوح، إمَّا ألَّا يذكر اسم الله عليها قطُّ، أو يذكر اسم غير الله، كما كان يفعل المشركون الَّذين يذبحون على النُّصُب، ويذكرون اسم الأصنام على ذبائحهم، فهذا يحرم على المسلم أكله، ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

الضرورات تبيح المحظورات:

ومع هذا فإنّ الله تعالى رؤوف بعباده ورحيم، فقد جعل للضرورات أحكامها فقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة: ١٧٣]. اضطر في مخمصة، في مجاعة، كان في صحراء ولم يجد أمامه إلَّا هذه المحرمات، أيُترك لأنياب الموت تفترسه؟ لا، إنَّ الإسلام دين واقعي، يرعى حالات الضرورة، فيُشرِّع لها.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾ على أحد من النَّاس، أو غير باغٍ لذَّة، غير طالب لها، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ غير متجاوز في التشبُّع قدر الضرورة، ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]. لا إثمَ عليه إذا أكل من هذه المحرمات، على ألَّا يسترسل في هذه الضرورة، وضرورة الجوع قد نصَّ عليها القرآن نصًّا صريحًا بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ أي: في مجاعة ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣].

فلم يغفل الإسلام عن ضرورات الحياة وضعف الإنسان أمامها، فقدَّر الضرورة القاهرة، وقدَّر الضعف البشري وأباح للمسلم عند ضغط الضرورة: أن يتناول من المحرَّمات ما يدفع عنه الضرورة ويقيه الهلاك، ولهذا قال الله تعالى بعد أن ذكر محرَّمات الطعام من الميتة والدم ولحم الخنزير: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وكرَّر هذا

QaradawiBooks.com

المعنى في أربع سور من القرآن كلَّما ذكر محرمات الطعام[١]، ومن هذه الآيات وأمثالها قرر فقهاء الإسلام مبدأ هامًّا هو: «الضرورات تبيح المحظورات». وقيَّدوها بمبدأ آخر وهو: «الضرورة تُقدَّر بقدرها»، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. ومن مغفرته ورحمته بعباده أنَّه سهَّل لهم في تناول هذه المطعومات المحظورة في الأصل.

والإسلام بإباحته المحظورات عند الضرورات إنَّما يساير في ذلك رُوحه العامَّة، وقواعده الكلية، تلك هي روح اليسر الَّذي لا يشوبه عسر، والتخفيف الَّذي وضع به عن الأمة الآصار والأغلال الَّتي كانت على من قبلها من الأمم، وصدق الله العظيم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

عاقبة كتمان آيات الله واستبدالها بمتاع الحياة الدُّنْيا:

ثم بيَّن الله ﷻ أمرًا آخر، أمر الَّذين يكتمون ما أنزل الله ﷻ من الكتاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤]. شأن أهل الكتاب وشأن اليهود الَّذين كتموا ما عندهم من صفة النبي مُحَمَّد ﷺ، وكتموا ما عندهم من بعض الأحكام وأخفوها، وحرَّفوا وبدَّلوا، مع أنَّ الواجب أن يُظهروا أحكام الله ولا يكتموها، إنَّ الله ﷻ لا يريد لأحكامه أن تُخفى، ولا أن تُستر عن النَّاس، ولا أن يموَّه عليها بغطاء من التلبيس.

(١) آية البقرة التي معنا، وآية (٣) من المائدة، وآية (١٤٥) من الأنعام، وآية (١١٥) من النحل.

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ١٧٤]، يشترون به مصالح خاصَّة، منافع دنيويَّة عاجلة، دنيا رخيصة، دنيا لا تساوي شيئًا بجانب رضا الله تعالى ومثوبته، هذا هو الثمن القليل، الدُّنْيا كلُّها في نظر القرآن ثمنٌ قليل، ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧]. الدُّنْيا كلُّها لا تزن عند الله جناح بعوضة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤]. من فعل ذلك فإنَّما يأكلون في بطونهم النَّار، كأنَّما عُجِّلت لهم النَّار في الدُّنيا، هم يأكلونها، كأنَّما قُذفت في وجوههم قذفًا، إنَّهم يظنون أنَّهم يكسبون الأموال، ويجمعون الثروات، وهم في الحقيقة إنَّما يكسبون النار.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤]. لا يكلمهم الله يوم القيامة كلام محبة أو تقدير، قد يكلِّمهم كلام إهانة وتحقير، يقول لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤]. لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم نظر رحمة، ولا نظر عناية ورعاية، إذا نظر إليهم فهو نظر المقت، إنَّ الله لا يبالي بهم، إنَّهم في موضع المقت من الله ﷻ، موضع الإهمال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]. مَن حدث منهم الكتمان، فإنَّ الله تعالى يعرض عنهم ولا يُكلِّمهم، فهم باعوا الآخرة بثمن قليل، وقد ادخر الله ﷻ لهم عذابًا أليمًا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [البقرة: ١٧٥].

QaradawiBooks.com

باعوا باقيًا بفانٍ! باعوا الشيء العظيم بالشيء الحقير! اشتروا الضلالة بالهدى، دفعوا الهدى وأخذوا الضلالة، ودفعوا المغفرة وأخذوا العذاب، ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]: ما أصبرهم على النار! وما أصبرهم على عذاب الجبَّار!

إنَّ في هذا الوعيد الشديد لتذكرة لمن يلبسون لباس العلماء، من الَّذين يجارون الملوك الفاسقين والرؤساء الظالمين، ويكتمون الحق وهم يعلمون، فكيف بالذين يُحلُّون لهم الحرام، ويُسقطون عنهم الفرائض، ويمدُّونهم بالفتاوى الجاهزة لكلِّ بدعة يبتدعون، وكلِّ منكرٍ يقترفون.

حرمة كتمان العلم:

وكما يحرم على الإنسان أن يقول ما لا يعلم في دين الله، فإنَّه يحرم عليه أن يكتم ما يعلم، ممَّا ينفع الله به النَّاس من البينات والهدى؛ فإنَّ زكاةَ العلم نشرُه وبثُّه، لا كَنْزُه وحَبْسُه، والآيتان نزلتا في شأن أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النَّصارى، الَّذين كتموا صفات النبي ﷺ في كتبهم، بالحذف أو الإخفاء أو التحريف، ولكن اللفظ عامٌّ يشمل كل من كتم من دين الله علمًا يحتاج إلى بثِّه.

فلا يجوز للعالم بحال أن يقصد إلى كتمان العلم النافع، ومن قصد ذلك فهو عاصٍ آثم، وإذا لم يقصد إلى الكتمان وكان في النَّاس من يقوم بواجب البيان والتبليغ والدعوة، فقد رفع عنه الإثم، فإنَّ البيان فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين، وهذا إذا كان عدد المبلِّغين والدعاة من الكفاية بحيث تكون منهم «أُمَّة» أي جماعة وقوة، كما أمر الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

QaradawiBooks.com

ويتعيَّن البيان على العالم إذا سأله سائل يسترشد عن أمر من أمور دينه، ولا يحل له الكتمان هنا، اتكالًا على غيره، حتَّى لا يضيع المسلم بين هذا وذاك، روى أبو هُرَيْرة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**من سُئل عن علمٍ فكتمه، أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجامٍ من نار**»[(١)].

ذلك أنَّ من حقِّ السائل المتعلِّم على العالم أن يُجيبه ويعلِّمه، ما لم يكن متعنِّتًا ولا متنطِّعًا، يتتبَّع الغرائب وأغلوطات المسائل، فقد ورد النهي عن هذه الأغلوطات[(٢)]، وأدَّب عمر سائلًا عُرِفَ بذلك[(٣)].

كما يحرم على العالم المسلم السكوت عن البيان العلمي باللسان أو القلم إذا ترتَّب على سكوته التباس الحقِّ بالباطل، واشتباه الحلال بالحرام، واختلاط المعروف بالمنكر، فيلزمه هنا البيان، إزالة للَّبس، وإيضاحًا للحق، فإنَّ البيان هنا من باب الشهادة الَّتي يحرم كتمانها: ﴿**وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ**﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقد ضرب القرآن لنا مثلًا بعلماء السوء من اليهود والنَّصارى الَّذين كتموا ما أنزل الله، ابتغاء عَرَض الدُّنيا، فلعنهم الله، ليكون ذلك لنا عبرة، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

---

(١) رواه أحمد (٧٥٧١)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وقال: حسن. كلاهما في العلم، وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٦٨٨)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في العلم (٣٦٥٦)، وقال ابن الملقن في بيان الوهم والايهام (٦٦/٤): لا أعلم أن أحدًا من المحدثين يقول فيه: صحيح. عن معاوية.

(٣) رواه الدارمي في المقدمة (١٥٠).

QaradawiBooks.com

وإذا كان هذا قد نزل في شأن اليهود وأمثالهم من أهل الكتاب، الَّذين أخذ الله عليهم الميثاق ليُبَيِّنُنَّه للنَّاس ولا يكتمونه، فإنَّه يَجُرُّ في ذيله من كان من علماء المسلمين، وكتم ما أنزل الله من الهدى والحق، ولم يُبَيِّن للنَّاس ما نُزِّل إليهم، إنَّ العالم يجب عليه أن يبيِّن حكم الله ولا يكتمه، ولا يُخفيه أبدًا، لا خوفًا ولا طمعًا، فالدنيا كلُّها ثمن قليل، لا تزنُ عند الله جناح بعوضة، وقد قال الله تعالى في هذه السورة سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

نسخة مجانية
غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الدرس الثالث والعشرون
حقيقة البرِّ كما بيَّنها القرآن الكريم

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

سبب نزول الآية:

أشاع بعض أهل الكتاب من اليهود: أنَّ البر أو التَّقوى هو الاهتمام برسوم معيَّنة، وشكليَّات خاصَّة، ولهذا أقاموا الدُّنْيا وأقعدوها حين تحوَّل الرسول ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة، بعد أن جعلها الله له ولأمته قِبلة، فنزل القرآن يُبَيِّن حقيقة البر والتَّقوى والدين الحق، فقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية، والمعنى أنَّ البرَّ هو طاعة الله وامتثال أمره والتوجه حيثما أمر، واتِّباع ما شرع.

مفهوم البرِّ يشمل العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق:

والآية الكريمة قد مزجت وهي توضح مفهوم البرِّ بين العقائد: من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيِّين، وبين الشعائر من

QaradawiBooks.com

الصلاة والزكاة، والمعاملات من إيتاء المال على حبِّه ذوي القربى واليتامى، إلخ، والأخلاق من الوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

وجعلت هذا المزيج المتناسق هو حقيقة البرِّ، وحقيقة التديُّن، وحقيقة التَّقوى كما يريدها الله، تحدَّثت الآية عن برِّ العقيدة: من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وبرِّ العمل من إيتاء المال على حبِّه ذوي القربى ومَنْ بعدَهم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وبرِّ الأخلاق، فذكرت خُلُقين رئيسيين هما: الوفاء بالعهد، وهو يشمل العهد مع الله، والعهد مع النفس، والعهد مع النَّاس.. والصبر في البأساء (أي الفقر والحاجة)، والضرَّاء (أي المرض والألم)، وحين البأس (أي ساحات المعارك والحروب).

لماذا نُصِبَتْ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مع كون ما قبلها مرفوعًا:

وقد ميَّزت الآية الصبر هنا حين غيَّرت إعراب «الصابرين» من حالة الرفع عطفًا على «الموفون» قبلها، إلى حالة النصب، دلالة على الاختصاص وتنبيهًا للقارئ العارف ليقف عند هذا الوصف المتميِّز، كأنَّه يقول: وأخصُّ بالذكر أو المدح والثناء هنا الصابرين: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾.

ثم يجيء ختام الآية ملاصقًا لهم ومتصلًا بهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

الإيمان بالله هو الأساس:

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الإيمان بالله ـ أي بالذات الغيبيَّة العلويَّة المختارة القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة ـ هو رُوح الدِّين، أي

QaradawiBooks.com

دين، وكذلك هو روح الإسلام، وأصل عقائده كلها، كما بيَّنها كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

فهذا القرآن الكريم حين يتحدَّث عن أركان الإيمان ومتعلَّقاته يجعل الإيمان بالله أولها وأصلها، فهنا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والرسول الكريم يقول في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإيمان: «**الإيمانُ أن تؤمنَ باللهِ، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث**»(١).

فالإيمان بالله هو الأصل، وكلُّ أركان العقيدة الأخرى مضافة إليه، وتابعة له، فأنت بعد أن تؤمن بالله جل شأنه، تؤمن ـ بالتالي ـ بملائكته وكتبه ورسله ولقائه وحسابه وقضائه وقدره.

فالإيمان بهذه كلِّها فرع عن الإيمان بالله، ومبنيٌّ عليه، ولا يُتصوَّر الإيمان بالرسول إلَّا بعد الإيمان بالمُرسل، ولا بالجزاء والحساب إلَّا بعد الإيمان بالمجازي والمحاسب.

والإيمان بالله يتضمَّن الإيمان بوجوده بالضرورة، والإيمان بوحدانيَّته في ربوبيَّته وألوهيته، والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، الَّتي يتجلَّى فيها اتِّصافه بكلِّ كمال يليق به، وتنزُّهه عن كلِّ نقص.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هل في المال حقٌّ غيرُ الزكاة؟

وهذه الآية تهتمُّ برعاية العيش للفقراء، فعلى الموسرين في المجتمع أن يقوموا بكفايتهم، وإذا لم يقم النَّاس من تلقاء أنفسهم برعاية فقرائهم، فللإمام أن يفرض على الأغنياء ما يقوم بكفاية الفقراء، وقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يدلُّ على ذلك، حيث فرَّقت الآية الكريمة بين إيتاء المال على حبِّه ذوي القُرْبَى واليتامى والمساكين... وبين إيتاء الزكاة، وهذا يدلُّ على أنَّهما حقَّان في المال.

روى التِّرْمذي وغيره أنَّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية مستدلًّا بها على الحكم المذكور، فعن فاطمة بنت قيس: سألتُ النبيَّ ﷺ عن الزكاة، فقال: «**إنَّ في المال لحقًّا سوى الزكاة**». ثمَّ تلا هذه الآية الَّتي في البقرة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ...﴾ الآية[1].

وقال الطبري: فإنْ قال قائل: وهل من حقٍّ يجب في مالٍ إيتاؤه فرضًا غير الزكاة؟ قيل: قد اختلف أهل التأويل في ذلك.

فقال بعضُهم: فيه حقوق تجب سوى الزكاة. واعتلُّوا لقولهم ذلك بهذه الآية، وقالوا: لمَّا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ومن سمَّى الله معهم، ثمَّ قال بعد: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ علَّمنا أنَّ المال الَّذي وصف الله المؤمنين به بأنَّهم يؤتونه ذوي

(١) رواه الترمذي في الزكاة (٦٥٩، ٦٦٠)، وقال: هذا حديث إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف. والطبراني (٤٠٣/٢٤)، والدارقطني في الزكاة (٢٠١٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩٠٣). وانظر كتابنا: فقه الزكاة (٩٧٣/٢ ـ ١٠٠١)، ط ٢٥، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

القُرْبى ومَن سمَّى معهم، غير الزكاة الَّتي ذكر أنَّهم يؤتونها؛ لأنَّ ذلك لو كان مالًا واحدًا لم يكن لتكريره معنًى مفهوم.

قالوا: فلما كان غير جائز أن يقول تعالى ذكره قولًا لا معنى له، علمنا أن حكم المال الأوَّل غير الزكاة، وأنَّ الزكاة الَّتي ذكرها بعد غيره.

ولا يقال: إنَّ المراد بالإيتاء المذكور هو التطوُّع والصلة لا الوجوب، فإنَّ الآية بصدد الردِّ على اليهود المتمسِّكين بالمظاهر والأشكال، وبيان البرِّ الحقِّ والدِّين الصدق، وهذا يقتضي بيان الأركان لا المُكَمِّلات، والفرائض لا النوافل، والواجبات لا المستحبَّات، وكلُّ ما ذكرته الآية في شرح حقيقة البرِّ من هذا القبيل، فالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيِّين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، كلُّها عناصر أساسيَّة لا يتحقَّق بدونها برُّ العقيدة أو العبادة أو الأخلاق، فلماذا يكون إيتاء المال على حبِّه ذوي القربى واليتامى إلخ، هو وحده النافلة والمندوب في الآية كلِّها؟

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الرابع والعشرون
وجوب صوم رمضان والحكمة منه(١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

نداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾:

يخاطب الله في هاتين الآيتين جماعة المؤمنين، وينادي الَّذين آمنوا، وقد أجمع العلماء على أنَّ النداء بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لم يأتِ إلَّا في القرآن المدني، أمَّا القرآن المكِّي كلُّه فليس فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، لكن فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

لأنَّ المؤمنين في مكَّة لم يكن لهم كيان أو جماعة، فلم تتكون الجماعة المؤمنة وتتميز عن غيرها إلَّا في المدينة، والله تعالى يريد أن يُشعر هذه الجماعة بتميزها في كيانها العقائدي والفكري والأخلاقي والشعائري والسلوكي.

وهنا يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. لم تخبر الآية بأيِّ شيء آمنوا. والقرآن في آياته يخبرنا عن الَّذين آمنوا بالباطل، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

(١) من دروس التراويح عام ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٥م.

QaradawiBooks.com

وهناك الَّذين يؤمنون بالجبت والطاغوت، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

لكن القرآن حين يطلق هذا الوصف (**الذين آمنوا**) ولا يحدد المُؤمَن به، فإنَّما يقصد أهل الإسلام الَّذين حققوا الإيمان بأركانه، فآمنوا بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

نداء جديد:

وهذا النداء جديد، استحدثه القرآن الكريم، فالجزيرة العربيَّة قبيل البعثة لم تكن تسمع هذا النداء، والعالم كله لم يكن يسمعه، بل كان النَّاس ينادي بعضه بعضًا بقومياتهم بـ «يا أيُّها الفرس»، «يا أيُّها الروم»، «يا أيُّها الهنود»، «يا أيُّها الأتراك»، «يا أخا العرب»، ليحارب بعضهم بعضًا، ليستعد بعضهم لبعض. وكان العرب يتنادون بقبائلهم وأنسابهم: «يا لَقريش»، «يا بني هاشم»، «يا بني عبد المطلب»، يستدعي النَّاس الأفخاذ والقبائل.

نداء يعلي قيمة الإيمان:

أمَّا هذا النداء «يا أيُّها الَّذين آمنوا» فإنَّه يعلي قيمة الإيمان الكبرى، لا يعترف إلَّا بالقيم الإيمانية، بالقيم الأخلاقيَّة، بالمفاهيم الفكرية.

جاء هذا النداء في القرآن تسعًا وثمانين مرَّة، كلها ـ كما قلنا ـ في القرآن المدني، ينادي الله تعالى المؤمنين بأن تكون عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

وشعائرهم وتشريعاتهم شعائر أهل الإيمان وأخلاق أهل الإيمان وعقائد أهل الإيمان، الَّتي تجعل لهم كيانهم وخصوصيتهم وأمتهم الواحدة.

هذا هو النداء الَّذي جاء في هذه الكلمة (يا أيُّها الَّذين آمنوا)، أي: يا من آمنتم بالله تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، (يا أيُّها الَّذين آمنوا).

بناء المجتمع المسلم في سورة البقرة:

وسورة البقرة ابتدأ نزولها أولَ هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وظل نزولها مستمرًّا مدَّة عشر سنوات، تبني المجتمع، حتَّى قالوا: إن آخر ما نزل من القرآن قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وهذه السورة هي الَّتي تبني المجتمع الَّذي يريده الله لهذه الأمَّة، كل قواعد الإسلام المتينة تبنيها هذه السورة: الإيمان، الصلاة ـ الأساس الأوَّل للعبادات ـ الزكاة، الَّتي اقترنت بالصلاة في ثمانية وعشرين موضعًا في القرآن الكريم، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢]. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥].

ثم يأتي الأمر الثالث لتأكيد الإسلام وتأسيسه، وهو الصيام، ثمَّ بعد الصيام يطلب الله الحج، ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وتأتي المعاملات أيضًا في هذه السورة، ففيها أطول آية في القرآن الكريم، اسمها «آية المداينة»، الَّتي تأمر بكتابة الدَّيْن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ

QaradawiBooks.com

بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ...﴾ الآية [البقرة: ٢٨٢].

معنى: كتب عليكم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. ما معنى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾؟ أي: فُرض عليكم فرضية موثَّقة مؤكَّدة مكتوبة.

هناك فرضية شفوية، وفرضية مكتوبة، هذه فرضية مكتوبة، الإيجاب من الله تعالى مكتوب، بمعنى أنَّه ثابت ومهم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾، فرض عليكم.

تكرار لفظ «كُتِبَ» في القرآن:

كلمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ وردت في سورة البقرة عدة مرات، الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨]. إذا قتل إنسان شخصًا عمدًا يجب أن يُقتَصَّ منه إلَّا أن يعفو أهل القتيل.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾: فُرِضَ عليكم، بعض النَّاس يريدون أن تلغى عقوبة الإعدام، كيف تلغى عقوبة الإعدام؟! إذا قتل إنسانٌ آخرَ عمدًا وعدوانًا لماذا لا يقتل؟! العرب كانت تقول: «القتل أنفى للقتل». والقرآن يقول: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقبل آية الصيام بآيتين يقول: تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

ولفظة «كُتِبَ» وتكرارها في مواضيع مختلفة أكبر دليل على شمولية هذا الدين، فقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ هذا في القانون الجنائي، قانون

غير مرخصة للطباعة
نسخة
QaradawiBooks.com

العقوبات والجزاءات، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ هذا في قانون الأسرة، أو ما يسمَّى: «الأحوال الشخصيَّة».

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، هذا في العبادات.

ثم بعد ذلك بآيات يأتي قوله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وهي تتعلق بالعلاقات الخارجيَّة للأمة المسلمة.

فرض الصيام:

فالله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. أي: فرض عليكم فريضة مؤكدة، الله تعالى قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾.

من الَّذي كتب؟ نحن نعلم أن «كُتب» هذا فعل مبني للمجهول، أي الفاعل غير مذكور، لم يقل: كتب الله عليكم. أو كتبْنا عليكم، لماذا؟ لأن في هذه الكتابة مشقَّة على العباد، الصيام أن تجوع وتعطش، وتبقى يومًا لا تأكل ولا تشرب ولا تتصل بامرأتك، من تبيُّن الفجر إلى غروب الشمس، هذه مشقَّة، فلذلك ذكره الله ﷻ بما لم يُسَمَّ فاعله.

عندما يكون الشيء فيه خير وفضل ورحمة من الله يبني الفعل «كَتَب» للمعلوم، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. في مثل هذا يذكر الفاعل.

QaradawiBooks.com

الصيام فرضه الله على الأمم السابقة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. الأنبياء السابقون والأمم السابقة من اليهود والنَّصارى، كان عليهم صيام. فرض عليهم صيام مثلما فُرِضَ علينا، لكن لم يذكر القرآن هل كان الصيام المفروض عليهم هو صيام رمضان أم غيره، المهم أنَّه كتب عليهم الصيام.

لماذا قال الله: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾؟

لماذا قال الله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾؟

يريد الله ﷻ أن يهوِّن على عباده الفريضة الَّتي كتبها عليهم، حتَّى لا يشعروا أنَّهم وحدهم في الميدان، الإنسان إذا كان يعلم أن هذا الأمر ليس خاصًّا به وحده، وإنَّما يقوم به أمم أخرى، وأفراد كثيرون في العالم، يخفُّ عليه هذا الأمر ويهون عليه، ولذلك قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. أمم شتَّى كُتب عليهم الصيام كما كُتب عليكم، كُتب على اليهود، وكُتب على النَّصارى، وقيل: إنَّهم غيروا في كيفيته وبدلوا في أيامه. لكن القرآن لم يذكر لنا ذلك.

ما الصيام؟ ولماذا فرضه الله علينا؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾، الصيام هو الإمساك عمَّا تشتهيه النفس من الطعام والشراب، ومن الاتصال بالنساء، الله تعالى حرم على الإنسان هذه الأشياء طول النهار.

QaradawiBooks.com

والنهار قد يكون قصيرًا وقد يكـــون طويلًا، بعض إخواننا في بعض البلاد يصوم سبع عشرة ساعة، أو ثماني عشرة ساعة، أو عشرين ساعة، لكن هؤلاء الَّذين يصومون سبع عشرة ساعة، أو ثماني عشرة ساعة، يأتي عليهم رمضان في وقت آخر فيصومون ستَّ ساعات، وخمس ساعات، وأربع ساعات.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. لماذا فرض الله علينا الصيام؟ هل الله محتاج إلى عبادتنا؟

الله تعالى ليس محتاجًا إلى عبادة أحد ولا طاعته، ويقول في الحديث القدسي الَّذي رواه الإمام مسلم عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ: «**يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَـكم وجنَّكم كانوا علـى أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، مـا زاد ذلك في مُلْكي شـيئًا. يا عبادي، لـو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَـكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجـلٍ واحد، ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا**»[1].

الله تعالى لا يزيد ملكه بطاعة الطائعيـن، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ [الحج: ٣٧]. ولذلك الصيام لنا نحن، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾، لأن هذا الصيام يوصلكم إلى تقوى الله، وهي تقوى القلوب.

والتَّقوى الحقيقيَّة ليست بالمظاهر الَّتي تخدع، ولا بالثياب الَّتي تُرقَّع، ولا بالقميص القصير، ولا بـ «الغُترة» ولا باللحية، إنَّما التَّقوى في القلب:

(١) سبق تخريجه صـ٤٠، بلفظ: «**كلكم ضال إلا من...**».

QaradawiBooks.com

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. الصوم يُعِدُّهم للتقوى، الصوم عمَّا تشتهيه الأنفس، عندما تجوع وتعطش لله، لا تأكل ولا تشرب مع أنَّك تستطيع أن تختفي وتأكل ولا يراك أحد، ولذلك الصيام ليس فيه رياء، الصيام لله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فهذه هي الآية الكريمة الَّتي أنزلها الله تعالى في فرضية الصيام، ونكتفي بهذا القدر في الحديث عن هذه الآية الكريمة الآية الأولى من آيات الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الخامس والعشرون
في رحاب آيات الحج

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۞ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٦ ـ ٢٠٢].

لا زلنا أيُّها الإخوة مع سَنام القرآن، مع سورة البقرة، السورة الجامعة، الَّتي توجه المجتمع الإسلامي إلى الهداية والبناء.

QaradawiBooks.com

وقد تحدثت السورة عن أحكام الصيام، وهي السورة الوحيدة الَّتي تحدثت عن هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، ثمَّ تحدَّثت عن أحكام الجهاد، وها هي الآيات الَّتي معنا اليوم تتحدث عن الركن الخامس من أركان هذا الدين العظيم وهو ركن الحج.

وجوب إتمام الحج والعمرة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦]: إذا شرعتم في أداء أحد المَنْسكين فأكملوه وأتمُّوه، لا ينبغي لمسلم أن يشرع في عمل، ثمَّ يتردد ويفسخه، إنَّه يعلِّم المسلم العزيمة والإرادة، إذا بدأ في عملٍ فليتمّه، خصوصًا إذا كان هذا العمل من أعمال العبادة والتَّقوى والقربات لله ﷻ.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦]. الحجُّ: هو تلك الرحلة الربَّانية المعروفة من وطن الإنسان حيث كان، إلى الأماكن المقدسة في مكَّة، حيث المناسك في البيت الحرام وما حوله، في أشهر الحج.

والعمرة ـ وتسمى الحجَّ الأصغر ـ: حجٌّ ليس فيه وقوف بعرفة، ولا رمي جمرات، طواف وسعيٌ، ثمَّ حلق أو تقصير.

وإتمام الحج واجب حتَّى لو كان الحاج يحج نافلة، حج حجة الفريضة ويتنقل بالحج، إذا لبى من الميقات بالحج وجب عليه أن يتمه ويكمله، وكذلك العمرة.

الأمر بإخلاص النسك لله:

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦]. إذا بدأتم في الحجّ والعمرة، فأتموهما واجعلوا ذلك لله، أي خالصًا له وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. اجعلوا هذا النسك لله ﷻ،

QaradawiBooks.com

وقد كان العرب في الجاهليَّة يلبُّون ويقولون: لبيك لا شـريك لك، إلَّا شـريكًا هو لك، تملكه وما ملك[1]. يقصدون الأصنام والآلهة المزيفة، الَّتي عبدوها من دون الله، أو مع الله. لكن الإسلام أمر المؤمنين أن يكون حجهم وعمرتهم خالصة لله، لا غيره.

ماذا يصنع المُحْصَر؟

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقـرة: ١٩٦]. ما لـم يمنعكـم مانـع ليـس في استطاعتكم دفعه وهو الإحصار، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. أي: منعكم مانع من عدو، أو مرض أو غير ذلك.

إن حدث ذلك ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقـرة: ١٩٦]، عليه أن يتحلل من إحرامه، ويفدي بما تيسر من الهدي. والهدي: هو ما يُهدى إلى الكعبة من بهيمة الأنعام، الإبل أو البقر أو الغنم، فجزاء تحلُّله أن يقدِّم هذه الفدية.

محظورات الإحرام:

﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقـرة: ١٩٦]. هـذا معطوف على قولـه ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. في الحالـة العادية حينما يقدم المسلم على هذه الرحلة ومعه هدي يسوقه إلى بيت الله الحرام، لا يجوز له أن يحلق رأسـه قبل أن يتحلل بأن يبلغ الهـدي مَحِلَّه؛ ومَحِلُّه البيتُ العتيق، فيذبح الهدي ويؤدي النسك.

إنَّ رحلة الحـج تنفيذٌ لمبادئ الإسـلام وتعاليمـه الاجتماعيَّة، في المسـاواة، والأخوة بين النَّاس، ومن هنا حرَّم الإسلامُ عدَّة محظورات، تسمَّى محظورات الإحرام، منها:

(١) رواه مسلم في الحج (١١٨٥)، عن ابن عباس.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حلق الرأس، فلا يحلق الإنسان شعر رأسه ولا يقصره، ولا يلبس مَخِيطًا، ولا يقلمُ أظفاره، ولا يصطاد شيئًا من صيد البر، ولا يأخذ شيئًا من حشائش الحرم، ولا يتطيب ولا يتعطر.

وذلك أنَّ الحجَّ رحلةُ تجرُّد وتقشُّف لله ﷻ، إنَّه نوع من الخروج على زينة الدُّنيا، يريد الإسلام أن يعيش المسلم مع الله، أن يكون النَّاس في رحلة الحج على الفطرة، يلبسون ثيابًا أشبه ما تكون بأكفان الموتى، ثيابًا بيضاء، لا فرق بين أمير ولا غفير، ولا بين غني وفقير، الكل سواسية أمام الله ﷻ.

فدية الحلق أو التقصير:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. هذا يمثِّل واقعيَّة هذا الدِّين، شريعة الإسلام شريعة تراعي الضرورات، وتراعي الحاجات، وتراعي الواقع، لا تعيش مع الأحلام والمثاليات، إنَّها تفرض الأحكام، ولكن تقدر الأعذار المانعة من تأديتها.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ [البقرة: ١٩٦]، يمنعه أن يطيل شعره، كأن أصاب رأسه القمل، ماذا يفعل؟

حدث ذلك لبعض الصحابة، واسمه كعب بن عُجْرة، رآه النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهه، فقال: «**أيؤذيك هوامُّ رأسك؟**» قال قلت: نعم. قال: «**فاحلق، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستَّة مساكين، أو انسُك نَسِيكة**»[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤١٩٠)، ومسلم في الحج (١٢٠١)، عن كعب بن عُجرة.

QaradawiBooks.com

حج التمتع والهدي الواجب فيه:

ثم بينت الآية حكمًا آخر وهو حج التمتع، فقالت: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ إذا كنتم في حال آمنة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. من كان منكم متمتعًا بأن يؤدي العمرة أولًا ثمَّ يتحلل من إحرامه بعد أن يُنهي عمرته، ثُمَّ يؤدي الحج بعد ذلك في اليوم الثامن من ذي الحجة، يوم التروية، فقد كان هناك فترة تمتع فيها بالحل من الإحرام، فعليه هدي، عليه أن يقدِّم ما استيسر من الهدي، بأن يذبح شاة.

والحكم نفسه للقارن بين الحج والعمرة؛ لأنَّه كسب نُسُكين وعبادتين بإحرام واحد ولم يحتج أن يخرج إلى الميقات مرَّة أخرى لحجه.

ماذا يفعل المتمتع إذا لم يجد الهدي؟

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٦]. أيضًا هنا تبدو الواقعيَّة مرَّة أخرى، فمن لم يجد الهدي فيمكنه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يصوم ثلاثة أيام ولو كان منها يوم عرفة، اليوم التاسع من ذي الحجة، ويومين قبله، أو قبل ذلك، بل أجاز بعضهم أن يصوم أيام التشريق رغم النهي فيها، ولكن هذا مستثنى[1]، إذا لم يجد فرصة في صيامها قبل العيد، يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى بلده.

(١) كما في الحديث عن عائشة قالت: لم يرخص في أيام التشريق أن يُصَمْن، إلا لمن لم يجد الهدي. رواه البخاري في الصوم (١٩٩٧).

QaradawiBooks.com

ليس لأهل مكَّة ولا القريبين منهم تمتع:

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. ذلك التمتع لمن ليس من أهل الحرم أو القريبين منه، فهم يستطيعون أن يتمتعوا بالطواف بالبيت، ويؤدوا هذه العبادة المتاحة لهم في أي وقت.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. بهذا ختم الله الآية، وخوَّفهم شديد عقابه؛ ليحافظوا على أحكامه وفرائضه.

وقت الحج:

ثمَّ يقول الله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقَّت الله للحج أشهرًا، كما جعل للصلاة مواقيت: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]. وكما جعل للصيام شهرًا: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. كذلك جعل للحج أشهرًا معلومة، وهذه الأشهر هي: شوَّال وذو القَعدة وذو الحِجة. فلا ينبغي للحاج أن يُحرِم قبل هذه الأشهر.

أشياء ينبغي أن يطهر الحاج منها حجه:

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧]. أي: من ألزم نفسه في هذه الأشهر بالحج، وشرع في ذلك بالنية قصدًا باطنًا، وبالإحرام فعلًا ظاهرًا، وبالتلبية قولًا مسموعًا، لا بدَّ أن يسلم حجه من هذه الأشياء الَّتي ذكرتها هذه الآية وهي: الرفث والفسوق والجدال، ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

QaradawiBooks.com

الرفث هو: ما يتعلَّق بالأمور الجنسيَّة، وخاصَّة أمام النساء، يجب أن ينزِّه الإنسان نفسه ولسانه عن هذه الأمور، فينبغي أن تكون هذه الرحلة رحلة تجرُّد، ورحلة تنظُّف، ورحلة استعلاء على شهوات الدُّنيا، ومن هنا كانت محظورات الإحرام.

والفسوق ارتكاب المعصية، المعصية محرَّمة في كل وقت، ولكن في حالة الإحرام تزداد حرمتها، وتتضاعف عقوبتها، ينبغي أن يتعفَّف ويتنـــزَّه عن المعاصي أيًّا كانت، لا يســـبُّ إنســـانًا، ولا يؤذي أحدًا، لا يقابل النَّاس بالقوَّة والقسوة والنزاع في الطواف وغيره من مناسك الحج.

والجِدال هو: اللَّجاج في الخصومة، ينبغي أن يتنزَّه لسانه عن المماراة والمخاصمة، ينبغي أن تكون رحلة الحج رحلة مسامحة، ورحلة مسالمة، إنَّها سلام حتَّى للطير، حتَّى للحشائش، فكيف لا تكون رحلة سلام بين الإنسان وأخيه الإنسان!

ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «**من حجَّ فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُق، رجع من ذنوبِه كيوم ولدتْه أُمُّه**»[1].

فالحج المبرور ميلاد جديد للإنسان، فليبدأْ صفحة جديدة مع الله، من كان معوجًّا قبل الحج فليســـتقم بعد الحج، مـــن كان عاصيًا قبل الحج فليتُب بعد الحج، من كان متنجسًـــا بالمعاصي والقاذورات قبل الحج فليتطهر بعد الحج، لتتغير حياته، هكذا ينبغي أن يكون المسلم الَّذي يحج.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

التزود للحج:

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]. تجنَّبوا القبيح، وافعلوا الجميل، ابتعدوا عن الشرِّ، وافعلوا الخير، فكل ما تفعلوه يعلمه الله، وكل ما يعلمه الله مسجَّل عنده، وأنتم تُجازَوْن به عند الله، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. تزوَّدوا حسًّا، وتزوَّدوا معنًى، تزوَّدوا للحج، ولا تفعلوا ما كان يفعله أولئك الَّذين كانوا يأتون للحج بلا زاد ويقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا! ويذهبون بلا زاد، أو أولئك الَّذين كانوا يأتون من اليمن من غير أن يتزوَّدوا، ومعنى هذا أنَّهم يُعرِّضون أنفسهم لسؤال النَّاس، وفي الحديث عن ابن عبَّاس ﷺ قال: «كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكَّة سألوا النَّاس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»[(١)].

الأخذ بالأسباب لا ينافي التعبُّد والتوكَّل، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. تزوَّدوا لرحلة الحج، وتزوَّدوا للرحلة الكبرى الَّتي هي أكبر من رحلة الحج، رحلة الآخرة.

تزوَّدْ للذي لا بدَّ منه ... فإنَّ الموتَ ميقاتُ العبادِ
أَتَرْضَى أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ ... لَهُمْ زَادٌ وَأَنْتَ بِغَيْرِ زَادِ[(٢)]

خير الزاد التَّقوى:

تزوَّدوا ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. التَّقوى: ما يقي الإنسان الهلكة في الدُّنيا، وذلك بالزاد والطعام، وما يقي الإنسان الهلكة في

(١) رواه البخاري في الحج (١٥٢٣).

(٢) ذكرهما ابن الجوزي في بستان العارفين صـ ١٤٦، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

الدُّنْيا والآخرة، وذلك بطاعة الله والابتعاد عن معاصيه، التَّقوى خير زاد، والتَّقوى خير وقاية، وخير ستر، وخير لباس يسترِ عورتك، ويقيك من حرِّ نار الآخرة، وصدق الله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَلَوْ كَانَ كَاسِيَا
وَخَيْرُ لِبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيَا[1]

مرض أحد السلف، فذهب إليه تلاميذه قبل موته، فقالوا له: أوصنا. فقال: أوصيكم بآخر آية من سورة النحل، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. فأوصاهم بالتَّقوى والإحسان، إحسان الصلة بالله، وإحسان الصلة بالناس.

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. اتقوا الله يا أولي الألباب. الألباب هي العقول، فالشيء له لبٌّ وقِشْر، وقشر الإنسان جسمه، ولبُّه عقله وقلبه، ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. أي أنتم الَّذين تعقلون، فامتثلوا أمري واجتنبوا نهيي.

الاتِّجار في موسم الحج:

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨]. كان بعض الصحابة يتحرجون من التجارة في موسم الحج، ويخافون أن يكون هذا خدشًا في نيَّتهم وإخلاصهم في هذه العبادة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[2] فيجوز

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: ديوانه صـ ٤٨٢، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ وذو المجاز، ومجنة، أسواقا في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها، فأنزل الله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨]، في مواسم الحج. رواه البخاري في البيوع (٢٠٩٨).

QaradawiBooks.com

للإنسان أن يتاجر في موسم الحج، ويدخل السوق، ويبيع ويشتري، ونحو ذلك، لا مانع من هذا، ولا حرج على النَّاس أن يجمعوا بين الأمرين: الحج، والتجارة، ما دام هدفهم الأساسي هو أداء هذه الشعيرة، فهو حسَب نيته حجُّه معتبر شرعًا، ما دام مستوفيًا لأركانه وشروطه، وهو مأجور عليه على قدر نيَّتِه وإخلاصه، وحسن تعامله مع الحجيج، ورفقه بهم، وتفانيه في خدمتهم، ولكل مجتهد نصيب، وإنَّما لكل امرئ ما نوى، فيأخذ على قدر ما له من نية، والله تعالى أعلم بالسرائر، وهو عليم بذات الصدور، ولن يُضيع الله أجر من أحسن عملًا، على أن أجره لا يكون كأجر من كان متجرِّدًا للحج وحده دون مُزاحم، إلَّا من كان له فضل خاصٌّ، فهو يُثاب عليه.

وهذا ينطبق على النَّاس الَّذين يذهبون للحج في «البعثة الطبية»، أو «البعثة العامَّة»، حين تختاره الدولة للذهاب معها، هو سيقضي هذا الأمر، ويقضي الحج معه، ولا مانع من الجمْع بين الأمرين، والثواب على حسَب النيَّة، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وهذا من منافع الحج، المنافع الماديَّة التجاريَّة العاجلة، الَّتي يلمسها النَّاس في حياتهم، ويحسون أثرها في دنياهم، كما قال تعالى في شأن الحج في سورة الحج: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٨].

ترفُّع قريش في الجاهليَّة عن الوقوف في عرفات:

ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩]. كانت قريش في الجاهليَّة ترى لنفسها فضلًا على سائر العرب، فتترفع عن الوقوف معهم في عرفات،

QaradawiBooks.com

وتقف في مزدلفة، فأبطل الإسلام هذه العادة، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩]. **كأنَّه** يقول: بعدما تبيَّن لكم ما تقدم من أعمال الحج، وليس فيها امتياز أحد على أحد، ولا قبيلة على قبيلة، وعلمتم أنَّ المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة، بقي شيء آخر، وهو: أن تلك العادة المميِّزة لا وجه لها، فعليكم أن تُفيضوا مع النَّاس من مكان واحد.

ثم وجَّه الله حجاج بيته أن يختموا حجهم بالاستغفار فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩]. فالاستغفار ختام الأعمال الصالحة، كما حكى الله عن المحسنين في سورة الذاريات، فقال تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]. وهكذا ينبغي أن يُختم الحج بالاستغفار، ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

أقسام النَّاس في الطلب من الله:

ثم قال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠٠، ٢٠١]. في هذا الموقف الَّذي تسمو فيه الأرواح وتدنو القلوب من ربها، وتهب عليهم نسمات الذكريات المحمَّديَّة من قريب، والذكريات الإبراهيمية من بعيد، قسم الله النَّاس قسمين اثنين، لا ثالث لهما، **القسم الأوَّل هم:** طلاب دنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق ولا نصيب. وهم ذلك الصنف

QaradawiBooks.com

الَّذي توعده الله في آية أخرى، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

والقسم الثاني هم: من يطلبون ما يصلح دنياهم وآخرتهم، يطلبون الحسنة في الحياتين، والسعادة في الدارين، دعاؤهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وفسِّر الحسنة في الدُّنْيا بما شئتَ، من العافية أو المرأة الصالحة، أو الأولاد الأبرار، أو العلم النافع، أو الرزق الواسع، أو المحبَّة بين النَّاس، أو نحو ذلك، فكل هذا ممَّا يحقِّق حسنة الدنيا.

ولم يذكر القرآن القسم الثالث من النَّاس بحسَب التقسيم العقلي، وهو من لا يطلب إلَّا حسنة الآخرة، وما له في الدُّنْيا من أرب، وكأنَّه يُعلِّمنا أن هذا الصنف لا يكاد يوجد في النَّاس، فالحياة بمتاعبها الجمَّة، وحقوقها المتنوعة، تفرض على طالب الآخرة أن يدعو ربه ليسر له سبيل دنياه، ويعينه على أداء حقوقها، ويخفِّف عنه متاعبها.

الإسلام دين التوازن:

فإذا كانت اليهودية تجعل أكبر همها هذا العالم الأرضي الحاضر، والمسيحيَّة تحصر كل توجيهها في ملكوت السماء حيث العالم الآخر، فإن الإسلام جاء بالتوازن بين الدُّنْيا والآخرة، زاوج الإسلام بين النظرتين، ومزج بين الحياتين، فالدنيا مزرعة للآخرة، والله قد استخلف النَّاس في الأرض، واستعمرهم فيها، فلا ينبغي أن يخربوها أو يعطِّلوها، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. والسعيد من فاز بحسنة الدُّنْيا وحسنة الآخرة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

QaradawiBooks.com

الإسلام وسط في النظرة إلى الحياة بين الَّذين أنكروا الآخرة، واعتبروا هذه الحياة الدُّنْيا هي كل شيء، هي البداية والنهاية: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]. وبهذا غرقوا في الشهوات، وعبَّدوا أنفسهم للماديات، ولم يعرفوا لهم هدفًا يركضون وراءه غير المنافع الفرديَّة الدنيويَّة العاجلة، وهذا شأن الماديِّين في كل زمان ومكان.

وبين الَّذين رفضوا هذا الحياة، وألغوا اعتبارها من وجودهم، واعتبروها شرًّا يجب مقاومته، والفرار منه، فحرَّموا على أنفسهم طيباتها وزينتها، وفرضوا على أنفسهم العزلة عن أهلها، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها، والقرآن يذكر المؤمنين بهذا الدعاء الجامع لِحَسَنتي الداريـن: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ومن الدعاء النبوي: «**اللهمَّ أصلح لي ديني الَّذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي الَّتي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي الَّتي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر**»[1].

أخسر الناس:

ولا شك أنَّ أخسر الناس وأربح الناس، وأظلمهم لنفسه، من حرم سعادة الأبد. ونعيم الأبد، من أجل متعة عارضة، وشهوة زائلة، وأن أربح النَّاس بضاعةً من باع لذة فانية، أو شهوة عاجلة، واشترى جنَّة

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

والواقع أنَّ هذا الصنف لم يخسر دنياه حين آثر آخرته، فوجَّه لها إرادته، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، لقد كسب الحياتين، وجمع الحَسَنتين: حسنة الدُّنيا، وحسنة الآخرة، اللتين يحرص عليهما المؤمنون، ويسألونهما الله سبحانه، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس السادس والعشرون
محاربة الإسلام للفساد والمفسدين

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥].

قد يغطِّي هذا الصنف الَّذي خبُث باطنُه بظاهر مزخرف، ولسان يخدع النَّاس بمعسول القول، وحلو الكلام، فإذا سبرت غَوْره، لم تجد وراء هذا الظاهر إلَّا باطنًا خرابًا، وضميرًا ميتًا، ونفسًا متطاولة على الخلق، مستكبرة عن الحق، مقبلة على الشر، مُعرضة عن الخير، كذلك الَّذي وصفه القرآن بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾.

الله ﷻ لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين، ولا يصلح عمل المفسدين، ويعاقب المفسدين، وينزل عليهم نقمته، حتَّى إن بني إسرائيل حينما أفسدوا في الأرض مرَّتين سلط الله عليهم من يقهرهم ويُذلُّهم ويجوس خلال ديارهم، وكلَّما عادوا إلى الإفساد عاد الله عليهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا ﴾ [الإسراء: ٨].

نسخة مجانية

الإفساد السياسي:

من يتأمل القرآن الكريم يجد أنَّه ذكر أنواعًا كثيرة من الإفساد، هناك الإفساد السياسي، كالذي قام به فرعون حينما قهر طائفة من رعيته استذلهم وحرمهم حقوقهم الفطرية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

ومن الإفساد السياسي: ما يقوم به بعض النَّاس من خداع للجماهير لخدمة السلطة، كالذي يفعله الأبواق المستأجرة من الصحفيين والإعلاميين، كالذي كان يقوم به سحرة فرعون قبل أن يؤمنوا، وقد قال لهم موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وما يقوم به الاستعمار حينما يدخل بلدًا، فيذل العباد ويفسد البلاد، كما أشار القرآن إلى ذلك على لسان ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]. أي: إذا دخلوها فاتحين جعلوا أعزة أهلها أذلة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

الإفساد الاقتصادي:

وهناك الإفساد الاقتصادي، كالذي كان يفعله أهل مَدْيَن وأصحاب الأَيْكة، الَّذين أرسل إليهم نبيه شعيبًا عليه السلام، وقال لهم: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣].

QaradawiBooks.com

الإفساد الأخلاقي:

وهناك الإفساد الأخلاقي، كالذي قام به قوم لوط، حينما قلبوا الفطرة واتَّخذوا الذكور محلًّا للشهوة، وقال لهم نبيهم لوط عليه السلام: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩، ٣٠].

ومن الفساد الأخلاقي: أن يعيش الإنسان بشخصيَّة مزدوجة، له وجهان، وله لسانان، وهذا شأن المنافقين، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

الإفساد الاجتماعي:

وهناك الإفساد الاجتماعي، إفساد ذات البين، تقطيع الروابط بين النَّاس، كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

الإفساد الأمني:

وهناك الإفساد الأمني، وقطع الطريق: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

QaradawiBooks.com

وهذا ما كان يقوم به اليهود: ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

أنواع من الإفسادات ذكرها القرآن الكريم وأنكر على أصحابها: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

الإسلام يكره الفساد والإفساد والمفسدين، ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢]. ويحب الصلاح والإصلاح والمصلحين، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس السابع والعشرون
الإسلام دين السلام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الإسلام دين السلام، يحرصُ عليه، ويرغِّب فيه، ويدعو إليه، ويعتبره هدفا أصيلًا لدعوته، كما يتجلى ذلك في تعاليمه وأحكامه وآدابه.

مدلولات كلمة: «السلام»:

فالإسلام والسلام ـ أو السِّلْم ـ من الناحية اللغوية مشتقان من مادة واحدة، هي: «السين، واللام، والميم»، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. وقد فُسِّرت كلمة: «السِّلم» في الآية بـ «السلام» المقابل للحرب، كما يفيده ظاهرها، وبهذا تكون الآية دعوة للمؤمنين أن يدخلوا في السلام جميعًا، ولا يُعرضوا عنه إذا دُعوا إليه. وفسرت أيضًا كلمة: «السِّلم» بـ «الإسلام» أيْ: ادخلوا في شُعَب الإسلام كافة: عقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته، فتدخلوا بذلك في السلم الحقيقي، السلام مع أنفسكم، ومع أُسركم، ومع مجتمعاتكم، ومع النَّاس كافَّة.

ومن روائع التوجيه والتربية أنَّ الإسلام يُحبِّب إلى المسلم كلمة السلام، ومفهوم السلام بأساليب شتَّى، لا توجد في دين آخر، فالسلام

QaradawiBooks.com

من أسماء الله تعالى الحسنى، الَّتي يدعو المسلم ربه بها، ويتقرَّب إلى الله بذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. والمسلم يقرأ في القرآن: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣].

والمسلمون هم الأُمَّة الوحيدة الَّتي يوجد فيها اسم «عبد السلام» أي: عبد الله، والجنة الَّتي يتوق إليها كل مؤمن، ويعمل حثيثًا ليكون من أهلها، تسمَّى «دار السلام»، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وأكثر ما يُسمع في هذه الجنَّة كلمة السلام، فهي تحية المؤمنين في الآخرة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. وكما أنَّ السلام تحية المؤمنين في الآخرة، فهو تحيتهم في الدنيا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، و«إفشاء السلام» من أفضل خصال الإسلام.

والمسلم إذا جلس في صلاته للتشهد: يلقي السلام على نبيه محمَّد، وعلى نفسه وأمته: «**السلام عليك أيُّها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»[1]. ثمَّ يخرج من الصلاة: بإلقاء تحية السلام عن يمينه وعن يساره، إيذانًا بأنَّه كان في الصلاة في حالة سلام، فإذا انصرف من الصلاة استقبل النَّاس والحياة من حوله بالسلام. فهو سلامٌ في عبادته، سلام في معاملته.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

الإسلام يكره الحرب:

والقرآن يأمر المسلمين أن يستجيبوا لدعوة السلم إذا دُعُوا لها، ولو بعد وقوع الحرب، واشتعال وقودها، يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢]. حتَّى مع احتمال إرادة الخداع منهم، لا ينبغي أن تُرفض دعوة السلم بإطلاق، وإنَّما يجب أن نجنح لها كما جنحوا، على أن يتم ذلك بشروطه وضوابطه الشرعيَّة.

الإسلام ليس متعطِّشًا للدماء:

الإسلام ليس متعطِّشًا للدماء، والمسلمون لا يحبون القتال، ولا سفك الدماء، لا يحبُّون أن يقتلوا أحدًا لولا أنَّ السيف شُهِر في وجوههم، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦].

إذا انتهى الأمر بسلام فنِعِمَّا هو، لا يتمنَّى المسلمون دخول الحرب، كما قال النبي ﷺ: «**لا تتمنَّوْا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف**»[1].

وجوب الأخذ بشرائع الإسلام جملة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أي: ادخلوا في شرائع الإسلام جملة، فالإسلام في عقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته وحدة مترابطة متكاملة، بين بعضها وبعض ما يشبه الوحدة

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن ابن أبي أوفى.

QaradawiBooks.com

العضوية بين أعضاء الجسم الواحد، لا يجوز أن يُفصل جزءٌ أو أكثر منها عن سائر الأجزاء، فالعقيدة تغذِّي العبادة، والعبادة تغذِّي الأخلاق، وكلها تغذِّي الجانب العملي والتشريعي في الحياة.

فلا يجوز أخذ بعضها وإهمال بعضها، فإن الَّذي شرعها واحد وهو الله تعالى الَّذي أمر بطاعته فيها، فتعاليم الإسلام وأحكامه مترابطة، لا يسوغ في منطق الإسلام أن يقرأ المسلم: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠]. فيقول: آخذ الصلاة ولا آخذ الزكاة، لأن الصلاة شعيرة رُوحية خالصة، أمَّا الزكاة، ففريضة تتعلق بالمال والاقتصاد، فأنا أقبل ذلك، ولا أقبل هذه! إنَّه بهذا لم يعد ندًّا لله فحسْب، بل جعل من نفسه محكمة عليا للتمييز، أو للنقض والإبرام، فينقض بعقله وهواه ما شاء أن ينقض من أحكام الله، ويُبرم ما شاء له أن يُبرم!

فلا يجوز في نظر الإسلام أخذ جانب العقيدة والإيمان من تعاليمه، وإغفال جانب العبادة أو الأخلاق، كالذين قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فإن عمل الصالحات مكمِّل للإيمان، وسياج له، وثمرة لازمة للإيمان الصادق، كما بيَّن ذلك القرآن والسُّنَّة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

كما لا يجوز في نظر الإسلام الاهتمام بالجانب الأخلاقي، وإغفال الجانب التعبُّدي، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وإنَّما يُعبد الله تعالى بما شرع وفرض من شعائر وفرائض اعتبرها رسوله

QaradawiBooks.com

الأركان الَّتي بُنِيَ عليها الإسلام، وأول خُلُق يجب أن يتحلَّى به المسلم هو الوفاء لله بعهده، وشكر نعمته، وأداء أمانته، وذلك بأداء حقه الَّذي افترضه على عباده من صلاة وزكاة وصيام وحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

كما لا يجوز في نظر الإسلام الأخذ بكل ما ذُكِرَ من عقيدة وعبادة وأخلاق، مع إغفال جانب الشريعة الَّتي نظَّم الله بها حياة الخلق، وأنزل بها الكتاب والميزان ليقوم النَّاس بالقِسْط، فلا يحل لمن يؤمن بعدل الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وبرِّه بخلقه، أن يدع شرع الله عمدًا، ليحكم بشرائع البشر المعبرة عن قصورهم وأهوائهم، ولهذا حذَّر الله رسوله ـ ومن ثمَّ كل حاكم من بعده ـ أن يدع بعض ما أنزل الله تأثرًا بأهواء الآخرين، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومن هنا أنكر الله تعالى في كتابه على بني إسرائيل تجزئتهم دينَهم، وأخذهم ببعض منه وتركهم بعضًا، فقرَّعهم بهذا الأسلوب الشديد البالغ الشدة، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ولما أحبَّ بعضُ اليهود أن يدخلوا في الإسلام بشرط أن يحتفظوا ببعض الشرائع اليهودية، مثل تحريم يوم السبت، أَبَى الرسول عليهم ذلك، إلَّا أن يدخلوا في شرائع الإسلام كافة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تحذير القرآن من خطوات الشيطان:

ثم حذَّر من طاعة الشيطان، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. لا تطيعوا الشيطان في الإعراض عن شيء من تعاليم الإسلام، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الشيطان عدوُّ الإنسان، كثيرًا ما يسحبُ الإنسانَ إلى المعاصي خطوة خطوة، ويرنو به إلى الشرِّ درجة فدرجة، وهي الَّتي سمَّاها القرآن: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. ولذا يقول النَّاس في أمثالهم: الألف تجرُّ إلى الياء. ويقول الشاعر:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مَسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ[1]

ولذا يبدأ مروِّجو المخدرات والسموم القاتلة مع الشباب «بالسيجارة» أولًا، حتَّى إذا ما أدمنها، ألقَوه في هُوَّة المخدرات.

(١) ذكره ابن أبي حجلة ولم ينسبه. انظر: ديوان الصبابة صـ ٦٩، نشر دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثامن والعشرون
هدايات الله تعالى للبشريَّة

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾

[البقرة: ٢١٣، ٢١٤].

الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب:

الله تعالى بحكمته ورحمته لم يدع النَّاس سُدًى، ولم يتركهم هملًا، كيف وهو أبرُّ بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، أرسل إليهم رسلًا مبشِّرين ومنذرين ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾

[النساء: ١٦٥].

أرسل إليهم رُسُلًا يدلُّونهم عليه، ويهدونهم إليه، ويُعَرِّفونهم بما يُحبُّه وما يُبغضه، وما يرضاه وما يسخطه، ويبيِّنون لهم الحقَّ فيما يختلفون فيه، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

QaradawiBooks.com

النَّاس تختلف في أمور كبرى كثيرة، فيأتي الوحي ليحسم الأمر، ويُقيم العدل، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

لم يترك العَقْلُ وحده؛ لأنَّ العقل كم سار وحده وضلَّ الطريق، ورأينا مِنْ كبار العقول من يستبيح الحرمات، ويرتكب العظائم باسم العقل، العقول وحدها لا تكفي، لا بدَّ من معين للعقل، هذا المعين هو الوحي الإلٰهي الَّذي يُسدِّدُ العقل إذا أخطأ.

أنزل الله كُتُبًا تمثِّل النصَّ الإلٰهيَّ المعصوم، فالبشر مهما أوتوا من عقلٍ وحكمةٍ كثيرًا ما يعجِزُون عن أمور لا يستطيعون أن يصلوا فيها إلى الحقِّ الصُّراح.

بحث البشر عن الألوهيَّة، وشرَّق الفلاسفة وغرَّبوا، ولكنَّهم جاؤونا بكلام غثٍّ عن الإلٰه وصفات الإلٰه؛ لأنَّ الإنسان عجز أن يعرف نفسه، إلى اليوم يقولون: «الإنسان ذلك المجهول»، الإنسان جَهِلَ نفسه، فكيف يحيط معرفةً بخالقه الَّذي خلقه فسوَّاه؟!

لهذا كان النَّاس في حاجة إلى أن يعرفوا الله معرفة صحيحةً عن طريق النَّصِّ الإلٰهيِّ، ثمَّ ماذا يُرضي الله وماذا يُسْخِطُه، لا يعرف النَّاس ذلك إلَّا عن طريق وحي من الله ﷻ.

إنَّ النَّاس لجؤوا إلى عقولهم في كثير من الأزمنة والأمكنة، ففعلوا أفاعيل لا يمكن أن يُقِرَّ بها عقل سليم، ولكنَّ عقول البشر أقرَّتها!

قسَّموا النَّاس إلى طبقاتٍ عُلْيَا ودُنْيَا، كما في الهند، بعضها خُلِقَ من فم الإلٰه، وبعضها خُلِقَ من ذراع الإلٰه، وبعضها خُلِقَ من ساقي الإلٰه،

QaradawiBooks.com

وبعضها خُلِقَ من تحت قدمه، وكلُّ جماعة في طبقتها لا تستطيع أن تعلو مهما تعلَّمت، ومهما سلكت، ومهما تخلَّقت، هذا ما وصل إليه البشر.

النَّاس في كثير من العصور تعبَّدَ الأقوياءُ منهم الضعفاء، وجار الأغنياء على الفقراء، وعبث الحكام بحقوق المحكومين، وقسا الرجل على المرأة، هكذا رأينا، فكان النَّاس في حاجةٍ إذن إلى شيءٍ فوقهم، سلطةٍ أعلى منهم، وأعلم منهم، تُعلِّمهم ما جَهِلُوا، وتهديهم فيما ضلُّوا عنه، وتُقوِّمهم عوجهم.

السلطة الإلٰهيَّة المالكة لهذا الكون، الحاكمة بأمرها، أرسلت للنَّاس رسلًا، وأنزلت عليهم كُتُبًا، هذه الكتب هي النصوص الإلٰهيَّة الَّتي أنزلها الله على رسله لتحكم بين النَّاس فيما اختلفوا فيه، لتقيم القسط والعدل بين الخلائق، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

هذا «الكتاب» ليس من وضع الحاكم حتَّى يجور على المحكومين، ولا من وضع الأقوياء حتَّى يجوروا على الضعفاء، ولا من وضع الأغنياء حتَّى يقسوا على الفقراء، ولا من وضع الرِّجال حتَّى يظلموا النساء، ولكنَّه من وضع ربِّ النَّاس، ملك النَّاس، إلٰه النَّاس، شرع ذلك للنَّاس، وأنزل هذا الكتاب للنَّاس.

على مدار التاريخ أنزل الله كُتُبًا، طلب إلينا نحن المسلمين أن نؤمنَ بها جميعًا، أن نؤمن بكلِّ كتابٍ أنزله الله، فهي حلقات في سلسلةٍ مستمرةٍ، هدايات الله تعالى للبشر، أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، هذه النصوص الإلٰهيَّة، ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ [الشورى: ١٥].

QaradawiBooks.com

هذا هو الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]. ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ثبات المؤمنين أمام الشدائد والمحن:

الوقفة الثانية هي مع قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

في هذه الآية يضرب الله ﷻ لرسوله وللمؤمنين به مثلًا بمن خلا قبلهم من أصحاب الرسالات، وكيف صبروا على شدَّة الابتلاء، وطول الطريق، وصعوبة انتظار النصر.

في المدينة بعد أن كانت الغزوات، وبعد أن حدث النصر، استروحوا، وظنُّوا أنَّهم لن يُفتنوا أبدًا، فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

تحلُّ المحن والشدائد بساحة المؤمنين، تمسُّهم البأساء في الأموال، والضرَّاء في الأبدان، والزلزلة في النفوس، حتَّى يقول الرسول والمؤمنون معه: متى نصر الله؟ استبطاءً لمجيء النصر، فالإنسان بطبيعته عجول، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. ولكنّ الله ﷻ لا يَعْجل بعجَلة أحد، لكنَّه يمهل حتَّى تبلغ الأمور ما أراد،

QaradawiBooks.com

وكل شيء عند الله بأجل مسمَّى، لا يستأخر ولا يستقدم، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۞ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨، ٩].

فحينما تشتد الأزمة، ويحلولك الليل ويطبق بظلامه؛ هنا يكون النصر أقرب ما يكون من المؤمنين، وهنا يُطمئنهم الله بهذه الجملة المؤكَّدة، الجملة الفاصلة الَّتي ختم بها الآية الكريمة:

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾: وقد تأكَّدت هذه الجملة أو الخاتمة أو الفاصلة بعدة مؤكِّدات: بالجملة الاسميَّة ـ وهي أوكد من الجملة الفعليَّة ـ ومعها «إنَّ» المؤكِّدة، ومعها «ألا» الاستفتاحية.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾: هو نصر الله، فالله وحده هو الَّذي يهب النصر لمن يستحقُّونه، ولذلك سمَّاه: «نصر الله»، فقال: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال في سورة أخرى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٣]. وقال في سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بالصبر، ويربِّيهم عليه، وألَّا يستعجلوا النصر قبل أوانه، عن خبَّاب بن الأرتِّ، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويمشَّطُ بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، حتَّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخافُ إلَّا الله، والذئب على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون**»[1].

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

كلما اشتدت الأزمة، واحلولك الظلام، كان الفجر قريبًا، فإن أشدّ ساعات الليل حُلُوكة وسوادًا هي السويعات الَّتي تسبق الفجر، يشتد الظلام ويتفاقم، ثمَّ ينبثق الفجر، وينفجر الضياء، كما قال القائل:

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ[1]

وقال آخر:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرْعًا وَعِنْدَ اللهُ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ[2]

لا بدَّ من الفرج، الفرج قريب، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]. وفي الحديث: «**واعلم أنَّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»[3].

سيجعل الله بعد الليل فجرًا، فهذه سنة الله، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ودوام الحال من المحال.

فالنصر يأتي أحوج ما يكون النَّاس إليه، وأرغب ما يكونون فيه، كما قال الله تعالى في سورة يوسف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

---

(١) مطلع منفرجة ابن النحوي التوزري، انظر: المنفرجتان بشرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري صـ ٤٣، تحقيق عبد المجيد دياب، نشر دار الفضيلة، القاهرة.

(٢) هو أبو بكر الصولي كما في أمالي المرتضى (٤٨٦/١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

(٣) رواه أحمد (٢٨٠٣)، وقال مُخَرِّجوه: حديث صحيح. والطبراني (١٢٣/١١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

فالصبر على البأساء، وعلى الضراء، وعلى الزلزلة هو طريق النصر، وهو ثمن الجنَّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. وهو وصف أهل البر في آية «ليس البر» في سورة البقرة: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس التاسع والعشرون
مفهوم الأسرة في الإسلام

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

لقد جاء الإسلام بأحكامٍ وتوجيهاتٍ من شأنها أن تُكَوِّنَ الأسر السَّعيدة المترابطة المتوادَّة، الَّتي يكون كلُّ فرد فيها كأنَّه خليَّةٌ أو عضو في جسد واحد.

الترابط الأسري في الإسلام:

والأسرة في الإسلام ليست كالأسرة في الغرب، مكوَّنة من زوج وزوجة، وربَّما من بعض الأولاد حتَّى يبلغوا، فإذا بلغ الأولاد بنين كانوا أو بنات، كان كلٌّ منهم على حال سبيله، أو على «حلِّ شعره» كما يقولون، لا علاقة للأب والأم بأولادهما بعد البلوغ، الإسلام لا يريد مثل هذه الأسرة.

الإسلام يريد أسرةً من زوج وزوجة، ثمَّ بعد ذلك من أبٍ وأمٍّ، وأبناء وبنات، وأحفاد وحفيدات، وإخوة وأخوات، وأعمام وعمَّات، وأخوال وخالات، الأسرة في الإسلام أسرة موسَّعةٌ ممتدَّة، تشمل العصبات من أبناء الأعمام، وتشمل الأرحام من أبناء الأخوال والخالات.

لذا جاء الإسلام بالوصيَّة بالوالدين والأقربين، وجعل حق الوالدين بعد حق الله تعالى، الإحسان إلى الوالدين يأتي في كتاب الله تاليًا للتوحيد

QaradawiBooks.com

وإخلاص العبادة لله، قال الله ﷻ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقرن الله شكر الوالدين بشكره ﷻ، فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. بحرف العطف «الواو»، وليس «ثم» الَّذي يدل على التراخي.

وأكَّد الوصيَّة بالأم لأنَّ حقَّها أوكد، وحاجتها إلى الرعاية أكثر، وعناءها في سبيل ولدها أكبر، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ [لقمان: ١٤]. ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وسأل رجل النبي ﷺ فقال: من أحقُّ النَّاس بحُسن صحابتي؟ قال: «**أمُّك**». قال: ثمَّ من؟ قال: «**ثم أمك**». قال: ثمَّ من؟ قال: «**ثم أمك**». قال: ثمَّ من؟ قال: «**ثم أبوك**»[1].

وأكد الوصيَّة بالوالدين في حالة الكِبَر، فقال تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ۝ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

الوصيَّة بالأقربين:

ثم عطف القرآن الوصيَّة بـ«الأقربين» على الوصيَّة بـ«الوالدين»، ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الروم: ٣٨]. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ [النساء: ٧].

وذوو القربى، أو أولو القربى، أو الأقربون، أو أولو الأرحام هذه كلها تعبيرات عن شيء واحد، وهم أولئك الَّذين يجمعك بهم النسب أو الدم، أو الخؤولة أو العمومة، أو غير ذلك ممَّا يربط النَّاس بعضهم ببعض من هذه الناحية.

هؤلاء لهم حقوق في الإسلام، الله تعالى وصَّى بهم، وحذَّر من قطيعتهم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. أي: واتقوا الأرحامَ أن تقطعوها.

تأكيد السُّنَّة على حقوق الأقارب والأرحام:

وأكدت السُّنَّة ما جاء في القرآن من الوصيَّة بالوالدين والأقربين، فعن عبد الرحمٰن بن عوف قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله ﷻ: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقتُ الرحم، وشققتُ لها من اسمي، فمن وصلها وصلْتُه، ومن قطعها بتَتُّه**»(١).

«**إنَّ الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنَتان: صدقة وَصِلَة**»(٢).

(١) رواه أحمد (١٦٨٦)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الزكاة (١٦٩٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٧)، وصحَّحه، عن عبد الرحمٰن بن عوف.

(٢) رواه أحمد (١٦٢٣٣)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح لغيره. والترمذي (٦٥٨)، والنسائي (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، ثلاثتهم في الزكاة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٥٨)، عن سلمان بن عامر الضَّبي.

QaradawiBooks.com

فالأقربون أولى بالمعروف، كما تقرَّر عند المسلمين، هؤلاء لهم حقوق يجب أن تُرعى، حتَّى وإن آذوك، وإن أساؤوا إليك، فقد سئل النبيُّ ﷺ عن فواضل الأعمال، فقال: «**أن تصلَ مَن قطعك، وَتعطيَ مَنْ مَنَعك، وتصفحَ عمَّن شتمك**»[1].

الإسلام أمر بالتكافل بين ذوي القربى:

والإسلام حينما أمر بصلة الأرحام أراد أن يكون كل ذي رحم عونًا لرحمه في الشدائد، قوَّة له عند الضعف، فصلة الأرحام فيها حقوق المسلم العادي، وفيها شيء فوق حق المسلم العادي، أن يكون بينك وبين قريبك هذه المودَّة، هذه الصلة الَّتي تجعلك تزوره بين الحين والحين، وتسأل عنه، وتهتمُّ بأمره.

بل أكثر من ذلك، أوجب الإسلام نفقة القريب على قريبه عند إيسار أحدهم وإعسار الآخر، إذا كان قريبك مُعسِرًا وأنت موسر، فالإسلام يوجب عليك نفقته. فنظام النفقات في الإسلام يوجب نوعًا من التكافل بين الأسرة الممتدة الموَسَّعة، من لم يؤدِّ حق ذوي قرباه طوعًا، ألزمته المحكمة الشرعيَّة كرهًا، وهذا ما لم يعرفه غير المسلمين.

نظام النفقات في الإسلام نظام تكافل عجيب، يجعل الأسرة كلها يصب بعضها على بعض، يأخذ الغني بيد الفقير، والقوي بيد الضعيف، هذا هو نظام النفقات، وهناك نظام المواريث، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وهناك نظام العاقلة في الديات، تدفع به العاقلة الديات عن أبنائها.

---

(١) رواه أحمد (١٥٦١٨)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (١٨٨/٢٠)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٦٠٤)، عن معاذ بن أنس.

QaradawiBooks.com

الحضارة الحديثة وإضعاف الروابط الأسريَّة:

هذا ما جاء به الإسلام، وهذا ما سار عليه المسلمون قرونًا طويلة، كان النَّاس يعيشون في أسرة واحدة، أسرة كبيرة يعيش بعضهم مع بعض، الأبناء مع آبائهم، والأحفاد مع أجدادهم، ثمَّ جاءت هذه المدنيَّة بفلسفتها وأخلاقها، فأصبح كلُّ امرئ يريد أن يستقلَّ بنفسه، يريد أن يستقلَّ بداره، وبزوجته وأولاده، ولكن مع هذا ما انتهت المشكلات.

وفي المجتمعات الغربيَّة المودة مقطوعة بين الآباء والأبناء، لا يسأل الولد عن أبيه، ولا البنت عن أمِّها، كلُّ ما هنالك جعلوا يومًا في السنة، سمَّوْه: «عيد الأم»، تُهدي البنت لأبيها أو لأمِّها زجاجة عطر، أو وردة، أو نحو ذلك، وربَّما ترسلها بالبريد.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثلاثون
المعركة بين الحق والباطل مستمرة(١)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧، ٢١٨].

نهج القرآن في بيان الأحكام:

للقرآن الكريم نهجان معلومان، في بيان أحكام الله تعالى وتعليماته لخلقه:

النهج الأوَّل هو: أن يعرِّف النَّاس ابتداء بأحكامه وتوجيهاته وإرشاداته، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨]. ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة: ١٥٨].

(١) من دروس تراويح ١٤٢٢هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].. إلخ هذا النوع من الآيات، الَّذي يبين الله فيه الأحكام ابتداءً.

والنهج الثاني: يُبيِّن الله فيه الأحكام بناء على سؤال من النَّاس. وقد حفلت سورة البقرة بعدد من الأسئلة، أجاب عنها القرآن الكريم، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ...﴾ [البقرة: ٢١٧]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ... وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ..﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢]. يبيِّن الله الحكم بعد السؤال.

أسئلة الصحابة كانت عمَّا ينفعهم:

وقد ذكر حبْر الأمة وترجمان القرآن سيِّدنا عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنه أنَّ الصحابة لم يسألوا إلَّا ثلاثة عشر سؤالًا، كلها ذُكرت في القرآن. وذكر منها هذه الأسئلة المذكورة في سورة البقرة وغيرها، قال عبد الله بن عبَّاس: «ما رأيتُ قومًا خيرًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلَّا عن ثلاث عشرة مسألة حتَّى قبض، كلهنَّ في القرآن، ما كانوا يسألون إلَّا عمَّا ينفعهم»[1].

ويشير ابن عبَّاس بهذا إلى أنَّ الصحابة رضوان الله عنهم كانوا قليلي السؤال، أو كانوا يسألون عمَّا ينفعهم، ولا يسألون عن أشياء يثرثرون

(١) رواه الدارمي في المقدمة (١٢٧).

QaradawiBooks.com

بها، دون أن يكون لها جدوى، كما هو حال كثير من المسلمين الآن، والأسئلة الَّتي من قبيل: سؤال القبر بأيِّ لغة؟! يا أخي ستُسأل وستعرف السؤال، وستجيب إن شاء الله، وسيفهمك الله السؤال، المهم أن تُعدَّ من الآن للسؤال جوابًا.

أسئلة لا معنى لها:

المهم ـ أيُّها الإخوة ـ أنَّ البعض يسأل أسئلة لا معنى لها، سأل أحدُ النَّاس الإمامَ عامرَ بن شراحيل الشَّعْبي: ما اسم زوجة إبليس؟ قال: هذا عُرْسٌ لم أشهده[1]. وسأله آخر: إنَّ لحيتي كَثَّة فماذا أفعل بها في الوضوء؟ قال له: انقَعْها من الليل.

أحيانًا تكون الإجابة على السؤال الَّذي لا معنى له بالسخرية، وقد حدث مثل هذا معي يومًا، سألني أحد الإخوة وأنا أقرأ قول الله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]: ما اسم أخت سيِّدنا موسى؟ فقلتُ له: وماذا تريد منها! هل ستتزوجها؟! إذا كان الله لم يذكر لنا اسم أم موسى، ولا اسم أخته، فلماذا نبحث نحن عن هذا؟ فهذا سؤال ليس له معنى.

أمَّا أسئلة الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانت عمَّا ينفعهم.

سبب نزول الآية:

ومن الأسئلة الَّتي ذكرتها سورة البقرة، هذا السؤال الَّذي جاء في ربع الحزب الأخير من التلاوة الَّتي استمعنا إليها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

(١) تفسير القرطبي (٤٢٠/١٠).

QaradawiBooks.com

الَّذين يسألون هنا ليس هم الصحابة، وإنَّما هم المشركون من قريش وأتباعهم، أقاموا الدُّنْيا وأقعدوها من أجل أنَّ بعض المسلمين أخطؤوا، فقتلوا مشركًا في أوَّل ليلة من رجب، حيث كانوا يحسبونها آخر ليلة من جمادى الآخرة.

ضخَّم المشركون واقعة قَتل فيها بعضُ المسلمين واحدًا من المشركين خطأً في الشهر الحرام، وأعادوا وزادوا في القول، والقرآن أقرَّ بأن القتال في الشهر الحرام ذنبٌ كبير، ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من الصدِّ عن سبيل الله، والكفر به، وبحرمة المسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ممَّا وقع من المسلمين.

والقتال في الأشهر الحرم معروف أنَّه ممنوع من عهود الجاهليَّة، وقد أقرَّ الإسلام ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]. وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٦]. والعلماء يقولون عن الأشهر الحرم: ثلاثة سرد، وواحد فرد.

الثلاثة السرد ـ أي: الأشهر المتتابعة ـ هي: ذو القَعْدة، وذو الحجَّة، ومحرَّم. والشهر الفرد: هو رجب.

فالمشركون أثاروا الدُّنْيا على المسلمين، واتَّهموهم بأنَّهم يستحلُّون الأشهر الحرم، فبيَّن الله أنَّ القتال في الأشهر الحرم كبير، ولكن فتنة المسلمين في دينهم أكبر عند الله، ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. الفتنة الَّتي يوقعها المشركون عمدًا بالمؤمنين بالإسلام أكبر وأعظم إثمًا من القتل الَّذي وقع من المسلمين خطأ في الشهر الحرام، فهم الَّذين

QaradawiBooks.com

آذوا المؤمنين طوال ثلاثة عشر عامًا في مكَّة، وأنزلوا بهم صنوف العذاب، وحاصروهم اقتصاديًّا واجتماعيًّا، حتَّى أكلوا أوراق الشجر، وعذَّبوا المستضعفين منهم، حتَّى مات بعضهم تحت التعذيب، واستمر هذا التنكيل حتَّى اضطروهم للخروج من ديارهم بغير حقٍّ، إلَّا أن يقولوا: ربنا الله. فهاجر بعضهم مرتين، ثمَّ هاجروا جميعًا ـ إلَّا مَن عجز ـ إلى يثرب.

وبالمناسبة: قالوا: إنَّ أمريكا ستكفُّ عن القتال في شهر رمضان، ثمَّ رجعوا عن هذا الكلام، وقال وزير الدفاع الأمريكي: إنَّ الإسلام لا يحرِّم القتال في شهر رمضان، والمسلمون قاتلوا فيه. فسألني أحد الإخوة عن هذا، فقلت له: وهل وزير الدفاع الأمريكي حريص على تحرّي أحكام الإسلام في الحلال والحرام؟! إذا كان يتحرَّى هذا، نقول له: إنَّ القتال في شهر رجب محرَّم في الإسلام، وأنتم بدأتم القتال في شهر رجب، في أفغانستان، فلو كان يتحرَّى الحلال والحرام ما كان يقاتل في شهر رجب، وهل إذا جاءت الأشهر الحرم الثلاثة «ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم» سيكفُّون عن قتالهم، وهو قتال طلب وليس قتال الدفع.

جواز قتال الدفع في الأشهر الحرم:

فهناك فرق بين قتال الطلب، وقتال الدفع، فقتال الدفع هو قتال المقاومة، وهذا مطلوب من المسلم في أيِّ شهر كان، كما قرأنا وسمعنا: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]. من اعتدى عليكم في الشهر الحرام، فقاتلوه ولو في الشهر الحرام.

أمَّا أن نبدأ نحن القتال في الشهر الحرام (قتال الطلب)، فهذا لا يجوز أن يكون في الشهر الحرام.

QaradawiBooks.com

سبب نزول الآية:

بدأ النبيُّ ﷺ جهاده في المدينة، بإرسال السرايا، لتأديب المشركين، وإرهابهم (إخافتهم) وهو الإرهاب المشروع، لأنَّ المشركين طمعوا في المسلمين، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، إلَّا أن يقولوا ربنا الله، واستحلُّوا دماءهم وأموالهم وحرماتهم، واحتلُّوا بيوتهم وديارهم من بعدهم، فلا بدَّ أن يكون للمسلمين موقف، يظهرون فيه أنَّهم أقوياء، وأنَّهم يقفون على أرض صلبة، ولذلك أرسل رسول الله سراياه حول المدينة، ليعلن للمشركين في قريش أنَّهم قوَّة، وليخوِّف القبائل الَّتي تحيط بالمدينة، حتَّى لا تطمع فيها.

وكان من هذه السرايا، سرية عبد الله بن جحش، وقد حصلوا على عير لابن الحضرمي، وقتلوا ابن الحضرمي، وكانوا يظنون أنَّها آخر ليلة في جمادى كما قلنا، فتبيَّن أنَّها أوَّل ليلة من شهر رجب.

فما كاد المشركون يعرفون ذلك، حتَّى خرجت دعايتهم، مثل ما يفعله الإعلام الأمريكي الآن، أشاعوا أنَّ محمدًا قتَل في الشهر الحرام، مُحَمَّد استحلَّ الشهر الحرام، إلخ. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧][1].

لن نجادلكم في هذه المسألة، القتال في الشهر الحرام كبير، ومسألة كبيرة. ولكن ما الَّذي يجعلكم تضخمون هذه القضيَّة، وأنتم فعلتم من الجرائم أضعافها؟

(١) رواه النسائي في الكبرى في السير (٨٧٥٢)، والطبراني (١٦٢/٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣٣٦): رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

QaradawiBooks.com

أنســيتم أنكم أخرجتم محمدًا وأصحابه من ديارهم بغير وجه حق، إلَّا أن يقولوا ربنا الله؟ نســيتم هذا؟! والمعنى أن ما فعلتم من صد عن الإيمان بالله وعن المســجد الحرام وإخراج المسلمين من مكَّة أكبر عند الله وأعظم.

أُخرج المسلمون من ديارهم بغير حق، إلَّا أن يقولوا ربنا الله، ما الَّذي أخرج الرسول والصحابة من مكَّة؟ وقد نظر إليها وقال: «**لقد علمت أنَّك أحب أرض الله إليه، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت**»[(١)].

والناس يقولون: مسقط الرأس غالٍ.

بِلَادِي وَإِنْ جَــارَتْ عليَّ عزيزةٌ وقومي وإن ضَنُّوا علــيَّ كرامُ[(٢)]

فكيــف إذا كان هذا البلــد، بلد الله الحــرام، وفيه البيــت الحرام، والمسجد الحرام، أعظم بقعة في الأرض! ولكن ماذا يفعل المسلمون.

اضطرَّ المســلمون أن يتركوا مكَّة لأذى المشركين، فالله يقول: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وَإِذَا الدِّيَــارُ تَنَكَّرَتْ عَــنْ حَالِهَا فَــدَعِ الدِّيَــارَ وَأَسْــرِعِ التَّحْوِيلَا
لَيْسَ الْمُقَــامُ عَلَيْكَ حَقًّــا وَاجِبًا فِي مَنْزِلٍ يَــدَعُ الْعَزِيــزَ ذَلِيلَا[(٣)]

---

(١) رواه الترمذي فــي المناقب (٣٩٢٦)، وقال: حســن صحيح غريب. وابــن حبان في الحج (٣٧٠٩)، وقال الأرناؤوط: صحيح. والحاكم في المناسك (٤٨٦/١)، وصحَّح إسناده، ووفقه الذهبي، عن ابن عباس.

(٢) ذكره بلفظ مقارب دون نسبة أبو الوليد ابن الأحمر في أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن صـ ٢٢، تحقيق د. محمد رضوان الداية، نشــر مؤسســة الرســالة، بيروت، ط١، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

(٣) من شعر أبي دلف، انظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني (٦٤٢/٢)، نشر دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

فالله شرع الهجرة، واضطرَّ المسلمون إليها، وقبل ذلك هاجروا إلى الحبشة مرتين، ثمَّ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة، بسبب هؤلاء المشركين، الَّذين أقاموا الدُّنْيا ولم يُقعدوها من أجل قتل واحد في الشهر الحرام، وهذا كله أكبر عند الله من قتل امرئ في الشهر الحرام.

معنى الفتنة:

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وماذا تعني الفتنة؟ إنَّها تعني: فتنة النَّاس في دينهم، واضطهادهم من أجل عقيدتهم، هذه هي الفتنة، كما جاء في سورة البروج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. الَّذين فتنوا المؤمنين، أي: الَّذين خدُّوا لهم الأخاديد، ورموهم في النار.

ويقول الله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]. الفتنة هي الاضطهاد والتعذيب من أجل الدين، وليس الفتنة هي الشرك كما يقول بعض المفسرين[1]، فهذا خروج بالآيات عن ظاهرها، وعن السياق القرآني كله.

فالاضطهاد والتعذيب في الدين اعتداء على رُوح الإنسان، على فكر الإنسان، على جوهر الإنسان. ولذلك كانت الفتنة أكبر من القتل، وأشد من القتل.

(١) تفسير ابن كثير (٥٢٥/١).

QaradawiBooks.com

المعركة بين الحق والباطل مستمرة:

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]. هذه حقيقة يريد القرآن أن يقرِّرها: أنَّ المعركة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين التوحيد والشرك، بين الإسلام والجاهليَّة، بين الله والطاغوت، المعركة مستمرة، المعركة لن تنطفئ جذوتها أبدًا. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

ولذلك معظم هذه المعارك الَّتي نراها، هي معارك في الحقيقة ضد الإسلام، لا تُصدِّقوا ما يقال: إنَّها ضد الإرهاب، أو ضد العنف. وإلا فلماذا لا يحارب إرهاب إسرائيل؟! وهو أعظم إرهاب في الدُّنيا، لم تر الدُّنْيا إرهابًا مثله.

قامت إسرائيل أوَّل ما قامت على الإرهاب، منذ أيام العصابات، فلماذا لا يحارب هذا الإرهاب؟!

ولماذا اعتبروا الجهاد وحماس والفصائل الفلسطينية الأخرى ـ مثل الجبهة الشَّعْبية لتحرير فلسطين ـ وحركة المجاهدين الكشميريين حركات إرهابية؟!

هذه الحركات الَّتي تدافع عن أرضها، عن وطنها، تحارب الغزاة، فهل تعتبر حركات إرهابية؟!

وقد اعتبروا عددًا من جمعيات العمل الخيري الإسلامي، وبعض البنوك الإسلاميَّة في قائمة المنظمات الإرهابية، وما زالت القائمة مفتوحة، ولكنَّهم يجرعوننا الأمر جرعة جرعة، فكل فترة يخرجون من جعبتهم شيئًا.

فالمعركة في الحقيقة ضد الإسلام، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

QaradawiBooks.com

المعركة بين الحق والباطل مستمرة:

ثم خُتِمَت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وكأنَّها تهيِّئ أنفس الأمة إلى أنَّ المعركة مستمرة، وأنَّ أعداء الإسلام الكارهين له مُصِرُّون على أن يفتنوا المسلمين عن دينهم حتَّى يردُّوهم إلى الكفر، كما كانوا يفعلون بمن قدروا عليه منهم قبل الهجرة.

وصيغة «لا يزالون» تُشعر بالاستمرار، وبأن المعركة دائرة الرَّحى ومستمرة، ما دام في الدُّنْيا حق وباطل، وإيمان وكفر.

لن يستطيع المشركون ردَّ المسلمين عن دينهم:

ومما يطمئننا أيُّها الإخوة، أنَّ الله قال: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧]. ولم يقل «إذا استطاعوا»، يقول علماء العربيَّة: إنَّ «إنْ» للشك. فهذا تشكيك من الله تعالى في استطاعة أعداء الإسلام رد المسلمين عن دينهم، ولن يستطيعوا بإذن الله، وسيبقى هذا الدين، وستظل رايته مرفوعة، وكلمته مسموعة، وسيظل نوره ممتدًّا في الآفاق، كما قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

فالذي يغرس في قلوبنا الطمأنينة هو هذا الإباء الإلٰهي: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢]. ما دام الله يأبى، فهل تصادم أمريكا إرادة الله وتقف ضدها؟! لا أمريكا ولا غيرها، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

QaradawiBooks.com

فهذا الإباء الإلٰهي يطمئنُنا.

والقرآن في هذه الآية لم يبين هل يستطيعون أم لا يستطيعون؟ ولكنَّه بيَّن في موضع آخر أنَّهم لن يستطيعوا، وأنَّهم قد حصل لهم اليأس من رد المؤمنين عن دينهم، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. وبيَّن الله تعالى أنَّه مظهرٌ دين الإسلام على كل الأديان: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨، والصف: ٩].

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]. يريدون أن يخرجونا من ملتنا، أن يسلخونا من ديننا، كما قال الله على لسان أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

لا يمكن أن نترك ملَّتنا، ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

لن يردُّونا عن ديننا، فمن خصائص الإسلام أنَّه إذا خالطت بشاشته القلوب لا يمكن للإنسان أن يرتدَّ عنه، ولهذا تعد الردَّة عند المسلمين شيء نادر جدًّا.

ولهذا لا يبحث المبشرون عن ارتداد المسلمين عن دينهم، وإنَّما يعملون على أحد أمرين:

إما أن يأخذوا الأطفال منذ نعومة أظفارهم، ليعلِّموهم في مدارسهم، ويلقِّنوهم النصرانيَّة وعقائدها، وتعاليمها من أوَّل الأمر، فينشأ الطفل على ما رُبِّي عليه.

QaradawiBooks.com

وإما أن يُشكِّكوا المسلمين في دينهم، فتتزعزع ثقتهم في الإسلام، كما فعلوا مع العلمانيين والمتغربين، وهؤلاء النَّاس.

غير مرخصة للطباعة

خطر الردَّة وواجب المسلمين تجاهها:

أشدُّ ما يواجه مجتمع المسلمين من الأخطار هو ما يهدِّد وجودهم المعنوي، أي: ما يهدِّد عقيدتهم، ولهذا كانت الرِّدة عن الدين والكفر بعد الإسلام أشد الأخطار على المجتمع المسلم، وكان أعظم ما يكيد له أعداؤه: أن يفتنوا أبناءه عن دينهم بالقوَّة والسلاح، أو بالمكر والحيلة.

واجب المجتمع المسلم ـ لكي يحافظ على بقائه ـ أن يقاوم الرِّدة من أيِّ مصدر جاءت، وبأيِّ صورة ظهرت، ولا يَدَع لها الفرصة، حتَّى تمتدَّ وتنتشر، انتشار النَّار في الهشيم.

وهذا ما صنعه أبو بكر والصحابة معه ﷺ، حين قاتلوا أهل الرِّدة، الَّذين اتَّبعوا الأنبياء الكَذَبَة، مثل: مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسي، وكادوا أن يقضوا على الإسلام في مهده.

جزاء من يرتد عن دينه:

ثم قال الله تعالى في ختام هذه الآية: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

من ارتدَّ عن الدين ـ والعياذ بالله ـ ومات على ذلك، فقد حبط عمله، وضاع سعيه، وخاب فأله، ضاعت حياته كلها؛ لأنَّه مات على الكفر، فذهبت حسناته سدًى، واستحق الخلود في النَّار والعياذ بالله، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

QaradawiBooks.com

المرتدُّ الَّذي لا يُجاهر بردَّته، ولا يدعو إليها غيره، لا يعاقبه الإسلام بالقتل، وإنَّما يَدَع عقابه إلى الآخرة، إذا مات على كفره. كما قالت الآية: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقد يُعاقب عقوبة تعزيرية مناسبة.

إنَّما المرتدُّ المجاهر، وبخاصة الداعي للرِّدَّة، هو الَّذي يعاقب بالقتل حمايةً لهُويَّة المجتمع، وحفاظًا على أُسُسه ووَحدته. فلا يوجد مجتمع في الدُّنْيا إلَّا وعنده أسس لا يُسمح بالنيل منها، مثل: الهُويَّة والانتماء والوَلاء، فلا يُقبل أيُّ عمل لتغيير هُويَّة المجتمع، أو تحويل وَلائه لأعدائه، وما شابه ذلك.

وعد الله للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله:

ثم قال تعالى في الآية الَّتي تليها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]. لا يكون الرجاء إلَّا بعد الإيمان والهجرة والجهاد، فهؤلاء الَّذين هاجروا وجاهدوا هم الَّذين يرجون رحمة الله حقًّا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

لا يستحق مغفرة الله ورحمته، من تمنَّى على الله الأماني، ولم يبالِ بأمر الله ونهيه، فالمغفرة والرحمة لا تكتبان إلَّا لمن يستحق، كما في الآية الأخرى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

نسأل الله أن يَعُمَّنا جميعًا برحمته، ويغفر لنا إنَّه هو الغفور الرحيم.

QaradawiBooks.com

الدرس الحادي والثلاثون
تحريم الزواج من المشركين وتحريم إتيان المرأة في حال حيضها

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۞ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

نعيش مع هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة، الَّتي تُعنى بالأسرة المسلمة، تعنى بالعلاقة بين الرجل والمرأة، ذلك أنَّ الأسرة هي أساس البنيان الاجتماعي كله، ولهذا عُنيت هذه السورة الكريمة أبلغ العناية بتكوين الأسرة، واستمرارها على أسس قويمة متينة، وأول الأسرة الزواج، وأول ما ينبغي أن يقوم الزواج عليه، هو التوافق بين الزوجين.

زواج المسلم بالمشركة:

ومن هنا جاءت هذه الآيات تحرِّم على المؤمنين أن يتزوَّجوا المشركات، أو أن يُزوِّجوا المشركين بناتهم، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، أي: لا تتزوَّجوا المشركات الوثنيات حتَّى يَدْخلن في الإيمان، ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، قد يعجبكم في المشركة مالُها، أو جمالها، أو نسبها، أو غير ذلك ممَّا يرغب النَّاس فيه، ولكن أمة رقيقة مؤمنة، خير من كافرة وإن كانت حرة جميلة، يكفي أنَّها مؤمنة، وأنَّ عندها هذا الأساس المتين: الإيمان.

حكم تزويج المشركين:

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، لا تزوِّجوا المشركين فتعطوهم بناتكم، سواء أكانوا وثنيين أم كانوا من أهل الكتاب ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ﴾ أي: مملوك ﴿مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ لحِسْنِهِ وجماله وماله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشركون والمشركات ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾، يعني أنَّه لا لقاء بينكم وبين أهل الشرك، لا لقاء بينكم وبين الوثنيِّين، أنتم تدعون إلى الجنَّة، وهم يدعون إلى النار، فكيف يلتقي من يدعو إلى الجنَّة، ومن يدعو إلى النار؟ من يدعو إلى الله ومن يدعو إلى الطاغوت؟ زواج المسلم بالمشركة الوثنيَّة حرام بنصِّ هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾.

الحكمة من تحريم زواج المشركين والمشركات:

والحكمة في هذا التحريم ظاهرة، وهي: عدم إمكان التلاقي بين الإسلام والوثنيَّة، فعقيدة التوحيد الخالص، تناقض عقيدة الشرك

QaradawiBooks.com

المحض، ثمَّ إنَّ الوثنيَّة ليس لها كتاب سماوي معتبر، ولا نبي معترف به، فهي والإسلام على طرفي نقيض، ولهذا علل القرآن النهي عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾، ولا تلاقي بين من يدعو إلى النار، ومن يدعو إلى الجنَّة، بين من يدعو إلى الله، ومن يدعو إلى الطاغوت، هذا هو موقف الإسلام من زواج المشركات وتزويج المشركين.

زواج المسلم بالكتابية:

ولكن ما الموقف من زواج الكتابيات وتزويج الكتابيين؟ أمَّا تزويج الكتابيِّين، فلا يجوز للمسلمة أن تتزوج إلَّا مسلمًا، وأمَّا زواج الكتابيات، فجمهور المسلمين على أنَّ هذه الآية لا تمنع الزواج من الكتابيات؛ لأنَّها جاءت في المشركات، والمشركات غير أهل الكتاب، إنَّ الله ﷻ جعل هؤلاء صنفًا غير أولئك، ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: ٦]. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فإذن هناك الَّذين كفروا من أهل الكتاب وهناك المشركون، أي: الوثنيون، فهذه الآية تقصد المشركين الوثنيين، حتَّى لو قلنا: إنَّها تشمل هؤلاء وهؤلاء، فإنَّ آيات سورة المائدة تخصِّص هذا المراد، حيث قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

QaradawiBooks.com

فهذا هو رأي جمهور المسلمين، وخالف في ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فكان لا يرى تزوُّج المسلم بالنصرانيَّة، ويقول: لا أعلم شركًا أكبر من أن تقول: إنَّ ربَّها عيسى ابن مريم[١]!

هكذا رأى عبد الله بن عمر، ولكن الجمهور يرون أنَّ إشراك الكفَّار غير إشراك أهل الكتاب، فلا مانع أن يتزوَّج المسلم من كتابيَّة إذا كانت محصنة عفيفة، ولم يكن في ذلك ضرر على المسلمات، أمَّا إذا كان هناك ضرر على المسلمات؛ كأن يكون المسلمون أقليَّة في بلد ما، وإذا تزوج كتابيَّة كسدت سوق المسلمة في المقابل، أو خيف على المسلم وعلى أولاده أن يتأثروا بأمِّهم ودينها، أو كانت هذه الكتابية عينًا لقومها على المسلمين، أو كان قومها معادين للمسلمين، كالذي يتزوج يهودية في عصرنا، فإنَّ هذا لا يجوز.

وأيًّا ما كان الأمر، فالزواج بالمسلمة أفضل، بل الزواج بالمسلمة المتدينة الملتزمة بأوامر دينها أفضل، وفي الحديث يقول ﷺ: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[٢].

أمَّا زواج المسلمة بغير المسلم كتابيًّا كان أم غير كتابي فلا يجوز بحال؛ لأنَّه إذا جاز للمسلم أن يتزوج كتابية؛ فإنَّ ذلك مردُّه إلى أنَّه يعترف بأصل دينها وكتابها، أمَّا الكتابي، فلا يعترف بأصل دين المسلمة، ولا بكتابها، ولا بنبيِّها، فكيف تتعايش معه؟ هذا ما جاءت به هذه الآية الكريمة.

---

(١) رواه البخاري في الطلاق (٥٢٨٥).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

تحريم إتيان المرأة الحائض:

ثمَّ تنتقل الآيات إلى الحديث عن سؤال عن المحيض أي وقت الحيض ـ وهو دم يسيل من رحم المرأة البالغة في أوقات معلومة، إذا كانت غير حامل، ولم تبلغ سنَّ اليأس ـ أو السؤال عن مكان الحيض، ماذا يفعل بالنساء فيه؟

يقول تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢، ٢٢٣].

وهذا ممَّا جاء في هذه السورة بهذه الصيغة: «يسألونك»، وكل ما جاء في هذه السورة أسئلة عمليَّة تتَّصل بالحياة وبأمور الحياة، ليست كما يسأل بعض النَّاس المتنطعين عن أشياء لا علاقة لها بالواقع، لا، هنا يسألون عن المحيض، كما سألوا في السورة نفسها عن الخمر والميسر، وسألوا: ماذا ينفقون؟ وكما سألوا عن اليتامى، يسألون هنا عن المحيض.

لم يغفل القرآن الجانب الحسي والعلاقة الجسدية بين الزوج وزوجته، وهدى فيها إلى أقوم السبل الَّتي تؤدِّي حق الفطرة والغريزة، وتتجنَّب مع ذلك الأذى والانحراف، فقد رُوِيَ أنَّ اليهود والمجوس كانوا يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها، والنَّصارى كانوا يجامعونهن، ولا يبالون بالحيض، وإن أهل الجاهليَّة كانوا إذا حاضت المرأة، لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على الفراش، ولم يساكنوها في بيتٍ، كفعل اليهود والمجوس.

QaradawiBooks.com

لهذا توجَّه بعض المسلمين بالسؤال إلى النبي ﷺ عمَّا يحل لهم وما يحرم عليهم في مخالطة الحائض، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وقد فهم ناس من الأعراب أن معنى اعتزالهن في المحيض ألا يساكنوهن، فبيَّن النبي ﷺ لهم المراد من الآية وقال: «**إنَّما أمرتُكم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم آمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم**» فلما سمع اليهود ذلك قالوا: هذا الرجل يريد ألا يدع شيئًا من أمرنا إلَّا خالفنا فيه[1].

ذلك أنَّ المسلمين في المدينة كانوا يجاورون اليهود، وكان اليهود إذا حاضت المرأة لا يُساكنونها، ولا يؤاكلونها ولا يشاربونها، ولا يجتمعون معها تحت سقف واحد، كأنَّما هي نجس، في مقابلهم كان النَّصارى لا يبالون بالحيض وكانوا يجامعون المرأة وهي حائض، والإسلام دائمًا في الموقف الوسط، في الموقف المعتدل، فلّما سألوا عن الحيض، جاء الرد:

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾، موضع أذى ونجس ودم، ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾، في زمان الحيض، وفي مكان الحيض.

معنى الاعتزال في الحيض:

ولذلك قال ﷺ: «**اصنعوا كلَّ شيء إلَّا النكاح**»[2]. وما عدا ذلك من أنواع الاستمتاع فهو جائز بنصِّ هذا الحديث الَّذي رواه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) رواه مسلم في الحيض (٣٠٢)، وأحمد (١٣٥٧٦)، عن أنس.
(٢) جزء من الحديث السابق.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فالاعتزال هنا ليس اعتزالًا كليًّا كاعتزال اليهود، وإنَّما اعتزال الصورة الَّتي جاء بها هذا الحديث الصحيح، **الَّذي** يفسِّر معنى الاعتزال هنا، فليس المراد الاعتزال بالكلية، فلا ينام معها في غرفة واحدة أو في فراش واحد. وإنَّما المراد بالاعتزال تجنُّب الجماع، وأي شيء غيره، من القبلة والضم والشم، إلخ فلا بأس به.

للإنسان أن يستمتع بزوجه متى شاء إلَّا في حالة الحيض، فإنَّه يبعد عن موضع الأذى، عن موضع الدم.

تحريم إتيان المرأة في دبرها:

وكذلك يتجنَّب الدُّبُر، فجماع المرأة وقت الحيض وفي الدبر حرام، وفي الحديث: «**ملعونٌ من أتى امرأتَه في دبرها**»[(١)]. وفي بعض الأحاديث سماه النبي ﷺ: «**اللُّوطية الصغرى**»[(٢)].

فلا يجوز للمسلم أن يطلب من زوجته أن تمكِّنه من الجماع في الدبر، ولا يجوز للمسلمة أن تطيع زوجها وتمكنه من الجماع في الدبر؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لا طاعة لبشر في معصية الله ﷻ، كما جاء في الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا طاعة في معصية الله**»[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (٩٧٣٣)، وقال مُخَرِّجوه: حديث حسن. وأبو داود في النكاح (٢١٦٢)، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٨٩٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٦٧٠٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٨٩٤٧)، وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٢٣٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٨٤٠) (٣٩)، عن علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

وقد قال الله لرسوله ﷺ في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]. فالطاعة للزوج والطاعة لولي الأمر؛ لا تكون إلَّا في المعروف، لا في المعصية، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّما الطاعة في المعروف**»(١).

فلا بأس على المسلم ـ إذن ـ أن يستمتع بامرأته بعيدًا عن موضع الأذى، وبهذا وقف الإسلام ـ كشأنه دائمًا ـ موقفًا وسطًا بين المتطرفين في مباعدة الحائض إلى حد الإخراج من البيت، والمتطرفين في المخالطة إلى حد الاتصال الجنسي.

العلة من تحريم إتيان المرأة الحائض:

وقد كشف الطب الحديث ما في إفرازات الحيض من موادَّ سامَّةٍ، تضر بالجسم إذا بقيت فيه، كما كشف سر الأمر باعتزال جماع النساء في الحيض، فإن الأعضاء التناسلية تكون في حالة احتقان، والأعصاب تكون في حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية، فالاختلاط الجنسي يضرها، وربَّما منع نزول الحيض، كما يسبِّب كثيرًا من الاضطراب العصبي، وقد يكون سببًا في التهاب الأعضاء التناسلية.

طهارة الحائض:

وقد اعتقد بعض النساء أنَّ النجاسة قد أصابت ذواتهن في الحيض، حتَّى عائشة نفسها، قال لها النبي ﷺ ذات مرَّة وهي حائض: «**ناوليني الخُمْرة**» من المسجد. قالت: يا رسولَ الله، إنِّي حائض. فقال لها النبي ﷺ معلِّمًا: «**إنَّ حِيضَتَكِ ليستْ في يَدِكِ**»(٢).

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٠) (٤٠)، عن علي.

(٢) رواه مسلم في الحيض (٢٩٨)، وأحمد (٢٤١٨٤)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

الحيض لا يُنجِّس يد الإنسان، وقد روت السيِّدة عائشة نفسها أنَّ النبيَّ ﷺ كان يأكل معها، ويشرب معها، ويضع فاه موضع فيها، وهي حائض، قالت: كنتُ أشرب وأنا حائض، ثمَّ أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ، فيشرب، وأتعرَّق العَرْق وأنا حائض، ثمَّ أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ[1]. والعَرْق: العظم الَّذي عليه بقية من لحم.

وهذا يدل على أنَّ الحائض لا تُنَجِّس ما تتناوله من طعام أو شراب.

وقالت عائشة أيضًا: كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض، فيقرأ القرآن[2].

جواز الجماع بعد الطهر:

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، حتَّى يطْهُرن بانقطاع الدم، وفي قراءة: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[3] أي: يطَّهَّرن بالاغتسال، ولذلك الجمهور على أنَّه لا تباح المرأة، ولا يباح الاتصال بها، إلَّا بعد انقطاع الدمِّ، وبعد أن تغتسل.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، من الوجه الشرعي الَّذي أمركم الله، وهو القبل لا الدبر.

---

(١) رواه مسلم في الحيض (٣٠٠)، وأحمد (٢٤٣٢٨)، عن عائشة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (٢٩٧)، مسلم (٣٠١)، كلاهما في الحيض.

(٣) قرأ عاصم في رواية أبي بكر (شعبة) وحمزة والكسائي وخلف ﴿حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾ مشددة الطاء والهاء مفتوحة، وقرأ الباقون والبرجمي عن أبي بكر ﴿يَطْهُرْنَ﴾ خفيفة والهاء مضمومة. انظر: المبسوط في القراءات العشر صـ ١٤٦، نشر مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

الله يحبُّ التوَّابين ويحبُّ المتطهِّرين:

ثم ختمت الآية بهذا الختام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، يحبُّ التوَّابِين من الذنـــوب، وبذلك يتطهَّرون باطنًـــا، والمتطهِّرين من الحيض والجنابة، وبذلك يتطهَّرون ظاهرًا، فهم متطهِّرون ظاهرًا وباطنًا، ولذلك يحبهم الله تعالى.

والمجتمع المســـلم ليس مجتمع ملائكة مطهَّرين، ولكن من ابتلي منهم بارتكاب معصية، استتر بها، ولم يتبجَّح بفعلها، أو بالإعلان عنها، وبذلك ينحصر أثرها، ولا يتطاير شـــررها، ثمَّ يرجـــى منه بعد ذلك أن يتوب منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

الاستمتاع بين الزوجين:

ثمَّ يذكر القرآن العلاقة بين الرجل والمرأة، تلك المتعة الحسيَّة الجنسيَّة، لا يستنكف القرآن الكريم أن يعالج هذا الأمر بواقعيَّة ميسِّرة، فالقرآن كتاب حياة، وقد رأينا قبل ذلك كيف ذكر هذا الأمر وهو يتحدَّث عن الصوم: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. الرجل لباس للمرأة، والمرأة لباس له، كل واحد للآخر بمنزلة الستر والدفء والجمال والزينـــة، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، هنا يقول: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: محلُّ زرعكم لاسْـــتِنْبات الولـــد ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من قيام وقعود أو اضطجاع، وإقبال وإدبار، على شرط المضاجعة في الفرج.

كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل المـــرأة من ناحية الخلف، ولو كان ذلك في قُبُلها جاء الولد أحول[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢٨)، ومسلم في النكاح (١٤٣٥)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

والقرآن لا يمنع شيئًا من هذا ما دام الإتيان في الفرج، المهم أن يجتنب المسلم الحيض والدبر، وبعد ذلك له حق الاستمتاع في موضع الحرث، في موضع البذر، ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، كيف شئتم.

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، قدِّموا خيرًا تجدوا خيرًا، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾، احذروا أن تفعلوا ما نهى الله ﷻ عنه، المرأة ما دامت زوجة فالعلاقة الحسيَّة مباحة بين الزوجين، إن لم يكن هناك مانع شرعي، مثل الصوم، والإحرام.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾، يُذكِّر الله ﷻ بالآخرة، ودائمًا تقترن الأحكام الشرعيَّة بالتذكير بالتَّقوى، بالتذكير بالآخرة؛ لأنَّه لا يكفي أن تتعلم الحكم حتَّى تتعلم كيف تنفِّذه، وكيف ترعى الله تعالى فيه، ومن هنا يغرس الإسلام في نفسيَّة المسلم الشعور برقابة الله تعالى وتقواه، فالتَّقوى هي الحارس في تنفيذ الأحكام كلها، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾، فهو سائلكم عن كلِّ شيء، فحضِّروا للسؤال جوابًا، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم الَّذين استجابوا لأمر الله، وانتهَوْا عمَّا نهى الله تعالى عنه، هؤلاء لهم البشرى في الحياة الدُّنْيا وفي الآخرة، كما قال الله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

نسخة مجانية
غير مرخص للطباعة
QaradawiBooks.com

الدرس الثاني والثلاثون
الرضاع وعناية الإسلام بالطفل

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الرضاع حقٌّ من حقوق الطفل:

هذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن الطلاق، وعن الوالدات المطلقات، فربما أدى طلاق المرأة من زوجها وطلاق الرجل لامرأته إلى الإضرار بالطفل، تريد المرأة أن تكيد زوجها، والرجل يريد أن يضايق زوجته، ثمَّ تقع نتيجة هذا الخلاف على هذا الطفل الرضيع المسكين، ما ذنبه؟! فنزلت الآيات تنظِّم هذا الأمر.

فالقرآن ذكر قضيَّة إرضاع الأمَّهات للأولاد، وخصوصًا في حالة الفراق بين الزوجين، فقد تحاول الأمُّ أن تكايد زوجها ومطلِّقها، فتهمل ولدها منه، وهذا خبر بمعنى الأمر، فهن مأمورات بإرضاع أولادهن.

كثير من الأمَّهات في عالم اليوم وفي عصرنا هذا يؤثرن أنفسهنَّ على أطفالهنَّ، تريد المرأة أن تبقى رشيقة البدن كالغزال، بدل أن يتهدَّل ثديها

QaradawiBooks.com

وصدرها، تحرم طفلها من هذا الغذاء الربَّاني المعقَّم، الَّذي أنزله الله من صدرها يجري رزقًا صافيًا سائغًا لهذا الطفل الضعيف. تحرم الطفل من لبنها، ليتغذَّى على لبن صناعي، وهيهات أن يسُدَّ اللبن الصناعي مسدَّ اللبن الطبيعي الربَّاني.

والرضاعة ليست لبنًا فقط، إنّها إلصاق الأم طفلها إلى صدرها، إنّه لا يرضع لبنًا فقط، إنّه يرضع حنانًا وحنوًّا وعاطفة. هذا الضمّ هو الَّذي يُعطي الأمومة معناها.

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ أي: الأب ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ونحن نلاحظ تكرار كلمة «المعروف» في سياق أحكام الأسرة؛ لأن الأسرة يحكمها كما نرى في سورة البقرة في آياتها أمران أساسيان:

أمر إلهي، وهو الَّذي يسمِّيه القرآن: «حدود الله»، والمراد بها الأحكام الضابطة للعلاقة بين الزوجين، ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩، ٢٣٠]. أي: أن يقيما الأحكام الشرعيَّة من الأوامر والنواهي اللازمة الملزمة، الَّتي تُضبط بها مسيرةَ الحياة.

الأمر الثاني: المعروف، وهو: ما تعرفه الفِطَر السليمة، وما تعرفه العقول الرشيدة، وما يتعارف عليه أهل الخير والفضل من النَّاس. القرآن يقول: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]. ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٤١].

QaradawiBooks.com

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وهذا الحق للزوجة المرضعة، وكذلك للمطلقة.

وقد قال الله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

إنْ مات الأب قام بحقوق المُرْضِعة والطفلِ وارثُه:

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي على القريب الَّذي يرث من المولود له وهو أبو الرضيع إذا مات، فإن رزق الأم المرضِع وكسوتها بالمعروف، أي النفقة عليها في حالة الرضاع. فكما أنَّه يرث فيغنم ينفق فيغرم، والغنم بالغرم.

النهي عن الإضرار:

ثم تُقرِّر الآية قاعدة فقهية «لا ضر ولا ضرار»، يقول تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. الضرار: أن تتعمد الإضرار بغيرك، وخصوصًا في ساعة الخلاف والنزاع، ولذلك القرآن يقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وفي آية المداينة يقول: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهنا يقول: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. أي لا يجوز أن يضر كل واحد منهما صاحبه، أو يُضَر مِن صاحبه بسبب عطفه على ولده وحنوّه عليه.

فلا ينبغي أن يوقع الأب ضررًا على الأمِّ المرضع بسبب رضيعها، فيمنعها شيئًا من نفقتها أو حقوقها لعلمه بشفقتها عليه وحنانها له، أو

QaradawiBooks.com

يأخذ منها طفلها وهي تريد إرضاعه، ولا ينبغي أن يقع ضرر من المرضعة على الوالد، بأن تكلفه الأم بما لا تتسع له قدرته، تستغل حبه لولده.

تشاور الوالدين في شأن الفطام قبل السنتين:

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الفصال: هو فطام الطفل عن الرضاعة.

وقد حدَّدت الآيات مدَّة الرضاع بحولين كاملين، أي عامين هجريين، لمن أراد أن يتم الرضاعة، ولكن لو بعد سنة ونصف ما شاء الله نما جسمه ولا يحتاج إلى الرضاعة، وأرادا أن يفطما الولد، فلا جناح عليهما بعد تراضٍ منهما وتشاور.

لم يدع القرآن الأمر لأحد الأبوين هنا، فربَّما ملَّت المرأة من الإرضاع، وربَّما ملَّ الأب من دفع الأجرة والنَّفقة، فلم يترك الأمر لأحدهما، بل لا بدَّ أن يتراضيا ويتفقا معًا، ومع التراضي لا بدَّ من التشاور، أي يتشاوران معًا، ويُشاورا أهل المعرفة وأرباب التجربة في هذا الأمر: هل يحسن بالطفل أن يفطم قبل الحولين أو لا يحسُن؟ قد يقولون: يحسن لأن صحته جيدة ونموّه طيب. وقد يقولون: مثله يحتاج إلى رضاع أكثر. كلُّ هذا عناية من الله بالطفل.

يقول الإمام الفخر الرازي: «فانظر إلى إحسان الله تعالى بهذا الطفل الصغير، كم شرط في جواز إفطامه من الشرائط دفعًا للمضارِّ عنه! ثمَّ عند اجتماع كل هذه الشرائط لم يصرح بالإذن بل قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان كلَّما كان أكثر ضعفًا كانت رحمة الله معه أكثر وعنايته به أشد»[١].

(١) تفسير الرازي (٤٦٤/٦).

QaradawiBooks.com

الحياة الأسريَّة تقوم على الشورى:

والتنبيه على ضرورة التشاور والتراضي بين الزوجين فيما يتَّصل برضاع الأولاد وفطامهم، وإن كان بعد الطلاق بينهما من الروائع القرآنيَّة، فالإسلام يدعو إلى أن تقوم الحياة الأسريَّة على أساس من التشاور والتراضي، وذلك منذ بداية تكوين الأسرة.

وبعد بناء الأسرة ينبغي للزوجين أن يتفاهما ويتشاورا فيما يهمّ الحياة المشتركة بينهما، وفيما يهم كل واحد منهما على حدة، وفيما يهم حياة ذريتهما ومستقبلها.

والشورى في الإسلام ليست في الحياة السياسيَّة فقط، وإنَّما الشورى في كل الأمور، حتَّى داخل الأسرة، بين الزوج وزوجه، ينبغي أن يكون التراضي والتشاور. بل أقول: إنَّ الشورى السياسيَّة تبدأ من الأسرة، فإذا أردنا أن نقيم حياة سياسيَّة عادلة لا يستبدُّ فيها حاكم بمحكوم، ولا يطغى فيها فرد على جماعة، لا بدَّ أن نبدأ من الأسرة، نعلِّم أولادنا ونربيهم على الشورى، وعلى إبداء الرأي، نأخذ رأيهم، ندربهم على الشورى.

وكذلك على الزوج أن يشاور زوجته، ولا ينبغي له أن يستهين برأيها، كما يشيع عند بعض النَّاس، فكم من امرأة كان في رأيها خير وبركة على أهلها وقومها.

وقد شاور النبي ﷺ خديجة في أوَّل ساعات الوحي، فما كان أحصف رأيها! وما أعقل كلماتها الَّتي قالتها للنبيِّ ﷺ. طمأنته بجميل كلامها ثمَّ أخذته إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل، ليُطمئنه ويُبَشِّره[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٥٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وشاور ﷺ أم سلمة يوم الحديبية، في أمر من أخطر أمور الأمة، وأشارتْ عليه بالرأي الصواب، وكان فيه الخير كلُّ الخير[1].

غير مرخصة للطباعة

الاسترضاع وحكمه:

ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. أي: إذا أردتم أن تسترضعوا لأولادكم مرضعات ـ كما كان يفعل أهل الشرف ـ فهو أمر مباح، إذا سلم الوالد المرأة المرضع أجرها الَّذي اتفقت عليه.

عناية الإسلام بالإنسان من مهده إلى لحده:

وهكذا نجد القرآن ينظم شؤون الحياة، ينظم شؤون هذا الطفل الرضيع بهذه الآية المطوَّلة.

وهذا يدلُّنا على أنَّ الإسلام جاء يُنظِّم حياة الفرد، وحياة المجتمع، وحياة الإنسان كلها، إنَّه يصحب الإنسانَ من مهده إلى لحده، من حياة الطفولة إلى حياة الشيخوخة، بل حتَّى قبل المهد وبعد اللحد، قبل الحياة هناك أحكام تتعلق بالجنين في بطن أمِّه، وبعد أن يموت الإنسان هناك أحكام الجنائز تتعلَّق بالإنسان بعد وفاته، تكفينه، وغسله، والصلاة عليه، ودفنه في مقابر المسلمين، وتنفيذ وصيَّته، وقضاء ديونه، إلخ.

أسال الله أن يُعَلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [١١٤].

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري في الشروط (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة ومروان.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثالث والثلاثون
من أحكام المرأة المتوفَّى عنها زوجها ومتعة المطلقات

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۞ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٠ ـ ٢٤٢].

هذه الآيات تتمَّة لما اهتمت به السورة، وعُنيت به أبلغ العناية، وهو موضوع الأسرة، والعلاقات الزوجيَّة.

النساء اللائي تُوُفِّي عنهن أزواجهن:

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

الأزواج: جمع زوج.

وكلمة زوج في اللغة العربيَّة تصلح للرجل، وتصلح للمرأة، الرجل زوج، والمرأة زوج، وكأنَّ من أسرار ذلك أنَّ كلّ واحد منهما يمثِّلُ الآخر، فهُما في الصورة فردٌ وفي الحقيقة زوج.

﴿ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ [البقرة: ٢٤٠] أي: زوجات بالتعبير المعتاد عندنا، هؤلاء الَّذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا عليهم أن يوصوا ﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. أو يوصيهم الله

نسخة مجانية

تعالى ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. فهذه الوصيَّة، إمَّا من الله تعالى، وإمَّا من الأزواج لصالح زوجاتهم من بعدهم. هذه الوصيَّة: ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ أي: متاعًا لمدة حول كامل، يتمتعن بالسكنى، بالإقامة في بيت الزوجيَّة، لا يخرجهن أحد من هذا البيت، إلَّا إذا أردن هن أن يخرجن، فإن خرجن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. الأمر في ذلك راجع لهن، هنَّ مخيرات إن أردن أن يبقين في بيت الزوجيَّة لمدة سنة، فلا بأس بذلك، وإن رغبن في الخروج بعد اكتمال العدة أربعة أشهر وعشرًا، فلا مانع أيضًا.

القول بنسخ الآية:

وقد ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ هذه الآية منسوخة بالآية الَّتي سبقت من قبل، والَّتي تحدِّد العدَّة بأربعة أشهر وعشرًا، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. قالوا: الآية السابقة نسخت الآية اللاحقة، ذهب إلى ذلك كثيرٌ من المفسرين.

ولكنَّ عددًا من مفسري السلف ومنهم مجاهد ـ المفسِّر التابعي الكبير ـ وعطاء، قالوا: إنَّ هذه الآية غير منسوخة[1]. الآية السابقة تحدِّد العدَّة الَّتي تنتظرها المرأة ولا يجوز لها أن تتزوَّج قبل مرور هذه العدَّة، أربعة أشهر وعشرة أيام، لا يجوز لها أن تتعرَّض للخِطبة إلى أن تنقضي هذه المدَّة، وهي مدَّة حداد بالنسبة للمرأة المتوفى عنها زوجها، تقضيها

(١) تفسير القرطبي (٢٢٦/٣).

QaradawiBooks.com

في بيت الزوجيَّة جبرًا، ولا تخرج منه إلَّا لضرورة، وإلا لحاجة، وتترك الزينة والطيب والتعطُّر، ولا تتعرض للخُطَّاب، وفاءً للحياة الزوجيَّة السابقة، هذا أمرٌ مفروض عليها، ذلك ما ذكرته الآية السابقة.

أمَّا هذه الآية فتذكر شيئًا آخر، وهو أنَّ من حقِّها أن تبقى في بيت الزوجيَّة مدَّة سنة تكملة الحول، سبعة أشهر وعشرين ليلة، كما جاء عن مجاهد[1]، هذا حقٌّ لها، وما جاء في الآية الأولى واجبٌ عليها، ولا تنافي بين الأمرين، الحقُّ هنا لا ينافي الواجب هناك. فهي بعد الأربعة أشهر وعشرة أيام مخيَّرة فيه، أمَّا قبل الأربعة أشهر وعشرة أيام ففرض عليها، إلَّا أن تكون حاملًا، فعدتها وضع الحمل، متى وضعت الحمل انتهت عدتها، طالت المدة أم قصرت، فهنا يذكر الله ﷻ هذه الوصيَّة للأزواج بعد وفاة أزواجهن.

عناية الإسلام بالمتوفَّى عنها زوجها:

وفي هذه الأحكام عناية من الله ﷻ بالنساء المتوفى عنهن أزواجهن، فقد كانت المرأة المتوفى عنها زوجها تعامل في الجاهليَّة معاملة سيئة، وتمكث في أردأ الأماكن، وتؤدي كثيرًا من الطقوس الغريبة الَّتي لا معنى لها.

عن أمِّ سَلَمَة قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ ابنتي تُوُفِّي عنها زوجها، وقد اشتكت عينها، أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا**». مرَّتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «**لا**». ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكنَّ في الجاهليَّة ترمي بالبَعْرَةِ على رأسِ الحَوْل**».

قال حميد: فقلت لزينب (هي ابنة أم سلمة، وراوية الحديث عنها):

(١) رواه الطبري في التفسير (٥/٢٥٨).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وما ترمي بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا تُوُفِّي عنها زوجها دخلت حِفْشًا (بيتًا صغيرًا) ولبست شرَّ ثيابِها، ولم تمسَّ طيبًا ولا شيئًا، حتَّى تمرَّ بها سنة، ثمَّ تؤتى بدابَّةٍ حمار أو شاة أو طائر فتفتضُّ به، فقلَّما تفتضُّ بشيء إلَّا مات، ثمَّ تخرج فتُعطى بعرةً، فترمي بها، ثمَّ تُراجع بعدُ ما شاءت من طِيبٍ أو غيره[1].

فخفَّف الله عن النساء، وجعل لها هذه الوصيَّة، فالأولى أن تبقى هذه الآية محكمة دون أن يقال بالنسخ، واللفظ يساعد على هذا، وهذا ما رجَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، كما نقل ابن كثير[2].

ولا معنى لأن ننسخ الآيات بالظنِّ، لا نقول بنسخ آية ما لم يكن هناك يقينٌ بالنسخ، وإذا وُجد تعارض حقيقي بين النصَّين الناسخ والمنسوخ، بحيث لا يمكن الجمع ولا التوفيق بينهما، حينها نقول بالنسخ، وهنا يمكن الجمع والتوفيق بين الآيتين بسهولة.

ختام الآية:

ثم ختمت الآية بهذا الختام: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. عزيزٌ غالبٌ، فلا بدَّ أن يطاع فيما أمر، حكيمٌ في كلِّ ما يأمر به وينهى عنه، وما يشرعه لعباده من شرائع وأحكام.

حقُّ المتعة للمطلقة:

ثمَّ يقول الله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]. وهذا أمرٌ آخر من أمور الأسرة، وحقوق من حقوق المطلقة، المرأة الَّتي كُسِرَ قلبها بالطلاق ينبغي أن تعوَّض.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٣٣٦، ٥٣٣٧)، ومسلم (١٤٨٩)، كلاهما في الطلاق، عن أم سلمة.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦٥٩/١).

QaradawiBooks.com

والطلاق أبغض الحلال إلى الله، ولا ينبغي أن يُلجأ إليه إلَّا لحاجة، فهو أشبه بعمليَّة جراحية، ومن ثمَّ فلا يُقدم أحدٌ على هذا إلَّا لحاجة ملحَّة، وهذا هو شأن الطلاق، وإذا كُسرت مشاعر المرأة بالطلاق، فينبغي أن تُمتع وأن تُعوَّض، هذا لكلِّ المطلقات.

وقد ذُكرت المتعة في آية أخرى سبقت في السورة نفسها قبل ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وهي خاصَّة بالنساء اللاتي لم يُفرض لهن مهر، وطلقن قبل الدخول، لهذا النوع من النساء. أمَّا هذه الآية، فهي لباقي المطلقات، ولا تنافي بين التعميم والتخصيص، خصص أولئك لمزيد عناية بأمرهن، ولكن هذه الآية ـ كما ذهب عدد من مفسري السلف ـ تشمل كلَّ المطلقات، وهذا هو الَّذي يطمئنُّ إليه القلب، أن تعوَّض المرأة المطلقة.

ولكن بماذا تعوض؟ وبكم تعوض؟ لم يحدِّد ذلك القرآن، القرآن في كثير من أمور الأسرة يتركها للعرف أو بالتعبير القرآني: «المعروف»، أي ما تعرفه الفطر السليمة، ما يعرفه أهل الصلاح من النَّاس، ما يحكم به العقلاء.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾. فليس إذن هو مندوبًا ومستحبًّا، كما يقول كثير من الفقهاء، ولكنَّه حقٌّ، وحق عليهم، فكلمة «حق» وكلمة «على» في الآية ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تفيد الإلزام، وهذا الَّذي ينبغي أن يكون.

ثم يختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]. هكذا يُبيِّن القرآن، وهكذا يُبيِّن الله آياته

QaradawiBooks.com

للنَّاس ليعقلوا وليهتدوا، الله أنزل هــذا الكتاب للنَّاس ليتعلموا، ليهتدوا إلى الشــرع الحكيــم، والمنهج القويم فــي حياتهم الفرديَّة والأســريَّة والاجتماعيَّة، وبذلك يكون هذا شفاء ورحمة لهم، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الرابع والثلاثون
قصَّة الملأ من بني إسرائيل

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

أسلوب القرآن القصصي:

هذه السورة الكريمة «سورة البقرة» حافلة بالقَصَص لما فيه من العِبَر، والقرآن هنا ـ بل في سائر قصصه ـ لا يذكر أين وقعت هذه القصَّة، ولا في أي زمان وقعت، ولا من هم أصحابها.

القرآن ليس كالتوراة الَّتي تذكر تفاصيل الأحداث وأسماء الأشخاص والأماكن والأنساب، إلخ؛ وذلك لأنَّ المهمة الَّتي يقصدها القرآن من سرد القصص، ليس الإحاطة بالوقائع وزمانها ومكانها وأشخاصها، القرآن ليس كتاب تاريخ، إنَّه يَذْكُرها للعبرة، لالتماس العظة، فمن هنا ذكر هذه القصَّة بهذا الإجمال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

كانوا جموعًا كثيرةً، وخرجوا من الديار حذر الموت، خافوا من الوباء، أو خافوا من الجهاد، وأرادوا أن يفروا، ولكن الموت الَّذي فروا

QaradawiBooks.com

منه واجههم، وجدوه أمامهم، فأماتهم الله، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾، لأنَّ أحدًا لا يفر من الموت، ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النساء: ٧٨]. ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ﴾ [الجمعة: ٨].

كما قال ذلك الأعرابي لابنٍ له وقد فرَّ من وباء كان في قريته، وفي الطريق أرهقه التعب، فنام تحت شجرة يستريح، فلدغته أفعى فمات، فقال:

رَاحَ يَبْغِي نَجْوَةً ... مِنْ هَلاكٍ فَهَلَكْ
وَالْمَنَايَا رَصَدٌ ... لِلْفَتَى حَيْثُ سَلَكْ
كُلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ ... حِينَ تَلْقَى أَجَلَكْ[1]

لا يفرُّ الإنسان من الموت، هؤلاء الَّذين فرُّوا من الوباء أو الجهاد، ما كان ينبغي لهم، ولذلك أراهم الله آيةً وأماتهم.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾. وأَمْرُه سبحانه بين الكاف والنون، ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣].

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. الله تعالى قال لهم: موتوا. فماتوا، ثمَّ أراد الله أن يُري النَّاس آية أخرى، فأحياهم بعدما أماتهم، والإحياء والإماتة من الله ﷻ، وهو قادر على أن يحييهم كما أحيا النَّاس أوَّل مرَّة، وهو قادر على أن يحييهم بعدما أماتهم وهو أهون

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه (١٤٣/٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

QaradawiBooks.com

عليــه، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الــروم: ٢٧]. ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]. وهذا يعطي النَّاس عبرة، ويقرب لهم مسألة البعث والنشور.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إنَّ الله ذو فضــل على النَّاس حيث ينبههم لمثل هــذا القصص، يُذكرهــم إذا غفلوا، ويُعلِّمهــم إذا جهلوا، ويُبصِّرهم إذا عموا، يذكر لهم هذه العبر، ويريهم هذه الآيات، وهذا من فضل الله تعالى على النَّاس، وما أعظم فضل الله تعالى على الناس! وما أكثر نعمه على الناس!

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. كان على النَّاس أن يقابلوا النعمة بالشــكر، ولا يقابلوها بالجحود أو الكفران، ولكن الَّذي يؤسف حقًّا، والَّذي ينقطع له نياط الفؤاد، أنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون! القليل من النَّاس فقط هــم الَّذين يشــكرون، ولهذا قال الله تعالى فــي آية أخرى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

نسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الخامس والثلاثون
آية الكرسي

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

من فضائل سورة البقرة:

لا زلنا نعيش في رحاب سورة البقرة، أطول سورة في القرآن الكريم، والسورة الَّتي تشتمل على أطول آية في كتاب الله، وهي آية المداينة، وتشتمل على أعظم آية في كتاب الله، وهي آية الكرسي، وعلى آخر آية نزلت في كتاب الله، كما ورد عن ابن عبَّاس، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١][1].

وهي السورة الَّتي اشتملت على أحكام العبادات والسياسات المختلفة الَّتي تنظم المجتمع المسلم وفق أوامر الله تعالى ونواهيه.

ففي هذه السورة من الأحكام أحكام العقائد وأحكام العبادات وأحكام المعاملات، وفيها من القصص ما لا يوجد في غيرها من السور،

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٥٤٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولذلك جاءت الأحاديث في فضل سورة البقرة، «**إنَّ الشيطانَ ينفر من البيت الَّذي تُقْرأ فيه سورةُ البقرة**»[١]، وهي سَنَام القرآن[٢].

بعث النبي ﷺ جماعة من الصحابة في سرية، وكان فيهم شاب تفرَّس فيه النبي ﷺ الخير، فسأله: «**ماذا معك من القرآن؟**» قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، فقال له ﷺ: «**أمعك سورة البقرة؟**» قال: نعم، قال: «**اذهبْ، فأنت أميرهم**»[٣].

ما دام معك سورة البقرة اذهب فأنت أميرهم، وكان الصحابة إذا حفظوا السورة لم يحفظوها حفظ حروف، ولكن كانوا يتعلمون أحكامها ويطبقونها، هذه كانت طريقتَهم وكان هذا منهجَهم في حفظ القرآن الكريم.

وحينما حفظ سيِّدنا عمر بن الخطاب البقرة نحر جزورًا[٤]. وحينما كنا صغارًا كنا إذا ختمنا سورة البقرة نقيم حفلة، توزع فيها الحلوى و«الشربات»، ونسمِّيها بالتعبير المعتاد عندنا: «الختمة الصغيرة»، أي الختمة الصُغْرى للقرآن، فإذا ختمنا القرآن كله فهذه الختمة الكبرى، ونسميها: «الختمة الكبيرة».

فضل آية الكرسي:

ونحن اليوم مع أعظم آية في سورة البقرة، آية الكرسي، وهي الآية الَّتي يقول الله تبارك وتعالى فيها: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ

(١) رواه مسلم في الصلاة (٧٨٠)، عن أبي هريرة.
(٢) سبق تخريجه صـ٤٨.
(٣) سبق تخريجه صـ٤٧.
(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٨٠٥).

QaradawiBooks.com

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه الآية المعروفة بـ «آية الكرسي»، وقد سأل النبي ﷺ أحد أصحابه من القراء من الأنصار سيِّدنا أُبَيَّ بن كعب، قال له: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال: «**والله لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر**»[(١)].

أدرك سيِّدنا أُبَيّ بن كعب بفطرته وتأمُّلِه في كتاب الله أنَّ أعظم آية فيه هي هذه الآية.

تفاضل الآيات والسور:

وآيات القرآن وسوره تتفاضل، وقد قال النبي ﷺ في فضل سورة الإخلاص: «**والذي نفسي بيده إنَّها لتعدل ثلث القرآن**»[(٢)].

لماذا تتفاضل آيات القرآن وسوره؟ يبدو أنَّ الآيات الَّتي تشتمل على الثناء على الله ﷻ لها فضلها ومنزلتها، سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ من القرآن، وبعدها سورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لماذا كانت ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أفضل؟ لأن ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تتحدث عن الألوهيَّة وعن الوحدانيَّة وعن التنزيه، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. لا والدة له ولا ولد

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٠)، وأحمد (٢١٢٧٨)، عن أبي بن كعب.

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٣)، عن أبي سعيد الخدري.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

له، ولا له أحد يكافئه، أو يشابهه، أو يساويه، لا ندّ له، ولذلك كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن. وكان للفاتحة فضلها، وسمِّيت أم القرآن؛ لأنَّها مشتملة على الثناء على الله.

وهذه الآية «آية الكرسي» تتحدث أيضًا عن الله وعن صفاته.

لا يوجد كتاب ديني تحدث عن الله مثل القرآن:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. لا يوجد كتاب ديني، كتاب مقدس، يشتمل على الثناء على رب العالمين، ووصفه بكل كمال، وتنزيهه عن كل نقص، كما يشتمل القرآن الكريم.

«الله» لفظ الجلالة، هذا العلم على الذات الإلٰهيَّة، ذكر في القرآن ألفين وستمائة وسبعة وتسعين مرَّة، في أي كتاب سماوي يوجد هذا العدد (٢٦٩٧)[١]؟

اقرأ التوراة الَّتي بين أيدي النَّاس وانظر اسم الجلالة «الله» كم مرَّة ورد فيها؟ كم فيها من الثناء على الله، ولا تكاد تجد فيه ذكر للآخرة ولا للحساب ولا للجنَّة ولا للنار نادرًا جدًّا ما تجد ذلك. وتجده يقول: ربُّ إسرائيل، أو ربُّ الجنود. لا ربُّ العالمين، ولا ربُّ النَّاس، أو ملك النَّاس، أو إلٰه النَّاس.

هذا فقط بالنسبة للفظ الجلالة، فإذا ما نظرت إلى أسماء الله الحسنى: العزيز والحكيم والقدير والسميع والعليم والبصير واللطيف والخبير هذه كم تكررت؟ تجدها تكررت آلاف المرات. والعلامة المجتهد اليمني ابن الوزير في كتابه «إيثار الحق على الخلق» يقول: من يتتبع الأسماء الحسنى في القرآن يجدها تزيد على مائتين وثلاثين اسما لله ﷻ.

(١) انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم مادة (أ. ل. هـ).

QaradawiBooks.com

لا يوجد ثناء على الله كما في القــرآن الكريم، لا في التوراة ولا في الإنجيل.

وهذا غير أوصــاف الله وأفعاله في القرآن تقــرأ في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

فالقرآن مشحون بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العُلا، وعلى تمجيد الله ﷻ بأســاليب شــتَّى، لا يمكن أن تجدها في أيِّ كتــاب في الدُّنيا، الكتاب الَّذي يصلك بالله، يصل عقلك ووجدانك وضميرك بالله، بحيث تكون دائمًا مع الله راغبًا راهبًا، خائفًا طامعًا، هو القرآن الكريم.

آية الكرسيِّ كلُّها وصف لله وثناء عليه:

آية الكرسي فيها عشر جمل كلُّها ثناء على الله، أوَّل جملة:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. إثبات التوحيد، لا شريك لله، ولا ندَّ مع الله.

الذي أفســد الحياة وأفســد الأحياء وأفســد الخلق هو الشرك، البشريَّة ما كانت تعاني من الإلحاد، الملحدون الَّذين يجحدون وجود الله هؤلاء في كل أزمنة التاريخ قلَّة لا وزن لها، قلَّ أنْ يوجد من ينكر وجود الله، إنَّما المشكلة كانت فيمن يشرك مع الله آلهة أخرى، يعبدها

QaradawiBooks.com

مع الله، أو من دون الله. هناك من عبد الأصنام، وهناك من عبد الملائكة، ومن عبد الأفلاك كالشمس والقمر، ومن عبد الحيوانات، كالعجول والأبقار عند المصريين القدماء وعند الهنود إلى الآن، ومن عبد الأشجار، ومن عبد الأنهار، ومن عبد الشيطان، ومن عبد الفروج، هذه هي المشكلة أنَّهم تركوا الإلٰه الحق وعبدوا آلهة مزيفة، وزعموا أنَّها تشفع لهم عند الله، فجاء الأنبياء يقررون التوحيد، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

جاء الإسلام يقرر التوحيد بما لم يقرره دين آخر، حتَّى جعل التوحيد في الأذان كل يوم خمس مرات، في الأذان والإقامة. وفي التشهد: أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وحينما يولد الإنسان يُستقبل بالأذان، يُؤذَّن في أذنه اليمنى، ويُقام في أذنه اليسرى. وحين يحتضر الإنسان، قال ﷺ: «**لقنوا موتاكم** ـ أي: مُحْتَضَريكم ـ **لا إلٰه إلَّا الله**»[1]. فهو يستقبل الحياة بالتوحيد، ويودِّع الحياة بالتوحيد.

ولذلك كانت أوَّل جملة في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. لا يُعبد أحد غيره، ولا يستحق العبادة سواه؛ لأنَّه الخالق المنعم بالنعم كلها صغيرها وكبيرها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. هذه هي الجملة الأولى.

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩١٦)، وأحمد (١٠٩٩٣)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

إثبات الحياة والقيومية لله ﷻ:

الجملة الثانيــة: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقــرة: ٢٥٥]. هذا الإلٰه ليــس جمادًا من الجمادات مثل الأصنام الَّتي يعبدها العرب، ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. ويقولون أيضًا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. لا، بل هو إلٰه حي، أي حياة هذه؟ ليست هي حياتنا، الحياة عندنا لها مظاهر معينة، التغذية والتنفس والإخراج، إنَّما حياة ربنا ليســت كحياتنا، وصفات ربنا كلها ليست كصفاتنا، له علم ولكن ليس كعلمنا، له قدرة ولكن ليست كقدرتنا، له رحمة ولكن ليست كرحمتنا، هو شيء يتعلق بألوهيته.

هو حي حياة الألوهيَّة، ليس كالأصنام، وليس كآلهة الفلاسفة.

الفلاســفة دائمًا يعرفون الله بالســلب، وأخذ عنهم ذلــك المعتزلة وغيرهم، يصفون الله بالسلوب، ما معنى السلوب؟ أنَّهم يقولون: الله ليس بجسم ولا حالًّا في جسم، وليس بجوهر، وليس بعرض، وليس متحيّزًا، وليس، وليــس، فما هــو إذن؟ لا يُفَصِّلون في الإثبــات، عندهم النفي المُفَصَّل، والإثبــات المُجْمَل، القــرآن على عكس ذلــك، عنده النفي المُجْمَل والإثبات المُفَصَّل.

النفي المُجْمَل مثل قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشــورى: ١١]. وقوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤]. أمَّا الإثبات فمفصل، حتَّى عد ابن الوزير أسماء الله في القرآن فزادت على مائتين وثلاثين اسمًا.

﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾: إثبات الحياة لله ﷻ، وإثبات القيومية له سبحانه.

و﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: صيغة مبالغة كما يقول علمــاء اللغة، إنَّه هو الَّذي يقوم على كل شــيء، القائم على كل نفس بما كســبت، والقائم على الحياة

QaradawiBooks.com

كلها، على السماوات وعلى الأرض، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢].

ليس كإلٰه الفلاسفة، ليس كإلٰه أرسطو، الَّذي لا يدبّر في هذا العالم أمرًا، فإلٰه أرسطو لا يعلم إلَّا ذاته فقط، يتأمل في نفسه، إنَّما لا علاقة له بالعالم، لا يعرف ما يجري فيه، ولا يدبِّر فيه أي شيء، ولذلك يقول مؤرخ الفلسفة «وِل ديورَانْت»: يا لإلٰه أرسطو من إلٰه مسكين، إنَّه لا يعرف شيئًا في العالم، ولا يدبِّر فيه شيئًا، إنَّه أشبه بملك الإنجليز يملك ولا يحكم[1]. أيُّ إلٰه هذا؟ أمَّا إلٰه القرآن فحي قيوم.

ذكر اسمَي الحي القيوم في القرآن:

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. هذان الاسمان ذُكرا في القرآن ثلاث مرات: المرة الأولى هنا في آية الكرسيّ، والمرة الثانية في أوَّل سورة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]. والمرة الثالثة في سورة طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

نفي النوم ومبادئه عن الله:

الجملة الثالثة: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: من دلائل كمال حياة هذا الإلٰه، وكمال قيوميته: أنَّه لا يعتريه ما يعتري البشر، من نقصان، ومن قصور، ومن فتور، ومن غفلة، ومن ضعف، فإنَّهم يعتريهم النوم، الإنسان لا بدَّ أن يأتي عليه وقت ينام فيه، ولكن الله تعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

---

(١) انظر: مباهج الفلسفة صـ ١٦١، ١٦٢، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م. وراجع في تفصيل ذلك كتاب: الله في نشأة العقيدة الإلٰهية للعقاد صـ ١٤١ ـ ١٤٤، فصل: الفلسفة، نشر المكتبة العصرية، بيروت.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

السِّـــنة: أوَّل النعاس، أو النعـــاس الخفيف، والنوم حينما يســـتغرق الإنسان في نومه ويذهل عن كل ما حوله ومن حوله.

الله ﷻ لا يغفـــل عن هذا الكون بســـمائه وأرضه، بإنســـانه وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه، لا يغفل طرفة عين، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهذا من تمام القيوميَّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

تفرد الله بالمِلْك والمُلْك:

الجملـــة الرابعـــة: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. كل ما في هذا الكون لله تعالى مِلكًا ومُلـــكًا، هو المالك، وهو الملك، فهو مالك يوم الدين، وهو ملك يوم الدين، هو في الآخرة المالك والمَلِك، وهو في الدُّنْيا أيضًا المالك والمَلِك، لا أحـــد ينازعه، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقال فـــي الآية الأخـــرى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونـــس: ٥٥]. وقـــال بعدهـــا: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦].

وكلمة «ما» في اللغة العربيَّة في الغالب تكون لغير العقلاء، و«من» للعقلاء، لكن إذا ذُكِرَ ما في السماوات وما في الأرض فإن ذلك يشمل العقلاء وغير العقلاء، فله ما في الســـماوات وما في الأرض، ومن في السماوات ومن في الأرض، وله ما بعد السماوات والأرض، لأنَّه جاء في الحديث الصحيح أنَّ النبـــيَّ ﷺ كان يقول حينما يقوم من الركوع:

QaradawiBooks.com

«**اللهمَّ ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد**»(١).

هناك أشياء غير السماوات والأرض، هناك الكرسي والقلم واللوح المحفوظ، وغير هذا ممَّا يعلمه الله. الله له هذا كله، لا ينازعه أحد، لا شريك له في ملكه، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يفعل ما يشاء، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممَّن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء. هذا الكون ملكه يتصرف فيه كما يشاء، يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: وما دام له ما في السماوات وما في الأرض، يجب على النَّاس أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئًا.

العرب في الجاهليَّة كانوا يُقِرُّون بأن لله ما في السماوات وما في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. ومع هذا يعبدون مع الله آلهة أخرى. ما دُمتم تقرُّون بأن له ما في السماوات وما في الأرض، لماذا تشركون به آلهة أخرى؟!

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: فيجب أن يُعبد وحده.

الشفاعة لله وحده، ولا يشفع أحد إلَّا بإذنه:

والجملة الخامسة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. الَّذي أفسد الأديان فكرة الشفاعة، دخلت فكرة الشفاعة عند الوثنيين، وانتقلت منها إلى أهل الكتاب، الشفاعة الشركيَّة: أن هناك شفعاء

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦)، عن عبد الله بن أبي أوفى.

QaradawiBooks.com

يفرضون إرادتهم على الله، من أرادوا أن يشفعوا له، فإن الله يستجيب لهم ويُشفِّعهم فيمن يَشفَعون له، وكأن الله تحت سلطانهم، لا، هذه فكرة مرفوضة، القرآن رفضها في آيات كثيرة: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤]. ولذلك من الدلائل على أن له ما في السماوات والأرض أنَّه يملك أن يُشَفِّع من يشاء ويرفض شفاعة من يشاء.

هناك من رفض فكرة الشفاعة كُلِّيًّا وأوَّل الآيات الَّتي جاء فيها ذكر الشفاعة؛ المعتزلة قديمًا، والدكتور مصطفى محمود حديثًا، أنكروا الشفاعة في الآخرة، وقالوا: إنَّ الشفاعة تدل على المحسوبية، وربنا ليس عنده محسوبية، بل عنده العدل المطلق.

ولكن هذا ليس صحيحًا، ربنا عنده العدل المطلق، ولكن عنده مع العدل الفضل والإحسان والرحمة، ولذلك المعاملة مع السيِّئة غير المعاملة مع الحسنة، جاء في بعض الآثار الإلٰهيَّة عن الله ﷻ أنَّه قال: «**الحسنةُ عندي بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيِّئة عندي بواحدة**»[1]. انظروا إلى الفرق بين الاثنين، هذه تضاعف إلى سبعمائة ضعف ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ولكن السيِّئة بواحدة وقد يعفو الله عنها فلا يعاقب عليها، وقد يمحوها بالمكفرات، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. فتمحى بالصلاة، وتمحى بالوضوء، كما جاء في الحديث الصحيح عن عثمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضَّأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده، حتَّى تخرج من تحت أظفاره**»[2].

(١) مدارج السالكين (٢١٢/١).

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٤٥)، وأحمد (٤٧٦).

QaradawiBooks.com

وتُمحى بصيام رمضان وقيامه، قال ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من ذنبه**»(١). وقال ﷺ: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدَّم من ذنبه**»(٢).

وتُمحى بالحجِّ والعمرة، قال ﷺ: «**من حجَّ ولم يرفُثْ ولم يفسُق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه**»(٣).

وقال ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفَّارة لما بينهما، والحجُّ المبرورُ ليس له جزاء إلَّا الجنَّة**»(٤).

كل هذه حسنات يذهبن السيِّئات، وغيرها كثير، وهذا كلُّه من فضل الله تعالى على عباده.

وفي الآخرة نحن نعتمد على فضل الله، فهناك العدل، ولكن هناك الفضل أيضًا، وقد صحَّ في الحديث عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ لله مائةَ رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجنِّ والإنس والبهائم والهوامِّ، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة**»(٥). فنحن ننتظر رحمة الله ورحمانيَّته في الآخرة.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في صلاة التراويح (٢٠١٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في صلاة التراويح (٢٠٠٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٤) متَّفق عليه: رواه البخاري في العمرة (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، عن أبي هريرة.

(٥) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾: هناك شفاعة ثابتة، لكنها بإذن الله، ووفق إرادته، ولمن يرضاه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]. ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. فلا شفاعة إلَّا بإذن الله.

ولا شفاعة لمشرك، من أشرك مع الله إلٰهًا آخر لا تنفعه شفاعة الشافعين، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. لا يُشفع إلَّا لأهل التوحيد، ومن هنا قال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. من ختم حياته بالتوحيد، مات على التوحيد؛ فهو الَّذي يستحق الشفاعة، ولكن لا يفرض أحدٌ شفاعةً على الله تعالى، الله يقبل شفاعة من شاء من عباده، ويرد شفاعة من يشاء، هذا فضله ﷻ ورحمته وهذا عدله.

سَعَة علم الله تعالى:

والجملة السادسة: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. القرآن يُعبِّر عن الماضي بكلمة «ما بين أيديهم»، كما في قوله تعالى عن الإنجيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦]. أي: مُصدِّقًا لما مضى، والخَلف والوراء هو المستقبل؛ لأنَّه مجهول، فالله تعالى يعلم ماضيهم ويعلم مستقبلهم، ويعلم كل شيء، يعلم الظاهر، ويعلم الباطن، يعلم ما كان، ويعلم ما سيكون، لا يغيب عن علمه شيء، ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

الفلاسفة ـ كما قلنا ـ يقولون: إنَّ الله لا يعلم إلَّا ذاته، أو يعلم الكليَّات، ولا يعلم الجزئيَّات. والقرآن يقول: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. هذا علم

QaradawiBooks.com

الله ﷻ، كيف يعلم هذا؟ لا نعلم، البشر اخترعوا آلة جديدة اسمها «الكمبيوتر» أو «الحاسوب»، انظروا ماذا تُخزِّن من المعلومات؟ شيء مذهل، إذا كان البشر فعلوا هذا، فبماذا نصف علم الله ﷻ؟ الله يعلم كل شيء.

عدم إحاطة المخلوقات بأدنى شيء من علم الله:

والجملة السابعة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، هو يعلم كل شيء، إنَّما هم لا يعلمون إلَّا ما شاء أن يعلمهم به، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي لا يحيطون بأدنى شيء من صفة علمه، أو ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ أي: من معلوماته، فالعلم دلالة على المعلوم، كما نقول: الخلق أي: المخلوق، واللفظ أي: الملفوظ، فلا يعرفون شيئًا من معلومات الله إلَّا ما أعلمهم الله به، عن طريق الوحي، أو عن طريق الوسائل الأخرى، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فهذه وسائل العلم، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

سعة الكرسي:

والجملة الثامنة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. كرسيُّ الله ﷻ وسع السماوات والأرض.

ما الكرسي؟ هل هو العرش؟ الإمام الحسن البصري يقول: العرش هو الكرسي[1]. وأنا ربَّما أميل إلى هذا، والبعض يقول: الكرسي دون العرش. العرش أعظم من الكرسي.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٣٩٩/٥).

QaradawiBooks.com

وورد عن ابن عبَّاس رضي الله عنه أن قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ أي: علمه[1]، يعني أوَّل معنى الكرسي، وذلك يعني أن من السلف مَن أوَّل، مِن الصحابة مَن أوَّل، ولذلك ينبغي ألَّا نجعل هذه القضيَّة معركة كما نرى عند بعض إخواننا، الَّذين جعلوا من صفات الله الخبرية معركة بين السلف والخلف؛ بين المتُأوِّلين والمثبتين، بين من يُفوِّض الأمر لله، ومن يثبت ما أثبته الله، وبين من يؤوِّل.

الأمر يتَّسع لهذا كله، وأسلم شيء أن نقف عند ما جاء به القرآن ولا نزيد عليه، فالأمر من عالم الغيب، وينبغي أن نؤمن به، ولا نجادل فيه، ولا نتعمَّق، ولا نتوسَّع، حسبنا أن نؤمن به.

كلمة عن عالم الغيب:

وفوق هذا الخلاف الإسلامي بين علماء المسلمين، الَّذي يدور فيه الأمر بين الأجر والأجرين، هناك معركة أخرى وخلاف آخر، وهي أن بعض النَّاس يكفرون بكل ما جاء من غيب، يؤمنون بهذا العالم المنظور المُحَسّ، الَّذي تراه بعينك، وتسمعه بأذنك، وتشمه بأنفك، وتذوقه بلسانك، وتلمسه بيدك، وما عدا ذلك لا يؤمنون به، وهذا ليس من العقل في شيء، ولا من العلم في شيء.

كان النَّاس في الماضي لا يعرفون شيئًا عن «الميكروبات» ولا «الجراثيم»، وأن من الممكن أن قطرة الماء يكون فيها كذا وكذا جرثومة، وأن نطفة الإنسان فيها عشرات الملايين من الكائنات الحيَّة، واليوم صرنا نعرف هذا، وقد كنا نجهله، فهل لأنَّنا كنا نجهله كان معدومًا؟

(١) رواه الطبري في تفسيره (٣٩٧/٥).

QaradawiBooks.com

لا، الجهل لا يدلُّ على العدم، ولكن أحيانًا يُؤْتى الإنسان الوسائل والآليات الَّتي يكتشف بها الأشياء الَّتي يجهلها، وأحيانًا لا يُؤتى هذه الوسائل.

فنحن أوتينا في عصرنا ما نعرف به «الميكروبات» و«الجراثيم»، وما نعرف به أنَّ الشمس أكبر من الأرض بملايين المرَّات، وأنَّ بعض النجوم أكبر من أرضنا هذه بمليارات المرات، ونحن نراها شيئًا صغيرًا ضئيلًا في السماء هكذا، لا تكاد تملأ الكف، وهي شيء كبير، لم يأت إلينا ضوؤها إلَّا بعد ملايين السنين.

العلم اكتشف هذا، وأصبح معلومًا عند أهل الاختصاص ممَّن يعرفون الأمور الفلكية والرياضية، ونحن نسَلِّم بهذا، فلا ينبغي أن ننكر الشيء لأنَّنا نجهله.

والآن يقولون: إنَّنا لا نعرف من عالمنا المادي الَّذي نعيش فيه إلَّا ثلاثة في المائة، وسبعة وتسعون في المائة لا نعرفها، يسمونها الأعماق السوداء، وكما يقول القرآن: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وما لا نبصره أضعاف أضعاف ما نبصره.

لا يؤود الله حفظ السماوات والأرض:

والجملة التاسعة: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾، لا يثقل عليه حفظ السماوات والأرض، ولا تدبير أمرهما؛ لأنَّ كل شيء عليه يسير، قدرة ربنا ليست كقدرتنا محدودة، تتعب بأدنى عمل وبأدنى جهد، لا، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وكل شيء هيِّن على الله؛ لأن الله إذا أراد شيئًا يقول له: كن فيكون، فلا يوجد شيء سهل على الله، وشيء صعب عليه، كل شيء هين ويسير على قدرة الله وقوته وإرادته، صاحب القدرة الشاملة، والإرادة النافذة.

QaradawiBooks.com

عظمة الربِّ وعلوِّه:

والجملة العاشرة والأخيرة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. الله عليٌّ، أي: متعالٍ على خلقه جميعًا، وعظيم ليس أحد في مثل عظمته، وكيف يكون المخلوق في مثل عظمة الخالق؟ كيف يكون الفاني في مثل عظمة الباقي؟ كيف يكون المحدود الضعيف العاجز في مستوى الخالق القادر العليم المحيط بكلِّ شيء، الَّذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأحاط بكل شيء خُبرًا، وأحصى كل شيء عددًا؟ هذا هو ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وهذه هي أعظم آية في كتاب الله، آية الكرسي.

آية الكرسي حفظ للمؤمنين من الشيطان:

وقد ورد في صحيح البخاري[1] حديث معلق عن سيِّدنا أبي هُرَيْرة، قال: وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت: والله لأرفعنَّكَ إلى رسول الله ﷺ، قال: إنِّي محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخلَّيتُ عنه، فأصبحتُ، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هُرَيْرة، ما فعل أسيرك البارحة؟**». قال: قلتُ: يا رسولَ الله، شكا حاجة شديدة وعيالًا، فرحمته، فخليتُ سبيله، قال: «**أمَا إنَّه قد كَذَبك، وسيعود**». فعرفت أنَّه سيعود، لقول رسول الله ﷺ: «**إنَّه سيعود**»، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإنِّي محتاج وعليَّ عيال، لا أعود. فرحمته، فخليتُ سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هُرَيْرة، ما فعل أسيرُك؟**». قلت: يا رسولَ الله، شكا حاجة شديدة وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: «**أمَا إنَّه قد كَذَبك وسيعود**». فرصدته الثالثةَ، فجاء

(١) رواه البخاري في الوكالة (٢٣١١).

QaradawiBooks.com

يحثو من الطعـــام، فأخذته، فقلتُ: لأرفعنَّكَ إلى رســـول الله، وهذا آخر ثلاث مرَّات أنَّـــك تزعم لا تعود، ثمَّ تعود. قـــال: دعني أعلِّمك كلمات ينفعك الله بها، قلـــت: ما هو؟ قـــال: إذا أويتَ إلى فراشـــك، فاقرأ آية الكرســـي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حتَّى تختم الآية، فإنَّك لن يزال عليك مـــن الله حافظ، ولا يقربنكَ شـــيطان حتَّى تصبح، فخلَّيتُ ســـبيله، فأصبحتُ، فقال لي رســـولُ الله ﷺ: «**ما فعل أســـيرُك البارحةَ؟**». قلت: يا رســـولَ الله، زعم أنَّه يعلِّمني كلماتٍ ينفعني الله بها، فخلَّيتُ سبيله. قال: «**ما هي؟**». قلت: قال لي: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرســـيِّ من أولها حتَّى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقـــرة: ٢٥٥]، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شـــيطان حتَّى تصبح ـ وكانوا أحرص شيء على الخير ـ فقال النبيُّ ﷺ: «**أَمَا إنَّه قد صَدَقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هُرَيْرة؟**». قال: لا. قال: «**ذاك شيطان**»[1].

قد يصدق الكذوب، الشيطان دلَّه على فضل آية الكرسيِّ.

(١) رواه البخاري معلقًا في الوكالة (٢٣١١) بصيغة الجـــزم، كما نبه على ذلك الحافظ ابن كثير (٦٧٥/١) عند تفسير آية الكرسي. ووصله النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٧٢٩)، من طريق عثمان بن الهيثم الذي علق عنه البخاري. ورواه ابن خزيمة في الزكاة (٢٤٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس السادس والثلاثون
مراتب اليقين

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

اليقين في قلب الخليل:

الآية الأولى تتحدث عن خليل الله أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في موقف من مواقفه مع ربِّه عز وجل، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أراد الخليل إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام أن يترقَّى من الإيمان الغيبي إلى إيمان المشاهدة، أراد أن يرتفع من علم اليقين إلى عين اليقين أو حقِّ اليقين، إنَّه يريد أن يرى بالعين ما اعتقده واستقرَّ في القلب يقينًا لا شكَّ فيه، يريد أن يرى قدرة الله تعالى وهي تعمل عيانًا بيانًا، كيف يحيي الله تعالى الموتى؟ يريد أن يرى ذلك ويوقن به حق اليقين؛ لينقله لمن وراءه من النَّاس.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. هو موقن ومؤمنٌ ولا شك، إنَّه موقن أنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يحيي الموتى، ولهذا سأل فقط عن الكيفيَّة، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. فليس شاكًّا، وما جاء في الحديث الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[1]، أي في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فليس معنى هذا أنَّ إبراهيم كان شاكًّا، وأنَّ نبينا ﷺ كان شاكًّا، كلا، فما كان لأحدهما أن يشك، ولكن معنى الحديث: لو كنَّا نحن نشك لشكَّ إبراهيم، وإن كنَّا نحن لا نشك، فإبراهيم أولى ألَّا يشك. يعني: نحن لا نشك، فكيف يشك إبراهيم؟ ومعنى هذا أنَّ النبي محمدًا ﷺ يتواضع ويهضم نفسه، ويرى أنَّ إبراهيم أباه أَوْلَى ألَّا يشك، فلا شكَّ إذن.

﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: ولم يقل إبراهيم: كيف تحيي الموتى؟ فهو طلب من الله أن يريه هذا المشهد عين اليقين وحق اليقين بعد أن علمه علم اليقين.

ثمَّ إنَّ السؤال والجواب والمحاورة بين إبراهيم وربِّه ﷻ تدل أوضح الدلالة على ذلك؛ لأنّ إبراهيم لما قال: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ لماذا تطلب هذا وأنتَ قد آمنتَ وعلمتَ علم اليقين؟ وهنا قال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾. الإيمان قائم ومتَحقِّق، ولكنْ أريد أن أصل إلى درجة الطمأنينة بالمشاهدة والمعاينة، فأنتقل من علم اليقين إلى عين اليقين وحق اليقين، وفي الحديث الصحيح عن النَّبي ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[2].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢)، ومسلم في الإيمان (١٥١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٨٤٢)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وابن حبان في =

QaradawiBooks.com

هنا قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾. خذ أربعة من الطيور واضْمُمْهُنَّ وأمِلْهنَّ وقرِّبْهنَّ إليك، وانظر إليهنَّ لتعرف سمات وعلامات كل منها، ثمّ اذبحها أنتَ بيدك، ومزِّقها مِزَقًا، ثمَّ فرِّق هذه المِزَق على جبال أربعة من حولك، شرقًا وغربًا وشَمالًا وجنوبًا، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ وناديهن أنت بعد ذلك، ادعُ هذه الأجزاء الممزَّقة والمُفرَّقة هنا وهناك، ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، ستأتي إليك هذه الطيور المذبوحة الممزقة الممزَّعة المبعثرة سعيًا طائرة.

وهذا هو الَّذي فعله إبراهيم عليه السلام، ذبح الطيور الأربعة، ومزَّقها ووزَّعها، وجعل على كل جبل جزءًا، وناداها باسم الله عز وجل، فجاءته طائرة، فرآها هي هي بعينها، ذلك ليعلم النَّاس أنَّ البعث حقٌّ، أنَّ إحياء الموتى بعد بعثهم حقٌّ، وأنَّ الَّذي أحيا النَّاس أولًا وخلقهم أوَّل مرَّة قادرٌ على أن يعيدهم، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: عزيز لا يغلب، ولا يصعب عليه شيء مهما كان، ما شاء كان بلا ممانع، وما لم يشأ لم يكن وإن اجتمع الخلق جميعًا. وحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

= التاريخ (٦٢١٣)، والحاكم في التفسير (٣٢١/٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

الدرس السابع والثلاثون
فضل الإنفاق في سبيل الله وآدابه ـ ١ ـ

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦١ ـ ٢٦٤].

الإنفاق في سبيل الله:

هذه الآيات دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، يقول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

هنا تبدأ السورة الكريمة شوطًا طويلًا يتعلق بالجانب الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام وفي القرآن، جانب المال، جانب الإنفاق، وقد قطعت السورة شوطًا طويلًا في هذا الموضوع الَّذي ضلَّ فيه من

QaradawiBooks.com

ضلَّ، وما زال إلى الآن يضــلُّ الضالون مفْرطيــن ومفَرِّطين، في أمر المال، وأمر الاقتصاد، وهذه الأمور المتعلِّقة بحاجات النَّاس الضرورية من المأكل والمسكن والملبس، فما موقف الإسلام، وما موقف القرآن من هذا الأمر؟

إنَّ القــرآن بدأ بهذه الآية يدعــو النَّاس إلى الإنفاق في ســبيل الله، ويرغِّب في هذا الإنفاق بأجمل المثوبــة، وأعظم الجزاء عند الله تعالى، ويضرب لذلك الأمثال، على طريقة القــرآن في تقريب المعاني للناس، ليظهر المعقول في صورة المحســوس، فالقرآن كتابٌ مبين، ومن إبانته ذكر المثل وضرب الأمثال.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾: انظروا إلى هذه المضاعفة، الحســنة بســبع مائة ضعف! ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾: هكذا يضاعف الله الصدقات والحسنات، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيِّب، ولا يقبل الله إلَّا الطيِّب، فإن الله يتقبَّلها بيمينه، ثمَّ يربِّيها لصاحبه، كما يربِّي أحدكــم فُلُوَّه، حتَّى تكون مثل الجبــل**»[1]. انظروا كيف يتضاعف الأمر، إنَّ الله يضاعف أجر المنفقين.

إنَّ القرآن يدعو إلى الإنفاق بأساليب كثيرة ترغِّب النَّاس في الخروج من شحِّ أنفسهم، ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النســاء: ١٢٨]. ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإســراء: ١٠٠]. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، والتغابن: ١٦].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤١٠)، ومسلم في الكسوف (١٠١٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

المال والإنفاق قوام نهضة الأمم:

إنَّ المال شقيق الروح، وكثير من النَّاس يبذلون أنفسهم، ولا يبذلون من أموالهم! ولذلك كانت حملة القرآن للإنفاق في سبيل الله، ولا تنهض الأمم، ولا تنتصر الرسالات إلَّا بالجهاد بالنفس والجهاد بالمال، والقرآن دائمًا يُقدِّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [الصف: ١٠، ١١]. ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]. ومن هنا كان الترغيب في الإنفاق في سبيل الله، الَّذي به تُجَيَّش الجيوش، وبه تعد الأسلحة، وبه تحقَّق المطالب، وبه تُقضى العبادات، وبه تؤدَّى كثيرٌ من القُرُبات.

يَا طَالِبًا لِمَعَالِي المُلْكِ مُجْتَهِدًا ... خُذْهَا مِنَ الْعِلْمِ أَوْ خُذْهَا مِنَ الْمَالِ
بِالْعِلْمِ وَالْمَالِ يَبْنِي النَّاسُ مُلْكَهُمُو ... لَمْ يُبْنَ مُلْكٌ عَلَى جَهْلٍ وَإِقْلَالِ[1]

من يتصدَّق بالحرام كمن يُطهِّر النجاسة بالبول:

ومن هنا كانت دعوة القرآن للإنفاق، وجعل له القرآن هذه المثوبة، ولكن أيّ إنفاق الَّذي له مثل هذه المثوبة، والَّذي ينتظر صاحبه هذا الأجر العظيم المضاعف عند الله؟

إنَّه إنفاق المرء من ماله في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾.

وإنَّما تكون أموالهم حقًّا، إذا كانت حلالًا، أمَّا الَّذي ينفق من مال حرام، فليس له فيه أجر، أمَّا أجر هذا، فلصاحب المال الحقيقي،

(١) البيتان لشوقي، انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٨٥/١).

QaradawiBooks.com

وعليه إصره، مَثَل الَّذي يتصدَّق من مال حرام، كمثل الَّذي يغسل النجاسة بالبول، «**لا يقبل اللهُ صدقةً من غُلول**»(١). «**إنَّ الله طيبٌ لا يقبل إلَّا طيبًا**»(٢).

أمَّا الَّذين يأكلون أموال النَّاس بالباطل، يقذفون في بطونهم المال الحرام، يجمعونه من سحت؛ من ربًا ومن رشوةٍ ومن استغلال النفوذ، ثمَّ يريدون أن يتصدَّقوا للقراء أو لمشروع خيري، أو يبنوا مسجدًا، ظانِّين أنَّ ذلك يُطهِّر أموالهم الخبيثة، فهؤلاء لا يقبل الله صدقاتهم.

المراد بسبيل الله:

وسبيل الله تطلق أوَّل ما تطلق على الجهاد لنصرة الإسلام، لتكون كلمة الله هي العليا، لتحرير أرض الإسلام، للذود عن حرمات المسلمين، للدفاع عن الإسلام وأهله في أيِّ مكان.

وكلُّ إنفاق في الطاعة والبر والخير، فهو في سبيل الله، كلُّ نفقة أُريد بها وجه الله، حتَّى اللقمة تضعها في فم امرأتك كما جاء في الحديث: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلَّا أجرت عليها، حتَّى ما تجعل في فم امرأتك**»(٣)، ما دمت تريد أن تُسعدها وتؤنسها، ابتغاءَ مرضاة الله، وابتغاءً لتأسيس الأسرة السعيدة الصالحة، فأنت بذلك تنفق في سبيل الله، حتَّى لو أنفقت على نفسك، أو على عيالك، تعفُّ نفسك، وتغني عيالك عن الحرام، وعن التطلع إلى ما عند النَّاس، فهذه النفقة في سبيل الله.

---

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٤)، وأحمد (٤٧٠٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

عن كعب بن عُجْرة رضي الله عنه، قال: مرَّ على النبيِّ ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسولَ الله، لو كان هذا في سبيل الله ـ أي في الجهاد ـ فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان**»[1].

والنيَّة الحسنة تجعل العادات عبادات، وتجعل الأعمال الدنيويَّة قُرُبات، ما دامت لله وفي سبيل الله.

فضل الإنفاق في سبيل الله:

من أنفق ماله في سبيل الله فله هذا الأجر المضاعف، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾. بذرة هذه ثمرتها وهذا حصادها، ضاعف الله صدقة من أنفق في سبيله الحسنة بسبعمائة ضعف.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. أي: عنده أكثر من السبعمائة، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. واسع الفضل، واسع العطاء، وهو عليم بخفايا السرائر، وأعماق الضمائر، ومكنون النيات، فهو يجزي كلَّ امرئ حسب نيته، وحسب سريرته، وحسب عمله، وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢٩/١٩)، وفي الأوسط (٦٨٣٥)، وفي الصغير (٩٤٠)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣٥/٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٧٠٩): رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال الكبير رجال الصحيح.

QaradawiBooks.com

حرمة المنِّ والأذى بالصدقة:

إنَّ من شروط قبول الصدقة: ألَّا يتبعها منٌّ ولا أذى، ولذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٤].

لا بدَّ ألَّا يُتبع المتصدق الصدقة بمنٍّ ولا أذى، فإنَّ بعض النَّاس قد يتصدَّق من مال حلال، ولا يضيِّع حقًّا واجبًا بالصدقة، وحين يتصدَّق يكون مخلصًا لا يرائي بصدقته النَّاس، ولكنَّه بعد ذلك يُبطل تلك الصدقة، ويخسر ثوابها، كيف ذلك؟ بالمنِّ والأذى، بأن يمنَّ على من تَصدَّق عليه، ويظهر له أنَّه صاحب الفضل، وأنَّه الَّذي أعطاه يوم كذا وسنة كذا، هذا هو المنُّ.

والأذى أن يجرح شعوره، بالكلم السيئ، بإظهار التكبُّر عليه، بمحاولة استخدامه في مقابلة ما تصدق عليه، كل هذا أذى، وليس الأذى هو أذى البدن فقط، بل إيذاء النفس أشد من إيذاء البدن.

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامُ وَلَا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ[1]

إنَّ على المسلم أن يترك المنَّ والأذى، وألَّا يرتكب ما يحبط عمله ويبطل ثوابه، فيكون من الخاسرين، وهذا من عناية الإسلام بالفقراء، فهو لا يريد أن يُطعموا فقط من جوع، وأن يُكسَوْا من عُرْيٍ، ثمَّ يهانوا، لا، بل يصون للفقير كرامته، كما يحفظ له حقه.

(١) ذكره الثعالبي ولم ينسبه في اللطائف والظرائف صـ ١٠٤، نشر دار المناهل، بيروت.

QaradawiBooks.com

الرياء من أوصاف من لا يؤمنون بالله واليوم الآخر:

والرياء من المعاصي القلبيَّة الشديدة الخطر على النفس وعلى العمل، وهو من الكبائر المُوبِقة، ولهذا اشتدَّ الوعيد عليه في القرآن والحديث، لقد جعله القرآن من أوصاف الكفرة الَّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء: ٣٨]. ومن صفات المنافقين الَّذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. والَّذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١].

وهذا رياء الكفَّار الَّذين لا يؤمنون بالمبدأ ولا بالمعاد، فلا يتصور منهم أن يعملوا لله ولا للدار الآخرة، وإذا كانت نفقتهم رياء، فإن خروجهم للقتال والغزو رياء كذلك، لا نصيب فيه لله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وأمَّا المنافقون، فقد قال تعالى في شأنهم: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

من هنا حذَّر القرآن الكريم من إتباع الصدقة بالمن أو الأذى، خشية أن يبطلها ويضيع أثرها، يقول تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٦٣، ٢٦٤].

QaradawiBooks.com

جاء في حديثٍ رواه الترمذي عن النبيِّ ﷺ، «**إنَّ الله حينما خلق الجبال عجبت الملائكةُ من شدَّتِها، فقالوا: يا ربِّ، هل خلقتَ خلقًا أشدَّ من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: هل خلقتَ خلقًا أشدَّ من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالوا: فهل خلقت خلقًا أشدَّ من النار؟ قال: نعم، الماء. قالوا: فهل خلقتَ خلقًا أشدَّ من الماء؟ قال: نعم، الرِّيح. قالوا: فهل خلقتَ خلقًا أشدَّ من الريح؟ قال: نعم، قلب ابن آدم حين يتصدَّق الصدقةَ بيمينه فيُخفيها عن شماله**»[1].

إنَّ قوَّة الإنسان حين يخلص قلبه لله، ويحرّر نيته لله، ويجرّد عمله لله، لهي أقوى من كل ما في الوجود، أقوى من الجبال على شموخها وشدتها وارتفاعها، أقوى من الحديد الَّذي يقطع الجبال، وأقوى من النَّار الَّتي تصهر الحديد، وأقوى من الماء الَّذي يطفئ النار، وأقوى من الريح الَّذي يسوق الماء، أقوى من ذلك كله، القلب الإنساني المؤمن المخلص الَّذي يتصدَّق الصدقة بيمينه، فيخفيها عن شماله.

(١) رواه أحمد (١٢٢٥٣)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في التفسير (٣٣٦٩)، وقال: حديث غريب. وأبو يعلى (٤٣١٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٤٧٧٠)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

الدرس الثامن والثلاثون
الإنفاق في سبيل الله وآدابه ـ ٢ ـ

حديثنا إليكم الليلة أيُّها الإخوة: عن الإنفاق في سبيل الله.

في سورة البقرة حديث طويل عن إنفاق المال في سبيل الله، في ربع ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وفي ربع ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، والربع الَّذي بعده ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، حسب التقسيمات المعروفة للقرآن الكريم، إلى أجزاء، وإلى أحزاب، وإلى أرباع.

لقد قُسِّم القرآن الكريم إلى ثلاثين جزءًا، والجزء إلى حزبين، والحزب إلى أربعة أرباع، وأحيانًا يكون هذا التقسيم معقولًا، وأحيانًا يكون غير معقول، فهناك ربع طويل وربع قصير، وربع يبدأ بكلام مرتبط بما قبله، مثل ربع ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ﴾ [النساء: ٢٤]، فهذا معطوف على ما قبله ممَّا ذكره الله تعالى من المحرَّمات من النساء، الَّتي يحرم على المسلم أن يتزوَّج بواحدة منهنَّ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ۝ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ

QaradawiBooks.com

ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٢، ٢٣].

وكما قال شيخنا الشيخ عبد الله دراز: أحيانًا يبدأ الربع بكفر، مثل قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، فهذا التقسيم يحتاج إلى إعادة نظر، ولو كان لي من الأمر شيء لقمت بعمل تقسيم أفضل من هذا، من ناحية الكم ومن ناحية الكيف، ولكن على كل حال، ليس هذا موضوع حديثنا.

حديثنا حول الإنفاق في سبيل الله، سورة البقرة من أوائل السور الَّتي تحدثت عن وصف المتَّقين، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣] وبعد ذلك في الآيات الَّتي بعدها والَّتي استمعنا إليها الليلة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ثمَّ جاءت بعدها الآيات الَّتي سبحت سبحًا طويلًا في الإنفاق والمنفقين، وأنواع الإنفاق، وما يقبل منها وما لا يقبل، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والقرآن الكريم تحدث عن الإنفاق بصور شتَّى، تحدث: ممَّ ينفق الإنسان، وتحدث عن ماذا ينفق الإنسان، ولماذا ينفق، وكم ينفق، ولمن ينفق، ومتى ينفق، كل هذه بينها لنا القرآن الكريم.

QaradawiBooks.com

ممَّ ينفق المسلم:

أمَّا السؤال الأوَّل: ممَّ ينفق المسلم؟ المفروض أن ينفق الإنسان ممَّا رزقه الله، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ينفق من ماله، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ولذلك لا ينفق الإنسان من مال غيره لأنَّه مال لا يملكه، وكذلك إذا كان ما عند الإنسان من مال هو مال حرام، فليس مأمورًا أن ينفق منه، المال الحرام ليس من مال الإنسان؛ ولذلك لا يُملَك، فإذا أكل إنسان مالًا حرامًا عن طريق السرقة، أو الرشوة بمسمَّياتها المختلفة، أو الغصب، والاختلاس، فهذا المال لا يُملَك، وبالتالي ليس عليك فيه صدقة، وليس عليك فيه زكاة؛ لأنَّ الزكاة لا تجب من المال الحرام، المال الحرام لا يقال لك: أخرج منه ربع عشره حتَّى تُطَهِّره، ولكن أخرجْه كلَّه، فهو فليس لك، تتخلَّص منه كلَّه، تجمع المال من طرق حرام، وتعتقد أنَّ إخراج الزكاة منه تُطَهِّره، لا يتطهَّر أبدًا، تجمع المال من حرام ثمَّ تحُجُّ منه، هذا لا يجوز، وقد قالوا: إنَّ الَّذي يتصدق من المال الحرام، كالذي يغسل القاذورات بالبول، لذلك أوَّل ما يُطلب منك أن تنفق من مالك: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

ومن كل المال ينفق الإنسان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فإذا كان المال كسبًا من تجارة، أو من راتب ومعاش، تنفق منه، وكذلك: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، من زروع وثمار، تُنفق منه.

إخراج الزكاة من كل ما أخرجت الأرض:

وهذه الآية: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ممَّا استدل به الإمام أبو حنيفة ومن وافقه على أنَّ الزكاة تكون على كل ما أخرجت الأرض

QaradawiBooks.com

من زروع وثمار، ما معنى أن تُخرج الزكاة من الذرة والشعير والقمح، ولا تُخرجها من التفاح والعنب، أو من جوز الهند أو القطن، أو الشاي والقصب؟ كل ما يخرج من الأرض تجب فيه الزكاة، وهذا ما رجَّحه القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي، رجَّح مذهب أبي حنيفة على مذهبه المالكي، وقال: إنَّ عموم الآيات وعموم الأحاديث تشهد لمذهب أبي حنيفة، وفي آية سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] قال: أمَّا الإمام أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فبصر الحق[1]، فكل ما تُخرج الأرض يُزكى عنه. لا نقول للفلاح المسكين الَّذي لم يحصد من زرعه إلَّا خمسين كيلة مثلًا، وقد يكون مستأجرًا للأرض وليست ملكًا له، نقول له: أخرج عنها، ونترك بعد ذلك الحدائق والبساتين، التفاح والعنب والمانجو! ونقول لصاحبها: ليس عليك زكاة عنها، ولكن إذا بعتها وبقي عندك مال منها وحال عليه الحول، أخرج منها ربع العشر!

شبهة الشيوعيِّين على فريضة الزكاة:

هذا ليس من العدل، ولذلك أتباع المذهب الشيوعي منذ أكثر من ربع قرن أوَّل ما زرت ماليزيا أثاروا شبهة على الإسلاميين، قالوا: إنَّ الإسلام يتحيَّز للإقطاعيِّين وكبار الملاك ضد الفقراء. قيل: كيف؟ قالوا: الإسلام يقول للذين يزرعون القمح والذرة: أخرجوا الزكاة، إذا بلغت خمسة أوسق، خمسين كيلة، أربعة أردب وكيلتين بالكيل المصري، ولكنَّه لا يقول لأصحاب مزارع الشاي، ومزارع المطاط، ومزارع جوز

(١) انظر: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٣/ ١٣٥)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

الهند، ومزارع التفاح والمانجو وهذه الأشياء، لا يقول لهم: أخرجوا، هؤلاء معفون من الزكاة، فهو ضد هؤلاء الفلَّاحين! فقلت: لا، هذا مذهب الشافعي، والشافعي لو كان موجودًا الآن لغيَّر مذهبه، وقد غير مذهبه عندما ذهب من العراق إلى مصر، وقال بمذهب جديد، فلو رأى هذه الأشياء، قد يغير رأيه في الزكاة والله أعلم؛ لأنَّه لا يرضى أن يكون الإسلام مع قوم ضدَّ قوم، أو يتحيز لقوم على حساب آخرين.

كم ينفق المسلم من ماله؟

المهم المسلم مطالب أن ينفق من كل ماله، كم ينفق من كل ماله؟ الله ﷻ لم يطالب الإنسان بإنفاق الكثير، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦] الإسلام لا يقول: ادفعوا كل أموالكم، ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧]، ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ من الإحفاء بمعنى الإلحاف: وهو المبالغة في الطلب. يقال: أحفاه في المسألة، إذا ألحَّ عليه في طلبها إلحاحًا شديدًا، أي: إن يكلفكم بإخراج جميع أموالكم، ويبالغ في طلب ذلك منكم، تبخلوا بها فلا تعطوها، وبذلك يُخْرِج أَضْغانَكُمْ أي: يظهر أحقادكم وكراهيتكم لهذا التكليف، لأنَّ حبكم الجم للمال يجعلكم تكرهون كل تشريع يأمركم بإخراج جميع أموالكم.

ولذلك أمرك أن تنفق ممَّا رزقك الله، أي: بعض ما رزقك الله، وأكثر هذا البعض هو العشر، ثمَّ نصف العشر، ثمَّ ربع العشر، يعني ٢,٥٪، يعني الألف ريال عليها خمسة وعشرون ريالًا، وهذا قدر بسيط، يعني معك عشرة آلاف، تخرج: ٢٥٠ ريالًا، معك مائة ألف تخرج ألفين وخمسمائة ريالًا، لكن لو معك مائة مليون، تخرج اثنين مليون وخمسمائة ألف،

QaradawiBooks.com

وهذا شيء كبير، ومن هنا يأتي البخل بالإنفاق في هذه الحالة، ولكن هذا قليل بالنسبة لهذا المبلغ الكبير، والمفروض أن صاحب هذه الأموال الكثيرة أنَّه يكسب ويربح فتزداد وتكثر هذه الأموال، وهذه فلسفة الإسلام، يقول لك: استثمر المال، حتَّى لا تأكله الزكاة، ضعه في البنك الإسلامي تكسب ٦٪ مثلا، أخرج ٢,٥٪، فالمطلوب قليل.

لماذا الإنفاق؟

لماذا تنفق؟ لماذا ينفق الإنسان؟ قد ينفق الإنسان من أجل أن يؤدي الفرض الَّذي عليه، ويخرج حقَّ الله من ماله، إذا كان زكاة، وينفق أيضًا المال ليكسب الأجر في الصدقات التطوعيَّة، والصدقات الجارية، فهو يريد أن يُرضيَ الله صاحب المال، المال حقيقة هو مال الله، وأنت مجرد خازن، يعني أمين صندوق، يقول الله تعالى في سورة الحديد: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، أنت مُستَخْلَف في المال، مثل أمين الخزنة، ما في الخزنة ليس ملكًا لك، أنت موظَّف، أنت مؤْتَمَن عليها، أنت موظَّف عند الله، المال مال الله، هل أنت الَّذي خلقت المال؟ إذا زرع الإنسان زرعًا فأنبت حبًّا، أو غرس غرسًا، فآتى ثمرًا فكم يوازي عمل يده في الحرْث والسَّقي والتَّعهُّد بجانب عمل يد الله الَّذي جعل الأرض ذلولًا، وأنزل الماء من السماء مطرًا، وأجراه في الأرض نهرًا، وهيَّأ للحبة في باطن التراب غذاءها حتَّى صارت شجرة مورقة مثمرة؟ ألا ما أقل عمل الإنسان وجهده بجانب رعاية الله!

ثم ما عمل الإنسان إذا لم يهبه الله الأدوات الَّتي بها يعمل، والعقل الَّذي يُفكِّر ويدبِّر؟

ولهذا يبيِّن القرآن فضل الله على عباده، ويردُّ الحق إلى نصابه، فيقول:

QaradawiBooks.com

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٧٠].

ويقول في سورة أخرى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٢٨].

وفي سورة ثالثة يقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

نعم، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، وهم يأكلون من ثمار لم تعملها أيديهم، وإنَّما عملتها يد الله، الله الَّذي أحيا الأرض الميتة، وأخرج منها الحبَّ، وأنشأ الجنَّات، وفجَّر العيون.

وليس عمل يد الله في الزراعة فحسب، بل في كلِّ ناحية من الحياة: زراعة أو تجارة أو صناعة أو غيرها. ففي الصناعة مثلًا نجد المادَّة الخام من خلق الله لا من إنتاج الإنسان، ومن هنا امتنَّ الله على النَّاس بمادة الحديد، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والتعبير بـ﴿أَنزَلْنَا﴾ يعني أنَّ الله خلقه بتدبير سماوي علوي لا دخل للإنسان فيه.

ونجد الاهتداء إلى الصناعات من إلهام الله وتعليمه للإنسان ما لم يكن يعلم، كما قال تعالى عن نبي الله داود: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

والنتيجة من هذا أنَّ المالَ رزق يسوقُه الله للإنسان فضلًا منه ونعمة، ومهما ذكر الإنسان عمله وجهده فليذكر عمل القدرة الإلٰهيَّة في الإيجادِ

QaradawiBooks.com

والإمداد. فلا غرابة بعد هذا أن ينفق الإنسان ـ عبد الله ـ بعض ما رزقه الله، على إخوانه عباد الله، قيامًا لواجب الشكر للمنعم على نعمائه؛ ومن أجل هذا يقول الله في كتابه: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ويقرر أنَّ المال مال الله والإنسان ما هو إلَّا مستخلف فيه أو موظَّف مؤتمن على تنميته وإنفاقه والانتفاع والنفع به، يقول تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]،

فأنت تنفق هذا المال لإرضاء الله، وهذا ما يعبر عنه القرآن في سبيل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، كما قال النبيُّ ﷺ في القتال وقد سأله رجل: فقال: إنَّ الرجل يقاتل للذِّكْر، ويقاتل ليُحمد، ويقاتل ليغنم، ويقاتل ليرى مكانه، فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** ﷻ»[1].

الإنفاق لإعلاء كلمة الله:

المسلم ينفق لتكون كلمة الله هي العليا، ينفق ليعز الدين في الأرض، ويعز أهل الإسلام، ويساعد المؤمنين، ينفق من أجل إطعام الجائعين، ومداواة المرضى، وكسوة العرايا، ينفق لمساعدة إخواننا في الانتفاضة، ليقفوا في وجه جبروت الجبابرة، ويقوِّي عضدهم، ويشدُّ أزْرهم، كل هذا في سبيل الله، فالإنسان ينفق لله، وفي سبيل الله.

متى ينفق المسلم؟

ومتى ينفق؟ ينفق عند وجوب الواجبات، فإذا كان ينفق في الزكاة،

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

فيكون ذلك عندما يحول على المال الحول، أو عند الحصاد إذا كان المال زرعًا أو ثمرًا: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

غير مرخصة للطباعة

الزكاة في المستغلات:

وأيضًا أُشَبِّه بالزرع العمارات المستأجرة والمصانع وما شابه ذلك، فعندما يحصل الإنسان على ريع العمارة أو المصنع، يُخرج عشر الصافي بعد أن يخرج النفقات والحراسة، ويخرج الصيانة، ويخرج الضرائب وهذه الأشياء كلها، ويُخرج مقابل الاستهلاك أيضًا، لأن هذه العمارة، أو هذا المصنع يُسْتَهْلَك ـ مثلًا ـ في ثلاثين سنة أو أربعين، فيقسم ثمنها على هذه الأربعين، ويخصم كل سنة منها حتَّى يكون القياس صحيحًا.

متى ينفق؟ وكيف ينفق؟

ومتى ينفق أيضًا؟ ينفق بالليل والنهار، فالله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، فوقت الإنفاق مفتوح، تنفق في الليل، تنفق في النهار، تنفق في السرِّ أحيانًا، وفي العلن أحيانًا، طبعًا صدقة السر أفضل، كما قال النبي ﷺ: «**صدقة السر تطفئ غضب الرب**»[(١)] وفي السبعة الَّذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله، يقول ﷺ: «**ورجل تصدق صدقة فأخفاها، حتَّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه**»[(٢)] لو كانت اليدان لهما إحساس وإدراك، ما كانت الشمال تعلم ما أنفقت اليمين، لمبالغته في الإخفاء.

---

(١) رواه الطبراني (٢٦١/٨)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٣١٧)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦٣٧)، عن أبي أمامة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

إعلان الزكاة المفروضة أفضل من إخفائها:

ولكن في إنفاق الفرض يعلِن بها، حتَّى يقتدي به الآخرون، وحتَّى يدفع عن نفسه التهمة، فقد يقول النَّاس عنه: إنَّه يملك من المال الكثير ولكنَّه لم يخرج الزكاة، ولذلك يزكي علانية حتَّى يعلم النَّاس عنه ذلك ولا يُظنّ به السوء، ولذلك قرأنا في آيات اليوم: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

الإخلاص في الإنفاق:

والمطلوب في كيفيَّة الإنفاق: أن ينفق الإنسان بدافع الإخلاص لله، ويطرد عوامل الرياء عن نفسه، بحيث لا يكونه همه رئاء النَّاس، فيقولون عنه: ما شاء الله، فلان جواد كريم، هذا الصنف إذا ذهبت إليه وهو وحده لا يعطيك شيئًا، وإذا ذهبت إليه في مجلسه والناس حوله أخرج من جيبه وأعطاك، وقد يزداد العطاء إذا كان سيُكتب عنه في الصحف والمجلات، ولكن هناك أناس على عكس هذا، لا يريد أحد أن يتحدث عنه، وهذا هو الأولى.

المحافظة على الإنفاق من المن والأذى:

ثمَّ على الإنسان بعد ذلك، أن يحافظ على زكاته أو صدقته من المن والأذى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، المن أن يقول للفقير: لقد أعطيتك كذا، وفعلت لك كذا، بأسلوب يؤذيه ويجرح شعوره، القرآن الكريم يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. قد يكون الإنسان عند إنفاقه للمال

QaradawiBooks.com

أن يكون في سبيل الله، وكان بنية الإخلاص لله، ولم يخطر على باله الرياء، ولكنَّه قد يبطل الصدقة بعد ذلك بالمنّ والأذى، المنّ على الفقير أو الإيذاء له، الإيذاء البدني أو الإيذاء النفسي، والإيذاء النفسي أشد من الإيذاء البدني؛ لأنَّه لا يجرح البدن ولكن يجرح القلب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فمثل من يبطل صدقته بالمن على الفقير أو إيذائه، كمثل حجر أملس عليه تراب، فنزل عليه مطر من السماء فمسحه وأزاله تمامًا، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

تضاعف الإنفاق في شهر رمضان:

فعلى الإنسان أن يحرص على أن يكون إنفاقه في سبيل الله، الإنفاق مطلوب من الإنسان المسلم، والمسلمون ممَّا رزقهم الله ينفقون، وقد حدثنا الله عن المتَّقين فقال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فلا بدَّ للإنسان أن ينفق وخصوصًا في شهر رمضان المبارك، والنبيُّ ﷺ كان أجود النَّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل كلَّ ليلة في رمضان حتَّى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ يكون أجود بالخير من الريح المرسلة[1].

ونحن الآن مطلوب منا أن نمد أيدينا بالمساعدة لإخواننا في انتفاضة الأقصى، أنا لا أسمِّي هذا تبرُّعًا، فكلمة تبرع أراها دون المطلوب؛ لأنَّ

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٨)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

هذا جهاد بالمال، والجهاد بالمال مطلوب منا، كما في الحديث: «**جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم**»[1] ولكي ندفع ثمن الجنَّة، فلا بدَّ من بذل الأنفس والأموال في سبيل الله، نحن لا نبذل الأنفس، إخواننا هناك يبذلون الأنفس والدماء، فعلينا أن نبذل ما استطعنا من أموالنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

نسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبَّلنا، ويقبل منا، ربنا تقبل منا إنَّك أنت السميع العليم، وتب علينا إنَّك أنت التواب الرحيم. وصلِّ اللهمَّ وسلم وبارك على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) رواه أحمد (١٢٢٤٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦)، كلاهما في الجهاد، وابن حبان في السير (٤٧٠٨)، والحاكم في الجهاد (٩١/٢)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، عن أنس.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس التاسع والثلاثون
حكمة الله ﷻ

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

سياق الآية:

في وسط آيات الإنفاق والصدقة، وتصريف المال كما يحب الله تعالى، ذكر الله سبحانه هذه الآية، بعد قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

في هذا السياق ذكر القرآن هذه الآية: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾. الله ﷻ مصدر الحكمة، هو الحكيم.

اسم الحكيم في القرآن:

القرآن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]. ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. القرآن مليء بوصف الله تبارك وتعالى بـ «الحكيم».

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

معنى الحكمة:

ما الحكمة؟ إذا قلنا: الله حكيم، فما معنى أنَّ الله حكيم؟ يقولون: الحكمة نوعان: حكمة نظريَّة وحكمة عمليَّة، حكمة العقل والنظر والفكر والعلم، وحكمة العمل والسلوك.

والله حكيم يعلم كلَّ شيء، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سِرٌّ ولا علانية، كما قال سيِّدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]. ليس هناك شيء يغيب على الله، أنت تغيب عنك أشياء كثيرة، وأشياء تعرفها وتنساها، وأشياء تعرفها نصف معرفة، أو ربع معرفة أو عشر معرفة، إنَّما الَّذي يعرف كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء، فهو الله تبارك وتعالى؛ لأنَّه خالق كل شيء، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. الله خالق كل شيء، وما دام الله خالق كل شيء فلا بدَّ أن يكون عليمًا بما خلق، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. إنَّها حكمة علمية نظريَّة لله ﷻ، بأن يعرف الأشياء بكل أفعالها، وبكل زواياها، وبكل جوانبها، الظاهرة والخفية، الدقيقة والجليلة، البعيدة والقريبة، كل شيء يعلمه الله.

أمَّا نحن، فنعلم الأشياء من جانب واحد، تعلم شيئًا، وتغيب عنك أشياء، طبيعة الإنسان هكذا، يعرف شيئًا ويجهل شيئًا، يعلم الأشياء ثمَّ ينساها، وما سُمِّي إنسانًا إلَّا لنسيه، طبيعة الإنسان ضعيفة، إنَّما الله هو الحكيم صاحب الحكمة العلميَّة، وصاحب الحكمة العمليَّة وهي وضع كل شيء في موضعه المناسب له.

فهناك من يعرف الأشياء، ويذكرها جيدًا، ويفهمها جيدًا، وربَّما أخرج

QaradawiBooks.com

فيها كتبًا، ودرس على العلماء، ولكن ـ للأسف ـ عند التطبيق لا يجيد تنزيل ما علم على واقعه.

وبما فقد إرادة تطبيق علمه، فما علمه شيء، وما يطبقه شيء آخر، تتحكم فيه نفسه، ويحكم عليه شيطانه، وتغره الدُّنيا، ويتابع النَّاس من حوله، عن يمينه وعن شماله.

والحكمة الَّتي يؤتيها الله لعباده هي الحكمة العلميَّة والحكمة العمليَّة، الحكمة النظريَّة، والحكمة التطبيقية.

لا يمكن أن يكون الإنسان عالمًا من الناحية النظريَّة، ولكنَّه جاهل في الناحية التطبيقية.

حكمة الله في شرعه وخلقه:

الله ﷻ موصوف بالحكمة فيما أمر به وشرع، وفيما خلق وقدَّر، في هذين الجانبين، الأمور موضوعة في نصابها، الشريعة كلها مليئة بالحكمة، ما أمر الله به، وما نهى عنه، وما شرعه لعباده من عبادات ومعاملات، كل المعاملات، في شأن الأسرة، في شأن المبايعات والمبادلات، في شأن الجنايات، في شأن الدستور والسياسة، في شأن العلاقات الخارجية، كل ما يحتاج إليه النَّاس من شرائع هو في منتهى الحكمة.

وقد كتبتُ كتبًا في هذا بالتفصيل، بينتُ فيها حكمة بعض التشريعات الإسلاميَّة، فذكرت حكمة تشريع الزكاة، في كتابي: «فقه الزكاة»، وذكرت في كتابي: «فقه الجهاد»، حكمة تشريع الجهاد، ولماذا شرع الله الجهاد.

الناس يظنون أنَّ الإسلام يريد أن يُقتِّل النَّاس، لا! الإسلام لا يُقتِّل النَّاس أبدًا، الإسلام يقاوم المعتدين، ويحمي الحدود والحرمات، القرآن

QaradawiBooks.com

يقول لما انتهت معركة الأحزاب بغير قتال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. هل هناك دين يحب القتال يقول هذا الكلام: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾؟! فالقتال في الإسلام نضطر إليه للدفاع عن أرضنا وعرضنا وحرماتنا.

وكل ما شرعه الله في الإسلام شرعه لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، فإذا جهلتَ شيئًا، اسأل العالم الَّذي يفهم حكمة الله فيما شرع، لا تسأل جاهلًا يفتيك خطأ.

الله مصدر كل حكمة:

فالله الحكيم ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ يؤتي الحكمة من يشاء، ليس كل إنسان يؤتيه الله الحكمة، إنَّما يعطيها من يشاء، والله يقضي في كل ما يريده في هذه الدُّنْيا بحسب مشيئته، ليس هناك شيء فوق مشيئة الله.

فهو سبحانه الَّذي ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]. ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]. ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]. ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الله سبحانه وتعالى وهب الحكمة لكثير من عباده، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]. وقال عن يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. وقال عن داود: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]. وقال عن عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]. وقال عن الأنبياء جميعًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

والحُكْم هنا ليس معناه أنَّه يحكم النَّاس ويترأس عليهم، لا، وإنَّما المعنى: آتيناهم الحكمة، كما قال عن يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. أي: الحكمة، يعمل العمل كما يجب أن يكون، يضع الشيء في موضعه اللائق به، في الزمان المناسب له، مع الشخص المناسب له.

والله ﷻ يؤتي الحكمة من يشاء، الحكمة العلميَّة والعمليَّة، الاثنين معًا، كما قال الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]. فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ حكمة علمية، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ حكمة نظريَّة.

وسيدنا عيسى لما نطق في المهد صبيًّا قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]، هذه حكمة نظريَّة، ﴿وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. هذه حكمة عمليَّة، وأمر الله نبيه محمدًا ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]. ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حكمة نظريَّة، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حكمة عمليَّة، هكذا القرآن يجمع بين الحكمة العلميَّة والحكمة العمليَّة، مطلوبة من أي إنسان.

والقرآن حكيم، الله تعالى يقول عن القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]. ﴿يسٓ ۞ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢]. ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

ويقول عن الليلة الَّتي أُنزل فيها القرآن ليلة القدر: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

غير مرخص للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

حكمة لقمان:

فهناك أشياء كثيرة حكيمة، والله لا يؤتي الحكمة إلَّا من يحب من النَّاس، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]. الله تعالى ذكر لقمان في سورة اسمها «سورة لقمان»، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. انظر قول الحكيم، فهو لا يصدر أوامره مجردة، بل هي معللة، إذا قال: افعل أو لا تفعل ذكر علة الأمر أو النهي، ولذلك نجد أنَّ الوصايا الَّتي أوصاها لقمان لابنه كلها معللة، ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. الصبر من عزم الأمور، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

الحكمة بداية الخير:

الله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء من عباده، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. انظر، الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. كل ما أوتيه الخلق من العلم شيء قليل بالنسبة لما يعلمه الله تبارك وتعالى، إنَّما قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. لأن الحكمة هي بداية الخير، هي بداية الهداية للحق، هي الَّتي تُعرِّف الإنسان ماذا له وماذا عليه، ماذا ينبغي أن يفعل اليوم، وماذا ينبغي أن يفعل غدًا وبعد غد، وهكذا، ولذلك ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

QaradawiBooks.com

وكلمة «خير» كلمة محبوبة عند النَّاس. كل النَّاس يحبون الخير، ويريد أن يزداد الخير، والإنسان يحب أن يفعل الخير، ويقول الخير، ويدعو إلى الخير، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قلنا: إنَّ الله حكيم فيما شرع وفيما قدر، هو حكيم في شرعه، وحكيم في قدره، كل ما قدر الله في الكون ثق أنَّه خير، حتَّى الأشياء الَّتي تظن أنَّها شر، اعلم أن وراءها خيرًا.

سيدنا عمر كان يقول: ما أُصِبْتُ بمصيبة إلَّا كان لله عليَّ فيها أربع نِعَم: أنَّها لم تكن في ديني، وأنها لم تكن أكبر منها، وأنني لم أحرم الرضا عند نزولها، وأنني أرجو ثواب الله عليها[1].

وما يذكر إلَّا أولو الألباب:

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ثمَّ تختم الآية بهذا الختام البديع: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي أصحاب العقول، هم الَّذين يستفيدون من الحكمة، القرآن كتاب العقلاء، من يقرأ منكم أسفار التوراة لا يكاد يجد ذكرًا للعقل أو اللب أو النُّهى أو العلم أو الفكر، لكن القرآن مليء بهذه الأشياء، كلمة «الألباب» ذكرت في القرآن ست عشرة مرَّة، منها ما جاء في سورة البقرة نفسها: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وهنا يقول: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(١) إحياء علوم الدين (١٢٩/٤).

غير مرخصة للطباعة
نسخة ميزانية
QaradawiBooks.com

الإنسان تصيبه الغفلة، فينسى أن يتعقل، وينسى الحكمة، ويمشي وراء الهوى والشيطان الرجيم، إنَّما الَّذي لا ينسى الحكمة هم أولو الألباب، وأصحاب العقول.

والقرآن دائمًا ينوِّه بالعقول، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]. ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]. النهى والحجر هذه كلها العقول، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. هم الَّذين ينتفعون بالحكمة، هم الَّذين يمضون أمورهم الدينيَّة والدنيويَّة، العاجلة والآجلة، الفرديَّة والاجتماعيَّة، يمضون كل هذه الأمور على أساس الحكمة، كما يحب الله تبارك وتعالى.

فهذه هي الآية الكريمة الَّتي وضعها الله في هذا الموضع في سياق الحديث عن النفقات والصفقات وتصريف الأموال، حتَّى يستطيع النَّاس أن يُمضوا كل ذلك بحكمة، فلا ينفقون المال حيث لا يحب الله، ولا يمسكونه عمَّا يجب أن ينفق فيه كما يحب الله ﷻ، وإنَّما يضعون كل شيء في موضعه، وبذلك ينالون ربح الدُّنيا، وسعادة الآخرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الأربعون
آية المداينة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

تعدُّد موضوعات سورة البقرة:

استمعنا الليلة إلى ختام سورة البقرة، وسورة البقرة سورة حافلة بالقصص والأحكام، وهي أطول سور القرآن، وفيها أعظم آية في القرآن «آية الكرسيّ»، وفيها أطول آية في كتاب الله «آية المداينة».

QaradawiBooks.com

في سورة البقرة قصص مختلفة، قصَّة أبي البشريَّة آدم عليه السلام مع إبليس، مع الشيطان، وقصة بني إسرائيل، وقصة طالوت وجالوت وداود، وغير ذلك من القصص، وفيها أحكام كثيرة، أحكام في العبادات، وأحكام في المعاملات.

في سورة البقرة حديث عن الصلاة، وصلاة الحرب: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

وفيها حديث عن الصيام، ولم يُذكر الصوم في غيرها من السُّور، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤]، إلخ الآيات الَّتي تحدَّثت عن الصيام.

وفيها حديث عن الحج، وأحكام الحج، ولم يُفَصَّل الحج في سورة أخرى كما فُصِّل في سورة البقرة، حتَّى أكثر من سورة الحج نفسها، ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ...﴾ [البقرة: ١٩٦]، إلخ الآيات الَّتي تحدَّثت عن الحج.

وفيها حديث عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢]، إلخ الآيات الَّتي تحدَّثت عن الإنفاق في سبيل الله.

QaradawiBooks.com

وفيها حديث عن الزكاة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وفيها حديث عن الصدقة، ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وفيها حديث عن المعاملات، وأحكام المعاملات، ومن أحكام المعاملات: «آية المداينة»، أطول آية في القرآن، وهي الآية الَّتي نحاول أن نتحدث في رحابها في هذه الليلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أبلغ ردٍّ على العِلمانيين:

سورة البقرة ـ كما أشرنا من قبل ـ حافلة بجلائل المعاني وعظائم الأحكام، في الدين والدُّنيا، في شؤون الفرد وشؤون الأسرة وشؤون المجتمع وشؤون الدولة، اهتمت بصغير الأمور وكبيرها، حتَّى إن أطول آية فيها وفي كتاب الله عامَّة نزلت في هذا الشأن البسيط.. شأن كتابة الدَّيْن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ...﴾ [البقرة: ٢٨٢] إلى آخر هذه الآية الطويلة.

وفي هذا ردٌّ على من يقولون بأن الدُّنْيا أهون عند الله من أن يُنزل آياته ويبعث رسله لتنظيمها، الدُّنْيا متروكة لعقول العباد ينظِّمونها بعقولهم. هؤلاء العلمانيون يقولون هذا الكلام، ليبرِّروا التوجه العلماني اللاديني، الَّذي يفصل الدين عن شؤون الحياة، وشؤون المجتمع، وشؤون السياسة والاقتصاد، ليلعبوا هم كما يشاؤون، ويعبثوا بما يشاؤون، فقالوا هذا الكلام.

QaradawiBooks.com

وممَّا نردُّ عليهم به أنَّ الله تعالى أنزل أطول آية في كتابه لتنظيم هذا الأمر، الدُّنْيا كلها متاع قليل، ورزق الإنسان في الدُّنْيا قليل من هذا القليل، ورزق الإنسان ليس كله دَيْنًا، الدَّيْن جزء من الرزق، فهو قليل من قليل من قليل، ومع هذا أنزل الله فيه هذه الآية الطويلة، وهذا يدل على عناية الله تعالى بأمر الإنسان.

الأمر بكتابة الدَّيْن:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ في حالة الدَّيْن، اكتبوا الدَّيْن، حتَّى تُحفظ الحقوق عند التنافر والاختلاف، فبدلًا من أن تعطي أحدًا الدَّيْن ثمَّ بعد ذلك من الممكن أن يطمع، ويوسوس له الشيطان، والنفس أمَّارة بالسوء، والدنيا تُغري، وقرناء السوء وشياطين الإنس والجن قد يزيِّنون له أن يأخذ الحق ويجحده، يقول: أنا لم آخذ منك شيئًا. إذن فالأولى أن يُكتَب الدَّيْن.

وقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلِّقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلًا مالًا فلم يُشْهِد**»[(١)].

أحد هؤلاء الثلاثة رجل أعطى رجلًا دَيْنًا فلم يكتب ولم يُشْهِد، فجحد الرجل الدَّيْن، فهو يدعو الله فلا يستجيب الله له، لماذا؟ لأنَّه هو الَّذي ضيَّع حقَّه بيده، لم يكتب ولم يُشْهِد، وقد قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٢].

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٣٠٢/٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبي موسى. ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٨٠٥)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

عناية الله بأمر عباده:

انظروا كيف يُعنَى الله ﷻ بأمر عبـــاده، الدُّنْيا كلها أيُّها الإخوة متاع قليل، ورزق الإنسان في الدُّنْيا قليل من هذا القليل، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. رزق الإنسان الفرد في هذه الدُّنْيا الواسعة كم يكون من هذا القليل، واحد على كم من المليون أو البليون، شيء قليل للغاية، رزق الفرد من هذه الدُّنْيـــا قليل من قليل، والدَّيْن من هـــذا الرزق قليل من قليل من قليل، ومع هذه القلَّة ينزل الله أطول آية في كتابه لينظِّم كتابة الدَّيْن، كيف تكتب الدَّين على من عليه الدَّيْن، هذا من عناية الله تعالى بأمر خلقه.

الإسلام دين ودولة:

العجيب أنَّه منذ سبعين سنة أو أكثر، ألَّف أحدهم كتابًا ـ وهو عالم أزهري للأسف ـ ألّف كتابًا سمَّاه: «الإسلام وأصول الحكم»، وهو كتاب صغير، ليس له وزن من الناحية العلميَّة، ولكنَّه طنطن بما طنطن به أعداء الإسلام، من المستشـــرقين والمُنَصِّرين والمغربين، الَّذين دخلوا الأزهر واســـتطاعوا أن يؤثروا في أحَدِ علمائه، ليقول: إنَّ الإسلام دين لا دولة فيه، وإنَّ الإســـلام مجـــرد رســـالة روحيَّة، وليـــس له علاقـــة بالحكم ولا بالسلطة ولا بالدولة، ولا بشيء من هذا.

وهـــذا كلام لم يقله أيّ عالم مســـلم طوال أربعة عشـــر قرنًا من الزمان قد مضت، وكان من الأشياء الَّتي اســـتدل بها: أنَّ الدُّنْيا هيِّنة عند الله، ولا تزن عند الله جناح بعوضة، هل الدُّنْيا هذه الهينة الرخيصة عند الله معقول أنَّه ينزّل كتابًا ويبعث رسولًا ويفصِّل أحكامًا من أجل تنظيم هذه الدُّنيا؟ ربنا ترك هذا لعقول النَّاس، أنتم أعلم بأمر دنياكم،

QaradawiBooks.com

اتَّخذ الحديث الَّذي قاله النبي ﷺ في مناسبة معينة: «**أنتم أعلمُ بأمْرِ دُنْياكم**»[١]، حجة لما يقول.

النبيُّ ﷺ نشأ في وادٍ غير ذي زرع، في مكَّة لا يعرفون عن الزراعة شيئًا، ولا عن النخيل شيئًا، وبعد الهجرة وجدهم يؤبِّرون النخل (يلقحونه)، فسألهم ماذا تعملون؟ قالوا: نؤبِّر النخل، قال: «**ما أظنه يصلح**»، فظنوا أن هذا وحي، فتركوا النخل دون أن يلقحوه، فلم ينتج النخل إنتاجًا ينفع، فقال ﷺ ما هذا؟ قالوا: يا رسولَ الله، لقد أشرت علينا بعدم تأبير النخل، فقال ﷺ: «**إنِّي إنَّما ظننتُ ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظنِّ، ولكن إذا حدَّثتكم عن الله شيئًا، فخذوا به، فإنِّي لن أكذب على الله** ﷻ»[٢].

وكما ورد في صحيح مسلم، عن رافع بن خَدِيج قال: قدم نبيُّ الله ﷺ المدينة، وهم يؤبِّرون النخل، فقال: «**ما تصنعون؟**» قالوا: كنا نصنعه. قال: «**لعلَّكم لو لم تفعلوا كان خيرًا**». فتركوه، فنفضت، أو فنقصت. قال: فذكروا ذلك له، فقال: «**إنَّما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنَّما أنا بشر**»[٣].

أنا لا علم لي بالزراعة، هذا في الأمور الفنية. فالدين لم يأت لينظم أمر الزراعة، ولا أمور الطب، ولا أمور الصناعة، إنَّما جاء يضع المبادئ والتوجيهات والتشريعات، حتَّى لا يضل النَّاس، ولا يتيهوا في الحياة.

فقال هؤلاء: إنَّ الدُّنْيا أهون من أن يُنزل الله قرآنًا يتلى، ويبعث رسولًا لينظم شؤون الحياة. وهذا كذب على الله، ومغالطة كبيرة، فآية الدَّيْن هي

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦١)، طلحة بن عبيد الله.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٢)، عن رافع بن خديج.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أطول آية في كتاب الله، جاءت تنظم هذا الأمر الهين، وهذا يدلنا على أنَّ الله لم يترك النَّاس سدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. لم يترك النَّاس لعقولهم؛ لأن العقول كما ذكرنا يمكن أن تضل بالناس، ويفعلون ما يفعلون والعياذ بالله، فمن أجل هذا أنزل الله هذه الآية تنظم هذا الأمر البسيط، أمر كتابة الدين.

العدل في كتابة الدين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾، يكتب بالعدل ولا يُحرّف، ولا يَتحيَّز لأحد الطرفين، والغريب أن «كاتب العدل»، أصبح مهنة رسميَّة، وصفة معروفة عند كثير من البلاد لشخص معروف، يسمى: «كاتب العدل»، فأصبح يقال: اذهب عند «كاتب العدل»، أو وثِّق هذا عند «كاتب العدل»، وهكذا، فهي صفة لشخص معروف بكتابة الوثائق.

النهي عن امتناع الكاتب عن الكتابة:

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾، إذا أعطى الله واحدًا نعمة، لا بدَّ أن يستخدمها في نفع النَّاس، ولا يمتنع ويحتكر هذه النعمة، أو يرفض، ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾، فإذا كنتَ تستطيع أن تكتب فلا تأب الكتابة، تستطيع أن تكتب إذن لا تأب الكتابة.

الذي يملي وثيقة الدَّيْن هو المَدِين:

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾، من الَّذي يملي؟ الَّذي له الحق، أم الَّذي عليه الحق؟ الَّذي يملي هو الَّذي عليه الحق، يقول مثلا: أخذتُ من فلان

QaradawiBooks.com

ألف ريال، أو ألف جنيه، اكتب ألف ريـــال قطريّ فقط لا غير، وهكذا. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

وليُّ المدين السفيه هو الَّذي يملي وثيقة الدين:

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لصغر ســـنٍّ أو لمرض، أو لجنون، أو كان إنسانًا ســـفيهًا غير مؤتمَن، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾، ليكن وليُّه هو الَّذي يُمْلِل، لا بدَّ وأن يكون له وليّ، في الإسلام إذا لم يكن الإنسان وليًّا على نفسه لا بدَّ وأن يكون له وليّ.

الشهادة على الدين:

ولكي تتوثَّـــق الحقوق لا بدَّ من الشـــهادة، ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، إذا أردت أن توثِّق هذا العقد عقد الدَّين، استشهد برجلين، لماذا من رجالكم؟ لأن الرجل حر نفســـه؛ لأنَّك لو استشهدت بفتاة قد يمنعها أبوها من الشـــهادة، أو تستشـــهد بامرأة فيمنعها زوجها، فيضيع حقك، فالأوْلى أن تستشهد برجلين.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، لماذا رجل وامرأتان؟ ليس هذا طعنًا في النساء كما يظن بعض النَّاس، فالقـــرآن علل، فقـــال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، النســـاء ذاكرتهن في الأمور المدنيَّة والماليَّة ضعيفة؛ لأنهن لا يهتممن بهذا الأمر، ممكن تكون امرأة ســـيدة أعمال، إنَّما أنا أتكلَّم عن ٩٩٪ منهن لا يهتممن بهذه الأمور، فلماذا أضيع حقي؟ إذن لا بدَّ من رجل وامرأتين، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، إذا نَسِيَت إحداهما ذكرتها

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

أختها، فتقول لها: ألا تتذكرين يا أمَّ فلان يــوم كذا وقد كنا في مكان كذا وقد كان كذا وحدث كذا وكذا؟ فتحاول أن تذكرها، فبهذا لا تضيع الحقوق.

للمرأة أهليَّة مثل ما للرجل:

وهذا ليس معناه أنَّ المرأة أقل من الرجل، أو أنَّها أنقص إنسانيَّة منه، لا. المرأة عندها أهليَّة مثل أهليَّة الرجل، ومن حقها أن تتملك كما يتملك الرجل، ومــن حقها أن تبيع وأن تشــتري، وأن ترهــن وأن تتصرف كما يتصرف الرجــال، ولكن هذا من أجل حفظ الحقــوق، ولذلك في بعض الأحيان تقبل شــهادة المرأة وحدها، يعني في القضايا المتعلِّقة بالنســاء، تشــهد المرأة أن فلانة هذه ولدت ذكرًا، أو هي الَّتي ولَّدتها، أو أن فلانة هذه حائض، أو فلانة هذه نفساء، أو أنَّها أرضعت فلانًا وفلانًا من ثدييها، فهناك أمور تكفي فيها شــهادة امرأة واحدة، في الأمور الَّتي لا يكون فيها رجال، كأعراس النساء، فالمالكية وغيرهم قالوا: تسمع شهادة النساء على النساء، وكذلك في الحمامات العامة.

تكريم الإسلام للمرأة:

ليس معنى أنَّ الإســلام جعل شهادة الرجل بشــهادة امرأتين أنَّ هذا طعن في النســاء، فلا يوجد دين كرَّم المرأة كما كرَّمها الإسلام، الإسلام كرمها إنســانة، وكرمها بنتًا، وكرَّمها أختًا، وكرمها زوجــة، وكرمها أمًّا، وكرمها أنثى، وكرَّمها عضوًا في المجتمــع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

QaradawiBooks.com

هذا التفاوت في شـــهادة المرأة ليس لنقص إنسانيتها أو كرامتها، بل لأنَّها ـ بفطرتها واختصاصها ـ لا تشتغل عادة بالأمور الماليَّة والمعاملات المدنيَّة. إنَّما يشغلها ما يشغل النســـاء عادة من شؤون الزوج والبيت إن كانت زوجة، والأولاد إن كانت أمًّا، والتفكير في الزواج إن كانت أيِّمًا. ومن ثَمَّ تكون ذاكرتها أضعف في شؤون المعاملات، لهذا أمر الله تعالى أصحاب الدَّين إذا أرادوا الاستيثاق لديونهم أن يُشهدوا عليها رجلين أو رجلًا وامرأتين. وعلَّل القـــرآن ذلك بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

النهي عن الامتناع عن أداء الشهادة:

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [البقـــرة: ٢٨٢]. إذا دعـــي الإنســـان إلى الشـــهادة، لا يجوز أن يمتنع، حتَّى لا يُضيع حقوق الآخرين، وهذا في كل شـــهادة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾، [الطلاق: ٢]. أقم الشـــهادة لله. وقـــال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

الحـرص على كتابة الديـون والعزم على ذلك ولـو كان الدَّيْن صغيرًا تافهًا:

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾، انظروا إلى إلحاح القرآن، حتَّى لا يهمل النَّاس هذا الأمر الصغير، ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾: تملُّوا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي الديـــن ﴿صَغِيرًا﴾ كان ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾: قليلًا أو كثيرًا، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: يعني وقت حلول السداد ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾: أعون وأصوب علـــى إقامتها؛ لأنَّها تُذكِّر الشـــهود، ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾: تشكُّوا في قَدْر الحقّ والأجل المضْروب.

QaradawiBooks.com

استثناء التجارة الحضارة من الأمر بالكتابة:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾: واقعة في مكان التبايع وزمانه ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾، أي: اكتبوا كلَّ دَيْن أو معاملة إلَّا التجارة الحاضرة الَّتي تديرونها بينكم، وتتعاطَوْنها يدًا بيد، ليس فيها أجل مُسَمَّى، فإنَّه يجوزُ فيها عدم الإشهاد والكتابة، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إثم وذنبٌ في ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ فالتجارة الناجزة الَّتي تباع وتُشترى يدًا بيدٍ لا داعي أن تكتب.

الإشهاد على البيع الناجز:

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعني على بيعكم، فإنَّه أدفع للاختلاف، أي: أشهدوا على حقِّكم إذا كان بينكم بيعٌ وشراء فيما جَرَت العادة الإشهاد فيه، سواء كان فيه أجل، أو لم يكن فيه أجل احتياطًا في الأمر. وخصوصًا في الصفقات الكبيرة.

لا ضرر ولا ضرار:

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. «**لا ضرر ولا ضرار**»[1]، هذا حديث عن النبيِّ ﷺ، وهو مأخوذ من القرآن الكريم، القرآن نفى الضرر

(١) رواه أحمد (٢٨٦٥)، وقال مخرِّجوه: حسن. وابن ماجه في الأحكام (٢٣٨١)، عن ابن عباس، والدارقطني في البيوع (٣٠٧٩)، عن أبي سعيد الخدري، وقال النووي في الأربعين (الحديث الثاني والثلاثون): حديث حسن، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندًا، ورواه مالك في الموطأ مرسلًا، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن النبي ﷺ، فأسقط أبا سعيد، وله طرق يقوِّي بعضها بعضًا. وقال ابن الملقِّن في خلاصة البدر المنير (٤٣٨/٢): وصحَّحه إمامنا ـ أي الشافعي ـ في حرملة. وقال ابن رجب: وقد استدلَّ الإمام أحمد بهذا الحديث فقال: قال النبي ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**». وقال أبو عمرو بن الصلاح: هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه، ومجموعها يقوي الحديث ويحسنه، وقد تقبله جماهير أهل العلم، واحتجوا به، =

QaradawiBooks.com

والضـــرار، وقد قَرَأْنا في ســـورة البقـــرة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقرأنا قـــول الله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقـرة: ٢٨٢]. أي: لا يضـــرُّ الكاتـــبُ ولا الشَّـــاهدُ الدائنَ والمدينَ أو البائعَ والمشـــتري، فيكتب هذا خلاف ما يُملى عليه، ويشهد هذا بخلاف ما سمع، أو يكتمها بالكليَّة. فالمضارَّة محرمة وممنوعة في الإســـلام، كل الضرر والضـــرار ممنوع، الضرر أن تبدأ، والضرار أن تجازي، أو الضرر أن تضر نفســـك، والضرار أن تضر غيرك، كل هذا ممنوع، لا يضارَّ كاتبٌ بكتابته غيره من المدين أو الدائن أو أحد البائعين، ولا يضارَّ شهيدٌ بشـــهادته، إن كان الفعل «يضارّ» مبنيًّا للمعلوم. أو لا يضرُّهما صاحب الحـــقِّ بتكليفهما ما لا يليق في الكتابة والشـــهادة لباطل، أو إلزامًا وتضييقًا في المعاملة. وهذا التفســـير الثاني يعني أن فعل «يضارّ» مبني للمجهول.

﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟﴾ ما نُهيتم عنه مـــن الضرار ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾: أي: خروج عن الطاعة لاحقٌ ولازمٌ لكم، لا تنفكُّون عنه.

أهميَّة التَّقوى في حفظ الحقوق:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: دائمًـــا ما يقرن القرآن الأحكام بالتَّقـــوى، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجـــرات: ١٠]؛ لأن الأحكام من غير تقـــوى ممكن أن يتلاعب

= وقول أبي داود: إنَّه من الأحاديث التي يدور الفقه عليها يشعر بكونه غير ضعيف. والله أعلم. انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٢١٠، ٢١١).

QaradawiBooks.com

النَّاس فيها، والقوانين وحدها والأحكام وحدها لا تُصلح المجتمعات، إنَّما تصلح المجتمعات بالنفوس الصالحة، والضمائر الحية النقية، وهذه لا تكون إلَّا بتقوى الله، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

خطأ في فهم هذه الآية:

وكثير من النَّاس يفهم هذه الآية خطأ، ويستدل بها في غير موضعها، يقولون الله تعالى يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، يعني إذا اتَّقيت الله تعالى يعلمك؟! لا، هذه الآية لا تدلُّ على ذلك، لو كانت تدل على ذلك لكان نصها: واتقوا الله يعلمكم الله، إنَّما قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ جملة مستقلة، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ جملة أخرى، بهذه الأحكام يعلمكم الله، ويبين لكم لئلَّا تضلوا.

أمَّا الآية الَّتي تدل على أنَّ التَّقوى تؤدِّي إلى العلم، الآية الَّتي في سورة الأنفال، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]. يعني يعطكم نورًا وعلمًا تفرِّقون به بين الحق والباطل، وبعضهم يستدلُّ بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]. ومنها المخرج من الإشكالات العقليَّة والشبهات وهذه الأشياء، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٢٨].

انظروا أيُّها الإخوة إلى هذا اللطف الإلٰهي، إلى هذه العناية الإلٰهيَّة، هذه الآية الطويلة، أطول آية في كتاب الله نزلت تُعلِّم النَّاس كيف يكتبون الدَّيْن، ومن يكتبه ومن يُمْلِل، ومن الَّذي عليه الحق، وكيف يشهد ومن يُشهِد، هذا كله من عناية الله ولطفه، وأن هذا الدين

QaradawiBooks.com

جاء كما قال الله تعالى تبيانًا لكل شـــيء، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحـــل: ٨٩]. فهو تبيان لكل شـــيء، من رب كل شـــيء، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الحادي والأربعون
خواتيم سورة البقرة

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۞ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۞ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٤ ـ ٢٨٦].

بهذه الآيات الكريمة الَّتي تُليت علينا ختمت أطول سور القرآن، أولى الزهراوين، سنام القرآن، كما سمَّاها رسول الله ﷺ[(١)]، وكما قلنا وكررنا فإن سورة البقرة الَّتي اشتملت على أعظم آية في كتاب الله وهي آية الكرسي، وعلى أطول آية في كتاب الله وهي آية المداينة، وعلى آخر آية نزلت من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١][(٢)]. هذه السورة الَّتي حثَّ

(١) سبق تخريجه صـ ٤٨.

(٢) سبق تخريجه صـ ٣٢٢.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

النبيُّ ﷺ على قراءتها وعلى تعلُّمها، وقال: «**اقرؤوا سورةَ البقرة، فإنَّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**»[١]. أي: السحرة والكَذَبة، لا يقدرون على حفظها، ولا على فهمها، ولا على العمل بها.

وقال ﷺ: «**إنَّ الشيطان ينفر من البيت الَّذي تُقرأ فيه سورة البقرة**»[٢].

ولهذا حرص المسلمون من قديم على هذه السورة، حتَّى ورد عن الصحابة أنَّ الرجل كان إذا حفظ البقرة وآل عمران جَدَّ في أعينهم[٣]. ولمَّا حفظها عمر رضي الله عنه نحر جزورًا[٤]، ولمَّا أراد النبي ﷺ أن يرسل بعض أصحابه في سرية، سألهم عمَّا يحفظون من كتاب الله، فقال أصغرهم سنًّا: أقرأ كذا وكذا وسورة البقرة. فقال له النبي ﷺ: «**أتقرأُ سورةَ البقرة؟**» قال: نعم، قال: «**اذهبْ فأنت أميرهم**»[٥].

هكذا عُني المسلمون بهذه السورة الجامعة؛ لما اشتملت عليه من عقائد، وعبادات، وأحكام، ومواعظ، وقصص، ففيها الصلاة والصيام والزكاة والحج، وفيها النكاح والجهاد والمعاملات والإنفاق في سبيل الله، كلُّ هذا في هذه السورة الَّتي ينبغي أن يحتفي المسلمون بها علمًا وعملًا، وقراءةً وحفظًا.

في معركة اليمامة حينما فتر بعض المسلمين وأحجموا، وكان جيش

---

(١) سبق تخريجه صـ٤٨.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٨٠)، عن أبي هريرة.

(٣) عن أنس قال: كان رجل يكتب بين يدي رسول الله ﷺ، قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ: البقرة وآل عمران، يعد فينا عظيمًا. رواه أحمد (١٢٢١٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) سبق تخريجه صـ٣٢٣.

(٥) سبق تخريجه صـ٤٧.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مسيلمة الكذاب كثيفًا أمامهم، نادى المهاجرون والأنصار: «**يا أصحابَ سورة البقرة**»[١].

فضل خواتيم سورة البقرة:

هذه هي السورة الكريمة الَّتي ختمت بهذه الآيات الثلاث، خواتيم سورة البقرة، وقد جاء في الحديث عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[٢]. قيل: كفتاه عن كل سوء، وقيل: كفتاه شرَّ الشيطان، وقيل: دفعتا عنه شر الإنس والجن، وقيل: أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن[٣].

هيمنة الله على الكون:

هذه الآيات الثلاث الَّتي ختمت بها هذه السورة تقرر الآية الأولى سلطان الله تبارك وتعالى وهيمنته على هذا الكون كله، علويه وسفليه، سماواته وأرضه، وهيمنته كذلك على ما في قلوب النَّاس، وما تُضمره أنفسهم، ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]: إنَّه وحده جلَّ وعلا صاحب السلطان المطلق على الكون كل الكون، وعلى النَّاس كلِّ النَّاس، وعلى الإنسان ظاهره وباطنه، فإذا كان بعض النَّاس يستطيع أن يفلت من يد العدالة، أو يخفي أعماله عن النَّاس، فإنَّه لا يجوز ذلك على الله؛ لأنَّه يعلم السِّرّ وأخفى، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) رواه عبد الرزاق في الجهاد (٩٤٦٥)، وابن أبي شيبة في السير (٣٤٢٥٧)، عن عروة بن الزبير.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٨).

(٣) انظر: فتح الباري (٥٦/٩)، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

QaradawiBooks.com

خوف الصحابة من آية ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾:

لما نزلت هذه الآية: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فزع منها الصحابة، أيحاسبون على ما تخفيه أنفسهم، حتَّى الخواطر، حتَّى أحاديث النفس، يحاسبون عليها، ولكن النَّبيَّ ﷺ قال لهم: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابَيْن من قبلكم سمعنا وعصينا؟ قولوا: سمعنا وأطعنا**». فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير[(١)]، ونزلت بعد ذلك الآية الأخيرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. تبين أنَّ الله تعالى لا يكلف نفسًا إلَّا وسعها، ولا يحاسب النَّاس إلَّا على ما يقدرون عليه، أمَّا الخواطر الَّتي تأتي رغمًا عنهم، الخواطر العارضة، الخواطر الطارئة الَّتي لم تستقر في النفس، ولا تكون عزمًا ونيةً وتصميمًا جازمًا، فإن الله قد عفا عنها، كما جاء في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله تجاوز لأُمَّتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم يتكلَّموا، أو يعملوا به**»[(٢)]. ما لم يخرج ما في النفْس إلى حيز العمل، إلى حيز الكلام، فإنَّ الله تعالى تبارك وتعالى يعفو عنه.

والإنسان قد ينوي الفعل ولكن لا يفعله لعجزه عنه، فالله ﷻ يثيبه على عمله ببركة هذه النيَّة؛ لأنَّه يعلم ما في نفسه، ويحاسبه عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وقع أجره على الله بنيَّته؛ لأنَّ الإنسان يحاسب بنيَّته. وكما في الحديث: «**ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنةٌ كاملة**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٢٥)، وأحمد (٩٣٤٤)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٤)، ومسلم في الإيمان (١٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩١)، ومسلم في الإيمان (١٣١)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

قد يكون الإنسان ممَّن يصوم كلَّ يوم اثنين وخميس، أو يقوم من الليل، ثمَّ يُصيبه مرض فلا يعود قادرًا على قيام الليل، ولا على صيام النَّهار، فيكتب له ما كان يعمله صحيحًا مقيمًا. أو لو كان يقوم من الليل، ثمَّ كان في ليلة مجهدًا ومتعبًا، جاء من عمله مهدودًا مكدودًا، فنام ولم يقم إلَّا لصلاة الصبح، جاء في الحديث أنَّ الله ﷻ يكتب له ما كان ينوي أن يقومه من الليل، وكان نومه صدقة عليه من ربه، يقول رسول الله ﷺ: «**من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يُصلِّي من الليل، فغلبته عيناه حتَّى أصبح، كُتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربِّه** ﷻ»[(١)].

فهذا النوم تصدَّق الله به عليه، فقد أعجزه المرض أو التعب، لكنَّه أخذ هذا الأجر بنيته، هذا في جانب الخير، أمَّا في جانب الشر فلو نوى الشر وصمَّم عليه يكتب عليه سيئة حتَّى ولو لم يفعله، ولذلك جاء في الحديث الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النَّار**»، فقلت: يا رسولَ الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنَّه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[(٢)].

دخل المعركة وهو يريد أن يقتل أخاه المسلم، كل واحد منهما يريد قتل الآخر، فواحد منهما سبق سيفه سيف صاحبه فقتله، فكلاهما في النار، القاتل دخل النَّار بفعله، والمقتول دخل النَّار بنيته.

---

(١) رواه النسائي في قيام الليل (١٧٨٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٤)، وابن خزيمة في الصلاة (١١٧٢)، وابن حبان في قيام الليل (٢٥٨٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد. وصحَّحه الألباني في الإرواء (٤٥٤)، عن أبي الدرداء.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، عن أبي بكرة.

QaradawiBooks.com

التأكيد على أركان الإيمان:

ثمَّ تأتي الآية الثانية وهي تعود لتقرر ما بدأت به السورة من حقيقة الإيمان، الإيمان الَّذي جاء به قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]. في الصفحة الأولى من سورة البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. تأتي هذه الآية فتقرر هذا الإيمان وأركانه فتقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. هذا هو الإيمان كما يريده القرآن، وكما جاء به الإسلام، إنَّه إيمانٌ يبني ولا يهدم.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. كلٌّ من المؤمنين آمن بالله ربًّا إلٰهًا حاكمًا، لا يبتغون غير الله حَكمًا، ولا يبغون غير الله ربًّا، ولا يتَّخِذون غير الله وليًّا، حين تحدَّث القرآن الكريم عن أركان الإيمان ومتعلقاته جعل الإيمان بالله أولها وأصلها، فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

عقيدة الإسلام لا تنحصر في الإيمان بالله فقط، وإنَّما تتمثَّل في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فالإيمان بالله هو الأصل، وكل أركان العقيدة الأخرى مضافة إليه وتابعة له، فأنت بعد أن تؤمن بالله جل شأنه، تؤمن بالتالي بملائكته وكتبه ورسله ولقائه وحسابه وقضائه وقدره.

QaradawiBooks.com

فالإيمان بهذه الأركان كلها فرع عن الإيمان بالله، ومبنيَّة عليه، ولا يتصور الإيمان بالرسول إلَّا بعد الإيمان بالمرسل، ولا بالجزاء والحساب إلَّا بعد الإيمان بالمجازي والمحاسب.

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. الملائكة هم رسل الله ووسطاؤه إلى خلقه، وحملة رسالته إلى أنبيائه، وجنوده في هذا الكون، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. آمَنوا بهذا الخَلْق، بهذا الغيب غير المنظور، فليس كل من في العالم نستطيع أن ندركه بحواسنا القاصرة، وإنَّما هناك مخلوقات مغيَّبة عنَّا.

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. آمن بهذه النصوص المنزلة الَّتي تحمل شرائع الله إلى خلقه، تحمل هداية السماء إلى الأرض، تحمل ما يريده ربُّ النَّاس من النَّاس، من المكلفين، هذه الكتب تحكم بين النَّاس فيما اختلفوا فيه، فعقول النَّاس قاصرة، لا تدرك ما يريده الله تعالى منها، وهي تختلف فيما بينها، تختلف من جيلٍ إلى جيل، ومن بيئة إلى بيئة، بل من شخصٍ إلى شخص، بل الشخص الواحد يختلف إدراكه وتفكيره وحكمه على الأشياء من وقت إلى وقت، من الشباب إلى الشيخوخة، من فقر إلى غنى، من رخاء إلى شدة، تختلف أحكامه على الأشياء، ومن هنا كان النَّاس في حاجة على هداية من الله، إلى كتب الله ﷻ.

﴿وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. هذا هو الإسلام يدعو أتباعه إلى الإيمان بكلِّ كتاب أُنزل، وبكلِّ نبي أرسل، لا يتمُّ الإيمان إلَّا بهذا، أصول الرسالات واحدة، ودين الله تعالى واحد، وهو دين الإسلام الَّذي بعث الله به كلَّ النبيين، فالأديان السماويَّة كلها ترجع

QaradawiBooks.com

إلى أصل واحد، وهو الوحي الإلٰهي، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقوله: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ [الشورى: ١٥]. لا نفرِّق بين أحد من رسله كما فعل أهل الكتاب من قبل، آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

لم يحصر القرآن كلَّ الأنبياء والرسل، بل قال: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ [غافر: ٧٨]. ولكن نؤمن بالجميع، لأنَّ من كذَّب واحدًا من الرسل، فكأنَّما كذَّبَ رسل الله جميعًا، ولهذا يقول القرآن في قوم نوح: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

نوح أوَّل النبيين وشيخ المرسلين، فقوم نوح ما كذَّبوا إلَّا نوحًا، ولكن من كذَّب رسولًا واحدًا، فكأنَّما كذَّب كلَّ الرسل، وكذلك قال عن عاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، لأن تكذيب الرسول الواحد تكذيب لجميع المرسلين.

المسلمون وحدهم هم الَّذين يؤمنون بكلِّ رسول أرسله الله.

ولقد عاب القرآن على اليهود والنَّصارى أنَّهم آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، آمن اليهود بموسى وكفروا بعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وآمن النَّصارى بعيسى وموسى وكفروا بمحمدٍ ﷺ، وآمن المسلمون بكلِّ رسل الله.

وفي هذا يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ

QaradawiBooks.com

عَذَابًا مُّهِينًا ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

ولهذا قال أحد المسلمين لمن جادله من النَّصارى واليهود: لو قال الله لليهود: ادخلوا الجنَّة وراء موسى. لدخلناها نحن المسلمين معهم؛ لأنَّنا نؤمن بموسى، وإذا قال الله للنصارى: ادخلوا الجنَّة وراء عيسى. لدخلناها معهم، لأنَّنا نؤمن بعيسى، ولكن لو قال للناس: ادخلوا الجنَّة وراء مُحَمَّد ﷺ. فلن يدخلها إلَّا المسلمون؛ لأنَّ المسلمين وحدهم هم من يؤمن بكلِّ رسل الله ﷻ، فالجنَّة لنا نحن المسلمين على كلِّ حال.

فالذين آمنوا بكلِّ رسل الله هم المسلمون، ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

إيمان والتزام وسمع وطاعة لله ولرسوله:

ليس مجرد إيمان، ولكنَّه إيمان والتزام، وسمع وطاعة، ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وبهذا يتحوَّل إلى عملٍ وتطبيقٍ وتنفيذ، وهم مع إيمانهم والتزامهم ليسوا مغرورين، إنَّهم يشعرون بالتقصير أمام ما أوجب الله عليهم، فهم يقولون: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وبهذا ينضمُّ الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالمصير، إلى متعلّقات الإيمان.

الإسلام دين اليسر:

ثمَّ تُختم السورة الكريمة بهذه الآية الكريمة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. لا يكلف الله نفسًا فوق وسعها أبدًا، إنَّه برأفته

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وإحسانه إلى خلقه يكلف كلَّ إنسان بما يستطيع ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١).

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ما كسبت من الخير فهو لها وحدها، وهذا سر تقديم «لها» على «ما كسبت»، وعليها ما اكتسبت من شر، ومن أسرار التعبير القرآني أنَّ أدنى كسب يكتب للإنسان، ولكن لا بدَّ في الشر من محاولة واجتهاد واحتيال وافتعال؛ ولهذا قال الله: ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من الشر، فزاد في كسب الشر همزة الوصل والتاء.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. هذا الدين لم يجئ لطبقة خاصَّة، أو لإقليم محدود، أو لعصر معيَّن، بل جاء عامًّا لكلِّ النَّاس، في كلِّ الأرض، وفي كلِّ الأزمان والأجيال، وإن نظامًا يتَّسم بهذا التعميم وهذه السعة، لا بدَّ أن يتجه إلى التيسير والتخفيف، ليتسع لكل النَّاس، وإن اختلف بهم المكان والزمان والحال.

وهذا ما يُحِسُّه ويلمسه كلُّ من عرف هذا الدين، فالقرآن مُيَسَّر للذكر، والعقيدة ميسرة للفهم، كما أنَّ الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق، ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين، كيف وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة في أكثر من آية، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف: ٤٢]. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقد نفى القرآن كل حرج عن هذه الشريعة، كما نفى عنها العنت والعسر، وأثبت لها التخفيف واليسر، وجاءت الأحاديث النبويَّة تؤكد هذا

(١) سبق تخريجه صـ١٧٢.

QaradawiBooks.com

الاتجاه القرآني: «**إنِّي أرسلت بحنيفيَّة سمحة**»[١]. «**إنَّما بعثتم مُيَسِّرين ولم تبعثوا مُعَسِّرين**»[٢]. «**يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا**»[٣].

ولا غرو أن شرع الإسلام الرخص عند وجود أسبابها، وذلك كالترخيص في التيمُّم لمن خاف التضرر باستعمال الماء لجرح أو لبرد شديد، وكذلك الترخيص في الصلاة قاعدًا لمن تضرر بالصلاة قائمًا، والترخيص في الإفطار لمن كان مريضًا أو على سفر، وجاء في الحديث: «**إنَّ الله يحبُّ أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته**»[٤]. وأصبح من القواعد الفقهية الأساسيَّة المقررة لدى المذاهب الإسلاميَّة: «المَشقَّة تَجلب التيسير»، وهي أصل له فروع كثيرة وفيرة في شتَّى أبواب الفقه، هذه هي الآية الأولى من هذه الخواتيم.

الدعاء المستجاب:

ثمَّ خُتِمت السورة كلها بهذا الدعاء العظيم المستجاب، كما جاء في صحيح مسلم عن ابن عبَّاس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء، فقال النبي ﷺ: «**قولوا: سمعنا وأطعنا وسلَّمْنا**». قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن**

(١) رواه أحمد (٢٤٨٥٥)، وقال مخرِّجوه: حديث قوي. وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٤٣/٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٨٢٩)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٧٣٤)، عن أنس.

(٤) رواه أحمد (٥٨٦٦)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح. وابن خزيمة في الصيام (٢٠٢٧)، وابن حبان في الصلاة (٢٧٤٢)، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل (٥٦٤)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

﴿نَسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال: «قد فعلتُ». ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ قال: «قد فعلتُ». ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾، قال: «قد فعلتُ»(١).

إنَّنا بشر، والبشر من طبيعتهم النسيان، ومن طبيعتهم الخطأ، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فقد جاء رسولك بالحنيفيَّة السمحة، جاء يرفع الآصار والأغلال الَّتي كانت على الأمم من قبلنا، وقد عُرف رسولك في كتب الأولين بهذه الأوصاف المميزة: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. لا تحمل علينا الإصر والأغلال كما كان على اليهود الَّذين حرَّمت عليهم طيِّبات أُحلَّت لهم، بظلمهم وصدهم عن سبيل الله كثيرًا، وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه، ربنا لا تحمل علينا من التكاليف ما يشق علينا مشقةً شديدة، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. من التكاليف، أو من المحن والمصائب، فإنَّا عبيد إحسان، ولسنا عبيد امتحان.

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. اعف عنَّا فيما بيننا وبينك يا رب، واغفر لنا فيما بيننا وبين عبادك، لا تفضحنا فيما بيننا وبينهم، استر مساوئنا عنهم، وارحمنا في المستقبل واحفظنا من الذنوب، ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. أي: أنت ولينا وناصرنا وسيدنا ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. اللهمَّ آمين.

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٢٦).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

دروس

من سورة آل عمران

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الأوَّل
المحكم والمتشابه في القرآن

التعريف بالسورة:

سورة آل عمران سورة مدنيَّة، وفيها حاجَّ الله أهلَ الكتاب في آيات كثيرة، فالنصف الأوَّل من السورة في محاجَّة أهل الكتاب، والنصف الثاني في التعقيب على غزوة أحد، غزوة أحد الَّتي أصيب فيها المسلمون، وفقدوا سبعين رجلًا من رجالهم، سبعين شهيدًا من الوزن الثقيل، من أمثال حمزة بن عبد المطَّلب، ومصعب بن عُمَيْر، وأنس بن النضر، وعبد الله بن جحش. وغير هؤلاء من الأبطال الَّذين أنزل الله فيهم هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

نقف هذه الليلة مع الآية السابعة من سورة آل عمران، الَّتي يقول الله تعالى فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

القرآن محكَم ومتشابِه معًا:

إنَّ ممَّا لا ريب فيه أنَّ في القرآن محكمًا ومتشابهًا، وفقًا لما صرَّحت به هذه الآية: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، مع أنَّ

نسخة جانبية

القرآن أثبت في آية أخرى أن آياته كلها محكَمة، كما قال تعالى في مطلع سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ومعنى «إحكامها»: إتقانها وإحسانها بحيث لا يتطرَّق إليها أي لون من ألوان الاختلال في اللفظ أو المعنى، في المفردات أو الجمل، في الأخبار أو الأحكام. كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿صِدۡقٗا﴾ في الأخبار، ﴿وَعَدۡلٗا﴾ في الأحكام.

ووصف القرآن في آية أخرى بأنَّه كله متشابه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومعنى تَشابُهِه: أنَّه يشبه بعضه بعضًا في بلاغته وإعجازه، وروعة تأثيره، وفي صدق أخباره، وعدالة أحكامه، وكذلك في تناسقه وتناغمه بحيث يصدِّق بعضه بعضًا، ولا يتناقض بعضه مع بعض: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

معنى المحكم والمتشابه:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾، هذه الآية بيَّنت أن في القرآن آياتٍ محكمات، وأخرَ متشابهات، فما معنى المحكم، وما معنى المتشابه في القرآن؟

المحكم: ما عرف المراد منه، قيل: ولو بالتأويل، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه، كالحروف المقطعة، وهو معنى قول بعضهم: إنَّ المحكم: هو المكشوف المعنى الَّذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال. والمتشابه: ما يتعارض فيه الاحتمال، ويجوز أن يعبر به عن الأسماء المشتركة: كالقُرْء، المتردد بين الحيض والطهر، وكاللمس، المتردِّد بين

QaradawiBooks.com

المسّ والوطء، وقد يطلق على ما ورد في صفات الله تعالى ممَّا يوهم ظاهره الجهة والتشبيه، ويحتاج إلى تأويله.

من يعلم المتشابه من القرآن؟

وقد اختلف العلماء: هل يُعلم المتشابِه، أو لا يُعلم؟ على قولين، منشؤهما: هل الوقف في الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، على لفظ الجلالة: «الله» أو «العلم»؟

والراجح الوقوف التام على لفظ الجلالة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثمَّ نستأنف القراءة: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

ومما يرجِّح هذا الرأي: أنَّ الآية بعد أن ذكرت المحكمات والمتشابهات في القرآن، بدأت تفصل موقف النَّاس من ذلك فقالت: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧]، إلخ. ومقابل هؤلاء: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]. وبدون الوقوف على لفظ الجلالة «الله» لا يكون هناك مقابل لما بعد «فأمَّا».

الرسوخ في العلم هو وقوفهم عند ما يعلمون:

وما رسوخهم في العلم إذا كانوا لا يعلمون تأويل الآيات؟ رسوخهم في العلم أنَّهم وقفوا عند حدودهم، ولم يخوضوا فيما ليس لهم به علم، كما اجترأ عليه غيرهم، ومن دلائل رسوخ العالم وقوفه عند ما يعلم، ولا يتجاوزه إلى ما لا يعلم، وهذا لا يكون إلَّا في المتشابه الحقيقي لا الإضافي، كما بين الشاطبي وغيره[1].

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٣/٩١، ٩٢)، تحقيق عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

الملائكة عندما عرض الله عليهم أن يأتوا بأسماء الأشياء، قالوا: سبحانك لا علم لنا إلَّا ما علمتنا، كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

هذا هو الرسوخ في العلم، أن تقول فيما تعلم ما تعلمه، وما لا تعلم تقول: والله لا أعلم، العلم في ذلك عند الله، اسألوا غيري. ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

التحذير من اتِّباع المتشابهات:

فاتِّباع المحكمات واتِّخاذها الأصل والقاعدة في التفكير والسلوك من شأن الراسخين في العلم، واتباع المتشابهات من شأن الَّذين في قلوبهم زيغ ودغل ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، ثمَّ قال: «**فإذا رأيتم الَّذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الَّذين سمَّى الله، فاحذروهم**»[1].

وإذا تركت المحكمات فُتح الباب للمراء والاختصام، ولا سيَّما في المسائل الدقيقة، الَّتي حيَّرت العقول قديمًا وحديثًا، ولا تزال إلى اليوم، ومن ثَمَّ اشتدَّ نكير النبيِّ ﷺ على من يضرب القرآن بعضه ببعض ولا يرد متشابهه إلى محكمه.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٤٧)، ومسلم في العلم (٢٦٦٥).

QaradawiBooks.com

عن عبد الله بـــن عمرو قال: خرج رســـول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنَّما يفقأ في وجهه حـــب الرمان من الغضب، فقال: «**أبهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض! بهذا هلكت الأمم قبلكم!**»[1].

فالنبيُّ ﷺ من شدَّة غضبه احمرَّ وجهه احمرارًا يشبه فقء حبِّ الرمان الأحمر في الوجه، وقوله للصحابة: «**أبهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟**»، ينكر عليهم أن ينفقوا جهودهم وأوقاتهم، في هذا البحث الَّذي لا طائل تحته، ولا ثمرة من ورائه، فما أمرهم الله بهذا، ولا خلقهـــم لهذا، إنَّما خلقهم وخلق العالم من حولهم ليبلوهم أيهم أحسن عملًا.

وأبرز ما أنكره عليهم النبـــيُّ ﷺ: أنَّهم يضربون القرآن بعضه ببعض، وهذا يحدث غالبًا من اتِّباع المتشابهات، الَّتي تختلف دلالاتها، وتتعارض ظواهرها، دون أن ترد إلى المحكمات البيِّنات، الَّتي إذا تدبَّرها المنصف حسمت النزاع، وهذا ما يبدو من اتجاه هذا المجلس الَّذي ثار فيه الجدل بين الصحابة حول موضوع من أدق المواضيع وأغمضها، وهو: القدر.

وقد أنزل الله كتابه ليصدِّق بعضه بعضًا، ويفسِّر بعضه بعضًا، فلا بدَّ من جمع نصوصه في الموضوع الواحد، بعضها إلى بعض، حتَّى تتضح الصورة كاملة، فيحمل المطلق على المقيَّد، والعام على الخاصِّ، ويبيَّن المجمل بالمفصَّل، وكذلك السُّنَّة بعضها ببعض، ونصوص القرآن والسُّنَّة جميعًـــا، لا يجوز أن ينظـــر إلى كل منهمـــا نظرة منفصلـــة معزولة عن النصوص الأخرى، فهذا يوقع الباحث في الخطأ، وإن لم يقصد إليه.

(١) رواه أحمد (٦٦٦٨)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٨٥)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤١/١): إسناده صحيح رجاله ثقات. عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

ومن ذلك: ردُّ المتشابهات إلى المحكمات، والظنيَّات إلى القطعيَّات، والجزئيَّات إلى الكليَّات، والفروع إلى الأصول، حتَّى يؤمن الزلل، والوقوع في الخطل والخلل.

فالبشر بطبيعتهم يتناقضون ويختلفون من عصر إلى عصر، بل في العصر الواحد من زمن إلى آخر، ومن قُطر إلى قطر، بل في القطر الواحد من إقليم إلى آخر، وفي الإقليم الواحد من بيئة إلى أخرى، وفي الأمة الواحدة من شعب إلى آخر، وفي الشعب الواحد من فئة إلى أخرى، وفي الفئة الواحدة من فرد إلى آخر، بل في الفرد الواحد من حالة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر.

فكثيرًا ما رأينا تفكير الفرد في مرحلة الشباب يناقض تفكيره في مرحلة الكهولة أو الشيخوخة، وكثيرًا ما وجدنا آراءه ساعة الشدة والفقر، تخالف آراءه في ساعة الرخاء والغنى، فإذا كانت هذه هي طبيعة العقل البشري، وضرورة تأثُّره بالزمان والمكان والأوضاع والأحوال، فكيف نتصوَّر براءته من التناقض والاختلاف، فيما يضعه من مناهج للحياة، سواء كانت مناهج للتصور والاعتقاد، أو للعمل والسلوك؟!

إن الاختلاف والتناقض لازمة من لوازم الفكر البشري ولا ريب، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثاني
أسرة آل عمران عليهم السَّلام

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۞ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۞ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۞ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٤١].

احتفاء القرآن بعيسى المسيح:

فنحن منذ الأمس نقرأ في هذه السـورة الكريمة «سورة آل عمران»،

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهي إحدى الزهراوين، والزهـــراوان هما: البقرة وآل عمـــران[1]. وجاء فيهما من الأحاديث في فضلهما ما جاء.

عُني القرآن بأهل الكتاب عامَّة، وبالمسيح وأسرته بصفة خاصَّة، فقد احتفى القرآن الكريم بالمسيح عليه السلام وأســـرته غاية الاحتفاء، حينما جعل هناك سورة من سوره باسم أســـرة المسيح، وهي ســـورة «آل عمران»، و«آل عمران» هم: عمـــران والد مريـــم، وامرأة عمـــران أم مريم وجدة المسيح، ومريم أم عيسى، وعيســـى عليه السلام، هؤلاء هم «آل عمران» الَّذين اصطفاهم الله علـــى العالمين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالَمي زَمانِهم.

واحتفـــى القـــرآن بالمســـيح فجعـــل هنـــاك ســـورة باســـم والدة المسيح عليها السلام، وهي «سورة مريم»، هذه الســـورة الَّتي جعلها الله لمريم الصدِّيقة البتول عليها السلام.

واحتفى القرآن بالمسيح نفســـه، حينما جعل هناك سورة من سوره باســـم معجزة من المعجزات، وآية من الآيات الَّتي خـــصَّ الله بها نبيه عيسى عليه السلام، وهي: سورة «المائدة»، وفيها يقول الله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]. المائدة هذه لا ذكر لها في الأناجيل.

وفي القرآن معجزات للمســـيح لم تذكرها الأناجيل، مثل إنطاق الله تعالى له في المهد صبيًّـــا، أنطقه الله وقـــال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ

(١) سبق تخريجه صـ٤٨، وفيه: «اقرؤوا سورة البقرة».

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]، هذه المعجزة لا ذكر لها في الأناجيل الموجودة عند المسيحيين.

ذكر القرآن من معجزات المسيح: أنَّه يصوِّر من الطين كهيئة الطير، وينفخ فيها، فتكون طيرًا بإذن الله، وهذه معجزة أعظم من معجزة إحياء الموتى؛ لأنَّ الميت المُحيا كان بالأصل حيًّا، أمَّا الطين فجماد ينفخ فيه فيكون طائرًا بإذن الله! ولا يذكر هذا في الأناجيل الموجودة اليوم.

فانظروا إلى القرآن كيف عُني بالمسيح وأمه وأسرته.

كنتُ أقول في القمة الإسلاميَّة المسيحيَّة، الَّتي عُقدت في روما، في أكتوبر من السنة الماضية (٢٠٠١م)، قلتُ لهم: لا يوجد في القرآن سورة باسم «آمنة بنت وهب»، أمِّ رسول الله ﷺ، ولا يوجد في القرآن سورة باسم «خديجة بنت خويلد» الزوجة الأولى للنبيِّ ﷺ، وصاحبة المواقف المشهودة، ولا سورة باسم «فاطمة الزهراء»، سيدة نساء العالمين، ولكن توجد سورة اسمها «مريم»، وسورة أخرى اسمها «آل عمران»، وآل عمران هم أسرة المسيح عليه السلام، لأن الله تعالى يقول في هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومع هذا هم لا يعترفون بنا، قد كنا في مؤتمر في القاهرة مع المسيحيين، في البيان الختامي اقترحنا: الديانات السماويَّة اتفقت على كذا. قالوا: لا، أي ديانات سماويَّة؟! نحن لا نعترف أنَّ الإسلام ديانة سماويَّة. قلنا: نجعلها الديانات الكتابية.

QaradawiBooks.com

واقترحنا: القيم الربانية الَّتي جاءت بها الديانات الكتابية. قالوا: لا، نحن لا نعترف أن للإسلام قيمًا ربانيَّة. لأنَّهم لا يعترفون أن محمدًا رسول الله، ولا أن القرآن كتاب الله، مُحَمَّد عندهم رجل كذاب، اختلق القرآن من عنده، وحاشاه.

لكننا نحن ننطلق من أفق واسع من كتاب عظيم، يعترف بكل الأديان، وبكل الكتب السماويَّة، ولذلك كانت سورة آل عمران وكان قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

الاصطفاء لله تبارك وتعالى:

الاصطفاء لله تبارك وتعالى، فهو يفضل الأزمنة على بعض، كما يفضل رمضان من بين الشهور، والجمعة من بين أيام الأسبوع، والأشهر الحرم على غيرها، ويوم عرفة على سائر الأيام، وليلة القدر على سائر الليالي، ويفضِّل بعض الأمكنة على بعض، ففضل الكعبة على سائر بيوت الله، وفضّل المساجد الثلاثة المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى على سائر المساجد، فلا تشد الرحال إلَّا إليها[1].

وفضل الله بعض البشر على بعض، ففضل الأنبياء على سائر البشر، وفضّل بعض الأنبياء على بعض، كالرسل أولي العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

---

(١) إشارة إلى حديث: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى**». متَّفق عليه: رواه البخاري في فضل الصلاة (١١٨٨، ١١٨٩)، ومسلم في الحج (١٣٩٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وهنا في سورة آل عمران يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: ٣٣]، هؤلاء اختارهم الله، اجْتباهم اللهُ ﷻ، أبو البشر الأوَّل، وأبو البشر الثاني، أبو البشر الأوَّل هو سيِّدنا آدم عليه السلام، وأبو البشر الثاني هو سيِّدنا نوح عليه السلام.

اصطفاء آدم:

اصطفى الله آدم أبا البشر، وأوَّل البشر، خلقه بيديه، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته تكريمًا له، وعلَّمه الأسماء كلَّها، وجعله خليفة في الأرض، وهي منزلة تطلّعت إليها الملائكة ـ كما ذكرنا في تفسيرنا لسورة البقرة ـ كرّمه الله بهذا التكريم كله، واصطفاه ﷻ.

وليس صحيحًا ما بنى عليه النَّصارى عقيدتَهم من أنَّ آدم أخطأ خطيئة كبرى لا تُغتفر، وأنَّ هذه الخطيئة ما زالت ذريته من البشر يحملون وزْرها إلى اليوم، وإلى أن تقوم الساعة، وأنَّهم بذلك احتاجوا إلى مخلِّص وفادٍ يفديهم. ليس هذا صحيحًا، فإنَّ هذه الخطيئة لم تكن رفضًا لحكم الله، أو تمرُّدًا على أمره، وإنّما كانت نتيجة النسيان والغفلة وضعف العزم، كما قال الله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ثمَّ إنَّ آدم قد تاب، فتاب الله عليه، والله تعالى توَّابٌ رحيم، وانتهت معصيته بالتوبة، وهكذا ينبغي أن تنتهي معاصي بني آدم، وصدق الله العظيم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

آدم أبو البشريَّة:

وآدم أبو البشر باعتراف البشر جميعًا، إلَّا فئة قليلة من النَّاس أنكروا هذا، وبقية البشر يعتقدون أن آدم هو أبو البشريَّة، هو الإنسان الأول.

QaradawiBooks.com

والتوراة حدَّدت متى كان آدم موجودًا، قالت: إنَّه كان موجودًا قبل الميلاد بثلاثة آلاف وتسعمائة واثنين وأربعين سنة، بل حددت عمر الدُّنْيا بسبعة آلاف سنة، ولكن نحن المسلمين ليس عندنا في القرآن تحديد، لا متى كان آدم، ولا متى كان نوح، ولا متى تقوم الساعة، وكلام الجيولوجيِّين أنَّ البشريَّة عمرها ملايين السنين، والأرض عمرها عشرات ومئات الملايين، والكون عمره أكثر وأكثر، ولكن له بداية، فهو مخلوق بعد أن لم يكن موجودًا، ليس عندنا دليل لهذه الأشياء، هذه الأشياء ضد العلم، وضد التطوُّر العلمي، ولكن لا يوجد في الإسلام آية واحدة تناقض الحقائق العلميَّة.

نبوة آدم عليه السلام:

اصطفى الله آدم عليه السلام، وربَّما كان هذا الاصطفاء اصطفاء النبوة، وجمهور علماء المسلمين يرون أن آدم كان نبيًّا، وهناك بعض العلماء يقول: إنَّ النبوة ابتدأت من نوح عليه السلام. والقرآن يقول: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣].

وجاء في حديث الشفاعة: «**فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح. أنت أوَّل الرسل إلى أهل الأرض**»[(١)].

ولكن جمهور العلماء يقولون: إنَّ الله خلق الإنسان مكلَّفًا بطبيعته، ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، نبتليه بالتكاليف، حمل التكاليف الَّتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فالتكليف ما يطلبه الله من النَّاس، فكيف يطلب الله من النَّاس إلَّا عن طريق النبوة؟ فأولاد آدم وذريَّته إلى سيِّدنا نوح من أين علموا ما كلَّفهم الله به إذا لم يكن آدم نبيًّا؟ فالصحيح أن آدم كان نبيًّا، والاصطفاء هذا اصطفاء النبوة[1].

النبوة اصطفاء:

ولذلك قال العلماء: النبوة اصطفاء، ولا تأتي بالاكتساب، يعني لا يستطيع إنسان أن يقول: أنا سأبذل جهدًا وأتعبَّد لله تعالى وأفعل الخيرات وأعمل كذا وكذا حتَّى أصل إلى النبوَّة، وممَّا حفظناه من كتاب جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني:

ولم تكن نبوةٌ مكتسبةْ ولو علا في الخير أعلى عقبةْ[2]

النبوة لا تُكتسب إنَّما هي اصطفاء من الله ﷻ، صحيح لا يصطفي الله من عباده الأشرار، كما قال تعالى ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وكما قال لإبراهيم: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فالله يصطفي للنبوة خيرة الأخيار، كما قال تعالى في شأن بعض الأنبياء: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٧]، وقد ذكر العلماء صفات لكل الأنبياء، لا يوجد نبي إلَّا وهو متصف بها وهي: الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة.

نوح أوَّل رسول أرسل إلى قوم مكذبين:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾، كان آدم عليه السلام نبيًّا لأولاده وأحفاده، على ما رجحنا وعلى قول جمهور العلماء، بل جماهير العلماء.

---

(١) انظر: شرح الصاوي على الجوهرة ص ٢٩١، تحقيق عبد الفتاح البزم، دار ابن كثير، دمشق.

(٢) للمزيد انظر: تفسير المنار (٥٠٢/٧، ٥٠٣).

QaradawiBooks.com

أمَّا نوح عليه السلام فهو أوَّل رسول أرسل إلى قوم مكذِّبين، ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، فهو شيخ المرسلين، أرسله الله إلى البشر بعد أن أشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وعبدوا الأصنام من دون الله.

ظل نوح في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الله سرًّا وجهارًا، وليلًا ونهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلَّا فرارًا!

يُعتبر نوح عليه السلام أبا البشر الثاني بعد آدم، لأنَّ الطوفان جاء وأخذ النَّاس، وأغرق أهل الأرض كلهم في زمن نوح عليه السلام، ومن بقي بعد ذلك هم أبناء نوح، ذهب الطَّوْر الأوَّل من البشريَّة بعد الطوفان، وجاء الطوْر الثاني، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، فيعتبر البشر كلهم اليومَ من ذرية نوح عليه السلام.

اصطفاء آل إبراهيم:

اصطفى الله آدم ونوحًا فردَيْن، واصطفى آل إبراهيم وآل عمران أُسرتين ـ وآل عمران جزء من آل إبراهيم ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وآل إبراهيم هم: إبراهيم وأهله وذريته: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، ويوسف عليه السلام، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، اصطفى الله المحسنين من آل إبراهيم، ففيهم من ليس محسنًا، ومن لم يسر في هذا الركب الطاهر الكريم، كما قال الله تعالى في كتابه في شأن إبراهيم وإسحاق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصافات: ١١٣]. وقال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فالمراد بآل إبراهيم: من اصطفاهم الله من ذريَّة إبراهيم وليس كل ذريَّة إبراهيم.

QaradawiBooks.com

اصطفاء آل عمران:

واصطفى آل عمران، والمراد بـ «عمران» الَّذي سُمِّيت باسمه واسم آله «سورة آل عمران»: والد مريم، وليس عمران والد موسى وهارون عليهما السلام، فالقرآن قال هنا: ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾، وذكر امرأة عمران، وفي آياتٍ أخرى ذكر مريم ابنة عمران: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فهذا هو المقصود بآل عمران هنا، مريم وأمها وعيسى بن مريم، كل هؤلاء من آل عمران، وآل عمران اصطفاهم الله على العالمين، أي عالَمي زمانهم.

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾، ورثت الصلاح والتَّقوى، فالخير يُتوارث، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقال على لسان زكريا وهو يدعو الله أن يرزقه بالولد: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]. فهناك من يرث النبوة، ومن يرث العلم، ومن يرث الفضل، ومن يرث الجود.

بَأَبِهِ اقتدى عديٌّ في الكرمْ ومن يُشَابِهْ أَبَهُ فما ظلمْ(١)

أي عدي بن حاتم اقتدى بأبيه حاتم الطائي في كرمه، وهكذا الخير يُتوارث، والشر يُتوارث، كما قال سيِّدنا نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، انظروا سيِّدنا نوح ظل يدعو قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، وكل جيل أسوأ من الَّذي قبله.

والعرب تقول: العصا من العُصيَّة، ولا تلد الحيَّة إلَّا حيَّة(٢).

---

(١) شاهد نحوي معروف، وقد نسبه البدر العيني لرؤبة بن العجاج، كما في شرح الشواهد الكبرى (١٨٨/١)، تحقيق أ. د. علي محمد فاخر وآخرين، نشر دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

(٢) الحيوان للجاحظ (١١/١)، نشر دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الطينة من الطينة، والعجينة من العجينة، كما يقول النَّاس، ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧]، فهؤلاء يتوارثون الكفر، وهناك أناس يتوارثون الإيمان، ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، سميع لأقوالهم، عليم بنياتهم.

عناية القرآن بالأمَّهات الصالحات:

ثم تحدَّثت الآيات الكريمة عن قصَّة أمّ صالحة هي مريم أم المسيح، والقرآن الكريم عُنيَ بعدد من الأمهات الصالحات، حدَّثنا عن أم موسى عليه السلام، ودورها في حياة موسى وتاريخه، وحدَّثنا هنا عن أم مريم، ويحدثنا بعد ذلك عن مريم نفسها أم عيسى، إنَّه يحدِّثنا عن أولئك النساء الصالحات، اللائي كان لهن دورٌ في تاريخ الرسالات السماويَّة؛ لأنَّ المرأة الَّتي لها دورٌ في التاريخ يجب أن تذكر، فالقرآن الكريم ليس كتابَ الرجال وحدهم، إنَّه كتاب الرجال والنساء جميعًا.

امرأة عمران تنذر ما في بطنها نذرًا خالصًا لله:

بدأت قصَّة هذه المرأة بذكر أسرتها، فذكر أنَّها من الأسر المصطفاة المختارة: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٢ ـ ٣٥]، هذه بداية هذه القصَّة، قصَّة هذه الأم المؤمنة الصالحة، الَّتي خلد القرآن دعاءها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، مات زوجها عمران وكان في بطنها جنين، وظنَّت أن هذا الجنين ذكر فنذرته

QaradawiBooks.com

لخدمة المعبد والهيكل. إنَّها لم تنشغل أن يكون هذا المولود ذا جاه، أو ذا سلطان، أو ذا مركزٍ ومال، إنَّها أرادت أن يكون لله، نذرته أن يكون خادمًا للمعبد، نذرته للخير والتَّقوى والصلاح، ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، أي: خالصًا لك، ليس فيه أيُّ شائبة شرك لأحد من خلقك، خالصًا لك. ليس فيه أيُّ شركة، أي: جعلته عتيقًا خالصًا من شواغل الدُّنيا، مفرَّغًا للعبادة ولخدمة بيت المقدس.

أهميَّة قبول الأعمال:

هذه المرأة لأنَّها مؤمنة وفقيهة في دينها تحرص على أن يتقبل الله منها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، تسمع الأقوال وتعلم النيَّات.

وهذا سيِّدنا إبراهيم وابنه إسماعيل حينما كانا يرفعان البيت دعوا الله بالقبول، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فينبغي على الإنسان إذا نذر شيئًا لله، أن يكون هذا الشيء خالصًا، لا تشوبه شائبة منفعة خاصَّة، أو مصلحة دنيويَّة أو ذاتية، بل تكون نيته لله.

وقد سألت أمُّ مريم القَبول من الله، فهذا أهمُّ شيء، والإمام ابن عطاء الله السكندري يقول في حكمه: ربَّما فتح لك بابَ الطاعة، وما فتح لك بابَ القَبُول، وربَّما قضى عليك بالذنب، فكان سببًا في الوصول. معصيةٌ أورثت ذلًّا وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا[1].

(١) حكم ابن عطاء الله بشرح الشيخ زروق صـ ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يعني الَّذي يمشي معجبًا بنفسه؛ لأنَّه يقوم الليل، أو لأنَّه يصوم الاثنين والخميس، ويريد أن يبيّن للنَّاس أنَّه صائم اليوم، وأنَّه منذ عشر سنوات، أو عشرين سنة، لم يترك صيام الاثنين والخميس. يا أخي دع هذا لنفسك.

يقول ابن عطاء: ربَّما فُتح لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول؛ لأن الطاعة إذا كان فيها رياء، أو فيها عُجْب، لا تقبل.

وقال هشام بن حسان: سيئة تسوؤك خير من حسنة تعجبك[1]. يعني السيِّئة الَّتي تُنَكِّد عليك عَيْشك، وتجعلك تحزن وتندم، أفضل عند الله من الحسنة الَّتي تُعجَب بها، وتُزهى بها، وتفخر بها على النَّاس.

ولذلك ـ أيُّها الأحبَّة ـ أهم شيء هو القَبول، وهذا هو الَّذي كان يشغل أم مريم، لم يشغلها ما يشغل كثيرًا من النساء من الدُّنيا والزينة.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾، دائمًا يُشغل المسلم بعمل الصالحات، ويُشغل أيضًا بقبولها، فليس المهم فقط أن تعمل، ولكن المهم أن يُقبل العمل، كما قال إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ولذلك لما عاد أحدَ الصالحين طلابُه وتلاميذُه، وقد كان في مرض خُشي أن يكون مرض الموت، وجدوه يبكي، فقالوا له: ما لك تبكي يا أبا فلان وما علمنا عنك إلَّا خيرًا؟ لقد كنتَ ممَّن يصوم النهار ويقوم الليل؟ فقال لهم: وما يدريني أنَّ شيئًا من ذلك قد قبله الله مني، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢٩٩/٥)، رقم (٢١٦٠)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

والتَّقوى ليست أعمالًا ظاهرة، وإنَّما أساس التَّقوى في القلب، أساسها الإخلاص لله، أساسها خشية الله ﷻ، ولذلك قال النبي ﷺ: «**التَّقوى هاهنا**»، وأشار إلى صدره[1].

فالذي أقلق الصالحين وأخافهم وأزعجهم أن أعمالهم الصالحة ربَّما لا تكون مقبولة، ومن هنا عُنيت هذه المرأة الصالحة بالقبول، فليس المهم أن تعمل الصالحات، ولكن المهم أن تُقبل منك الصالحات، فكن قلقًا دائمًا على ما تعمل، واسأل الله أن يتقبله منك، امرأة عمران قالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

امرأة عمران تضع أنثى:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، لمَّا وضعت هذا الجنين الَّذي كان في بطنها، والَّذي نذرته لله، والَّذي كانت تظن أنَّه سيكون ذكرًا، يخدم المعبد، ويقوم على شؤونه، ولكن كان الأمر غير ما توقعت، وكان لا يُحَرَّر لخدمة بيت المقدس إلَّا الغلمان، أمَّا الأنثى فلا تُقبل لخدمته.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، حزنت هذه المرأة، أصابها الأسى والحسرة، أنَّ هذا المولود لم يكن ذكرًا كما تريد، ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وليس عندها علمٌ أنَّ هذه الأنثى سوف يكون لها شأن عظيم، وأمرٌ فخيم، ستُذكر وسيخلِّدها التاريخ، إنَّها مريم الَّتي اصطفاها الله وطهَّرها واصطفاها على نساء العالمين، ولكنَّ الأم لم تكن تعلم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ بسكون التاء جملة معترضة من كلام الله

(١) سبق تخريجه صـ٦١.

QaradawiBooks.com

تعالى وليس من كلامها. وفي قراءة: بضم التاء ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعۡتُ﴾[١] من كلام أم مريم، أي: واللهُ أعلم بالشيء الَّذي وضعتُه.

وقولها: ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ هو اعتذارٌ منها لعدم تمكُّنها من الوفاء بنذرها، لذلك قالت: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾، ليس الذكر الَّذي تمنيته خادمًا للكنيسة، وقائمًا بأمر المعبد، ليس كهذه الأنثى.

ولكنها أنثى لا كالإناث، وبعض الإناث قد يفوق الكثير من الرجال، كما قال الشاعر قديمًا[٢]:

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمِثْلِ هَذِي ... لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

فَمَا التَّأْنِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ ... وَمَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِلَالِ

هذه أنثى، ولكنَّها أنثى سيكون لها دورٌ، إنَّها مريم، قالت الأم الصالحة: ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ويعلق الله على ذلك ـ على قراءة سكون التاء ـ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾، وتقول هي: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾، سميتُ هذه المولودة «مريم»، سمتها على اسم مريم بنت عمران أخت موسى، فأم المسيح مريم ابنة عمران وأخت موسى الَّتي ذكر لنا القرآن جانبًا من اهتمامها بأخيها موسى في صغره اسمها مريم بنت عمران كما تصرح بذلك التوراة[٣]، وقد ذكرها الله في

---

(١) قرأ ابن عامر ويعقوب وأبو بكر بإسكان العين وضم التاء (وَضَعْتُ)، وقرأ الباقون بفتح العين، وإسكان التاء (وَضَعَتْ)، انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/٢٣٩)، تحقيق علي محمد الضباع، نشر المطبعة التجارية الكبرى.

(٢) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه للثعالبي صـ ٤٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر مكتبة الحسين التجارية، القاهرة. وهو في ديوان المتنبي بلفظ:

ولو كان النساء كمن فقدنا

انظر: ديوانه صـ ٢٦٧، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

(٣) سفر العدد (٢٦/٥٩).

QaradawiBooks.com

القرآن مرتين: في سورة طه في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه: ٤٠]. وفي القصص: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١١، ١٢]. وقد كان لمريم هذه شأن في بني إسرائيل.

ومعنى «مريم» خادمة الربِّ في لغتهم، فامرأة عمران تريد أن يكون المسمَّى مطابقًا للواقع، تتوقع لها أن تكون عابدة لله، فإن لم تصلح أن تكون خادمة للمعبد، فلتكن خادمة لربِّ المعبد، خادمة لله ﷻ.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وسمّتها من أوَّل يوم، ولهذا لا بأس أن يسمي الإنسان ابنه من أوَّل يوم، ويستحب أن يُسمِّيَه يوم سابعه.

هذا يثبت أنَّ أم مريم فقيهة، ولذلك كانت مريم طيِّبة من طيِّبة، والشيء من مَعدِنه لا يُستغرب، فرع من شجرة طيبة، ولذلك قال القرآن في هذا السياق: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقد قالوا: الولد سر أبيه، والبنت سر أمها، وقد ذكرنا قول الراجز:

بَأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الْكَرَمْ وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ[1]

استعاذة أمِّ مريم وقبولها:

قالت أمُّ مريم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، لم تقل أعيذها بأحد من الخلق، وإنَّما ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ وليس هي فقط، بل ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ تعيذهم بالله ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، أحصِّنها بك يا رب من الشيطان الرَّجيم، من هذا المخلوق الرجيم، المرجوم المطرود البعيد من

(١) شرح الشواهد الكبرى (١/١٨٨).

QaradawiBooks.com

رحمة الله تبارك وتعالى، هذا الملعون الَّذي يحاول أن يُفسد على النَّاس أمورهم، هذا المخلوق الَّذي ابتلى الله النَّاس به، ذكورهم وإناثهم.

وقفت أمُّ مريم بباب ربها ﷻ، طلبت من الله ﷻ أن يُحصِّن ابنتها وذُرِّيَّتها من هذا الشيطان الرجيم، فكثيرًا ما أضلَّ هذا الشيطان النَّاس، وكثيرًا ما وسوس في صدور النَّاس، وكثيرًا ما فتن العابدين والعابدات، وهي لا تنسى أنَّه قد أغوى أباها آدم عليه السلام، وقاسمه ودلَّاه بغرور حتَّى أكل من الشجرة، فهذه الأم الصالحة لا تستبعد أن يوسوس لهذه البنت، لهذه الأنثى، ولهذا تقول: إنِّي أعيذها بك يا رب وذريتها من الشيطان الرجيم.

وقد قبِل الله ﷻ استعاذة تلك الأم الصالحة، الأم المؤمنة، وحصَّن لها هذه الأنثى، حصَّن هذه المولودة، حصَّنها في مستقبل حياتها، وحصَّن كذلك ذرِّيَّتها، حَصَّن لها ابنها، ولم يكن لها من الذريَّة إلَّا عيسى ابن مريم عليه السلام. حَصَّنها الله تعالى، وحقَّق آمال أمها، وأجاب دعاءها، حقَّق الله ﷻ ذلك، فأعاذ مريم، وأعاذ ذريَّة مريم من الشيطان الرجيم. انظروا ماذا يصنع الإيمان بأهله، ماذا يصنع الإيمان بأصحابه!

نهج القرآن في قصصه:

هذه امرأة سجَّل الله ﷻ ذكرها في كتابه، لم يسمِّ القرآن هنا اسم هذه الأم، من هي أم مريم عليها السلام؟ لم يذكر القرآن شيئًا عن اسمها؛ لأنَّ القرآن لا يُعْنى في قصصه بذكر الأسماء، ولا بذكر الأمكنة، ولا بذكر الأزمنة، ولا بذكر الأشخاص، ولا بذكر التواريخ، إنَّه يذكر القصص للعبرة، وهو يذكر في كل قصَّة ما يناسب المقام، وما ينتفع النَّاس به، ويأخذون منه العبرة، كما قال في نهاية قصَّة يوسف عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

QaradawiBooks.com

ذكر القرآن هنا شيئًا عن قصَّة مريم، وذكر شيئًا آخر عن قصتها في السورة الَّتي سمِّيت باسمها «سورة مريم»، ولكن ذَكَر هنا ما لم يَذكر هناك، ذَكَر هنا عن ولادة مريم ما لم يَذكر في سورة مريم، في سورة مريم ذَكَر عن ولادة عيسى أكثر ممَّا ذكر هنا، وهذا شأن القرآن الكريم حينما يُكرر القصَّة، لا يكررها تكرارًا كاملًا، كما يظن بعض النَّاس، ولكن يعرض مشهدًا كأنَّه المصوِّر الَّذي يأخذ لقطة للإنسان من جانبه الأيمن، أو من جانبه الأيسر، أو من الأمام، أو من الخلف، أو من فوق، أو من تحت، وكل منظر وكل مشهد يعطي شيئًا غير ما يعطي الآخر، وإن كانت كلُّ المناظر وكلُّ اللقطات لشيء واحد، وشخص واحد، وهكذا شأن القصص في القرآن الكريم.

كانت تلك قصَّة هذه الأم الصالحة «أم مريم»، الَّتي تقبَّل الله منها دعاءها، وتقبَّل ابنتها بقبول حسن، وكان لها ذكرٌ في العالمين.

نشأة مريم وإكرام الله لها:

بعد ذلك انتقلت الآيات إلى قصَّة مريم ابنة عمران نفسِها، فقد استجاب الله دعوة الأم الصالحة «أم مريم»، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: قَبِلَ مريم من أمِّها ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، نشَّأها نشأة صالحة، هيَّأ لها هذه النشأة الحسنة الصَّالحة. والطفل السعيد هو الَّذي ينبته الله نباتًا حسنًا، ويهيّئ له بيئةً صالحة، ينمو فيها ويترعرع، بعيدًا عن العُقد، وعن الأمراض النفسيَّة، والمؤثرات الشريرة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، أي: ضمَّها الله إليه، وجعل زكريا ضامنًا لمصالحها. وهو زوج أختها، أو زوج خالتها، فكان سيِّدنا زكريا عليه السلام يرعاها، وزكريا كان شيخ الأحبار والمسؤول عن الهيكل.

QaradawiBooks.com

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، وجد زكريا عليه السلام عند مريم رزقًا لم يأت هو به، فيسألها: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ من أين جاءكِ هذا الرزق؟ من الَّذي يأتيك بهذا الرزق في الصباح، وفي الظهيرة، وفي المساء؟

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، الله تعالى لا يحاسبه أحدٌ أبدًا، ولذلك يأتيها الله بهذا الرزق من حيث لم تحتسب، وهذا شأن المتَّقين، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، الله يأتي بهذا الرزق من غير حساب، ليس بناء على تنظيمات معينة، أو ترتيبات معينة، عن طريق الوزير، أو الأمير، أو فلان، أو فلان، أو كذا.

الكرامة ثابتة لأولياء الله:

وهذه الآية من الأدلَّة الَّتي يذكرها علماء أهل السُّنَّة على أن هناك كرامات يخص الله بها من يشاء من عباده، ومثل أهل الكهف ظلوا هم وكلبهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا أحياء بدون أكل وشرب هذه كرامة من الله عز وجل.

والكرامة ثابتة للأولياء، هناك كرامات، ونحن درسنا في الأزهر كتابًا في التوحيد اسمه: «الجوهرة» يقول فيه:

وأثْبِتَنْ للأوليا الكرامةْ ... ومن نفاها فانبِذَنْ كلامَه[1]

نثبت للأولياء الكرامة، والولي هو المؤمن المستقيم على أمر الله، ذكرًا كان أو أنثى، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ

(١) انظر: شرح الصاوي على الجوهرة صـ ٣٤٤ ـ ٣٤٦.

QaradawiBooks.com

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

فنحن نؤمن بالكرامات ونثبت الكرامات، لكن بعض النَّاس يبالغون في إثبات الكرامات، وكأن هذا الكون ليس فيه سنن تحكمه، ولا قوانين يسير عليها، ومثل هذه المبالغات هي الَّتي تفسد الحقائق.

والصحابة هم أفضل أجيال هذه الأمة الَّذين قدَّموا للإسلام ما لم يقدمه غيرهم، ومع هذا لم نجد عندهم من مثل هذه الكرامات والخوارق ما وجدنا عند المتأخرين ممَّن يدعونهم الأولياء والأقطاب، وذلك لأن الصحابة كانوا أفقه النَّاس لدين الله، ونحن ينبغي أن نكون على قَدَم الصحابة في فهم الدين، فلا نبالغ في الحقائق حتَّى نفسدها، ولا نبالغ في إثبات خوارق العادات، فإن هذا الكون له قوانين يسير عليها، وسنن ثابتة يجب أن يحترمها النَّاس، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

الفرق بين الكرامة والمعجزة:

والكرامة هي: أمر خارق للعادة، يُظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح، تكريمًا له، بخلاف المعجزة، فهي: أمر خارق للعادة، يُظهره الله على يد مُدَّعي النبوة عند التحدّي، تصديقًا له في دعواه. لأنَّه يمكن أن يظهر الله على يدي عبد شيئًا خارقًا للعادة تكذيبًا له، مثل أن يقول لهم مثلا: أنا معجزتي أن أتفل في عين هذا الأعور فتشفى، فيتفل في عينه، فتعمى عينه الأخرى. فيكون هذا تكذيبًا له. المهم أنَّ الكرامة ثابتة بمثل هذه الآية وبغيرها من النصوص والأدلَّة.

QaradawiBooks.com

دعاء زكريا عليه السلام أن يهبه ذريَّة طيبة:

وكان زكريا عليه السلام رجلًا كبيرًا، وامرأته عاقر، فلمَّا رأى زكريا عليه السلام فضل الله سبحانه على مريم، دعا ربَّه، لجأ إلى ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وكما حكى القرآن عنه في آية أخرى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

ومن طبيعة الإنسان أن يحب أن يمتد وجوده، وهذه هي غريزة حب الخُلد، الَّتي استغلها إبليس في إغواء آدم، ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، والإنسان إنَّما يخلد بذريته من بعده.

فلذلك قال سيِّدنا زكريا فيما حكى الله عنه في سورة مريم: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٤ ـ ٦]. وسيدنا إبراهيم عليه السلام قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

فالذي شجَّع زكريا على هذا الدعاء، ما رآه من إكرام الله لمريم، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، الله تعالى يرزق من غير حساب، ومن غير ترتيبات، من غير أبواب معينة، فلماذا لا أطلب من الله ما أحتاج إليه؟

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، فكانت الاستجابة الفوريَّة لدعاء نبي الله زكريا.

QaradawiBooks.com

البشارة بيحيى عليه السلام:

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وهب الله له يحيى، مصدِّقًا بكلمة من الله، وسيدًا وحصورًا، ونبيًّا من الصالحين. هذه أوصاف سيِّدنا يحيى عليه السلام. ومعنى «السيِّد»: المَتْبوع المطاع، والشريف الحليم، والفقيه العالم. ومعنى «الحصور»: الكثير المنع لنفسه، الَّذي لا يتَّبع الشهوات، بل حَصَر نفسه على عبادة الله تعالى والخشية منه، فلا يشغله عن العبادة زوجة ولا أولاد.

تعجُّب زكريا من البشارة بيحيى بعد بلوغه الكبر وعقم امرأته:

أصلح الله زوج زكريا، وبشره بيحيى نبيًّا من الصالحين، ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ كيف يَكُونُ لِي ولد وَقَدْ أدركتني الشيخوخة ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد. وفي سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٨]، يقول زكريا: يا رب كيف يكون ذلك، أمام هذه المعوقات؟

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾، وفي سورة مريم قال له: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩]، الَّذي خلقك قبل ذلك قادر على أن يخلق لك ابنًا.

وفي سورة الأنبياء قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾، أزال الله عنها العقم في عمليَّة داخلية، من حيث لا تعلم ولا نعلم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

QaradawiBooks.com

هنا طلب زكريا من الله علامة يعرف بها أن في بطن زوجته جنينًا، ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ أي: علامة أعرف بها حَمْل امرأتي لأزداد بها شكرًا على ما أعطيتني وسرورًا به، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ قال: علامة ذلك أنَّه ستأتي عليك أيام لا تستطيع فيها الكلام، إلَّا بالإشارة، ما عدا ذكر الله، فأكثر من ذكر الله وتسبيحه، ﴿قَالَ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ العشي: أواخر النهار من زوال الشمس إلى أن تغيب، والإبكار: أوائله: من مطلع الفجر إلى وقت الضحى.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثالث
من أماني اليهود وضلالاتهم

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٦٩ ـ ٧٤].

موقف أهل الكتاب من الإسلام:

هذه الآيات الكريمة الَّتي تُليت علينا من سورة آل عمران، تتحدَّث عن أهل الكتاب عامَّة وطائفة منهم خاصَّة، وموقفهم من هذا الدِّين وأهله، هؤلاء الَّذين كان من المفترض أن يُرحِّبوا بالإسلام، وأن يقفوا من رسوله ومن كتابه موقف التأييد والتصديق، فقد جاء مصدِّقًا لما معهم من الكتاب، وجاء معترفًا بأصل دينهم، وكان المتوقع منهم والمفروض فيهم أن يشدُّوا أزر هذا الدِّين، وأن يقفوا بجانبه، ولكنَّهم ـ للأسف ـ وقفوا موقف العداوة، وموقف الخصومة، وموقف المحادَّة لهذا الدين، يريدون أن يُضلُّوا أهله، يريدون أن يفتنوهم عن دينهم، وفي هذا تقول هذه الآيات الكريمة:

QaradawiBooks.com

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾: أن يردُّوكم عن دينكم ـ أيُّها المسلمون ـ ويوقعونكم في الكفر ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٩]، كما جاءت آية أخرى تقرِّر هذا المعنى في سورة البقرة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

لم كل هذا؟ لم كل هذه الحرب المعلنة على الإسلام وأهله؟ على الرسول وعلى أصحابه؟ لماذا يريدون أن يُضلوا المسلمين؟ كان من المفروض أن يقفوا مع المسلمين، ولكنَّهم للأسف وقفوا مع الجبهة الوثنيَّة ضدَّ المسلمين.

يريدون أن يُضلوا المسلمين ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، فقد كان المسلمون أرسخ قدمًا في الإيمان، وكانوا أعلى كعبًا، وكانوا أكثر ثباتًا على حقيقة هذا الدين، فلم يتأثَّروا بهذه المحاولات وبهذه المكايد.

كفر أهل الكتاب بآيات الله:

ثمَّ يتوجَّه القرآن الكريم إليهم فيقول: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ بهذا اللفظ، وبهذا النداء المُحبَّب، يذكِّرهم بأنَّهم أهل كتاب.

يا أهل الكتاب لم تكفرون بما عندكم من آيات الله التي تدل على نبوَّة مُحَمَّد ﷺ، وهي دلائل وشواهد كثيرة؟

﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾، وأنتم ترون الحق عيانًا بيانًا، فلماذا تكابرون؟ ولماذا تعاندون؟

QaradawiBooks.com

ثمَّ يكرر أيضًا هـذا النـداء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمـران: ٧١]. إنَّ الله قد أخذ عليكم الميثاق لتبيِّنُنَّ الكتاب للنَّاس ولا تكتمونه، فلماذا تنبذونه وراء ظهوركم؟ لماذا تخلطون الحق بالباطل وتشوِّهون وتموِّهون؟ ما كان هذا منتظرًا منكم، ولكنكم للأسـف فعلتم هذا! لبسـتم الحق بالباطل في مواطن كثيرة، وكتمتم الحق وأنتم تعلمون، كتمتموه ابتغاء دنيا زائلة، اشـتريتم به ثمنًا قليلًا، ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، هكذا يقول الله تعالى لأهل الكتاب.

إنكار على أهل الكتاب وتذكير للمؤمنين:

وإذا ذكر الله تعالى ذلك في شـأن أهل الكتاب، فهو بذلك أيضًا يُذكِّر المؤمنين؛ فهو من وجه إنكار على أهل الكتاب ومن وجه تذكير للمؤمنين؛ لأنَّ كلَّ ما جاء عن أهـل الكتاب في القرآن يجرُّ في ذيله عصاة المؤمنين، إنَّـه أيضًا ينكر على من هو مثـل أهل الكتاب من المسـلمين، كعلماء المسـلمين الَّذي ينكر أحدهم الحق أو يكتمه، ولا يقول الحق إذا علمه، فهذا فيه شبه من أولئك الَّذين كتموا الحق من أهل الكتاب، ولهذا قالوا: من فسد من فقهاء المسلمين، ففيه شبه من أحبار اليهود، ومن فسد من عُبَّاد المسلمين، ففيه شبه من رهبان النَّصارى.

﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، إنَّ الله إنَّما أنزل الحقَّ ليؤمن به النَّاس، وليعملوا به حتَّى يُشتهر هذا الحق ويعرف، فعلى كلِّ من عرف الحق أن يُعرِّف به.

QaradawiBooks.com

مكايد طائفة من أهل الكتاب لإخراج المسلمين عن دينهم:

ثمَّ ذكر الله تعالى موقفًا من مكايد هؤلاء القوم ضدَّ المسلمين، مؤامرة من مؤامراتهم ليفتنوا النَّاس عن هذا الدين، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، هكذا كانت تفعل طائفة من اليهود، تأمر بعضًا منهم أن يدخلوا في الإسلام، أن يتظاهروا بالدخول في الإسلام مدَّة قليلة من الزمن، ثمَّ سرعان ما يرجعون عن الإسلام، ويقولون: كُنَّا نظنُّ أنَّه دين حقٍّ، وأنَّه كما نعرف من بشائر ديننا، ولكن وجدناه غير ما كُنَّا نتوقَّع، وجدنا فيه من الخلل والقصور، ومن التمويه ومن كذا ومن كذا ما يجعلنا نؤمن أنَّه ليس الدِّينَ المنشود، وليس هذا النَّبي الَّذي بشَّر به موسى! حيلة من حيلهم، ومكيدة من مكايدهم.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوله ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لعلهم يرتدُّون بارتدادكم، وخاصَّة أنَّهم يظنُّون أنَّكم أهل كتاب، وأنَّكم أهل علم، فقد يؤثر ذلك في بعض ضعاف النفوس. حيلة يهوديَّة خبيثة ماكرة.

ومن هنا كان تشدُّد الإسلام في أمر الخروج من الدين والردَّة عنه، فليس الدِّين ألعوبة، يدخل الإنسان فيه في أوَّل النهار، ثمَّ يخرج منه آخره، ويقول: هي الحريَّة الشخصيَّة، لا، من أراد أن يدخل هذا الدِّين فليدخله على بصيرة، عن اقتناع وعن اختيار، ولكن إذا دخل فليس من حقه أن يتلاعب بدين الله، ومن هنا كانت عقوبة الرِّدَّة في نظر الإسلام.

QaradawiBooks.com

زعماء اليهود والنَّصارى يوصون أتباعهم ألَّا يؤمنوا إلَّا لمن تبع دينهم:

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾، هكذا يقولون، لا تثقوا ولا تطمئنُّوا إلَّا لمن تبع دينكم، هذا من كلام اليهود، وليس من كلام الله تعالى مباشرة، هو تتمة لكلامهم، أي: لا تظهروا هذا السرَّ عند أحد من المسلمين، لئلا يعرفوا هذه المؤامرة، ولئلا يعرفوا هذا التدبير الخفي المكتوم، ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾، ويعقب القرآن على ذلك فيقول: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، هؤلاء النَّاس قد أضلَّهم الله على علم، وختم على أسماعهم وقلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فمن يملك لهم الهدى بعد الله ﷻ؟

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، هذه جملة جاءت معترضة في السياق.

ثمَّ ظلَّ السياق يتبع أمر هؤلاء القوم ويُكمل ما قالوه ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾، لا يريد هؤلاء القوم أن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتوا، يريدون أن يظلَّ الكتاب وتظلَّ النبوَّة حكرًا عليهم، على بني إسرائيل وحدهم، كأنهم هم وحدهم في الأرض! أنتم أبناء إسرائيل، وهؤلاء أبناء إسماعيل، فلماذا لا يكون لهم حظٌّ من النبوة؟ لِمَ هذا البغي؟ وَلِمَ هذا الحسد؟ لماذا تحسدون أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، كانوا يقولون هذا بعضهم لبعض، احفظوا هذا السر، ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾، لا تقولوا ذلك علنًا حتَّى لا يكون ذلك حجَّة علينا، يحاجُّنا بها المسلمون أمام الله تعالى يوم القيامة، كأنَّ الله تعالى في حاجة إلى أن يعلن هذا الأمر حتَّى يحاج به المسلمون اليهود عند الله، إنَّ الله يعلم السرَّ وأخفى، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]،

QaradawiBooks.com

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣، ١٤]، سواءً قلتموه أم لم تقولوه، فإنَّ الله تعالى يعلم السرَّ والعلانية، ولا تخفى عليه من أعمال النَّاس خافية.

غير مرخصة للطباعة

الفضل بيد الله ﷻ ويختص برحمته من يشاء:

فقال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ التفضُّل بالنِّعم والنبوَّة والعلمِ والولاية والهداية وغيرها من الكمالات بيد الله ﷻ، وتصرُّفه وحده ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده الأصفياء، فمن أين لكم أنَّه لا يُؤْتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم؟ ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسعٌ فضله، عليمٌ بكل شيءٍ لا تخفى عليه خافية.

﴿يَخْتَصُّ﴾ يختار ويُؤْثر ﴿بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، الله ﷻ هو صاحب الفضل ومالكه، يؤتيه من يشاء، إن شاء أعطى فضله لبني إسرائيل، وإن شاء أعطى فضله لبني إسماعيل، هو ﷻ صاحب الفضل، وهو واسع عليم، واسعٌ في عطائه وفضله، عليم بمن يستحق الرسالة من غيره، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

لقد أعطاكم الله الرسالة حينًا من الدَّهر، ولكنكم يا بني إسرائيل لم تقوموا بحقِّ هذه الرسالة، قتلتم الأنبياء وكذَّبتموهم، وعثتم في الأرض فسادًا، وفعلتم الأفاعيل، فكان جديرًا أن تُنتزع القيادة الدينيَّة منكم، وأن تُسلَّم الراية لأمَّة جديدة بعدكم، هي خير أمة أخرجت للناس، هي أمَّة القرآن، أمة الإسلام، أمَّة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، إنَّ الاختصاص هو من شأن الله، هو من شأن الألوهيَّة، يفضِّل بعض النَّاس على بعض،

QaradawiBooks.com

ويفضِّل بعض الأمم على بعض، ويفضِّل بعض الأماكن على بعض، ويفضِّل بعض الأزمنة على بعض، هذا شأن الاجْتباء الإلٰهي، الاختصاص الإلٰهي لا شأن لأحد من النَّاس به، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ومشيئته مرتبطة بحكمته، وقد اقتضت حكمته ﷻ أن ينقل الزعامة الدينيَّة منكم إلى غيركم، لأمَّة تستحق أن تكون هي الأمة القائدة، والراعية للنبوات، والوارثة لتركة الرسل جميعًا، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: الواسع الكثير الَّذي لا يحدُّ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الرابع
تقوى الله حقّ تقاته والاعتصام بحبله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۞ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

[آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٥].

سبب نزول الآيات:

اشتملت هذه الآيات الكريمة على هذا النداء الإلٰهي العظيم للجماعة المؤمنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

ونزلت هذه الآيات في أعقاب تلك الفتنة الَّتي أراد بها بعض اليهود أن يفرقوا بها كلمة المسلمين، وأن يثيروا نعرة جاهليَّة بين الأوس والخزرج، بعد أن جمع الله كلمتهم على الإسلام، وألَّف قلوبهم على التقى.

جاءت هذه الآيات بعد التحذير من طاعة أولئك القوم في الآيات السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ

QaradawiBooks.com

﴿إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ۞ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

نقل الحافظ السيوطي في «الدر المنثور» في سبب نزول هذه الآيات جملة آثار عن بعض الصحابة والتابعين، أكثرها تفصيلًا: ما أخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مرَّ شاسُ بن قَيْس على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدَّثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الَّذي كان بينهم من العداوة في الجاهليَّة فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

فأمر فتًى شابًّا معه من يهود، فقال: اعمَدْ إليهم فاجلسْ معهم، ثمَّ ذَكِّرْهم يوم بعاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، فتقاولا، وغضب الفريقان جميعًا، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم الَّتي كانوا عليها في الجاهليَّة.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتَّى جاءهم فقال: «**يا معشرَ المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهليَّة وأنا بين أظهركم؟!**». أبَعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهليَّة، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفَّارا؟!.

QaradawiBooks.com

فعرف القوم أنَّها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم لهم، فألقوا السلاح، وبكوا، وعانق الرجال بعضهم بعضا، ثمَّ انصرفوا مع رسول الله ﷺ، سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس، وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

وأنزل في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما، من قومهما الَّذين صنعوا ما صنعوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٥][1].

جاءت هذه الآيات في مقام التحذير من الفرقة، ومن الاختلاف المؤدِّي إلى العداوة والبغضاء، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، السياق يدلُّ أن معنى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: يردُّوكم بعد أخوَّتكم متعادين، وبعد

(١) رواه الطبري في تفسيره (٦/٥٥، ٥٦)، وابن المنذر في التفسير (٧٥٩)، وابن أبي حاتم في التفسير (٣/٧١٦).

QaradawiBooks.com

وحدتكم متفرِّقين، وبعد تناصركم متخاذلين، فعبَّر عن الوحدة بالإيمان، وعبَّر عن الفُرقة بالكفر، ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

التَّقوى أساس الوحدة:

ثمَّ جاءت هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فالتَّقوى هي المنهج الجامع الَّذي يجمع المؤمنين على كلمة سواء، وأساس التَّقوى في القلب، كما أشار النبي ﷺ إلى صدره وقال: «**التَّقوى هاهنا، التَّقوى هاهنا، التَّقوى هاهنا**»[(١)]. أي أساسها خشية الله ﷻ، وثمرتها عمل الصالحات، واجتناب السيِّئات، ألَّا يراك الله حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك، التَّقوى هي وصيَّة الله للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

ولم تأمر الآية الكريمة بمجرد التَّقوى، ولكن قالت: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، أي: ابذلوا جهدكم وما استطعتم في تنفيذ أمر الله واجتناب نهيه، وليست هذه الآية منسوخة كما قال بعض المفسرين بالآية الأخرى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، لا، لا تنافي بين الآيتين؛ لأنَّ تقوى الله حق تقاته إنَّما هي في حدود الاستطاعة أيضًا، «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[(٢)]. اتقوا الله حق تقاته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، ليس الأمر عبثًا ولا لعبًا، لا بدَّ أن يعمل الإنسان المؤمن قدر ما يستطيع في تقوى الله.

---

(١) سبق تخريجه صـ٦١.

(٢) سبق تخريجه صـ١٧٢.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي: عيشوا على الإسلام، لتموتوا على الإسلام، فقد جرت سنة الله تعالى أنَّ من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، اثبتوا على الإسلام ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

حبل الله المتين:

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، حبل الله هو القرآن، هو الإسلام، القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، فتمسَّكوا بهذا الحبل، واعتصموا به، فهو الَّذي يجمعكم؛ لأنَّ المؤمنين تجمعهم وحدة العقيدة، وتجمعهم وحدة الشريعة، وحدة المنهج، وحدة الطريق؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة الأنعام في الوصايا العشر، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فاعتصموا بحبل الله، فهو الَّذي يجمعكم، العمل به والتكاتف على العمل به، هو الَّذي يوحِّدكم ويُجَمِّعكم.

نعمة الأخوة في الله ونعمة الهداية إلى الإيمان:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، نعمتان يذكرنا الله ﷻ بهما، ليس هناك نعمة أفضل منهما:

النعمة الأولى في الآية هي: نعمة الأُخوَّة في الله، الاجتماع والأُخوَّة على كلمة الله، وعلى طاعته، وعلى دين الله، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

QaradawiBooks.com

والنعمة الثانية في هذه الآية: نعمة الهداية إلى الإيمان، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، ولهذا قال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾، هداكم الله للإيمان بعد أن كنتم على طرف حفرة لو وقعتم فيها وقعتم في النار، نار الجاهليَّة والكفر والشرك، أنقذكم ببعثة محمدٍ ﷺ، فهداكم من ضلالة، وعلَّمكم من جهالة، وأخرجكم من الظلمات إلى النور، ثمَّ جمعكم إخوانًا على هذا الدين، بعد أن ظلَّت الحروب بينكم من قبل خاصَّة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين سنة، ﴿شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: تعرفون الطريق، وتسلكونه على هدى من الله وبصيرة.

المسلمون أصحاب رسالة:

ثمَّ يقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وهذا أيضًا من الوشائج الجامعة، أن تنشغل الأمَّة برسالتها ودعوتها، بدل أن تتفرق وتختلف فيما بينها، وتثور بينها الدَّعوات الجاهليَّة، إنَّها أُمَّة صاحبة رسالة، أُمَّة دعوة، أُمَّة هداية.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، اختلف المفسرون في «مِنْ» هنا، أهي تبعيضية، فالذي يجب أن يكون من المسلمين طائفةً تتخصَّص في الدعوة، والأمر والنهي، أم هي بيانيَّة، والمعنى كونوا جميعًا أمَّة داعية أمرة ناهية، كما تقول: ليكن لي منك الصديق الوفي، أي: كن أنت الصديق الوفي؟ أي: كن أنت الصديق الوفي، أنا أرى في الحقيقة أنَّ الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجبٌ على المسلمين جميعًا كلٌّ بحسَب

QaradawiBooks.com

حاله، إنَّــه فريضة الأمَّة، إنَّه ميزة الأمــة، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ﴾ [التوبة: ١١٢]، فهذه من الخصال الأساسيَّة في أوصــاف المؤمنيــن، الأمر بالمعــروف والنهي عــن المنكر، وفي الحديث: «**من رأى منكم منكرا فليغيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يســتطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(١)]. وفي حديث آخر بعد ذكر القلب: «**وليس وراء ذلك حبَّة خردلٍ من إيمان**»[(٢)].

الأمة كلُّها مطالبة بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكــر، ولا مانع أن يكون فيهــا طائفة متخصِّصة قــادرة على الدعوة بالتفصيل وبالعلم وبالعناية اللازمة، ولكن كلَّ الأمَّة عليها أن تساند هذه الطائفة، وأن تشد أزرها، وأن تقف بجوارها، وأن تمدها بكل ما تستطيع من مال، ومن قوَّة ماديَّة أو أدبية.

الدعوة إلى الخير:

الإسلام لا يكتفي من المسلم أن يفعل الخير فقط، ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحــج: ٧٧]، وإنَّما طلب منــه أن يدعو كذلك إلى الخير، وأن يدل عليــه، والدال على الخيــر كفاعله، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، هذه أمة دعوة، تدعو إلى الخير، وخير الخير وأعظمه

(١) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأحمد (١١٤٦٠)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه مسلم (٥٠)، وابن حبان (١٧٧)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

هو الإسلام؛ ولهذا كان على هذه الأمَّة أن تدعو إلى الإسلام، أن تبلغ دعوة الله للعالمين، أن توصِّل رحمة الله لكل خلق الله في العالم كلِّه، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لا بدَّ أن ينال النَّاس من هذه الرحمة، وأن يخرجوا من شقوة الجاهليَّة، إلى سعادة الإسلام، ومن ظلمات الشرك والكفر بألوانه وأنواعه وأسمائه، إلى نور الإيمان والتوحيد، هذه مهمَّة هذه الأمَّة، ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾.

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، والمعروف ما تعرفه الفِطَر السليمة، وما جاء به الشرع الشريف، والمنكر ما أنكره العقل والشرع.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، الدَّاعون إلى الخير الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، وحدهم هم المفلحون، هم الَّذين كُتب لهم الفلاح، أي الفوز بما يُحبون، والهروب ممَّا يكرهون، وخير ما يحبُّ الإنسان الفوز بالجنة، والنجاة من النار، ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

تحذير القرآن من التفرق والاختلاف:

ثمَّ تذكر الآيات بعد ذلك التحذير من الفُرْقة والاختلاف: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، لا تكونوا كالذين من قبلكم من أهل الكتاب، اختلفوا وتفرَّقوا من بعد ما جاءهم العلم، ومن بعد ما جاءتهم البيِّنات، بغيًا بينهم، وحسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق، لا ينبغي أن تكونوا

QaradawiBooks.com

مثلهم، أهل الكتاب من قبلكم اختلفوا على فرق شتَّى، سبعين أو أكثر من سبعين، «**لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»(١).

قد تختلف آراؤكم وأفهامكم في فروع الدين، ولكن لا يكون هذا الاختلاف سببًا في التفرق وتمزيق الصف، وتشتيت الكلمة، لا تكونوا سببًا في أن يعادي بعضكم بعضًا، كما قال النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كُفَّارًا يضرب بعضُكم وجوه بعض**»(٢).

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، كان من الواجب أن تجمعهم البينات ولا تفرقهم، وأن يجمعهم العلم ويوحِّدهم فلا يختلفون، ولكن للأسف ما اختلفوا إلَّا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]. سبب اختلافهم البغي والحسد والدُّنيا، اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، هذا هو الَّذي فرقهم، وشتت شملهم، وجعلهم أممًا، بعد أن كانوا أمَّة واحدة، ولهذا حذَّرنا القرآن من أن نسير وراءهم، وحذرتنا السُّنَّة أن نتبع سننهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، فعن أبي سعيد الخدري، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لتتَّبعُنَّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتَّى لو دخلوا جُحر ضبٍّ تبعتموهم**»، قلنا: يا رسولَ الله، اليهود والنَّصارى؟ قال: «**فمن**»(٣).

---

(١) رواه البخاري في الخصومات (٢٤١٠)، عن ابن مسعود.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

QaradawiBooks.com

وأنتم أيضًا جاءتكم البينات، جاء الإسلام ليوحِّدكم، ويقيم العلاقات بينكم على أساس من الإخاء المتين، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، «**المسلم أخو المسلم**»(١). جاء الإسلام ليجعل منكم أمة واحدة، على كتاب واحد، وعلى رسول واحد، وعلى قبلة واحدة، وعلى عقيدة واحدة، وعلى شريعة واحدة، على الإيمان بربٍّ واحد، فلماذا تختلفون من بعدما جاءتكم البينات؟!

لا ينبغي أن يفرق المجتمعَ المسلمَ ما يفرق المجتمعات الأخرى من العصبيَّة للجنس أو اللون، أو الوطن أو اللغة، أو الطبقة أو المذهب، أو غير ذلك ممَّا يمزق الجماعات.

فالأخوة الإسلاميَّة فوق كل العصبيات أيًّا كان اسمها ونوعها، والرسول الكريم ﷺ بريء من كل العصبيات: «**ليس منا مَن دعا إلى عصبيَّة، وليس منا مَن قاتل على عصبيَّة، وليس منا مَن مات على عصبيَّة**»(٢).

خطورة التفرق في الدُّنْيا والآخرة:

وإنَّ من أشدِّ المخاطر أن يتلاحم خصوم الأمة من أهل الكفر، ويوالي بعضهم بعضًا، في حين يتباعد أهل الإيمان ويتخاذلون، وهو ما حذَّر منه القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥١٢١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٣٥)، عن جبير بن مطعم. ورواه بنحوه مسلم في الإمارة (١٨٤٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

أي: إن لم يوالِ بعضكم بعضًا، ويتكاتف بعضكم مع بعض كما يفعلون، تكون الفتنة والفساد الكبير؛ لأنَّ معناه أن أهل الباطل يتجمَّعون، وأهل الحقِّ يتفرَّقون، وأن هناك عملًا، وهنا فراغًا، هذا هو الخطر كلُّ الخطر.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتفرِّقون المختلفون ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ تعذيب فظيع لا مثيل له بسبب كفرهم وتفرُّقهم، وأيُّ عذاب، إنَّه عذابٌ في الدُّنْيا وعذابٌ في الآخرة، ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

نسأل الله أن يجعل أمتنا كما أراد لها: أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، لتكون من المفلحين.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الخامس
الأمة الإسلاميَّة خير أمة أخرجت للناس

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ۞ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۞ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠ ـ ١١٢].

خطاب للجماعة المؤمنة:

الله ﷻ يخاطبنا، ويخاطب هذه الأمة الَّتي أنزل عليها أفضل كتبه القرآن، وأرسل إليها خاتم رسله محمدًا ﷺ، وقد خاطبها في هذه الآيات باعتبارها أمة.

الله تعالى أحيانًا يخاطب الفرد، بـ «يا أيُّها الإنسان»، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وأحيانًا يخاطب البشر جميعًا، بـ «يا أيُّها النـاس»، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وأحيانًا يخاطب الجماعة المؤمنة بـ «يا أيُّها الَّذين آمنوا»، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

QaradawiBooks.com

والخطاب هنا للصحابة ومَـن بعدهم، يعني هذا الخطـاب للمكلَّفين الَّذين يخاطبهم القرآن، للذين آمنوا؛ لأنَّه قال قبل ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا...﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣]، إلى أن قال هنا: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالله تعالـى يخاطب هنا الجماعـة المؤمنة، الَّتي رضيـت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، يخاطبهم بهذه الآية: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

معنى ﴿كُنتُمۡ﴾:

نحن نقول في اللغة العربيَّة: كان فعل ماضٍ ناقص. فهل ذلك يعني أنَّنا كنا في الماضي خير أمة ولسنا في الحاضر كذلك؟! ليس المعنى هو ذاك، بل الأمة فـي الماضي وفي الحاضر وفي المسـتقبل هي خير أمة أخرجت للناس. فلماذا قال: «كنتم»؟

هذا معناه: إمَّا كنتم في علـم الله تبارك وتعالـى، وفيما كتبه في أم الكتاب، في اللوح المحفوظ، فـ ﴿كُنتُمۡ﴾ يعني أنَّه كان مقرَّرًا في علم الله، وكُتِب هذا في أم الكتـاب، وفي اللوح المحفـوظ، أنكم خير أمة أُخرجت للناس.

أو «كنتم» فيما شاع عند النبيِّين من قبل وعند الأمم من قبلكم من أن هناك أمة سـتأتي هي أفضل الأمم، ونبيها أفضل الأنبياء، وهي خير أمة أخرجت للنـاس، فقد ثبت هذا من قديم، وأصبحت الأمم تشـتاق إلى ظهور هذه الأمة الَّتي وصفت على لسـان أنبيائها وعلى لسـان الكتب السماويَّة السابقة أنَّها خير الأمم، فهذا يعني أن فضيلتهم وخيريَّتهم أمر

QaradawiBooks.com

ثابت من قديم، ليس أمرًا حديثًا، لكنَّــه أمر عرفته الأمم، وأمر ثبت في علم الله، وأمر هو كائن.

خيريَّة الأمة في الدُّنْيا والآخرة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، أفضل أمة، وأعظم أمة.

والخيريَّة هي خيريَّة الأمة في الدُّنيا، وخيريتها في الآخرة، وخيريتها في العلــم، وخيريتها في العمــل، وخيريتها في الدعــوة، وخيريتها في الجهاد، وخيريتها في البذل في سبيل الله، وخيرتها في التآخي على كلمة الله، وخيريتها في كل شيء، العلم والإيمان والأخلاق والسلوك.

معنى الأمة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ما معنى أمة؟

الأمة هي الجماعــة الَّتي ترتبط فيما بينها علــى معنى من المعاني، أحيانًا ترتبط على الأرض، مثل أمة المصريين، أو أمة الروم، أو أمة كذا، وأحيانًا تنتســب إلى جنس من الأجناس، مثل أمة العرب، وأمة الفرس، وأمة الهنود، وأمة التُّرك، وهناك أمم اجتمعت على قيم معنويَّة، اجتمعت على دين من الأديان، كأمة اليهود، وأمة النَّصارى.

وهناك الأمة الَّتي تنتسب إلى الدين الخاتم، الَّذي ختم الله به الأديان والرسالات، وبُعث به خاتم الرسل ﷺ، وهي أمة الإسلام.

الخطاب في الآية لأُمَّة الإسلام:

فالأُمَّة هنا أُمَّة ترتبط بالدِّين، والخطاب لأُمَّة الإســلام، وليس لأُمَّة العرب، العرب بعض الأمَّة، ولكنَّهم ليسوا هم الأمة، الأمة هي كل من

QaradawiBooks.com

دخل في هـذا الدِّين، مـن عرب وعجم، مـن شـرقيِّين وغربيِّين، من إفريقيِّين وآسيويِّين وأوربيِّين، من أيِّ مكان في العالم.

الأمة الإسلاميَّة خير الأمم:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، هذا دليل على أنَّ المسلمين حيثما كانوا هم أمة واحدة، وليسوا أممًا شتى.

كثير من الكُتَّاب وكثير من المتحدِّثين يقولون: الأمم الإسـلاميَّة. والحق أنَّ المسـلمين ليسـوا أممًا، إنَّما هم أمة إسلاميَّة، هم شعوب إسلاميَّة، لأمة واحدة، لا مانع أن نقول: الشعوب الإسلاميَّة؛ الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، ولكنَّهم في النهاية أمة واحـدة، كما قال في هذه الآيـة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وكما قال في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكما قال فـي آية أخرى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبيـاء: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

أمة الدعوة وأمة الإجابة:

هناك أمة الدعوة وأمة الإجابة، أمة الدعوة هم البشريَّة كلها، من لدن بعثته ﷺ إلى أن تقوم السـاعة، فدعوة الإسلام موجهة إلى الجميع، كما قـال الله تعالـى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعـراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

QaradawiBooks.com

وأمَّا أمة الإجابة فهم الَّذين استجابوا لدعوة مُحَمَّد ﷺ، ودخلوا في دينه، ورضوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وبالقرآن إمامًا ومنهاجًا، وهم المخاطبون بهذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

من الَّذي أخرج الأمة المسلمة؟

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من الَّذي أخرجها؟ نحن نقول في علم النحو: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول، لأنَّ الفاعل لم يذكر، والأفضل أن نقول: فعل مبنيٌّ للمفعول أو لما لم يسم فاعله. لأن الفاعل هنا الَّذي أبهم هو الله، ولا شكَّ في هذا.

الَّذي أخرج هذه الأمة هو الله تبارك وتعالى، هو الَّذي قال في سورة البقرة: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهذه أمَّة مجعولة، معنى مجعولة أنَّ الله جعلها، لم تنبت نباتًا شيطانيًّا، الله هو الَّذي صنعها، وهو الَّذي هيَّأها، وهو الَّذي أخرجها، وهو الَّذي بذرها، وهو الَّذي زرعها، أمة مزروعة، هناك فرق بين نبات يخرج وحده، وبين نبات يأتي بذرًا، ينتقيه الزارع انتقاء، ويضعه في الأرض الطيبة، فالله غرس هذه الأمة واختار لها أرض العرب وجنس العرب مهدًا للدعوة واختار أصحاب رسوله ليكونوا الجيل الأوَّل الَّذي يؤمن برسوله ﷺ.

لذا، فهذه الأُمَّة هي خير أُمَّة، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فاختار الأمة القادرة على حملها، فالرسالة لها تكاليف، لها أوامر ونواهٍ، وتحتاج إلى بذل النفس والنفيس، والغالي والرخيص، فهل يختار لها أمة يكلِّفها ثمَّ تترك هذه الرسالة؟! لا، اختار الله هذه الأمة اختيارًا.

QaradawiBooks.com

الله ﷻ هو الَّذي اختار هذه الأمة، فإذا قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾، فالذي أخرجها هو الله ﷻ.

وقال النبي ﷺ: «**إنَّما بُعثتم ميسرين ولم تُبعَثوا معسرين**»(١).

لماذا أخرج الله هذه الأمة؟

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، لم يخرجها الله لتعيش لنفسها، بل أخرجها للناس.

هناك من الأمم من تحيا لأنفسها، لا تفكر إلَّا فيما ينفع أفرادها، لا تفكر في غيرها، لا يعنيها أأصلح النَّاس أم أفسدوا، أأطاعوا أم عصوا، أعدلوا أو بغوا.

رأينا أممًا همها استعباد الآخرين والاستيلاء على ثرواتهم من أجل رفاهية شعوبها، وجدنا أممًا تستعبد الآخرين، بل وجدنا من فلاسفة اليونان من قال: هناك أمم خُلقت لتُحكم، وأمم خُلقت لتَحكم.

لكن ليس كذلك منهج الأنبياء، فالأنبياء بعثهم الله ليقوموا بالقسط، الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، كل الرسالات السماويَّة بُعثت لإقامة القسط والعدل والحق في الأرض، فهذه الأمة الَّتي أخرجها الله لم يُخرجها لنفسها، وإنَّما قال: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

هذه الأمة من أوَّل الأمر تعلم أن مهمتها عمل الخير للناس، هداية النَّاس، تنوير النَّاس، نفع النَّاس، إسعاد النَّاس، إخراج النَّاس من

(١) سبق تخريجه صـ٣٩٥.

QaradawiBooks.com

الظلمات إلى النور، من الجهل إلى العلم، من الضلال إلى الهدى، من الفجور إلى التَّقوى، من الظلم إلى العدل، من الباطل إلى الحق.

﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، أخرجها الله للنَّاس كل النَّاس، أُخرجت للعالمين، كما أنَّ محمدًا ﷺ أُرسل للعالمين، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، كذلك أمته ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، للبشر جميعًا، رجالًا ونساء، شيبًا وشبَّانًا، حضرًا وبدوًا، كل العالمين في الشرق أو الغرب، في الشمال أو الجنوب، عربًا كانوا أو عجمًا، تُركًا أو هنودًا، بيضًا أو سودًا، فالإنسان أيًّا كان هو مقصود الرسالة الإسلاميَّة.

وهذا المعنى هو ما نطق به الصحابي الجليل ربعي بن عامر قائلًا لرستم قائد الفرس، حين سأله: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدُّنْيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه[1].

فهذه الأُمَّة مُكَلَّفة بوظيفة الأنبياء، كما قال تعالى لرسوله الخاتم ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أسباب تفضيل الأمة:

هذه الأمة لم تفضل للون ولا لشكل ولا لجنس، فالقرآن بيَّن سبب تفضيل هذه الأمة على كل الأمم فقال: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، بهذا فُضِّلت هذه الأمَّة، فُضِّلت من أجل القيم

(١) رواه الطبري في تاريخه (٥٢٠/٣).

QaradawiBooks.com

العليا، من أجل الأعمال الصَّالحة، من أجل العلوم النافعة، من أجل الأخلاق الفاضلة، من أجل إقامة الحق بين النَّاس، ونشر العدل والرحمة في الخلق أجمعين.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾، مع أنَّ الإيمان بالله هو الأصل، وبعده تأتي الأعمال الصالحة، ويأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن هنا قدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان الَّذي هو الأصل؛ لأن هذه الأمة ميزتها عن غيرها أنَّها تأمر بالخير، لا تعيش من أجل نفسها، إذا رأت منكرًا شائعًا سارعت إلى إنكاره، إذا رأت معروفًا ضائعًا سارعت إلى الأمر به.

معنى المعروف والمنكر:

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾، المعروف: كل ما تعرفه الفطر السليمة، والعقول الرشيدة، وهو ما يأمر الله به. والمنكر: ما ترفضه وتأباه الفطر السليمة والعقول الرشيدة، وهو عين ما ينهى الله عنه.

فالله لا يأمر إلَّا بما تعرفه الفطر السليمة، والعقول الرشيدة، ولا ينهى إلَّا عمَّا تأباه هذه الفطر وتلك العقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨]. ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ [الأعراف: ٢٩]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]. كل ما أمر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله تعرفه الفطر السليمة، والعقول الرشيدة.

فالأُمَّة فُضِّلت على سائر الأمم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

QaradawiBooks.com

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومن المهمَّة الَّتي أُخرجتم لها أنَّكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، لا تدعون المعروف يضيع، ولا المنكر يشيع، لكم موقف إيجابي، تحبُّون أن يشيع المعروف وينتشر، وأن يزول المنكر ويندحر، هذه مهمَّة الأمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، مهمَّة الأمة برجالها ونسائها، بذكورها وإناثها، بمؤمنيها ومؤمناتها، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وقد عاب الله على أهل الكتاب تقاعسهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، كانوا لا ينهى بعضهم بعضًا عن منكر.

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أوَّل ما دخل النقص على بني إسرائيل: كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله ودعْ ما تصنع، فإنَّه لا يحل لك! ثمَّ يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمَّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض**». ثمَّ قرأ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. ثمَّ قال: «**كلا والله لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يدي الظالم، ولتأطرُنَّه على الحق أطرًا،**

QaradawiBooks.com

ولتقصرُنَّه علـــى الحق قصرًا، أو ليضربَـــنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثمَّ ليلعننَّكم كما لعنهم»[(١)].

صلاح النفس وإصلاح الغير:

والمسلم لا يكتفي بصلاح نفسه، حتَّى يعمل على إصلاح غيره، بدءًا بأهله وولده، كما قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، ومرورًا بالمجتمع من حولـــه، وانتهاءً بدعوة العالم كلـــه، ليدخل في رحمة الله العامَّة لكلِّ النـــاس: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبيـــاء: ١٠٧]، وكلُّ مســـلم مُخَاطَبٌ بأمر الله تعالـــى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحـــل: ١٢٥]، فهـــو يدعـــو الموافقين، ويحاور المخالفين، وهو داخل في قوله تعالى لرسوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

الأمة الإسلاميَّة أمَّة دعوة ورســـالة، فهي مكلَّفة بحَمْل هذه الرسالة العالميَّة إلى العالم، فلا يجوز لها أن تحتكر الخير والنور لنفســـها، بل عليها بعد أن اهتدت بنـــور الله أن تهدي الآخرين إليه، وبعد أن صلحت بالإيمـــان والعمل الصالح أن تصلـــح الأمم وتدعوها إلـــى الخير الَّذي أكرمها الله به بألســـنتهم حتَّى نبين لهم، ونقيم الحجة عليهم، وأن تأمر بالمعروف وتنهـــى عن المنكـــر، ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فـــإن فرطت في هذا الواجب تلعن كما لعن الَّذين من قبلها حين فرطوا فيه.

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٦)، والترمذي في التفســـير (٣٠٤٧)، وقال: حســـن غريب. وضعفه الألباني في الضعيفة (١١٠٥)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

إن من أوَّل وأهم أسباب خيريَّة الأمة الإسلاميَّة، أنَّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، طبعًا الإيمان بالله هو الأساس، لا شكَّ أن كل خير في هذه الأمة، وكل فضيلة، مبنية على الإيمان بالله، وإنَّما قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتَّى يُشعِر بأهميته، وحتَّى لا يتهاون النَّاس في أمره.

الإيمان بالله:

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، هناك من يؤمن بالله، وهناك من يؤمن بالجبت والطاغوت، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وهناك من يؤمن بالباطل، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، ومعنى «آمن بالله» أي بكل ما يتعلق بالله، آمن بالله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وأنَّه متصف بكل كمال، منزه عن كل نقص، وآمن مع ذلك بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا هو الإيمان باليوم الآخر.

وهذا معنى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ هذه الأمة الَّتي آمنت بالله تميزت عن سائر الأمم الأخرى.

خيريَّة الأمة باقية:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، لا تزال هذه الأمة إلى اليوم هي

QaradawiBooks.com

خير أمم الأرض، على ما في الأمة الإسلاميَّة من ضعف، وما بها من علل، وما بها من انحرافات، فإنَّها تظل أشد الأمم تمسكًا بدينها، هذا ما ينبغي أن نعرفه، نحن ننكر على المسلمين أشياء كثيرة في أفكارهم، وفي سلوكهم، وفي حياتهم، ولكن لا توجد أُمَّة تستمسك بعروة دينها كما توجد أُمَّة الإسلام.

النَّصارى الآن يقولون: إنَّ الَّذين يذهبون إلى الكنائس يمثلون ٥٪ من المسيحيين، وليس كل الَّذي يذهب إلى الكنيسة يذهب تدينًا، أناس تذهب إلى الكنيسة لتغيير نمط الحياة، وبعضهم يَعِدون مواعيد في الكنيسة، وبعضها مواعيد غرامية.. يتقابل الشبان والشابات.

وحكى الأستاذ سيِّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ حينما ذهب إلى أمريكا أنَّه وجدهم يذيعون أغنية بموسيقى معينة، مشهورة عند الشباب، فقال للقسيس: كيف تذيعون مثل هذه الأغنية في الكنيسة؟ قال القسيس: يا شيخ سيد! لو لم نفعل مثل هذا لم يأت الشباب، نحن نريد أن يأتي الشباب، يأتون ويسمعون هذه الأغنية، ثمَّ نُسمِعهم الموعظة.

إلى هذا الحد هبطت الكنيسة، ولذلك في أوربا وأمريكا تُباع الكنائس الآن، والحمد لله يشتريها المسلمون، ويحوِّلونها إلى مساجد ومراكز إسلاميَّة. وكم ذهبتُ إلى هذه المراكز الَّتي كانت في الأصل كنائس، أسأل الله أن يورثنا أرضهم وديارهم وكنائسهم.

الأمة الإسلاميَّة ما زالت نفحة الخير فيها، وإن كنا ننكر على المسلمين كثيرًا من الانحراف والعوج، والتفريط في حقوق الله وحقوق النَّاس.

QaradawiBooks.com

دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا﴾ لو آمن أهل الكتاب كما آمنت هذه الأمة لكان خيرًا لهم. فهذه الأمة آمنت بكل كتاب أُنزل، وبكل نبيٍّ أرسل، والمسلم لا يكون مسلمًا حقًّا ولا يُقبل إسلامه عند الله، ثمَّ عند جماعة المسلمين إلَّا إذا آمن بكلِّ كتاب أنزله الله، وآمن بكلِّ نبي أرسله الله، أمَّا من آمن بالبعض وكفر بالبعض، آمن بموسى وكفر بعيسى، أو آمن بموسى وعيسى وكفر بمحمد، فليس بمؤمن ولا مسلم، بل هو ممَّن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]. وقال عن الَّذين لم يفرِّقوا بين الله ورسله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾، لو دخلوا في أمة الإسلام، وفيما دخل فيه المسلمون؛ لكان خيرًا لهم.

لو آمن أهل الكتاب كما آمن من آمن، كعبد الله بن سلام وإخوانه من اليهود الَّذين آمنوا، وهم قلة، وكالشعوب الَّتي كانت نصرانيَّة ثمَّ دخلت في الإسلام، كأهل مصر والشام وغيرهما، لكان خيرًا لهم في الدُّنْيا وفي الآخرة.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وهؤلاء كانوا قليلين في عصر النبوة، لكن بعد ذلك انتشر الإسلام في شعوب شتَّى ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي كافرون، والفسق هو الخروج عن الدين، وهم حين لم يؤمنوا بالإسلام قد خرجوا عمَّا يدعوهم إليه دينهم من الإيمان بالنبي ﷺ واتِّباعه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وسياق الكلام يدلُّ على أنَّه موجَّه إلى اليهود؛ لأنَّ السورة قبل ذلك تحدَّثت عن اليهود: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤]، وتحدثت عن اليهودي الَّذي أراد أن يُوقِع بين الأوس والخزرج، حتَّى كاد يقاتل بعضهم بعضًا، ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، فالكلام هنا وإن كان موجهًّا إلى أهل الكتاب عامَّة، إلَّا أنَّ السياق يدل على أنَّ المقصود به اليهود.

إنَّما أكثرهم فاسقون، خارجون عن دين الله، لا يعيشون إلَّا لشهواتهم وأهوائهم، ودنياهم وأباطيلهم.

لا يستطيع اليهود الإضرار بالمؤمنين:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١]، هكذا يقول الله في هؤلاء اليهود، وفي أهل الكتاب عامَّة، هؤلاء الَّذين كفروا برسالة الإسلام، وبنبي الإسلام، يقول للمؤمنين: لا تخافوا منهم، هم يضمرون لكم الشر، ويكيدون لكم، ولكنَّهم لن يستطيعوا إيقاع الضرر بكم، أو الغلبة عليكم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، أنتم الغالبون، وأنتم المنصورون.

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾، هذه بشارة من الله تبارك وتعالى أنَّ هؤلاء لن يضرونا إلَّا أذًى، لا يمكن أن يستأصلوا شأفتنا، أو يبيدوا خضراءنا، ويزيلوا إسلامنا، لا يستطيعون، هم يؤذوننا فقط، يسقط منا الشهداء والقتلى والجرحى، ويحدث

QaradawiBooks.com

ما يحدث، لكنَّه لا يتعدى الأذى إلى القضاء على الدين وأهله. كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]، ولن يستطيعوا أبدًا إن شاء الله.

وفي الحديث الَّذي رواه الإمام أحمد والطبراني عن أبي أمامة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرُّهم من خالفهم، إلَّا ما أصابهم من لأواء** ـ أي: أذى ـ **حتَّى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك**». قالوا: يا رسولَ الله: وأين هم؟ قال: «**ببيتِ المقدس، وأكنافِ بيت المقدس**»[(١)]. هؤلاء الطائفة المرابطون إلى يوم القيامة، منهم ـ إن شاء الله ـ إخواننا في حركة المقاومة الإسلاميَّة «حماس»، ومن حول هؤلاء في لبنان، وفي سوريا، وفي مصر، هذه كلها أكناف بيت المقدس.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، يستطيع هؤلاء أن يؤذوكم، أن يقتلوا منكم بعض الأفراد، أو يعذِّبوا منكم بعض النَّاس، أو يأخذوا بعض الأموال، ولكن الأذى شيء، والغلبة شيء آخر، لن يغلبوكم.

أنتم إذا هزمتم من أنفسكم غُلبتم، لكن إذا صبرتم على ما أنتم عليه، واعتصمتم بحبل الله جميعًا، ولم تُفرِّطوا فيما معكم من حق، ولم تتنازلوا عن الرسالة الَّتي بعثتم بها، فأنتم مبعوثون برسالة كما بعث نبيكم ﷺ. يقول النبي ﷺ: «**فإنَّما بعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين**»[(٢)]، فالأمة مبعوثة، وهي منتصرة إن شاء الله.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣٢٠)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح لغيره، دون قوله: قالوا: يا رسول الله، وأين هم، إلخ، وهذا إسناده ضعيف. وأطالوا في التخريج فلينظر. والطبراني (١٤٥/٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢٤٨): رواه عبد الله وجادةً عن خط أبيه، والطبراني ورجاله ثقات.

(٢) سبق تخريجه صـ٣٩٥.

QaradawiBooks.com

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، إذا دخلتم معهم في معركة يهربون منكم، ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، لن يصبروا على قتالكم؛ لأنكم بعتم نفوسكم لله والله اشترى منكم، عقْد بينكم وبين الله ﷻ، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، ويقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنفسًا هو خلقها، وأموالًا هو رزقها[١].

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، سيجرون ويهربون أمامكم، ولن تكون لهم عاقبة، العاقبة لكم دائمًا، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، العاقبة للمتقين الَّذين يتقون الله ويخافونه، المؤمنون كانوا دائمًا ينظرون إلى العاقبة، لا تنظر إلى الحال، قد تكون الآن في محنة، يتحكم فيك عدوك، ويُجري عليك ما يُجري، ولكن العبرة ليست في الوقت الحالي، العبرة بالعاقبة، لمن العاقبة؟ العاقبة للمتقين.

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]، لن ينتصروا إن شاء الله، النصر لهذه الأمة في النهاية، قد يسقط منها بعض الضحايا، وقد تخسر بعض المعارك، ولكن العاقبة للمتقين، العاقبة للمؤمنين، ونحن موعودون بالنصر إن شاء الله، الأحاديث الصحاح المتَّفق عليها تبيّن أنَّه لن تقوم الساعة حتَّى ننتصر على اليهود، «**حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله**»[٢].

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، النصر لن يكون لهم، إنَّما النصر للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا

(١) الكشاف للزمخشري (٣١٣/٢)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٩٢٦) مختصرًا، ومسلم في الفتن (٢٩٢٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

ضرب الذلَّة والمسكنة على اليهود:

﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ ﴾، هؤلاء هم اليهود، ضُربت عليهم الذلَّة أينما ثُقِفوا، حيثما وُجِدوا، أينما ذهبوا، الذِّلَّة مضروبة عليهم، هذا هو الأصل، الحالة الاستثنائية إذا دخلوا في الإسلام، واهتدوا بهدى الله، أو كان هناك من النَّاس من يحميهم، مثل أمريكا الآن، فمعهم حبل من النَّاس.

فما هم فيه من القوَّة والغلبة استثناء من القاعدة، غلبة محدودة، ونصر مؤقت، ولن يبقى أبد الدهر، سيزول عنهم، سيقطع الله حبله، وحبل خلقه عنهم، سيقطع الحبل الَّذي بينهم وبين النَّاس، كما انقطع الحبل الَّذي بينهم وبين الله، وسيبقون في العراء، وسنواجههم بإيماننا، وحقنا الَّذي لن يضيع أبدًا، سنواجههم، وستكون المعركة في النهاية لنا، سيكون الحجر والشجر معنا، سيكون كل شيء في الوجود معنا وضدَّ اليهود، دالًّا عليهم وكاشفًا عن عوراتهم.

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، هم الأمة الغضبيَّة؛ القرآن يقول: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ ﴾ [البقرة: ٩٠]، ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠]، الأمة الغضبيَّة، الأمة المغضوب عليها، الَّتي ندعو في صلاتنا ألا نكون على طريقهم ولا نتبع طريقتهم فنقول:

QaradawiBooks.com

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦]، وجاء في الحديث: «**اليهود مغضوب عليهم، والنَّصارى ضالون**»(١).

السبب في ضرب الذلَّة والمسكنة على بني إسرائيل وإحاطة غضب الله بهم:

ثم بيَّن الله سبب ما ضرب عليهم من الذلَّة، وما وقع عليهم من غضب الله، وأنَّه كان بسبب سوء أعمالهم، ومحادتهم لله ولأنبيائه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ بالظلم والعدوان، وكم قتلوا من نبيٍّ، وكم قتلوا من رسول، نشروا سيِّدنا زكريا بالمنشار، وذبحوا ابنه السيد الحصور يحيى، وقال الله تعالى لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وفي سورة آل عمران: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

إننا بعون الله منصورون على قتلة الأنبياء، على هؤلاء السفاحين، على هؤلاء الطغاة الظالمين، ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٤ ـ ٦].

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٣)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٥٣)، عن عدي بن حاتم.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس السادس

التحذير من أكل الربا والدعوة إلى المسارعة إلى المغفرة والجنة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۞ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۞ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۞ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٦].

النهي عن أكل الربا:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾، قال بعض النَّاس الَّذين يأخذون بالمتشابهات، ولا يردونها إلى المحكمات: الربا القليل الَّذي لا يبلغ أن يكون أضعافًا مضاعفة لا يدخل في دائرة التحريم. ونسي أنَّ القرآن يفسر بعضه بعضًا، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإنَّما قال القرآن: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ليبشِّع الواقع الَّذي كان موجودًا في الجاهليَّة؛ لأنَّ أهل الجاهليَّة كان الدرهم يمكن أن يصير بدرهمين، وخمسة دراهم، وعشرة دراهم، ربا مركَّب، يتضاعف عبر الزمن، فالله تعالى أنكر عليهم ذلك، فالقيد غير مراد ـ كما يقول العلماء ـ وإنَّما هو لبيان الحال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ وليس معنى هذا أنَّ الربا إذا لم يكن أضعافًا مضاعفة يكون حلالًا؛ لأنَّا لو أخذنا بظاهر هذه الآية، كان معنى هذا أنَّه لا يحرم الربا إلَّا إذا كان ستَّة أضعاف، يعني ستمائة في المائة (٦٠٠٪)، وهذا لم يقل به أحد، ولا يُعقَل.

الله تعالى يقول: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾، والضِعف هو: مِثْل الشيء، فضعف العشرة: عشرون. وضعف المائة: مائتين.. وهكذا، وكلمة «أضعاف» في اللغة العربيَّة جمع، وأقل الجمع في العربيَّة ثلاثة، وإذا كانت هذه الأضعاف مضاعفة على الأقل تكون المضاعفة مرَّة واحدة، فإذا ضوعفت مرَّة واحدة تكون ستَّة أضعاف، فمعنى هذا أنَّه لو أخذنا بهذا الظاهر، فلا يكون الربا إلَّا إذا كانت الزيادة ستمائة في المائة، وهذا لم يقل به أعتى الرأسماليين في العالم.

لذلك، جاء القرآن يشنِّع على واقع الجاهليَّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: ١٥١] ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الإسراء: ٣١]، والإملاق: الفقر.

فلو فُرض أنَّ أحدًا قتل ابنه لا من إملاق، ولا من خشية إملاق، هل يكون هذا القتل حلالًا؟! لا، وإنَّما القرآن يشنِّع على حال أهل الجاهليَّة الَّذين يقتل أحدهم ولدَه وفلذة كبده من أجل ألَّا يزاحمه في لقمة العيش، هذه خسة ودناءة.

QaradawiBooks.com

اتِّقاء النَّار المعدة للكافرين:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، اتقوا النَّـار بترك الربا؛ لأن الربا أحد الموبقات، وأحـد الكبائر الموبقة، وفي الحديث: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». وذكر منها أكل الربا[1]. واجتنبوا غيره من الذنوب الَّتي توصلكم إلى النار.

﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، هي في الأساس معدة لعقاب الكافرين، ولكن يمكن أن يدخلها عصاة المؤمنين، إذا ارتكبوا من الموبقات ما يختص بالكافرين، وإذا فعلوا أفعال الكافرين.

قال الإمام النَّسَفي: «كان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول: هذه الآية أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدَّة للكافرين، إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، وقد أمد ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوقُّرهم على طاعته وطاعة رسوله بقوله: ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ**﴾»[2].

طاعة الله ورسوله تُنال بها رحمة الله:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، فلا يمكن أن يرحم الله النَّاس إلَّا إذا أطاعوا الله ورسوله، فسبب الرحمة طاعة الله ورسوله، وإذا نزل بهم العذاب فذلك لعصيانهم الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) تفسير النسفي (٢٩١/١، ٢٩٢)، تحقيق يوسف علي بديوي، نشر دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

الترغيب في المسارعة إلى مغفرة الله وجنته:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، هذه الآيات جاءت بعد أن حذَّر الله من أكل الربا ومن النار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۞ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۞ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٢]. بعد هذا الترهيب، جاء الترغيب، كما هي سُنة القرآن يمزج الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، وبعد أن يذكر النَّار ويخوف منها يذكر الجنَّة ويرغب فيها.

في هذه الآيات يأمرنا الله أن نسارع إلى مغفرته وجنَّته، أن نسعى إليها، وليس مجرَّد أن نمشي إليها بطاء في سيرنا، كما قال في آية أخرى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، والمائدة: ٤٨]، وفي آية سورة الحديد: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: ٢١]، الجنَّة تحتاج مسابقة ومسارعة، لا تسر إلى الجنَّة سير السلحفاة، لا بدَّ أن تسعى إليها بجد واجتهاد ومسارعة، لا بدَّ أن تسابق غيرك، ومن أراد الجنَّة وأراد المغفرة فلا يكفيه أن يسعى إليها في بطء السلحفاة، لا بدَّ من همَّة، لا بدَّ من مسارعة واستباق، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقد قرئت: (سَارِعُوا) بغير واو، وقراءتنا قراءة عاصم برواية حفص: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ بواو[(١)]، وكلتاهما قراءتان متواترتان صحيحتان، وكلتاهما حق، كما قال النبي ﷺ لابن مسعود ومن اختلف معه في بعض القراءات: «**كلاكما محسن، ولا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[(٢)].

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر (سَارِعُوا) بغير واو قبل السين، وقرأ الباقون بالواو. انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/٢٤٢).

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٦)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

كلمة «مسارعة» مفاعلة، أي: أنت تسارع، وغيرك يسارع، والكيِّس الفطن هو من يكون أسرع من غيره. أنت تريد أن تسبق غيرك، وغيرك يريد أن يسبقك، والمُفلح منكما هو من يسبق الآخر، الَّذي يفوز في هذا السبق يكون هو الفائز.

الذين يريدون الدُّنْيا يبذلون جهدهم ويسارعون من أجل كسب قد يكون وقد لا يكون، وإذا كسبوا وربحوا فقد ينتفعون بهذا الكسب وقد لا ينتفعون، وإذا انتفعوا به حينًا فقد يبقى وقد لا يبقى، وإذا بقي لهم فهم أنفسهم عنه زائلون.

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا ... أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالِ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ فَيْءٍ ... أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِارْتِحَالِ[1]

إذا كان النَّاس يسارعون ويسابقون وينشطون من أجل الدُّنيا، أفلا يحقُّ لهم أن ينشطوا ويتسابقوا ويتسارعوا من أجل الآخرة؟!

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾، انظروا.. الله تعالى قبل أن يقول سارعوا إلى الجنَّة قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ليدلنا على أن كل إنسان مهما علا كعبه في الطاعة، ومهما رسخت قدمه في الطاعة له ذنوب.

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطّْ؟! ... وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ[2]؟!

كل إنسان لا بدَّ أن تكون له ذنوب، ولهذا فهو في حاجة إلى المغفرة، ولذلك حينما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ

(١) البيتان لأبي العتاهية، انظر: الدر الفريد (٣٦٨/٥)، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

(٢) البيت من مقامات الحريري صـ ٢٣٠، نشر مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.

QaradawiBooks.com

عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢]، المغفرة قبل الجنة.

وهنا يقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، كل منكم له ذنوبه وسيئاته؛ لأنَّ الله تعالى خلق الإنسان على طبيعة مزدوجة ـ كما قال الإمام الغزالي ـ اجتمع فيه الطين والروح[١]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]، ففيه قبضة الطين، وفيه نفخة الروح، فأحيانًا تغلب عليه نفخة الروح، فيرتقي، وأحيانًا تغلب عليه قبضة الطين، فيهبط، ويخلد إلى الأرض، من أجل ذلك تقع منه الذنوب.

وربنا اسمه الغفَّار واسمه العفو، وهو التواب الرحيم، فلمن يغفر، وعلى من يتوب، ولمن يعفو، إذا لم يكن هناك مذنبون؟ ولذلك قال النبي ﷺ: «**والَّذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم**»[٢]. وقال ﷺ: «**كلُّ بني آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التَّوَّابون**»[٣].

سعة الجنة:

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وفي آية الحديد: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، إذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فما

(١) إحياء علوم الدين (٥٣/٣).

(٢) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٨٢)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٣٠٤٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، وحسَّنه الألباني في المشكاة (٢٣٤١)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

بالكم بطولها؟ والطول دائمًا أكبر من العرض، فأيُّ شـــيء هذه الجنة؟ إنَّها شيء لا يقدَّر، هذه الدار الَّتي أعدها الله تعالى للمتقين هي دار تَجِل عن الوصف، كما قال ابن عبَّاس: ليس في الجنَّة شيء ممَّا في الدُّنْيا إلَّا الأسماء[١].

يخبرنا القرآن أن في الجنَّة فاكهة، وأن فيها نخلًا ورمانًا، هذه أسماء فقط تشـــبه ما في الدُّنيا، وليســـت هي هي، ما في الآخـــرة غير ما في الدُّنيا، شيء آخر، نشـــأة أخرى، ولذلك قال النبي ﷺ: «**قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن ســـمعت، ولا خطر على قلب بشـــر**». قال أبو هُرَيْرة: اقرؤوا إن شـــئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][٢]، تستحق الجنَّة إذن أن يسارع النَّاس إليها وأن يتسارعوا عليها.

وفي الحديث الصحيح عـــن المغيرة بن شـــعبة، أن أدنى رجل في الجنَّة من يقول الله له: «**أترضى أن يكون لـــك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربّ. فيقـــول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامســـة: رضيـــت رب. فيقول: هذا لك وعشـــرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينُك**».

ثم سأل موسى عليه السلام ربه عن أعلى أهل الجنَّة منزلة، فقال له الله عز وجل: «**أولئك الَّذين غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر**»[٣].

---

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور (٣٣٢).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٨٩)، والترمذي في التفسير (٣١٩٨)، عن المغيرة بن شعبة.

QaradawiBooks.com

إذا كان هذا ملك أدنى أهل الجنَّة منزلة أو آخر النَّاس دخولًا الجنَّة فما بالك بالمتَّقين؟ فما بالك بالصِّدِّيقين؟ فما بالك بالشهداء؟ الجنَّة إذن شيء لا يعلمه إلَّا الله، فإذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فما بالك بطولها؟

نحن في عصرنا يحدثوننا عن المجرَّات، وعن الأنجم الَّتي يصل إلينا ضوؤها بعد ملايين السنين الضوئية أو بلايين السنين الضوئية، وهذا الكون الَّذي نعيش في جزء صغير منه، ليس مقصورًا على السماوات والأرض ـ وإن كنا حتَّى الآن لا نعرف السماوات ما هي ـ فهناك فوق السماوات من ملك الله ﷻ ما لا تبلغه عقولنا، ولا يصل إليه علمنا، ولا يعلمه إلَّا الله، ولهذا يقول المسلمون كما علَّمهم النبي ﷺ بعد القيام من الركوع: «**اللهمَّ ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئتَ من شيء بعد**»[(١)].

هذا ما يحدِّثنا العلم المعاصر عن بعضه، ويقيسه بملايين السنين الضوئية، بيننا وبين بعض الكواكب من المسافات الشاسعة، والأبعاد المجهولة، ما يقاس بملايين وآلاف الملايين من السنين الضوئية، وهذا شيء أصبح معلومًا ومقرَّرًا الآن، فإذا كانت الجنَّة عرضها السماوات والأرض، فليس معنى ذلك أنَّه ليس هناك في ملك الله ما يتسع للنار؟ بل هناك من هذا الملك الواسع الرحب الفسيح، ما يتسع للنار ولغيرها.

وقد سُئل النبي ﷺ من قِبَل بعض أهل الكتاب عن قوله تعالى: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ**﴾، قالوا: فأين النار؟ فكان النبي ﷺ يقول لهم: «**أين الليل إذا جاء النهار؟**»[(٢)] وفي رواية عن أبي هُرَيْرة رواها

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٨)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد (١٥٦٥٥)، وقال مُخَرِّجوه: حديث غريب، وإسناده ضعيف. وقال ابن كثير في =

QaradawiBooks.com

البزار مرفوعة أن رجلًا سأل السؤال نفسه للنبيِّ ﷺ، فقال له: «**أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء؟ فأين النَّهار؟**». فقال السائل: النهار حيث شاء الله ﷻ. قال النبي ﷺ: «**كذلك النَّار تكون حيث شاء الله ﷻ**»[1].

معنى «التَّقوى»:

هذه الجنَّة الرحبة الفسيحة لمن أُعِدَّت؟ قال الله ﷻ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، هذه الجنَّة أعدَّها الله للمتقين، وهيأها لاستقبالهم.

وكلمة «المتَّقين» تكررت كثيرًا في القرآن الكريم، وتكررت في سورة البقرة كثيرًا، أوَّل السورة يقول: ﴿**ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ٢]، ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ٢١]، وذكر الله القصاص فقال: ﴿**وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٩]، وذكر الصيام فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣].

= البداية والنهاية (١٧٧/٧): حديث غريب وإسناده لا بأس به. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٨٩٢): رواه عبد الله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبد الله بن أحمد كذلك. عن التنوخي

(١) رواه البزار (٩٣٨٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٩٠٢): رجاله رجال الصحيح. قال ابن كثير في تفسيره (١١٨/٢) معلِّقًا على هذا الخبر:

«وهذا يحتمل معنيَين: أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك أنَّه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون الليل في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث شاء الله ﷻ. وهذا أظهر.

والثاني: أن يكون المعنى أنَّ النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليِّين، فوق السماوات، تحت العرش، وعرضها كما قال الله ﷻ كعرض السماء والأرض، والنار في أسفل سافلين، فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض، وبين وجود النار. والله تعالى أعلم».

QaradawiBooks.com

فمن المتقون الَّذين احتفى بهم القرآن وذكرهم في آيات كثيرة، وعلَّق على تقواهم خيرات الدُّنْيا والآخرة؟

«التَّقوى» من الوقاية، والمتَّقون هم: الَّذين يَحْذَرون سخط الله، يتَّقونه، ويبتعدون عنه، ويجتنبونه كل ما يُعرِّضهم إليه.

ومعنى هذا أنَّهم يمتثلون ما أمر الله به؛ لأن ترك ما أمر الله يسخطه، ويجتنبون ما نهى الله عنه.

هنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وفي سورة الحديد قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]؛ لأنَّه لا تقوى بدون الإيمان، فالإيمان هو الأساس، والتَّقوى هي البناء على هذا الأساس.

الجنَّة أُعدَّت لهؤلاء المتَّقين.. أصحاب التَّقوى، فمن أراد أن يُعِدَّ نفسه للجنة، فليُعدَّ نفسه للتقوى، وليتقِ الله في أموره صغيرها وكبيرها، وليحرِّم ما حرَّم الله، وليحلَّ ما أحلَّ الله.

صفات المتَّقين:

هؤلاء المتقون ذكر الله جملة من أوصافهم تدل عليهم وتشير إليهم، وليس من الضروري أن يذكر كل أوصافهم، فبعضها يغني عن بعض، إنَّها تعطي ملامح هؤلاء المتَّقين الَّذين أعد الله لهم هذه الجنة.

الإنفاق في السرَّاء والضرَّاء:

وأول أوصافهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ﴾، أي: في حال اليُسر، وفي حال العُسر، إذا كان النَّاس في السرَّاء أنفقوا، وإذا كان النَّاس في الضرَّاء أنفقوا، أو هم إذا كانوا في سرَّاء أنفقوا، أو في ضرَّاء أنفقوا، يعني ينفقون في حالة يسرهم وعسرهم.

QaradawiBooks.com

الإسلام يريد أن يعوِّد المسلم أن يعطي في السرَّاء والضرَّاء، أن ينفق في حالتي العسر واليسر، كهؤلاء الَّذين ينفقون في السرَّاء والضرَّاء، أن يعوِّد يده البسط، والإنفاق والجود، لتكون يده العليا في وقت من الأوقات، ولا تظل يده السفلى الَّتي تأخذ ولا تعطي.

إنَّ أوَّل أوصافهم: البذل والإنفاق، العطاء، إنَّهم ليسو أنانيِّين يعيشون لأنفسهم، كأولئك الَّذين يكسبون المال ويريدون أن يستمتعوا به وحدهم، مع أنَّ المال ليس مالهم، وإنَّما هو مال الله لديهم، ووديعة الله عندهم، والمجتمع قد أسهم فيه، ولكن هؤلاء يستأثرون به، هؤلاء المتقون يعتقدون أن لله حقًّا في هذا المال، وأن للفقراء والعجزة والمُعْوزين حقًّا فيه، ولذلك ينفقون من مال الله لديهم في السراء والضراء، في حالة السعة وحالة الضيق، في حالة الرخاء وحالة الشدة، ينفقون حتَّى في حالة الضيق، حتَّى وإن كان مالهم قليلًا، فإنَّهم دُرِّبوا على العطاء وعلى البذل.

ولهذا نجد الإسلام فرض على المسلمين في كل عيد فطر كلَّما أقبل أن يخرجوا صدقة الفطر، هذه الصدقة تخرج ممَّن يملك مقدارها فاضلًا عن قوت يوم العيد وليلته، أي إن بعض من يخرجها ينفق وهو في حالة الضراء، ولكن الإسلام يريد أن يدرِّب المسلم على أن تكون يده هي العليا يومًا من الدهر، يتعوَّد على أن يُعطي بدل أن يظل دائمًا، آخذًا وإن كان فقيرًا، فهذا هو شأن الإسلام، ينفقون في الضراء، ينفق ممَّا عنده ولو قليلًا، اتق النَّار ولو بشق تمرة، يقول النبي ﷺ: «**سبق درهم مائة ألف**» قالوا: وكيف ذاك يا رسولَ الله؟ قال: «**رجل له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به** ـ يعني تصدَّق بنصف ثروته ـ **ورجل له مال كثير فأخذ من عُرض ماله مائة**

QaradawiBooks.com

ألف، فتصدَّق بها»[١]. عنده ملايين أخذ منها مائة ألف، لا تهمه، الدرهم يسبق مائة ألف درهم؛ لأنَّه أعطاه من ماله القليل، ينفق في الضرَّاء.

والنفقة في الضرَّاء لها أهميتها الكبرى، أضرب مثلًا: حينما تريد الأمة أن تقيم مشروعًا كبيرًا، وتطالب كل مسلم أن يدفع شيئًا قليلًا، لو شاركت الأمة كلها تجمع شيئًا كبيرًا.

منذ سنوات أنا رفعتُ شعارًا، أمام الهجمات التبشيرية والتنصيرية، الَّذين رصدوا ألف مليون دولار، لتنصير المسلمين في العالم، قلتُ: «ادفع دولارًا، تنقذ مسلمًا»، وفكَّرنا في عمل مؤسسة تجمع ألف مليون دولار. بعض الإخوة قالوا: كيف تجمع هذا؟ لو كان المسلمون لهم قيادة ما أسهل هذا! كل مسلم يدفع دولارًا واحدًا، ألف مليون مسلم نقول لهم: ادفع دولارًا واحدًا. والقليل على القليل كثير، من هنا كان الأمر بالإنفاق في السراء والضراء. الفقير يدفع على قدر فقره، والغني على قدر غناه، أنفقوا في السراء والضراء، وفي العسر وفي اليسر.

وفي بعض الأحاديث أن بعض النَّاس جاؤوا للنبيِّ ﷺ في هيئة يرثى لها من الفقر والحاجة، فدعا النبي ﷺ صحابته للصدقة، وكان ممَّا قال: «**تصدق رجل من دينار، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره**». حتى قال: «**ولو بشق تمرة**» قال جرير بن عبد الله البجلي ـ راوي الحديث ـ: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفُّه تعجِز عنها، بل قد عجزت، ثمَّ تتابع النَّاس حتَّى رأيت كَوْمَين من طعام وثياب[٢].

---

(١) رواه أحمد (٨٩٢٩)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده قوي. والنسائي (٢٥٢٧)، وابن حبان (٣٣٤٧)، والحاكم (٥٧٦/١)، وصحَّحه، ثلاثتهم في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الكسوف (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦).

QaradawiBooks.com

كظم الغيظ والعفو عن الناس:

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، هذه صفات المتَّقين، من ناحية المال، ينفقون ولا يبخلون، ومن ناحية التعامل مع النَّاس، يكظمون غيظهم، لا يستجيبون إلى صوت الغضب.

الغضب يُضيع مصالح النَّاس، ويضيع حقوق النَّاس، وللأسف المسلمون يغضب بعضهم على بعض، ويستجيبون لصوت الغضب، ولا يكظم الإنسان غضبه، مع أنَّ الله ﷻ قال في وصف المؤمنين الَّذين يستحقُّون النصر: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والقرآن لم يمدح الذل إلَّا في موضعين اثنين:

الموضع الأوَّل: ذلُّ الإنسان لأبويه، أن يخفض المسلم جناح الذل لأبويه، فهذا هو الواجب على الإنسان المسلم لوالديه، ولا يُعاب في ذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

الموضع الثاني: الذلُّ على المؤمنين، المؤمن إذا ذلَّ على المؤمن، فهذا عزٌّ له، وشرف له.

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ هذا في الحقوق الشخصيَّة، فما بالك فيما يتعلق بحقِّ الأمة؟ إنَّ الله قد ركَّب في الإنسان غريزة الغضب كما ركَّز فيه الشهوة لحكمة، فبالشهوة إلى الطعام يضرب في الأرض، ويسعى ويطلب الرزق، ويعمر هذه الأرض، وتستمر الحياة، وكذلك الشهوة الجنسيَّة، هذه الغريزة تدفع الإنسان إلى أن يُشبعها بالزواج، فيأتي النَّسل ويستمر هذا العمران، وتتحقق إرادة الله في بقاء هذا النوع الإنساني، إلى ما شاء الله.

QaradawiBooks.com

وركَّب الله في الإنسان الغضب، غريزة بها يُدافع عن نفسه، ويدفع عن حرماته، ولكن كل شيء إذا زاد عن حدِّه انقلب إلى ضده، فإذا استسلم الإنسان للشهوة، أو استسلم للغضب، خرج عن طَور الرُّشد الإنساني، وأصبح حين يستسلم لشهوته كالبهيمة، وحينما يستسلم لغضبه كالسَبُع، كالوحش المفترس.

لهذا أوصى الدين الإنسان أن يكون ضابطًا لزِمام نفسه، قادرًا على شهوته، وعلى غضبه، مُتحكِّمًا في هواه، فالراشد من النَّاس هو الَّذي يضبط إرادته، بحيث يسيطر على الغرائز، ويستعلي عليها، ويحكمها وَفْقًا لأوامر الله وإرشاده، وهذا هو المؤمن التقيّ، وهذا هو الإنسان القوي الشديد بحق، قال النبي ﷺ: «**ليس الشديد بالصُّرَعة، إنَّما الشديد الَّذي يملك نفسه عند الغضب**»[1].

لَيْسَ الشُّجَاعُ الَّذِي يَحْمِي مَطِيَّتَهُ عِنْدَ الْقِتَالِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَشْتَعِلُ
لكنْ فتًى غَضَّ طرْفًا أو ثَنى قدمًا عَنِ الْحَرَامِ فَذَاكَ الْفَارِسُ الْبَطَلُ[2]

من هنا أوصى النبي ﷺ بكفِّ النفس وكبح جِماحها عند الغضب، وليس معنى هذا أنَّ الإنسان ليس له أن يغضب، ولا أن ينفعل أبدًا، فهذا لا يملكه الإنسان، إنَّما يملك الإنسان ألَّا يستسلم لغضبه، ولا يسترسل مع غريزته، ولا يطلق لها العِنان.. فيترك لسانه عند الغضب يسبُّ ويشتم، ويترك يده تبطش وتؤذي، ويسلُّ سيفه، ويشهر سلاحه، لا.. وإنَّما يُؤمر المؤمن إذا غضب أن يكفَّ نفسه، وأن يملك لسانه، وأن يُمسك يده عن البطش والإيذاء.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩)، عن أبي هريرة.

(٢) ذكره ابن الجوزي ولم ينسبه في ذم الهوى صـ ١٤٣، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مراجعة الشيخ محمد الغزالي.

QaradawiBooks.com

وقد سأل رجل سلمان الفارسي، فقال: إنِّي لا أملك نفسي إذا غضبتُ. فقال له: فامْلِكْ لسانَك ويدك[١].

وروي: أنَّ جارية لعليِّ بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كانت تسكب الماء على يده، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجه، فرفع علي بن الحسين رأسه إليها ونظر نظرة منكرة، وكاد أن يبطش بها، لولا أن تداركت الجارية الأمر، فقالت إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فقال لها: «قد كظمت غيظي»، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فقال لها: «عفا الله عنكِ»، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال: «اذهبي فأنت حرَّة لوجه الله»[٢].

إذا اغتاظوا على أحد لا يُنْفِذون غيظهم، يلجمون أنفسهم بلجام التَّقوى، فيكظمون غيظهم، كما يملأ الإنسان القِرْبة بالماء ويكظمها، يعني يربطها، يتحلَّم ولا يدع غضبه يفعل فيه كما يفعل أولئك النَّاس الَّذين يستسلمون لغريزة الغضب ويكونون كالمجانين، لا، يكظم غيظه، «**من كظم غيظًا وهو قادر على أن يُنفذه، دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق، حتَّى يُخيِّره من أي الحور شاء**»[٣]. «**ومن كظم غيظه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة**»[٤].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٦١٠)، تحقيق أبي إسحاق الحويني، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٩٦٤).

(٣) رواه أحمد (١٥٦٣٧)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الأدب (٤٧٧٧)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٧٥)، عن معاذ بن أنس.

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٤٥٣/١٢)، والأوسط (٦٠٢٦)، والصغير (٨٦١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧٠٨): رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سُكَيْن بن سراج وهو ضعيف. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٦)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، المتَّقون لا يكتفون بأن يكظموا غيظهم، ولكنَّهم يعفون عن النَّاس، العفو عند المقدرة، ومن مكارم الأخلاق، يعفون عن النَّاس وهم أصحاب الحق، كما كان النبي ﷺ يفعل، كما فعل عندما فتح مكَّة، بعد أن آذاه أهلها وصبوا عليه سياط العذاب، وحاربوه ما حاربوه، وسفكوا من أصحابه الدماء، ولكنَّه يوم تمكن منهم قال لهم: «**ما ترون أنِّي صانع بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1].

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، هذا من الإحسان، الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن النَّاس من الإحسان.

المسارعة إلى التوبة والإنابة:

ثم امتدح الله المتَّقين أيضًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، بيَّنت هذه الآية أن هؤلاء المتَّقين ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ بارتكاب الكبيرة ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب الصغيرة ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾، وهذا يعني أنَّ المتَّقين ليسوا معصومين، ليسوا ملائكة مطهَّرين، ولا أنبياء معصومين، هم بشر من البشر، مخلوقون من الطين، والطين لا يخلو من الكدر، ولذلك يمكن أن يقع المتَّقون في المعاصي، إنَّما مزيَّتهم على غيرهم أنَّهم: ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾، إذا وقعت منهم معصية، ذكروا الله، ذكروه بقلوبهم قبل ألسنتهم،

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبويَّة (٤١٢/٢)، عن ابن إسحاق، قال: فحدثني بعض أهل العلم.

QaradawiBooks.com

فاستغفروا لذنوبهم بألسنتهم، فالتقي يعود إلى نفسه، ويرجع إلى ربه ويسأله أن يتوب عليه وأن يغفر له.

فليس بمستَنكر أن يذنب ثمَّ يتوب، إنَّما المستنكر أن يتمادى في الذنوب، ويستمرئ الرذيلة والعصيان، لقد أذنب آدم أبو البشر وتاب، فتاب الله عليه، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، فلا غرابة أن يكون بنوه مثله.

ولهذا جعل القرآن من أوصاف المتَّقين أنَّهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

كما فرَّق القرآن بين كبائر الإثم وفواحشه، وبين صغائر السيئات ولمم الذنوب الَّتي قلما يسلم منها أحد، فهي في دائرة المسامحة والغفران إذا اجتُنبت الكبائر، كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١]، وفي الحديث الصحيح: «**الصلواتُ الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفِّرات ما بينهنَّ إذا اجتنب الكبائر**»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أنَّه مُطَّلعٌ عليهم لا تخفى عليه خافية ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: لأجل ذنوبهم، فتابوا منها وأقلعوا عنها، نادمين على فعلها، عازمين على ألَّا يعودوا إليها.

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٩١٩٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هل هناك أحد يغفر الذنوب إلَّا الله؟ لا يوجد أحد إلَّا الله، ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الَّذي أتوه معصية يُؤَاخذون عليها.

هؤلاء المتقون ليسوا ملائكة مطهَّرين ولا أنبياء معصومين، إنَّهم بشر ممكن أن يقع منهم الخطأ، وأن تزل أقدامهم إلى الخطيئة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، يتذكرون عظمة الله وجلاله وحسابه، فيرجعون إلى التوبة، ويتركون المعصية، فإذا زلَّت أقدامهم وعصوا، فإن الباب ليس مغلقًا أمامهم، إنَّهم سرعان ما تستيقظ ضمائرهم ويقرعون باب الله تائبين مستغفرين.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هؤلاء المتقون إذا زلَّت أقدامهم وعصوا ربهم وفعلوا كبيرة ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بصغيرة، سواء كان هذا فيما بينهم وبين الله، أو فيما بينهم وبين النَّاس، ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ ذكروا الله بقلوبهم وألسنتهم فاستغفروا الله ﷻ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّه هو الغفور الرحيم، ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، هل هناك غير الله يغفر الذنوب؟ ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، استغفار من أعماق قلوبهم، وليس كالاستغفار الَّذي قالت عنه السيِّدة رابعة رحمها الله: استغفار أمثالنا يحتاج إلى استغفار[1].

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندي صـ ١٠٨، تحقيق يوسف علي بديوي، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط ٣، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، وإحياء علوم الدين (٣١٣/١). وذكره القرطبي في التذكرة بأحوال الموتى من قول الحسن البصري صـ ٢١٤، نشر دار المنهاج بالرياض، ط ١، ١٤٢٥هـ.

QaradawiBooks.com

جزاء المتَّقين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

نسأل الله أن يجعلنا من الَّذين يسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض، أُعدّت المتَّقين، وأن يجعلنا من الَّذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس السابع
من دروس غزوة أحد ـ ١ ـ

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۞ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٣].

وقع الهزيمة يوم أُحُد على نفوس الصحابة:

هذه الآيات الَّتي استمعنا إليها هي بداية لشوط طويل، وقفته هذه السورة مع حدث من الأحداث العظيمة في حياة رسول الله ﷺ وأصحابه، هذا الحدث هو غزوة أحد، وغزوة أحد إحدى الغزوات التسع الكبار، أراد المشركون فيها أن يثأروا لأنفسهم ممَّا حدث لهم في غزوة بدر، يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان.

لقد نصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين معه يوم بدر نصرًا مؤزَّرًا، فقتلوا من صناديد قريش وأئمَّة الكفر سبعين، وأسروا سبعين، ثمَّ جاء

QaradawiBooks.com

المشـــركون يريدون أن يهاجموا المدينة، ويهاجموا المســـلمين في عقر دارهم، جاؤوا ووقفوا عند أحد.

وقد أراد النبي ﷺ في أوَّل الأمـــر أن يظل داخل المدينة، فإذا دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون بكل ما يستطيعون، ولكن شباب الصحابة ممَّن فاتهم شـــرف القتال في غزوة بدر، تشوفوا وتشـــوقوا للقتال، فأرادوا أن يخرجوا للمشركين، وكان ما كان من أمر هذه الغزوة.

وقد خالف الرمـــاة الَّذين كلَّفهـــم النبي ﷺ بأن يقفـــوا على الجبل يحمون ظهر المسلمين مهما حدث، خالفوا أمر النبي ﷺ ووصيته، فأوَّلوا أمره ﷺ، ونزلوا إلى الغنائم، وأخلَوْا أماكنهم، فخلت ظهور المســـلمين للمشركين، ففاجأهم المشركون من خلفهم، وأعملوا فيهم سيوفهم، وكان ما أراد الله تعالى، استشهد من المسلمين سبعون من الصحابة، من أمثال حمزة بن عبد المطلب، أســـد الله، وعـــم رســـوله، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وعبد الله بن جحش، من أمثال هؤلاء الصحابة الكرام، وكان ذلك شديد الوقع على المسلمين، والهزيمة بعد الانتصار، خاصَّة أنَّ الجولة الأولى كانت في صالحهم، وســـقوط هؤلاء الشهداء، شعور كثير منهم بالتقصير، كان هذا سبب غمٍّ دخل على قلوب المسلمين.

التسرية عن المؤمنين:

أراد الله ﷻ أن يُعقِّب على هذه الغـــزوة الكريمة، فأنزل هذه الآيات من السورة تعقيبًا على هذا الحدث الجليل، فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: لستم أيُّها المسلمون أوَّل من انكسر، إنَّ التاريخ يحفل بالوقائع الكثيرة، لا بدَّ أن تدرسوا التاريخ، وأن تعرفوا سنن الله تعالى فيه، إنَّ من المهم

QaradawiBooks.com

أن تعلموا أنَّ هذا الكون يسير على سنن وعلى قوانين، وأن من سنن الله تعالى في هذا الكون: أن يدفع الإنسان ثمن خطئه، ولقد أخطأتم خطأكم، ولم تنفِّذوا أمره، وأخليتم ظهركم، فدفعتم الثمن، سبعين من أصحاب نبيِّكم ﷺ، وسنن الله تعالى وقوانينه سائرة ثابتة، لا تُحابي أحدًا، ولا تلين لأحد، لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، كما قال سبحانه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. فسنن الله ثابتة فلا بدَّ أن تعرفوها.

الاعتبار بسنن التاريخ:

إنَّ الله تعالى جعل للنَّاس ثلاثة كتب مفتوحة يقرؤونها، القرآن أحد هذه الكتب، والكون أحد هذه الكتب، وكذلك التاريخ، فلا بدَّ أن نعتبر بسنن التاريخ، ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، ولا بدَّ أن تعلموا أنَّه إذا كانت الدولة عليكم، والريح ليست في صالحكم اليوم، فاعلموا أنَّ العاقبة لكم في النهاية، ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، انظروا عاقبة الأمم الَّتي كذبت رسلها من قبل.

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، القرآن بما فيه من عِبَر، وما فيه من أحكام، وما فيه من قصص، بيانٌ للناس، كلِّ النَّاس، بيانٌ وإرشادٌ ودلالة على الطريق لكلِّ النَّاس، ولكنَّه هدى وموعظةٌ للمتقين، فالمتقون هم الَّذين ينتفعون به، أمَّا أولئك المُعرضون عنه، فهو عليهم عمى، كما قال الله تعالى عن القرآن: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

QaradawiBooks.com

من قوانين النصر:

هذه الآيات جاءت في أعقاب غزوة أحد، والآيات الَّتي بعدها نحو ثمانين آية جاءت في أعقاب هذه الغزوة العظيمة، لتبيِّن أنَّ المسلمين لا يغترُّون عند النصر، ولا يهنون عند الشدة، ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، لا يكن ما حدث لكم سببًا في ضعف أنفسكم، ووهن عزائمكم، لا يغلبنَّكم الحزن والأسى والحسرة على ما حدث، لا، ما فات مات، تهيؤوا للمستقبل، واعلموا أنَّ الغدَ لكم، وأنَّ العاقبة لكم.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أنتم الأعلون بالإيمان، وإعلاء كلمة الإيمان، وما دمتم كذلك، فلا بدَّ أن يعلي الله شأنكم، أنتم تنصرون الله، فلا بدَّ أن ينصركم الله، هذا قانون من قوانين النصر: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

ما دمتم مؤمنين، فثقوا بنصر الله، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، العلو في النهاية لكم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

ثم حذَّر الله المسلمين من «الوهن النفسي» فقال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ المتاعب مشتركة، والمعاناة لكم ولهم، ولكن فرق بين من يعاني في سبيل الله والحق والعدل، ومن

QaradawiBooks.com

يعاني في سبيل الطاغوت والباطل والظلم، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وقد حذَّر النبيُّ ﷺ أيضًا الأمة في فترات «الغثائية» من تاريخها من «الوهن النفسي»، فقال فيما رواه أحمد وأبو داود: «**ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن**». قيل: وما الوهن يا رسولَ الله؟ قال: «**حب الدُّنْيا وكراهية الموت**»[(١)].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، ما لكم تنظرون إلى الأمور من وراء منظار أسود قاتم؟! ما لكم تُضخِّمون ما حدث، كأنكم تنظرون إليه بميكروسكوب، يُضَخِّم الشيء الصغير، فيجعله كبيرًا، ويجعل من الحبَّة قبة كما يقولون، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، إن كان قد مسكم قرحٌ، بأن قُتِلَ منكم في أُحد سبعون، فقد مسَّ القوم في بدر قرحٌ مثله، حيث انتصرتم عليهم وقد انكسروا، وقتل منهم سبعون، وأُسِر سبعون، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، فمصيبتهم أكبر من مصيبتكم، كما قال في موضع آخر من هذه السورة: ﴿أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أنتم تختلفون عنهم أيُّها المؤمنون، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، أنتم تشتركون معهم في الآلام،

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.

QaradawiBooks.com

لكنكم تختلفون عنهم في أنكم ترجون من الله رحمته، والفوز بجنّته، وهم لا يرجون. كل ما في الأمر أنَّ المسيرة ستتعثر بعض الوقت، وأنَّ الشهداء سيسقطون في سبيل الله، وأنَّ المحن ستظل تُصْقِل النَّاس، وتَمِيز الخبيث من الطيب، ولكن القافلة لن تتوقف، والعمل لن ينقطع، والفجر لن يموت، وإن طال الليل، واحلولك الظلام.

سنة التداول:

إنَّ لله ﷻ سننًا لا تتبدل ولا تتغير، ومن تلك السنن «سنة التداول»، هذا هو شأن الدهر، هذا هو شأن الحياة، يومٌ لك، ويومٌ عليك، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، الدولة تكون لكم يومًا، وتكون عليكم يومًا آخر، لا بدَّ أن تتقبَّلوا الحياة بحلوها ومُرِّها، بورودها وأشواكها، ولا تظنُّوا أنَّ الحياة ملك أيديكم تصرفونها كما تشاؤون.

إنَّ سياسة الأمم تقوم على طول الأمل، وهو ما أشار إليه القرآن، حين قال عن هزيمة الروم أمام الفرس: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤]، أي: إنَّ الدُّنْيا دُوَل، والأمم لا يُحكم على مستقبلها بخسارة معركة. وقد علم الله أنَّهم سيَغلبون، بعد أن غُلبوا، في حدود بضع سنين.

وقال في سورة القمر وهي مكيَّة: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، إشارة إلى ما سيحدث للمشركين من هزيمة في بدر وغيرها، وقال هنا مُعزِّيًا المؤمنين بعد غزوة أحد، الَّتي فقدوا فيها سبعين شهيدًا: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

QaradawiBooks.com

ثمَّ أشارت الآيات إلى حكمة أخرى من وراء ما حدث للمؤمنين في أُحد: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إنَّ الله تبارك وتعالى يريد أن يميّز الخبيث من الطيّب، وأن يُطهِّرَ صفوفكم، إذا كان هناك ضعاف النفوس، أو مرضى القلوب، أو منافقون يجب أن يُعرفوا، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

النصر لا يكشف المنافقين، فساعة النصر يكونون في الزحام مع غيرهم، ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]، إنَّما ينكشفون ساعة الهزيمة، عندما تقع الهزيمة يكشفون عن أنفسهم بأنفسهم، ولهذا كان لا بدَّ من التمييز، ولا بد من التصفية، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، علم ظهور مكشوف للناس، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، أي: إنَّ الله يريد أن يصطفي بعض عباده منكم لهذه الشهادة، لهذه المنزلة العظيمة، يريد أن يرفع بعض النَّاس إلى هذا المقام الرفيع، مقام الشهادة، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلا يتَّخذ منهم شهداء، إنَّما يتخذ من المؤمنين، ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٤١]، يمحصهم بهذه المحن، ويطهرهم ويصفي نفوسهم، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

إنَّ الأنفس تتربَّى في الشدائد، في الضرَّاء، في المحن، أمَّا السراء فلا تربِّي الرجال، التمحيص يكون في أتُّون المحن والأزمات، والشدائد هي الَّتي تصهر الأنفس، وتصنع الأبطال والرجال حقًّا، ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، سيكون ذلك سببًا في محقهم وزوالهم، وإدارة الدَّائرة عليهم إن شاء الله.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لا يدخل الجنَّة إلَّا من بذل النفس والمال في سبيلها:

ثمَّ يبين الله ﷻ سنة من سننه، وحقيقة من حقائق كونه، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، هل كنتم تريدون الجنَّة بلا ثمن؟ وثمنها معاناة الحياة ببأسائها وضرَّائها وشدائدها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وكما قال أيضًا في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤]، إلى هذا الحد! مسَّتهم البأساء في أموالهم، والضرَّاء في أبدانهم، والزلزلة والاضطراب في نفوسهم، ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، متى يجيء النصر؟ فجاءت هذه الجملة المؤكِّدة والمؤكَّدة: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، الخير في هذه الحياة مَشُوب بالشر، واللذَّة فيها ممزوجة بالألم، ابتلى الله المؤمنين بالكافرين، كما ابتلى الكافرين بالمؤمنين، وأعطى كلًّا منهم عُدَدَه وأسلحته وأعوانه، وجعل بعضهم لبعض فتنة، ليبلوَ أخبارهم، وليتبيَّن مَن يتولَّاه ويتولى رُسُله، ممَّن يتولى الشيطان وحزبه، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وإنَّما يعلمهم بالابتلاء، علم ظهور، فهو تعالى عليم بذات الصدور، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في

QaradawiBooks.com

السماء، ولكنَّه يعامل عباده معاملة المختبِر، ليجزيهم بما عملوا، لا بما علم أنَّهم سيعملونه، ويقيم عليهم الحُجَّة، ويبطل الأعذار والتعلَّات.

تمنِّي الصحابة بعد بدر الموت في سبيل الله:

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]، طالما تشوَّقتم إلى هذه المواقف، وكنتم في شوق إلى أن تروا الموت عِيانًا، طالما كنتم تنتظرون يوم القتال، يوم المواجهة، وها أنتم تُواجهون المشركين، وها أنتم قد رأيتم الموت بأعينكم، فاصبروا واثبتوا، واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف.

يموت الرسل وتبقى دعوتهم:

ولما أشاع المشركون في أُحد أنَّ محمدًا قد مات، علَّق القرآن على ذلك فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فالعبرة بالمبادئ لا بالأشخاص، وأنتم تقاتلون لا من أجل شخص مُحَمَّد ﷺ، بل من أجل الدعوة والرسالة.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، تلا النبي ﷺ ذلك عليهم ليعلقهم بالدعوة لا بالداعي، ليعلقهم بالرسالة لا بشخص الرسول.

ولذلك استفاد أبو بكر من هذه الآية يوم وفاة النبي ﷺ، وقد هاج هائج الصحابة، وقال من قال منهم: من قال: إنَّ محمدًا قد مات؛ ضربت عنقه. فقام أبو بكر وقال: أيُّها النَّاس، من كان يعبد محمدًا، فإنَّ محمدًا

QaradawiBooks.com

قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنَّ الله حيٌّ لا يمـــوت. ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤][1]. وكأن القوم كانوا يسمعونها أوَّل مرَّة، فربط الله بها على قلوبهم، وقوى عزائمهم.

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٦٧، ٣٦٦٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

الدرس الثامن
من دروس غزوة أحد ـ ٢ ـ

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٥ ـ ١٦٧].

الرسول المجاهد:

غزوة أُحد من الغزوات الكبار ـ كما قلنا ـ الَّتي غزاها رسول الله ﷺ، وقد غزا رسول الله ﷺ سبعًا وعشرين غزوة، شارك فيها بنفسه، وقادها وشهدها، أمَّا السرايا الَّتي بعث فيها أصحابه، فقد كانت بضعًا وخمسين سريَّة، ومعنى هذا أنَّه ﷺ عاش حياته في جهاد متواصل، خصوصًا في الفترة المدنيَّة. فقد كان في الفترة المكيَّة في جهاد من نوع آخر، جهاد احتمال البلاء والصبر على العذاب والأذى والحصار، وهو الَّذي قال الله فيه في سورة العنكبوت المكيَّة: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

عاش رسول الله ﷺ حياته في جهاد، في مكَّة والمدينة، سبعًا وعشرين غزوة غزاها بنفسه، منها الغزوات الكبار، وهي تسع غزوات، أولاهنَّ كانت: غزوة بدر الكبرى، والثانية: غزوة أحد.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بين غزوة بدر وأحد:

في غزوة بدر كتب الله فيها النصر للمسلمين، وسمَّى يومها «يوم الفرقان»، يوم التقى الجمعان؛ لأن الله فرَّق في هذا اليوم بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهليَّة.

وفي غزوة أحد لم يُكتب النصر للمسلمين، وانكسر المسلمون، بعدما تحقَّق لهم النَّصر في أوَّل المعركة، وكسبوا الجولة الأولى، ولكن غرَّت بعضهم الدُّنيا، وسال لعابهم للغنائم، فتركوا مواقعهم، مع تحذير النبي ﷺ لهم، أن يتركوا هذه المواقع ولو حدث ما حدث.

ولكن تأوَّلوا وتركوا مواقعهم، فانكشف ظهرُهم للعدو، وانتهزها خالد بن الوليد، الَّذي كان على رأس خيل المشركين وفرسانهم يومئذ، وهو قائد لا تفوته فرصة، فالتفَّ على المسلمين من الخلف، وأعمل فيهم السيف، وحدث ما حدث، وشاعت الشائعة أنَّ رسول الله ﷺ قُتِل، وفتَّ في عضد المسلمين وفرَّ من فر، ولم يبقَ إلَّا طائفة يسيرة من المسلمين، حول النبي ﷺ.

هذه المعركة قدَّم المسلمون فيها سبعين شهيدًا، من أمثال حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، ومصعب بن عمير، الداعية الأول، ومن أمثال: عبد الله بن جحش، وأنس بن النضر.. وغيرهم، قدَّمهم المسلمون، ولا نقول: خسروهم؛ لأنَّه كما قال الله في السورة: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

في غزوة بدر قتل المسلمون من أئمَّة الكفر، ومن فراعنة الضلال، ومن صناديد قريش، أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمثالهم من أئمَّة الكفر، وصناديد قريش، وأسروا سبعين.

QaradawiBooks.com

فإذا كان المسلمون قدَّموا سبعين شـــهيدًا في أحد، فقد قتلوا سبعين صنديدًا من صناديد الشرك في بدر، وأسروا سبعين مثلهم، ولذلك عقَّب القرآن على غزوة أحد بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ في بدر، حيث قتلتم من أئمَّة المشـــركين سبعين، وأسرتم سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين جاء هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

الهزيمة في أُحُد كانت من عند أنفسهم:

القرآن يُقَرِّر هذا، وهو أمر في غاية الأهميَّة، أن يفتش الإنســـان عن عيوبه، إذا حدث له حدث، يسأل نفسه: فيم أخطأت؟ ولا يسأل الله: لماذا فعلت بي هذا يا رب؟

كثير من المســـلمين، إذا أصابتهم بعض المصائب يبحث عن سبب خارجي، ولا ينظر في نفســـه، يقول: لا بدَّ أن هذا مـــن وراء الصهيونية العالميَّة، أو الصليبيَّة الغربيَّة، أو الوثنيَّة الشـــرقيَّة، إلخ، نحن لا ننكر أن هناك كيدًا خفيًّا لهذه الأمة، يكيده لها أعداؤها الظاهرون والمستخفون، ســـنة الله في خلقه. ولكن الَّذي ننكره هو تضخيم ذلك، بحيث يجعلنا «أحجارًا على رقعة شـــطرنج»، يفتُّ في عضدنا، ويئيســـنا من أي توجه إيجابي نحو التغيير، ويجعلنا نشـــعر بأننا دومًا ضحايا من هو أقوى منا، ولا حل أمامنا غير الاستسلام للواقع المر، ويجعلنا كذلك لا نعود على أنفسنا باللائمة ولا نحاول إصلاح ما فسد، وتدارك ما وقع.

محاسبة النفس (النقد الذاتي):

إنَّ أولى مـــن تعليق أخطائنا علـــى التآمر الخارجـــي، أن نردَّها إلى الخلل الداخلي، أي الخلل في أنفسنا قبل كل شيء، ما الَّذي قصرنا فيه نحن المسلمين؟ ما الَّذي أخطأنا فيه؟ وهذا مهم جدًّا.

QaradawiBooks.com

القرآن يأمرنا أن نبحث في أنفسنا عند حلول المصائب، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾، وكما قال في سورة أخرى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

موقف أتباع الأنبياء في القتال مع أنبيائهم:

لا بدَّ ممَّا يسمُّونه في عصرنا «النقد الذاتي»، انقد نفسك بنفسك، انقد ذاتك، ولا تترك غيرك ينقدك، كنْ أنت منصفًا مع نفسك، وابحث عن عيوب نفسك، وهذا أمر في غاية الأهميَّة، ولذلك ذكر القرآن لنا وهو يُعقِّب على غزوة أحد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧]، فقبل أن يسألوا الله النصر والتثبيت، سألوه أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، وهذا يعني أنَّهم اتَّهموا أنفسهم بالتقصير، قالوا: لا بدَّ أنَّنا قصرنا في رعاية سنَّة من سنن الله، أو قانون من قوانين الكون، لم نقم بحقِّ الله في كذا، أو لم يقم بعضنا بحق الله في كذا.. وهكذا.. ولذلك قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ قالوا هذا، إيذانًا بأنَّ ما أصابهم هو بسبب أخطائهم، وهضمًا لأنفسهم.

أمَّا الإنسان المستكبر الغافل فلا يقول: أنا عصيتُ، أنا قصَّرتُ، أنا فرطتُ. ولكن يتَّهم الآخرين دائمًا أنَّهم هم الَّذين بغوا عليه.

نحن المسلمين ينبغي أن نأخذ درسًا من أحد، أنَّ الإنسان إذا قصَّر في سُنَّة من سنن الله، لا بدَّ أن تصادمه السنن، فسنن الله لا تُحابي أحدًا، هل هناك أفضل من رسول الله ﷺ؟ هل هناك جماعة أفضل من صحابة

QaradawiBooks.com

رسول الله؟ ولكنَّهم لأنَّهم لم يرْعوا السُّنن، وعصى الرماة رسول الله ﷺ، وكشفوا ظهر الجيش للعدو، جاءهم ما جاءهم، ولهذا قال الله لهم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

انتصار المؤمنين في أوَّل المعركة يوم أحد:

وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يقول عبد الله بن مسعود: والله ما كنتُ أعرف أن فينا من يريد الدُّنْيا حتَّى نزلت هذه الآية[(١)].

فابن مسعود لصفاء نفسه، ظنَّ أنَّ الصحابة ليس فيهم أحد يريد الدُّنيا، والدنيا هنا: هي الغنائم، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، انظروا إلى نهاية الآية، فبعد هذا كله يقول الله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، الإنسان إذا أخطأ في الطريق لا ينبغي أن نجعل هذا سببًا في طرده من الرحمة، أو إبعاده عن الإسلام وأهله، فلكل جواد كبوة، ولكل مؤمن هفوة، ولكل سيف نَبْوة، والرسول يقول: «**كل ابن آدم خطَّاء**»[(٢)].

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطْ؟! وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ[(٣)]؟!

---

(١) رواه أحمد (٤٤١٤)، وقال مُخَرِّجوه: حسن لغيره. وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٩٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٠٧٢): فيه عطاء بن السائب؛ وقد اختلط.

(٢) سبق تخريجه صـ٤٦٨.

(٣) سبق تخريجه صـ٤٦٧.

QaradawiBooks.com

ولهذا قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾؛ لأن هذا خطأ طارئ، والأخطاء الطارئة لا يُخوَّن بها الإنسان.

وذكر العفو في آية أخرى تتحدث عن يوم أحد، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فالشيطان هو الَّذي غرَّهم وأوقعهم في هذا الخطأ، وكان ممَّن فرَّ يوم أحد سيِّدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، رغم عُلو منزلته، ولكنَّه أصابه الضعف، فكان من الَّذين فروا ذلك اليوم. وبعض النَّاس أرادوا أن يجعلوها سبَّة له ووصمة عار، فقال له: وأمَّا يوم الجمع فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فكنت فيمن عفا الله عنهم!

وهذا من أخطر الأشياء الَّتي يقع فيها النَّاس، أنَّه إذا أخطأ إنسان في شيء، تريد أن تُهيل على تاريخه كله التراب، أن تهدمه، ولا تبقي له أثرًا. ولذلك برَّأهم القرآن، ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

الفرق بين نقد الذات وجلد الذات:

ولذلك هناك فرق بين «نقد الذات» و«جلد الذات»، أن تمسك عصا لتضرب نفسك لا يجوز! حصل ما حصل، عفا الله عمَّا سلف، فقد وقع آدم عليه السلام في المعصية، يقول الله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، تاب إلى الله، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. فتاب الله عليه.

عتاب الله للمسلمين في بدر على قبول الفداء كان أشد من عتابه لهم في أحد:

ونحن نعلم أنَّ الإنسان يخطئ ويصيب، فيتعلم كل واحد من خطئه،

QaradawiBooks.com

ويتعلم من يومه لغده، يتعلم من حاضره لمستقبله، ويأخذ الدرس والعبرة، ولذلك نجد القرآن الكريم في غزوة بدر، كان عتابه للمسلمين في شأن الأسرى أشد من عتابه لهم في خطئهم في غزوة أحد، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عندما قبلوا الفداء ومنُّوا على الأسرى وأخذوا مالًا، فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۞ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]، فاشتدَّ عليهم في النكير.

أمَّا في غزوة أُحد فقال: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، لأن المسلمين لما أصابهم ما أصابهم في أُحد، كُسرت أنفسهم، فيكفي ما أصابهم، والناس يقولون في الأمثال: الضرب في الميِّت حرام. ولذلك اكتفى القرآن بالإشارة إلى خطئهم بقوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ولم يشدِّد عليهم أكثر من ذلك، وقال بعدها: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

مَيْز الخبيث من الطيب:

وقد بيَّن القرآن أن وراء ما حدث آثارًا طيبة منها أن يمتاز أهل الإيمان الحق من أهل النفاق، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فكان تمحيصًا وتصفية، وكان تقوية وتربية، وكان تمييزًا للمؤمنين عن غيرهم.

QaradawiBooks.com

الأيام دُوَل:

فبيَّن لهم هذا، وبيَّن لهم أنَّ الأيام دول، قال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

الأيام دول، والدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، ونحن نقول في الأمثال: دوام الحال من المُحال. فإذا كانت الدولة عليكم هذه المرة، فستكون في المرة القادمة لكم، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس التاسع
الأمر بالشورى

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

رفق النبي ﷺ ولينه:

كان النبي ﷺ أرفق النَّاس، وأبعدهم عن التشـــديد والتعسير والفظاظة والغلظة، كان الرجل يأتي من البادية، ويخاطبه باســـمه مجرَّدًا، وينـاديه من بُعد، ويُكلِّمه بجفوة، وأحيانًا يستوقفه في الطريق، فيسع هذا كلَّه حلمُه ﷺ، وحُسن خلقه، ويجيبه عمَّا سأل، وأكثر ممَّا سأل، وقد يهم أصحابه به، أو يثورون في وجهه، فيهدئ من ثورتهم، ويسكن من غضبهم.

عن أبي أيُّوب أنَّ أعرابيًّا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفره، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثمَّ قال: يا رسولَ الله، أو يا محمَّد، أخبرني بما يقربني من الجنَّـــة ويباعدني عن النـــار. فكف النبي ﷺ، ثـــمَّ نظر في أصحابه، ثمَّ قال: لقـــد هُدِيَ. ثمَّ قـــال له: كيف قلـــتَ؟ فأعادها. فقال النبيُّ ﷺ: «**تعبدُ اللهَ ولا تُشْـــركُ به شـــيئًا، وتقيم الصلاةَ، وتؤتي الزكاة، وتصل الرَّحِم. دعِ النَّاقة**»[(١)].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٣)، عن أبي أيوب.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذا ما نوهت به هذه الآية من أخلاقه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾، والعفـــوُ: عدم المؤاخذة على الإساءة مع القدرة على المؤاخذة عليها، وكان ﷺ المثال الأكمـــل في هذا الخلـــق العظيم، وقـــد وصفه الله تعالـــى فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

مجالات الشورى في الإسلام:

ثم يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: اطلب لهم من الله السَّـــتر للذنـــوب، والعفو عمَّـــا أتوه مـــن مخالفة في غـــزوة أحد، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: اطلب مشورتهم ورأيهم، فيما هو دون الوحي ممَّا يحتمل اختلاف الآراء والاجتهادات.

وهنا نريد أن نقول شـــيئًا: هل الشـــورى في كلِّ شيء؟ لا، الشورى ليست في كلِّ شيء، هناك أشـــياء لا مشـــاورة فيها، فهل نشاور النَّاس ـ مثلًا ـ في أمر الصلاة أو أمـــر الزكاة؟ هل نقول لأهل الحل والعقد في الأمة: ما رأيكم فـــي إلغاء الزكاة ونكتفي بالضرائـــب؟ ما رأيكم في أن نلغي الحج هذه الســـنة من أجل توفير العملة الصعبة؟ هل نشاور النَّاس في الفرائض؟ هل نشـــاورهم فـــي المحرمات؟ ما رأيكـــم في أن نفتح الخمارات من أجل أن نجتذب السُّـــيَّاح، ونُدخل العملة الصعبة للبلد؟ هل كذا؟ هل كذا؟

طبعًا لا، هذه أمور لا مشـــاورة فيهـــا، الفرائض والشـــعائر التعبدية لا مشـــاورة فيها، المحرمات القطعيَّة لا مشاورة فيها، الأحكام الأساسيَّة لا مشاورة فيها، المناطق الَّتي لا يدخلها الاجتهاد لا تدخلها المشاورة،

QaradawiBooks.com

أمَّا الأمور ذات الوجهين أو الأوجه، الَّتـــي تحتمل أكثر من رأي، وأكثر من فهم، هذه تدخلها المشـــاورة، وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ، وكذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون من بعده.

غير مرخصة للطباعة

مشاورة عمر الصحابة في طاعون عَمَواس:

لما جاء سـيِّدنا عمر إلى الشـام، ثمَّ عرف أن في الشام طاعونًا، توقف، ماذا يفعل؟ هل يغامر بالصحابة ويدخل، ويضيع الصحابة بهذا الطاعون؟ فشـاور الصحابة، شـاور المهاجرين أولًا، وشاور الأنصار ثانيًا، وشاور مشيخة قريش ثالثًا، لأنَّه أمر خطير، يرجع إلى المدينة، أم يدخل الشام ويقابل الطاعون، وكان عبد الرحمٰن بن عوف غائبًا فجاء، وذكر حديث رسـول الله ﷺ في الطاعون: «**الطاعون رجسٌ أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرضٍ، فلا تَقْدَموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ، وأنتم بها فلا تخرجوا، فرارًا منه**»[1].

وهو ما يسمَّى بـ «الحجر الصحي»، عزل المكان الموبوء؛ لأنَّ الإنسان قد يكون حاملًا للعـدوى وهو لا يدري، فيخـرج فينقل المرض إلى مكان آخـر، وأيضًا عندمـا يفر النَّاس مـن أرض الطاعـون ويتركوا المرضى يموتون فهذا لا يليق، فلا بدَّ من بقاء الَّذين في أرض الطاعون من أجل ذلك.

فعندما لا يكون هناك نص، تكون المشاورة، فإذا وجد النص التزم به الجميع.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٣)، ومسـلم فـي الآداب (٢٢١٨)، عن أسامة بن زيد.

نسخة مجانية

حرص الإسلام على الشورى حتَّى في حياة الفرد:

والإسلام قد حرص على الشورى، حتَّى في حياة الفرد، المفروض أنَّك لا تُقدِم على أمر إلَّا بعد أمرين: الاستخارة والاستشارة، ما خاب من استشار ولا ندم من استخار، عندما تريد أن تتزوَّج، أو تذهب للتجارة في شركة، تستشير الخلق، وتستخير الخالق.

في شؤون الأسرة، القرآن يقول في مسألة الفطام والرضاعة: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وفي أمر الحكم ذكر لنا القرآن قصَّة ملكة سبأ، الَّتي حكمت قومها بالعدل والشورى، ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، وبعد ذلك سادت قومها بالعدل وبالشورى، حتَّى انتهت بهم إلى خيري الدُّنْيا والآخرة، إلى الإسلام، وإلى النجاة من الحروب، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

يجب أن نستمسك بالشورى، ونأخذ خير ما وصلت إليه البشريَّة من ضمانات، ونقف في وجه الطغاة الجبارين الفراعنة، الَّذين لا يسوقون هذه الأمة إلَّا إلى الدمار والخراب المادي والمعنوي، والديني والدنيوي والعياذ بالله.

العزم والتوكل على الله:

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: عزمت على إمضاء أمر من الأمور بعد أخذ الشورى، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فليست الشورى أبد الآبدين، بل لا بدَّ من أخذ قرار بعد بذل الوسع في الشورى، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، يأمر الله تعالى رسوله والمؤمنين معه بالتوكل

QaradawiBooks.com

عليه وحـــده، والتَّوَكُل كما فهمه ســـلف هـــذه الأُمَّة أن يأخذ الإنســـان بالأسباب وَفْق سنن الله، ويدع النتائج لربِّ الأرباب، أن يتخذ الله وكيلًا له، يُسلِّم إليه زمام أموره، ويفوِّض إليه كلَّ شؤونه.

وهو عمل من أعمال القلوب، وخُلُق من أخلاق الإيمان، ومنزلة من أعظم منازل الدين.

الله تعالى أمر رســـوله والمؤمنين معه بالتوكُّل على الله، فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشـــعراء: ٢١٧]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

سنة الأنبياء في اتخاذ الأسباب:

التوكُّل على الله لا يعني ترك الأسباب الَّتي شرعها الله لعباده، فالعبد يبذر الحب، ويرجو الثمار من الرب. الجوارح تعمل، والقلوب تتوكل، القرآن الكريم مملوء بالأمر برعاية الأســـباب، ورعاية الســـنن الكونيَّة: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفـــال: ٦٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس العاشر
امتنان الله على المؤمنين ببعثة رسوله من أنفسهم

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

حال العرب قبل الإسلام:

مَنَّ الله على المؤمنين بالنبي ﷺ بأن بعث رسولًا منهم، من أنفسهم، من أشرفهم حَسَبًا، وأوسطهم نسبًا، علَّمهم به من الجهالة الجَهلاء، وهداهم من الضَّلالة العمياء، وأيُّ ضلال أبْين ممَّا كان فيه أهل الجاهليَّة، الَّتي أفسدت عقل الإنسان وقلبه، ففسد عقله إلى حدِّ أن يعبد حجارة ينحتها بيديه، وقد قص علينا القرآن قول سيدنا إبراهيم لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، يصنع الإنسان الصنم ثمَّ يسجد له، ويسأله أن يكشف عنه الضرَّ، ويفرِّج عنه الكَرْب، وينصره على عدوِّه. وهو منحوت بيديه! هكذا كانوا يصنعون.

بل روى البخاري عن أبي رجاء العُطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخير منه، ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثمَّ جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثمَّ طُفنا به[1].

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٣٧٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يعني: وضعوا على التراب شيئًا من الحليب، حتَّى يصبح كالطين أو الصلصال، ثمَّ يصورونه على هيئة صنـــم، فيصبح إلٰهًا! فأيُّ ضلال أبين من هذا الضلال؟!

بل كان بعض العرب يعبدون أصنامًا يُصورونها من العجوة، فإذا وقع عليها الذُباب، لم تســتطع أن تَــرُدَّ الذباب عن نفســها، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. بل كان أحدهم يَصْطَحب إلٰهه هذا في سفره، يَتبرَّك به، ليدفع عنه الســوء، ويدفع عنه الأذى، ولكنَّه إذا فني زادُه، ونَفِد طعامه وشرابه، فماذا يصنع؟ إنَّه لا يجد أمامه إلَّا هذا الإلٰه، فيستدير إليه، فيُفطر بثلثه، ويتغدَّى بثلثه، ويتعشَّى بالباقي! أيُّ ضلال أبين من هذا الضلال؟!

وأفسدت الجاهليَّة قلب الإنســان، فكان الرجل يئد ابنته وفِلْذة كبده، خشية العار، ويقتل ولده من الإملاق أو خشية الإملاق، من فقر واقع، أو خشية فقر متوقع، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

هكذا كان العالم في فساد وضلال قبل بعثته ﷺ، ولهذا كان الامتنان بالبعثة، ولم يكن الامتنان بالميلاد، فالبعثة هي النعمة العظيمة، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، نعمــة ينبغــي أن تُذكر فتُشكر، كما في الآية الأخرى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

QaradawiBooks.com

مكانة النبي ﷺ ومكانة رسالته:

من هنا كان اعتزاز المسلم برسالة الإسلام الَّتي بعث الله بها نبيَّه محمدًا ﷺ، إنَّه الرسول الخاتم الَّذي بعثه الله مصدِّقًا لما بين يديه، ومُصحِّحًا لما حُرِّف وبُدِّل من الرسالات، ومتمِّمًا لما جاء بها، ممَّا كان مناسبًا للزمان والمكان وحال الإنسان، فكان عنوان رسالته التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، ورفع الحرج والعنت عن المكلَّفين، وكان وصف رسالته في كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، أنَّه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتحدَّث النبي ﷺ عن نفسه، فقال: «**إن الله لم يبعثني معنتًا، ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسِّرًا**»[(١)]. وأشاد ﷺ بفضل المعلِّمين فقال: «**إنَّ الله وملائكته وأهل السماوات والأَرَضين حتَّى النملة في جُحْرها وحتَّى الحوت ليصلُّون على معلِّم النَّاس الخير**»[(٢)].

مهامُّ النبيِّ ﷺ:

والتعليم أهمُّ المهامِّ الَّتي بعث الله بها محمدًا ﷺ، فقد ورد ذكر هذه المهام في أربعة مواضع من سور القرآن الكريم، موضعان في سورة البقرة: الأوَّل جاء على لسان سيِّدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

---

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، وأحمد (١٤٥١٦)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥)، وقال: حسن صحيح غريب. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣)، عن أبي أمامة الباهلي.

QaradawiBooks.com

والثاني قول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

والموضع الثالث في سورة آل عمران، في هذه الآية الَّتي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

والموضع الرابع جاء في أوَّل سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

رسول من أنفسكم:

امتنَّ الله على المؤمنين في هذه الآية بأنَّه بعث فيهم ﴿رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، رسولًا منهم، يعرفون نسبه، ويعرفون خُلُقه، ليس غريبًا عنهم، ثمَّ حدد مهام هذا النبي ﷺ الثلاث: تلاوة آيات الله، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون.

المهمَّة الأولى: تلاوة آيات الله:

المهمَّة الأولى للنبيِّ في هذه الآية: أن يتلو على النَّاس آيات الله، وتلاوة آيات الله شعبة من الشعب الأساسيَّة من مهمَّة الرسالة المحمَّديَّة، سواء كانت هذه الآيات تتضمَّن أحكامًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أو كانت

QaradawiBooks.com

تتضمَّن قصصًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧].

المهمَّة الثانية: التزكية:

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: يربيهم ويطهرهم وينميهم. والتزكية شيء أعمق من التعليم؛ التعليم يتصل بالعقل، والتزكية تتصل بالنفس، والتزكية مشتقَّة من «زكا ـ يزكو»، بمعنى طهر ونما. فالتزكية: تطهير وتنمية معًا. أو تخلية وتحلية: تخلية من الرذائل والموبقات والخبائث، وتحلية بالفضائل ومكارم الأخلاق الَّتي بُعث الرسول ليتممها.

فالتزكية تتضمَّن معنيَيْن: معنى التطهير من أرجاس الجاهليَّة ومعايبها وحقائقها. والمعنى الثاني: أن ينمِّي شخصيتهم بالتوحيد بدل الشرك، والعلم بدل الجهل، والعز بدل الذُّل، إلخ.

فالرسول يُطهِّر الأمَّة من الشِّرك والنفاق والرذائل، ثمَّ بعد إزالة هذه النقائص والمعوقات، يبنيها بالإيمان الصادق، والتوحيد الخالص، والإخلاص لله وحده، والفضائل المحمودة، وبهذا يتزكَّى المسلم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

المهمَّة الثالثة: تعليم الكتاب والحكمة:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ولا ريب أنَّ التعليم ليس هو التحفيظ، بدليل أنَّه معطوف على تلاوة الآيات عليهم: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، فالتعليم أخصّ من التلاوة، وهذا التعليم هو الَّذي عبرت

QaradawiBooks.com

عنه بعض الأحاديث بـ «التدارس»، ففي صحيح مسلم عن أبي هُرَيْرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلَّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[1].

ومعنى تدارس القرآن: محاولة التعرُّف على ألفاظه ومبانيه، وعلى مفاهيمه ومعانيه، وما يرشد إليه من العبر، وما يدل عليه من الأحكام والآداب.

فالتعليم شعبة أخرى من الشعب الأساسيَّة من مهمَّة النبوة، وخير ما يُعلَّم للناس: أن يعرفوا ربهم، فيعرفوا بذلك مبدأهم ومصيرهم وسر وجودهم، أن يعرفوا أنفسهم على حقيقتها، فمن عرف ربه فقد عرف نفسه.

والحكمة حكمتان: علمية، وعمليَّة.

فالعلميَّة: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبَّباتها خَلْقًا وأمرًا، أو قدرًا وشرعًا.

والعمليَّة: وضع الشيء في موضعه. فمن مهامِّ الرسول: أن يُعرِّف كيف تتنوَّر العقول بنور الحكمة، وتنشرح الصدور للحق، وتهتدي إلى الخير، وتتفتح للجمال.

والمهمَّة الرابعة: أن يُعلِّم النَّاس ما لم يكونوا يعلمون:

والمهمَّة الأخيرة في هذه الآية أنَّه يُعلِّم النَّاس ما لم يكونوا يعلمون بما يجيء به الدِّين من فوق سبع سماوات: من عقائد وشرائع، وأخلاق

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧).

QaradawiBooks.com

وآداب وفضائل. يعلِّم النَّاس مكارم الأخلاق، ويفتح لهم أبواب الفضائل والخيرات في كل مجال علمـــي أو عملي، مادي أو معنوي، يحتاج إليه النَّاس في دنياهم أو آخرتهم.

وهذه هي المهامُّ الكبرى الَّتي بعث بها النبـــي ﷺ، والَّتي امتنَّ الله سبحانه بها على المؤمنين بهذا النبي الكريم ﷺ.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الحادي عشر
فضل الشهادة في سبيل الله

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۞ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۞ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٥].

سبب نزول الآيات:

هذه الآيات أيُّها الإخوة لها سبب نزول، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عبَّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأُحُد، جعل الله ﷻ أرواحهم في أجواف طير خُضْر تَرِدُ أنهار الجنَّة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظلِّ العرش، فلمَّا وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم، وحُسن مَقِيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا، لئلَّا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكُلوا عن الحرب.**

QaradawiBooks.com

فقال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم»، فأنزل الله ﷻ هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠][1].

الشهداء أحياءٌ عند ربهم:

هذه الآيات تتحدَّث عن حياة الشهداء في تلك الفترة الَّتي تُسمَّى بالحياة البرزخية، إنَّهم ليسوا أمواتًا، قال الله لرسوله ﷺ ولكلِّ مَن يصلح للخطاب: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾، وفي سورة البقرة: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، نهانا الله أن يجري لنا ذلك ظنًّا بأفئدتنا، وقولًا على ألسنتنا، لا نقول: أموات. ولا نحسبهم أمواتًا، هم أحياء، ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ حياة حقيقيَّة، ولكن ما كيفيَّة هذه الحياة؟ هذا ما لا علم لنا به، هذا من أمور الغيب الَّتي نوقن بها ونسلم بها، ولا نبحث عن كنهها، وهل عرفنا كلَّ شيء حتَّى نعرف كيفيَّة هذه الحياة؟

الإنسان يجهل الكثير:

إنَّ كثيرًا من حقائق الحياة لم نعرفها، بل إنَّ حياتنا الَّتي نعيشها لم نعرف كنهها وحقيقتها، وإنَّما نعرف فقط آثارها، فكيف نعرف حياة أولئك الشهداء؟ إنَّ هناك أناسًا من المتطاولين ينكرون مثل هذا النوع من الغيبيات، ويقولون: نحن في عصر العلم والنور والتكنولوجيا،

(١) رواه أحمد (٢٣٨٨)، وقال مخرِّجوه: حسن. وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٠)، والحاكم (٩٧/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٩٩)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

فكيف نؤمن بهذه الأشياء؟ هل عرف عصر التكنولوجيا وعصر غزو الفضاء كلَّ شيء في هذا الكون، إنَّ علماء الكون أنفسهم ما زالوا يقولون: إنَّنا نجهل الكثير الكثير من هذا الكون، وكلَّما اكتشفنا فيه أشياء، عرفنا أنَّنا قد غابت عنَّا أشياء، وجهلنا أشياء، وقالوا: إنَّ القدر الَّذي نعرفه من الكون المادي هو ثلاثة من مائة، أي إنَّنا لا نعرف ٩٧٪ ولا نرى ٩٧٪ من المادَّة الكثيفة في هذا الكون، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، ليس كلُّ ما في الكون نُبصره ونراه، هناك الَّذي لا نراه، وهذا الَّذي لا نراه يمثِّل ٩٧٪، ويُسمُّونه الأعماق السوداء في هذا الكون.

إنَّ حواسنا وإدراكنا وعقولنا محدودة بحدود زماننا ومكاننا وحواسِّنا ومعارفنا، فهل إذا لم يعلم الإنسان شيئًا كان هذا الشيء غير موجود؟ هل عدم العلم يقتضي العدم؟ لا، النَّاس لم يكونوا يعرفون أنَّ هناك جراثيم وفيروسات، ثمَّ اكتشفوها وعرفوها، واكتشف النَّاس كثيرًا من النجوم والكواكب وعرفوها ورصدوها بالمراصد، وهناك أشياء لم يروها ولكنَّهم عرفوها بالاستنتاج، عن طريق قواعد الفيزياء والرياضيَّات. المهم أنَّنا لسنا نعلم كلَّ شيء.

الإنسان الراشد هو الَّذي يؤمن بالمغيَّبات:

ثمَّ إنَّ الإنسان الراشد هو الَّذي يؤمن بالمغيَّبات، الطفل هو الَّذي لا يؤمن إلَّا بالمُحَسِّ، يؤمن بما يراه ويلمسه، إنَّما الإنسان الراشد هو الَّذي تتسع دائرة معارفه، فيؤمن بما وراء الحس، وبما وراء المادَّة، وما بعد الطبيعة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فرحة الشهداء بما هم فيه:

ثم وصف الله حال هؤلاء الشهداء الأحياء عند ربهم فقال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وكيف لا يفرحون بما هم فيه من حسن المأكل، وحسن المشرب، وحسن المقيل كما جاء في الحديث السابق؟

إنَّهم فرحون، ولا يُهِمُّهم إلَّا أن يعودوا إلى الدُّنيا، كما قال الله تعالى لعبد الله بن حَرام والد جابر بن عبد الله، فقد روى جابر رضي الله عنه قال: لقيني رسول الله ﷺ، فقال لي: «**يا جابرُ، ما لي أراك منكسرًا؟**» قلت: يا رسولَ الله استشهد أبي، وترك عيالًا ودَيْنًا. قال: «**أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟**» قال: بلى يا رسولَ الله. قال: «**ما كلَّم الله أحدًا قط إلَّا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا** ـ أي معاينة ومواجهة ـ **فقال: يا عبدي، تمنَّ عليَّ أعطك. قال: يا ربِّ، تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب** ﷻ: **إنَّه قد سبق منِّي أنَّهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب، فأبلغ من ورائي**». قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾[1].

استبشار الشهداء بإخوانهم:

هؤلاء الشهداء **فرحون** مسرورون بما هم فيه، من الثواب والكرامة والإحسان في دار النعيم، وهم كذلك مشغولون بمن وراءهم من المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ يستبشرون بهؤلاء الَّذين يسيرون في الركب، الَّذين يحملون علَم الجهاد من بعدهم، يستبشرون بالمؤمنين، إنَّهم انتقلوا إلى الدَّار الآخرة، ولكن قلوبهم مع هؤلاء، إنَّهم مهمومون بأمرهم، ولذلك يريدون أن يعودوا

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠١٠)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)، وفي الجهاد (٢٨٠٠)، والحاكم في معرفة الصحابة (٢٠٤/٣)، وصحَّح إسناده.

QaradawiBooks.com

إليهم ليقاتلوا معهم لو أمكنهم، فإذا لم يستطيعوا فهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم من المؤمنين ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدُّنيا، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هكذا هذه الأمة، سابقها يستبشر بلاحقها، ولاحقها يدعو لسابقها، كما حكى الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

استجابة الصحابة في أحد لله والرسول:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، القرح: الجراح، يعني جراحات الحرب، وما أصابهم في هذه الحرب والمعارك، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وهذه الآية في المؤمنين الَّذين دعاهم النبيُّ ﷺ بعد غزوة أحد وجراحاتها، دعاهم بأن يلحقوا بأبي سفيان وأصحابه من المشركين، فقد أمر النبيُّ ﷺ أصحابه أن يتهيؤوا لقتال المشركين، في موقعة تسمى حمراء الأسد، فقد بلغه أنَّ أبا سفيان ومن معه قد ندموا أنَّهم لم يدخلوا المدينة ويُجهزوا على المسلمين، وعزموا على أن يرجعوا.

فلمَّا بلغ رسول الله ذلك، أمر أصحابه أن يخرجوا، ولا يخرج منهم إلَّا من كان معه في أحد، مهما كان به من جراح، فخرج النَّاس بجراحاتهم، وبعضهم لا تزال دماؤه تنزف.

قالت عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير: يا ابنَ أُخْتي، كان أبواك منهم: الزبير، وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصابه يوم أحد، وانصرف

QaradawiBooks.com

عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال: «**مَن يذهب في إثرهم؟**». فانتدب منهم سبعون رجلًا، كان فيهم أبو بكر والزبير[١].

ثبات الصحابة:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ والناس هنا بعض المشركين، وهو نُعَيم بن مسعود الأشْجَعي، وقد أرسله أبو سفيان ليثبِّط المسلمين، وهم يستعدُّون للخروج للقاء المشركين في موسم بدر ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ خوَّفوهم بما صنع أبو سفيان، وبما جمع لهم من عدد، ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ خافوا لقاءهم ولا تأتوهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ زادهم ذلك القول تصديقًا بالله ويقينًا، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، إنَّهم وضعوا أيديهم في يد الله ﷻ، قالوا الكلمة الَّتي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»[٢]. الله حسبنا وكافينا، ونِعْم الحسيب والكافي هو الله تعالى، أي وكيل أعظم من الله؟! ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وكِّله في أمرك، توكل عليه واعتمد عليه، فلن يتخلَّى عنك ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

جزاء ثباتهم:

فكان جزاء هذا الثبات ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ رجَعوا من حمراء الأسد ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهي العافية والسلامة ﴿وَفَضْلٍ﴾ بما أصابوا من التجارة والأجر. لم يكلهم الله إلى أنفسهم، ولا إلى أحد من خلقه بعد أن وكَّلوه وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، إنَّها كلمة المؤمن

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٠٧٧).
(٢) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٣)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

عند الشدائد والمحن، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، رجعوا بالفضل والنعمة في الدُّنيا، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾: لم يُصبْهم أيُّ مكروه يسوؤهم، ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَانَ ٱللَّهِ﴾ أي اتبعوا ما يرضاه الله من ثباتهم على الحق واستجابتهم لله والرسول ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾، لا يُضيع من توكل عليه، ولا يُضيع من استند إليه، ولا يُخيِّب رجاء من رجاه، هؤلاء قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. لم تخفهم تلك القوى العاتية الَّتي تجمَّعت لهم ما داموا مع الله ﷻ، فإن الله تعالى معهم، والله ذو فضل عظيم.

تخويف الشيطان المؤمنين أولياءَه:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ أي: قول القائل لكم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ هو من فعل الشيطان، فـ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، أي: يخوفكم أولياءه الكفار، يُخوفكم الشيطان منهم ومن عَددهم وعُدَدهم، فإيَّاكم أن تخافوا، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، لا تخافوا هؤلاء، وإن كانوا أكثر عددًا فقولوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وإن كانوا أكثر عُددًا، وأمنع حصونًا، فاقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]، وإن كانوا أشدَّ مكرًا وكيدًا، فاقرؤوا قول الله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثاني عشر
حقائق أربع

«الموت والجزاء والنجاة وحقيقة الحياة»

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

حقائق أربع:

هذه الآية الكريمة تتضمَّن أربع حقائق:

شمول الموت:

أوَّل تلك الحقائق: شمول الموت، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، ذُكر هذا المعنى في القرآن عدة مرات، هنا في سورة آل عمران، وفي سورة الأنبياء: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وفي سورة العنكبوت: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

فالموت كأس وكل النَّاس شاربه، وحوضٌ وكل النَّاس وارده، وبابٌ وكل النَّاس داخله، هذه حقيقة، لا ينجو من الموت أحد، حتَّى أنبياء الله

QaradawiBooks.com

ورسله ذاقوا الموت، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ما ترك الموت أحدًا، ما ترك نبيًّا ولا وليًّا، ولا فقيرًا ولا غنيًّا، ولا ملكًا ولا مملوكًا، ولا سيدًا ولا عبدًا، ولا كبيرًا ولا صغيرًا، ولا رجلًا ولا امرأة، اخترق الموت الجميع، شرب الجميع من هذا الكأس، وَرَدُوا هذا الحوض، فالموت مكتوبٌ على الأنبياء جميعًا، وعلى رسول الله ﷺ، أكرم الخلق على الله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، لا ينجو من الموت أحد، لا من أهل الدين، ولا من أهل الدُّنيا، الملوك والأكاسرة، والقياصرة والأباطرة، والَّذين يملكون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث، الَّذين يملكون الملايين، والَّذين يملكون البلايين، هل نجا منهم من الموت أحد؟ الكل هلك، ملك الموت لا يقبل رشوة، ولا يأخذ عمولة، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

فالموت آتٍ آتٍ، لا ريب فيه، ولذلك جرى على الصالحين كما جرى على الطالحين، على المؤمنين والكفار، وعلى المتَّقين والفجَّار، على أهل الدين وعلى أهل الدُّنْيا معًا.

لمَّا نزل الموت بهارون الرشيد صاحب المُلك العظيم، كان يتقلب على فراش الموت ويتمثل قول الله على لسان من أوتي كتابه بشماله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩][1].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٩٦) تحقيق محمد خير رمضان يوسف، نشر دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

ولمّا نزل الموت ببعض الملوك جعل يقول وهو على فراش الموت: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه[1].

هذا هو الموت، لا يستطيع أحد أن ينجو من الموت، أو يُبعِده أو يؤخِّره، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

ولذلك العاقل والكيس والحكيم هو من يعمل للموت قبل وقوعه، حتَّى لا يأتي عليه يوم يقول فيه: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

الدنيا ليست دار جزاء:

الحقيقة الثانية أنَّ الدُّنْيا ليست دار جزاء، وإنَّما دار عمل، وأن دار الجزاء الآخرة: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، هذه هي الحقيقة الثانية، الأجور توفَّى بالكمال والتمام في يوم القيامة لا في الدُّنيا، فالدنيا أهون وأقصر، وأضيق من أن يوفّى النَّاس فيها جزاءهم، سواء كان جزاء بالعقاب أم جزاء بالثواب.

الناس الَّذين ظلموا العباد، وطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وأسالوا الدماء، وأزهقوا الأرواح، وهتكوا الأعراض، وانتهكوا الحرمات، وعذَّبوا عباد الله بالآلاف أحيانًا وبالملايين، هل تكفي الدُّنْيا لتعذيبهم؟! عدة الأيام لا تتسع للعذاب، الآخرة هي الَّتي تتسع لهم.

والإنسان الَّذي فعل الخيرات، وأقام الصالحات، وقدَّم للنَّاس كل ما يستطيع من نفسه وماله، ووقته وجهده وعرقه، ولم يدَّخر شيئًا، ولكن النَّاس تنكَّروا له واضطهدوه، وقابلوا الإحسان بالإساءة، والمعروف

(١) المحتضرين لابن أبي الدنيا صـ١٠٠، رقم (١١٧).

QaradawiBooks.com

بالنكران، هذا مَن الَّذي يجزيه؟ الله هو الَّـذي يجزيه الجزاء الأوفى في الآخرة، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، هنالك دار تُوَفَّى فيها كل نفس ما كسبت، وتُخلَّد فيما عملت، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] فإذا لم تأخذ أجرك في الدُّنيا، فلا تظن أنَّك ظُلمت؟ هناك الجزاء العادل في يوم لا تُظلَم فيه نفس شيئًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

الفوز الحقيقي هو النجاة من النار:

الحقيقة الثالثة: أنَّ الفوز الحقيقي والفلاح الحقيقي هو النجاة من النار، والقرآن يُصحِّح فكرة النَّاس عن الفوز والفلاح والخسران، فينقلها من دائرتها الضيقة في عقول جماهير النَّاس، الدائرة الماديَّة الدنيويَّة العاجلة، إلى دائرة أرحب وأخلد وأبقى، فيقول: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، هذا مفهوم قرآني يبيِّن لنا حقيقة الفوز، وهذه هي الحقيقة الثالثة.

ما الفوز؟ ما النجاح؟ ما الظفر؟ النَّاس يقولون: هذا إنسان ناجح. ناجح في أي شيء؟ هو يقدر أن يصل إلى ما يريد بطرق مختلفة، ويعمل كذا، ويدخل كذا. ليس فوزًا أن تكسب الملايين، ليس فوزًا أن ترقى أعلى المناصب، ليس فوزًا أن يكون لك البنون المتفوقون، ليس فوزًا أن يكون لك الخدم والحشم، ليس فوزًا أن تربح في تجارتك الدنيويّة، إنَّما الفوز الحقيقي أن تربح في الآخرة، أن تُزحزح عن النَّار وتدخل الجنة.

الفوز الحقيقي أن تكون من أهل الجنّة، ادَّخر ما استطعت أن تدَّخر، واجعل رصيدك في البنك بالملايين أو بالبلايين، إذا كانت عاقبتك جهنم فبئس ما صنعتَ، لن تغني أموالك عنك شيئًا.

QaradawiBooks.com

سيأتي يوم يتمنى الإنسان لو أعطى ما في الأرض جميعًا وفدى نفسه، وهيهات هيهات، ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

الفوز الحقيقي أن تُزَحْزح عن النَّار وتدخل الجنَّة، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ وانظروا إلى كلمة «زُحزِح»، كأن النَّاس يتهافتون على النَّار تهافت الفراش، والحكيم العاقل من زُحزِح عن النَّار وأُدخل الجنة.

وإنَّما تُزحزح عن النَّار وتدخل الجنَّة بصدق الإيمان وصلاح العمل، فبصدق الإيمان وصلاح العمل تستطيع أن تخرج من الدُّنْيا وأنت مطمئن بأنَّك زرعت في هذه المزرعة زرعًا فأثمر، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، الدُّنْيا مزرعة الآخرة، وأنتَ تزرع هنا لتحصد هناك، وتُعِدُّ هنا لتُحَصِّل هناك، أنتَ خُلقت للخلود، وإنَّما ينقلك الموت من دار إلى دار.

وقد جاء في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يؤْتى بأنعم أهل الدُّنْيا من أهل النَّار يوم القيامة، فيصبغ في النَّار صبغة، ثمَّ يقال: يا ابن آدم، هل رأيتَ خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب. ويؤْتى بأشد النَّاس بؤسًا في الدُّنْيا من أهل الجنَّة، فيصبغ صبغة في الجنَّة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيتَ بؤسا قط؟ هل مر بك شدَّة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدَّة قط**»[1].

(١) رواه مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٧)، وأحمد (١٣١١٢)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

ولذلك كان من زُحزح عن النَّار وأدخل الجنَّة هو الفائز حقًّا، فاحرص على أن تكون من الفائزين، أن تُزحزَح عن النَّار وأن تُدخَل الجنَّة، هذه هي الحقيقة الثالثة.

غير مرخصة للطباعة

الحياة الدُّنْيا متاع الغرور:

الحقيقة الرابعة أنَّ الحياة الدُّنْيا متاع الغرور، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، الحياة الدُّنْيا الَّتي يتهافت النَّاس عليها تهافت الذباب على الشراب، ويتعاركون عليها تعارك الكلاب على الجيفة، هذه الدُّنْيا هي متاع، متاع الغرور، متاع خادع، ليس متاعًا حقيقيًّا، لكنَّه متاع يغرك مظهره ويسوؤك مخبره، متاع قليل، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

كان بعض السلف يقولون: لو كانت الدُّنْيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى، لفضَّل العاقل خزفًا يبقى على ذهب يفنى، فكيف والدنيا أهون من خزف والآخرة أثمن من ذهب[1]؟!

ولكن النَّاس غرَّتهم الدُّنيا، غرتهم الحياة الدُّنيا، وغرهم بالله الغرور، من أجل الدُّنْيا يعادي الأخ أخاه، ويعادي الابن أباه، ويتقاتل النَّاس، والدنيا أهون من هذا كله، هي أهون على الله من جناح بعوضة، ولو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء.

(١) من قول الفضيل بن عياض، انظر: المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح الأبشيهي صـ ٥١٢، نشر عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدنيا بأرضها وسمائها، وشموسها وأقمارها، وهذا الفضاء العظيم، والكون الواسع، لا تزن عند الله جناح بعوضة، هذه الأرض ـ كما يقول علماء الفلك ـ شيء بسيط.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، فلا ينبغي للعاقل أن تلهيَه دنياه عن أخراه، أن يلهيَه النَّاس عن ربِّه، أن يلهيَه حاضره عن مستقبله، أن تلهيه القضايا الجزئيَّة والهامشيَّة عن قضيته المصيريَّة، القضيَّة المصيريَّة الأولى والكبرى هي قضيَّة الآخرة.

هذه هي الحقائق الأربعة الَّتي ضمنتها هذه الآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير

سورة النساء

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الأوَّل
عناية القرآن بالمرأة وحقوقها في سورة النساء

سورة النساء أطول سورة بعد البقرة:

سورة النســاء من الســور المدنيَّة، والســور المدنيَّة منسوبة إلى المدينة، والمقصود أنَّها نزلت بعد الهجــرة حتَّى وإن نزلت في مكَّة، فهناك عهدان لنزول القرآن: العهد المكي والعهد المدني.

السور المدنيَّة تعنى بتنظيم المجتمع الَّذي أساسه الأسرة، وعماد الأســرة المرأة، كما في هذه السورة الكريمة، والســور المكيَّة تُعنى بأصول العقيدة، وترسيخ أصول الفضيلة، والوعد والوعيد، والحديث عن قصص الماضين، إلى آخره.

وسورة النساء هذه الســورة المدنيَّة تعتبر من أطول سور القرآن، أو هي الســورة الثانية في الطول بعد ســورة البقرة، فهي حَسَــب التقسيم المعروف عند المسلمين اثنا عشر ربعًا.

عناية القرآن بأمر النساء:

القرآن عُني بأمر النساء وأمر المرأة قبل أن تُعنى بها الأمم المتحدة، وتُقيم لها مؤتمرًا في بكين، وتُنشئ من أجل ذلك وثيقة هاج العالم من أجلها، وعُقدت من أجلهــا المؤتمرات، وأُقيمت النــدوات والحلقات، شــاركتُ في بعضها، وهي وثيقة غريبة، بل شاذة، لم يُذكر فيها اسم الله

QaradawiBooks.com

قط، ولم يُذكر فيها أي معنى من معاني الإيمـــان، ولا أي قيمة من قيم الأخلاق، ولم تنظر إلى المرأة باعتبارها زوجًا، ولا باعتبارها أمًّا، ولذلك اهتمت بأشياء يهتم بها المجتمع المنحل عادة، ومن أجل ذلك ثار عليها المسلمون والنَّصارى، وشيخ الأزهر وبابا الكنيسة.

الإسلام جاء بوثيقة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا قررت حقوق المرأة، وكرمتها إنســانًا، وكرمتها أنثــى، وكرمتها أمًّا، وكرمتهــا بنتًا، وكرمتها زوجة، وكرمتها عضوًا في المجتمع، فنحن المسلمين لسنا في حاجة إلى وثيقة تُعلمنا كيــف نحترم المرأة وكيف نرعــى حقوقها، وإن كان هناك للأســف مســلمون ظلموا المرأة رغم الحقوق الَّتي قرَّرهــا لها القرآن وقررتها لها السُّنَّة، الإســلام عُني بأمر المرأة وأمر النساء، وهذه السورة إحدى هذه السور.

سور عُنيت بأمر النساء:

ولكن هناك سور كثيرة عنيت بأمر النســاء، حتَّى العنوان نفسه يدل على هذا، سيِّدنا عبد الله بن مســعود يقول: هناك سورة النساء الصغرى، يُقصد بها سورة الطلاق[1]، وبعضهم يُسمّي ســورة النساء: سورة النساء الكبرى، أو سورة النساء بإطلاق، وهناك سور أخرى مجرد الاسم يوحي بالحديث عن النســاء مثل ســورة المجادِلة، وهي المــرأة الَّتي جادلت النبــي ﷺ، ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، وتُسمَّى ســورة المجادَلة أيضًا[2]، وسورة الممتحَنة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وتســمَّى

(١) رواه الطبراني (٣٣١/٩) عن ابن مسعود.

(٢) انظر: في ضبط الدال (المجادلة) تفسير التحرير والتنوير (٥/٢٨).

QaradawiBooks.com

سورة الممتحَنة والممتحِنة[1]، وهناك سورة التحريم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١].

وهناك سورة آل عمران، وآل عمران يعني أسرة عمران، وهي مريم ابنة عمران، وامرأة عمران، ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ [آل عمران: ٣٥]، فهي سورة تتحدث عن أسرة عمران، وهناك سورة مريم تتحدَّث عن السيِّدة مريم، وهناك سورة البقرة وفيها ربعان كاملان تتحدثان عن قضايا المرأة والأسرة، ربع: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وربع: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وهناك سورة المائدة فيها أحكام تتعلق بالنساء، وهناك سورة النور، وسورة الأحزاب، وفيها كثير من الأحكام الَّتي تتعلق بالنساء، وهناك سورة النمل، وفيها قصَّة ملكة سبأ المعروفة باسم: «بلقيس»، الَّتي قادت قومَها بحكمة وحسن سياسة وتبصُّر، قادتْهم إلى ما فيه خير دنياهم وأخراهم، هناك سور كثيرة تحدثت عن أحكام النساء، عمَّا يتعلق بالنساء.

الجاهليَّة العربيَّة ظلمت المرأة:

هذه السورة اهتمَّت في أرباعها الثلاثة الأولى بقضيَّة المرأة، وإنصاف المرأة بعد أن ظلمتها الجاهليَّة العربيَّة والجاهليَّات المختلفة، كل الجاهليَّات قبل الإسلام ـ للأسف ـ ظلمت المرأة وقست عليها، حتَّى بعض المجامع الكنسيَّة عقد مؤتمرًا في «روما»، قبل الإسلام كان يبحث: هل المرأة مخلوقة كالرجل؟ هل لها روح كما للرجل؟ هل تُكلَّف كما يُكلَّف الرجل؟ هل

(١) والمشهور في هذه التسمية فتح الحاء وقد تكسر وبه جزم السهيلي فعلى الأول هي صفة المرأة التي نزلت السورة بسببها، ومن كسر جعلها صفة للسورة كما قيل لبراءة الفاضحة. انظر فتح الباري (٦٣٣/٨).

QaradawiBooks.com

تُجازى كما يُجازى الرجل؟ هل تدخل الجنَّة كما يدخل الرجل؟ وبعضهم قال: المرأة شيطان. وبعضهم اعترف بإنسانيَّتها، ولكنَّه اعتبرها مخلوقًا خُلِق لخدمة الرجل، فهي دون الرجل، تُعامَل كإنسانٍ ناقص الإنسانيَّة.

وبعضهم حمَّلها مسؤوليَّة إخراج آدم وذريَّته من الجنَّة، وأنَّها سبب شقاء البشريَّة، وسبب ما تعانيه من ويلات ومعاناة، إلى آخر ما قالوا.

فكان من فضائل الإسلام أنَّه كرّم المرأة، وأكد إنسانيَّتها، وأهليَّتها للتكليف والمسؤوليَّة والجزاء ودخول الجنَّة، واعتبرها إنسانًا كريمًا، له كل ما للرجل من حقوق إنسانيَّة، لأنَّهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أبٌ واحد هو آدم، وأمٌّ واحدة هي حواء، فالرجال والنساء متساوون في أصل النشأة، متساوون في الخصائص الإنسانيَّة العامَّة، متساوون في التكاليف والمسؤوليَّة، متساوون في الجزاء والمصير.

بدأت هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، والنفس الواحدة هي نفس آدم أبو البشر، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: وخلق من هذه النفس ـ نفس آدم ـ زوجها.

بعض النَّاس فهم خطأً أنَّ المرأة هي الأصل، وآدم هو الَّذي خُلق من المرأة، وقال: لأن القرآن قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ولم يقل: وخلق منها زوجتها! ونسي هذا الَّذي كتب هذا الكلام أنَّ اللغة العربيَّة وأنَّ القرآن الكريم يقول عن الرجل زوج، وعن المرأة زوج، كل واحد منهما زوج، ففي القرآن: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا

QaradawiBooks.com

فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٢٠]، ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالمرأة «زوج» كما أنَّ الرجل «زوج»، والمرأة «إنسان» كما أنَّ الرجل «إنسان»، لا نقول: إنسانة، وإنَّما نقول: إنسان.

ومعنى كلمة «زوج» اثنان، وحين يعتبر القرآن المرأة وإن كانت بمفردها زوجًا والرجل زوجًا، فكأنَّ الرجل هو واحد في الظاهر واثنين في الحقيقة، لأنَّه يُمثِّل نفسه، ويمثِّل امرأته، والمرأة نفس الشيء، تمثل نفسها، وتمثِّل زوجها، فكلاهما فرد في الظاهر، وزوجٌ في الحقيقة.

وليس من الضروري ـ كما يقول بعض النَّاس ـ أنَّ المرأة خُلقت من ضلع آدم كما في التوراة، لم يرد في هذا نصٌّ صحيح صريح في الإسلام يدل على أنَّ المرأة خلقت من ضلع آدم، هذا موجود في التوراة، جاء في التوراة أنَّ الله خلق حواء من آدم وهو نائم.

إنَّما المرأة في الإسلام خُلقت كما يُخلق الرجل، وكونها خُلقت من الرجل كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١]، هذا خطاب للرجال والنساء جميعًا، فالله تعالى خَلق للرجل زوجًا من نفسه ليسكن إليها، وخلق للمرأة من نفسها زوجًا لتسكن إليه، فهو يسكن إليها، وهي تسكن إليه، الأمر مشترك، ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، كما قال تعالى: ﴿ لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فهل كل امرأة خُلقت من ضلع زوجها؟! لم يقل هذا أحد.

فالمرأة لم تُخلق من ضِلَع آدم، وإنَّما هو كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

QaradawiBooks.com

وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، هذا خطاب للجميع، للرجال وللنساء جميعًا.

كما أنَّ في التوراة أيضًا أنَّ المرأة هي الَّتي أغرت آدم بالأكل من الشجرة، ويحمّلونها شقاء البشريَّة، والحقيقة أنَّ الَّذي أغرى آدم هو الشيطان، قال له: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١]، فليس الَّذي أغرى آدم حواء، وإنَّما الَّذي أغرى آدم وقاسمه، هو إبليس اللعين، ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢١، ٢٢].

تقول السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هي نفس آدم، ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء، ليسكن إليها وتسكن إليه، كما قال في آية الأعراف: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

الناس ـ كل النَّاس ـ رجالٌ ونساءٌ، خلقهم ربهم من نفس واحدة، هي نفس آدم عليه السلام، وخلق منها زوجها، تكملها وتكتمل بها ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾، أي: بَثَّ ونشر من هذه الأسرة الواحدة رجالًا كثيرًا، ونساءً كثيرات، كلهم عباد لرب واحد، وأولاد لأب واحد وأم واحدة، فالأخوّة تجمعهم.

لما خلق الله تبارك وتعالى سيِّدنا آدم وأسكنه الجنَّة لم يتركه فيها وحده، لأنَّه لا معنى للجنَّة إذا كان الإنسان يعيش فيها وحده بلا أنيس ولا جليس، وإنَّما خلق له من جنسه زوجًا وقال له: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

فخلق الله للرجل امرأة من نوعه ومن جنسه ليأنس بها ويسكن إليها

QaradawiBooks.com

حتَّى تستقيم الحياة، لأن الله أقام هذا الكون على سنة الزوجيَّة، كما قال ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فهذه السورة سورة النساء منذ أوَّل آية ذكرت قيمة المرأة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أمرت الآية بتقوى الله ربِّهم ورعاية الرحم الواشجة بينهم، وما أجدر كلمة «الأرحام» هنا أن تكون هي الأرحام الإنسانيَّة البشريَّة الآدميَّة عامَّة! فهناك أرحام قريبة: أخوك، ابن عمِّك، ابن خالك، ابن عمَّتك، ابن خالتك، والآية هنا تكلَّمت عن الأبِ الأوَّل والأمِّ الأولى، فكلمة «الأرحام» تشير هنا إلى أنَّ البشر كلَّهم أرحام بعضهم لبعض، كما قال القائل:

إِذَا كَانَ أَصْلِي مِنْ تُرَابٍ فَكُلُّهَا بِلَادِي وَكُلُّ الْعَالَمِينَ أَقَارِبِي[1]

الجاهليَّة عدَّت المرأة ميراثًا وحرمتها من الميراث:

كان العرب في الجاهليَّة يعتبرون المرأة شيئًا يُورَث ولا يرث، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩]، يموت الرجل فيرث ابنه دار أبيه، ويرث دوابّ أبيه، إبله وبقره وغنمه، ويرث امرأة أبيه، ويتصرَّف فيها كيف يشاء، إن شاء تزوَّجها إن كانت جميلة وأعجبته، وإن لم تكن كذلك عضلها حتَّى تفدي نفسها منه بمال تدفعه.

روى البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عبَّاس قال: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زوَّجوها، وإن شاؤوا لم يزوِّجوها، فهم أحقُّ بها من أهلها[2].

---

(١) هو أبو العرب مصعب بن محمد الصقلي من شعراء المغرب. انظر: الدر الفريد وبيت القصيد (٦٩/٣). والحماسة المغربية (٧٧٥/١).

(٢) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٤٨)، وأبو داود في النكاح (٢٠٨٩)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٠٢٨).

QaradawiBooks.com

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان أهلُ يثرب، إذا مات الرجل منهم في الجاهليَّة، ورث امرأته من يرث مالَه، فكان يَعْضُلها، حتَّى يتزوَّجها أو يُزَوِّجها من أراد[١]. وفي هذه الحالات وأمثالها نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [النساء: ١٩].

لم يكن للزوجة نصيب في تركة زوجها، مهما خلَّف وراءه من ثروة وأموال، ومهما تكن حاجتها إلى النفقة والكفاية، ولا عجب في ذلك ما دامت هي شيئًا يُورَث كالدابة والمتاع الَّذي يُورَّث ولا يرث. وكانت نظريَّة العرب أنَّ المرأة لا حق لها في الميراث، إذ لا يرث عندهم إلَّا من حمل السلاح، وذاد عن الحمى، وهم الرجال فقط، لا النساء ولا الصبيان.

ممَّا ذكره المفسرون هنا: قصَّة كُبَيْشة بنت مَعْنِ بن عاصم، تُوُفِّيَ عنها أبو قيس بن الأسلت، فجنح عليها ابنه، فجاءت رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، لا أنا وَرِثْتُ زوجي، ولا أنا تُرِكْتُ فأتزوَّج! فأنزل الله الآية السابقة[٢].

قال ابن كثير: فالآية تعمُّ ما كان يفعله أهل الجاهليَّة، وكلُّ ما كان فيه نوع من ذلك[٣].

لم تكن العرب تُورِّث المرأة؛ لأنَّه لم يكن يرث عندهم إلَّا من يركب الخيل، ويحمل السيف ويحمي الحمى، وكذلك الأولاد الصغار لا يرثون،

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٥٠٣٣).
(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٠٦/٨)، عن عكرمة مولى ابن عباس.
(٣) تفسير ابن كثير (٢٤١/٢).

QaradawiBooks.com

وإن كانوا ذكورًا؛ لأنَّهم لا يحملون السلاح، ولا يستطيعون أن يدافعوا عن الحمى، فلا يرث إلَّا الذكر الكبير، لأنَّه الَّذي يقاتل، كما قال الشاعر:

كُتِبَ الْقَتْــلُ وَالْقِتَــالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَــرُّ الذُّيُولِ[1]

فجاء الإسلام فورَّث النســاء والرجال جميعًا، وقرر القرآن هذه القاعدة الَّتي جاءت في الآية الكريمة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

الحكمة من تفاوت الذكر والأنثى في الميراث:

القرآن هو الَّذي فصل معظم أحكام المواريث، ولم يُترك للسُّنَّة فيها إلَّا شيئًا ضئيلًا، فأحكام الميراث قطعيَّة، القرآن حدَّدها بالنصف والربع والثمن والثلثين والثلث والســدس، بهذه المقادير الحســابيَّة الرياضيَّة، فلا مجال لأحدٍ بعد ذلك، وقال الله في آخر السورة سورة النساء: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النســاء: ١٧٦]، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، الله أعلم بعباده وأرحم بخلقه.

والقرآن حين قرَّر أنَّ للذكر مثل حظِّ الأنثيين قرَّر ذلك بناء على أنَّ الأعباء والتكاليف الَّتي وضعها على الرجل أكثر من الأعباء والتكاليف الَّتي وضعها على المرأة، الرجل مكلف أن يدفع للمرأة إذا تزوجها مهرًا، وعليه أن يؤثّث بيت الزوجيَّة، وعليه أن ينفق على الأسرة، هذا هو النظام الإســلامي، الله تعالى يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

لو أنَّ رجلًا مات وترك ثلاثمائة ألــف ريال، وترك ابنًا وبنتًا، فالولد

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة. انظر: العقد الفريد (١٢٨/٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سيأخذ (٢٠٠ ألف)، والبنت ستأخذ (١٠٠ ألف)، فإذا تزوَّج الابن سيدفع في الزواج مثلًا (٥٠ ألفًا)، مصاريف المهر والتكاليف على أقل تقدير، فصار نصيب الابن الآن (١٥٠ ألفًا).

والَّذي يأتي للزواج من البنت سيدفع لها أيضًا (٥٠ ألفًا)، كما دفع أخوها لزوجته، فصار نصيب البنت الآن (١٥٠ ألفًا)، فتساوت بذلك مع أخيها، فليس إذن تفاوتًا ولا تفاضلًا، إنَّما هو في الحقيقة تحقيق للمساواة، ففي النهاية تتحقق المساواة.

فالإسلام حينما نظَّم شرائعه، جعل على الأبناء أعباء أكبر، فجعل لهم في المقابل نصيبا أكبر في الميراث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: ١١]، وكذلك في الميراث بالنسبة للزوجين قال: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَ﴾ [النساء: ١٢]، وذلك أنَّ الرجل إذ ماتت زوجته كان موتها مصيبة وقعت على رأسه، فقد هُدِم بيتُه، إنَّه سيضطر للزواج من امرأة مكانها، سيدفع مهرًا، ويتكلَّف تكاليف جديدة، بينما الزوجة إذا مات زوجها يأتيها زوج ثانٍ، فتأخذ منه مهرًا، ولا تتكلف شيئًا، من أجل هذا راعى الإسلام هذه الأعباء الماليَّة لدى كل من الذكر والأنثى، فجعل للزوجة نصف الرجل في الميراث.

ليس تفاوت الذكر والأنثى في الميراث مطلقًا:

ثُمَّ إنَّ قضيَّة تفاوت الذكر والأنثى في الميراث هذه ليست قضيَّة مطلقة ولا عامَّة، فليست كلُّ امرأة تأخذ نصف الرجل، بدليل في نفس الآية الَّتي يقول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١]، قال في نفس الآية: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾ أي: أبوي الميت

QaradawiBooks.com

﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١]، إذا مات الرجل وترك أبًا وأمًّا، فالأب يأخذ السدس، والأم تأخذ السدس.

وكذلك قال في آية الكلالة: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ والكلالة: من مات وليس له والد ولا ولد ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢]، ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: من أم ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ لكل من الأخ والأخت ﴿ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ أي: هم متساوون، الذكر مع الأنثى، وفي الميراث أكثر من بضع عشرة قضيَّة يتساوى فيها الذكر مع الأنثى.

فالإسلام شريعة الله، ليست شريعة وضعها الرجال حتَّى يحيفوا على النساء، إنَّما هي الشريعة الَّتي وضعها رب الرجال والنساء، الَّذي خلق الزوجين الذكر والأنثى، ولذلك لا يُتصوَّر منه أن يجور على المرأة لحساب الرجل، لأن كلًّا من الرجل والمرأة عباده، والله تعالى لم يشرع هذه الأحكام عبثًا، قد تتراءى لنا الحكمة وقد تخفى علينا، ولكن من دقَّق وتأمل عَلِم أنَّ العدل والحكمة فيما شرع الله ﷻ، لهذا كانت الشريعة الإسلاميَّة شريعة عادلة، قررت حق النساء في الميراث.

الصداق حقٌّ للمرأة على الرجل:

وذكرت السورة قضيَّة الصداق (المهر)، وبيّنت أنَّه حقٌّ للمرأة على الرجل، فقالت السورة: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، هذا الصداق أو المهر أوجبه الإسلام للمرأة على الرجل، إشعارًا منه بصدق رغبته فيها وإرادته لها، يدفع الرجل مهرًا أو صداقًا أو كما سمَّته السورة «صَدُقَة» للمرأة الَّتي يريد أن يتزوجها، ليس ثمنًا للمرأة، فالمرأة ليست سلعة يشتريها الرجل

QaradawiBooks.com

ليمتلكها، ولا أجرة لاستمتاعه بالبُضع (الفرج)، إنَّما هو تكريم للمرأة، فالمرأة إنسان يُزَفُّ إلى إنسان مثله، ولذلك فهو تعبير من الرجل للمرأة عن تكريمه لها، وأنَّه يبذل لها هذا المهر «نحلة» لها، أي: عطية وهدية ومنحة وهبة لها، وليس ثمنًا، ولا أجرة للبُضع، ولا مقابلًا للاستمتاع بالمرأة، كما يشيع بعض النَّاس، وإنَّما يعطيه الرجل للمرأة نحلة وهدية منه لها ليكسب ودها، ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

في بعض الدول العربيَّة والإسلاميَّة نجد أنَّ المرأة هي الَّتي تدفع المهر للرجل، فهل هذا من الإسلام؟ ليس هذا من الإسلام في شيء، المهر ليس على البنت، لم يقل أحد أنَّ المهر على المرأة، مثلًا في بعض البلاد العربيَّة يُكلَّف الأب أن يجهِّز ابنته، قد يعطي الرجل ألفًا وعلى الأب أن يجهز بخمسة آلاف، فهذا ظلم، وهذا في الحقيقة خروج عن الشرع، الشرع ما قال هذا، والناس إذا خرجوا عن الشرع وقعوا في المضايق والمآزق والمزالق، وفي بعض البلاد مثل باكستان والهند وبنجلاديش وهذه البلاد على البنت أن تدفع للرجل، والرجل لا يدفع لها شيئًا، بل المرأة هي الَّتي تدفع للرجل بعض مالها، مع أن فِطرة الله جعلت المرأة مطلوبة لا طالبة! وهذا أمر مأخوذ من عادات الهند القديمة، يعني من تقاليد الوثنيين، وللأسف انتقل إلى المسلمين.

فماذا يفعل من كان عنده مجموعة من البنات، سيَخربون بيته، ماذا يصنع في تزويج هذه البنات وهو عليه أن يدفع للرجل، والعجيب أنَّهم يفعلون هذا ثمَّ لا يورِّثون البنت، فغيَّروا شرع الله، لذلك لما سألوني قلتُ لهم: لا، أنا أقول لكم: ارجعوا في أموركم للشرع، المرأة ترث وتأخذ مهرًا، إنَّما الَّذي تقومون به هذا ليس من الإسلام في شيء، فليس هناك أفضل من التزام النَّاس بشريعة ربهم، ففيها الخير كل الخير، والنجاة من الشر كل الشرِّ.

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
تكريم القرآن للمرأة في سورة النساء

نحن نعلم أنَّ القرآن الكريم جاء بتكريم المرأة بعد أن أهانتها الجاهليَّة العربيَّة والجاهليات المختلفة كلها، أهانت المرأة وأخرجتها عن الدور الَّذي ناطه الله بها، فالمرأة في نظر الإسلام، وفي نظر القرآن، وفي نظر سنة رسول الله هي شقيقة الرجل، كما استمعنا في آيات سورة آل عمران: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، يعني الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، لا يستغني عنها ولا تستغني عنه، هو يكملها وهي تكمله، فهذه الآية تقرر مكانة المرأة في هذا الإسلام العظيم.

الإسلام كرَّم المرأة وأنصفها إنسانًا، وكرَّم المرأة وأنصفها أنثى، وكرَّم المرأة وأنصفها بنتًا، وكرَّم المرأة وأنصفها زوجة، وكرَّم المرأة وأنصفها أمًّا، وكرَّم المرأة وأنصفها عضوًا في المجتمع، حتَّى ينظر إليها الإسلام على أنَّها عضو كامل في المجتمع، له أهليَّته في تحمل المسؤوليَّة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

من أراد أن يعرف الدور الَّذي قام به الإسلام في إصلاح المرأة وإعلاء شأنها وردها إلى مكانتها فلينظر وليقرأ وليدرس ما كانت عليه

QaradawiBooks.com

الجاهليَّة، كما قال سيِّدنا عمر كلمة حكيمة يجب أن نعيها ونعمل بها: إنَّما ينقض الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهليَّة[1].

الإسلام يكون بخير إذا عرف النَّاس الحالة السيِّئة الَّتي كانت عليها الإنسانيَّة في الجاهليَّة وعرفوا ماذا قدَّم الإسلام لها، ولكن إذا نشأت أجيال تجهل ماذا كانت عليه الإنسانيَّة في الجاهليَّة، وجهلت ما قدَّمه الإسلام لها ولهذه المجتمعات الَّتي ضلت الطريق، الَّتي فسدت عقائدها، وفسدت عباداتها، وفسدت أخلاقها، وفسدت أنظمتها، وفسدت تقاليدها، فسد كل شيء فيها، بما جنت عليها الجاهليَّة، هنا يكون الخطر.

ولذلك يجب أن نعلم ما أشارت إليه هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

كانوا يرثون النساء، النساء لم تكن ترث ولكن تُورَث، المرأة في الجاهليَّة ما كان لها حق في الميراث، العرب لم تكن تُورِّث إلَّا من يركب الخيل ويحمل السلاح ويذود عن الحمى، إنَّما المرأة لا تفعل ذلك، والأولاد الصغار لا يفعلون ذلك، ولذلك لا يُورِّثون الصغار ولا يُورِّثون النساء، حتَّى جاء الإسلام فقرر أن لهؤلاء حقوقًا: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ [النساء: ٧]، فجعل لكل امرأة حقًّا في

(١) مدارج السالكين (٣٥١/١).

QaradawiBooks.com

الميراث، سواء كانت أمًّا لها حق، زوجة لها حق، ابنة لها حق، حتَّى العصبات والأرحام والأخوات لهنَّ حقوق بشروط معروفة فصلها القرآن، ولم تُتْرك للسنة، السُّنَّة لم يذكر فيها من الميراث إلَّا أشياء قليلة جدًّا، القرآن هو الَّذي فصَّل هذا في آيات ثلاث، وذلك لاهتمامه بأمر المرأة وأمر الأسرة، لأن الأسرة هي نواة المجتمع، والخلية الأولى الَّتي إذا صلحت صلحت المجتمعات.

الجاهليَّات المختلفة جنت على الأسرة، وجنت على المرأة، فكانوا يأكلون حقوق النساء، ما كانت المرأة ترث ولكنَّها كانت تُورَث، يرث الرجل دوابَّ أبيه إبله وبقره وغنمه، ويرث عقاره ويرث دوره، ويرث امرأته، أولياء الرجل ابنه وإخوانه وأخواته وأهله هم الَّذين يرثون امرأته أو نساءه إن كان له عدد من النساء، أحيانًا ولي الرجل ابنه أو أخوه ينظر إلى المرأة إن كانت جميلة مليحة الوجه يحجزها لنفسه يتزوَّجها قبل أن يأتي التحريم القرآن: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، طبعًا كانوا ينكحون زوجة الأب، وما كانوا ينكحون الأم، نكاح الأم هذا كان في الجاهليَّة الفارسيَّة، المجوس كانوا يجيزون زواج الأمهَّات، وبالطبع الخالات والعمَّات وبنات الأخ وبنات الأخت، زواج المحارم، العرب ما كانوا يفعلون ذلك، ولكن كانوا فقط يجيزون للابن أن يتزوج امرأة أبيه إن لم تكن أُمَّه، أو غير الابن الأخ مثلًا إذا لم يكن عند الرجل ابن وله أخ يتزوج أرملته إذا حلَت في عينه، إذا كانت دميمة يحجزها حتَّى يزوجها من غيره، أو تفتدي نفسها منه، تدفع له شيئًا وتخلِّص نفسها منه، فكانوا يتحكمون إلى هذا الحد في المرأة، كانت المرأة شيئًا من الأشياء، كانت متاعًا من الأمتعة، سلعة من السلع، يورث.

QaradawiBooks.com

ارتفع بها الإسلام وحرَّرها من تحكّم أولياء المتوفَّى فيها، جعل المرأة عليها عدَّة أربعة أشهر وعشرًا، إلَّا إن كانت حاملًا فعدتها أن تضع حملها، ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

حرَّرها من تسلّط الأولياء وجعلها ولية نفسها، بعد أن تنتهي عدتها تتزوج من تشاء لا حرج عليها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ ـ «جبْرا عنها وإكراها لها» ـ ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]، العضل: المنع والحبس، يتحكم فيها، ويمنعها من أن تتزوج، أو أن تخرج، كان بعض الرجال يتحكم في المرأة حتَّى يمنعها من الزواج، بعد أن يطلقها يشترط عليها أن تتزوج إلَّا بإذنه، يا أخي مالك ولها؟! لقد فارقتك وفارقتها، إنَّما هو يشترط عليها ألَّا تتزوج إلَّا من يرضى عنه، وإذا لم يرض عنه يمنعها من الزواج، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، وبعد العدة يقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ﴾ [البقرة: ٢٣١]، تحرم مضارَّة المرأة، الإسلام منع الضرر والضرار، لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، هذه من أعظم القواعد الشرعيَّة الَّتي اتفقت عليها كل المذاهب وكل المدارس الفقهية، «لا ضرر ولا ضرار»، وخصوصًا في الأسرة.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]، لتفدي نفسها وتدفع لك، علام تدفع لك؟! الإسلام لم يجز للمرأة أن تدفع شيئًا للرجل إلَّا لتفدي نفسها إذا كانت هي الَّتي كرهت الرجل، ولم تُطِقْه بغضًا، كما فعلت إحدى الصحابيات، أتت امرأة ثابت بن قيس النبي ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُق ولا دِين، ولكنِّي أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**أتردين عليه حديقته؟**» قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «**اقبلِ الحديقة وطلِّقْها تطليقة**»[1].

(١) رواه البخاري في الطلاق (٥٢٧٣)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وهذا هو الَّذي جاء في القرآن: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، هي تفدي نفسها لأنَّها هي الكارهة، هو لم يكرهها، فليس معقولًا أن يدفع مهرًا، وقد يدفع هدايا أو ما يسمونه قبل المهر «الشبْكة»، ويؤثث البيت، ويفعل كذا وبعد كل هذا تقول له: أنا لا أريدك. فتهدم البيت على رأسه، فما ذنبه هو؟! يريد أن يتزوج.

فالمرأة حينما تكون هي الكارهة ولا تريد الرجل تدفع له ما دفعه إليها، هذا هو العدل الَّذي جاء به الإسلام، لا أن تدفع إتاوة يفرضها الرجل! ادفعي لي لأفك أسرك! هذا هو الَّذي حرمه الإسلام واشتدَّ في تحريمه.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، البعض يقول بأن الفاحشة المبيِّنة هي الإساءة إلى الرجل أو إلى أهله، والبعض يقول: الفاحشة الزنا. المهم أن تكون فاحشة مبيّنة أي: ثابتة واضحة ظاهرة، ليست ظنًّا ولا مجرد تهمة، بل فاحشة بيِّنة بالفعل أو بالقول.

أساس قيام الأسرة في القرآن:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، من ينظر إلى القرآن وشؤون الأسرة في القرآن يجد أنَّ القرآن أقام الأسرة على مبدأين أساسيين: مبدأ رباني، ومبدأ إنساني، المبدأ الرباني هو ما سمَّاه القرآن: حدود الله، يجب أن تراعى في الأسرة حدود الله، وحدود الله تعني الأحكام الَّتي جاءت بها الشريعة، لا بدَّ أن تراعى أحكام الشريعة في الزواج والطلاق والعشرة والنفقة والميراث، كل هذا فيه حدود الله، كما قرأنا وسمعنا قبل ليالي قول الله في

QaradawiBooks.com

سورة البقرة: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وفي الآية الَّتي بعده يقول الله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

حدود الله أي: أحكام الله وشرائعه، هذا أمر لا بدَّ أن يراعي في شؤون الأسرة.

والأمر الثاني أو المبدأ الآخر الَّذي أقام القرآن عليه شؤون الأسرة وهو أمر إنساني وهو ما سمَّاه القرآن: المعروف، ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١]، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

والمعروف ما تعارفت عليه الفطر السليمة، والعقول الرشيدة، ما يعرفه أهل الفضل وأهل الخير، والعقلاء من النَّاس، من مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، فهؤلاء أعرافهم معتبرة، وليس أعراف السَّفِلة من النَّاس، أو الَّذين لا يعقلون، ويتَّبعون الهوى ولا يتَّبعون الحق، فهؤلاء أعرافهم لا قيمة لها، إنَّما الأعراف المعتبرة في الشريعة هي أعراف أهل الخير، وما تراضى عليه المسلمون فهو معتَبر شرعًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فجعل رؤية المؤمنين للأعمال: لها اعتبارها ووزنها، بعد رؤية الله ورسوله، والرؤية يترتب عليها القبول أو الرفض.

QaradawiBooks.com

وكما قال سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٣٥]، فجعل مقت المؤمنين للعمل معتبرًا، وفوقه مقت الله ﷻ.

وقد قال سيِّدنا عبد الله بن مسعود: «ما رآه المسلمون حسنًا، فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحًا فهو عند الله قبيح»[(١)].

ولهذا قال الناظم في الفقه[(٢)]:

الْعُرْفُ فِي الشَّرْعِ لَهُ اعْتِبَارُ لِذَا عَلَيْهِ الْحُكْمُ قَدْ يُدَارُ

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، المعاشرة بالمعروف مطلوبة من كلا الطرفين للآخر، وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة في كل علاقة بين المرء وزوجه.

فمن المعاشرة بالمعروف: النفقة على المرأة، والنفقة تختلف من بيئة لبيئة، البيئة البدوية غير البيئة الحضرية، البيئة القروية غير البيئة المدنيَّة، الفقراء من النَّاس لهم شيء محدَّد في المعيشة، والأوساط لهم أيضًا معيشة غير، والأغنياء لهم معيشة، الشرع راعى هذا، فمثلًا من النساء من يكون من معاشرتها بالمعروف أن تأتي لها بخادمة، لكن ليس كل امرأة تحتاج إلى خادمة، بالعكس قد ترى امرأة أخرى أنَّ الخادمة بلوى، فكل امرأة لها مستوى معيَّن، إذا لم تُحَقِّقه لها لم تكن معاشرًا لها بالمعروف.

---

(١) رواه أحمد (٣٦٠٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والطبراني في الكبير (١١٢/٩)، والأوسط (٣٦٠٢)، والحاكم في معرفة الصحابة (٧٨/٣، ٧٩)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢٨/١): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٢) رسالة نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف لابن عابدين، انظر: مجموعة رسائل ابن عابدين (١١٤/٢)، نشر عالم الكتب.

QaradawiBooks.com

ومن المعاشـــرة بالمعروف: أن تراعي عند المرأة الأشـــياء المعنويَّة النفسيَّة، من حسن الخُلُق معها، ولين الجانب، وطيب الكلام، وبشاشة الوجه، وتطييب خاطرها، بالممازحة والترفيه عنها، وأن تكلمها الكلام الطيب، وأن تحتمل أذاها، فالإنســـان بطبيعته خطَّـــاء، فلا بدَّ أن تحتمل وتُفوِّت مرَّة ومرة، ولا تمسك لها على الواحدة كما يقولون.

والمثل الأعلى في المعاشرة بالمعروف هو رسول الله ﷺ، يجب أن نتعلَّم من سيرته، ونتعرَّف على حياته مع أزواجه، وكيف كان يعاشرهنّ، وربُّنا جعل رســـوله أســـوة لكل النَّاس، من عنده زوجة واحدة يجد أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان معظم عمره عنده زوجة واحدة هي خديجة رضي الله عنها، كيف كان يعاملها وهي أكبر منـــه، وتعامل مع الفتاة الصغيـــرة البكر، وتعامل مع الثيّبات، وتعامل مع القرشيات، ومع غير القرشيات من العرب، وتعامل مع الإسرائيليَّات كصفيَّة بنت حُيَي بن أخطب، تعامل مع كل هذه الأنواع من النساء، فانظر كيف كان يعاملهن جميعًا، تعلَّم من رسول الله ﷺ.

يقول الرســـول ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحســـنهم خُلُقًا وألطفهم بأهله**»[(١)]. وجاء عنه ﷺ أنَّه قـــال: «**خيرُكم خيرُكم لأهلـــه، وأنا خيرُكم لأهلي**»[(٢)]. وفي حجة الوداع أكَّد النبي ﷺ الوصيَّة بالنساء، وقال: «**اتَّقوا الله في النساء**»[(٣)]. وقال: «**استوصوا بالنساء خيرًا**»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه صـ٦٩.

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥)، وقال: حســـن صحيـــح. والدارمي (٢٣٠٦)، وابن حبان (٤١٧٧)، كلاهمـــا في النكاح، وقـــال الأرناؤوط: إســـناده صحيح. وصحَّحـــه الألباني في الصحيحة (٢٨٥)، عن عائشة.

(٣) رواه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، كلاهما في الحج، عن جابر.

(٤) متَّفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٨٥، ٥١٨٦)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وقد أثبتت السيرة النبويَّة العمليَّة لطفه ﷺ بأهله، وحسن خُلُقه مع أزواجه، حتَّى إنَّه كان يساعدهنَّ في أعمال البيت أحيانًا، وبلغ من ملاطفته لهن أنَّه سابقَ عائشة مرتين، فسبقته مرَّة وسبقها أخرى، فقال لها: «**هذه بتلك**»[1]. أي أنَّهما «تعادلا» بلغة الرياضيِّين اليوم.

ومن لطفه ﷺ أنَّه أتاح لعائشة أن تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم في المسجد، حتَّى اكتفت وانصرفت، وفيه تقول عائشة: «فأقامني وراءه، خدي على خدِّه»[2].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، أمر الله الرجال ألَّا يستجيبوا للعواطف والانفعالات بسرعة، وهذا من اللطائف في الآية، أنَّها أمرت بحسن العشرة حتَّى في حالة النفور والكراهية، ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، إن كرهتم النساء فلا تستجيبوا لعاطفة الكره، ولا يستعجل الإنسان في طلاق امرأته لمجرد إحساسه بالكره، وإنَّما يجب على المسلم أن يضغط على عاطفته، لعلَّ هذه المرأة تكون سببًا في الخير له، ولعل الله يوسع عليه بسببها، ولعله يرزق بالذرية الصالحة منها، لعلَّ هذه المرأة الَّتي كرهتها يجعل الله فيها البركة، تقف معك في أوقات الشدة، إذا نزلت بك النوازل، وألمت بك الخطوب، تجدها امرأة قوية صابرة، تشدُّ أزرك وتقوِّي ظهرك.

---

(١) رواه أحمد (٢٦٢٧٧)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده جيد. وأبو داود في الجهاد (٢٥٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٩)، وابن حبان في السير (٤٦٩١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣١)، عن عائشة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٤٩، ٩٥٠)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

ربما رزقك الله منها بأبناء صالحيـــن وبنات صالحات، بأولاد نجباء متفوقين، ونجابة الأولاد نعمة. كما قال الشاعر[١]:

نِعَمُ الإِلَهِ علـــى العبادِ كثيرةٌ وأجلُّهـــنَّ نجابـــةُ الأولادِ

فلعلَّ هذه المرأة الَّتي كرهتها وقتًا ما حينما تأتي لك بهؤلاء الأولاد يتغير قلبك وتصفو الحياة بعد الكدر، فلا ينبغي للإنسان أن يركض وراء عاطفته، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

وفي الحديث الصحيح: «**لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنـــةً** (أي: لا يبغض) **إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر**»[٢]. أي إنَّ على الرجل أن يكون واقعيًّا في تعامله مع زوجته، فلا ينشـــد المثاليَّة المحلِّقة في أجواء الخيال، ولكن يعامل المرأة في ضوء الواقع البشـــري، وينظر إلـــى الجوانب الإيجابية فيها، كما ينظر إلى الجوانب السلبية.

قال الإمام الغزالي[٣]: واعلمْ أنَّه ليس حسن الخلق معها: كفُّ الأذى عنها (فقط) بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه يراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يومًا إلى الليل.

قد يسخط منها نوعًا من الأخلاق، العنف أو الشدة، أو كذا، أو كذا، ولكن يجد فيها ناحية أخرى طيبة، الحرص على البيت، أو حسن تدبير المال، أو رعاية الأولاد، أو البر بالأهل والأقارب، وهكذا يجد فيها شيئًا معوضًا لشيء.

---

(١) ذكره من غير نسبة محيي الدين ابن الخطيب قاســـم في روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار صـ ٤٣١، نشر دار القلم العربي، حلب، ط ١، ١٤٢٣هـ.

(٢) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٩)، وأحمد (٨٣٦٣)، عن أبي هريرة.

(٣) إحياء علوم الدين (٤٣/٢)

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

فعلى الزوج أن يرعى هذا الميثاق الغليظ، ويتقي الله في زوجته، حتَّى يرضى الله عنه، فقد جاء في الحديث الصحيح: «**وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**»[(١)].

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال له: يا أمير المؤمنين، إنَّكم لتحدثون إنِّي أظلم النساء وأخلعهن، فاسأل هذه لِمَ طلقتُها. فسأل عمر المرأة، قال: أنتِ الَّتي تحدثين لزوجك أنَّك تبغضينه؟ قالت: إنَّه ناشدني فتحرجتُ أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم فاكذبي، فإن كانت إحداكن لا تحب إحدانا فلا تحدثه بذلك، فإنَّ أقلَّ البيوت الَّذي يُبنى على الحب، ولكن النَّاس يتعاشرون بالإسلام والأحساب[(٢)].

يتعاشر النَّاس بالدين والأخلاق، ليس من الضروري أن يكون كل زوج وزوجته قيسًا وليلى، أو عنترة وعبلة، أو جميلًا وبثينة، أو كُثَيِّرًا وعزة، عشاق العرب المعروفين، ليس من الضروري، ليس كل واحد مع زوجته عاشقا ومعشوقا، الحب ليس شرطًا في دوام الحياة الزوجيَّة، القرآن سماها مودة، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، المودة الحب الهادئ الَّذي يأتي بعد الزواج، يأتي نتيجة العشرة الطيبة، الحياة المشتركة، والهموم المشتركة.

هذا ما نصح به سيِّدنا عمر المرأة، والمرأة العاقلة إذا سألها زوجها: أتحبينني؟ تقول: هل هناك امرأة لا تحب زوجها؟! ولماذا لا أحبك وأنتَ زوجي ورفيق دربي، وأنتَ أبو أولادي، وأنتَ كذا، وأنتَ كذا

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤٠٩)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق صـ ٨٩، رقم (١٧٨)، تحقيق مصطفى بن أبو النصر الشلبي، نشر مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ط ١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

وكذا، وإذا لم أحبك أنتَ فمن أحب؟! وهكـذا تفر المرأة من الجواب الصريح المباشر، وتجيب إجابة غير صريحة، وترد على السؤال بسؤال مثله، حتَّى تستمر العشرة.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يعاشر امرأته بالمعروف، وألَّا يستجيب لعاطفة الكـره، ولا يسـير وراءهـا، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩]، وهذا ما يريده الإسـلام للحيـاة الزوجيَّة حتَّى تقوم الأسـرة الصالحة الَّتي هـي نواة المجتمـع الصالح، الَّذي هو نـواة الأمَّة الصالحة، الَّتي هي نواة الإنسانيَّة الصالحة، فصلاح الفرد يترتب عليه صلاح الأسـرة، وصلاح الأسـرة يترتب عليه صلاح المجتمع، وصلاح المجتمع يترتب عليه صلاح الأمَّة، وصلاح الأمَّة يترتب عليه صلاح الإنسانيَّة كلها.

هكذا يريد الإسـلام أن نعمل على تكوين البيوت الفاضلة، والأسر الصالحة كمـا قال الله تبارك وتعالى في وصـف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقـان: ٧٤]، قرة عين: سعادة، السعادة في الأسرة الصالحة، يقول النبي ﷺ: «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشـقاوة: الجار السـوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء**»(١).

وهكذا يريد الإسلام للنَّاس أن يكونوا سـعداء في بيوتهم، وسعداء فـي أنفسـهم، ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

(١) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٥٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٢)، عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
حقوق المرأة الماليَّة ومعنى القوامة وعلاج النشوز

ما زلنا مع هذه السورة الكريمة سورة النساء، جاءت هذه السورة العظيمة تمنع من ظلم النساء، وتُنصف المرأة من ظلم الجاهليَّات المختلفة، وتعطي المرأة حقوقها دون أن تُطالِب بها، ومن ذلك الحقوق الماليَّة، وعلى رأسها حق التملك للأموال، عقارات ومنقولات، وجعل للمرأة ذمة ماليَّة مستقلة، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في هذه السورة العظيمة: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

جعل الإسلام للمرأة ذمة ماليَّة مستقلة عن والديها، وعن إخوتها، وعن زوجها، ولذلك المرأة من شأنها في الشريعة الإسلاميَّة أنَّها تُنشِئ العقود، تبيع وتشتري، وتوكِّل، وترهن، وتهب وتتصدق، وتتصرف كل التصرفات الماليَّة المستقلة، كما يفعل الإنسان السوي الرشيد، ولا حرج ولا حجر عليها، فعندها أهلية ماليَّة كاملة في ذلك.

ولها الحقُّ كلُّ الحقِّ أن تفتح حسابًا في البنك باسمها خاصًّا بها، تضع فيه ما يأتيها من دخل، سواء أكان من كسبها أم من ميراث لها، أم من هبة من أب أو أم أو غير ذلك، وليس للزوج أيّ حقّ في أن يفرض عليها أن تضع دخلها في حساب أو وعاء مشترك مع دخل زوجها، لينفق

QaradawiBooks.com

منه على الأسرة، إذ من المعلوم أنَّ الإنفاق على الأسرة شرعًا هو من واجب الزوج، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء: ٣٤].

وإنَّما تساعد المرأة زوجها في نفقة البيت، تبرعًا منها ومن باب مكارم الأخلاق، وليس من باب الوجوب والإلزام، ولو كانت غنيَّة بميراث أو كسب، ولم يوجب أحد من أئمَّة الإسلام على الزوجة الغنيَّة أن تنفق على زوجها الفقير، إلَّا الإمام «ابن حزم» الظاهري المعروف[1].

ولكنَّنا نستحسن أن تساهم المرأة العاملة في نفقة البيت، ولا سيَّما إذا كانت وظيفتها أو عملها في الخارج يكلف البيت خادمة أو مربية للأطفال، أو مصاريف زائدة من أجل خروج المرأة ولبسها ومواصلاتها ونحو ذلك، وأقصى ما يمكن أن تساهم به المرأة في ذلك هو الثلث، والثلثان على الزوج، فكما أنَّ الرجل يرث ضعفها من التركة، فكذلك يجب أن يتحمَّل ضعفها من النفقة.

ونحن نؤيد أن يكون لكلٍّ من الزوجَيْن حسابه الخاص، حتَّى لا يطمع بعض الأزواج في أموال زوجاتهم، فمن حقِّ الزوجة أن تحتاط لغدرات الزمان، وتقلبات الأزواج، ولا يحق للزوج أن يغضب من ذلك، فالحق أحق أن يتبع.

بعض القوانين الغربيَّة لم تعط هذا للمرأة إلَّا من وقت قريب، الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا أو تزيد أعطى للمرأة هذا الحقَّ، فالمرأة تستطيع أن تتصرَّف في مالها، وليس من الضروري أن تبلغ والديها بهذا، خصوصًا أن بعض الآباء ربَّما طمع في مال بناتهم، أو كانوا مسرفين

(١) انظر: المحلى لابن حزم (٩/٢٥٤) مسألة (١٩٢٦)، نشر دار الفكر، بيروت.

QaradawiBooks.com

فأخذوا من مالها وأنفقوا في غير وجهه، لكن لو احتاج والدها أو والدتها لمالها وليس لهما مورد أو عائل فعليهـا أن تعطيهم، فقد قال النبيُّ ﷺ لبعض الأولاد: «**أنتَ ومالُك لأبيك**»(١).

قوامة الرجل على المرأة:

كما ذكرت هذه السـورة الكريمة حق القوامة على الأسرة وبينت أنَّه حق للرجال على النسـاء، الله تعالى يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء: ٣٤].

البعض يقول: لماذا كانت قوامة الأسـرة ورئاسة الأسرة للرجل دون المرأة؟ القـرآن ذكر أنَّ القوامة من حقِّ الرجل لسـببَيْن، سـبب فطري وهْبي، وهو ما أشـار إليه قول الله تعالـى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النسـاء: ٣٤]، وسـبب كسـبي، وهو ما أشـار إليه قول الله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء: ٣٤].

التعبير القرآني تعبير معجـز؛ لأنَّه لم يقل: بما فضَّلهم على النسـاء، ولكن قال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٣٤] يعني أنَّ الله تعالى فضَّل النسـاء في جانب، وفضَّل الرجال في جانب، المـرأة مفضَّلة على الرجال في الجانب العاطفي، فالله جهَّزها بهذا الجهاز العاطفي الدفَّاق من أجل الأمومة، عندها من الحنان والرحمة والشفقة والعاطفة ما لا يمكن أن يملكه الرجـل، ولولا هذا ما صبرت على متاعـب الأمومة، القرآن يقول: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقـاف: ١٥]، ويقول: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤].

---

(١) رواه أحمد (٦٩٠٢)، وقال مُخَرِّجوه: حسن لغيره. وأبو داود في البيوع (٣٥٣٠)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٥٦)، عن عبد الله بن عمرو.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الله تعالى أعطى المرأة هذه القدرة وهذه المشاعر؛ لتصبر على متاعب الأمومة، لتصبر على الحمل إذا حملت، وعلى الطلق إذا وضعت، ثمَّ بعد كل هذه المتاعب تريد أن تحمل وتلد ثانيًا وثالثًا، ويُسَمِّي النساء هذا التعب: «الهمَّ المنسيَّ» يعني: لا تذكر كل هذه المتاعب، بعدما تحمله على يديها ويضحك أو يبكي في وجهها، تنسى كل الَّذي فات، فالله فضّلها في هذا الجانب.

وفضّل الله الرجل في جانب التعقّل، فالرجل أكثر تبصُّرًا بالعواقب، وأكثر نظرًا في الأمور بعقلانيَّة أكثر من المرأة، وخصوصًا الأمور الَّتي ستكلفه كثيرًا، فهو الَّذي ينفق الكثير على تأسيس الأسرة، وينفق ويغرم، ولذلك قال: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، فالرجل هو الَّذي يدفع المهر، ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، وهو الَّذي يعمل وينفق على الأسرة، ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، فالأسرة باعتبارها «شركة» بين طرفين، فلا يمكن أن تُترك بلا مدير، لا بدَّ لهذه الشركة من رئيس، لا بدَّ لها من سلطة تحكم عند الخلاف، أو عند النزاع، وتُصدر الأوامر، ولا يمكن أن يكون لها مديران، لأن السفينة الَّتي لها رئيسان تغرق! ولا يمكن أن تكون المرأة هي المديرة لما يغلب عليها من العاطفة ـ الَّتي هي ضروريَّة للأمومة ـ ولأنَّها لم تَغْرم في تأسيس الأسرة، بخلاف الرجل الَّذي ينظر في هذا الأمر بعين العقل، ويتبصَّر في العواقب والمآلات، وهو الَّذي غَرِم في إنشاء هذه المؤسسة الشيء الكثير، فهو أحرص على بقاء الأسرة واستمرارها، فإنَّها لو هُدِمَت فإنَّها سَتُهدم على أم رأسه، لهذا سيفكر ألف مرَّة قبل أن يتخذ قرار تفكيكها.

QaradawiBooks.com

القوامة لا تعني الاستبداد:

ولكن ليس معنى أنَّ الرجل أحقّ بالمسؤوليَّة وبالقوامة أن يستبدّ بشؤون الأسرة، ويصبح «دكتاتورًا» يأمر وينهى دون أن يناقش أو يحاور، ويجعل المرأة كمًّا مهملًا، كلا، بل ينبغي للرجل أن يشاور امرأته فيما يهمُّه من أمر الأسرة وغيره، ويُشرك امرأته معه، فهي شريك له في البيت وفي الأسرة، فهي تحمل همَّه، وتنصح له بما ترى من رأي قد يكون هو الأرشد، وقد قال القرآن عن الوالدين في حالة الرضاعة: ﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال النبيُّ ﷺ: «**آمِرُوا النساءَ في بناتهنَّ**»[(١)].

وفي غزوة الحُدَيْبِية استشار الرسول الكريم ﷺ زوجه أمَّ سلمةَ رضي الله عنها، فأشارت عليه برأيٍ نفَّذه، فكان فيه الخير والرشد[(٢)].

كون القوامة له ليس معناها أن يفعل ما يريد، هبْ أن واحدًا رئيس مجلس إدارة شركة ما، هل معنى أنَّه رئيس مجلس الإدارة أنَّه لا قيمة لأعضاء الإدارة ولا رأي لهم؟ لا، هو رئيس، يُنفِّذ الأمور، إنَّما لا بدَّ أن يشارك الأعضاء، ولا بد أن يشاورهم، ولا بد أن يأخذ رأيهم في الأمور، وهكذا ينبغي أن تكون الأسرة.

ومقتضى الاعتراف من المرأة بقوامة الرجل يوجب عليها أن تطيعه في المعروف، حتَّى تمضي السفينة بأمان، ولا يتنازعان في كل صغيرة وكبيرة، وإذا فعلت المرأة ذلك، قيامًا بالواجب وامتثالًا لأمر الله ورسوله،

(١) رواه أحمد (٤٩٠٥)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن. وأبو داود في النكاح (٢٠٩٥)، عن ابن عمر.
(٢) سبق تخريجه صـ٣١٢.

QaradawiBooks.com

عُدَّ ذلك في صالحات أعمالها الَّتي تُدخلُها الجنَّة، كما جاء في الحديث: «**إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصّنت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت من أي أبواب الجنَّة شاءت**»(١).

ولذلك قال الله في هذه الآية: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال النبي ﷺ: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**»(٢). وقال: «**فاظفرْ بذات الدِّينِ تَرِبَتْ يداك**»(٣). فالمرأة ذات الدِّين هي الَّتي تخشى الله في رعاية حقوق زوجها وبيتها، في حضوره وغيبته، فإن من فقد الدِّين والصلاح والخُلق لا يصلح شريكًا في تجارة، فكيف يكون شريكًا في حياة دائمة؟! ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، ومن جملة الغيب الَّذي ينبغي أن يُحفظ ما كان بين الزوجة وزوجها من علاقة خاصَّة، فلا يصحُّ أن تكون حديثًا في المجالس أو سمرًا في الندوات مع الأصدقاء أو الصديقات، وفي الحديث الشريف: «**إنَّ من أشرِّ النَّاس عندَ الله منزلةً يوم القيامة: الرجلُ يُفضي إلى امرأته، وتُفضي إليه، ثمَّ ينشر سرَّها**»(٤).

علاج الإسلام للنشوز في الأسرة:

كما ذكرت السورة الكريمة مسألة النشوز، وبينتْ كيف يعالَج النشوز، إذا هبت ريح الشقاق والخلاف في الأسرة، وكان الخلاف من

(١) رواه أحمد (١٦٦١)، وقال مُخَرِّجوه: حسن لغيره. والطبراني في الأوسط (٨٨٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٦٣٤): فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح. عن عبد الرحمٰن بن عوف.

(٢) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) سبق تخريجه صـ٢٩٩.

(٤) رواه مسلم في النكاح (١٤٣٧)، وأحمد (١١٦٥٥)، عن أبي سعيد الخدري.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

قبل الزوجة، فقد أمر الله تعالى الرجال بالتلطف في معالجة هذا الَّذي سماه القرآن «نشوزًا»، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤].

وذلك بالوعظ والكلام الجميل والمؤثِّر في نفس المرأة، فالرجل هو سيد البيت ورب الأسرة، بحكم تكوينه واستعداده ووضعه في الحياة، وبذله للمهر، ووجوب النفقة عليه، فلا يحل للمرأة أن تخرج عن طاعته وتتمرَّد على سلطانه، فتفسد الشركة، وتضطرب سفينة البيت أو تغرق ما دام لا رُبَّان لها، فإذا لاحظ الزوج على زوجته مظاهر النشوز والعصيان له، والترفع عليه، فعليه أن يحاول إصلاحها بكل ما يقدر عليه، مبتدئًا بالكلمة الطيّبة، بالوعظ المؤثّر والإرشاد الحكيم، بتخويف امرأته من الناحية الدينيّة ومن الناحية الدنيويَّة، وينبغي أن يستمر في ذلك فترة من الزمن.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤]، فإن لم تُجْدِ الوسيلة الأولى، إن لم يُجْد الوعظ والتخويف، انتقل إلى الوسيلة الثانية وهي الهجر في المضجع، في السرير، أي: لا يترك حجرتها ويعيش في حجرة أخرى، بل يبقى معها على سرير واحد، ولكنَّه يعطيها ظهره، وبهذا تشعر أنَّه يمكن أن يستغني عنها، وهذا يؤْلمها ويؤثّر فيها، ولعله يوقظ فيها غريزة الأنثى، فتراجع نفسها، وتتخلّى عن نشوزها، وتنقاد له ويعود الصفاء.

ثمّ إذا لم تُجْد هذه الوسيلة ولا تلك، يلجأ لجوء المضطرّ إلى الوسيلة الأخيرة وهي الضرب، ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، إذا لم ينفع

QaradawiBooks.com

معها وعظ ولا هجر، جرَّب الضـــرب الخفيف، إذا رأى أن ذلك يصلح للمرأة، فبعض النســـاء لا يصلحهـــنَّ إلَّا الضـــرب، وبعضهن لا يطقن الضرب، ولا يقبلنه بحال، والرجل هو الَّذي يعلم بالعشـــرة هل يصلح ذلك لامرأته أو لا، ومهما اضطرَّ إلى الضرب لا ينبغي أن يضرب ضربًا مبرحًا، أو يمس الوجه، أو يترك أثرًا.

والضرب علاج يصلح لبعض النســـاء، وفي بعض الأحوال، وبقدر معين، وليس أمرًا عامًّا، لأنّه قد يفســـد في بعض النســـاء، بعض النساء لا تحتمل الضرب، ولا تقبله، ولكن بعض النساء ربّما تتلذّذ بالضرب، والزوج الحكيم هو الَّذي يعرف متى يستخدم هذا الأمر، إن اضطرّ إليه، وأُجبر عليه.

فالضرب لا يكون إلَّا في حالة النشوز، وليس في الحالة العاديّة، فالقرآن لم يأمر بالضرب ابتداء، وإنّما بدأ بالوعظ، فإذا لم يُجْد انتقل إلى الهجر فـــي المضجع، فـــإن لم يُجْـــد لجأ إلى الضـــرب، لجوء المُضطرّ، وليس معنى الضرب هنا أن يمسك خشبة ويكسر رأسها، أو يضربها بالسوط، لا، وإنَّما هو من نوع ما قاله النبي ﷺ حينما أغضبته إحدى الجواري: «**لولا القِصاصُ لضربتُكِ بهذا السِّـــوَاك**»[(١)]. وقد نفَّر النبيُّ ﷺ من الضرب وقال: «**لا يجلد أحدُكـــم امرأتَه جلدَ العبد، ثمَّ يجامعُها في آخر اليوم**»[(٢)]. يعني: حَسَن العِشْرة لا يليق منه أن يضرب الرجل امرأته.

(١) رواه أبو يعلى (٦٩٠١، ٦٩٢٨، ٦٩٤٤)، والطبراني (٣٧٦/٢٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤٠٩، ١٨٤١٠، ١٨٤١١): إسناده جيد. عن أم سلمة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في النِّكاح (٥٢٠٤)، ومسلم في الجنَّة وصفة نعيمها (٢٨٥٥)، عن عبد الله بن زمعة.

QaradawiBooks.com

وقال في شأن من يضربون نســاءهم: «**لا تجدون أولئك خياركم**»[١].
وقال ﷺ: «**ولن يضرب خيارُكم**»[٢].

قال الإمام الحافظ ابن حجر: «وفي قولــه ﷺ: «**لن يضرب خياركم**» دلالة على أنَّ ضربهنَّ مباح في الجملة، ومحل ذلك أن يضربها تأديبًا إذا رأى منها ما يكره فيما يجب عليها فيه طاعته، فإن اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل، ومهما أمكن الوصول إلى الغرض بالإيهام لا يعدل إلى الفعل، لما في وقوع ذلك من النفرة المضادّة لحسن العشرة المطلوبة في الزوجيَّة، إلَّا إذا كان في أمر يتعلق بمعصية الله، وقد أخرج النسائي في الباب حديث عائشة: «ما ضرب رســولُ الله ﷺ امرأةً له ولا خادمًا قطُّ، ولا ضرب بيده شيئًا قطُّ إلَّا في سبيل الله أو تُنتهك حرمات الله، فينتقم لله»[٣]»[٤].

ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا، إلَّا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شــيء قطُّ، فينتقم من صاحبه، إلَّا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله ﷻ.

وإن كان الخلاف من قبل الزوج، فــإن على الزوجة أن تعالج هذا النشــوز عند زوجها بحســن الحيلة والمصالحة، كما قالت الســورة:

---

(١) رواه أبــو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه (١٩٨٥)، كلاهما في النكاح، والنســائي في الكبرى في عشــرة النســاء (٩١٢٢)، وابن حبان في النكاح (٤١٨٩)، وقال الأرناؤوط: صحيح. وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٢٥١)، عن إياس بن أبي ذباب.

(٢) رواه الحاكم (١٩١/٢)، وصحَّح إســناده، ووافقه الذهبي، والبيهقــي (٣٠٤/٧)، كلاهما في النكاح، عن أم كلثوم بنت أبي بكر.

(٣) رواه النســائي في الكبرى في عشرة النســاء (٩١١٨). والحديث متَّفق عليه بلفظ: وما انتقم رســول الله ﷺ لنفســه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها. رواه البخــاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧).

(٤) انظر: فتح الباري (٣٠٤/٩).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨]، وهذا ما رأيناه عند أم المؤمنين سودة بنت زمعة حين كبر سنها، وخافت أن يستغني الرسول عنها، ويطلقها، فبادرت، بإعطاء ليلتها الدورية لعائشة الَّتي يحبها الرسول الكريم، لتبقى في نسائه، وتحظى به زوجًا في الجنة.

أمَّا إن كان الشقاق من الجهتين، من جهة الرجل ومن جهة المرأة، ويُخشَى أن يستحكم الخلاف، كان لا بدَّ من تدخُّل خارجي، ولكن هذا التدخُّل الخارجي يجب أن يكون في دائرة محدودة، أي: في دائرة أسرتي الزوجين، حيث لا يدخل الغرباء في المسألة، فإن هذه أمور فيها كثير من الأسرار، ولذلك نجد القرآن شرع هنا «التحكيم»، أي محكمة عائليَّة، أو مجلس عائلي، قالت السورة: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥]، ومعنى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا﴾ أي: شخصا قادرًا على الحكم، أي: من أهل الرأي، ولكن ينبغي أن يكون مع الرأي النيَّة الصالحة؛ لأن الله يقول: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥].

فهذه المحكمة العائليَّة، الَّتي تنظر في أسباب النزاع بين الزوجين، وتحاول التوفيق، وتقترح المقترحات البنّاءة، وإذا صدقا في نيَّتهما فالله تعالى قادر على أن يوفِّق بينهما.

لما بعث سيِّدنا عمر رضي الله عنه حَكَمين لينظر في أمر زوجين مختلفين، فذهبا ثمَّ عادا، وقالا: يا أمير المؤمنين: لم نستطع أن نوفِّق بينهما، فعلاهما عمر رضي الله عنه بالدرة وقال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، أي: أصلحا نياتكما ثمَّ عُودا؛ فعاد

QaradawiBooks.com

الحكمان وأحسنا النية وتلطفا بالزوجين، فأصلح الله بينهما[1]، هذا أثر النية في العمل.

والعجيب: أنَّ القرآن هنا قال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، فذكر حالة التوفيق ولم يذكر الحالة الَّتي يتعذر فيها التوفيق، كأنَّ القرآن يُشعِرنا أنَّه لا يريد أن نصل إلى هذا الطريق المسدود.

المجتمع المسلم مجتمع متضامن في أموره كلِّها، يأخذ بعضه بيد بعض، ويعين قويُّه ضعيفَه، ويُعلِّم عالمُه جاهلَه، وينتصر للمظلوم، ويأخذ على يد الظالم، ففي حالة الشقاق والخلاف العائلي حين يستفحل بين الزوجين، ولا يستطيعان حل مشاكلهما الخاصَّة بالتفاهم والتراضي، فإنَّ على المجتمع المسلم أن يتدخل بتعيين «محكمة عائليَّة» مكوَّنة من حكمين أي شخصين من أهل الرأي والمكانة والقدرة على الحكم، يجتهدان في الإصلاح بينهما ما وجدا إلى ذلك سبيلًا، وإلا حكما بالتفريق بينهما، وينفذ ذلك قضاء، كما حدث في زمن الصحابة رضي الله عنهم.

وإذا كان الزوجان يعيشان في مجتمع غير مسلم، فالمطلوب من الجالية المسلمة في كل مدينة فيها وجود ظاهر للمسلمين: أن يكون لهم «مجلس تحكيم» أو «مجلس إصلاح» يتكون من ثلاثة مثلًا من عقلاء المسلمين وثقاتهم المأمونين على أسرار النَّاس، من عُرفوا بحصافة الرأي، ومتانة الخلق، وقوة الدِّين، ورضا النَّاس عنهم، ويكون أحدهم من له معرفة بأحكام الشرع دون تزمُّت ولا تسيُّب، وتعرض عليهم هذه المشاكل لينظروا فيها، ويحاولوا التوفيق والإصلاح ما استطاعوا، ويضعوا لذلك الضوابط ويُلزموا بذلك الطرفين، وعلى الجميع أن

(١) إحياء علوم الدين (٤٩/٢).

QaradawiBooks.com

يساعدهم على ذلك، حتَّى يستقيم أمر الجماعة المسلمة، وفي الحديث الشريف: «**يد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار**»[١].

فـ«الإصلاح» أو «التحكيم» من الإجراءات المعروفة في شريعة الإسلام وتاريخه، لمحاولة الإصلاح بين طرفي النزاع، سواء أكان ذلك على المستوى الداخلي أو العالمي، والنصُّ صريح في مجال الأسرة، ولا مانع من تعديته إلى الجماعة داخل الدولة والجماعة الإنسانيَّة الدولية.

فإذا لم تفلح هذه الطرائق المختلفة في حلِّ الإشكال، وكان النزاع بينهما شديد الوطء، وأصر الزوج على الطلاق، واستحكم النفور بين

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٧)، وقال: غريب من هذا الوجه. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨)، دون قوله: «ومَن شذ شذ في النار». وضعفه النووي في شرح مسلم (٦٧/١٣)، ورواه الحاكم في العلم (١١٥/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧/٣)، وقال: غريب من حديث سليمان عن عبد الله بن دينار لم نكتبه إلا من هذا الوجه. وقال المناوي في فيض القدير (٣٤٤/٢): قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في تخريج المختصر: حديث غريب خرجه أبو نعيم في الحلية واللالكائي في السنة، ورجاله رجال الصحيح لكنَّه معلول، فقد قال الحاكم: لو كان محفوظًا حكمت بصحته على شرط الصحيح، لكن اختلف فيه على معتمر بن سليمان على سبعة أقوال. فذكرها وذلك مقتضى للاضطراب، والمضطرب من أقسام الضعيف. وقال السخاوي في المقاصد صـ ٧١٦: بالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره.
قلت: وهناك من الدلائل ما يشهد لهذا الحديث، منها قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فوجود هذه الأمة الهادية بالحق، يمنع أن تجتمع على ضلالة، ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، ومنها قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومنها أحاديث الطائفة القائمة على الحق إلى قيام الساعة، التي سماها العلماء: (الطائفة المنصورة). فليعلم هذا.

QaradawiBooks.com

الزوجين، ولم تنجح كل وسائل الإصلاح ومحاولات المصلحين في التوفيق بينهما، فإنَّ الطلاق ـ في هذه الحالة ـ هو الدواءُ المر، الَّذي لا دواء غيره، إذ لا طاقة لأحد أن يعيش باستمرار مع من يكره، إنّ فرض هذه الحياة بسلطان القانون عقوبة قاسية، لا يستحقها الإنسان إلَّا بجريمة كبيرة، إنَّها شر من السجن المؤبد، بل هي الجحيم الَّذي لا يُطاق، وقد قالوا: إن من أعظم البلايا مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك.

وقال المتنبي:

ومن نَكَدِ الدُّنْيا على الحُرِّ أن يرى عــدُوًّا له ما مــن صداقتــه بُدُّ[1]

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠]، فالطلاق أشبه ما يكون بالعمليَّة الجراحية المؤلمة، الَّتي يتحمل الإنسان العاقل فيها آلام جرحه، بل بتر عضو منه، حفاظًا على بقية الجسد، ودفعًا لضرر أكبر.

هذا هو ديننا، وهذه هي شريعتنا، وهذا هو منهجها، الَّذي يقوم على العدل، وليس فيه شيء غير العدل، العدل الَّذي قامت به السماوات والأرض، وهذه هي تعاليم الإسلام، ولو أنَّ المسلمين اتبعوها، ورعوها حق رعايتها، لانحصر الطلاق في أضيق نطاق، وهذه أساسيات الأشياء المتعلقة بأحكام النساء في هذه السورة الَّتي سُمِّيَتْ «سورة النساء».

(١) البيت في ديوانه صـ ١٩٨.

QaradawiBooks.com

الدرس الرابع
تعدُّد الزوجات

غير مرخصة للطباعة

ما زلنا مع هذه السورة الكريمة سورة النساء، كنَّا قد تحدَّثنا عن هذه السورة العظيمة من سور القرآن المدني، فهي سورة مدنيَّة تُعنى بتنظيم المجتمع الإسلامي، وإقامة هذا المجتمع على أسس متينة، وأساس هذا المجتمع الأسرة، وقوام هذه الأسرة المرأة، ولذلك اهتمت السورة بشأن النساء، وإنصاف النساء، والعدل مع النساء، بعد أن كانت المرأة في الجاهليَّة مظلومة.

كانت المرأة في الجاهليَّة عبارة عن شيء من الأشياء، تُورَث ولا ترث، يظلمها أبوها، ويظلمها أخوها، ويظلمها زوجها، فجاء الإسلام شريعة رب النَّاس لكل النَّاس، جاء يعطي المرأة حقها كما يطالبها بواجبها، وهذا ما تحدَّثْنا عنه في الدرس الماضي.

نقف الليلة مع قول الله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣].

سبب نزول الآية:

كانوا يتحرجون في اليتامى ولا يتحرجون في الزواج، فقال لهم: إذا كنتم تتحرجون من هذا فتحرجوا من هذا واكتفوا بأربع نساء،

QaradawiBooks.com

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، ثمَّ اشترط العدل لإباحة الزواج بأكثر من واحدة، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، من لم يثق من نفسه بالعدل، وخاف الجَوْر فليكتف بزوجة واحدة، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]، أي: ألا تجوروا ولا تميلوا عن الحق إلى الباطل، ولا عن العدل إلى الظلم.

التعدد قبل الإسلام:

الإسلام ليس أوَّل من شرع التعدد، فالتعدد كان موجودًا قبل الإسلام، حتَّى جاء في التوراة أنَّ داود كان عنده (١٠٠ امرأة)، و(٢٠٠ جارية)، وسليمان كان عنده (٣٠٠ امرأة)، و(٧٠٠ سُرِّية) يعني عنده جيش من النساء، والعرب كانوا كذلك، والرومان كانوا كذلك، وكل الأمم كان عندها التعدد، ولهذا عدَّد النَّاس الزوجات من قديم، وأباحت لهم أديانهم وأعرافهم ذلك، وبالغ في ذلك بعضهم، فكان عنده المئات من النساء، زوجات وسراريُّ ممَّا ملكت الأيمان، فلمَّا جاء الإسلام اعترف بهذا الواقع، ولكن أدخل عليه بعض التعديلات، فأجاز التعدد عند الحاجة إليه، وجعل له قيدًا وشرطًا.

أمَّا القيد: فألَّا يزيد على أربع، جعل الحد الأقصى للزوجات أربعًا، وقد أسلم غَيْلان الثقفي وتحته عشر نسوة، فقال له النبيُّ ﷺ: «**اخترْ منهن أربعًا وفارِقْ سائرَهنَّ**»[1]. وكذلك من أسلم عن ثمان وعن خمس نهاه الرسول ﷺ أن يمسك منهن إلَّا أربعًا.

(١) رواه أحمد (٤٦٠٩)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي (١١٢٨)، وقال: العمل عليه عند أصحابنا، منهم الشافعي وأحمد وإسحاق. وابن ماجه (١٩٥٣)، وابن حبان (٤١٥٦)، ثلاثتهم في النكاح، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٢٦)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وأمَّا الشرط الَّذي اشترطه الإسلام لتعدُّد الزوجات فهو ثقة المسلم في نفسه أن يعدل بين زوجتيه أو زوجاته في المأكل والمشرب والملبس والمسكن أو المبيت والنفقة، فمن لم يثق من نفسه بالقدرة على أداء هذه الحقوق بالعدل والسوية، حرم عليه التعدد، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]، تجوروا وتميلوا عن العدل إلى الظلم، وقد قال النبي ﷺ: «**من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطًا أو مائلًا**»[(١)].

والميل الَّذي حذَّر منه هذا الحديث هو الجور على حقوقها، لا مجرد الميل القلبي، فإنَّ هذا داخل في العدل الَّذي لا يُستطاع، والَّذي عفا الله عنه وسامح في شأنه، قال ﷻ: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]، ومفهوم الآية أنَّ بعض الميل مغتفر وهو الميل العاطفي.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، ويقول: «**اللهمَّ هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك**»[(٢)]. يعني أمر القلب، والميل العاطفي إلى إحداهن خاصَّة، وكان ﷺ إذا أراد سفرًا حكم بينهن بالقرعة، فأيَّتُهنَّ خرج سهمها سافر بها. وإنَّما فعل ذلك دفعًا لوخز الصدور، وترضية للجميع.

---

(١) رواه أحمد (٧٩٣٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود (٢١٣٣)، والترمذي (١١٤١)، وابن ماجه (١٩٦٩)، ثلاثتهم في النكاح، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٢)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٢٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٥١١١)، وقال مُخَرِّجوه: هذا إسناد رجاله ثقات. وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، وقال: روي مرسلا وهو أصح. والنسائي في عشرة النسائي (٣٩٤٣)، وصحَّحه ابن الملقن في البدر المنير (٣٨/٨)، وقال الحافظ في التلخيص الحبير (٢٩٥/٣): وأعله النسائي والترمذي والدارقطني بالإرسال. وقال أبو زرعة: لا أعلم أحدًا تابع حماد بن سلمة على وصله. عن عائشة.

QaradawiBooks.com

وليس المطلوب العدل فقط، بل أيضًا: القدرة على النفقة، فهذا أمر طبيعي، فالإنسان لا يتزوج ـ حتَّى الزوجة الأولى ـ إلَّا إذا كان قادرًا على النفقة عليها، كما في الصحيحين من حديث ابن مسعود: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج**»[1]. أي من كانت لديه القدرة على الحياة الزوجيَّة، ونفقاتها وأعبائها فليتزوَّج، فإذا كان هذا في الزواج بالأولى فما بالك بالثانية والثالثة والرابعة، هل يجوز له أن يتزوَّج وهو لا يستطيع أن ينفق عليها؟ وكذلك أن تكون لديه القدرة الجسدية على الإحصان، بحيث يعفُّ المرأة ويحصّنها، حتَّى لا تتطلَّع إلى غيره.

من أجل هذا شُرِعَ التعدُّد:

الإسلام شرع التعدُّد لعلاج المشكلات الموجودة، قد يُرزق الإنسان بامرأة لا تُنجب وهو مشتاق إلى الإنجاب، قد يُرزق بامرأة تمرض وهو مشتاق إلى النساء، قد يوجد رجل قوي الغريزة، قوي الشهوة ولا تكفيه امرأة واحدة، وخصوصًا إذا كانت امرأته تطول عندها فترة الحيض (الدورة الشهرية)، فبدل أن يفكر في الحرام شرع له الإسلام الزواج بأخرى، أفلا يباح له أن يتزوج بأخرى حليلة، بدل أن يبحث عنها خليلة؟

وقد يكون عدد النساء أكثر من عدد الرجال ـ وخاصَّة في أعقاب الحروب الَّتي تلتهم صفوة الرجال والشباب ـ وهنا تكون مصلحة المجتمع، ومصلحة النساء أنفسهن أن يكن ضرائر، بدل أن يعشن العمر كله عوانس محرومات من الحياة الزوجيَّة، وما فيها من سكون ومودة وإحصان، ومن نعمة الأمومة، ونداء الفطرة في حناياهن يدعو إليها،

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، كلاهما في النكاح.

QaradawiBooks.com

فشرع الإسلام هذا التعدد ليداوي هذا، إنَّه يقدر ضرورة الأفراد وضرورة الجماعات، ويقدر حاجاتهم ومصالحهم جميعًا.

إنَّهـا إحدى طرائق ثـلاث أمام هـؤلاء الزائدات عن عـدد الرجال القادرين على الزواج:

١ ـ إمَّا أن يقضيـنَ العمر كلَّه في مرارة الحرمان مـن حياة الزوجيَّة والأمومة، وهذا ظلم لهن.

٢ ـ وإمَّا أن يُرخى لهنَّ العِنان ليعشن أدوات لهو لعبث الرجال الحرام، ويُشبعن غرائزهن من وراء ظهر الدِّين والأخلاق، وهذا ضياع لهن.

٣ ـ وإمَّـا أن يقبلـن الزواج مـن رجل متـزوج قادر علـى النفقة والإحصان، واثق بالعدل، ولا ريب أن هـذه الطريقة الأخيرة هي الحل العادل، والبلسم الشافي، وذلك هو ما حكم به الإسلام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

التعدُّد ليس ضد المرأة:

الناس يقولون: التعدُّد ضد المـرأة، ليس هذا صحيحًا، فلو كان ضدَّ المرأة ما قبلت المرأة هذا، هـو ضدُّ المرأة الأولى، مـن صالح المرأة الأولى أن تنفرد بالرجل وحدها، ولكنَّه من مصلحة المرأة الثانية، واحد مات وترك امرأة ولا زالت شـابة، فهل معنى هذا أن تبقى طول عمرها محرومة؟ أم تتزوج رجلًا يقبلها على امرأته وتُحَل المشـكلة؟ ليس في هذا بأس، فهذا يحل كثيرًا من المشكلات.

إنَّ كلَّ ما أباحته الشـريعة لا بدَّ أن تكون منفعته خالصة أو راجحة، وكذلك كل ما حرمته الشريعة لا بدَّ أن تكون مضرَّته خالصة أو راجحة،

QaradawiBooks.com

وهذا ما راعته الشـريعة في تعدد الزوجات، فقـد وازنت بين المصالح والمفاسد، والمنافع والمضارّ، ثمَّ أذنت به لمن يحتاج إليه، ويقدر عليه بشـرط أن يكون واثقًا من نفسـه بالعدل، غير خائف عليها من الجور والميل، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

فإذا كان مـن مصلحة الزوجة الأولى أن تبقـى وحدها متربعة على عـرش الزوجيَّة لا ينازعها أحـد، ورأت أنَّها سـتتضرر بمزاحمة زوجة أخرى لها، فإن من مصلحة الزوج أن يتزوج بأخرى تُحَصِّنه من الحرام، أو تنجب له ذرية يتطلـع إليها، أو غير ذلك، وإن مـن مصلحة الزوجة الثانية كذلك أن يكون لها نصف زوج تحيا فـي ظله، وتعيش في كنفه وكفالته، بدل أن تعيش عانسًا أو أرملة، أو مطلقة محرومة طوال الحياة.

إن من مصلحة المجتمع أن يصون رجاله، ويستر على بناته، بزواج حلال يتحمل فيه كل من الرجل والمرأة مسؤوليته فيه عن نفسه وصاحبه وما قـد يرزقهما الله من ذريَّـة، بدل ذلـك التعدد الَّـذي عرفه الغرب المسيحي، تعدد الخليلات، تعدد لا أخلاقي ولا إنساني، يستمتع فيه كل منهما بصاحبه دون أن يتحمل أي تبعة، ولو جاء من هذه الصلة الخبيثة ولد، فهو نبات شـيطاني لا أب لـه يضمه إليه، ولا أسـرة تحنو عليه، ولا نسب يعتز به، فهم يُعدِّدون الخليلات تعددًا غير أخلاقي ولا إنساني، ونحن نعدِّد الحليلات، فأي الفريقين أقوم قيلًا، وأهدى سبيلًا؟

إن التشريع الإسـلامي وسط في شؤون الأسـرة، كما هو وسط في شؤونه كلها، وسط بين الَّذين شرعوا تعدّد الزوجات بغير عدد ولا قيْد، وبين الَّذين رفضـوه وأنكروه ولو اقْتضته المصلحـة، وفرضته الضرورة والحاجة، ناهيك عن الَّذين رفضوا الزواج كله من أصله.

QaradawiBooks.com

دعاة التغريب لا يرحِّبون بتعدُّد الحليلات:

صحيح قد يساء استعمال هذه الرخصة أو هذا الحق، فكم من حقوق يُساء استخدامها، ويتعسف في استعمالها، فهل يؤدي ذلك إلى إسقاطها وإلغائها؟! الزواج الأوَّل نفسه كم يُساء استخدامه، فهل نلغيه؟! الحريَّة كم يُساء استخدامها، فهل نلغيها؟! إنَّ الأولى ـ بدل أن ننادي بإلغاء الحق ـ أن نضع الضوابط لاستخدامه، ونعاقب من يسيء في ذلك، قدر ما نستطيع.

ومن المؤسف أنّ بعض دعاة التغريب في أوطاننا العربيَّة والإسلاميَّة، استغلوا ما وقع من بعض المسلمين من انحراف، فقاموا يرفعون أصواتهم بإغلاق باب التعدد بالكليَّة، وأمسوا وأصبحوا وهم يُبدئون ويعيدون، في الحديث عن مساوئ التعدد، في حين يصمتون صمت القبور عن مساوئ الزنى، الَّذي تبيحه ـ للأسف ـ القوانين الوضعيَّة الَّتي تحكم ديار المسلمين اليوم!

وقد نجح هؤلاء فعلًا في بعض البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، فصدرت قوانين تُحرِّم ما أحلَّ الله من التعدد، اتباعًا لسنن الغرب، ولا زال منهم مَن يحاول ذلك في بلاد أخرى، وأعجب شيء في هذه القضيَّة أن يراد تبريرها باسم الشرع، وأن يحتجوا لها بأدلَّة تلبس لبوس الفقه! احتج هؤلاء بأنَّ من حق ولي الأمر أن يمنع بعض المباحات؛ جلبًا لمصلحة، أو درءًا لمفسدة.

فأخذت ـ للأسف ـ بعض البلاد العربيَّة الإسلاميَّة بتحريم تعدد الزوجات، في حين أن تشريعاتها لا تُحرِّم الزنى، الَّذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، إلَّا في حالات معيَّنة مثل الإكراه، أو الخيانة الزوجيَّة، إذا لم يتنازل الزوج.

QaradawiBooks.com

أنا أريد أن أقول: لا حرج على الرجل شرعًا أن يتزوج بأخرى، إذا كان قادرًا على أعباء الزواج من النفقة والإحصان، وكان واثقًا من نفسه بالعدل بين زوجتيه أو زوجاته، وإلا حرم عليه الزواج بأخرى، فالتعدد ليست فائدته للرجل فقط، وإنَّما فائدته للمرأة كذلك، والصحابة عدَّدوا الزوجات خصوصًا في مجتمع كان يقوم على الجهاد، ويقدم الشهداء تلو الشهداء، فكان هناك كثير من الأرامل اللاتي يموت أزواجهن في الحرب، وتُترك المرأة وهي شابة، فتتزوج رجلًا متزوجًا بأخرى، ولا مانع من هذا لكثرة النساء اللاتي فقدن أزواجهن، وكانت المرأة تنتقل من رجل إلى رجل ولا حرج في ذلك.

السيدة أسماء بنت عُمَيْس رضي الله عنها كانت زوجة لجعفر بن أبي طالب، وحينما استشهد جعفر في سريَّة مؤتة تزوَّجت بعده أبا بكر الصِّدِّيق، وبعد موت أبي بكر تزوَّجت عليَّ بن أبي طالب، وكان لها أولاد من جعفر، وأولاد من أبي بكر، وأولاد من عليٍّ بن أبي طالب، وكان أحيانًا يفتخر أولادها من هؤلاء الثلاثة، فهذا يقول: أبي أفضل من أبيك. ابن جعفر يقول لابن أبي بكر: أبي أفضل من أبيك. وابن أبي بكر يقول لابن علي: أبي أفضل من أبيك. ثمَّ يحتكمون إلى أمِّهم السيِّدة أسماء بنت عُميس، فماذا تقول هذه الأم العظيمة رضي الله عنها؟ كانت تقول: أبو بكر سيِّد الشيوخ، وجعفرٌ سيِّد الكهول، وعليٌّ سيِّد الشباب. فحكمت بالسيادة للجميع، وأرضت الجميع[1].

فهذا الأمر كان سهلًا بالنسبة للمسلمين، وكانوا يعدِّدون ويراعون الحقوق، لكنَّ المسلمين ـ للأسف ـ في عصرنا لا يراعون هذا الحق،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٨٥/٨)،، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

أساؤوا استعمال تعدد الزوجات، وأساؤوا استعمال الطلاق، وأساؤوا استعمال حقِّ الاختيار، وكم من حقوق يُساء استخدامها، فلا يعني هذا إلغاؤها، كما ذكرنا من قبل.

غير مرخصة للطباعة

الإسلام جاء بالعتق لا بالرقِّ:

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، وملك اليمين هن الجواري والإماء في ذلك الزمان، فالإسلام لم يخترع الجواري، ولم يخترع الرق، الإسلام اخترع العتق ولم يخترع الرق، جاء والرق يملأ العالم، كل عمل الإسلام أنَّه حصر منابع الرق، أبطل كل أبواب الرق، ولم يبق إلَّا سببًا واحدًا، وهو الأسير في حرب شرعية، وجعله تصرفًا من عدة تصرفات:

أوَّلًا: إمَّا أن نمنّ على الأسير لوجه الله، تحبيبًا له في الإسلام.

ثانيًا: وإمَّا نقبل منه الفدية بمال، أو نفدي أسيرًا بأسير، أو أسيرًا بأسيرين وهكذا، وهذا منصوص عليه في القرآن: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤].

ثالثًا: وإمَّا أن يُقتل الأسير، وذلك لو كان مجرمًا من مجرمي الحرب، وله ضلع طويل في إيذاء المسلمين.

رابعًا: هناك الاسترقاق، والاسترقاق هو أن نأخذ الأسير فنسترقه كما يسترق الأعداء أسرانا نسترق أسراهم، فهو نوع من المعاملة له بالمثل، وهذا هو السبب الوحيد للرق في الإسلام، ويبقى ابن الرقيق رقيقًا بالتوارث.

إذا وجد هذا الرقيق بهذا السبب فالإسلام جعل مصارف كثيرة جدًّا لتحرير هذا الرقيق، من ذلك أنَّه جعل من أحد مصارف الزكاة مصرِفًا اسمه: «في الرقاب»، يعني ثمن الزكاة ممكن تصرف للرقاب، وممكن

QaradawiBooks.com

تصرف كلها، كما حصل في عهد عمر بن عبد العزيز، أنَّه قال لواليه على إفريقية: إنِّي لم أجد فقيرًا يستحق الزكاة، فقال له: اشتر بها رقابًا فأعتقها[1]. حررنا النَّاس من الفقر فلنحررهم من الرق.

والحقيقة أنَّ الإسلام له في ذلك هدف كبير جدًّا، إنَّ الإسلام كان حريصًا على تحرير الرقيق، فقد جاء والرق موجود في العالم، فلا يمكن أن يلغيه بـ «جرَّة قلم»، وإنَّما وضع من التعاليم والأحكام ما يلغيه عمليًّا بالتدريج.

فجعل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب، وهذا يعني أنَّ الإسلام حينما نجح في تحرير النَّاس من الفقر، بدأ يوجه الزكاة إلى تحرير النَّاس من الرق، ولذلك فقد شرع الإسلام أشياء كثيرة جدًّا، وفتح أبوابًا واسعة لتحرير الرقيق.

ومن هذه الأبواب: باب الكفارات، ففي القتل الخطأ مثلًا، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢].

فالقاتل عن طريق الخطأ، يُطلب منه تحرير رقبة مؤمنة! كما أنَّه قتل مؤمنًا، فعليه إحياء مؤمن. وإحياؤه بأن يفك رقبته، ويحرره من الرق، فهذا إحياؤه، وكأن القرآن بهذا يعتبر الرق موتًا أدبيًّا، موتًا معنويًّا، والتحرير إحياء، فتحيي نفسًا بعد أن أمتَّ نفسًا.

ومن الكفارات: كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي محمد ابن عبد الحكم صـ ٦٥.

QaradawiBooks.com

وكذلك كفارة الظهار: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣]، وكذلك كفارة من جامع امرأته في نهار رمضان، الخ.

هل التعدُّد هو الأصل؟

البعض يسأل هل الأصل في الزواج هو التعدُّد؟ وهذه القضيَّة أثارها بعض العلماء، وكان الَّذين أثاروها في أوَّل الأمر أثاروها من باب المداعبة والمُلَح العلميَّة، بعض العلماء قال: قول الله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، كأنّ الأصل هو التعدد، وإن خاف ألَّا يعدل فواحدة.

وليس هذا هو المقصود في الحقيقة، المقصود أنَّ القرآن يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣]، وتظلموهنَّ فالله وسَّع عليكم، وأباح لكم بدل الواحدة أربعة، فلماذا تدخلون في مظنَّة الجور والظلم، وتُدخلون أنفسكم في هذا الأمر وعندكم ممَّا أتاح الله لكم من النساء الكثير؟! إنَّه لم يأت في أوَّل الأمر ويقول: يا أيُّها النَّاس تزوَّجوا اثنتين وثلاثًا وأربعًا، لكن قال: إن خفتم ألَّا تعدلوا فتزوجوا واحدة.

العلماء قالوا: إذا كان الإنسان يخاف من عدم العدل فالأولى بالمسلم، والأحوط له أن يكتفي بواحدة، وهذا هو الَّذي فعله النبي ﷺ، النبي ﷺ عاش إلى سن الخمسين متزوجًا من امرأة واحدة، وهي خديجة رضي الله عنها، ورغم أنَّها كانت تكبره في السنِّ، ورغم أنَّه تزوجها ثيبًا، ورغم أنَّها كانت ذات عيال قبله، ومع هذا عاش معها أسعد ما يكون الأزواج، ثمَّ اقتضت أمور الدعوة بعد ذلك أن يعدد الزوجات، لأسباب معينة.

QaradawiBooks.com

تزوَّج عائشة بنت أبي بكر، وأبو بكر صاحبه الأول، وتزوج حفصة بنت عمر، وعمر بن الخطاب صاحبه بعد أبي بكر. صحابته الكبار هم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فأما عثمان وعليٌّ فزوَّجهما بناته، وأمَّا أبو بكر فتزوَّج النبي ﷺ ابنته عائشة، وتزوَّج كذلك بحفصة رضي الله عنها ابنة عمر، رضي الله عنهم جميعًا، لاعتبار معين.

المهمُّ أنا أريد أن أقول: إنَّ الأصل في الزواج هو أن يتزوج الرجل امرأة واحدة وليس التعدُّد، لماذا؟ لأن الله خلق النَّاس نصفين تقريبًا، نصف ذكور ونصف إناث، حتَّى إن «كريسي موريسون» صاحب كتاب: «العلم يدعو إلى الإيمان» جعل من الأدلَّة العلميَّة على وجود الله: أن هناك قوَّة تنظم هذا العالم، وأنَّه طوال التاريخ كان عدد الذكور قريبًا من عدد الإناث، يعني إمَّا (٥٠٪)، أو (٤٩٪)، أو (٤٨٪) وهكذا، من الَّذي نظم هذه العمليَّة؟

لم يترك هذا الأمر لأهواء النَّاس، فإنَّ النَّاس يريدون الذكور، والحياة لا تستقيم بالذكور وحدهم، ولا بالإناث وحدهن، فلو كثر الذكور وقلَّ الإناث لتَقَاتَل النَّاس على المرأة، فالله هو الَّذي نظم هذه العمليَّة، أن يكون العالَم نصف ذكور ونصف إناث، بعد الحروب ينقص عدد الرجال، فالغريب أنَّ النساء تلدن ذكورًا أكثر في هذه الفترة، هذا معروف تاريخيًّا، من الَّذي نظم هذا؟ الله الَّذي نظم هذا.

لو كان المقصود أنَّ الأصل أنَّ الإنسان يتزوَّج اثنتين وثلاثًا وأربعًا لكان عدد النساء ضعف عدد الرجال، أو ثلاثة أضعاف، أو أربعة أضعاف، وهذا ليس بحقيقة، إنَّما الَّذي يحدث أن هناك نساء قابلات للزواج، ورجال غير قادرين على الزواج، فيكثر عدد النساء كثرة محدودة

QaradawiBooks.com

تزيد عن النصف قليلًا، فشرع الله من أجل هذا التعدد، فالتعدُّد ليس هو الأصل، فالذين يقولون بأن التعدد هو الأصل ليس هذا صحيحًا، التعدد رخصة شـــرعها الله ﷻ لعلاج أمور في المجتمع، هذا هو الَّذي جاء به الإســـلام في قضيَّة التعدد، فالأصل هو الوحدانيَّـــة، وليس التعدد، كما يقول القائلون.

لماذا أباح الإسلام للرجل التعدُّد ولم يُبَحْ للمرأة؟

كنتُ في الأردن، أُســـجِّل هنـــاك برنامجًا تلفزيونيًّـــا، وكان برنامجًا جماهيريًّا، فبعض النساء الحاضرات سألنني: لماذا أباح الإسلام للرجل أن يتزوج أربعًا، ولم يبح للمرأة أن تتزوج أربعًا؟ والعدل أن يُباح للمرأة كما أُبيح للرجل، أن تتزوج المرأة أربعة رجال، كما يتزوج الرجال أربع نســـاء، فقد قال القرآن: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، يعني: أيُّها الرجال أنتم تستمتعون بثلاث وأربع، والنساء محكوم عليهن بزوج واحد!

فقلتُ: طبيعة المرأة غير طبيعـــة الرجل، المرأة إذا حملت من هؤلاء الرجال، لا نعرف ابن من هو؟ هذه مشكلة.

صحيح ـ كما قال أحدهم ـ يمكننا الآن أن نعرف أبا الجنين، عن طريق تحليل الدم ومثل هذه الوسائل، لكن هناك أمر آخر، وهو كيف تعدل المرأة بيـــن أزواجها؟ هؤلاء الأربعة واحد يقـــول: أنا أريد أن يكون ابنـــي هو الأول. والثانـــي يقول: لي القطفـــة الأولى. وكذلك الثالث يقول مثل هـــذا، والرابع، وهكذا، فكيـــف تعدل بينهم إذن؟ لا يمكن العدل.

QaradawiBooks.com

ثم إنَّ المسألة ليست مسألة شهوة فقط، المرأة هل تريد أن تكوِّن بيتًا؟ أم تريد أن تستمتع بالرجال؟ إذا كان مجرد الشهوة والاستمتاع فهذا ليس من الدِّين في شيء، إنَّما المرأة تريد أن تكوِّن بيتًا، ولا يمكن أن تكوِّن بيتًا، وتنشئ أسرة، وتنشئ أطفالًا لهم أب يرعاهم، ويكون مسؤولًا عنهم، إلَّا بأن يكون رجلًا واحدًا؛ ولذلك كل الشرائع الدينيَّة السماويَّة، وغير السماويَّة، لم تجز للمرأة تعدِّد الرجال، فهذا هو عدل الله تعالى.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الخامس
الآيات المُبَشِّرات في سورة النساء

نقف الليلة أيُّها الإخوة مع الآيات المُبَشِّرات في سورة النساء كما رآها سيِّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [(١)]، ما هذه الآيات؟ هي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

بعد أن ذكر الله عز وجل المحرَّمات من النساء وما يتصل بها قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ

(١) رواه الحاكم في التفسير (٣٠٥/٢)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤]، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

QaradawiBooks.com

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

هذه الآيات الثلاث جاءت تعقيبًا على ذكر المحرمات من النساء، الله تعالى حينما حرم على النَّاس أن يتزوَّجوا أمَّهاتهم أو بناتهم أو أخواتهم أو عمَّاتهم أو خالاتهم أو بنات الأخ أو بنات الأخت إلى آخر تلك المحرمات إنَّما أراد بهم الخير، الله لا يحرم على النَّاس انتقامًا منهم، ولا يحلل للنَّاس تدليلًا لهم، وإنَّما يحل الطيِّبات ويحرم الخبائث، فهو تحليل وتحريم لمصلحة النَّاس، لأن الله ﷻ لا يعود عليه شيء من التشريعات، من التحليل أو التحريم أو الإيجاب أو الفرضية، الله غني عن عباده، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

وجاء في الحديث القدسي قول الله تعالى: «**يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»[1].

فإنَّما يأمر الله وينهى ويشرع ويُحلِّل ويُحَرِّم لمصلحة عباده، ليُزَكِّيهم ويرقى بهم، وينفعهم أفرادًا وجماعات.

أهداف التشريع الإسلامي:

فالله ﷻ يقول: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٦]، والَّذين من قبلنا هم الأنبياء السابقون، لا يهديكم

(١) سبق تخريجه صـ٤٠، بلفظ: «كلكم ضال إلا من هديته».

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سنن الأمم الَّتي ضلت مثل المجوس الَّذين أباحوا زواج الأمهات، أباحوا للرجل أن يتزوج أمه، وبالتالي يتزوج خالته وعمته وهكذا.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾، أي: ممَّا كانوا يفعلونه في الجاهليَّة، بعض الأشياء كانت تُفعل في الجاهليَّة يقول عنها القرآن: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾، في أيام الجاهليَّة، ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء: ٢٢]، ومثل الجمع بين الأختين، ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء: ٢٣]، ما سلف وفات ممَّا كان في الجاهليَّة فهو معفوٌّ عنه؛ لأنَّه لا تكليف قبل البعثة، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، فما كان قبل إرسال الرسول لا يؤخذ النَّاس به.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧]، فمن تتبعون؟ تتبعون الله العليم الحكيم الَّذي لا يشرع شيئًا إلَّا لحكمة البر بكم، فهو ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧]، لهذا شرع لكم الزواج، شرع النكاح وحرم السفاح، فهل تسيرون على منهج الله أم على منهج المتحللين الَّذين يريدون ألَّا يبقى النَّاس على أي فضيلة ولا يستمسكوا بأي أخلاق كريمة؟ طبعًا لا بدَّ أن يكون جوابنا أنَّنا نريد أنَّ الله الَّذي يريد أن يتوب علينا، وأن يزكي أنفسنا، وأن يطهر حياتنا من الرجس.

ثم قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، ولذلك أباح بعض الأشياء مثل أن يتزوج الإنسان الأمَة،

QaradawiBooks.com

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]، لذلك قال في ختام هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥]، ولكن لأن الله يعلم قوَّة الغريزة الجنسيَّة وضعف الإنسان أمامها فشرع لنا هذا النوع من الزواج، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

الآية الأولى من المُبَشِّرات:

الآية الأولى من المُبَشِّرات الخمس كما رآها سيِّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، تخفيف عظيم، هناك كبائر وهناك صغائر، إذا اجتنبتَ الكبائر خشية من حساب الله وعقابه واقترفت الصغائر يكفر الله عنك هذه الصغائر بسبب اجتنابك للكبائر.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ من الصغائر ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وهذه نعمة عظيمة، لأنَّ الصغائر هذه لا يكاد يخلو منها الإنسان، لا يكاد يخلو الإنسان من نظرة إلى امرأة أجنبية، لا يكاد يخلو الإنسان من أن يستمع في مجلس من المجالس إلى غيبة أو نميمة، لا يخلو الإنسان من أنَّه يتكلم ببعض الكلمات السيِّئة، لا يخلو أن يعمل بجوارحه، لا يخلو من أن يفتح التلفزيون ويرى منظرًا سيئًا، الحياة مليئة، فهذه تعتبر من صغائر السيئات، إذا اجتنبت الكبائر وتركتها لله عز وجل، ولكن وقعت في الصغائر الله يكفر هذه الصغائر، أيُّ تخفيف من الله مثل هذا التخفيف؟

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

عن ابن مسعود، أنَّ رجلًا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبيَّ ﷺ، فأخبره فأنزل الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: يا رسولَ الله، ألي هذا؟ قال: «**لجميع أُمَّتي كلِّهم**»(١).

الآية الثانية من المُبَشِّرات:

والآية الثانية من المُبَشِّرات الخمس في سورة النساء: قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]، الله ﷻ لا يظلم أحدًا بحيث يحمله ذنب غيره، أو يضيع عليه أجر عمل صالح عمله، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه: ١١٢]، لا يخاف ظلمًا بأنَّه يحمل وزر الآخرين، ولا يخاف أيضًا هضمًا لحقه ومثوبته على الحسنات الَّتي فعلها لله ﷻ، فالله ﷻ لا يضيع عنده عمل عامل، وخصوصًا الحسنات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

الآية الثالثة من المُبَشِّرات:

والآية الثالثة من المُبَشِّرات: قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ إن مات عليه ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دون الشرك وإن كان كبيرة مع عدم التوبة ﴿لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

جاء في الحديث: «**الظلمُ ثلاثةٌ: فظلمٌ لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه الله، فأمَّا الظلم الَّذي لا يغفره الله فالشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾** [لقمان: ١٣]، **وأمَّا الظلم الَّذي يغفره الله فظلم**

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٣).

QaradawiBooks.com

العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربِّهم، وأمَّا الظلم الَّذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضًا حتَّى يَدِين لبَعْضِهم من بعض»[1].

فالذنب الَّذي لا يغفره الله هو الشرك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأمَّا الذنب الَّذي لا يُبالي الله به فهو الَّذي يكون بين الإنسان وربِّه، والذنب الَّذي لا يتركه الله فهو الذنب المتعلِّق بحقوق العباد؛ لأنَّ العباد يأتون يوم القيامة مطالبين بحقوقهم، لا أحد يسامح في حقه، يقول: لعلَّ ميزان حسناتي يتوقف على حسنة، فلماذا أتركها لأبي أو لأُمِّي أو لأخي أو لأختي؟! أنا لا أتنازل عن حقِّي، لا يتنازل أحدٌ لأحدٍ أبدًا يوم القيامة، ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [لقمان: ٣٣].

الآيتان الرابعة والخامسة من المُبَشِّرات:

والآيتان الرابعة والخامسة من المُبَشِّرات فهما: قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠]، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾ يرتكب كبيرة ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ بصغيرة ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ يقول: ربِّ اغفرْ لي ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، المهمُّ أن يستغفر الله، أن يسارع للاستغفار، يقول إبليس: أهلكتُ بني آدم بالذنوب فأهلكوني بالاستغفار.

فأنت عليك بالاستغفار، داوم على الاستغفار كما كان النبيُّ ﷺ

(١) رواه البزار (٦٤٩٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣٧٩): رواه البزار عن شيخه: أحمد بن مالك القشيري ولم أعرفه، وبقية رجاله قد وثقوا على ضعفهم. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦١)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

يستغفر الله في المجلس الواحد مائة مرَّة، يقول: «**ربِّ اغفرْ لي وتبْ عليَّ، إنَّك أنت التوَّاب الرحيم**»(١)، تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبيُّ ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك اللهمَّ اغفرْ لي**» يتأول القرآن(٢). أي: يتأوَّل قول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

استغفر الله دائمًا، أكثر من الاستغفار، الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، هناك أمانان لأهل الأرض: الأمان الأوَّل وجود رسول الله ﷺ، فإذا لم يكن رسول الله فهناك الاستغفار، وهذا هو الأمان الدائم، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

استغفار الأنبياء:

والأنبياء علَّمونا الاستغفار، سيِّدُنا نوح يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وسيِّدنا إبراهيم يقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وسيِّدنا موسى يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١]، والنبيُّ ﷺ وردت عنه صيغ من الاستغفار عجيبة، منها قوله: «**اللهمَّ اغفرْ لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منِّي، اللهمَّ اغفرْ لي هزلي وجِدِّي، وخطئي وعمدي، وكلُّ ذلك عندي**»(٣).

---

(١) رواه أحمد (٤٧٢٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الصلاة (١٥١٦)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٨١٤)، عن ابن عمر.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨١٧)، ومسلم في الصلاة (٤٨٤).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٩)، ومسلم في الذكر (٢٧١٩)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

ومنها قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١). مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ يقول: «**اغفرْ لي هزلي وجِدِّي، وخطئي وعمدي، وكلُّ ذلك عندي**»، لا تقل أنا ما عندي شيء، إذا كان رسولك الأعظم ﷺ يقول لربه: «**وكل ذلك عندي**»، فكلُّنا في حاجة إلى الاستغفار.

وإذا استغفرت من قلبك فإنَّ الله غفور رحيم، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، انظرْ إلى كلمة: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليس فقط يغفر له، بل يجد الله، كأنَّه كان بعيدًا عنه ثمَّ وجده، ووجده غفورًا رحيمًا.

مُبَشِّرات أخرى:

ومن المُبَشِّرات في سورة النساء قول الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، الله تعالى لا يشتهي تعذيبكم، بل هو يريد أن يرحمكم، يريد أن يخفِّف عنكم، يريد أن يتوب عليكم، رحمته وسعت كل شيء، وهو واسع المغفرة، وهو أرحم الراحمين، وهو أرحم بكم من الوالدة بولدها.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، اشكروا الله وآمنوا بالله، ولن تجدوا إلَّا رحمة الله، وإلا رضوان الله، وإلا مغفرة الله ﷻ، وإلا فضل الله الواسع، في بعض الآثار الإلٰهيَّة الواردة وإن لم ترد بسند صحيح يقول الله:

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأحمد (٨٠٣)، عن علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

«إنِّي والإنسَ والجنَّ في نبأٍ عظيم، أخلق ويُعْبَد غيرى، أرزق ويَشْكُر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إليَّ صاعد، أتودَّد إليهم بالنعم وأنا الغنيُّ عنهم! ويتبغضون إليَّ بالمعاصي وهم أفقر ما يكونون إليَّ، أهل ذكري أهل مُجالستي، من أراد أن يُجالسني فلْيذكرني، أهل طاعتي أهل محبَّتي، أهل معصيتي لا أُقَنِّطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، وإن أبوا فأنا طبيبُهم، أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من المعايب، من أتاني منهم تائبًا تلقَّيْته من بعيد، ومن أعرض عنِّي ناديته من قريب، أقول له: أين تذهب؟ ألك ربٌّ سواي، الحسنةُ عندي بعشَرةِ أمثالها أو أزيد، والسيِّئة عندي بمثلها أو أعفو، وعزَّتي وجلالي لو استغفروني منها لغفرتها لهم»[1].

انظروا إلى أيّ حدٍّ، وقد جاء في الحديث الصحيح قال ﷺ: **«يقول الله: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليَّ بشبر تقرَّبت إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»**[2].

ابدأ أنت وتجد المقابلة والجزاء من الله أعظم بكثير من بدايتك بأضعاف مضاعفة، هذا كله من فضل الله تبارك وتعالى، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، لذلك يفرح الله تعالى بتوبة عبده إذا تاب إليه، يفرح به كما جاء في

(١) سبق تخريجه صـ٣٣٢، بلفظ: «الحسنة عندى بعشرة أمثالها أو أزيد».

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الحديث الصحيح: قال ﷺ: «**للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة، فانفلتتْ منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلِّها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثمَّ قال من شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدَّة الفرح**»[(١)].

فالله ﷻ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من هذا براحلته، لأنَّه رجع إليه وأقبل عليه بعد أن شرد عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

هذه هي الآيات المُبَشِّرات كما رآها رجل القرآن سيِّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الَّذي قال عنه النبي ﷺ: «**من سرَّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فلْيقرأْه على قراءة ابن أمِّ عبد**»[(٢)]. وابنُ أمِّ عبد هو سيِّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٩) مختصرًا، ومسلم في التوبة (٢٧٤٧)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٤٢٥٥)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح بشواهده. وابن ماجه في المقدمة (١٣٨)، عن ابن مسعود.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس السادس
النهي عن أكل أموال النَّاس بالباطل وعن قتل النفس

نقف الليلة مع أوَّل نداء في سورة النساء للجماعة المؤمنة، وهو قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

هذه السورة الكريمة بدأت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [النساء: ١]، وتكرَّر فيها هذا النداء الإلٰهي للجماعة المؤمنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عدة مرات، وأوَّل نداء للجماعة المؤمنة هو هذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

هذه الآية الكريمة جاءت تحافظ على الأموال وعلى الأنفس، تحافظ على الأموال فتقول: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾، وتحافظ على الأنفس فتقول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، لا يأكل بعضكم مال بعض، ولا يسفك بعضكم دماء بعض، فالإسلام ينظر للمجتمع على أنَّه فرد واحد، ولذلك اختارت الآية التعبير بـ «أموالكم» و«أنفسكم»، ليشعر كلُّ فرد في المجتمع أنَّ عليه أن يحافظ على مال غيره كما يحافظ على ماله، وأن يحافظ على نفس كلِّ فرد فيه كما يحافظ على نفسه.

نسخة مجانية

فالأُمَّة المسلمة متكافلة متضامنة في حقوقها ومصالحها وأنفسها وأموالها، فمن أضاع مال غيره فكأنَّما أضاع مال نفسه، أو أضاع مال المجتمع كلِّه، ومن اعتدى على نفس أخيه بالقتل فكأنَّما قتل نفسه، أو اعتدى على الجماعة كلها، كما قال القرآن: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

فما أروع هذا القرآن وأبلغ إعجازه، حيث يشير بعبارة أو جزء من عبارة إلى حقيقة كبيرة، أو مبدأ عظيم، أنَّ المجتمع المسلم وحدة متضامنة في كل شيء، كأنَّه يقول: إن مال الآخرين هو مالكم في الحقيقة، ومال كل فرد منكم، هو مال المجتمع كله في الواقع.

﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾، المسلم مقيد في حياته كلها بما أحلَّ الله له، فهو ليس «سائبًا» يفعل «ما يشتهي»، بل هو منضبط يفعل «ما ينبغي»، فإذا أخذنا الأكل مثلًا، فهو لا يأكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير، ولا يأكل من اللحم إلَّا ما ذُبِح ذبحًا شرعيًّا، أمَّا ما لم يذبح، أو ﴿ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أو ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ فلا يحل للمسلم أكله.

وكذلك لا يحل له أن يأكل طعامًا غُصِب من صاحبه الشرعي، أو سُرق أو أُخذ بالباطل، كما لا يحل له أن يأكل طعام امرئ بغير طيب نفس منه، والوعيد في ذلك شديد، فكل جسد نبت من سحت، فالنار أولى به.

الكسب الَّذي يرحِّب به الإسلام، ويعترف بآثاره، هو الكسب الطيِّب المشروع، أمَّا الكسب الخبيث فقد حظره الإسلام، الَّذي جاء يُحلُّ

QaradawiBooks.com

الطيِّبات ويُحرِّم الخبائث، والكسب الخبيث: ما جاء عن طريق الظلم، وأخذ مال الغير بغير حق، كالغصب، والسرقة، والغش، وتطفيف الكيل والميزان، والاحتكار، واستغلال حاجة المجتمع، وبخس النَّاس أشياءَهم، ونحوها. أو كان بغير مقابل من جهد أو مشاركة، كالربا والقمار ـ ومنه اليانصيب ـ ونحوها.

أو كان عوضًا لعَيْن محرّمة كثمن الخمر، والخنزير، والأصنام، والتماثيل، والأواني والتحف المحرّمة، والكلاب الممنوعة، ونحوها، أو كان عوضًا لمنفعة غير معتبرة شرعًا، كأجور الدجّالين من العرّافين والكهان والمنجمين، وكتبة الربا، والعاملين في الحانات والمراقص والملاهي المحرّمة، ونحوها.

ومِنْ أكل أموال النَّاس بالباطل: أخذ الرشوة، وهي ما يُدفع من مال إلى ذي سلطان أو وظيفة عامَّة، ليحكم له أو على خصمه بما يريد هو أو ينجز له عملًا أو يؤخر لغريمه عملًا، وهلم جرا، وقد حرَّم الإسلام على المسلم أن يسلك طريق الرشوة للحكام وأعوانهم، كما حرَّم على هؤلاء أن يقبلوها إذا بُذلت لهم، وحظر على غيرهم أن يتوسطوا بين الآخذين والدافعين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، والإسلام يُحرِّم الرِّشوة في أي صورة كانت، وبأي اسم سُمِّيت، فتسميتها باسم «الهدية» لا يخرجها من دائرة الحرام إلى الحلال، وفي الحديث: «**من استعملناه على عمل فرزقناه رزقًا** ـ منحناه راتبًا ـ **فما أخذه بعد ذلك فهو غلول**»[(١)].

(١) رواه أبو داود في الخراج والفيء (٢٩٤٣)، وابن خزيمة (٢٣٦٩)، والحاكم (٤٠٦/١)، كلاهما في الزكاة، وصحَّحه، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤٦٠)، عن بريدة.

QaradawiBooks.com

الإسلام لا يبيح لأبنائه أن يكتسبوا المال كيفما شاؤوا، وبأيّ طرق أرادوا، بل هو يفرق لهم بين الطرق المشروعة وغير المشروعة لاكتساب المعاش، نظرًا إلى المصلحة الجماعيَّة، وهذا التفريق يقوم على المبدأ الكلي القائل بأن جميع الطرق لاكتساب المال الَّتي لا يحصل المنفعة فيها لفرد إلَّا بخسارة غيره غير مشروعة، وأنَّ الطرق الَّتي يتبادل فيها الأفراد المنفعة فيما بينهم بالتراضي والعدل مشروعة، وهذا المبدأ بيَّنته هذه الآية: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾، فقد شرطت هذه الآية مشروعية التجارة بأمرين:

الأول: أن تكون هذه التجارة عن تراض بين الفريقين.

الثاني: ألَّا تكون منفعة فريق قائمة على خسارة الفريق الثاني.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، هناك تفسيران لقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾:

التفسير الأوَّل: لا تقتلوا أنفسكم بالانتحار، لا يقتل الواحد منكم نفسه بأن ينتحر، فهذا من أكبر المحرمات في الإسلام، فنفس الإنسان ليست ملكًا له، وإنَّما هي ملك دينه وأُمَّته، فهي وديعة عنده، إنَّه لم يخلقها، الله هو الَّذي خلقها ووهبها إياه، فهو حافظها، وهو أمين عليها، لا يحل له التفريط فيها، أو التصرف فيها بالقتل أو الانتحار، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وفي الحديث الصحيح: «**من تردَّى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردَّى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسَّى سُمًّا فقتل نفسه، فسُمُّه في يده يتحسَّاه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه**

QaradawiBooks.com

بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»[١].

ومن فعل ذلك فله عذاب عظيم، كما جاء في الآية الَّتي بعدها: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وكذلك لا يحل للمسلم أن يتناول أي طعام أو أي مادة يضره تناولها؛ لأنَّه ليس ملك نفسه، والإضرار بنفسه حرام، لأنَّه قتل بطيء لها، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وقال الرسول ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٢]. أي لا تضروا أنفسكم، ولا تضاروا غيركم.

ومن هنا كانت القاعدة العامَّة المقرَّرة في شريعة الإسلام، وهي: أنَّه لا يحل للمسلم أن يتناول من الأطعمة أو الأشربة شيئًا يقتله بسرعة أو ببطء ـ كالسُّم بأنواعه ـ أو يضره ويؤذيه، ولا أن يُكثر من طعام أو شراب يُمرِض الإكثار منه.

ووفقًا لهذا المبدأ قلنا: إن تناول التبغ «الدخان» وملحقاته حرام بلا شك، ما دام قد ثبت أنَّه يضر بمتناوله، وخاصَّة إذا قرر ذلك طبيب مختص بالنسبة لشخص معين، ولو لم يثبت ضرره الصحِّي لكان إضاعة للمال فيما لا ينفع في الدِّين أو الدُّنيا، وقد نهى النبيُّ ﷺ عن إضاعة المال، ويتأكَّد النهي إذا كان محتاجًا إلى ما ينفقه من مال لنفسه أو عياله.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٠٩)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه صـ٣٨١.

QaradawiBooks.com

ومن باب أولى المخدِّرات الَّتي هي بمنزلة السموم، فالتحريم في الإسلام يتبع الخبث والضرر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والتفسير الثاني لقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: لا تقتلوا إخوانكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]، أي لا تلمزوا إخوانكم، لا يلمز بعضكم بعضًا، لا يعب بعضكم بعضًا، وأيضًا لا يقتل بعضكم بعضًا، قتل بعضكم بعضًا محرم، فهذا داخل أيضًا في النهي عن قتل النفس، وإنَّما سمَّى قتل الإنسان لأخيه الإنسان قتلًا لنفسه؛ لأنَّ المجتمع الواحد بمثابة نفس واحدة، بل المجتمع الإنساني كله بمثابة نفس واحدة، كما قال الله ﷻ: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ٣٢].

نسخة مجانية
غير مرخص للطباعة
QaradawiBooks.com

الدرس السابع
حقيقة القوامة ومعالجة النشوز

سنقف عدة وقفات مع هاتين الآيتين الكريمين اللتين استمعنا إليهما من كتاب الله ﷻ من سورة النساء من الجزء الخامس من أجزاء القرآن الكريم، وهما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ۞ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤، ٣٥].

الوقفة الأولى:

أنَّ القرآن الكريم عُني أبلغ العناية بأمر الأسرة، فلم يفصِّل في شأن من الشؤون ما فصَّله في شأن الأسرة، وخصوصًا في حالة المغاضبة والنشوز والخلاف المؤدي إلى الانفصال، اهتم القرآن بأمر الأسرة كما نرى ذلك واضحا في السور المطولة، مثل سورة البقرة، وسورة النساء، وفي السور الأخرى مثل سورة التحريم وسورة الطلاق، لأن الأسرة هي أساس المجتمع، هي الخلية الأولى، لا يصلح المجتمع إذا فسدت الأسرة، هذه وقفة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الوقفة الثانية:

والوقفة الثانية هي أن هذه المؤسسة الجليلة الَّتي ربط الله بين طرفيها الزوج والزوجة برباط متين سمَّاه القرآن ميثاقًا غليظًا، ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، وهو الوصف الَّذي وصف الله به النبوة، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، هذا الميثاق الغليظ المتين الَّذي يربط بين الرجل والمرأة يحرص الإسلام على أن يظل، وأن تظل الأسرة ولا تنهدم، ولهذا فصَّل أحكامها وجعل هناك مسؤوليَّة عن هذه الأسرة، فليس من الحكمة أن تبقى هذه المؤسسة بلا رئاسة ولا قيادة، فمن يقود الأسرة؟ إمَّا أن تُترك بغير قيادة وهذه هي الفوضى، وإما أن تُترك لكلا الطرفين كل منهما ينازع الآخر، وكما يقولون: المركب الَّتي فيها رئيسان لا بدَّ أن تغرق. وإما أن يكون أحدهما هو المسؤول، فمن الأولى بالمسؤوليَّة والقيادة الرجل أم المرأة؟

هنا جعل الله القيادة للرجل، وهذه هي الدرجة الَّتي ميَّز الله بها الرجل في الآية الأخرى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، هي درجة القوامة أي المسؤوليَّة، وهذه المسؤوليَّة ليست محاباة للرجل، لأن الأحكام الشرعيَّة في مجال الأسرة ليس فيها محاباة ولا تحيز ولا جور على أحد، لأن الَّذي شرعها هو رب الرجال والنساء جميعًا، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، لو كانت الأحكام من وضع الرجال لجاروا على النساء، أو من وضع النساء لَحِفْن على الرجال، ولكنَّها من وضع الله تعالى وشرعه، ولهذا علَّل الله هذه القوامة بأمرين، أمر فطري، وأمر كسبي، فالأمر الفطري هو ما فضل الله به بعضهم على بعض، أي أنَّ الله فضل كلًّا من الجانبين في ناحية على الجانب الآخر، فضل المرأة في

QaradawiBooks.com

جانب الأمومة، لهذا جهزها الله بجهاز عاطفي ملؤه الرحمة والحنان والرفق حتَّى تقوم بهذه المهمة الجليلة الَّتي لا يصبر عليها إلَّا من هُيئ مثل هذا التهيؤ لهذه المهمة الكبيرة، أمَّا الرجل فإن الله ﷻ آتاه القدرة على التدبر والنظر في عواقب الأمور، لا تغلبه العواطف كما تغلب المرأة، فكل منهما جهزته فطرة الله ﷻ بما يناسب وظيفته في الحياة، هذا هو الأمر الفطري.

أمَّا الأمر الكسبي فأنَّ الرجال هم الَّذين ينفقون في تأسيس الأسرة، الرجل يدفع الصداق للمرأة، ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [النساء: ٤]، وهو الَّذي يؤسس البيت ويقوم على النفقة في الحياة الزوجيَّة، ولهذا فإن الأسرة إذا انهدمت انهدمت على أم رأسه، فهو حريص على أن تبقى هذه المؤسسة، من أجل هذا جعل الله هذه القوامية للرجال، ليس محاباة لهم ولكن هذا هو العدل الَّذي يقتضيه توزيع الاختصاصات كل حسب ما هُيئ له، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء: ٣٤].

الوقفة الثالثة:

وهناك وقفة ثالثة وهي أن النساء صنفان: صنف قال الله فيه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، المرأة المطيعة لله، ثمَّ المطيعة لزوجها الحافظة لغيبه، الَّتي جاء عنها الحديث يقول: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرَّته، وإن أقسم عليها أبرَّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»[1].

(١) رواه ابن ماجه في النكاح (١٨٥٧)، والطبراني (٢٢٢/٨)، وضعف سنده العجلوني في كشف الخفاء وقال: له شواهد تدل على أن له أصلًا (١٨١/٢). عن أبي أمامة.

QaradawiBooks.com

هذه هي خير النساء حقًّا، والَّتي جاء فيها الحديث: «**إذا صلَّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنَّة من أيِّ أبواب الجنَّة شاءت**»(١).

هذه هي الصالحة القانتة الحافظة للغيب، الَّتي تستر أمور زوجها ولا تكشف أستار الزوجيَّة للنَّاس بما أمر الله تعالى بحفظه، فهي حافظة بحفظ الله، هذا صنف، وهذا لا كلام فيه.

إنَّما الكلام في الصنف الآخر، وهو الَّذي قال الله فيه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، المرأة الَّتي تَنْشِز، والنشوز الارتفاع، أي الَّتي ترفَّع على زوجها وتتمرَّد عليه، ولا تريد أن تعيش الحياة الزوجيَّة بسكينة ووقار، هذه هي المشكلة الَّتي تعكر صفو الحياة الزوجيَّة.

الله يريد أن تبقى الحياة الزوجيَّة على الأركان الَّتي ذكرها في آية سورة الروم: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، السكينة والمودَّة والرحمة هي دعائم الحياة الزوجيَّة كما يصوِّرها القرآن، ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، المرأة ستر للرجل والرجل ستر لها، كلٌّ منهما يعتبر سترًا وغطاء ووقاية ودفئًا وزينة لصاحبه، هذه هي الحياة الطبيعيَّة الزوجيَّة.

ولكن هناك حالات النشوز، حالات الترفُّع والتمرُّد من المرأة على زوجها، ماذا يفعل الزوج في هذه الحالة؟ أكلَّما يحدث شيء يشكو إلى النَّاس أو يذهب إلى المحكمة؟ لا، عليه أن يعالج الأمر علاجًا داخليًّا

(١) سبق تخريجه صـ٥٥٨.

QaradawiBooks.com

بحكمته ولباقته، هناك وسائل شرعها القرآن، هذه الوسائل متدرجة، يبدأ الرجل إذا رأى أمارات النشوز من المرأة بالوعظ، والوعظ أن يخاطب عقلها وقلبها بما يُرغِّبها في البقاء في الحياة الزوجيَّة، وما يحذرها من انهيار الأسرة، يخوفها سخط الله وعقابه وغضبه في الآخرة، ويخوفها فضيحة الدُّنْيا وكلام النَّاس، ويخوفها من انهدام هذه المؤسسة وخصوصًا إذا كان بينهما أطفال وأولاد لا ذنب لهم، ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

فإذا لم ينفع الوعظ تدرَّج إلى المرحلة التالية وهي الهجر في المضاجع أي: في مكان البيتوتة، أي على سرير الزوجيَّة ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤]، يُولِيها ظهره، يشعرها بأنَّه غاضب منها لعلَّها ترتدع، لعلَّها ترجع وتعود المياه إلى مجاريها، إذا لم ينفعها ذلك لجأ إلى وسيلة أخرى هي وسيلة المضطر، وآخر العلاج الكي، وكما قال الشاعر:

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْأَسِنَّةُ مَرْكَبٌ فَمَا حِيلَةُ الْمُضْطَرِّ إِلَّا رُكُوبُهَا[1]

إنَّها وسيلة الضرب، ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، والضرب ليس علاجًا عامًّا لكل النساء ولا من كل الرجال، إنَّما قد يصلح لبعض النساء في بعض المراحل في بعض الحالات، وقلَّما يلجأ إليه الرجل الكريم، ولذلك قال النبي ﷺ بعد أن رخص في ضرب النساء «**ليس أولئك بخيارِكم**»[2]، «**ولن يضربَ خيارُكم**»[3].

---

(١) البيت لكميت بن يزيد، كما في جمهرة أشعار العرب صـ ٧٩٠، تحقيق علي محمد البجادي، نشر نهضة مصر، القاهرة.

(٢) سبق تخريجه صـ٥٦١، بلفظ: «لا تجدون أولئك خياركم».

(٣) سبق تخريجه صـ٥٦١.

QaradawiBooks.com

ولذلك كان النبيُّ ﷺ هو الأسوة للمؤمنين، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فما ضرب بيده شيئًا قط، ما ضرب امرأة، ولا ضرب خادمًا، ولا ضرب دابة، فالضرب لا يلجأ إليه الخيار الكرام من النَّاس، ولكن يلجأ إليه بعض النَّاس أحيانًا للضرورة، وما أبيح للضرورة يُقَدَّر بقدرها، وقد قال العلماء: إنَّما يباح ذلك ـ والأمر هنا للإباحة وليس للوجوب ولا للاستحباب ـ إذا كان ذلك لا يعتبر إهانة للمرأة ولا إيذاء لها.

في بعض البيئات يستساغ ذلك، في البوادي وفي بعض البيئات يمكن أن يستساغ ضرب المرأة، إنَّما في البيئات المتحضرة والمرأة المتعلمة والمثقفة لا يُتصور من الرجل أن يضرب أستاذة أو موجهة أو طبيبة، لا يُتصور ذلك.

لكن بعض النِّساء قد ينفع معها الضرب أحيانًا فيُلجأ إليه، وإذا ضرب فلا يضرب ضربًا مُبَرِّحًا، لا يكسر عظمها، لا يكون جلَّادًا يمسك بالسوط أو بالعصا الغليظة ويكسر رأسها، ليس هذا هو الضرب، إنَّما الضرب كما قال النبي حينما أغضبته إحدى الجواري: «**لولا القِصاصُ لضربتُكِ بهذا السواك**»[1]. هذا نوع الضرب الَّذي يُقال هنا، وليس بسوط، وليس بخشبة، وليس بعصا غليظة، ليس هذا هو الضرب الَّذي يُقصد، ولا يضرب الوجه.

هذه وسيلة يُلجأ إليها عند الضرورة، وقد قال الإمام عطاء بن أبي رباح الفقيه التابعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرجل لا يضرب المرأة ولكن يغضب عليها. قال الإمام ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن»: وهذا من فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفهمه

(١) سبق تخريجه صـ٥٦٠.

QaradawiBooks.com

لشـــريعة الله ﷻ[١]. أي أنَّه رأى أنَّ الضرب للإباحة، ولكن جاءت أشـــياء أخرى تفيد الكراهية، مثل قول النبي ﷺ: «**لا يجلـــدُ أحدُكم امرأتَه جلدَ العبد، ثمَّ يجامعُها في آخر اليوم**»[٢]. أي أنَّ الضرب لا يليق بحياة زوجيَّة مثالية، فكأنَّ في ذلك نوعًا من الكراهية لمسألة الضرب، فهذه ضرورة.

﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤]، أي: إذا استجابت المرأة لمرحلة من هذه المراحل ولوســـيلة من هذه الوســـائل فلا يلجأ إلى ما بعدها، وفي آخر الوسائل لا يلجـــأ إلـــى شـــيء آخـــر، ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النســـاء: ٣٤]، لا يتطاول عليها ولا يعتـــدي عليها بالطـــلاق وتهديم هذه الأسرة؛ لأنَّ أبغض الحلال إلى الله الطلاق، وقد جعل القرآن التفريق بين المرء وزوجه من عمل الســـحرة الكفرة، وهو مـــن الكبائر، ومن أعظم ما يرضي إبليس اللعين التفريق بين المرء وزوجه.

ثم ذكر القرآن هنا وقفة أخرى، إذا لم تُجْد هذه الإجراءات الداخلية فماذا يفعل؟ هل يظل المجتمع مكتوف اليدين وهو يرى الأســـرة تنهار بين يديه؟ عليـــه أن يتدخل، وهنا يقـــول الله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥].

على المجتمع أن ينشـــئ محكمة عائليَّة، تتكوَّن من رجلٍ ثقة من أهل الزوج يرتضيه الزوج، ورجل ثقة من أهـــل الزوجة ترتضيه الزوجة، هذان الحكمان عليهما أن يبحثا في ســـبب الخلاف ويحاولا العلاج بصدق نيَّة

(١) أحكام القرآن (٥٣٦/١)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشـــر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

(٢) سبق تخريجه صـ٥٦٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وبقوَّة إرادة، ومن لطائف القرآن أنَّه ذكر هنا الجانب الإيجابي ولم يذكر الجانب السلبي، قال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، ولم يذكر جانب التفريق، لأن القرآن يغلب جانب الخير من باب التفاؤل دائمًا.

وقد بعث عمر رضي الله عنه رجلين ليحكما في زوجين مختلفين، ثمَّ عادا ولم يفعلا شيئًا، فنهرهما عمر وقال: أصلِحا نيَّتَكما وعُوْدَا. فرجعا بنيَّة جديدة وإرادة جديدة، وحاوَلَا ووفِّقا، فجاءا إليه وقالا: وفَّق الله بينهما يا أمير المؤمنين ورجع كل منهما إلى صاحبه. قال عمر: صدق الله العظيم: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥][1].

إنَّ الأسرة عزيزة على الإسلام، لا يحبُّ الإسلام للأسرة أن تنهار، وهذا التحكيم هو مخرج من المخارج للمرأة المسلمة، بعض النَّاس يقول: الرجل أُعطي الطلاق فماذا أُعطِيت المرأة؟ فنقول: أُعطِيت المرأة هذا التحكيم، سواء اعتبرنا الحكمين وكيلين أو اعتبرناهما حكمين كما يرى ذلك بعض الفقهاء وكما ذهب إلى ذلك بعض الصحابة، لأنَّ سيِّدنا عليًّا بعث الحكمين وقال: إن شئتما أن تجمعا فاجمعا، وإن شئتما أن تُفرِّقا ففرِّقا. أعطاهما سلطة قضائية، وهناك الخلع، تستطيع المرأة أن تفدي نفسها بالخلع، وهناك التطليق للضرر، والتطليق للإعسار في النفقة، والتطليق لغير ذلك، فإن المرأة لا يجوز أن يظلمها الرجل ويبقى المجتمع الإسلامي صامتًا متفرجًا.

هذه هي الأسرة الَّتي يريدها الإسلام، يريدها أن تستمر على السكينة والمودة والرحمة، فإن حدث نشوز فلا بدَّ من اتخاذ الوسائل في العلاج، فإن لم تُجْدِ هذه الوسائل فإن المجتمع المسلم يتدخل للإصلاح، ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤٩/٢).

QaradawiBooks.com

الدرس الثامن
الحقوق العشرة(١)

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

هذه الآية يُسمِّيها العلماء: آية الحقوق العشرة، فقد اشتملت على عشرة حقوق، حقِّ الله، وحقِّ تسعة من عباده، ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، **فأوصت الآية** بهذه الحقوق كلها، وجعلتها بعد عبادة الله ﷻ وتوحيده وعدم الإشراك به.

حقُّ الأقرباء:

بعد حقِّ الوالدين يأتي حقُّ ذي القربى، كما نجد هنا في هذه الآية: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]، وكما في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ

(١) راجع كتابنا: أدب المسلم مع الله تعالى والنفس والناس والحياة، فقد فصلت فيه الحديث عن هذه الحقوق.

QaradawiBooks.com

ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، فيعطف القرآن الأمر بالإحسان إلى «الأقربين» على الأمر بالإحسان إلى «الوالدين».

فذوو القربى، وأولو القربى، والأقربون، وأولو الأرحام، كلُّها تعبيرات عن شيء واحد، وهم من تجمعك بهم قرابة، من نسبٍ أو مصاهرة.

هؤلاء لهم حقوق في الإسلام، والله تعالى قد وصَّى بهم، وحذَّرنا أن نقطع الأرحام، فبعد أن أمرنا بتقواه أمرنا أن نتقي الأرحام أن نقطعها، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

فالأقربون أولى بالمعروف، كما تقرَّر عند المسلمين، هؤلاء لهم حقوق يجب أن تُرعى، حتَّى وإن آذوك، وإن أساؤوا إليك، فقد سئل النبي ﷺ عن أفضل الفضائل فقال: «**أن تصل من قطعك، وتعطي من منعك، وتصفح عمَّن شتمك**»[(١)].

وقال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ الصَّدَقَةُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ**»[(٢)]، وهو الَّذي يضمر لك العداء في كشحه أي باطنه، فالصدقة عليه أفضل، وفي الحديث الآخر: «**إنَّ الصدقةَ على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثِنْتان: صدقةٌ، وَصِلَة**»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٨١.

(٢) رواه أحمد (٢٣٥٣٠)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والطبراني (١٣٨/٤)، والأوسط (٣٢٧٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١١١٠)، عن أبي أيوب الأنصاري.

(٣) سبق تخريجه صـ٢٨٠.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

وأكد الإسلام على صلة الرحم أشدَّ التوكيد، وجعلها من ثمرات الإيمان ولوازمه، يقول النبيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١).

والشاعر العربي قديمًا(٢) قال يفخر بصلته بأقاربه، وأنَّه لا يجزي السوء بالسوء:

يُعَاتِبُنِي فِي الدَّيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا ... دُيُونِي فِي أَشْيَاءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدَا
أَسُدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخَلُّوْا وَضَيَّعُوا ... ثُغُور حقوق ما أطاقوا لها سدَّا
وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي ... وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدَّا
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ ... وَإِنْ هُمْ هَوَوْا غَيِّي هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدَا
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي ... زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا
وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُو ... وَلَيْسَ كَبِيرُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا
لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان المسلم، لا يحقد على أقاربه مهما أساؤوا إليه، صحيح ظلم الأقارب شديد على النفس، كما قال طَرَفَةُ بن العبد في معلَّقته:

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ(٣)

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١٣٨)، عن أبي هريرة.

(٢) هو المقَنَّع الكِنْدِيُّ، انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي (٣٧/٢)، نشر دار القلم، بيروت، وأمالي القالي (٢٨١/١)، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، نشر دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.

(٣) انظر: ديوانه صـ ٢٤، شرح مهدي محمد ناصر الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

ولكن مع هذا لهم حقهم، وينبغي على المسلم أن يحاول استلال أضغانهم وأحقادهم بحسن المعاملة، فالإنسان أسير الإحسان.

غير مرخصة للطباعة

حقُّ اليتامى والمساكين:

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الَّذين مات آباؤهم وهم دون سنِّ البلوغ، وذلك بإيوائهم والعطف عليهم.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الَّذين يتعرَّضون للعطاء، ويسألون الصَّدقة، وذلك بكفالتهم وسدِّ حاجتهم.

حقُّ الجار:

ومن هذه الحقوق: حق الجار على جاره، وهناك وصيتان تتعلقان بالجار: الجار ذو قربى، والجار الجنب.

والجار ذو القربى هو الجار القريب من الإنسان، إمَّا القريب في النسب، بينك وبينه رحم أو مصاهرة، ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ذو القرابة؟ أي ابن عمك ابن عمتك ابن خالك ابن خالتك، من قبيلتك، هذا جار ذو قربى، وهذا هو الأوضح، وإما القريب في المكان.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، هو الجار البعيد، سواء كان بعيدًا نسبًا، أي: ليس من عائلتك، أو بعيدًا عنك بمعنى ليس جارًا ملاصقًا لك، فالإسلام لم يجعل الحق للجار الملاصق فقط، بل جعل للجار البعيد حقًّا، حتَّى إن بعضهم قال: ألا إن أربعين بيتًا جار، وبعضهم قال: ليس فقط أربعون بيتًا من كل ناحية هو جارك، لا، بل من كل جانب أربعون بيتًا، فأربعون من كل ناحية يعني يكون مائة وستون بيتًا، النَّاس يقولون: النبي وصى على سابع جار. ولكن هذا لم يرد عن النبيِّ ﷺ، إنَّما الَّذي ورد هو التوصيَّة

QaradawiBooks.com

بالجيران، قالت عائشة رضي الله عنها للنبيِّ ﷺ: يَا رَسُول اللهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «**إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا**»[1]. فإذا كان لك جاران وعندك شيء تريد أن تهديه ولا تستطيع أن تهدي للاثنين فلمن تهدي؟ قال: إلى أقربهما منك بابًا، الَّذي بابه أقرب منك هو أحق، وفي المرة القادمة أعط الجار الَّذي بعده.

الإسلام حضَّ على حق الجار وإن ظلم وجار، النبي ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتَّى ظننتُ أنَّه سيُوَرِّثه**»[2]. من كثرة الوصيَّة بالجار والإلحاح والتكرار ظنَّ النبي ﷺ أنَّ الجار سيرث الجار، لأن الإسلام يريد أن يعيش النَّاس في المجتمع في حياة طيبة مطمئنة متعاونة متضامنة، وأقرب شيء إلى الإنسان جاره، هو الَّذي يسعفك عند الخطر، ويعينك عند الشدة، قد يكون لك أخ أو قريب ولكنَّه بعيد عنك، لكن من الَّذي يعينك عند الخطر؟ لا شكَّ أنَّه جارك، ولذلك أوصى القرآن بالجار.

قال العلماء: الجيران ثلاثة، جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، الجار الَّذي له ثلاثة حقوق هو: الجار القريب المسلم، له حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام، والجار الَّذي له حقان هو: الجار المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، والجار الَّذي له حق واحد هو: الجار غير المسلم، له حق الجوار، فالجار له حق ولو كان غير مسلم، وقد ورد أن عبد الله بن عمرو ذُبحت له شاة في أهله، فلمَّا جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتَّى ظننت أنَّه يورثه**»[3].

---

(١) رواه البخاري في الشفعة (٢٢٥٩)، عن عائشة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥)، عن ابن عمر.

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥١٥٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣)، وقال: حسن غريب. =

QaradawiBooks.com

والإسلام وصَّى بهؤلاء الجيران الثلاثة، وصَّى بالجار ذي القربى، والجار الجنب، وصَّى بالجار ونهى عن إيذائه ولو كان هذا الجار غير مسلم، واعتبر إيذاء الجار وظلمه من أشد المحرمات، وقال النبي ﷺ لأصحابه: «**ما تقولون في الزنى؟**» قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، قال: فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**لأن يزني الرجل بعشرة نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**»، قال: فقال: «**ما تقولون في السرقة؟**» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره**»[1]. الجار ينبغي أن يكون حارسًا على جاره، إنَّما ـ للأسف ـ أوَّل ما يتعلم الجار المغازلة يتعلم في امرأة جاره، أوَّل ما يتعلم السرقة يسرق من جاره، أو يساعد على السرقة، النَّاس يقولون: ما في حرامي إلَّا بدسيسة، يعني لا يدخل الحرامي بيتا إلَّا أن يدله أحد الجيران، فالمفروض أن تكونَ أنتَ حارس جارك.

وقد قال عنترة بن شداد العبسي وكان من فرسان الجاهليَّة وشعرائها:

أَغْشَى فَتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا ... فَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا
وَأَغُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا[2]

= والبخاري في الأدب المفرد (١٠٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٨)، عن عبد الله بن عمرو.

(١) رواه أحمد (٢٣٨٥٤)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده جيد. والبخاري في الأدب المفرد (١٠٣)، والبزار (٢١١٥)، والطبراني (٢٥٦/٢٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٨/٨): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات. عن المقداد بن الأسود.

(٢) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي صـ ٢٠٨، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

يقول: أذهب لزيارة فتاة الحيِّ عندما يكون زوجها موجودًا، أمَّا إذا ذهب مع الجيش للغزو لا أذهب إليها، لأنَّها ريبة، وإذا ظهرت لي جارتي أغضُّ طَرْفي وأطأطئ رأسي، ولست أُحِدّ النظر إليها، هذه أخلاق فرسان الجاهليَّة، فكيف بالإسلام وقد حضَّنا على حقوق الجار والإحسان إلى الجار، وقال النبيُّ ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ جاره**»[(١)]. وقال: «**من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ فلا يؤذِ جاره**»[(٢)].

وأكثر من ذلك أنَّه لا يكتفي بأنَّك لا تؤذيه، بل عليك أن تصبر على أذاه، ولذلك لما جاء النبيَّ ﷺ رجل يشكو إليه أذى جاره، قال له: «**اذهبْ فاطرحْ متاعك في الطريق**». فأخرج الرجل متاعه فوضعه على الطريق، فجعل كل من مرَّ عليه يقول: ما شأنك؟ فيقول: إنِّي شكوت جاري إلى رسول الله ﷺ فأمرني أن أُخرج متاعي فأضعه على الطريق، فجعلوا يقولون: اللهمَّ العنه، اللهمَّ أخْزِه. فبلغ ذلك الرجل، فأتى جاره قال له: ارجعْ فوالله لا أوذيك أبدًا، ارجعْ لا ترى منِّي شيئًا تكرهه[(٣)].

كان هذا العلاج الَّذي وصفه النبي ﷺ سببًا في صلاح الأمر، وعودة الجار إلى الرشد والخير، فالجار له حق عظيم، وينبغي للمسلم أن يرعى حقوق جاره، ليرعى هؤلاء الجيران حقَّه أيضًا، لأنَّ الحقوق متبادلة، وكل حقٍّ يقابله واجب.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، ومسلم في الإيمان (٤٨)، عن أبي شريح العدوي.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥١٥٣)، وابن حبان في البر والإحسان (٢٧٨/٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي. والحاكم (١٦٦/٤)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٩٢): حسن صحيح. عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وإذا كان للإنسان جار مسيحي أو جار غير مسلم، فينبغي أن يحسن إليه، لأن مكارم الأخلاق في الإسلام لجميع النَّاس، مكارم الأخلاق ليست للمسلمين دون غيرهم، لا، نحن لسنا كاليهود الَّذين قالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، نحن نعامل النَّاس جميعًا سواء، ولذلك الحرام حرام على الجميع، والحلال حلال على الجميع، ومكارم الأخلاق للجميع، فصدورنا تتسع للمسلم وغير المسلم، بل المفروض أنَّنا بهذه المعاملة الحسنة لغير المسلمين نحبب الإسلام إلى الآخرين، حينما يرى النَّاس أنَّ المسلمين ناس أخلاقهم سمحة، وصدورهم واسعة، ووجوههم باسمة، ومعاملتهم طيبة، ويهدوننا في المناسبات، ويقابلوننا بالبشاشة، فهذا يجعل غير المسلمين يحبون الإسلام.

ومن هنا أنا أقول: أنَّه ينبغي إذا لقيت جارك المسيحي تقول له: صباح الخير، مساء الخير، وإن قلتَ له: السلام عليكم، فأرى جواز ذلك؛ فقد كان سيِّدنا أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه يقرأ السلام على كل من لقي من مسلم أو غير مسلم، لأن الرسول ﷺ قال: «**أفشوا السلام بينكم**»[1]. ولما قيل للنبيِّ ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «**تُطعم الطعام، وتقرأ السلامَ على من عرفت ومن لم تعرف**»[2]. وإذا سلَّم عليه يرد عليه السلام ويقول: وعليكم السلام، كما في هذه السورة سورة النساء الآية تقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

مرَّ رجلٌ يهوديٌّ على الإمام الشَّعْبي فألقى عليه السلام، قال: السلام عليكم، فردَّ الشَّعْبي السلام عليه، قال: وعليكم السلام ورحمة الله

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأحمد (١٠١٧٧)، عن أبي هريرة.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وبركاته، فقال بعض أصحابه: تقول له: ورحمة الله؟! فقال الشَّعْبي: ولم لا؟! أليس في رحمة الله يعيش[1]؟! إنَّه يعيش في رحمة الله، فما الَّذي يمنعني أن أقول له: ورحمة الله؟! فهذا هو الَّذي ينبغي من المسلم حتَّى يحبِّب الإسلام إلى عباد الله أجمعين.

هذه الآية الكريمة حثَّتنا على حُسن معاشرة الجار، وأن يتَّقي الله كلُّ إنسان في جاره، وأن يعامله معاملة طيبة، معاملة كريمة.

حقُّ الصاحب بالجنْب وابن السبيل وما ملكت أيْماننا:

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: الرفيق في سفرٍ أو صناعةٍ أو طلب علم أو وظيفة أو نحو ذلك في كلِّ أمر لا معصية فيه، وقيل: هو الزوجة.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المنقطع في سفره، تجب إعانته حتَّى يُواصِل سفره إلى مَقْصده.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من الأرقَّاء والحيوانات أيضًا، وإلى الموظَّفين الَّذين تملكون الحكم عليهم، فهذه الآية: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عامَّة تشمل كل مملوك آدمي وغيره، ومن العلماء من وسَّع في معنى ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فلم يقف بها عند الأرقَّاء والمماليك من البشر، وهو ما كان يفهمه من هذه العبارة كل من يقرؤها في تلك الأزمنة: أنَّها تعني الرقيق، وما أمر الله به من الرفق والإحسان، والتحرير الَّذي له مقام عظيم عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [سورة البلد: ١١ ـ ١٨].

(١) المنتقى شرح الموطأ للباجي (٢٨١/٧)، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢.

QaradawiBooks.com

بل عند الفهم من هذه الكلمة «ما ملكت الأيمان»: كل ما يملكه الإنسان من عقار أو منقول من حيوان، أو طير، أو نبات، من مأكول أو مشروب، من أدوات وأشياء تقل أو تكثر، علم أن الله تعالى يوصيه بها، وأنه قد أنعم الله عليه بها، فهو يستحقُّ الشكر عليها.

لا يحبُّ الله من كان مختالًا فخورا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾، نفى تعالى محبَّته عمَّن اتَّصف بهاتين الصفتين: الاختيال وهو التكبر، والفخر: وهو عدُّ المناقب على سبيل التطاول بها والتعاظم على النَّاس.

﴿مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾: أي: مختالًا في نفسه، معجبًا متكبرًا، فخورًا على النَّاس، يرى أنَّه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند النَّاس بغيض.

وجاء ذكر هاتين الصفتين «الاختيال والفخر» في آخر الآية، تنبيها على أن من اتصف بالخُيلاء والفخر يأنف من الإحسان للأصناف المذكورين، والقيام بما يجب عليه من حقوق.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس التاسع
أداء الأمانة والحكم بالعدل

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

الخطاب في الآية الأولى للولاة والحكام: أن يراعوا الأمانات ويحكموا بالعدل، فإن إضاعة الأمانة والعدل نذير بهلاك الأمة وخراب الديار. ففي الصحيح: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**»[1].

والخطاب في الآية الثانية للرعية المؤمنين: أن يطيعوا «أولي الأمر»، بشرط أن يكونوا «منهم» وجعل هذه الطاعة بعد طاعة الله وطاعة الرسول، وأمر عند التنازع برد الخلاف إلى الله ورسوله، أي الكتاب والسُّنَّة. وهذا يفترض أن يكون للمسلمين دولة تُهَيْمِن وتُطاع، وإلا لكان هذا الأمر عبثًا.

وفي ضوء هاتين الآيتين المذكورتين ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه المعروف «السياسة الشرعيَّة في إصلاح الراعي والرعيَّة»، والكتاب مبني على الآيتين الكريمتين.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

القرآن يذكر الأمانة بصيغة الجمع:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، كثيرًا ما يذكر القرآن الأمانة بصيغة الجمع، كما في هذه الآية، وكما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وكما في قول الله ﷻ في سورة المؤمنون: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وتكررت هذه الآية في سورة المعارج.

إنَّها أمانات وليست أمانة واحدة، وذلك أنَّ الأمانة هي صيانة الإنسان لما اؤتُمِنَ عليه أن يحفظه ويصونه، وألَّا يمسَّه بسوء، سواء كان أمرًا ماديًّا أم أدبيًّا، فالبدن أمانة، والعقل أمانة، والمال أمانة، والأولاد أمانة، والتكاليف كلُّها أمانة، أوامر الله تعالى ونواهيه كلها أمانة.

ولهذا كانت الأمانة ثقيلة، صور الله ثقلها وعظمتها حينما قال: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وتضييع الأمانة دليلٌ على تضييع الإيمان، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[(١)]. وصف الله تعالى المؤمنين المفلحين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]. والمؤمن يحفظ الأمانة، ولا يُقَابل الخيانة بالخيانة، كما جاء في الحديث: «**أدِّ الأمانة لمن ائتَمَنك، ولا تخنْ من خانك**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (١٢٣٨٣)، وقال مُخَرِّجوه: حديث حسن. وابن خزيمة في الزكاة (٢٣٣٥)، وابن حبان في الإيمان (١٩٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٩)، عن أنس.

(٢) رواه أبو داود في الإجارة (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، وقال: حديث حسن غريب. وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٣٠١٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

العدل لكل الناس:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، العدل ليس للمسلمين وحدهم، العدل لكل النَّاس، الإسلام جاء بالعدل لكل البشر، يحرم أن تقتل المسلم ويحرم أن تقتل غير المسلم، يحرم أن تسرق من المسلم ويحرم أن تسرق من غير المسلم. هذا ما جاء به الإسلام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ إشارة إلى أنَّ الحكم بين النَّاس بالعدل ليس بين المسلمين وحدهم بعضهم وبعض، فإذا كان الخصم غير مسلم لا يكون له منا العدل؟ لا، العدل للجميع، عدل الله لجميع خلق الله مسلمين وغير مسلمين، هذا هو عدل القرآن.

في سورة النساء تسع آيات نزلت تدافع عن يهودي اتُّهم ظلمًا بالسرقة، اتهمه جماعة من المنافقين أو من ضعافِ الإيمان كانوا هم السرَّاق واللصوص، وفيها يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٨].

هذا عدل القرآن، عدل الإسلام، عدل الله، عدل الله لجميع عباد الله، القرآن أمر بالحكم بالعدل، وأمر بالحكم بما أنزل الله، وما أنزله الله هو الَّذي يمثل العدل الكامل.

فلا يجوز للحاكم المسلم أن يحابي أحد أقاربه أو حاشيته، فيوليه ما لا يستحق، ويحرم مَنْ يستحق، والرسول ﷺ يجعل هذا إيذانًا باقتراب ساعة هلاك الأُمَّة، فقد سأله رجل يومًا عن الساعة فقال:

QaradawiBooks.com

«**إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظرِ الساعة**» قيل: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله فانتظرِ الساعة**»[١].

كما لا يجوز إسقاط عقوبة مقررة عمَّن يستحقها لنسبه أو جاهه أو قربه من ذوي السلطان، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «**إنَّما أهلك من كان قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، وايْمُ اللهِ، لو أنَّ فاطمة بنت مُحَمَّد سرقت لقطعتُ يدها**»[٢].

طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، والخطاب هنا للرعية المؤمنين، أن يطيعوا الله، وأن يطيعوا الرسول، وأعاد الفعل «وأطيعوا» وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى؛ اعتناءً بشأنه عليه الصّلاة والسّلام، وقطعًا لتوهُّم أنَّه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن، وإيذانًا بأنَّ له استقلالًا بالطاعة لم يثبت لغيره.

فالقرآن هو الأصل والدستور، والسُّنة هي الشرح النظري، والبيان العملي للقرآن، وكلاهما مصدر إلٰهي معصوم، ولا يسع مسلمًا أن يعرض عنهما، ولا يمكن الاستغناء عن السُّنة بالقرآن؛ فقد اعتبر القرآن الكريم طاعة الرسول طاعة لله تعالى، كما اعتبر بيعته بيعة لله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وحذَّر القرآن من الإعراض عن طاعة الله وطاعة الرسول فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

---

(١) سبق تخريجه صـ ٦١٤.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

ولا عجب أن كانت طاعة رسول الله جزءًا من طاعة الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فإنَّه مهما يأمر بشيء فمن أمر الله يأمر، وما نهى عن شيء فمن نهي الله ينهى، ولهذا جعل الله اتِّباع رسوله دليلًا على محبته، وكان اتباعه من أمارات محبَّة الله، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]، والآية الكريمة حاكمة على كلُّ من ادَّعى محبَّة الله، وليس هو على الطريقة المحمَّديَّة، بأنَّه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتَّى يتَّبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله.

ثم أمر بطاعة أولي الأمر، وجعل طاعته تابعة لطاعة الله وطاعة الرسول، واشترط أن يكونوا منهم، ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، ولم يكرر الفعل «وأطيعوا» عند الأمر بطاعة أُولي الأمر؛ إيذانًا بأنَّ طاعة أولي الأمر مُقيَّدةٌ بطاعة الله وطاعة رسوله.

والطاعة الواجبة لأولي الأمر إنَّما هي في «المعروف» الَّتي تعرفه الفطر السليمة، والعقول الرشيدة، ممَّا جاء به الشرع، وأيده العقل، وليست طاعة ولي الأمر مطلقة، وقد اتفق المسلمون على أنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فليس ولي الأمر المسلم طليق العِنان يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا يُسأل عمَّا يفعل، فهذا شأن الإلٰه وحده، وإنَّما هو بشر يحاسَب ويُسأل، ويُنصح ويوجه.

والقرآن الكريم حين ذكر بيعة النساء للنبيِّ ﷺ، وفيها طاعة النبي ﷺ وعدم معصيته، قيد ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ [الممتحنة: ١٢]، هذا وهو المعصوم المؤيد بالوحي، فغيره أولى أن تكون طاعته مقيدة.

QaradawiBooks.com

وقال النبي ﷺ: «**إنَّما الطاعة في المعروف**»[١]. وقال: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[٢].

إنَّ الإسلام لم يعرف تلك السلطة الدِّينية الَّتي عرفتها أوربا، فليس في الإسلام سلطة دينيَّة سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير من الشر، وهي سلطة خوَّلها الله لكل المسلمين، أدناهم وأعلاهم.

والأُمَّة هي الَّتي تولِّي الحاكم، وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه. وليس للخليفة ولا للقاضي، أو المفتي، أو شيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنيَّة، قدَّرها الشرع.

ولذلك حينما أمر القرآن الكريم المؤمنين بطاعة أولي الأمر منهم، عقب على ذلك بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، عندما يختلف العلماء والباحثون في أمر من الأمور، أهو من الإسلام أم لا، سواء كان من العقائد أم كان من العبادات، أم كان من الأخلاق أم كان من المعاملات، ألا يوجد معيار يُحْتَكم إليه؟! بلى، قد وضع القرآن الكريم لنا المعيار الَّذي نرجع إليه عند الاختلاف والتنازع: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٠)، عن علي.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وقد أجمع المسلمون في جميع العصور، على أنَّ الرد إلى الله تعالى، يعني الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ـ بعد وفاته ـ يعني الرد إلى سنته، وقد قال ﷺ: «**تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله، وسُنَّتي**»(١).

فما كان مُحكمًا بيِّنًا في كتاب الله، والصحيح الثابت من سنة رسول الله، فهو القول الفصل، والحكم العدل، وما لم يوجد فيه نصٌّ بيِّن محكم، إمَّا لعدم وجود نصٍّ أصلًا، أو لوجود ظني الدلالة أو الثبوت، أو هما معًا، فهنا يلزم الرجوع إلى القوانين، الَّتي وضعها علماؤنا المحققون، وأئمتنا الراسخون، لضبط الاستدلال، ولا سيَّما عند تعارض الأدلَّة في الظاهر، وقد وضعوا لذلك علم أصول الفقه، وعلم أصول الحديث، فضلًا عمَّا أصَّلوه من قواعد في علوم أخرى، مثل: علوم القرآن، وأصول التفسير، وقواعد الفقه، وغيرها.

لا بدَّ أن يُرد الأمر إلى أهل العلم والحكمة، أهل البصيرة في دين الله، والخبرة بدنيا النَّاس، الَّذين ينظرون إلى التراث بعين، وإلى العصر بعين أخرى، الَّذين يستلهمون الماضي، ويعايشون الحاضر، ويستشرفون المستقبل، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

(١) رواه الحاكم في العلم (٩٣/١)، وقال: احتج البخاري بعكرمة، واحتج مسلم بأبي أويس عبد الله، وله أصل في الصحيح. ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤٠)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وفي هذه السورة الكريمة يقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

هذا هو شأن المؤمنين مع رسول الله ﷺ، وحكم رسول الله، وشرع رسول الله، إنَّهم لا يتردَّدون لحظة في قَبول الحكم أو رفضه، وبعبارة أخرى: ليس لهم الخِيَرة من أمرهم، ولا يتولَّون عن الانقياد والطاعة، كما يفعل المنافقون؛ بل شعارهم ومبدؤهم دائمًا: «سمعنا وأطعنا».

لقد نفت هذه الآية ـ بشدَّة ـ الإيمان عمَّن لم يُحَكِّم رسول الله في حياته، ويحكم بسُنَّته بعد مماته، ولم تكتفِ بذلك، فاشترطت الرضا والتسليم بهذا الحكم، فهذه هي طبيعة الإيمان وثمرته: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس العاشر
طاعة الله ورسوله وثمرات الصحبة والمعية

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن الكريم، نعيش الليلة في رحاب هذه الآية الكريمة من سورة النساء، نتأمل فيما اشتملت عليه من هدايات ومعاني ينتفع بها النَّاس أفرادًا وجماعات وأممًا، نقف في هذه الليلة عند قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

تفاوت النَّاس في اتِّجاهاتهم وأهدافهم:

نحن نعلم أنَّ النَّاس في هذه الدُّنْيا متفاوتون في اتِّجاهاتهم وتطلُّعاتهم وشخصيَّاتهم، هناك من لا يستمع إلَّا إلى نفسه، لا يخضع لأي شيء آخر من فوقه أو ممَّن حوله، وهناك أناس لا يعيشون إلَّا سمَّاعين لغيرهم، يعيشون تبعًا لغيرهم من النَّاس، الأغنياء أو الأقوياء أو الأمراء والكبراء، وهناك ناس يعيشون للدِّين، فيطيعون الله وما أمر به الله ﷻ.

الذين يعيشون لأنفسهم يتَّبعون ما تُوحي إليه أنفسهم، والأنفس لها اتجاهات في حياتها، هناك مَنْ كان اتجاهه في اللذة، كما قال الشاعر:

QaradawiBooks.com

إنَّـمـا الـدُّنْـيـا طـعـامٌ وشـــرابٌ ومُـــدَام
فـــإذا فـاتـك هـذا فعلـى الدُّنْيـا السـلام[1]

هناك من يرى الدُّنْيا هي هذا، أكل وشرب ومُدام (يعني خمرًا)، فإذا فاتك هذا فعلى الدُّنْيا السلام. وهناك من جعل متعته في أن يحكم ويسيطر ويسود ويتحكم ويخفض ويرفع ويضر وينفع، كما قال الشاعر:

إذا أنت لم تنفع فضرَّ فإنَّما يعيش الفتى كيما يضرُّ وينفعُ[2]

إن لم تنفع غيرك فضره، هذه نفسيَّات يعيش بها بعض النَّاس، وهناك ناس تعيش تبعًا لغيرها، ما يقوله الآخرون يسمعه ويطيعه ويعمل به، لا يستطيع أن يقول لا، فيتحكم فيه الآخرون، ويعيش حياته عبدًا ذليلًا.

أحيانًا يمشي مع الآباء والأجداد، يقولون: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، حتَّى ولو كانوا كذلك نحن معهم.

وهناك من يتَّبع السادة والكبراء، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، وهكذا.

العقل السويُّ يوصل إلى الإيمان بالله:

ولكن الله ﷻ أمر الإنسان أن يعمل على الاستفادة من عقله، لماذا خلق الله العقل للإنسان؟ ما الَّذي ميَّز بين الإنسان وبين الحيوان؟

---

(١) ذكره من غير نسبة: الراغب الأصبهاني في محاضرات الأدباء (٧٨٤/١، ٧٨٥)، مع تغيير وفحش في بعض ألفاظه.

(٢) من شعر قيس بن الخطيم، انظر: الصناعتين: الكتابة والشعر صـ ٣١٥، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

الحيوان أقوى منه، من مثل الجمل أو مثل الثور أو مثل الفيل؟ لا يبلغ قوَّة هذه الحيوانات أو الوحوش، لا يستطيع، إنَّما ميَّز الله الإنسان بهذا الذي وضعه الله الكائن في رأسه، ليفكّر به، ويميِّز به، وبه يصل إلى الحق من الباطل، به يعرف أن هذا الكون لا يمكن أن يخلق نفسه، لا بدَّ أن لهذا الكون خالقًا، ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، لا يمكن أن يُخلقوا من غير شيء، لا يُخلق شيء من لا شيء، لا حركة من غير مُحرِّك، كل حركة لها مُحرِّك، كل كائن له مكوِّن، هل الإنسان خُلق من غير شيء؟ هل هو الَّذي خلق نفسه؟ كيف يخلق العدم الوجود؟! هل هو الَّذي خلق السماوات والأرض؟ السماوات والأرض مخلوقة قبل أن يوجد.

لا بدَّ أن يصل الإنسان بعقله إلى أنَّ هذا الكون له إلٰه خلقه ونظَّمه ووضع فيه كل شيء في موضعه، وبعث للنَّاس رسولًا، وأنزل لهم كتابًا، وألزمهم بأن يتبعوا هذا الرسول ويطيعوا أمره، ومن هنا كان ما تهدي إليه الفطرة السليمة، وما يهدي إليه العقل الرشيد الَّذي يفكر بأناة ويتعلم بحكمة ويصل بالمقدمة إلى النهاية، ويربط الأشياء بعضها ببعض، بسلسلة من المنطق الحكيم، هو الوصول إلى الكائن الأكبر الَّذي خلقنا وخلق هذا الكون.

الطاعة المطلقة لله:

الله تعالى الَّذي خلقنا وأرسل إلينا خاتم رسله، محمدًا ﷺ، وأنزل علينا آخر كتبه، القرآن الكريم، هو الَّذي قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾، لا بدَّ من طاعة، ولكن الطاعة إيَّاك أن تعطيَها مطلقة لأيّ مخلوق، ليس هناك مخلوق أعظم من مخلوق بحكم خلقته، كل النَّاس مخاليق مثلك،

QaradawiBooks.com

فلماذا تعطي طاعتك مطلقة لمخلوق مثلك؟! شحاذ يعطي شحاذًا؟! هو يستجدي مثلك، لا، لتكن صلتك بالله، وطاعتك أولًا لله ﷻ.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، أوَّل طاعة يجب أن تكون لله، بصفته الخالق الَّذي خلق كلَّ شيء، خلق الإنسان، وخلق الحيوان، وخلق الجانَّ، وخلق الملائكة، وخلق الدوابَّ، وخلق الوحوش، وخلق الحشرات، وخلق ما لا يُرى، هناك أشياء لا تُرى بالأعين المجرَّدة، المَنِيُّ الَّذي خُلق منه الإنسان الدفقة منه فيها مئات الآلاف من الحيوانات المنوية، تحتاج إلى ميكروسكوب لكي تدرك هذه الأشياء، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، الله هو الَّذي خلق هذه الأشياء كلها فمن حقه أن يُطاع، هو المنعم بالنعم الكبرى، نعمة الحياة، نعمة العقل، نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة اللمس، نعمة الذوق، كلُّ الحواس ما نعرفه وما لا نعرفه؛ لأنَّهم قالوا: هناك حواس أكثر من الخمس، الله هو الَّذي خلق هذه الأشياء وأنعم علينا بها، فمن واجبنا أن نطيع الله ﷻ، وكل الرسل الَّذين بعثهم الله يطالبونا أن نطيع الله ﷻ وأن نطيعهم، تتقي الله وتطيع الرسول، قرأنا في أوَّل ليلة من رمضان قول الله في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، العبادة من أجل التَّقوى، والتَّقوى هي الغاية، أن تتَّقي الله تعالى وتطيع الرسول ﷺ.

طاعة الرسول ﷺ:

لماذا تطيع الرسول؟ لأنَّه هو المبلِّغ عن الله، أنت لا تستطيع أن تتَّصل بالله، أمَّا الرسول فعنده خاصيَّة يستطيع بها أن يتكلَّم مع الله، أو يسمع كلام الله، أو يعلم ما يُوحي به الله إليه، ويوصل لك ما يريده الله تعالى منك، ولذلك كل الأنبياء قالوا لقومهم: «**اتَّقوا الله وأطيعونِ**»، كما

QaradawiBooks.com

قال سيِّدُنا عيسى لقومه: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وفي سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٨]، وكذلك قال هود لقومه عاد، وكذلك قال صالح لقومه ثمود، وكذلك قال لوط لقومه، وقال شُعَيْب لأصحاب الأيكة.

لماذا يقول كل رسول لقومه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؟ لأنَّه هو الَّذي يُبَلِّغهم مراد الله منهم، الأوامر والنواهي، والحلال والحرام، وما يجب أن يفعلوه وما يجب أن يتركوه، ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٧، ١٠٨]، أي: يجب أنْ تطيعوني، فطاعة الرسول من طاعة الله ﷻ، كما قال سيِّدنا صالح لقومه ثمود: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

للأسف هناك أناس عصوا الرسل وأطاعوا هؤلاء المسرفين فأضلوهم عن سواء السبيل، وساروا بهم في طريق الشيطان، وطريق الطغيان والفساد، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤]، فالإنسان مطلوب منه أن يطيع الله، وأن يطيع رسول الله.

الأمر بطاعة الرسول ﷺ:

القرآن جاءنا بطاعة رسول الله ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

QaradawiBooks.com

طاعة الرسول مطلوبة، عشرات الآيات طلبت منا أن نطيع الله ورسوله، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، لأن الرسول لا يأتي بكلام من عند نفسه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، فكلُّ ما يقوله رسول الله يأتي به من عند الله، حتَّى لو اجتهد هو في مسألة من عند نفسه وأخطأ ينزل الوحي يُصَحّح له خطأه، كما حدث في كثير من الأمور، كما في قصَّة عبد الله بن أم مكتوم، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠]، الجماعة الكبار تُقبل عليهم وتترك ابن أمِّ مكتوم الأعمى؟!

وكما في قضيَّة زينب بنت جحش بنت عمَّة النبيِّ ﷺ، فقد زوجها لسيِّدنا زيد بن حارثة، ولكن لم تنسجم معه، واشتكى زيد زينب إلى النبيِّ ﷺ فأمره بالصبر وإمساك زوجته، ولم يقل له: إنَّك ستطلقها وسأتزوجها، فنزل القرآن يقول: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

المهمُّ طاعة الله وطاعة رسوله مطلوبة، لا بدَّ أن نطيع الله، هذا هو الأمر الأول، ما جاء به القرآن الكريم كله من الله ﷻ، فواجب أن يطاع، لا ينبغي أن يقول أحد: هذا أمر صعب، أو هذا لا يدخل دماغي، ما جاء عن الله ليس لك إلَّا أن تقول: سمعنا وأطعنا، ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أمام المحكمات الإلٰهيَّة ليس

QaradawiBooks.com

للعقل إلَّا أن يطيع، في الأمور العقائدية: آمنا وصدقنا، وفي الأمور التشريعية والعمليَّة: سمعنا وأطعنا، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ثمرة طاعة الله والرسول:

هذا شأن الإنسان المؤمن، المؤمن الَّذي يطيع أمر الله وأمر رسوله ما حكمه؟ الصحابة كانوا يخشون، لأن هناك فرقًا بينهم وبين رسول الله في المنزلة والدرجة، رسول الله في الذروة العليا، في القرب من الله، في منزله في الفردوس الأعلى، لا شكَّ في ذلك، أمَّا هم ففي الدرجات الدُّنيا، على التفاوت فيما بينهم، لكن كيف يكونون مع رسول الله؟ هم لا يطيقون فراق رسول الله عدَّة ساعات، عندما ينام رسول الله يشتاقون إلى رؤيته، فكيف في الآخرة عندما يكون بينه وبينهم هذا التفاوت ماذا يفعلون؟ فالله تعالى طمأنهم بهذه الآية، قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

شرف الصحبة والمعية:

الحل في كلمة صغيرة من حرفين «مع»، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

المؤمنون ليسوا بعيدين عن رسول الله، صحيحٌ أنَّ كلَّ واحد في درجته، لكن يستطيعون أن يروا رسول الله، ويتزاوروا ويكونون على صلة، ولذلك قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، كلمة «مع» تعني المصاحبة، أنَّهم يصاحبون رسول الله، أنت مع الله، ألسنا مع الله والله معنا؟ كما قال الله لسيدنا موسى وأخيه هارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، معكما، مصاحب لكما، ولذلك لما كان فرعون

QaradawiBooks.com

وجنـــوده خلف موســـى وقومه، وخـــاف أصحاب موســـى وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشـعراء: ٦١]، أدركنا النَّاس، البحر أمامنا والعدو من خلفنا، قال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، المعيَّة مهمَّة جدًّا، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ســـيِّدنا أنس روى أنَّ النبيَّ ﷺ ســـأله رجل فقال: يا رسولَ الله، متى الساعة؟ فقال له النبي ﷺ: «**وماذا أعددتَ لها؟**» لماذا تسأل عن الساعة؟ هل أنت مســـتعدٌّ لها؟ قـــال: يا رســـول الله، ما أعددتُ لهـــا كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنِّي أُحبُّ الله ورسوله. أي: أنِّي أعددتُ لها حُبَّ الله ورســـوله ﷺ حبًّا حقيقيًّا، فقال له النبي ﷺ: «**فأنت مع من أحببت**»، سيِّدنا أنس راوي هذا الحديث يقول: فما فرحنا، بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**»، فأنا أحب الله ورســـوله، وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم[1].

المرء مـــع من أحب، أنـــتَ مع مـــن أحببت، الله تعالـــى لا يفصل المتحابيـــن بعضهم عـــن بعـــض، أنتَ تحـــب رســـول الله؟ فأنت مع رسول الله ﷺ، المهم أن يكون حبًّا حقيقيًّا.

النبيُّ ﷺ قال هذا مع أكثر من ســـائل، حتَّـــى روي أن ثوبان مولى النبيِّ ﷺ كان يخدم النبيَّ ﷺ، وكان شديد الحبِّ للنبيِّ ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه ونحل جسمه، يُعرف في وجهه الحزن، فقـــال له النبـــي ﷺ: «**ما غيَّر لونك؟**». قـــال: يا رســـولَ الله، ما بي ضرٌّ ولا وجع، غير أنى إذا لم أرك أشـــتاق إليك وأســـتوحش وحشة شديدة حتَّى ألقاك، ثمَّ ذكرت الآخرة وأخـــاف ألَّا أراك هناك، لأنِّي عرفت أنَّك

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٨٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ترفع مع النَّبيين، وإنِّي إن دخلت الجنَّة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل لا أراك أبدًا، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩][1].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، والله إنَّك لأحب إليّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإنِّي لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتَّى آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنَّك إذا دخلت الجنَّة رفعت مع النبيِّين، وإنِّي إذا دخلت الجنَّة خشيت ألّا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتَّى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩][2].

هذه الآية نزلت مطمئنةً للمؤمنين جميعًا، أنَّهم مع الَّذين أنعم الله عليهم، ففي سورة الفاتحة الَّتي نقرؤها كل يوم سبع عشرة مرَّة في صلاة الفرائض وحدها نقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

من هم الَّذين أنعم الله عليهم؟ الَّذين أنعم الله عليهم هم الَّذين جاء ذكرهم في هذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧٤/١١)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) رواه الطبراني في الصغير (٥٢)، وفي الأوسط (٤٧٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٩٣٧): رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٣٣)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

النبيون الَّذين أرسلهم الله في أمم شـتَّى، الحديث يذكر أنَّها سبعون أُمَّة أنتم آخرها، كما جاء في حديث: «**أنتم توفون سبعين أُمَّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[1]، من يطع الله ورسوله فهم مع هذه الأصناف الأربعة، الأنبياء أولًا، ومع الأنبياء الصدّيقون والشهداء والصالحون.

الصِّدِّيقون:

أعلى درجة بعد الأنبياء هم الصدِّيقـون، وهم المُبَالغون في الصِّدق والإخـلاص فـي أقوالهـم وأفعالهم، مثـل درجـة سـيِّدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، هو صدِّيـق هذه الأُمَّة، وليس هو وحـده طبعًا، إنَّما معه كثير من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، إنَّما هو الصدِّيق الأول، الَّذي عُرض عليه الإسلام فلم يتلكأ ولم يتردَّد، وأوَّل ما يأتي الأمر إلى رسول الله ﷺ كان أوَّل من يصدقه هو أبو بكر رضي الله عنه.

بعض الأنبياء أخبر الله عنه بأنَّه كان صدّيقًا نبيًّا، قال الله عن سـيِّدنا إبراهيم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريـم: ٤١]، وقال عن سـيِّدنا إدريس: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، حتَّى الأنبياء وصفهم بالصدِّيقيـة، لأنَّهم يصدِّقون بما جـاء من عند الله عز وجل بسرعة، ولا يتردَّدون أبدًا ولا يتعثرون.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، من هم الشـهداء؟ هم كل من يشهد لهذا الدين بأنَّه دين حق، يشـهد باللسـان والبيان أو بالسيف والسـنان؟ كلاهما،

(١) رواه أحمد (٢٠٠١٥)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. والترمذي في (٣٠٠١)، وحسَّنه، وابن ماجه فـي الزهد في معرفة الصحابـة (٨٤/٤)، وصحَّح إسـناده، ووافقه الذهبي، عن معاوية القُشيري.

QaradawiBooks.com

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، هؤلاء شهداء.

أو يشهد بأنَّه يبذل نفسه ودمه للدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، ويموت في سبيل الله، فهذا شهيد أيضًا، كل من يشهد لهذا الدين هو ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

الصالحون الَّذين عملوا الصالحات:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]، الصالحون هم الَّذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن هذه الصالحات: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الله تعالى في سورة العصر قال: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، لا تقل: أنا أصلي وأصوم ولا علاقة لي بأحد، مَنْ يُصَلِّي يُصَلِّي، ومَنْ يفسد يفسد، لا، ليس هذا هو الإسلام.

الناس الآن يقولون لبعض النَّاس في مصر: لا علاقة لنا بالسياسة، اتركوا السياسة لأهل السياسة.

أقول لهم: لا، وهل أهل السياسة سيتركونك؟! لو تركتَ لهم السياسة لن يتركوك، لا بدَّ أن تسير معهم، السياسة أن تؤيِّدهم في باطلهم، أن تسير معهم في مظالمهم، ألَّا تُنكر عليهم ما يرتكبون من منكر، ولا تأمرهم بما يتركون من معروف، لا، ليس هذا صحيحًا، لا بدَّ للإنسان أن يعمل الصالحات، ومن أوائل الصالحات: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

QaradawiBooks.com

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾، ما أجمل هذه الرفقة، ما أجمل أن يكون رفقاؤك محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ونوحا عليهم السلام، والأنبياء في كل أُمَّة، هل هناك رفقاء أفضل من هؤلاء الرفقاء؟ أنعم بهم من رفقاء، ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾، هذا هو الفضل من الله عز وجل، ليس من أحد، لا يمكن أحد أن يأتي منه هذا الفضل، الفضل مثل هذا لا يأتي إلَّا من الله، وهو صاحب الفوز العظيم، ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٤]، ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٩]، كل فضل فهو من الله، وكل رحمة فهي من الله، وكل خير فهو من الله سبحانه وتعالى.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾، الله هو الَّذي يعطي كلَّ ذي حقّ حقَّه، من يستحقُّ الفضل لا يُمنع عنه الفضل، لا يعطي الله الفضل لمن ليس أهلًا له، إنَّما يعطيه لمن هو أهل له، لأنَّه هو الَّذي يعرف النَّاس، يعرف دخائلهم، يعرف سرائرهم، ويعرف ما تنطوي عليه جوانحهم، لا يخدعه الظاهر، هو يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

ندعو الله أن يجعلنا من هؤلاء الَّذين يطيعون الله ورسوله، ويحبون الله ورسوله، اللهمَّ حبِّبْ إلينا الإيمان وزيِّنْه في قلوبنا، وصل اللهمَّ على عبدك ورسولك مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

QaradawiBooks.com

الدرس الحادي عشر
القيام بالقسط والشهادة لله تعالى

غير مرخصة للطباعة

لا زلنا في رحاب سورة النساء، وسورة النســاء سورة مدنيَّة، نزلت بعد ســورة البقرة، وهي أطول السور بعد ســورة البقرة، أو هي السورة الثانية في الطول بعد سورة البقرة، فهي حَسَــب التقسيم المعروفِ عند المسلمين اثنا عشر رُبعًا، فهي بالنسبة لطول الآيات الأطول بعد البقرة، وسورة الشعراء هي الأطول بعد البقرة بالنسبة لعدد الآيات.

جاءت سورة النساء لتنظِّم المجتمع المسلم وفق أوامر الله تعالى ونواهيه حتَّى يكون مجتمعًا ربانيًّا إنســانيًّا أخلاقيًّــا عالميًّا يضرب المثل العليا للبشــريَّة كلها، نقف في هذه الســورة عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

نسخة مجانية

نداءات المؤمنين في سورة النساء:

هذا النداء الإلٰهــي للجماعة المؤمنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو النداء السابع من النداءات الكثيرة الَّتي جاءت في هذه السورة، لتنظِّم جانبًا من جوانب حياتها.

أحيانًا تنظِّم جانب الأسرة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

وأحيانًا تنظِّم الجوانب الماليَّة والتجارية، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩].

وأحيانًا تنظِّم الجوانب السياسيَّة والتشريعية، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وأحيانًا تنظِّم الشأن الجهادي، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١].

وأحيانًا تنظِّم بعض شأن القتال، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٩٤].

وأحيانًا تُنَظِّم شأن الجانب الأخلاقي والجانب التوجيهي في المجتمع، مثل هذه الآية الَّتي معنا في هذه الليلة وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

QaradawiBooks.com

وأحيانًا تُنظِّم جانب العقيدة، مثل الآية التالية للآية الَّتي معنا، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

أو تنظِّم قضيَّة الولاء والبراء، الولاء للجماعة المؤمنة بحيث لا تذوب في غيرها، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

كل هذه النداءات الإلٰهيَّة للجماعة المؤمنة ترينا كيف ينظِّم المنهج الإلٰهي الحياة الإسلاميَّة، يتتبعها خطوة خطوة، كان القرآن ينزل باستمرار، جبريل روّاح غدّاء بآيات القرآن الكريم، كلَّما حدث حدثٌ نزل القرآن لينظِّم هذه الحياة ويوجهها الوجهة الربانية، لم تكن حياة سائبة تمشي وفق المصادفات أو وفق الأهواء والشهوات، لا، بل كان القرآن ينظمها باستمرار.

نقف هذه الليلة عند هذا النداء الإلٰهي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

جاء هذا النداء الإلٰهي ليقرر قضيَّة من أعظم القضايا وهي قضيَّة العدل أو القسط، والقسط هو العدل، والعدل اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، فهو الحكم العدل، حرم الله تعالى الظلم على نفسه كما قال في

QaradawiBooks.com

الحديث القدسي: «**يا عبادي إنِّي حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تَظَالَمُوا**»(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، الله هو العدل، العدل الكامل هو صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وعلينا نحن المؤمنين أن نحاول أن نقترب من ذلك الأفق العالي العدل الإلٰهي، نحاول أن نتخلق بهذا الخلق ليكون لنا معنى العدل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، حينما يأمر الله بثلاثة أشياء يكون العدل أحدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

إذا أمر بشيئين كان العدل أحدهما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وإذا أمر بشيء واحد كان هو العدل: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وذلك أنَّ العدل هو هدف الرسالات السماويَّة كلها، ما أنزل الله من كتب وما بعث الله من رسل إلَّا ليقوم النَّاس بالعدل، بعدل الله في أرض الله كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، القسط هو العدل.

ولذلك جاء الإسلام بالعدل في كل النواحي، العدل بين الإنسان ونفسه، بين قواه وملكاته المختلفة، بين حظ النفس وحق الرب وحق النَّاس، فلا يجور واحد على الآخر، لا يطغى جانب على جانب، حتَّى إنَّ النبي عليه الصلاة والسلام

(١) سبق تخريجه صـ٤٠، بلفظ: «كلكم ضال إلا من هديته».

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حينما وجد عبد الله بن عمرو ينسى حق نفسه وحق زوجه وحق من حوله في العبادة لله تبارك وتعالى، في المبالغة في الصلاة والصيام وقراءة القرآن أوقفه عند حده وأمره أن يخف قليلًا من الصيام ومن القيام ومن التلاوة.

لماذا؟ قال ﷺ: «**صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا**»[(١)]، يعني إن لبدنك عليك حقًّا أي في الراحة، وإن لعينك عليك حقًّا أي: في النوم، وإن لأهلك أي: لزوجك عليك حقًّا أي في الإمتاع والمؤانسة، وإن لزورك ـ أي زوارك وضيوفك ـ عليك حقًّا أي في الاجتماع والمشاركة، فيجب أن تعطي كل ذي حق حقه.

هذا هو العدل مع نفس الإنسان، والعدل مع نسائه إن كان له أكثر من زوجة، والعدل مع أولاده إن كان له عدة أولاد يعدل بينهم، وقد جاء بَشِير بن سعد ـ أحد الأنصار ـ يريد أن يُشهِد النبي ﷺ على هبة أعطاها لابنه النُّعمان من زوجته عَمْرة بنت رواحة، أحبَّت الأم أن تؤكِّدها، فطلبت منه أن يُشهِد على ذلك النبيَّ ﷺ، فالنبيُّ ﷺ سأله: «**أعطيتَ سائر ولدك مثل هذا؟**»، قال: لا، قال: «**فاتَّقوا الله واعدلوا بين أولادكم**»، أي لا تحابي أحدًا على الآخر، ثمَّ قال له: «**لا تشهدني إذن، فإنِّي لا أشهدُ على جَوْر**»[(٢)]. أنا لا أشهد على ظلم.

ولذلك جاءت هذه الآية تطالب بالعدل في الشهادة، لأن العدل في الشهادة من أهم أنواع العدل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [النساء: ١٣٥]، نحن مطالبون

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصوم، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٠)، ومسلم في الهبات (١٦٢٣)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

بالعدل في كل شيء، العدل في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

بالعدل في الكتابة: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

بالعدل في الحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

بالعدل في الإصلاح بين المتخاصمين: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩].

بالعدل مع المسلمين ومع غير المسلمين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ما داموا مسالمين لكم، لم يقاتلوكم في الدِّين ولم يخرجوكم من دياركم، كما فعل اليهود الَّذين أخرجوا الفلسطينيين من ديارهم، وكما فعل كثير من الغربيين الَّذين ظاهروا على إخراجهم وعاونوهم على هذا البغي وهذا الظلم، لا ينهاكم الله أن تبروهم وتقسطوا إليهم وتعدلوا معهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

الله تعالى يحبُّ المقسطين في كلِّ شيء وخصوصًا في الشهادة، القرآن يركز على مسألة الشهادة هذه، وصف الله تعالى الَّذين جعلهم في جنات مكرمين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣]، يقومون بالشهادة على وجهها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، انظروا إلى التعبير القرآني العظيم ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، إذا قلتَ: أقسط أو اعدل. هذا جيد ومطلوب، ولكن أبلغ من كلمة أقسط أو اعدل أن تقول: قم بالقسط. وأبلغ من هذا وذاك أن تقول: كن قائمًا بالقسط. أي ليكن القيام

QaradawiBooks.com

بالقسط صفة ثابتة لك. وأبلغ وأبلغ أن تقول: كن قوَّامًا بالقسط، وهذا ما أمرت به الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، بالغوا في القيام بالقسط وبالعدل حتَّى يصير العدل خلقًا لكم.

إقامة الشهادة لله:

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، اجعلوا شهادتكم لله، كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، اجعل شهادتك لله، وما دامت شهادتك لله فلا ينبغي أن تميل مع فلان ولا فلان، ولا أن تميل مع الهوى ولا مع الشهوة، ولا أن تحابي أو تتحيَّز لهذا أو ذاك، كن مع الله فقط، حاول أن تُرضي الله وحده، اجعل شهادتك لله، وما دامت شهادتك لله لا بدَّ أن تشهد بالحقِّ ولو على نفسك، قل الحقَّ ولو كان مرًّا، هذا هو شأن المؤمن، لو كان الحقُّ على رقبته يقول الحقَّ، وإن أدَّى ذلك إلى أن يُقتل، وإن أدَّى ذلك إلى أن يُسجن، وإن أدَّى ذلك إلى أن يُعذَّب ويُؤذى، الحقُّ فوق كلِّ شيء، الحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع.

الشهادة بالحقِّ على النفس والوالدَين والأقربين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [النساء: ١٣٥]، بعد نفس الإنسان والداه، الإنسان عندما يريد أن يُفدِّي شخصًا عظيمًا عنده كما كان الصحابة يفعلون يقول: فداك أبي وأمي. فليس هناك ما هو أعظم من الأب والأم. فتقول الحقَّ ولو كان ضدَّ أبيك وأمك، ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، الأقربون بعد الأب والأم: الأبناء والبنات والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، الحق فوق كل هؤلاء جميعًا، لا ينبغي أن تتعصب لقرابتك، كان أهل الجاهليَّة يتعصبون لأقاربهم،

QaradawiBooks.com

يقولون: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، أي كن مع ابن قبيلتك وابن عشيرتك في الحق وفي الباطل في الخير وفي الشر، فكانت هذه الكلمة مأخوذة على ظاهرها، قبل أن يعدّل النبي ﷺ مفهومها، ولذلك لما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» عجبوا ودهشوا، وقالوا: يا رسولَ الله، ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «**تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره**»(١).

كان شعار أهل الجاهلية قول الشاعر:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا(٢)

لا يسألونه ولا يقولون له أنت مُحِقٌّ أم مبطل؟ أنا مع ابن القبيلة محقًّا كان أم مبطلًا، مخطئًا كان أم مصيبًا، ظالمًا كان أو مظلومًا.

فجاء الإسلام وأبطل ذلك، أبطل الإسلام هذه العصبيَّة العمياء، الإسلام ليس منها في شيء، أهال عليها التراب، وحرّم على المسلمين أن يُحيوا أي نزعة من نزعاتها أو يدعو إليها، وأعلن رسول الإسلام ﷺ براءته ممَّن يفعل ذلك فقال: «**ليس منا من دعا إلى عصبيّة، وليس منا من قاتل على عصبيّة، وليس منا من مات على عصبيّة**»(٣). ولما سُئل ﷺ عن العصبيَّة قال: «**أنْ تُعِينَ قومَك على الظُّلْم**»(٤).

---

(١) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢)، عن أنس.

(٢) البيت لرجل من بلعنبر بن تميم، يقال له قريط بن أنيف. انظر: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (٩٦/٢)، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م. وهو من أبيات الحماسة لأبي تمام، انظر: الحماسة (٥٨/١)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود.

(٣) سبق تخريجه صـ٤٤٣.

(٤) رواه أحمد (١٦٩٨٩)، وقال مخرّجوه: حسن. وأبو داود في الأدب (٥١١٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٩)، عن واثلة بن الأسقع.

QaradawiBooks.com

العصبية إنما تكون للحق، ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ﴾ [النساء: ١٣٥]، بعض النَّاس ربَّما إذا كان المشهود له أو عليه غنيًّا يحابيه لأنَّه غني فيكون معه ضد الفقير، وأحيانًا يكون مع الفقير ضد الغني، لأن الفقير قلما يظلم، الغني هو الَّذي يظلم عادة، القادر فاجر، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، فيشفق الشاهد على الفقير ويكون ضدَّ الغَنِيِّ، وأحيانًا يكون مع الغني مجاملة له أو خوفًا منه، أو طمعًا في ماله أو جاهه أو سلطانه، كلُّ هذا ممنوع ومحظور شرعًا.

التحذير من اتِّباع الهوى:

لا ينبغي أن يحملك الغنى أو الفقر على أن تُجامل أو تتحامل، لا تقل: هذا فقير أنا أشفق عليه وأشهد له حتَّى ولو لم يكن الحقُّ معه، أو هذا غنيّ أنا أشهد له حتَّى ولو لم يكن الحقُّ معه، مجاملة أو خوفًا أو طمعًا، لا يجوز هذا، بعض النَّاس شهدوا، وبعض القضاة حكموا ضد الخلفاء والأمراء، حكموا بالظلم ليشتهروا بالعدل، حتَّى يقول النَّاس لقد حكم ضدَّ الخليفة أو ضدَّ الأمير، والخليفة أو الأمير كان مظلومًا، إنَّما فعل ذلك حتَّى يشيع النَّاس عنه أنَّه لم يهمه الأمير أو السلطان.

كلُّ هذا باطل ولا يجوز؛ لأنَّه اتِّباع للأهواء، الإنسان المؤمن يشهد بالحقِّ، ويحكم بالحقِّ، ويكون دائمًا مع الحقِّ، ويكون أسير الحقِّ، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يخاف نقمة ظالم، ولا يتَّبع هوى أحد، اتِّباع الهوى مفسدة، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦]، قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: شر إلٰه عُبد في الأرض الهوى[1]. أن يعبد النَّاس أهواءهم،

(١) المدخل لابن الحاج (١١٦/٣)، نشر دار التراث.

QaradawiBooks.com

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولذلك قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥]، لا تتّبع هواك، لا تتبع عاطفتك مع القرابة أو مع الجيران، أو مع الأغنياء أو مع الفقراء، لا تتبع الهوى، فتعدل عن الحق إلى الباطل، كن دائمًا مع الحق لا مع الباطل، مع الهدى لا مع الهوى، ولذلك المفروض في المسلم أنَّه إذا رضي لم يُدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه عن الحق، وإذا أحبَّ لم يملْ مع من أحبَّ، وإذا كره لم يَحِفْ على من يكره ولم يَجُرْ عليه.

ولذلك جاء في سورة المائدة نداء مثل هذا النداء، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، الشنآن شدَّة البغض، سواء شدَّة البغض منهم لكم أو شدَّة البغض منكم لهم، إذا كنتم تكرهونهم أو يكرهونكم لا يحملنّكم هذا على الظلم، لا، فآية سورة النساء تقول: لا يمنعك من تحب أن تعدل لأنَّه حبيبك أو نفسك أو والداك أو أقاربك، وهذه الآية آية المائدة تقول: لا يمنعك من تكره أن تعدل معه، مع الحبِّ اعدلْ، ومع الكراهة اعدلْ، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

كان النبيُّ ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة الصحابي الأنصاري الشاعر الَّذي استشهد في معركة مؤتة أحد القادة الثلاثة، كان النبيُّ ﷺ يبعثه

QaradawiBooks.com

ليَخرُص على خيبر نخيلهم، المحاصيل الزراعية من النخيل والثمار، يخرصها أي يقدرها تقديرًا تقريبيًّا، ينظر للنخلة ويقول فيها مثلًا عشرة قناطير، وهذه فيها خمسة، بالخبرة، لأن الأنصار كانوا أهل نخيل وبعضهم أصبح خبيرًا، ابن رواحة كان خبيرًا في الخرص والتقدير التقريبي هذا، فما كان يحكم به يقول النبي ﷺ ليهود خيبر عليكم كذا، فاليهود على طريقتهم أرادوا أن يُرشوا عبد الله بن رواحة، يعطوه شيئًا من تلك الثمار على أن يخفف عنهم، أي: بدل أن يقول مثلًا: هذه النخلة فيها عشرة يقول: فيها خمسة وهكذا، فعبد الله بن رواحة خرصها لهم ثمَّ قال: يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله ﷻ، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إيَّاكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، قد أخذنا، فاخرجوا عنا[1].

ابن رواحة قال لهم: رسولُ الله ﷺ أحبُّ إليّ من نفسي، وأنتم أبغض عندي من القردة والخنازير، ولكنِّي مع هذا لا أحيف عليكم مثقال ذرة، أنا أعطيكم حقَّكم لا أزيد ولا أنقص، وهذا هو العدل الَّذي قامت به السماوات والأرض.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، قرأ الجمهور ومنها قراءة حفص الَّتي نحفظها: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ أي تلووا ألسنتكم

(١) رواه أحمد (١٤٩٥٣)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. وأبو داود في البيوع (٣٤١٤)، والدارقطني في الزكاة (٢٠٥٠)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤٥٩)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

وتُحَرِّفوا الكلم عن مواضعه، تأكل الكلام بلسانك ليظهر معنى غير المعنى المراد، كما قال الله في شأن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

فالقراءة الأولى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ ألسنتكم وتحرفوا الشهادة ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ تكتموا الشهادة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، لا يجوز ليُّ اللسان بالشهادة وتحريفها، ولا يجوز الإعراض عنها وكتمانها؛ لأن أداء الشهادة فرض وكتمان الشهادة حرام، بل قال ترجمان القرآن عبد الله بن عبَّاس: شهادة الزور من كبائر الإثم، وكتمان الشهادة من كبائر الإثم[1]. لأنّ كليهما يُضيِّع الحق، الكتمان يُضيِّع الحق وشهادة الزور تُضيِّع الحق، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله**» ثلاث مرات، ثمَّ قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠][2].

فلا يجوز كتمان الشهادة، كما قال القرآن: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، إذا دُعي الإنسان إلى الشهادة لا ينبغي أن يتأخر، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، لا يصح أن يأبى أن يشهد وخصوصًا إذا ترتب على إبائه ضياع الحق، أحيانًا يكون هو الشاهد الوحيد أو أحد

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٠٠/٦).

(٢) رواه أحمد (١٧٦٠٣)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في الشهادات (٢٢٩٩)، وقال: حديث غريب. وضعفه الألباني في الضعيفة (١١١٠)، عن أيمن بن خريم.

QaradawiBooks.com

شـــهيدين عند القاضي لو غاب ضاع الحق فيكون هو الَّذي تســـبب في ضياع الحق، فمـــن هنا يجب أن يحضر ليشـــهد، ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقـــرة: ٢٨٢]، لا ينبغـــي أن يكتم الشـــهادة، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، كتمان الشهادة من الكبائر.

وأمَّا القـــراءة الأخـــرى: (وإن تَلُـــوا)[1] أي: إن وَلِيتم الشـــهادة، أي أدَّيتموها فأدُّوها على وجهها، ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ عن أدائها وتكتموها، فإنَّ الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عن علمه ســـرٌّ ولا علانية، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، من ولي الشهادة وأداها على وجها الله يعلمه، ومن كتم الشهادة وأعرض عنها لغرض في نفسه، أو لهوى أو حاجة عنده يريدها من فلان أو فلان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

ومعنى أنَّ الله خبير بما يعمل النَّاس أنَّه ســـيجزيهم بما عملوا، فهذا فيـــه وعيـــد وتهديـــد، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النســـاء: ١٣٥]، أي: سيحاسبكم على ما أكننتموه في أنفسكم، سيحاسبكم على النوايا الخفية بين جوانحكم، وسيجازيكم عليها لأنَّه لا يضيع عنده شيء أبدًا، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

هذا هو العـــدل الَّذي جاء به الإســـلام، عدل الله لجميـــع عباد الله، للمسلمين والكافرين، للأبرار والفجار، للمطيعين والعصاة.

---

(١) قال ابن الجزري: واختلفوا في: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ فقرأ ابن عامر وحمزة (تَلُوا) بضم اللام وواو ساكنة بعدها، وقرأ الباقون بإسكان اللام، وبعدها واوان، أولاهما مضمومة والأخرى ساكنة. النشر في القراءات العشر (٢/٢٥٢).

QaradawiBooks.com

وهذه تسع آيات من هذه السورة نزلت تدافع عن يهودي اتّهم ظلما كما ورد في أسباب النزول، وذلك أن جماعة من ضعاف الإيمان من المسلمين اتهموا يهوديًّا ليبرئوا رجلًا منهم، وهمُّوا أن يقنعوا الرسول بهذا الأمر، وهَمَّ الرسول أن يُدافع عنهم، فنزلت الآيات التسع تُبَرِّئ اليهودي:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۞ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۞ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۞ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۞ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۞ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

كل هذه الآيات نزلت في الدفاع عن يهودي اتهم ظلمًا، هذا هو الإسلام، هذا هو عدل القرآن، هذا هو عدل الإسلام، هذا هو عدل الله الَّذي يتعامل مع النَّاس جميعًا على أنَّهم عباده لا يتحيز لأحد على أحد، ولا يحيف على أحد لحساب أحد؛ لأن الجميع خلق الله، والجميع عباد الله، والعدل عدل الله لجميع عباد الله.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

دروس في تفسير
سورة المائدة

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الدرس الأوَّل
النداء الأوَّل للمؤمنين في سورة المائدة

ممَّا استمعنا إليها في هذه الليلة في صلاة التراويح سورة المائدة، وسورة المائدة سورة مدنيَّة، بل هي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، الَّذي ينظِّم المجتمع الإسلامي الَّذي أنشأه رسول الله ﷺ، ذلك المجتمع النموذجي الَّذي أُسِّس على تقوى من الله ورضوان، والَّذي لم تكتحل عين الدُّنْيا برؤية مثله، إيمانًا وصلاحًا وأخلاقًا وجهادًا في سبيل الله، وغيرةً على حرمات الله، وقيامًا بواجبه نحو الدعوة إلى الله ﷻ.

نزلت هذه السورة الكريمة تُنظِّم المجتمع المسلم في أواخر المرحلة المدنيّة، ولهذا كثرت في هذه السورة هذه النداءات الإلٰهيَّة لجماعة المؤمنين: «يا أيُّها الَّذين آمنوا»، أكثر سور القرآن اشتمالًا على هذا النداء هي سورة المائدة، ابتدأت بهذا النداء، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وَرَدَ هذا النداء في سورة المائدة ست عشرة مرَّة، ستَّة عشر نداءً إلٰهيًّا للمؤمنين في سورة المائدة، بعضها أمر، مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥].

QaradawiBooks.com

وبعضها نهي، مثل قولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائـدة: ٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [المائـدة: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠١].

هذه نداءات اشـتملت على نواهٍ معينة، والمقصود من هذه النواهي حماية المجتمع المسـلم ممَّا يُخرجه عن طبيعته الإسلاميَّة، مثل النداء الثاني فـي السـورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

أيضًا نجد في هذه النداءات الإلٰهيَّة بعضها يُنظِّم شؤون العبادات، مثل قولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائـدة: ٢]، هذا نداء يتعلق بشـعائر الحج، ومثـل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وهـذا نداء يتعلق بالصـلاة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ [المائدة: ٩٥]، وهذا نداء يتعلق أيضًا بأمر الحج وقتل الصيد في الحرم.

وبعضها يتعلق بالمعاملات، مثـل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨]، وهذا نداء يتعلق

QaradawiBooks.com

بالعلاقة بغير المسلمين، فهي علاقة قائمة على العدل ورعاية القسط، مهما كان شنآن القوم وشدة عداوة المؤمنين لهم، أو شدَّة عداوتهم للمؤمنين، لا يحملنَّكم هذا على ألا تعدلوا معهم، ولكن هذا شيء وموالاتهم شيء آخر، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، لا توالوهم ولا توادوهم، وهم يمكرون بكم ويكيدون لكم، وهم يحادون الله ورسوله، هذا لا يجوز.

مع النداء الأوَّل في هذه السورة:

السورة امتلأت بهذه النداءات، ومن هذه النداءات هذا النداء الَّذي صدّر الله تعالى به سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾، لبيان أنَّ الوفاء بالعقود والعهود فريضة أساسيّة في الإسلام، سواء كانت عقودًا تجارية، أم عسكريَّة، أم سياسيَّة، مع المسلمين أو مع غير المسلمين، فكل العقود هي عهود، وكلها واجبة الوفاء، فلا يجوز لأحد أن يفسخ عقدًا عقده أو يرجع فيه بدون رضا الطرف الآخر، سواء أكان مكتوبًا أو غير مكتوب.

المسلم ملزم بكل اتفاق لم يحلّ حرامًا، ولم يحرّم حلالًا، الله تعالى يقول: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. ويقول رسول الله ﷺ: «**وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلَّا شَرْطًا حَرَّمَ حَلَالًا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا**»[1].

(١) رواه الترمذي في الأحكام (١٣٥٢)، وقال: حسن صحيح. وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (١٥٨٨) بعد أن ذكر تصحيح الترمذي: في هذا نظر؛ فكثير (ابن عبد الله) أجمعوا على ضعفه. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٥١/٤): وكثير بن عبد الله ضعيف عند الأكثر، لكن البخاري ومن تبعه كالترمذي وابن خزيمة يقوون أمره. وقال في بلوغ المرام (٨٧٦) بعد أن ذكر كلام الترمذي: وأنكروا عليه... وكأنه اعتبره بكثرة طرقه. وقال الألباني في الإرواء (١٣٠٣): صحيح لغيره. عن عمرو بن عوف المزني.

QaradawiBooks.com

إنَّ للعهود والعقود حرمةً ومنزلةً لا ينبغي للإنسان أنْ يستهين بها أو ينقضها، أو ينكث عنها ولو كان مقابل ذلك ملء الأرض ذهبًا، فإن الدُّنْيا كلها بفضتها وذهبها وأرضها وسمائها وعلويها وسفليها متاع قليل، ولذلك سمَّى الله هذا المتاع ثمنًا قليلًا، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٧٧].

كل شيء في الدُّنْيا هو متاع قليل، وثمن زهيد بجوار ما ينتظر المؤمنين من الثواب الجزيل عند الله في الآخرة، ويقول ﷺ: «**لكلِّ غادرٍ لواءٌ يوم القيامة**»[(١)]. راية ينصبها الله لمن غدر أو نكث ليفضحه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة؛ أنَّه غدر بعهد الله ولم يرع له حرمة.

إنَّ الله ﷻ حرّم نقض العهود وجعله من صفات الكفَّار والمنافقين، وأمر المسلم أن يفي بعهده ولو كان لكافر، لقد صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء: على أن من أتاه من المشركين رده إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلَّا بِجُلُبَّانِ السلاح (القِرَابُ بِمَا فِيهِ) فجاء أبو جندل يحجل في قيوده فرده إليهم[(٢)].

وما جاء في قصَّة حذيفة بن اليمان في غزوة الحديبية وقال: «**نفي لهم، ونستعين الله عليهم**»[(٣)]. فهو ﷺ في هذا المقام العصيب، في حالة الحرب والعداوة يفي بالعهود، ولم ينقض عهدًا قط عاهد أحدًا عليه.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٨٦)، ومسلم في الجهاد (١٧٣٧)، عن أنس.

(٢) رواه البخاري في الصلح (٢٧٠٠)، عن البراء بن عازب.

(٣) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٣٥٤)، عن حذيفة بن اليمان.

QaradawiBooks.com

ولم يبح الله نقض العهود إلَّا إذا ظهرت بوادر الخيانة من المعاهدين المشركين وذلك في قول الله ﷻ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي: لا تأخذهم على حين غِرة، بل أعلمهم قبل ذلك أنَّه لا عهد بينك وبينهم.. حتَّى تستوي أنت وهم في العلم بذلك. ثمَّ هاجمهم بعد ذلك.

وسورة التوبة أكَّدت على الوفاء بالعهود المؤقَّتة لأصحابها، ما لم يصدر منهم ما ينقضها. قال تعالى قبل الآية الَّتي يعدُّها الكثيرون آية السيف: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وفي نفْس السياق يقول سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

وذمَّ أهل الكفر لنقضهم العهود باستمرار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦].

وجعل نكث العهود من موجبات الحرب، فقال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٢، ١٣].

عن عبد الله بن عمرو: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أربع مَن كنَّ فيه، كان منافقًا خالصًا، ومَن كان فيه خصلة منهنَّ، كان فيه خصلة من النفاق حتَّى يَدَعَها: إذا حدَّث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان.

QaradawiBooks.com

وإذا عاهد الإنسان نفسه، أو عاهد ربَّه، دون أن يرى أو يسمع بذلك أحدٌ، فعليه أن يوفي بهذا العهد.. والنذور من هـذا القبيل، كما قال الله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وكما وصف الله الأبرار بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
حِلّ الطيّبات

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة: ٥].

هذه الآية الكريمة قرَّرت وأكَّدت حِلَّ الطيِّبات، بعد قول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ [المائدة: ٤]، فالإسلام لا يحرِّم على المسلمين طيبًا، كان الله تعالى قد حرم على بني إسرائيل بعض طيبات الدُّنيا، عقوبة لهم على سوء ما صنعوا، جزاء بغيهم، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]، وكما قال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

فلمَّا بعث الله محمدًا ﷺ جعل عنوان رسالته في كتب الأولين أنَّه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

جاء هذا الدين وأعاد الأمورَ إلى فِطْرتها وطبيعتها، وأحل ما كان محرمًا على بني إسرائيل، ولذلك لا يوجد في الإسلام طيب مُحرَّم، لا يُحرِّم الإسلام إلَّا الخبيث، لا يُحرِّم على النَّاس شيئًا نافعًا لهم أبدًا،

QaradawiBooks.com

التحريم في الإسلام يتبع الخبث والضرر، حيثما كان الشيء خبيثًا أو ضارًّا كان التحريم، قد لا يعرف النَّاس الضرر فيه أو الخبث فيه، قد يخفى عليهم ذلك، ولكن المؤمن مستيقن أنَّ الله ما حرَّم عليه هذا الشيء إلَّا وفيه ضرر، قد يكون ضررًا ماديًّا، قد يكون ضررًا معنويًّا، قد يكون ضررًا فرديًّا، قد يكون ضررًا اجتماعيًّا، قد يكون ضررًا أخلاقيًّا، قد يكون ضررًا آنيًّا، قد يكون ضررًا مستقبليًّا، قد يكون فيه مصلحة لك ولكن مضرة لغيرك، فمن أجل هذا حرَّم الله ما كان خبيثًا وضارًّا.

فلم يبق في الإسلام شيء طيب ـ أي تستطيبه الأنفس المستقيمة والعقول السليمة ـ إلَّا أحلَّه الله، رحمة بهذه الأُمَّة لعموم رسالتها وخلودها، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، ولم يبح الله لواحد من النَّاس أن يحرِّم على نفسه أو على غيره شيئًا من الطيِّبات ممَّا رزق الله، مهما يكن صلاح نيَّته أو ابتغاء وجه الله فيه، فإن التحليل والتحريم من حق الله وحده، وليس من شأن عباده، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وجعل سبحانه تحريم ما أحلَّه من الطيِّبات كإحلال ما حرَّم من المنكرات، كلاهما يجلب سخط الله وعذابه، ويردي صاحبه في هاوية الخسران المبين، والضلال البعيد، قال جل شأنه ينعى على من فعل ذلك من أهل الجاهليَّة: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥]، الَّذين كفروا من أهل الكتاب هؤلاء ـ رغم كفرهم ـ لهم أحكام خاصَّة، منها: جواز مؤاكلتهم وجواز مصاهرتهم، وأن تأكل من

QaradawiBooks.com

طعامهم، أي: من ذبائحهم؛ لأنَّه إذا ذُكر الطعام في هذا المقام لا يُقصَد به الحبوب والخضراوات؛ هذه تؤكل من أيّ إنسان، مسلم وملحد، إنَّما الأشياء الَّتي تتوقف فيها المسألة هي الَّتي يتعلق بها الذبح، أو اللحوم، الله ﷻ جعل لأهل الكتاب منزلة خاصَّة رغم كفرهم.

فهم في الأصل أهل كتاب سماوي، وإن حرَّفوا وبدَّلوا؛ فلهم معاملة خاصَّة دون غيرهم، أحلَّ أكل ذبائحهم، والتزوج من نسائهم، أن يتزوج المسلم غير مسلمة، تكون له ربَّة بيت وشريكة حياة وأم أولاده، وأن يصبح أصهاره من غير المسلمين، ويصبح أجداد أولاده وجداته وأخواله وخالاته من غير المسلمين، أيّ تسامح أعظم من هذا التسامح؟ وبعض المسلمين أيضًا على عكس الآخرين، يقولون: لا، هؤلاء في أهل الكتاب قبل أن يحرِّفوا ويقولوا بألوهيَّة المسيح.

هذا ليس صحيحًا، هذا لم يحدث متأخرًا، تحريف أهل الكتاب لكتبهم خصوصًا النَّصارى، وإيمانهم بألوهيَّة عيسى.. هذا ثبت منذ سنة ثلاثمائة وخمس وعشرين من الميلاد، في مؤتمر عالمي شهير، اسمه «مؤتمر نيقية»، وقرروا ألوهيَّة المسيح بشكل رسمي، وأصبح المسيح عندهم إلٰهَ حقٍّ من إلٰه حق! هكذا يقولون عنه، المسيح إلٰه حقّ من إلٰه حق[1]! فكفرهم بهذا لا شكَّ فيه، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]،

(١) دعي مجمع نيقية عام ٣٢٥م، للاجتماع لإيجاد حل إكليركي (كنسي) لمسألة ألوهية المسيح، فقد كان بعض القساوسة منهم آريوس ومَن تبعه، يرى أن المسيح ليس إلهًا ولا ابن إله، وبعد ثلاثة أشهر من البحث أكد المجمع ألوهية المسيح وتكفير آريوس ومن تبعه وطرده وإحراق الكتب التي لا تقول بألوهية المسيح.

QaradawiBooks.com

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ...﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، فهؤلاء كفار من غير شك، ولكن لهم منزلة خاصَّة، لماذا؟ لأنَّهم في الأصل أهل كتاب سماوي، ولذلك سُموا: «أهل الكتاب»، وينادِيهم الله بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٦٥]، إلخ.

فهم أهل كتاب، يعني هم في الأصل أهل دين سماوي، حرَّفوا فيه وبدَّلوه، ولكن تبقى بقية من هذا الدين.. هم يؤمنون بالألوهيَّة بصفة عامَّة، وإن كانت الألوهيَّة غير سليمة، ويؤمنون بالنبوة، ويؤمنون بالآخرة، ويؤمنون بالقيم الأخلاقيَّة، يؤمنون بوجوب التعبد لله. هذا جعل بينهم وبين المسلمين شيئًا مشتركًا؛ من أجل هذا أباح الله أن نأكل من ذبائحهم.

الأكل من ذبائحهم بكل شروطنا أم بشروطهم؟

ترى هل نأكل من ذبائحهم بكل شروطنا أم بغير شروطنا؟ خلاف بين الأئمَّة والفقهاء.. البعض يقول: لا بدَّ أن تتوفر فيها جميع الشروط، يعني: يذبحوا مثل ذبحنا، وأن يسمّوا مثل تسميتنا. والبعض يقول: لا؛ هذا استثناء لهم، هذه الآية خصصت الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وجاء عن بعض التابعين قولهم: أباح الله طعامهم وهو أعلم بما يقولون[1].

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص (١/١٥٣)، تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ومفاتيح الغيب للرازي (٥/٢٠١).

QaradawiBooks.com

هذه المشكلة طبعًا ظهرت في عصرنا حينما أصبح المسلمون ـ للأسف ـ يستوردون أطعمتهم من الخارج، ليست مشكلة في البلاد الَّتي نزورها في أوربا وأمريكا وغيرها فحسب، بل هي مشكلة في داخل بلادنا.

ممَّا يُذكَر للمملكة السعودية أنَّها وفَّرت من الدواجن في ديارها ما جعل السعوديين يكتفون اكتفاءً ذاتيًّا، ويُصدِّرون بعض هذه الدواجن إلينا وإلى غيرنا، وهذا شيء يُمدَح لهم. حبذا لو كان المسلمون جميعًا على هذه الوتيرة، إلى متى نظل نستورد من الدنمارك ومن هولندا ومن هنا وهناك، لماذا لا نفعل ذلك في بلادنا ونستغني عن غيرنا؟ هذا ما يجب علينا.

على كل حال، الأولى أن نحاول أن نستغني بأنفسنا.. يكون عندنا اكتفاء لهذا، فإذا احتجنا نفرض عليهم إرادتنا ونذبح الذبح المطلوب، فإذا لم نستطع يمكن أن نأخذ بعموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ [المائدة: ٥]، ولذلك أنا من قديم أفتيتُ بجواز أن نأكل طعام أهل الكتاب وليس من طعام الشيوعيين؛ لأنَّ الشيوعيين في الأصل لا دين لهم، فليسوا أهل كتاب، وخصوصًا أنَّ الذبح في البلاد الشيوعيَّة لا يصنعه الأفراد، إنَّما تصنعه الدولة، والدولة ملحدة لا دين لها، في دستورها: «لا إلٰه.. والحياة مادة».

وقد شدَّد الإسلام في أمر الذبح واهتمَّ به، لأنَّ مشركي العرب وغيرهم من أهل الملل جعلوا الذبائح من أمور العبادات بل من شؤون العقيدة وأصول الدين، فصاروا يتعبّدون بذبح الذبائح لآلهتهم، فيذبحون على النصب عندها أو يهلُّون باسمها عند الذبح، فحرَّم ما ذبح على النصب وما أهل لغير الله به.

QaradawiBooks.com

ولما كان أهل الكتاب أهل توحيد في الأصل، ثمَّ سرت إليهم نزعات الشرك ممَّن دخل في دينهم من المشركين الَّذين لم يتخلصوا تمامًا من أدران شركهم القديم، وكان هذا مظنَّة لأن يفهم بعض المسلمين أن معاملة أهل الكتاب في ذلك كأهل الأوثان؛ رخص الله تعالى في مؤاكلة أهل الكتاب كما رخص في مصاهرتهم، فقال تعالى في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة: ٥].

ومعنى هذه الآية إجمالًا: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ ﴾ فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ من اليهود والنَّصارى ﴿حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ بمقتضى الأصل، لم يحرمه الله عليكم قط ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة: ٥] كذلك أيضًا، فلكم أن تأكلوا من اللحوم الَّتي ذكوا حيوانها أو صادوه، ولكم أن تُطعموهم ممَّا تُذكون وتصطادون.

وإنَّما شدَّد الإسلام مع مشركي العرب، وتساهل مع أهل الكتاب، لأنَّهم أقرب إلى المؤمنين، لاعترافهم بالوحي والنبوة وأصول الدين في الجملة، وقد شُرعت لنا موادّتهم بمؤاكلتهم ومصاهرتهم وحسن معاشرتهم؛ لأنَّهم إذا عاشرونا وعرفوا الإسلام في بيئته ومن أهله، على حقيقته، علمًا وعملًا وخلقًا، ظهر لهم أن ديننا هو دينهم في أسمى معانيه، وأكمل صوره، وأنقى صحائفه، مبرأ من البدع والأباطيل والوثنيات.

وكلمة: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [المائدة: ٥] كلمة عامَّة تشمل كل طعام لهم: ذبائحهم وحبوبهم وغيرها، فكل ذلك حلال لنا، ما لم يكن محرمًا لعينه كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، فهذه لا يجوز أكلها بالإجماع سواء أكانت طعام كتابي أو مسلم.

QaradawiBooks.com

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [المائدة: ٥]، هذا ممَّا يسر الله ليقرب بين المسلمين وأهل الكتاب، قمة في تسامح الإسلام.. أن يجيز أن تأكل من طعام هؤلاء، وأن تتزوَّج من نسائهم.

ومعنى التزوُّج من نسائهم: أنَّهم يصبحون أصهارًا لك، والمصاهرة إحدى الرابطتين الأساسيتين الطبيعيتين بين البشر.. رابطة النسب ورابطة الصهر، الله تعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤] فأجاز الله مصاهرتهم ليقربوا من المسلمين، عسى أن يكون التزوج منهم سبيلًا إلى نشر الإسلام بينهم. حينما تعيش المرأة في ظل أسرة مسلمة تحت سلطان زوج مسلم وتحت سلطان مجتمع مسلم، لا شكَّ أنَّها تتأثر، ويدفعها ذلك إلى الإسلام. من أجل هذا أجاز الله الزواج من هؤلاء.

لكن هناك أربعة شروط ذكرتها في كتابي «فتاوى معاصرة» لا بدَّ أنْ يراعيها من يريد التزوُّج من هؤلاء، وهي:

أولًا: التحقُّق من كتابيتها.

ثانيًا: أن تكون عفيفة محصنة، فإن الله لم يبح كل كتابيَّة، بل قيَّد في آياته الإباحة نفسها بالإحصان، حيث قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [المائدة: ٥]، قال ابن كثير: والظاهر أنَّ المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنى، كما في الآية الأخرى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء: ٢٥][1]. وهذا ما أختاره.

(١) تفسير ابن كثير (٤٢/٣).

QaradawiBooks.com

ثالثًا: ألَّا تكون من قوم يعادون المسلمين ويحاربونهم.

رابعًا: ألَّا يكـــون من وراء الزواج بالكتابية ضـــرر محقق أو راجح، لا على الزوج، ولا على الأولاد، ولا على النســـاء المسلمات، ولا على المجتمع المسلم، وفي الحديث: «**لا ضررَ ولا ضرار**»[1].

(١) سبق تخريجه صـ٣٨١.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثالث:
من وجوه إعجاز القرآن وحفظه
وتعريف بالطالب الحافظ الصغير عبد الله شغَّالة

إنَّ أعظم ما أنعم الله به علينا، هي نعمة الإسلام. هناك نعم كثيرة أنعم الله بها علينا، فأنعم علينا بنعمة العقل، وأنعم علينا بنعمة البيان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، وأنعم علينا بتسخير ما في السماوات وما في الأرض ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، نعم لا تعد ولا تحصى، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ولكن أعظم النعم هي نعمة الإسلام.

وقد استمعنا إلى الربع الأوَّل من سورة المائدة، في الآية الثالثة منها يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والإسلام أكرمنا الله فيه، بخير كتاب أنزل، وخير نبي أرسل، فأفضل رسل الله عليهم الصلاة والسلام جميعًا هو مُحَمَّد ﷺ، وأنزل عليه أفضل كتبه، وبعثه إلى خير أمة، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

رسالة عامَّة خالدة:

ومن خصائص رسالة مُحَمَّد ﷺ، أنَّها الرسالة العامَّة الخالدة، بمعنى أنَّها ليست رسالة للعرب، وإن نزل القرآن بلسان العرب، وليست رسالة لأهل الشرق، وإن نزل أوَّل ما نزل بالجزيرة العربيَّة، وليست رسالة لجنس معين، الجنس الملون، أو الجنس الأبيض. بل هي رسالة للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، والشرقي والغربي، والجني والإنسي ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لم يوجد قبل مُحَمَّد ﷺ رسول يقول إنَّه بُعث للعالمين، وإنَّما كل رسول بُعث إلى قومه، فموسى عليه السلام بُعث إلى بني إسرائيل، حتَّى المسيح عليه السلام يقول لأتباعه: نحو الأمم لا تتجهوا، عليكم بخراف بيت إسرائيل[١]. وقال: بُعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالَّة[٢]. هذا القطيع الضال الشارد، بُعثت لأرده إلى الصراط المستقيم.

والذي أعلن وحده أنَّه بُعث للنَّاس كافَّة، هو مُحَمَّد ﷺ، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وأعلن مُحَمَّد ﷺ أنَّه خاتم النبيين، ختم الله به النبوات، فقال: «**أنا العاقب فلا نبي بعدي**»[٣]. أكمل الله به بنيان النبوة، ولم يعد بعده نبيٌّ، وقد صدَّقه الزمن، فقد مر أربعة عشر قرنًا أو تزيد الآن، ولم تظهر نبوَّة مسموعة.

---

(١) إنجيل متّى (١/١٠ ـ ٦).

(٢) إنجيل متّى (٢٤/١٥)، (٦/١٠، ٧).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٢) مختصرًا، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٤)، عن جبير بن مطعم.

QaradawiBooks.com

الله تعالى ضمن حفظ القرآن:

فالنبي الخاتم هو مُحَمَّد ﷺ، ولكي يضمن الله خلود هذه الرسالة، وختم هذه النبوة، ضمن حفظ القرآن، وهو مصدر هذه الرسالة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وانظروا هذه التأكيدات:

فهي جملة اسميَّة، وعلماء البلاغة يقولون: الجملة الاسميَّة أبلغ وأوكد من الجملة الفعليَّة.

وهذه الجملة الاسميَّة مؤكدة بـ «إنَّ».

واللام في الخبر ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ من المؤكِّدات.

وفعلًا حفظ الله هذا القرآن، حفظه حروفًا، وحفظه مقروءًا ومسموعًا، ومكتوبًا، حفظه محفوظًا في الصدور، متلوًّا بالألسنة، مكتوبًا في المصاحف، حتَّى إنَّ المصحف كما كُتب في عهد عثمان رضي الله عنه بقي كما هو، أدخلوا عليه النَّقْط والشَّكل، ولكنَّه بقي كما هو، فكلمة «الزكوة» كما كتبت في عهد عثمان رضي الله عنه، وكلمة «الربوا» كذلك، نحن نقرؤهما «الزكاة» و«الربا»، لكن لم يجرؤ أحد أن يغير فيه شيئًا عمَّا كتب.

كما أنَّنا نقرؤه بغنّه ومدّه، وبطريقة تلاوته كما كان يُقرأ في عهد النبيِّ ﷺ، وكما كان يقرؤه أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وجميع الصحابة رضوان الله عليهم.

ومن دلائل هذا الحفظ: أنَّك تجد هناك من يحفظ القرآن من الأعاجم، الَّذين لا يعرفون العربيَّة، ولا يفهمونها.

وقد كنتُ منذ نحو أربعين سنة أو أكثر مديرًا للمعهد الديني في قطر، وكنت أرأس اللجنة الَّتي تمتحن حفاظ القرآن الكريم، وقطر كان لها

QaradawiBooks.com

السبق في الحقيقة من قديم في عمل المسابقات، وإعطاء حفاظ القرآن جوائز ومكافآت، وقد كانت الجوائز في تلك الأيام (٣٠٠٠ ريال) وكانت شيئًا قيِّمًا جدًّا حينها.

والعجيب أنِّي وجدتُ أنَّ معظم الَّذين يحفظون القرآن وينالون الجوائز من الأعاجم، الإخوة من الباكستانيين والبنجلاديشيين والبورميين والهنود، الَّذين يعملون هنا في قطر، هم الَّذين يحصلون على الجوائز الأولى.

فكنت أمتحن هؤلاء، أقول له: اقرأ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾. فيقرأ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]، ويكمل القراءة وكأنَّه «مُسجِّل» ثمَّ أسأله عن اسمه، أقول له: ما اسمك؟ فلا يفهم ما أقول، وأعيدها عليه بالعامية وبالعربيَّة الفصحى، لا يفهم شيئًا من العربيَّة، سبحان الله كيف حفظ هذا القرآن؟! وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

حفاظ القرآن من الأطفال:

ومن إعجازه أيضًا: أنَّك تجد عشرات الألوف يحفظون القرآن، وخصوصًا من صبيان المسلمين في الكُتَّاب ومراكز تحفيظ القرآن. وقد كنتُ قديمًا أُباهي بأنِّي حفظت القرآن وأنا عمري ٩ سنوات، وطبعًا هذا شيء عظيم جدًّا، فلو جئت بأعظم «كاردينال» أو «أسقف» وقلت له: أتحفظ الكتاب المقدس؟! لا يمكن! هل تحفظ نصفه؟ أو ربعه؟ أو عُشره؟ لا يمكن.

QaradawiBooks.com

المهم أنَّه بعد مدَّة جاءنا طفل مصري «حوالي ٧ سنوات»، من بلد اسمها «البداري» من مركز «أسيوط»، لا زلت أذكر اسمه، وهو: «بدري أبو زيد»، وكرَّمته وزارة المعارف وكان على رأسها في ذلك الوقت الشيخ قاسم بن حمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، على أنَّه أصغر طفل يحفظ القرآن الكريم، وأعطوه جائزة وكرَّموه.

وبعد سنة أو سنتين نزلت إلى مصر، وجدت طفلًا، عمره (٧ سنوات) أيضًا، يحفظ القرآن الكريم كله، ويحفظ أيضًا خطبًا لبعض المشايخ، وهو في بلدة قريبة من قريتنا اسمها «شبين الكوم».

ومنذ سنتين أو ثلاثة، جاءنا هنا طفل إيراني، أيضًا وجدناه يحفظ القرآن الكريم، وعمره كذلك «٧ سنوات»، إلَّا أنَّ الَّذي أُحدثكم عنه اليوم هو طفل يحفظ القرآن الكريم كما أنزل، وعمره «٥ سنوات»، واسمه: «عبد الله الأمير شغالة» وهو طفل سوري من حلب الشهباء، وهو حاضر بيننا.

هاتوه هنا يجلس على الكرسي ليراه الحاضرون..

هذا هو الطفل عبد الله الأمير شغالة، الَّذي يحفظ القرآن الكريم كله، ويُجوِّده، قولوا: ما شاء الله لا قوَّة إلَّا بالله، ما شاء الله لا قوَّة إلَّا بالله، ما شاء الله لا قوَّة إلَّا بالله.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الرابع

﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ **[المائدة: ٨]**

فقد استمعنا إلى هذه الآية الكريمة من كتاب الله ﷻ من سورة المائدة، ومن الجزء السادس من أجزاء القرآن الكريم، والَّتي يقول الله تبارك وتعالى فيها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

ولنا مع هذه الآية من كتاب الله وقفات:

الوقفة الأولى:

أنَّ هذا النداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ نداء جديد على سمع البشريَّة، قرع سمع الجزيرة العربيَّة لأول مرَّة بعد مجيء الإسلام، فلم يكن النَّاس يعرفون التنادي بمثل هذه الأوصاف وهذه الألقاب، كانوا يتنادون بيا بني فلان، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا بني كنانة، يا آل قريش، يا عرب، يا عجم، يتنادون بالقبائل والأجناس والعناصر، ولكن ما كانوا يتنادون بمثل هذا النداء، هذا النداء نداء جديد، تقسيم للبشر على أساس جديد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

QaradawiBooks.com

الوقفة الثانية:

أن هـذا النداء لم يعـرف في القـرآن الكريم إلَّا بعـد الهجرة إلى المدينـة، حيث أصبح للمسـلمين مجتمـع، وأصبح لهم كيـان متميز مستقل، ثمَّ بدأ القرآن يُنشئ المجتمع الجديد والأُمَّة الجديدة على تقوى من الله ورضوان، يُنشـئ هذه الأُمَّة علـى المعاني الربانية والإنسـانيَّة والأخلاقيَّة الَّتـي يحبها الله تبـارك وتعالى ويرضاها، ينشـئ المجتمع النموذجي وفق أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه، ولهذا كان عبد الله بن مسعود يقول: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فافتح لها سمعك، فإنَّه خير تُؤمر به، أو شر تُصرف عنه[1].

الوقفة الثالثة:

أنَّنا لا نجد في القرآن يا أيُّها المؤمن افعل كذا، وإنَّما نجد في القرآن دائمًـا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فالخطاب للجماعـة، وذلك أنَّ القرآن يريد أن يتضامن أبناء الإسـلام فـي إقامة أحكام الله وفي تنفيذ شـرع الله ﷻ، لا يريـد أن يكون كل فـرد على حدتـه، وإنَّما يريـد جماعة متماسكة متضامنة متكافلة في القيام بأمر الله ﷻ، هذا ما يريده الإسلام، إذا خاطب يخاطب الجماعة المؤمنـة، وإذا خاطب المؤمن ربه يخاطبه أيضًا باسم الجماعة، كما إذا ناجاه في الصلاة يقرأ الفاتحة يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦]، وذلك ليغرس القرآن في نفس المؤمـن الروح الجماعيَّة والشـعور الجماعي والفكرة الجماعيَّة، إنَّه عضو في جماعة لا ينفصل عنها.

---

(١) رواه سعيد بن منصور في تفسيره (٥٠)، تحقيق د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، نشر دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

الوقفة الرابعة:

وقفة أخرى عند قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي أنَّ القرآن لم يذكر بماذا آمنوا، لم يقل الَّذين آمنوا بالله أو برسوله أو باليوم الآخر، وذلك أن هذا أصبح مصطلحًا معروفًا، الَّذين آمنوا أصبحوا فئة متميزة يعرفها العدو والصديق، فهم الَّذين رضوا بالله تعالى ربًّا وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، هم المؤمنون الصادقون الَّذين إذا ذُكِرُوا عُرِفُوا من هم، عُرِفُوا بالإيمان، ولا إيمان غير الإسلام، وإلا بما جاء به مُحَمَّد ﷺ من الهدى ودين الحق، هذه وقفة.

الوقفة الخامسة:

وقفة خامسة هنا، وهي أنَّ هذه السورة سورة المائدة تكرر فيها هذا النداء، وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، بدأت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتكرر فيها هذا النداء الإلٰهي للجماعة المؤمنة ست عشرة مرَّة، لأنَّها سورة تُنشئ اللبنات الأخيرة واللمسات الأخيرة لهذا المجتمع الَّذي يحبه الله تبارك وتعالى ليعطي النموذج الأمثل للبشريَّة لتحتذي ولتسير على منواله ولتهتدي بهداه وتقتبس من سناه.

الوقفة السادسة:

وهنا وقفة سادسة وهي أنَّ هذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، يقابل نداء آخر مرَّ في سورة النساء وهو قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، هناك كان النداء للقيام بالقسط مخافة أن يُحابي الإنسان مَنْ يحب، وهنا النداء الإلٰهي للقيام بالقسط مخافة أن يحيف الإنسان على من يكره، فكثيرًا

QaradawiBooks.com

ما تؤدي عواطف المحبة أو عواطف البغض والشنآن إلى الخروج عن العدل والقسط، والله يريد لجماعة المؤمنين أن يقفوا عند العدل وعند القسط الإلٰهي أحبوا أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، لا يحابون صديقًا ولا يجورون على عدو، ولهذا في هذه الآية يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فالمؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، كلمة «قوَّامين» هذه صيغة مبالغة كما نقول في اللغة العربيَّة، هناك كونوا قائمين، لكن هذه ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ﴾، وكلمة كن قائمًا بكذا أبلغ من كلمة قم بكذا، وقم بالقسط أبلغ من أقسط، فكأن هنا عدة مبالغات، بدل أقسط: قم بالقسط، وبدل قم بالقسط: كن قائمًا بالقسط، وبدل كن قائمًا بالقسط: كن قوَّامًا بالقسط، والقسط هو العدل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، شهداء لله، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، أقيموا العدل لله، اعدلوا بين النَّاس لله، هذا هو الَّذي يجعل الإنسان يعدل مع من يحب ومن يكره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، جاء الإسلام بالعدل للنَّاس كل النَّاس، حتَّى مع الأعداء الَّذين يضمر المسلم أو يضمرون للمسلم شنآنًا، والشنآن شدَّة البغض وشدة العداوة، ومع هذا لا ينبغي أن يحمله هذا على ترك العدل، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨]، في أوَّل هذه السورة قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، لا تحملكم

QaradawiBooks.com

شـــدَّة عداوتهم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم، ولكن هنـــا ارتفع منزلة أخرى وقفز قفزة أخرى، لا يريد فقط تـــرك الاعتداء ولكن يريد أن تعدل مع من تكره.

هذا هو الَّذي جاء به الإســـلام، فالقسط هو الَّذي بعث الله به الرسل وأنزل بـــه الكتـــب، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي: بالعدل، ليعطى كل ذي حق حقه، ليوضع كل إنســـان فـــي موضعه لا يحابى ولا يجـــار عليه، لا يخاف ظلمًـــا ولا هضمًا، هذا هو عـــدل الله، عدل البشـــر يمكن أن يحابي، ويمكن أن يميز ويمكن أن يتحيز ويمكن أن يجور، ولكن عدل الله لا يجور ولا يحيف ولا يحابي.

أنزل الله تعالى في القرآن الكريم تســـع آيات في سورة النساء تنتصر ليهودي اتُهم ظلمًا من جماعة من المســـلمين من ضعاف الإيمان، فنزل القرآن يُبرِّئه ويدافـــع عنه، وقد همَّ الرســـول ﷺ أن يدافع عن المتهمين الحقيقيين ويتهم هـــذا اليهودي، فنزل قـــول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝ هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ

QaradawiBooks.com

إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۞ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

وهكذا نزلت هـذه الآيات دفاعًا عن يهودي اتُّهـم ظلمًا، فهذا هو عدل الله.

وفي خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه تحاكم عليٌّ رضي الله عنه مع رجل نصراني، وقيل يهودي، تحاكم علي إلى قاضيه شريح في درع وجدها أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه مـع هذا الرجل، قال علي: يا فلان هذه الدرع درعي. قال الرجل: يا أمير المؤمنين، لسـت عندي بكاذب ولكن هذه الدرع درعي. قال علي: فلنحتكم إلى شريح، فاحتكم أمير المؤمنين وهذا الرجل النصراني إلى شريح قاضيه، قال له: شريح: ألك بينة يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. وفـي بعض الروايات أنَّه قال: عندي ابني الحسـن يشـهد لي. قال شـريح: لا يا أمير المؤمنين، ابنك لا يشـهد لك، قال شريح: إذا يحلف الرجل ويستحق هذه الدرع، فحلف الرجل، فحكم له القاضي شريح بالدرع، الإجراءات هي هي، البيِّنة على من ادَّعى واليمين على من ادُّعي عليه.

وهنا أخذ الرجل اليهودي الدرع ومشـى خطوات ثـمَّ أدبر عائدًا وقال: قفوا، أما إنِّي أشهد أن هذه الأحكام أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يحاكمنـي إلـى قاضيه فيحكـم القاضي لرجـل يهودي علـى أمير المؤمنين؟! أما إن هذه أحكام أنبياء، أما إنِّي أشـهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسـول الله، يا أمير المؤمنين هذه الدرع درعك سـقطت

QaradawiBooks.com

منك وأنت عائـد من صفين فطمعت فيها والتقطها وادعيتها لنفسـي ولكنَّهـا درعك. هنا قال الإمـام علي رضي الله عنه وكـرم الله وجهه: أما وقد أسلمتَ فهي منِّي لك[1].

ماذا نقول في هذه القصَّة؟ من البطل؟ هل البطل هو أمير المؤمنين الَّذي كان يسـتطيع أن يأخذ هذه الدرع بالقوَّة ويأمر جنوده أن يأخذوها منه وهو يعلـم أنَّه كاذب، ولكنَّه احتكم إلـى القاضي كما يحتكم عامَّة النَّاس، ووقف مع خصمه أمام القضاء سـواء بسواء، هل البطل هو أمير المؤمنين؟

أم البطل هو القاضي الَّـذي أبى إلَّا أن يُنفِّذ الإجـراءات على أمير المؤمنين كما يُنفِّذها على أي إنسـان، أمير المؤمنين كغيره، المسلم مع النصراني، الأمير كالمأمور، هل البطل هو هذا القاضي؟

أم البطل هو هذا الإسلام نفسه الَّذي صنع مثل هذه النماذج البشريَّة الرفيعة المسـتوى، الَّتي تحتكم إلى شـرع الله عزوجل وتنفذ العدل في أي إنسان ومع أي إنسان، هذا هو العدل الإسلامي، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، بعث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة الأنصاري إلى يهود ليخرص عليهم ثمار نخيلهـم، والخرص هو تقديـر تقريبي، وقد كان النبي ﷺ عاهدهم على أن يزرعوا أرض خيبر ولهم الشـطر وللنبي ﷺ الشطر، أي: نصف الثمرة لهم ونصف للدولة المسلمة.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٤٠/٤).

QaradawiBooks.com

فذهب عبد الله بن رواحة إليهم وقال عليكم كذا وكذا، فأراد اليهود على عادتهم أن يغروه بالرشـــوة، فقالوا له: ندفع لك مبلغًا وخفِّف عنا، فقال: يا أعداء الله ترشـــونني؟ والله لقد جئتُ من عند أحبِّ خلق الله إليَّ ـ يعني رســـول ﷺ ـ وإنَّكم لأبغض عندي من القردة والخنازير، ولكن ذلك لا يجعلني أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شـــئتم فلكم، وإن أبيتم فلي. فقـــال يهود: بهذا قامت الســـماوات والأرض قد أخذنا، فاخرجوا عنا[1].

بهذا العدل مع الصديق والعدو، مع المســـلم وغير المســـلم قامت السماوات والأرض، هذا هو العدل الَّذي جاء به الإسلام، والَّذي أرسته هذه الآية وأمثالها من آيـــات الكتاب العزيز: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ملاك الأوامر والنواهي وتنفيذ الأحكام كلها هو التَّقوى الَّتي تنبع من القلب، مـــن الضمير، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يجازي كل إنسان على ما قدم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، فهو وعد ووعيد.

(١) سبق تخريجه صـ٦٤٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الخامس
قصَّة ابْنَي آدم

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

من مهامِّ الرسول ﷺ: تلاوة آيات الله:

من مهمَّة الرسول ﷺ أن يتلو على النَّاس آيات الله، كما جاء في القرآن: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢].

تلاوة آيات الله شُعبة من الشعب الأساسيَّة من مهمَّة الرسالة المحمديَّة، سواء كانت هذه الآيات تتضمن أحكامًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلخ الآيات،

QaradawiBooks.com

أو كانت تتضمَّن قصصًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١] وكما في هذه الآيات: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧].

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتلو على قومه نبأ ابني آدم بالحق، أي: بالصدق الَّذي لا يشوبه الكذب، وبالحق الَّذي لا يلتبس به الباطل، لأنَّه الجد ليس بالهـزل، ويتلوها بالحق بعيدًا عمَّا شـاب هذه القصص من الخرافات والأسـاطير والأباطيل الَّتـي ألصقها بها بنو إسـرائيل، فبنو إسـرائيل أضافوا إلى هذه القصص حكايات وأساطير وإضافات ما أنزل الله بها من سلطان، كما في هذه القصَّة.. ابني آدم.

بعض المفسِّـرين يقول: ابنا آدم ليس من الضروري أن يكون ابني آدم من صلبه، إنَّما قصَّة من قصص بني إسرائيل. وهذا خلاف الظاهر؛ كلنا أبناء لآدم، إنَّما ﴿ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ [المائدة: ٢٧] يدل على أنَّهما من صلبه، وممَّا يدل على ذلك أنَّ القصَّة كما يبدو من سـياقها وقعت في فجر تاريخ البشريَّة، حينما بعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريَه كيف يواري سـوءة أخيه، الإنسـان ما كان يعلم إذا مات الميت ماذا يصنع فيه، فعلَّم الله الإنسان ذلك بواسطة الغراب، وهذا يدل على أنَّ الأمر وقع في فجر التاريخ، وهذا يدل على أنَّ القصَّة لابني آدم من صلبه، ولا عجب أن يقع هذا من ابني آدم، وهذا يدلنا على أنَّ الشر قديم في تاريخ البشريَّة، حين كانت البشريَّة من رجل وامرأته وأبنائه حدث هذا.. اعتدى الإنسـان الشرير على الإنسان الخيِّر، الشر قديم والخير قديم، والحياة تتغير، والدنيا تتطوَّر، ولكن جوهر الإنسان هو هو.

الذين يقولون بالتطور والتبدل، صحيح؛ الأشـياء تتطوَّر وتتغيَّر، إنَّما جوهر الأشياء باقٍ، يمكن أن تتغيَّر الحياة.. الصحراء تطغى على الأرض الخضراء، وأحيانًا تُزرع الصحراء فتخضرُّ، والبحر يأكل من اليابسة، ولكن

QaradawiBooks.com

السماء هي السماء، والأرض هي الأرض، والجبال هي الجبال، فهناك ثبات وتغيُّر، ثبات في الجوهر وتغيُّر في المظهر، التفاصيل تتغير والجوهر ثابت؛ الإنسان هو الإنسان، منذ ابني آدم وإلى اليوم، هذه حقيقة.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧]، قرَّبا إلى الله قربانًا، قيل: إن واحدًا منهم كان زراعًا فلاحًا يحرث في الأرض، وقدَّم شيئًا من حرثه لله، والثاني قدَّم غنمًا، وكان راعيًا، ولكن الله تعالى تقبل قربان الفلاح ولم يقبل قربان الراعي.

كيف كان القبول؟ الله أعلم، قيل: إنَّ الأقدمين كان إذا قدموا قربانهم جاءت نار فأكلته، وربَّما كان الوحي يأتي إلى آدم، أو غير ذلك. المهمُّ أنَّهما عرفا أن أحد القُرْبَانَيْن تقبَّله الله، والثاني رفضه الله ولم يقبله.

هذه هي القصَّة، النَّاس تزيَّدوا، الإسرائيليَّات أضافت إضافات، وقالت: كانت حواء تلد توءمين، ذكر وأنثى، فالأول كانت أخته جميلة، والثاني كانت أخته غير جميلة، فقال: أنا أتزوج البنت الَّتي معي، وتأخذ أنت الَّتي معك، إلخ.

هذا كلام ما أنزل الله به من سلطان، ليس هناك دليل، لا من القرآن ولا من السُّنَّة، القرآن يجعل السبب هو تقبُّل قربان أحدهما وعدم التقبُّل من الآخر، فحسده؛ كيف يُقبل قربانه ويُرفض قرباني؟ ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧]، هذا هو الخبث، وهذا هو الشر، الاثنين يسمونهما: قابيل وهابيل، لم يأت في القرآن اسمهما، إنَّما هذا من الإسرائيليَّات، في التوراة: أنَّ الأوَّل اسمه «قايين»، إنَّما اشتهر عند العرب اسم «قابيل»، قابيل الشرير، وهابيل الخيِّر الطيب.

QaradawiBooks.com

﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧]، انظروا إلى الإنسان الظالم المعتدي! المعتدي ليس لديه منطق، ما عنده حُجَّة، تقبّل الله قربان أخيه ولم يقبل قربانه، فتوعَّد الَّذي لم يُتقبَّل قربانه بقتل شقيقه الَّذي تُقُبِّل قربانه، ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فردَّ الَّذي تُقُبِّل قربانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: إنَّ الله يتقبَّل من أصحاب القلوب النقيَّة المخلصة لله، أنا قدَّمت أفضل ما كان عندي فتقبل الله مني، وأنت لم تقدِّم شيئًا طيبًا فلم يتقبل منك.

إذن فلتبحثْ عن نفسك، لعلك مراءٍ.. لم تخلص النيَّةَ لله، لعلك قدَّمتَ مالًا غير صالح، لعلك كذا.. لعلك كذا، فتِّشْ عن نفسك بدل أن تعتدي على غيرك. ولكن لم يفعل ذلك، ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقضية القبول خطيرة جدًّا، جعلت بعض السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يبكي.. أحد الصالحين الكبار بكى بكاء شديدًا في مرض موته، ذهب إليه بعض تلاميذه فقالوا: ما يبكيك؟ نحن ما رأينا منك شرًّا طول عمرك وأنت تتعبَّد لله وتفعل الخيرات وتعلّم النَّاس...، فقال لهم: وما يدريني أنَّ شيئًا قد قُبِل مني، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][1]!

والتَّقوى ليست بالمظاهر، النبي ﷺ أشار إلى صدره وقال: «**التَّقوى هاهنا، التَّقوى هاهنا، التَّقوى هاهنا**»[2] التَّقوى في القلب، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (١٧٩)، عن عامر بن عبد الله.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧١٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

مخافة الله ﷻ:

ثم قال له في أدب وكرم: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وهذا يدل على أنَّهم كانوا يعرفون القتل؛ لأنَّهم كانوا يصطادون، إذا امتدَّت يدك إليَّ لتقتلني، ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾ [المائدة: ٢٨]، لماذا؟ ليس لأنِّي ضعيف عن مقاومتك، كل ما في الأمر: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، أنا أستطيع أن أقابل الشرَّ بمثله، وأقابل العدوان بمثله، وأكيل الصاع صاعَيْن، ولكنِّي لا أريد سفك الدماء.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وهذه هي القضيَّة الأساسيَّة، الَّذي يردع النَّاس عن الشر ليس القوانين، وليست الشرطة وحدها، وليست هذه الاحتياطات الأمنية، هذه الأمور لا بدَّ منها نعم، ولكنَّها وحدها لا تكفي، لا بدَّ من شيء في داخل الإنسان، لا بدَّ من هذا الوازع الذاتي الَّذي نسميه الآن «الضمير»، لا بدَّ من هذا الضمير الحي، الَّذي يسكن بين جنبي الإنسان، الَّذي سمَّاه القرآن: «النفس اللوامة»، لا بدَّ من هذا الشيء.. الخوف من الله ﷻ.

الخوف من الله هو الَّذي يجعلك تدَع الجريمةَ وأنت قادر عليها، هو الَّذي يجعلك تترك الحرام وهو ميسَّر لك، كما قال يوسف عليه السلام وقد راودته الَّتي هو في بيتها عن نفسه وقالت: هيت لك، قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، الخوف من الله هو الَّذي يجعلك تترك الثروة والمال أمامك، وتستطيع أن تختلس منها وأن تنهب منها، وأن تأخذ منها بالآلاف والملايين، ولكنك ترفض هذا وتأبى إلَّا أن تعيش بالحلال، وتترك الحرام ولو كان ملايين، هذا هو الشيء الداخلي..

QaradawiBooks.com

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨، ٢٩].

أراد أن يخوِّفه ويحمِّله المسؤوليَّة ويضع أمامه النار، ولا يحب أن يدخل في النار، إنَّما أراد تخويفه بهذا الأمر: لو قتلتني، ستحمل إثمي وإثمك. كما جاء في الحديث أنَّ الإنسان المظلوم يأخذ يوم القيامة من حسنات الظالم، لو كان له صلاة أو صيام أو أي عمل صالح، ليس هناك تعامل بالدينار والدرهم، إنَّما هناك الحسنات والسيئات، فيأخذ من حسنات صاحبه حتَّى يستوفي حقه، يقال له: خذ من حسناته، فإن كانت حسنات الظالم لا تفي؛ فتوضع سيئات المظلوم على الظالم، والعياذ بالله[1].

ولكن هذا الكلام الطيِّب لم يُليِّن قلب هذا الأخ الطاغية، هذه الموعظة البليغة لم تغن عنه شيئًا، لم تؤثِّر في نفسه، غلبته نفسه الشريرة الخبيثة، ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، القتل جريمة في حد ذاتها، فكيف إذا كانت قتل الأخ لأخيه، ابن أمه وأبيه؟! وقتله بلا ذنب جناه، ولا جريمة اقترفها.

﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، وأي خسارة أكبر من أن يقع الإنسان في هذه الجريمة البشعة؟ هدم بنيان الله ﷻ، وسفك الدم الحرام.

الإنسان منذ كانت الأسرة واحدة، من رجل وامرأته وأبنائه وبناته، قتل الإنسان أخاه، الشر ـ كما قلت ـ قديم. صحيح أنَّ الحياة تطورت الآن،

(١) رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وتطوَّرت أسلحة الجرائم، وأصبح الإنسان بدل أن يقتل واحدًا واحدًا، يستطيع أن يقتل بلدًا بأسره.. يرمي عليها قنبلة، ويستطيع أن يخفي الجثة بالمحاليل وغيره بحيث يصبح ولا أثر لها، إنَّما الشر هو الشر.

الإنسان يتعلم ممَّن هو دونه:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]، لم يعلَم الإنسان كيف يواري القتيل، تعلَّم خلال السنين والعقود والقرون، كل مدَّة يتعلَّم فيها شيئًا جديدًا، عرف كيف يقتل أخاه ولكن لم يعرف كيف يدفن أخاه، ما عرف الدفن قبل هذا؛ فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه، جاء الغراب ومعه غراب ميِّت، فأخذ يحفر في الأرض برجليه ومنقاره، وعمل حفرة ووضع فيها الغراب الميِّتَ، هذا الحيوان الَّذي علَّمه الله بالغريزة سبق الإنسانَ الَّذي يتعلم بواسطة العقل.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يحفر فيها ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]، اللام: لام العاقبة، أيْ: ليتعلم الإنسان منه ﴿كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾، والسوءة هي: العورة، والمراد جثة أخيه، ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١]، وفعلًا حفر في الأرض ووضع سوءة أخيه، تعلَّم الإنسان من غراب، الإنسان يتعلَّم طوال حياته، ويتعلَّم ممَّن هو دونه.

في هذه السورة تعلَّم الإنسان من غراب، وفي سورة النمل تعلَّم الإنسان من الهدهد، بل تعلَّم نبي الله سليمان من هدهد، حينما استبطأه وقال: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۞ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ

QaradawiBooks.com

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٤] إلخ الآيات، سليمان عليه السلام تعلَّم من هدهد، بعض العلماء ناقشه أحد تلامذته، فقال له: ترد علي وأنت تلميذي؟! فقال له: إنَّ الهدهد قال لسليمان كذا، وأنا لست أقل من الهدهد، وأنت لست أعظم من سليمان.

في هذه القصَّة ارتقت الإنسانيَّة أوَّل خطوة نحو التمدّن والحضارة والرقي، حينما تعلَّم الإنسان كيف يواري سوءة أخيه، أوَّل خطوة في مسيرة الرقي البشري.. أنَّك تتخلص من الأشياء المكروهة وتواريها، هذه خطوة إلى الإمام.

وخطوة أخرى أن يتعلَّم الإنسان ممَّن هو دونه، ثمَّ بالتراكم تتوالى المعارف، الإنسان يتعلَّم من غيره، ويتعلَّم بالتجربة والمحاولة، وقد تعلَّم الإنسان طوال تاريخه، حتَّى وصلنا إلى هذا الكم الهائل من المعلومات، عصرنا يسمى: «عصر الثورة المعلوماتية»، فيه انفجار في المعلومات، السيل المتدفق من المعارف والمعلومات هذا بدأ منذ تعلم الإنسان من الغراب.

ابن آدم الأوَّل هو أوَّل مَن سَنَّ القتل:

﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، هل هذا ندم التوبة؟ الظاهر أنَّه ليس ندم التوبة؛ لأنَّه كما جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ: «**ما من نفسٍ تُقتل إلَّا كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كفلٌ من دمها؛ ذاك أنَّه أوَّلُ من سنَّ القتل**»[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥)، ومسلم في القسامة (١٦٧٧)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

وفي حديث آخر: «**من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[١].

فطوبى لمن سنَّ السنن الحسنة للناس، وويل، ثمَّ ويل، ثمَّ ويل لمن سنَّ السُّنَّة السيِّئة، فاقتدى به غيره، فكل من اقتدى به يحمل شيئًا من وزره؛ هو الَّذي فتح الباب، هو الَّذي ابتكر هذا الأمر فتبعه الآخرون.

وقول النبي ﷺ: «**على ابن آدم الأوَّل كفل من دمها**»، أيْ: من وزر هذه الجريمة، يدل ذلك على أنَّ الندم لم يكن ندم توبة، أو يدلُّ لما جاء عن ابن عبَّاس[٢] وبعض السلف من أنَّ القاتل لا توبة له؛ لأنَّه هناك حق الورثة، وهناك حق المقتول نفسه، فالورثة يمكن أن يأخذوا حقهم بالقصاص، ولكن المقتول أين حقه؟ ولكن يبدو أنَّه ندم على حمله أخاه مدَّة طويلة ولم يهتدِ إلى هذا الأمر، فندم على هذا الشيء، ولكنَّه لم يكن ندم توبة.

الخير والشرُّ قديم:

القصَّة ـ أيُّها الإخوة ـ ذكرها الله تبارك وتعالى لتعرِّفنا بأنَّ الخير قديم والشر قديم، وأنَّ الشر يغلب الإنسان إذا لم يغلبه بالإيمان ومخافة الله تعالى، الابن الَّذي يخاف الله لم يرتكب الشر، والابن الَّذي خلا قلبه من المخافة طوَّعت نفسه قتل أخيه فقتله. فإذا أردنا إنسانيَّة راقية.. إنسانيَّة خيِّرة، فعلينا أن نزرع مخافة الله.

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الديات (٢٨٣٢٦)، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (٣٤٣/٤): رجاله ثقات.

QaradawiBooks.com

ولتُعَرِّفنا أن الظلم من طبيعة النفس البشريَّة، يقول الشاعر:

والظُّلْمُ من شِيَمِ النُّفوسِ فإن تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يظلمُ[1]

فالإنسان ظالم إذا تُرك وحده لغريزته، إذا لم ينتفع بالإيمان الَّذي يهديه ويرشده ويحميه، يوجد في بني الإنسان: الشرير، الَّذي يحسد أخاه فلا يتورَّع عن قتله طغيانًا بلا ذنب جناه، كما يوجد الإنسان: الخيّر المهذب، الَّذي لا يقترف الشر، ولا يفكر فيه، ولا يقابل السيِّئة بالسيِّئة، إنَّه الصنف الرباني الَّذي عاش لله وبالله، يكف يده عن الشر، ولسانه عن الأذى، ولا يقابل السيِّئة بالسيِّئة، بل يدفع بالَّتي هي أحسن، لا خشية من أحد بل خشية من الله ﷻ، كهذا المؤمن الخيِّر ابن آدم الأول، حين هدده أخوه بالقتل، لم يرد عليه السوء بمثله، بل قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

هناك أناس يقولون: إنَّ المجتمع هو سبب المظالم، ولكن حينما قتل ابن آدم أخاه لم يكن هناك مجتمع، لم يقتل أحد أحدًا قبل ذلك، ولذلك تحير كيف يدفن أخاه، لم يعرف الدفن حتَّى بعث الله له غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه.

كانت هذه أوَّل جريمة من بني آدم في هذه الأرض؛ أوَّل ظلم وقع في الأرض هو ظلم ابن آدم الأوَّل هذا حينما قتل أخاه، واشتدَّ الظلم وانتشر في الأرض، أصبح النَّاس يستعملون القوة، ولا زلنا نراها في ألوف وملايين من ذرية آدم، يتمثل فيها: قابيل وهابيل ـ كما يسميان ـ وستظل البشريَّة تراها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) البيت للمتنبي في ديوانه صـ ٥٧١.

QaradawiBooks.com

لا تستطيع أن تقول كما يقول بعض علماء الاجتماع: إنَّ المجتمع هو الَّذي يعلِّم الإنسان الجريمة؛ فلم يكن هناك مجتمع علَّم ابن آدم قتل أخيه، ما علَّمه أحد، بل نفسه علَّمته ذلك، النفس قد تكون هي المصدر الشِّرِّير للفعل، ولذلك القرآن قال هنا: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

وكذلك السامري حينما أضلَّ بني إسرائيل بعبادة العجل، لما سأله موسى عن خَطْبه قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦]، فالنفس هي الَّتي دفعت ابنَ آدم إلى أن يفسد في الأرض ويقتل أخاه.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الدرس السادس
الحكم بغير ما أنزل الله

عناية سورة المائدة بالمجتمع المسلم:

سورة المائدة إحدى السور الطوال في كتاب الله ﷻ، وهي سورة مدنيَّة، شأنها في ذلك شأن سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، أنَّها جاءت بأحكام تنظم المجتمع المسلم، وتقيمه على الأساس المكين، الَّذي لا يخطئ ولا يضل، تقيمه على ما أنزل الله ﷻ من الهدى والبينات.

جاءت هذه السورة لتنظيم الجماعة المؤمنة، ولذلك بدأت منذ الآية الأولى بهذا النداء الإلٰهي للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وهي أكثر سورة جاء فيها هذا النداء بهذه الصيغة، ستَّة عشر نداءًا بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، في هذه السورة؛ لأن الله ﷻ أراد أن يميز الجماعة المسلمة، بما لها من مبادئ، وما لها من أحكام، خصوصًا في أواخر العهد المدني.

سورة المائدة من أواخر ما نزل:

سورة المائدة كما جاءت بذلك الأخبار، من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، ولذلك قال ﷺ: «**المائدة من آخر القرآن تنزيلًا فأحلُّوا حلالها وحرِّموا حرامها**»[1]، وفيها نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، نزل ذلك في

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن صـ ٢٣٩، عن عطية بن قيس مرسلًا.

QaradawiBooks.com

يوم الجمعة وفي وقفة عرفات، وفي حجة الوداع، وقبل أن ينتقل النبي ﷺ بالرفيق الأعلى بنحو ثمانين يومًا.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ رجلًا من اليهود قال (وفي رواية: رجالًا من اليهود قالوا له): يا أميرَ المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الَّذي نزلت فيه على النبيِّ ﷺ، وهو قائم بعرفة، يوم جمعة[1].

تميُّز المجتمع المسلم بالحكم بما أنزل الله:

هذه السورة الَّتي أتمَّ الله بها النعمة، وأكمل بها الدِّين، وشرع بها الأحكام الإلٰهيَّة، الَّتي يقوم عليها المجتمع المسلم، المجتمع الَّذي رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، ومن أهم ما يميز هذا المجتمع، هو الحكم بما أنزل الله، والولاء لله تعالى ولرسوله ولجماعة المؤمنين، وهذا ما أكَّدت عليه السورة، الحكم بما أنزل الله، مهما كان هذا الحكم شديدًا في نظر بعض النَّاس، فقد جاءت هذه السورة بأحكام بعض الحدود، مثل حد الحرابة، قطع الطريق، ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣] وهو ما يسمَّى أيضًا بحد السرقة الكبرى، السرقة مع قطع الطريق، وترويع الآمنين، وهناك حد

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٤٥)، ومسلم في التفسير (٣٠١٧).

QaradawiBooks.com

السرقة الصغرى، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

مسؤوليَّة الأمة عن تطبيق شرع الله:

وهذا الخطاب للأمَّة كلِّها، فاقطعوا أيديهما، مثل الخطاب الآخر في الزاني والزانية، أو الزانية والزاني ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] فكيف تخاطب الأمة بالجلد والقطع، مع أنَّ الَّذي يقطع ويجلد هم الحكام؟ هذا الخطاب يدل على أنَّ الأمة مسؤولة بالتضامن عن إقامة حدود الله، وتنفيذ شرع الله، وتطبيق أحكام الله في الأرض، الأمة كلها مسؤولة، ولذلك الخطاب متوجه إلى الجميع، وإن كان الَّذي يتولى التنفيذ هم المسؤولون في القمة، ولكن في الواقع المعيش الحُكَّام لا يُنَفِّذون هذه الأحكام؛ لا يقطعون يد السارق، ولا يجلدون ظهر الزاني، الكلُّ إذن مشترك، القاضي يحكم، والسلطة التنفيذيَّة تُنَفِّذ، والأُمَّة تراقب، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتطالب إذا حدث تقصير في هذا الأمر.

أوصاف من لم يحكم بما أنزل الله:

الأمة كلها مسؤولة عن تنفيذ ما أنزل الله، وإلَّا دُمغت بما ذكرته هذه السورة من الكفر، والظلم، والفسوق، فقد جاءت في هذه السورة آيات ثلاث:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، آيات ثلاث.

QaradawiBooks.com

ولو كان رمحًا واحدًا لاتَّقَيْته ولكنَّــه رمحٌ وثــانٍ وثالثُ[١]

صحيحٌ أنَّ هذه الآيات جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب، عن أهل التــوراة والإنجيل، ولذلــك بعض النَّــاس الحرفيين، الَّذين يريدون أن يتحلَّلوا من أحكام الله قالوا: هذه الآيات جاءت في شــأن أهل التوراة، وشأن أهل الإنجيل، وهذا كلام قيل من قديم، وردَّ عليه الصحابة رضوان الله عليهم، بعض النَّاس حينما قال: هذا كلام جاء في بني إسرائيل، في أحكام التوراة، قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٤٥]، فردَّ حذيفةُ بن اليمان رضي الله عنه بقوله: «نِعْم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لكم كلُّ حلوة، ولكم كلُّ مُرَّة»[٢]، يعني بني إســرائيل إذا حكموا بغير مــا أنزل الله يكونون كافرين وظالمين وفاســقين، وأنتــم إذا حكمتم بغير مــا أنزل الله لا يصيبكم شيء من الكفر أو الظلم أو الفســق! هذا ليس من عدل الله؛ لأن الله لا يكيل بمكيالين، ولا يــزن بميزانين، ليس معقولا أنَّ اليهود إذا تركوا الحكم بالتــوراة، أو النَّصارى إذا تركــوا الحكم بالإنجيل، يدمغون بالكفــر أو الظلم أو الفســق، والمســلمون إذا تركوا الحكم بالقرآن لا ينالهم شيء من ذلك، هذا شيء لا يعقل.

---

(١) البيت للقاضي أبي بكر ابــن العربي، كما في الحُلة السِّــيَراء لابن الأبَّــار (٦/١)، تحقيق د. حسين مؤنس، نشر دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٣٤٨/١٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

ولذلك أخذ المسلمون قاعدة: أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ما معنى هذا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟ من الممكن حدث يقع لسبب معين، إنسان يأكل كثيرًا فيصاب بمرض ما، مثل أن يصاب بمرض السكري، فيقال: أصابه مرض السكري من كثرة الأكل، ومن أكثر الأكل وأسرف فيه أصابه مرض السكري، القضيَّة الأولى: إن فلانًا فعل كذا، هذا سبب خاص، أمَّا من فعل كذا أصابه كذا، فهذا حكم عام، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، السبب قد يكون خاصًّا، ثمَّ تأتي القاعدة عامَّة، فهنا السبب خاصٌّ متعلق ببني إسرائيل، ولكن اللفظ جاء عامًّا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

وهل معقول أنَّ ما أنزل الله على بني إسرائيل وعلى النَّصارى، أعظم ممَّا أنزل على المسلمين؟ هل القرآن الكريم دون الكتب الأخرى؟ هل هو أقل منها منزلة، بحيث إنَّ من يترك الحكم بغير ما أنزل الله بالنسبة للتوراة والإنجيل، يكون كافرًا، أو فاسقًا، أو ظالمًا، ولكن من ترك الحكم بكتاب الله، بأفضل الكتب، بالقرآن المهيمن على الكتب السماويَّة كلها، كما قال الله في هذه الآيات في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فلا شيء عليه؟ هل يعقل أن ترك الحكم بكتاب الله أهون من ترك الحكم بالتوراة والإنجيل؟ هذا شيء لا يعقل!

لا خيار للمسلمين في الحُكم بما أنزل الله:

ولذلك فالمسلمون مطالبون أن يحكموا بما أنزل الله، لا خيار لهم في ذلك، الله ﷻ لم ينزل القرآن الكريم ليُتبرك به، بأن تعلق آيات منه

QaradawiBooks.com

أو سور على الجدران بركة في البيت، أو يجعل منه حرز أو حجاب يعلق على رقاب الأطفال أو النساء أو نحو ذلك، لا، القرآن لم ينزل لمثل هذا، القرآن لم ينزل ليقرأ على الأموات في المقابر، ولكن ليحكم مسيرة الأحياء، القرآن لم ينزل ليكون حرزًا للصبيان والنساء والأطفال، وإنَّما أنزل ليكون حرزًا للإنسانيَّة من الضلال، القرآن لم ينزل ليقرأ في المآتم، ولكن ليقضي في المحاكم، القرآن دستور لهذه الأمة. القرآن بركة، ولكن هذه البركة تكون في اتباعه والعمل به، كما قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

هذا هو القرآن، فلا يجوز للأمَّة أن تترك كتاب الله، وتتَّخذ دساتير من عند غير الله، مستوردة من هنا أو هناك، من شرق أو غرب، لا يجوز هذا، ربَّما قبل هذا في الوقت الَّذي كانت تُحكم فيه الأمة من غير المسلمين، في عصر الاستعمار المتسلط ونحو ذلك، نقول: الأمة كانت مستضعفة، ولكن حين تتحرر الأمة، لا بدَّ أن تعود إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، لا خيار لها في ذلك.

الحكم بما أنزل الله مقتضى عقد الإيمان:

الحكم بما أنزل الله هو مقتضى عقد الإيمان، إذا آمنت فقد وثَّقك الله بهذا الميثاق، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧] عقد الإيمان وميثاق الإسلام يوجبُ على المؤمن والمسلم أن يرضى بحكم الله ورسوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

QaradawiBooks.com

فالمسلمون ليس لهم خيار إلَّا أن يحكموا بما أنزل الله، ليسوا مختارين ما داموا اختاروا الإسلام، ورضوا بالله ربًّا، وبمحمد ﷺ رسولا، فليس لهم إلَّا أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، هذا قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

التدرُّج في تطبيق الشريعة:

بعض النَّاس يقولون: هل أنتم تدعون للتطبيق الفوري للشريعة الإسلاميَّة؟ ألا تقبلون التدريج؟ بلى، نقبل التدريج، ولكن فرق بين التدريج والتمويت، بعض النَّاس يريدون أن «يموتوا» فكرة تطبيق الشريعة بدعوى التدريج، ما معنى التدريج؟ التدريج معناه: أن نصل إلى الهدف درجة درجة، وخطوة خطوة، ومعنى هذا أن يكون لنا هدف محدد نصل إليه على مراحل، كل مرحلة تسلم إلى غيرها، معنى ذلك أن تكون هناك خطة لها مراحل، فهل الَّذين يقولون بالتطبيق التدريجي للشريعة، حددوا هدفًا، ووضعوا خطة، وحددوا لهذه الخطة مراحل، من عشرين سنة يقولون نطبق الشريعة بالتدريج ولم يتقدموا خطوة إلى الأمام، بالعكس أحيانًا يتأخرون والعياذ بالله!، ليس لنا عذر في ذلك، ماذا نقول لله إذا قال لنا: أنزلت عليكم كتابًا ليحكم بينكم فلم تُحَكِّموه؟ وقد حذرنا في هذه السورة وقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن أعجب ما قرأت! ما ذكره رجل في مصر اسمه خلف الله، هذا الرجل يقول: لم يقل القرآن: الرسول يحكم بين المسلمين. هل يعقل أن يحكم الرسول ﷺ بين أهل الكتاب إذا احتكموا إليه بما أنزل الله، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، ولكن إذا حكم بين المسلمين لا يحكم بما أنزل الله؟! هناك هوس من ناحية الشريعة، بل من ناحية الإسلام نفسه، القصد من هذا الهوس ألا نرجع إلى شريعتنا، ألا نرجع إلى حكم الله، بل ألا نعود إلى الإسلام، لماذا هذا أيُّها الناس؟ أتتعالمون على الله؟ أتستدركون على الله؟ ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، أأنتم أحكم ممَّن خلق الإنسان، ووضع له التشريع، ووضع له التوجيه الإلٰهي؟

لقد علَّمنا الواقع، وشهد التاريخ أنَّ المسلمين إذا طبقوا الإسلام ونفَّذوا تعاليمه واقتربوا منه، تقدَّموا وعزوا، وقووا وانتصروا، فلماذا لا نرجع إلى ما أنزل الله؟

القرآن والسياسة:

أيُّها الإخوة، كلامي هذا يقولون عنه: إنَّه كلام سياسي. وماذا أفعل إذا كان القرآن نفسه كتاب سياسة، الآن يقولون: الإسلام السياسي، والإسلام غير السياسي. وهل يوجد إسلام سياسي، وإسلام غير سياسيٍّ، وإسلام صوفيٌّ، وإسلام رُوحي؟! الإسلام هو الإسلام، فيه السياسة، وفيه الاقتصاد، كما فيه العقيدة والعبادة والأخلاق، اقرأ في كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟

QaradawiBooks.com

﴿ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨ ـ ٥٩] ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ماذا نفعل إذا كان هذا هو القرآن؟ كتاب جاء يسوس الأمة، ويضع لها القواعد، وينظم لها الحياة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، هو الكتاب الَّذي قال عنه الخليفة الأوَّل: لو ضاع منِّي عقال بعير لوجدته في كتاب الله[1]، ماذا نصنع؟ هم يريدون إسلام الدراويش، إسلام الموالد، «إسلام مولاي صلِّ وسلم»، إنَّما إسلام الحق والقوَّة والحريَّة والعدل والعمل والإنتاج والجهاد والتماسك، لا يريدون هذا الإسلام، أمَّا نحن فنريد هذا الإسلام، إسلام الحق والقوَّة والجهاد، الإسلام الَّذي يربي على الكفاح والجهاد والصلابة والوقوف في وجه الباطل، وفي وجه أعداء الله، نريد الإسلام الَّذي يعلم الولاء والبراء، هم يريدون الإسلام الَّذي سماه الأستاذ سيد قطب: الإسلام الأمريكاني، إسلام يُمشِّي الأحوال، ويطأطئ رأسه لكل شيء، إسلام دع الخلق للخالق، واترك الملك للمالك، إسلام أقام العباد فيما أراد، هل هذا إسلامنا؟ إسلامنا إسلام الجهاد، إسلام الدعوة، إسلام

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣٠/٤، ٣١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ ـ ٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا هو الإسلام، إسلام القرآن والسُّنَّة، هذا إسلامنا، وهذا الإسلام فيه دين، وسياسة، واقتصاد، واجتماع، وأخلاق وتشريع، ومصحف وسيف، هذا هو الإسلام، ماذا نقول؟ لله درُّ أخينا الأديب الشاعر الدكتور حسان حتحوت، له قصيدة نظمها وهو طالب في كليَّة الطبِّ، يقول فيها:

هَذَا الْكِتابُ وَإِنَّ فيه سِيَاسَةً ... أَتُرَاهُ أمرًا في الكِتَابِ غَرِيبَا؟
إِنْ كَانَ تُغْضِبُكُمْ سَيَاسَتُهُ دَعُو ... ه وَنَقِّبُوا عَنْ غَيْرِهِ تَنْقِيبَا
أَوْ فَاعْرِضُوهُ عَلَى الرَّقِيبِ فَرُبَّمَا ... أَفْتَى فَغَادَرَ نِصْفَه مُشْطُوبَا
يَا قَوْمِ سُحْقًا لِلرَّقِيبِ وَأَمْرِهِ ... وَكَفَى بَرَبِّ الْعَالَمِينَ رَقِيبَا[1]

فهذا الكتاب هو كتاب الحياة، الَّذي ينظم حياة النَّاس ويهديها للتي هي أقوم، ولا نجاة لهذه الأمة إلَّا بالرجوع إليه، في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والاقتصاد والسياسة، والأخلاق، تأخذ منه الأسس والمبادئ، وتأخذ منه القيم والمثل، وتأخذ منه الأحكام والتشريعات.

وفي الحديث يقول ﷺ: «**إنَّ هذا القرآن مأدُبةُ اللهِ، فتعلَّموا من مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن هو حبل الله الَّذي أمر به، وهو النُّور المُبين، والشفاء النافع، عصمةٌ لمن اعتصم به، ونجاةٌ لمن تمسك به، لا يَعْوَجُّ فيُقَوَّم، ولا يزوغ فيُشْعَب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن ردٍّ، اتلوه فإنَّ الله يأجركم لكلِّ حرفٍ عشر حسنات، لم أقلْ لكم ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] حرف، ولكنْ ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرف وميمٌ حرف**»[2].

---

(١) ديوان جراح وأفراح صـ ١٠، نشر دار القلم، الكويت، ط ١، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

(٢) رواه الترمذي في فضائل القرآن، (٢٩١٠)، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٢٧)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

وبهذا تُهدى الأُمَّة إلى أقوم السبل، وتعالج أدواؤها وأمراضها، من صيدلية الله، ومن أصدق من الله حديثًا، ومن أحسن من الله حكمًا ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وصلى الله على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس السابع

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ ...﴾

نحن في هذه الليلة نعيش في رحاب سورة «المائدة»، وسورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن، نزلت تُكمِّل وتُثبِّت قواعد المجتمع المسلم الَّذي أراد الله تبارك وتعالى أن يقيمه في هذه الأرض ليكون النموذج المحتذى في الإيمان والمعرفة والسلوك والأخلاق والدعوة والجهاد في سبيل الله.

في هذه السورة نقف عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

هذا النداء الرباني للجماعة المؤمنة في هذه السورة هو نداء من ستَّة عشر نداءً بدأت السورة بأحدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

الله ﷻ يريد أن نقيم المجتمع المؤمن، وإنَّما يُقام المجتمع المؤمن بإقامة أحكام الله، بإقامة أوامره ونواهيه، وهذه النداءات الربانية للذين آمنوا ترينا كيف يكون المجتمع الَّذي يحبه الله تعالى ويرضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، تشير الآية الكريمة إلى أن هناك أناسًا يمكن أن

QaradawiBooks.com

ينكُصوا عن هذا الدين، وينكُثوا عهدهم، ويرجعوا عن إيمانهم، وهذا على خلاف الأصل، لأن الأصل أن من دخل هذا الدِّين ثبت عليه، واستمسك بعروته الوثقى لا انفصام لها، كما سأل هرقل أبا سفيان في الحديث الشهير الَّذي ذكره الإمام البخاري، قال له: هل يرتد من أتباع مُحَمَّد أحد عن هذا الدين سَخْطة لدينه؟ هل يرجع أحد عن الدين بعد أن يدخل فيه كراهية لهذا الدين ونفورًا منه؟ قال له: لا. وكان أبو سفيان صادقًا يخشى أن تمسك عليه كَذبة فتطير في العرب، وهو لا يجب أن يتهم بالكذب، فكان ينطق بالصدق ويجيب بما يعرف أنَّه الحق، فلمَّا قال له: هل هناك أحد يرتد بعد أن يؤمن؟ قال له: لا. قال هرقل: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوب[1].

إذا خالطت بشاشة الإيمان القلب لم يتزحزح عنه، ولكن هناك خروج على هذا الأصل، يمكن أن تحدث أحداث وتقع فتن فيرتد الإنسان على عقبيه، اتباعًا لهوى، وحبًّا لدنيا، وسعيًا وراء شهوة، أو أن هناك أناس يضللونه ويسعون ليرتدَّ عن دينه، كما قامت في فجر الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ ردَّة القبائل العربيَّة المعروفة، قام هناك أنبياء كذبة ادعوا النبوة، مسيلمة الكذاب في بني حنيفة، وسجاح بنت الحارث، والأسود العنسي، وطليحة الأسدى، وغير هؤلاء الَّذين ادعوا النبوة وتبعتهم أقوامهم عصبيَّةً لهم، قالوا: كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر[2]. نعرف أن محمدًا صادق ولكنَّنا نريد نبيًّا من قومنا ولو كان كذَّابًا فهو أحسن لنا.

(١) رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، عن أبي هريرة.
(٢) تاريخ الطبري (٢٨٦/٣).

QaradawiBooks.com

العصبيَّة أحيانًا تعمي وتصم، فكان ما كان وارتدت قبائل العرب إلَّا أهل مكَّة وأهل المدينة وأهل الطائف، وكانت فتنة عظيمة، وكان لا يزال عود الإسلام غضًّا طريًّا، ولولا أنَّ الله ﷻ هيأ للإسلام رجلًا مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه لكانت المصيبة طامَّة وعامَّة، ولذلك الحسن البِصري حينما قرأ هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ [المائدة: ٥٤]، قال: هو والله أبو بكر وأصحابه[١]. يعني أن أوَّل من ينطبق عليه هذا أبو بكر وأصحابه الَّذين قاوموا الردَّة، قاوم أبو بكر المرتدِّين وقاوم مانعي الزكاة معهم، وقال: والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه. حتَّى إن سيِّدنا عمر كان في أوَّل الأمر متراخيًا وناقش أبا بكر، فلمَّا ناقشه أبو بكر عرف أنَّه الحقُّ، قال: فوالله ما هو إلَّا أن رأيتُ الله ﷻ قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنَّه الحق[٢].

قاوم أبو بكر والصحابة معه الردَّة، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، هناك قراءة ﴿مَن يَرۡتَدَّ ﴾، وقراءة: (مَنْ يَرْتَـدِدْ) بفكّ الإدغام كما يقول اللغويون[٣]، وكلاهما صحيح، من يرتد منكم أو يرتدد منكم عن دينه فإن لله جنودًا يدّخرهم لمقاومة الردَّة، لا يتخلى عن دينه، لا يمكن، ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، لا يدع الله

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤١١/١٠).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

(٣) قرأ المدنيان، وابن عامر بدالين الأولى مكسورة والثانية مجزومة (يَرْتَدِدْ)، وكذا هو في مصاحف أهل المدينة والشام، وقرأ الباقون بدال واحدة مفتوحة مشددة {يَرْتَدَّ}، وكذا هو في مصاحفهم. النشر (٢/ ٢٥٥).

QaradawiBooks.com

المرتدين يعيثون في الأرض فسادًا ويفسدون كل شيء، لا بدَّ أن يقيّض الله رجالًا يقاومونهم حتَّى يردوهم إلى حظيرة الإيمان من جديد، وهذه سنة الله تبارك وتعالى في الخلق، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

«**لا تزال طائفةٌ من أمَّتي على الدِّين ظاهرين، لعدوِّهم قاهرين، لا يضرُّهم من خالفهم، إلَّا ما أصابهم من لأواء، حتَّى يأتيَهم أمرُ الله وهم كذلك**»[1]، هذه الطائفة الَّتي يسميها العلماء: «الطائفة المنصورة»، إذا ارتدَّ قوم فلا يَظُنُّون أنَّ الأرض قد خلت لهم، لا، سيُهيئ الله لهم من يقاومهم، هذه سنة الله تبارك وتعالى، يسميها العلماء سنة التدافع، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فإذا وجد من ينصر الباطل سيُهَيِّئ الله من ينصر الحقَّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، هناك قوم ادَّخرهم الله ﷻ لنصرة هذا الدين لا يدَّخرون وسعًا، ولا يألون جُهدا ولا يبخلون بنفس ولا يضنّون بمال، بل يبذلون الأنفس والنفائس والغالي والرخيص في سبيل الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، هؤلاء القوم المدَّخرون لنصرة الدِّين لهم أوصاف.

---

(١) رواه عبد الله وجادة عن خط أبيه في المسند (٢٢٣٢٠)، وقال مُخَرِّجوه: حديث صحيح لغيره دون قوله: قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ إلخ. والطبراني (١٤٥/٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢٤٨): رجاله ثقات. عن أبي أمامة الباهلي.

QaradawiBooks.com

أوَّل هذه الأوصاف: هو حُسن صلتهم بالله ﷻ الَّتي تتمثل في أنَّه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، علاقتهم بالله علاقة الحب.

المُبَشِّرون والمستشرقون والأفَّاكون يقولون: إنَّ عَلاقة الإلٰه في الإسلام وفي القرآن بالمسلمين هي علاقة الجبروت والعنف، الله هو الجبار، القهار، المنتقم، وعلى النَّاس أن يخضعوا له، ليس في الإسلام محبَّة، المسيحيَّة فيها كلمة: «الله محبَّة» طنطنوا بها، ووسَّعوا وعملوا منها قضيَّة كبرى، ونحن عندنا كثير من هذا، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

القرآن مليء بالآيات الَّتي تتحدث عن محبة الله لعباده، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

الحب موجود ولغة الحب موجودة، ومن أسماء الله الحسنى: «الودود»، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، ومعنى «ودود» يودّ المؤمنين ويحبّهم، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، هذا له معنى كبير، أن يحبَّك الله ﷻ، أن تدخل في رحاب من يحبهم، وإذا أحب الله عبدًا يقول: «**كنتُ سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يُبصر به، ويده الَّتي يبطش بها، ورجله الَّتي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[1].

حب الله ﷻ، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، الله يُحِبُّهم وهم يحبُّونه، حبٌّ متبادَل بين الألوهيَّة العظيمة وبين العبوديَّة الفقيرة، بين الغني والفقير، بين القوي والضعيف، بين القادر والعاجز،

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

بين الكامل والناقص، بين الربّ والعبد، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، هؤلاء هم المؤمنون، هؤلاء هم جيل النصر المنشود، الجيل المدَّخر لمقاومة المرتدين.

لا يظنُّ المرتدُّون أنَّ الأرض تخلو لهم، فلا بدَّ أن يُهَيِّئ الله تعالى من يقاومهم، ولذلك بعض النَّاس يقولون: إنَّ الردَّة لا عقاب عليها، وإنَّ المرتدَّ يُترك للآخرة، ويريدون أن يتَّخذوا من هذا أنَّه ليس هناك عقوبة على المُرْتَدِّين، وإنَّما يُتركون للآخرة، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، نقول لهم: لا، هذا لو أنَّ المُرْتَدَّ ارتدَّ في نفسه وكتم رِدَّته بين جوانحه لم يدع إليها، إنَّما حينما تكون الردَّة ردَّة علنيَّة وفيها دعوة للآخرين فهذه فتنة كبرى للمجتمع، مثل هؤلاء الَّذين ادَّعوا النبوَّة وأرادوا أن يذهبوا بنور نبوَّة مُحَمَّد ﷺ من الوجود، وأن يُضِلُّوا العرب ويسيروهم وراءهم، لا، لا بدَّ أن يقاوَموا.

الَّذين يدعون إلى الردَّة في عصرنا، ويريدون أن يُضِلُّوا المسلمين عن دينهم، وللأسف يوجد ممَّن يدعون الإسلام وهم مُرْتَدُّون والعياذ بالله، لأنَّهم يكفرون بالضروريَّات الدينيَّة، بما عُلم من الدِّين بالضَّرُورة، لا يؤمنون بقرآن ولا سُنَّة، لا يحتكمون إلى القطعيَّات في الدِّين، هؤلاء ليسوا مسلمين، وهؤلاء يريدون أن يُضِلُّوا المسلمين، لا بدَّ أن يُقاوَم هؤلاء.

وهناك أيضًا حملات أخرى من غير المسلمين تريد أن تُخرج المسلمين من دينهم، أن تفتنهم عن عقيدتهم حتَّى بالقتال، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]، كلمة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يعني أن هذا الأمر مستمر.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، رأينا هذا، رأيناه في صور شتَّى، رأيناه في الشيوعيَّة الَّتي تريد أن تُدخل العالم الإسلامي في الإلحاد، ورأيناه في صور التنصير الَّتي تريد أن تُخرج المسلمين من دينهم إلى النصرانيَّة، حتَّى إنَّ المُنَصِّرين اجتمعوا في سنة ١٩٧٧ في مدينة «بازل» بـ «سويسرا» من أجل تنصير العالم، وبعدها بسنة اجتمعوا في ولاية «كولورادو» بـ «أمريكا» لتنصير المسلمين في العالم ورصدوا لهذا الأمر ألف مليون دولار، وأنشؤوا معهدًا اسمه «معهد زويمر» أحد عتاة المبشرين، أرادوا إحياء ذكراه بأن يُنشئوا معهدًا على اسمه متخصصًا في تخريج مُنَصِّرين للمسلمين.

هناك إذن حرب مُبيَّتة لفتنة المسلمين عن دينهم، لإخراجهم عن إسلامهم، فلا بدَّ أن يُقاوَم هذا، ولذلك إذا استسلم المسلمون كانت الفتنة، بعض النَّاس يستسهل هذا الأمر.

أنا أضرب لكم مثلًا حيًّا عشناه بأنفسنا، في أفغانستان، وأفغانستان بلد مسلم متمسِّك بالإسلام تمسُّكًا شديدًا، في أفغانستان بعثوا بعثة عسكريَّة إلى روسيا، تتكون من مجموعة من الضباط ليدرسوا في الأكاديميَّات الروسيَّة العسكريَّة، فقام الروس بتحويلهم إلى البلشفية والشيوعية، وفتنتهم حتَّى أقنعوهم بالشيوعيَّة وعادوا ينشرون الشيوعيَّة وسط الجيش، ثمَّ أقاموا انقلابًا عسكريًّا ليحكموا البلد ويفرضوا عليها العقيدة الشيوعيَّة العقيدة الإلحاديَّة الَّتي تقول: لا إلٰه والحياة مادة. ليس هناك إلٰه، ليس هناك نبوة، ليس هناك آخرة، ليس هناك عبادات، ليس هناك قيم أخلاقيَّة ثابتة، هذه هي الشيوعيَّة، رفضها المجتمع الأفغاني.

هذه ردَّة فُرضت على المجتمع الأفغاني، ماذا كانت النتيجة؟ حاربهم

QaradawiBooks.com

المجتمع في أوَّل الأمر بما يملك من أسلحة خفيفة، استعانوا على قومهم وعلى شعبهم بالسوفييت يضربونهم بالطائرات من فوق وبالدبابات من تحت، ويدكُّون الأرض بهم دكًّا، وقُتل من الأفغانيين حوالي مليونين، قُتل من قُتل، وعُوِّق من عُوِّق، ولا تزال أفغانستان إلى اليوم تعاني، حتَّى بعد أن انتصرت على السوفييت. كل هذا بسبب ماذا؟ بسبب فئة ارتدَّت عن دينها، ذهبت واقتنعت بالشيوعيَّة، وعادت تُريد أن تفرض الشيوعيَّة على الشعب الأفغاني.

الردَّة ليست جريمة بسيطة، بل جريمة كبرى، ولهذا جاءت الأحاديث بقتل المرتدِّ أو عقوبته، هناك من العلماء من قال: المرتدُّ يسجن ويُعْرض عليه الإسلام ويُستتاب أبدًا. هكذا قال الإمام النخعي وغيره[1]، وهناك من قال: يُقتل.

وطبعًا ليس كلُّ المرتدِّين سواء، هناك ردَّة مخفَّفة، وردَّة مغلَّظة، الردَّة المغلَّظة هي الَّتي تريد أن تُغَيِّر المجتمع الإسلامي، هؤلاء يجب أن يقاوَموا، والمشكلة أن من يجب عليه أن يقاوِم الردَّة هو الحاكم، ولكن ماذا يكون الحلُّ إذا كان الحاكم نفسه يدعو إلى الردَّة، إذا كان هو مرتدًّا، هو يقاوِم الإسلام ويعتبره رجعية وتأخرًا، من هنا تكون المصيبة.

وَرَاعِي الشَّاةِ يَحْمِي الذِّئْبَ عَنْهَا فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟![2]

حاميها حراميها! هذا هو المشكل، كان الإمام العلَّامة الشيخ أبو الحسن الندوي وهو من العلماء الربانيين الَّذين عرفناهم وعايشناهم

(١) رواه عبد الرزاق في اللقطة (١٨٦٩٧).

(٢) ذكره من غير أن ينسبه: الدميري في حياة الحيوان الكبرى (٥٠٤/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

في هذا العصر كتب رسالة لطيفة تحت هذا العنوان: «ردَّة ولا أبا بكر لها»، لأنَّه يرى ردَّة في المجتمع خصوصًا الردَّة الفكرية الَّتي تنتشر في الصحف وفي المؤسسات وفي المراكز وفي الجامعات ولا أبا بكر لها، لا يوجد أبو بكر يُقاوِم هذه الردَّة، هذا هو الخطر، «ردَّة ولا أبا بكر لها».

ولكن من سنَّة الله أنَّه يُهَيِّئ من يقاوم الردَّة، وهنا الآية تقول: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، هؤلاء الجنود المُرْتجَوْن لنصرة الإسلام ومقاومة أعدائه من صفاتهم: الذلَّة على المؤمنين والعزَّة على الكافرين، والذلَّة معناها: توطئة الكنف ولين الجانب والمعاملة بالحسنى والرفق مع المؤمنين، والشدَّة والقوَّة مع الكافرين، كما وصف الله أصحاب مُحَمَّد ﷺ بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، والمراد بالكفار هنا الكفَّار المعادون للإسلام؛ لأنَّ الكفَّار في ذلك الوقت كانوا يحاربون الإسلام، إنَّما الكافر الَّذي لا يحارب الإسلام الله تعالى قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، فالكُفَّار هنا الكفَّار المعادون لهذا الدِّين لا بدَّ أن نعاملهم بالشدَّة وبالقوَّة.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، لم يمدح القرآن الذلَّة إلَّا في موضعين: ذلة الإنسان لوالديه، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، ذُل الإنسان لوالديه هو العزَّة الحقيقيَّة، لا تتعزز على والديك ولا تتطاول ولا تستعلِ على أبويك، بل الذل للأبوين هو العزَّة الحقيقيَّة وهو الرحمة، هذا الذل من الرحمة، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، فمدح القرآن ذل الإنسان لأبويه، ومدح كذلك ذل الإنسان لإخوانه المؤمنين، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، يعتز

QaradawiBooks.com

بإيمانه، يعتز بدينه، يعتز بنسبته إلى الله، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، هؤلاء يحملون راية الجهاد لا يجبنون أبدًا ولا يتقاعسون عن لقاء المرتدِّين، قد يكون المرتدُّون أكثر منهم عددًا، قد يكونون أشدَّ منهم قوَّة، وأقوى منهم عُدَّة، وراءهم من يسندهم من القوى العالميَّة، ولو كان ذلك فالله معهم، إذا كان عندهم عدد فلله جنود السماوات والأرض، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

إذا كنتم تمكرون وتكيدون وتخططون فالله أسرع مكرًا، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

إذا كان عندكم أسلحة أو حصون، فالله تعالى يقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، الله تعالى يدير المعركة من فوق سبع سماوات، لا تخافوا، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤]، ما معنى قوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ يعني أنَّ هؤلاء المؤمنين الَّذين يجاهدون المرتدين يجاهدون في سبيل

QaradawiBooks.com

الله لا في سبيل شهوة، ولا لغرض دنيوي أو عصبيَّة قبليَّة، أو أسواق يفتحونها كما يفعل الاستعمار، لا، إنَّهم يجاهدون ويقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح[١].

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ﴾ [المائدة: ٥٤]، يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا مهما لام اللائمون، أو عذل العاذلون، إنَّهم لا يبالون بهم، بحسبهم أن يرضوا الله وإن سخط النَّاس.

الشاعر يقول:

ومَنْ في النَّاس يُرضي كُلَّ نَفْسٍ وبينَ هوى النُّفُوسِ مَدًى بَعِيدُ[٢]!

ويقول آخر:

فلَيْتَ الَّذي بيني وبينَك عَامِرٌ وبيني وبين العالَمِينَ خَرَابُ
إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ وكُلُّ الَّذي فوقَ التُّرَابِ تُرَابُ[٣]

إنَّهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولا نقمة ظالم، ولا يبالون بأحدٍ ما داموا مع الله، وما دام الله تعالى معهم، إذا رضي الله عنك فلا يُهِمُّك سخط البشر، حَسْبُك أن يرضى الله تبارك وتعالى عنك.

كثير من النَّاس يخافون من أمرين: الأجل والرزق، بعض النَّاس يخاف من الجهاد ويقول لك: هل العمر بعثرة؟! أو هل أنا لي عمران؟!

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٠)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) من شعر ناصيف اليازجي.

(٣) البيتان لأبي فراس الحمداني، انظر: ديوانه صـ ٤٨، شرح د. خليل الدويهي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

ولكن المؤمنين يقولون: العمر واحد والرب واحد. لا يستطيع أحد أن يؤخّر أجلك لحظة واحدة ولا أن يقدّمه لحظة واحدة، كذلك الرزق لا يستطيع أحد أن ينقص من رزقك لقمة أو درهمًا أو فلسًا، ما كان لك سوف يأتيك، رزقك مقسوم وأجلك محتوم، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ولذلك جاء في الحديث: «**ألا لا يَمْنَعَنَّ أحدَكم رهبةُ النَّاس، أن يقول بحقٍّ إذا رآه أو شهده، فإنَّه لا يُقَرِّب من أجلٍ ولا يُباعدُ من رزقٍ أن يقولَ بحقٍّ أو يُذَكِّر بعَظِيمٍ**»[1].

فجهادك في سبيل الله لن يحرمك رزقك، ولن يُقَدِّم أجلك، وهذا هو الَّذي يقوي قلوب المؤمنين ويشدُّ عزائمهم، ليقفوا أمام الجبابرة والمستكبرين في الأرض بقلوب راسية كالجبال لا تتزعزع ولا تتزحزح، إيمانهم أقوى من الجبال الرواسي، وهكذا كان إيمان أبي بكر رضي الله عنه والصحابة معه حينما صمموا على قتال أهل الردَّة.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، هذا الفضل الَّذي ادَّخره الله لهؤلاء الأقوام المؤمنين الَّذين يحبهم الله ويحبونه الأذلَّة على المؤمنين الأعزَّة على الكافرين المجاهدين في سبيل الله، هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، من شاء أن يدخل في زمرة هؤلاء ويقف في صفِّ المحامين عن الإسلام المدافعين عن حرمات هذا الدين.

---

(١) رواه أحمد (١١٤٧٤)، وقال مُخَرِّجوه: حديث صحيح دون قوله: «**فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق، أو يذكر بعظيم**». والطبراني في الأوسط (٢٨٠٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٢٨): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني. عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

وكلٌّ واحد يستطيع أن يجاهد بما يقدر عليه، هناك من يحمل السلاح ليجاهد دفاعًا عن هذا الدين، وهناك من يحمل القلم دفاعًا عن هذا الدين، وهناك من يحمل لسانه يخطب أو يدرس دفاعًا عن هذا الدين، وهناك من يبذل المال ليدافع عن هذا الدين، وهناك من يحرض الآخرين ليثبتوا على هذا الدين.

كل واحد من ناحيته يعمل شيئًا لهذا الدين، المهم تقف الأُمَّة وقفة رجل واحد لا تفرط في دينها، لا تترك الدين كلأً مباحًا يرعاه من يشاء ويدخل من يشاء ليفسد في هذا الدين ويدمر بنيان هذا الدين، لا بل لهذا الدين رجاله الَّذين يحرسونه من إفساد المفسدين وإجرام المجرمين، ونسأل الله أن نكون من هؤلاء وأن يدخر الله لنا هذا الفضل، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [المائدة: ٥٤].

نسخة مجانية
غير مرخص للطباعة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثامن
مواجهة الردَّة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

هذه الآيات جاءت في سورة المائدة، الله تعالى يُبيِّن لعباده المؤمنين بعض ما ينبغي أن يتنبهوا له، ويُعِدُّوا أنفسهم له، ويُرَتِّبوا أفكارهم ومشاعرهم وحياتهم من أجل مواجهته، أنَّ الإسلام قد يَتَعَرَّض لرِدَّات جماعيَّة، أعداء المسلمين ليسوا صامتين، وليسوا متفرجين، إنَّهم يعملون دائمًا للكيد للإسلام، والمسلمين لا ينبغي أن يكونوا نائمين دائمًا، يجب أن يكونوا يقظين ومنتبهين دائمًا لما يفعله أعداؤهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

بعض النَّاس فهم من هذه الآية أنَّ الإسلام لا يواجه الردَّة بالمقاومة، وإنَّما يكتفي أن يَعِد بالنار ويحكم بالكفر على من ارتد، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ولكن هذا ليس صحيحًا، لا يمكن لدين من الأديان أن يرضى

للنَّاس أن يتركوا دينهم ويخرجوا ويغادروه ويقاتلوه وهو ساكت، لا بدَّ لمن يريد أن يفهم القرآن أن ينظر إلى القرآن كله، يجمع بعضه على بعض، يجمع النصوص بعضها على بعض، يأخذ القرآن كلًّا لا يتجزأ، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، القرآن لا يختلف بعضه عن بعض، يُؤَيِّد بعضه بعضًا، ويُصَدِّق بَعْضُه بعضًا.

ولذلك بيَّنت لنا هذه الآيات أنَّ هناك أناسًا يمكن أن يرتدُّوا عن دينهم، فما الحكم في هؤلاء؟ وهذه الردَّة أنواع، منهم من يتولَّى الكُفَّار، كما في الآيات السابقة لهذه الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، إذا جعل ولاءه كله لغير المؤمنين، لليهود، للنصارى، للوثنيين، للملحدين، جعل كل ولائه وكل مشاعره وكل حبه وكل عونه لهؤلاء وترك المسلمين، فهو منهم، فهذا يعتبر من المرتدِّين، وهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤] جاءت تكملة لهذا السياق.

وقد قلنا من قبل أن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ من خصائص القرآن المدني، ولذلك هذه السورة سورة المائدة بدأت بهذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، الآية الأولى، والآية الثانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٢]، وهكذا، فيها ستة عشر نداء، أكثر سورة نزلت فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، حتَّى أكثر من سورة البقرة أكبر سور القرآن.

فيقول الله في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، لو فُرض أنَّ هناك أناسًا ارتدُّوا عن

QaradawiBooks.com

دينهم، فهذا ليس بالأمر السهل، الإسلام قلَّما يرتدُّ أحد عنه إذا خالطت بشاشة الإيمان قلبه، هرقل إمبراطور الروم حينما وصلته رسالة من النبيِّ ﷺ يدعوه فيها للإسلام دعا أبا سفيان بن حرب وكان أبو سفيان في تجارة له في الشام وهو لا يزال على الشرك، سأله هرقل عن نسب مُحَمَّد ﷺ، وعن أتباعه، وهل يزيدون أم ينقصون، وهل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه، فعرف من أبي سفيان أن أتباع مُحَمَّد ﷺ يزيدون ولا ينقصون، ولا يرتد منهم أحد عن دينه، فقال هرقل لمن حوله من عظماء الروم: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب[1].

كان العالم تحكمه إمبراطوريتان قبل الإسلام، إمبراطورية في الشرق هي إمبراطورية الفرس، في إيران، وإمبراطورية في الغرب هي إمبراطورية الروم، أشبه بما كان في عصرنا من الاتحاد السوفييتي وأمريكا، هاتان الإمبراطوريتان كانتا تعملان ضد الإسلام، والله تعالى أراد أن يحذر المسلمين من هؤلاء الَّذين يكيدون لهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤]، من استجاب لهؤلاء القوم وارتد عن دينه، فماذا يكون الموقف في هذه الحال؟ أن نسلم لهؤلاء ونترك الدين ضياعًا؟ أو نقول: للدين رب يحميه؟ صحيح للدين رب يحميه لكن يحميه حسب السنن، الإسلام اتبع السنن، في النبوات السابقة كان النبي يدعو قومه، فإذا عصى القوم نبيهم فإن الله هو الَّذي يتولى تعذيبهم، ينزل بأسه على القوم المجرمين، تنزل صاعقة تأخذهم، كما أخذت عادًا وثمود، ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، أو يخسف به الأرض، أو يرسل عليهم حاصبًا، كما

(١) سبق تخريجه صـ٧٠١.

QaradawiBooks.com

قال الله ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

لكن في الإسلام ليس الأمر على هذا، بل لا بدَّ للمؤمنين أن يكون لهم موقف في الدفاع عن دينهم.

ولذلك قالت الآية هنا: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وقد ظهر هؤلاء المرتدون في أواخر حياة النبي ﷺ، وفي عهد سيِّدنا أبي بكر، وفي أوائل عهد سيِّدنا عمر، ثمَّ كان الموقف الأدهى من مسيلمة من بني حنيفة ادَّعى أنَّه رسول، وأرسل إلى النبي ﷺ رسالة يقول فيها: من مسيلمة إلى محمَّد: إنَّ الأرض نصفُها لي ونصفُها لك.

فأرسل إليه النبيُّ ﷺ يقول له: «**من مُحَمَّد رسول الله إلى مُسَيْلِمة الكذَّاب، أمَّا بعدُ فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتَّقين**»[(١)].

وأوعده أنَّه لا بدَّ من موقف، ولكنَّ الله تعالى أراد للنبيِّ ﷺ أن يُلحقه بالرفيق الأعلى، وتُوُفِّي رسول الله في سنٍّ ليست كبيرة، في أواخر الثالثة والستِّين تُوُفِّي النبيُّ ﷺ، كما توفي أبو بكر وعمره ثلاثة وستُّون سنة، وكذلك عمر تُوُفِّي في هذا السنِّ، ولكنَّ أبا بكر رضي الله عنه الَّذي رشَّحه النبيُّ ﷺ للصلاة بدلًا منه[(٢)]، النبيُّ لم يرشح ويقول: فلانٌ يتولَّى الأمر من بعدي. أراد أن يكون هذا الأمر للمسلمين، ليس بالوصيَّة، وليس بأمر يجب أن يتَّبعوه، المسلمون هم الَّذين ينبغي أن يفكروا في أمر

(١) رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٠٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٨٧)، ومسلم في الصلاة (٤١٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

أنفسهم، ويبحثوا عن أفضل رجل يحكمهم، ويختاروا بأنفسهم لأنفسهم، هذا هو أمر رسول الله ﷺ.

كلُّ ما في الأمـر هناك مُرَجِّحات تُرجِّح اختيـار أبي بكر، هو الَّذي صلَّى بالنَّاس في مرض رسـول الله ﷺ، ولذلـك الصحابة قالوا: رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا[1]؟!

أبو بكر رضي الله عنه كان له مواقف رائعة، من هذه المواقف موقفان أنقذا الدعـوة الإسـلاميَّة والحيـاة الإسـلاميَّة، الموقف الأوَّل: يـوم وفاة النبيِّ ﷺ، حينما شاع خبر وفاته كثير من الصحابة كذَّبوا الخبر، وقالوا: لا تقولوا مات رسول الله، وعمر يقول: من قال مات ضربت عنقه، هاج النَّاس، ما كان النَّاس يتوقَّعون أن يُتَوَفَّى رسـول الله ﷺ، فقام أبو بكر وجمع النَّاس، وقال: أيُّها النَّاس من كان يعبـد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، ثمَّ تلا الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِـلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤][2]. فالناس كأنهم لم يسمعوها ولم يقرؤوها من قبـل، نزلت عليهم بردًا وسـلامًا، اسـتقرَّ الجميع، وبدؤوا يواجهون الموقف.

فكان الموقف الجديد أنَّ أبا بكر أنفذ جيش أسامة بن زيد، فقد كان النبيُّ ﷺ قد أرسله قبل أن يموت، فأصرَّ أبو بكر على أن يُمضي جيش

(١) انظر: مرقاة المفاتيح شـرح مشـكاة المصابيح (٨٧٧/٣)، نشـر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، وتاريخ التشريع الإسلامي صـ ٢٣٢، نشر مكتبة وهبة، ط٥، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٦٧، ٣٦٦٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

أســامة، ثمَّ بدأ يبحث في أمر القبائل الَّتي ارتدت، وكانت ردَّة جماعيَّة، العرب ارتدوا، ما عدا ثلاثة مساجد، المسجد الحرام في مكَّة، والمسجد النبوي في المدينة، ومسجد جواثى في منطقة البحرين، وما عدا ذلك من المساجد رجعت إلى الوثنيَّة، ذهل النَّاس حتَّى صاح في وجه عمر: أجبَّار في الجاهليَّة، خوَّار في الإسلام يا ابن الخطاب؟ لقد تم الوحي واكتمل، أفينقص وأنا حي؟ والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدُّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ما استمسك السيفُ بيدي[١].

كان المرتــدُّون نوعَيْن: نوع ترك الإســلام كله، ونــوع ترك بعض الإسلام، قالوا: نصوم ونصلي ولا نزكي، لأنَّ الله تعالى يقول للنبيِّ ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبــة: ١٠٣]. فهــذا خطــاب للنبيِّ ﷺ، فمن جاء بعد النبي ليس له هذا الحق، فنحن علينا أن نصلي وأن نصوم، ولكن الزكاة لا ندفعها لأحد.

يقول أبو هُرَيْرة رضي الله عنه: لمَّا تُوُفِّي رســول الله ﷺ، واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العــرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل النَّاس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتلَ النَّاس حتَّى يقولوا: لا إله إلَّا الله، فمن قــال: لا إله إلَّا الله، فقد عصم منِّي ماله ونفســه، إلَّا بحقِّه وحسابه على الله**»، فقال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإنَّ الزكاة حقُّ المال، واللهِ لو منعونــي عِقَالًا كانوا يؤدونه إلى رســول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب: فوالله، ما هو إلَّا أن رأيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ قد شرح صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنَّه الحقُّ[٢].

---

(١) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (١٦٨٣٨) للإسماعيلي.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

سيدنا أبو بكر أصرّ على قتال مانعي الزكاة، فالله تعالى ربط بين الصلاة والزكاة في أكثر من آية من كتابه، فكيف نقبل الصلاة ونرفض الزكاة؟! والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه، ونهر عمر قائلًا له: أجبَّار في الجاهليَّة خوَّار في الإسلام يا ابن الخطاب؟! فشرح الله صدر عمر ووقف مع أبي بكر، ووقف الصحابة كلهم مع أبي بكر.

هؤلاء المرتدُّون لم يجدوا شيئًا منفّرًا من الإسلام، ولكنَّها العصبيَّة الجاهليَّة، أنَّهم مع قومهم، ومع أبناء قبيلتهم، في الحق أو في الباطل، ولذلك قالوا: كذَّاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر[1].

فسيِّدنا أبو بكر أبى إلَّا أن يقاتل هؤلاء، وجهز إحدى عشرة كتيبة من الصحابة لمقاتلة هؤلاء، خالد بن الوليد من ناحية، ويزيد بن أبي سفيان من ناحية، وأبو عبيدة من ناحية، وعمرو بن العاص من ناحية، كل واحد من هؤلاء القادة يأخذ مجموعة ويذهب إلى هؤلاء، صحيح أنَّ المسلمين كانوا أقل عددًا من أعدائهم، ولكن العبرة في القتال ليست بالعدد، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

مضى المسلمون يقاتلون أعداءهم قتالًا مريرًا دفاعًا عن دينهم، فأظهروا بطولات، واستشهدوا في سبيل الله في معركة اليمامة الَّتي قاتل فيها مسيلمة الكذاب، وانضمت إليه سجاح بنت الحارث المدَّعية للنبوة، تزوجها مسيلمة وقاتلا أصحاب رسول الله ﷺ، ووقف يومها قراء القرآن، وكانوا أوَّل الَّذين جاهدوا في سبيل الله، سالم مولى أبي حذيفة ينادي في

(١) سبق تخريجه صـ٧٠١.

QaradawiBooks.com

الجيش: «بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قِبَلي»[١]، وحفر لنفسه حفرة وقف فيها[٢]، كأنَّه يقول: لن أنتقل من هنا، إما قاتلًا وإما مقتولًا.

وامتلأ القوم إيمانًا بحب البذل لله بالنفس والمال وحبّ الشهادة في سبيل الله، وانتصر المسلمون في معركة الردَّة، انتصر أبو بكر وأصحابه رضوان الله عليهم في كل هذه المعارك، ثمَّ كان هؤلاء الَّذين حاربوا وقاتلوا الصحابة في حرب الردَّة يعلمون أنَّ محمدًا صادق، ولكنَّهم اتَّبعوا قومهم عصبيَّة، رجع هؤلاء إلى الإسلام وكفَّروا عن هذه المصيبة الَّتي وقعت لهم.

كان هؤلاء الَّذين عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم من أشد النَّاس في حرب الروم والفرس، كانوا هم أوائل المقاتلين في سبيل الله ضد أعداء الله من الفرس والروم، أرادوا أن يُكفِّروا عمَّا فعلوه، بذلوا كل التضحيات وقفوا المواقف الرائعة، فكان هذا تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، الله عنده أقوام وأمم يدخرهم لوقت الحاجة، هؤلاء ادخرهم الله لهذا اليوم، وأنقذ الله الإسلام من هذه المحنة الكبرى الأولى.

إنَّ الإسلام وقعت له محنات كبرى، من هذه المحنات: محنة الردَّة الأولى، ردَّة العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ، ومحنة الصليبيين، تسع حملات صليبية جاءت من الفرنجة من بلاد الغرب، ومحنة التتار الَّذين جاؤوا من الشرق، ومحنة الاستعمار الصليبي الَّتي زحفت على كل بلاد المسلمين في العالم، ما عدا اليمن والسعودية، كل بلاد المسلمين دخلها

(١) تاريخ الطبري (٢٨٨/٣)، نشر دار التراث، ط ٢، ١٣٨٧هـ.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٨٨/٣).

غير مرخصة للطباعة
نسخة عليه
QaradawiBooks.com

الاستعمار الغربي بجيوشه، كل هذه محن كبرى أصابت الإسلام، لو أصابت أي دين آخر لانهار، ولكن الله حفظ هذا الدين، لأنَّه حفظ كتابه، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وكما قال الإمام الشاطبي: حفظ القرآن يتضمن حفظ السنة، لأن السنة بيان للقرآن، وإبقاء الشيء دون بيان لا فائدة منه، فحفظ الله للقرآن يتضمن حفظ السنة، وحفظ القرآن والسُّنَّة يتضمن حفظ الأُمَّة، وإلا فما معنى حفظ القرآن والسُّنَّة ولا وجود لأحد يتعلم منهما؟! لا بدَّ أن تبقى الأُمَّة، فإبقاء الأمَّة هذه هو من وعود الله وسنة الله الَّتي وعد الله بها.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، أوَّل صفات هؤلاء الجنود المقاتلين في سبيل الله، البائعين لله أنفسهم وأرواحهم وأموالهم، الَّذين لا يبالون بالدنيا ومتاع الدُّنْيا من أجل الآخرة، أوَّل صفات هؤلاء: أنَّهم يحبهم الله ويحبونه، محبة متبادلة بينهم وبين الله، أوَّل شيء أنَّ الله يحبهم، فالله لا يحب الظالمين، ولا يحب المستكبرين، ولا يحب المفسدين، ولا يحب الخائنين، إنَّما يحب المتَّقين، ويحب المؤمنين، ويحب الصابرين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، يحب أصحاب الأخلاق العالية، النفوس المتطهرة، القلوب المؤمنة، فالله يحب هؤلاء.

وهم يحبُّون الله، كما يحبُّهم الله يحبُّون الله، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، إذا كان المشركون يحبون أصنامهم، فالمؤمنون يحبون ربهم، حب الأصنام هذا زائف، الأصنام لا تعرف معنى الحب، ما معنى أن تحب حجرًا، أو تحب جملًا أو بقرة أو تحب النجوم؟! كل هذه أشياء لا معنى لها، لكن المؤمنين يحبهم الله ﷻ ويحبونه، فهؤلاء أحباء الله، وعبيد الله، عبيد ولكن الملوك عبيدهم.

QaradawiBooks.com

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، من أوصافهم المتميزة: أنَّهم أذلة على المؤمنين، الله ﷻ يمدح العزَّة دائمًا، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، أمَّا الذل فقد مدحه الله في القرآن في موضعين فقط، ذل الإنسان لوالديه، كما قال الله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، لا تعتبر ذلك لوالديك معرة أو ضعفًا، لا، ذلك لوالديك من الرحمة، ترحمهما في كبرهما كما رحماك في صغرك، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فهذا أحد الموضعين.

والموضع الآخر الَّذي ذكره القرآن في مدح الذل هو هذا الموضع، الذلَّة على المؤمنين، هنا ﴿أَذِلَّةٍ﴾ جمع «ذليل»، والذلَّة المقصودة أن يشعر المؤمن أنَّه دون أخيه، وأن أخاه أحسن منه وأفضل، هذا شأن الإنسان المؤمن دائمًا يرى أن غيره أفضل منه، إذا كنتُ كبيرًا وأنتَ صغير فالحمد لله أنت لم تعمل ذنوبًا مثل التي عملتُها، أنت أخف ذنوبًا مني، أنا صار لي تسعون سنة، كم عملتُ في هذه السنين من ذنوب؟ لو في كل يوم عشر ذنوب فقط فكم ستكون ذنوبي؟ فكيف وقد عملت في كل يوم مئات الذنوب، وربَّما آلاف السيئات، هذه نظرة الكبير للصغير.

والصغير يقول عن الكبير: هذا أطاع الله قبلي، أنا لم أعمل شيئًا بالنسبة له، هو صلى وصام، وزكى وحج واعتمر، وساعد النَّاس،

QaradawiBooks.com

وفعل الخيرات، وفعل كذا وكذا، هكذا يضع الإنسان المؤمن نفسه دون غيره، فهنا ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] استخدم حرف الجر (على) ليفيدنا أن الذلَّة هنا بمعنى العطف، يعني عُطَفاء على المؤمنين، ليس تذللًا وانحناء، فالمؤمن لا يذل إلَّا لله ﷻ، وإنَّما هو تعاطف وتراحم وتواضع ولين جانب مع المؤمنين جميعًا.

فمن أوصاف هؤلاء الجنود أنَّهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، رحماء بالمؤمنين، لكنهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، كما قال الله تعالى في وصف الصحابة: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، المؤمنون أشداء على الكفَّار الَّذين يعتدون على المسلمين، ولكنَّهم رحماء مع المؤمنين.

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، لا يجاهدون من أجل دنيا، المنصّرون والمستشرقون يقولون: المسلمون يجاهدون من أجل الدُّنْيا ومن أجل الأموال. لا، لو حدث هذا في جهادهم بطل الجهاد، سئل النبي ﷺ عن الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يُقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله** ﷻ»[1].

ما عدا ذلك فليس في سبيل الله، ومعنى هذا أنَّ الصحابة قاتلوا ليُعلوا كلمة الله، ويرفعوا شريعة الله في الأرض، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤]، أي يبذلون أقصى ما عندهم من وُسْع، ومن مُكْنة، ومن جهد، ويتحملون أقصى ما يتحمله الإنسان في سبيل الله.

(١) سبق تخريجه صـ٧١٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ﴾ [المائدة: ٥٤]، بعض النَّاس يقول للمجاهد: لا تضيع روحك، وتترك أولادك. لا، هؤلاء المؤمنون المجاهدون لا يخافون لومة لائم، لا يخافون من يلومهم، لا يبالون بلوم اللائمين، ولا بتقريع المقرِّعين، ولا بكلام المتكلمين، كل ما يهمهم أن يرضوا الله ﷻ.

فَلَيْتَ الَّذي بيني وبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
وَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غِضَابُ
إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكلُّ هَيِّنٌ ... وكلُّ الَّذي فوقَ التُّرَابِ تُرَابُ[1]

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، هذا الفضل وهذا اللطف هو من ربِّنا ﷻ، وهو يؤتيه من يشاء، ومشيئة الله تابعة لحكمته، أي إنَّه تعالى لا يمكن أن يعطي الفضل لمن لا يستحقُّ، لا يؤتي الفضل إلَّا لمن يستحقه، لأنَّه يعلم، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

الله سبحانه يعلم من يستحقُّ ومن لا يستحقُّ، والمؤمنون المجاهدون الَّذين ضحَّوْا بأموالهم وأنفسهم وديارهم وأهليهم في سبيل الله هم أهل لذلك الفضل، ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

(١) ديوان أبي فراس الحمداني صـ ٤٨.

QaradawiBooks.com

فالله تبارك وتعالى فضَّل هؤلاء، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائـدة: ٥٤]، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع المكرمات، وهو أعلم بمن يستحقُّ هذه المَكْرُمات، لأنَّه لا يخفى عليه شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

أكتفي بالوقوف عند هـذه الآية الكريمة ففيها عبرة لنا، ونسـأل الله تبارك وتعالى أن يهيئ المدافعين عن الإسلام، وأن يشدَّ أزرهم، ويحمي ظهرهم، وييسر أمرهم، ويكفيهم شر شياطين الجن والإنس، وأن يكون معهم حيثما كانوا.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس التاسع
أهل الكتاب في سورة المائدة

في هذه الليلة المباركة من ليالي شهر رمضان المبارك، نقف مع بعض الآيات الَّتي استمعنا إليها من سورة المائدة، وسورة المائدة من السورة المدنيَّة، الَّتي تُعنى بتنظيم المجتمع المسلم، على أساس من أحكام الشريعة الإسلاميَّة، والعقيدة الإسلاميَّة، وبتنظيم العلاقات مع غير المسلمين، وخصوصًا أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، وقد عُنيت السورة بالحديث عن هؤلاء، منذ قول الله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المائدة: ٥]، ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗا﴾ [المائدة: ١٢]، والحديث عن اليهود والنَّصارى والَّذين نسوا حظًّا ممَّا ذُكِّروا به، والكلام عن الحِجاج مع النَّصارى خاصَّة، والكلام عن اليهود وموقفهم من سيِّدنا موسى حينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة الَّتي كتب الله لهم، وموقف هؤلاء.

السورة اهتمت بالكلام عن أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، واهتمت بالنَّصارى أكثر حتَّى أنَّ السورة تسمى سورة المائدة، والمائدة هي الَّتي سألها عيسى عليه السلام بناءً على طلب الحواريِّين، الحواريُّون قالوا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢]، انظروا، حتَّى العبارة: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾

QaradawiBooks.com

قائلها هم الحواريون، ولذا قال بعض المفسرين: إن الحواريين كانوا شاكِّين[١] حينما قالوا ذلك. والصواب أنهم كانوا مؤمنين بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۞ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

فمجموع آيات القرآن يدلُّ على أنَّهم آمنوا، وأنَّهم من خيار المؤمنين، صحيحٌ أنَّهم لم يكونوا كأصحاب رسول الله ﷺ الَّذين فدوه بأنفسهم وبأموالهم وبكلِّ ما يستطيعون، لا يوجد مثل أصحاب رسول الله ﷺ.

أصحاب موسى في هذه السورة قالوا لموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، انظروا، لم يقولوا: يا نبي الله، أو يا رسولَ الله. وإنَّما قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤]، أي: لن ندخل هذه الأرض المقدسة أبدًا ما دامت هذه الجماعة موجودة فيها.

على حين أصحاب مُحَمَّد ﷺ قالوا له: والله يا رسولَ الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقول لك: اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون[٢]. هكذا كان أصحاب الرسول ﷺ.

وأصحاب عيسى منهم من خانه وأسلمه لأعدائه حتَّى كما تقول

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (٦٩٢/١، ٦٩٣).

(٢) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٩)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

رواياتهم أنفسهم، الشاهد أنَّ القرآن اهتم بهذه القضيَّة، وكفّر الَّذين ألَّهوا عيسى بن مريم عليه السلام، فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، من هو الإلٰه الَّذي لا يملك الدفاع عن نفسه ولا عن أمه؟ كيف يكون إلهًا وله أم؟ الإلٰه هو الَّذي لم يلد ولم يولد. ولكن للأسف حينما تُطمَس العقول ويجني عليها الكفر يُنسيها الحقائق البديهيَّة.

وقال في الآية الأخرى الَّتي نقف معها الليلة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، كيف يكون إلٰهًا وهو يدعو النَّاس إلى عبادة الله؟ وقال المسيح: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢]، فأنا عبد مثلكم، اعبدوا الله ربي وربكم. لا يكون إلٰهًا من يطلب عبادة غيره.. يطلب عبادة الحق، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وما للظالمين أي: المشركين، لأن الشرك ظلم عظيم.

النَّصارى يقولون أحيانًا: المسيح هو الإلٰه، وأحيانًا يقولون: إلٰه حق من إلٰه حق، إلٰه ابن إلٰه. وأحيانا يقولون: هو عضو في شركة، هذه الشركة مكوَّنة من ثلاثة أقانيم، جمع أُقنوم، والأُقنوم هو الأصل، عضو في شركة مكوَّنة من ثلاثة أصول: هم الأب، والابن، وروح القدس، فعيسى ـ في اعتقادهم ـ هو الإلٰه الابن.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ليست

QaradawiBooks.com

ألوهيَّة لثلاثة ولا لغير ثلاثة، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣]، دعاهم إلى التوبة والاستغفار من هذه الجريمة الكبرى، جريمة الإشراك بالله، سواء قالوا: إنَّ الله هو المسيح. أو قالوا: إنَّ الله ثالث ثلاثة. فكل هذه الأقوال شرك. ثمَّ قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، المسيح ليس بدعًا، هو واحد من قافلة طويلة، سلسلة طويلة بعثها الله إلى عباده، هناك موسى وهارون، ومن تبعهم من أنبياء بني إسرائيل، وهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف، وهناك هود وصالح وشعيب ونوح، والرسل جميعًا ما جاؤوا إلَّا دعاة لعبادة الله وحده، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، كل الرسل جاؤوا يأمرون بالتوحيد.. بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت، والطاغوت الأصنام والآلهة، وكل ما يعظَّم ويُعبَد ويطاع طاعة مطلقة من دون الله فهو طاغوت.

هكذا جاء الأنبياء جميعًا، والمسيح ليس إلَّا واحدًا منهم، ما جاء يدعو لنفسه، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩] جاء المسيح رسولًا من سلسلة الرسل، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] من الصدِّيقات المقرَّبات إلى الله تبارك وتعالى، ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣] وقد ذكر لنا القرآن قصَّة ولادتها، وأنَّ الله أعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم، هي صدِّيقة وابنها رسول قد خلت من قبله الرسل.

QaradawiBooks.com

ثم قال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام، فهما في حاجة إلى الطعام، ما هذا الإلٰه الَّذي يحتاج إلى أن يأكل ويشرب؟ ما دام محتاجًا إلى الأكل والشرب فهذا ليس بإلٰه، هو مخلوق محتاج لما يقيم أوده، إلى أن يَطعَم لكي تستمر حياته إلى أن يَطعَم، وبعد الطعام يحتاج إلى براز وإخراج، فأيُّ إلٰه هذا الَّذي يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره؟! ولذلك السورة تناقش هؤلاء مناقشة منطقية، ثمَّ ختمت هذه المناقشات والمحاورات بالحوار بين الله والمسيح عيسى يوم القيامة، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أنزهك عن هذا ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ لا يليق بمثلي وقد بعثتني رسولًا لهداية النَّاس أن أدَّعي ما ليس من حقي، وأن أقول ما ليس لي بحقّ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ هذا هو الَّذي قلتُه، طلبتُ منهم أن يعبدوك وحدك لا شريك لك ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨]، هم ملكُك، تتصرَّف فيهم، فإنَّهم عبادك، ولا تعذِّبهم إلَّا بالعدل؛ جزاء ما قدمت أيديهم، فأنت لا تظلم النَّاس شيئًا، ولا تجازيهم على ما لم يعملوا، إنَّما تُوفِّي كل نفس ما كسبت وتُجازيها بما عملت، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، لم يقل هنا فإنَّك أنت الغفور الرحيم لأن مثل هؤلاء الَّذين اتخذوا من دون الله آلهة أخرى أو إلٰهًا آخر وعبدوا غير الله ليسوا في مقام المغفرة والرحمة، فلم يقل: إن تغفر لهم فإنَّك أنت الغفور الرحيم؛ حتَّى لا يوحي

QaradawiBooks.com

بأنَّهم يستحقون المغفرة والرحمة، إنَّما قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، أنت صاحب العزَّة والقوَّة والمقدرة، وتفعل ما تشاء ولا يستطيع أحد أن يقول لك: «لِمَ؟» فضلًا أن يقول: «لا»، أنت العزيز وأنت الحكيم الَّذي يضع الشيء في موضعه.

النبي ﷺ قام ليلة كاملة في قيام الليل يتلو هذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] يتلوها ويكررها.

النَّصارى في الحقيقة ضلوا السبيل، كما قالت الآية: ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] ولذلك قال القرآن: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] جاء في الحديث الَّذي رواه الترمذي وغيره: «**اليهود مغضوب عليهم والنَّصارى ضالون**»[1]. الَّذي عرف الحق وحاد عنه يغضب الله عليه، وهناك من تاهَ عن الحق، وضلَّ عن الحق، فهو ضال، ونحن نريد طريق الَّذين عرفوا الحق واتبعوه، ولم يضلُّوا عنه، وهو طريق الَّذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، النَّصارى ضلُّوا عن الحق واتخذوا المسيح إلٰهًا وأمَّه أحيانًا، أو ثلَّثوا، ونحن نوحِّد الله.

العجيب أن المسيحيَّة الَّتي تقول كلامًا غير مفهوم؛ لأنَّهم يقولون بآلهة ثلاثة ويقولون: نحن من أهل التوحيد. كيف التوحيد وأنتم تقولون بثلاثة آلهة، أو ثلاثة أقانيم؟ ابن حزم له كلام في كتابه «الفِصَل في الملل والنحل»، يقول: لم توجد في الدُّنْيا مقولة أشد بطلانًا وفسادًا من مقولة النَّصارى: «إن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة»؛ كيف تكون

(١) سبق تخريجه صـ٤٦٢.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الثلاثة واحدًا والواحد ثلاثة؟ ولو لم نر هؤلاء النَّاس بأعيننا، ونسمعهم بآذاننا، ونجادلهم بألسنتنا، ما صدَّقْنا أن في الوجود من يقول مثل هذا الكلام[١].

ومع هذا فإنَّ النصرانيَّة الَّتي تُعتَبر مقولتُها أشـدَّ بطلانًا ـ كما يقول ابن حزم ـ تحـاول أن تغزو العالـم، وتحاول أن تُنصِّر المسـلمين في العالم، سنة ١٩٧٨م اجتمع المبشّرون النَّصارى البروتستانتيون في ولاية «كلورادو» في أمريكا، بهدف معلن، هو: تنصير المسـلمين في العالم، كيف ينصرون المسـلمين في العالم كله، فعلًا قدَّموا أربعين بحثًا، من أربعين متخصصًا، في شؤون المسلمين في العالم، وصدر ذلك في كتاب باللغـة الإنجليزيَّة وتُرجـم إلى العربيَّـة، هؤلاء يحاولـون أن ينصِّروا المسلمين، ونحن للأسف لا نحاول أن يُسْلم العالم، هم في هذا المؤتمر جمعوا ألف مليون دولار لهذا الغرض.. لتنصير المسـلمين في العالم، وأسّسوا معهدًا اسمه «معهد زويمر»، زويمر هذا كان رئيس المُبَشِّرين في عصره، وهو الَّذي رأس مؤتمر المُبشِّرين سـنة ١٩٠٦م في القاهرة، وهو صاحب الكلمة الشهيرة: «إنَّ الشـجرة لا يمكن أن يقطعها إلَّا واحد من أهلها». إنَّ التبشـير والتنصير لا يؤتي أكله، ولا يُحَقِّق هدفه، إلَّا حينما نستطيع أن نوجد من أبناء المسلمين من يزعزع الثقة بالإسلام، من يدعو إلى غير الإسـلام. لأنَّه وَجَد أن مـن الصعب جدًّا أن يصبح المسـلم نصرانيًّا، فقال: لندعْ هذا؛ ليس من الضرورة أن ننصِّر المسلم، إنَّما المهم أن نشكِّك المسلم في إسـلامه. وهذا ما صنعوه، من أبناء المسلمين فئة لا تثق بإسـلامها، ليس عندها اليقين بربها وقرآنها ورسولها، فهذه الفئة

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤٩/١)، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

QaradawiBooks.com

هي الَّتي نسـميهم العِلمانيين واللادينيين وغيرهم، هم الَّذين يحاربون الإسلام من داخل الإسلام، من داخل الأُمَّة الإسلاميَّة، وهذا هو الخطر الَّذي تتعرض له الأُمَّة.

للأسـف كلُّ ذي دين يدعو إلى دينه، ونحن المسلمين لا ندعو إلى ديننا؛ لأنَّنا نحـارَب في عقر دارنا، ولا منجاة لنا إلَّا إذا عدنا للتمسـك بالعروة الوثقى الَّتي لا انفصام لها.. عروة الإسـلام، لا ننجح في الدُّنْيا ولا نفوز في الآخرة إلَّا بالإسلام، كما قال ابن الخطاب رضي الله عنه: نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّة بغيره أذلَّنا الله[1].

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٨٥)، والحاكم في الإيمان (٦١/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس العاشر
النهي عن تحريم الطيّبات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

من أساليب القرآن الكريم: «النداءات الإلٰهيَّة»، الله ينادي عباده، ينادي الناس: «يا أيُّها الناس»، ينادي بني آدم: «يا بني آدم»، ينادي أهل الكتاب: «يا أهل الكتاب»، ينادي أهل الإيمان: «يا أيُّها الَّذين آمنوا».

و«يا أيُّها الَّذين آمنوا» لم تعرف إلَّا في المدينة، لم يثبت أن هذه الصيغة نزلت في مكَّة، إنَّما نزلت حينما صار للمسلمين مجتمع متميز، لهم فيه سلطان، ولهم فيه دولة، فبدأ النداء الإلٰهي: «يا أيُّها الَّذين آمنوا»، تسعة وثمانون نداءً في القرآن الكريم، منها في سورة المائدة هذه وحدها ستَّة عشر نداءً.

السورة بدأت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]، لم يعرف في القرآن «يا أيُّها المؤمن» أو «يا أيُّها الَّذي آمن»، إنَّما عرف «يا أيُّها الَّذين آمنوا»، أي خطاب للجماعة، لماذا؟ لأنَّ الجماعة متضامنة في تنفيذ أحكام الله، ليس الخطاب للفرد وحده، وإنَّما الخطاب للمجتمع المسلم برمّته، للجماعة الإسلاميَّة، يتضامن النَّاس في تنفيذ أحكام الله،

الأغنياء والفقراء، والحكام والمحكومون، والأقوياء والضعفاء، والرجال والنساء، كلهم يتضامنون في تنفيذ الأحكام، حتَّى الأحكام الَّتي لا ينفذها عامَّة النَّاس.

حينما يقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، هل النَّاس هي الَّتي تقطع يد السارق؟ أم هو الحاكم بواسطة الشرطة؟ إنَّما كان الخطاب للجميع لأن الجميع مسؤولون، حينما تعطل هذه الأحكام فالحاكم مسؤول عن تعطيلها، والمحكومون مسؤولون عن تعطيلها، فمن أجل هذا كان النداء بهذه الصيغة: «يا أيُّها الَّذين آمنوا».

وهذه الصيغة لم يعرفها العرب ولا العجم، صيغة لم تعرف إلَّا في القرآن الكريم، النَّاس عادة يتنادون قبل أن يسمعوا هذا النداء الإلٰهي كانوا يسمعون: يا عرب، يا عجم، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا بني غَطَفان، يا معشر قريش، يا كذا، يا كذا، وهكذا كان النَّاس يتنادون بعروقهم، بأجناسهم، بألوانهم، بعروقهم، بأوطانهم، أمَّا أن يتنادوا بمعنى جديد وهذا المعنى هو الإيمان، فهذا هو ما جاء به القرآن الكريم وانفرد به.

ينادي القرآن: «يا أيُّها الَّذين آمنوا»، أي: يا من آمنتم بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وبالقرآن إمامًا ومنهاجًا، أخاطبكم بما يُتلى عليكم، ومن هنا كان خطاب الله الجماعة المؤمنة بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

جاء الإسلام بمنهج وسط لأمَّة وسط، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فكانت وسطًا في التحليل والتحريم، اليهود أسرفوا في التحريم، وحرَّموا طيِّبات كثيرة، وحرَّم الله عليهم عقوبة لهم طيبات أخرى، كما قال: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

هم أسرفوا في التحريم، والنَّصارى أسرفوا في التحليل، جاء مُقدَّسهم وإمامهم «بولس» وأحل لهم كل شيء، قال: كُلُّ شيءٍ طَيِّب للطَّيِّبين. فالخنزير الَّذي كان مُحَرَّمًا على اليهود أحلُّوه، وأحلوا الصور والتماثيل، أحلوا أشياء كثيرة، ولكن النَّصارى مع هذا حرموا على أنفسهم طيِّبات أخرى وفق نظام الرهبانيَّة الَّتي ابتدعوها، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧].

هم الَّذين ابتكروها واخترعوها ومع هذا لم يؤدُّوا لها حقَّها، هذه الرهبانيَّة جعلتهم يُقَلِّدون بعض الأمم الأخرى الَّتي تقوم فلسفتها على تعذيب الأجسام من أجل صفاء الأرواح، وقالوا: إنَّ الروح لا تصفو إلَّا إذا عذبتَ الجسم، جوعتَه وعطشتَه وجعلتَه يعاني، وحرمته من الطيِّبات.

وهذه الرهبانية قلدت المانويَّة الفارسيَّة المنسوبة إلى «ماني»، وهو رجل قام في فارس وقال: إنَّ العالَم كلَّه شرٌّ، ويجب التعجيل بفناء العالم، لنتخلص من هذا العالم لا نتزوج حتَّى يفنى العالم بعد جيل أو جيلين، وبقدر الإمكان يحرم نفسه من الطيِّبات. فكانت هذه المانوية الفارسيَّة، والبرهميَّة الهندية، والبوذيَّة الصينية، والرواقية اليونانيَّة، جماعة اسمهم «الرواقيين»، وهو مذهب فلسفي كان يرى أيضًا تحريم الطيِّبات على النَّاس.

QaradawiBooks.com

الإسلام جاء مخالفًا لهذه الفلسفات والأديان والمذاهب، ولم يجز أن يحرم النَّاس طيبات ما أحل الله لهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٧]، ولكن وسطيَّته أنَّ النَّاس لا يبالغون في أن يعبدوا بطونهم وفروجهم وشهواتهم، لكن يأخذوا كل شيء باعتدال، ولذلك بعد أن قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قال: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وقال الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

من الَّذي يُحرِّم على النَّاس زينة الله؟ وأضاف الله الزينة إليه تشريفًا لها وتكريمًا، هي زينة ربنا، أتحرِّم على نفسك زينة ربك والطيِّبات من الرزق؟! الله خلق هذه الطيِّبات لك ثمَّ تحرِّمها أنت على نفسك؟! لماذا خلقها الله إذا كان يخلق الشيء ثمَّ يحرِّمه على خلقه؟ هذه نعم الله أسبغها عليكم ظاهرة وباطنة.

فالإسلام جاء بالمنهج الوسط، أباح الطيِّبات ولكن لم يرضَ أن يجعلها المسلم غاية له في حياته، غايته يجب أن تكون الآخرة، غايته يجب أن تكون رضوان الله ﷻ، ولكن هذه الأشياء عون لك وعدة على طاعة الله، على الاستمرار في الطريق، كل واشرب والبس، فقد جاء الإسلام يبيح طيبات المأكل والمشرب، ويبيح طيبات الملبس والزينة، زينة الله الَّتي أخرج لعباده، ويبيح طيبات المسكن والأثاث، ويبيح

QaradawiBooks.com

طيبات الحياة الزوجيَّة، «**الدنيا متاع، وخير متاع الدُّنْيا المرأة الصالحة**»[١]، ويبيح طيبات اللهو والترويح، لا يريد أن تكون الحياة كلها جادة، «**يا حنظلة، ساعةٌ وساعة**»[٢]، ساعة لقلبك وساعة لربك، كما قال الرجل الصالح:

وَلِلَّهِ عِنْدِي جَانِبٌ لَا أُضَيِّعُهُ وَلِلَّهْوِ مِنِّي وَالْبَطَالَةِ جَانِبُ[٣]

يؤدِّي لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فجاء الإسلام بهذا المنهج الوسط مخالفًا الَّذين شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، وقال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ** ﴾ [المائدة: ٨٧]، في فترة من الفترات شاعت نزعة عند بعض الصحابة، نزعة فيها شيء من الرهبانيَّة، بعضهم قال: أنا لا أقترب من النساء، وبعضهم قال: أنا لا آكل اللحم، لأن أكل اللحم يقوي الغريزة الجنسيَّة، ويقوي الشهوة إلى النساء[٤]، وبعضهم طلب من النبيِّ ﷺ أن يختصوا[٥]، يخصون أنفسهم من أجل قطع الشهوة، وبعضهم وبعضهم إلخ، فنزلت هذه الآية تردهم إلى حدود الله، إلى المنهج الوسط، ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ** ﴾ [المائدة: ٨٧].

---

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠)، عن حنظلة الْأُسَيِّدِيِّ الكاتب.

(٣) ذكره من غير نسبة المبرد في الكامل في اللغة والأدب (٧/٢)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٤) إشارة إلى الحديث المتَّفق عليه عن أنس، أنَّ نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه. فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكنِّي أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح.

(٥) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢)، كلاهما في النكاح، عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

القرآن شـــدَّد جدًّا على الَّذين يحرِّمون، التحريم هذا ليس من شأنك إنَّما هو شـــأن الله ﷻ، الَّذي يحلِّل ويحرِّم هـــو الله، إنَّما أنت عليك أن تتلقى الأمر من الله، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، تحلِّل أنت وتحرم من عند نفســـك؟! هل هذا عملك؟ هذا عمل المشـــرّع الأعلى، الحاكم الأكبر لهذا الكون، الكون مملكة الله وهو ملك هذا الكون، وهو الَّذي يأمر وينهى، وليس من حقك أن تأمر وتنهى، وليس من حقك أن تحلِّل وتحرم على النَّاس أو على نفسك، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

شدَّد الإسلام في تحريم الحلال، واعتبر تحريم الحلال قرين الشرك، كما جاء في الحديث الصحيح: «**وإنِّي خلقتُ عبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشـــياطينُ فاجتالتهم عن دِينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنْزِلْ به سلطانًا**»[1].

فجعل الله تحريم الحلال بجوار الشرك بالله، والله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرســـلين، أمر الرســـل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنـــون: ٥١]، وأمـــر المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

في هذا السياق قال هنا في سورة المائدة: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨].

---

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الحادي عشر
منهج الإسلام في التمتع بالطيِّبات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۞ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٧ ـ ٨٩].

روي أنَّ رجالًا أرادوا أن يتبتلوا أو يَخْصُوا أنفسهم ويلبسوا المُسُوح (ملابس الرهبان)، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

يبيّن الله ﷻ في هاتين الآيتين الكريمتين للجماعة المؤمنة حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيِّبات، ومقاومة الغلو الَّذي وجد في بعض الأديان، وجاء عن ابن عبَّاس: أنَّ رجلًا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنّي إذا أكلتُ من هذا اللحم انتشرتُ للنِّساء، وإنِّي حَرَّمْتُ عليَّ اللحم. فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٨٧][1].

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٥٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب. والطبراني (٣٥٠/١١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٥٤).

نسخة مرخصة
QaradawiBooks.com

وقف الإسلام دون إرخاء العنان لغريزة الجنس لتنطلق بغير حدود ولا قيود، ولذلك حرَّم الزنى وما يُفضي إليه وما يلحق به، ولكنَّه إلى جانب ذلك قاوم النزعة المضادة والمصادمة للغريزة والكابتة لها، ومن أجل ذلك نهى عن التبتل والخصاء، ودعا إلى الزواج، فلا يحلُّ للمسلم أن يعرض عن الزواج مع القدرة عليه بدعوى التبتل لله، أو التفرغ للعبادة والترهب والانقطاع عن الدنيا.

وقد لمح النبيُّ ﷺ في بعض أصحابه شيئًا من النزوع إلى هذه الوجهة الرهبانيَّة، فأعلن أن هذا انحراف عن نهج الإسلام، وإعراض عن سُنَّته، وبذلك طارد تلك الأفكار النصرانيَّة من البيئة الإسلاميَّة.

قال أبو قِلابة رضي الله عنه: أراد أناس من أصحاب رسول الله ﷺ أن يرفضوا الدُّنْيا ويتركوا النساء ويترهَّبوا، فقال رسول الله ﷺ فغلَّظ فيهم المقالة، ثمَّ قال: «**إنَّما هلك من كان قبلكم بالتشديد؛ شدَّدُوا على أنفسهم، فشدَّد اللهُ عليهم، فأولئك بقاياهم في الأديار والصوامع، فاعبدوا اللهَ ولا تشركوا به، وحُجُّوا واعتمروا واستقيموا يُسْتَقَمْ بكم**». قال: ونزلت فيهم الآية: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ**﴾ [المائدة: ٨٧][(١)].

وقال سعد بن أبي وقَّاص: ردَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتُّل، ولو أذن له لاختصينا[(٢)].

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٣١)، وعبد الرزاق في التفسير (٧١٩)، والطبري في التفسير (٥١٥/١٠)، وضعفه الألباني في غاية المرام (٢٠٧) لإرساله، ثم أشار في آخر كلامه إلى حديث أنس بن مالك، الذي رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٤)، ثم قال: لعل حديثه حسن بشاهده المرسل عن أبي قلابة.

(٢) سبق تخريجه صـ٧٣٨.

QaradawiBooks.com

وعن مجاهد قال: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون، وعبد الله بن عمرو أن يتبتَّلوا، ويَخْصُوا أنفسهم، ويلبسوا المُسُوح، فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؟ ما هو العدوان؟ العدوان أن تحرم ما أحلَّ الله لك، أو أن تسرف فيما أحل الله لك، أو أن تأكل حق غيرك، المفروض أنَّك تأكل ممَّا أحلَّ الله لك، أمَّا أن تعتدي وتأكل مال الآخرين أو تأخذ رزق الآخرين فهذا ليس حلالًا لك.

العدوان له صور كثيرة، منها: أن تأكل أكثر من الحدِّ المعقول، تأكل إلى حدِّ الإسراف، والإسراف أن تزيد على الكميَّة المعقولة، أمَّا التبذير أن تأكل من الحرام حتَّى ولو شيئًا قليلًا، الحرام ممنوع وإن كان قليلًا، إنَّما الحلال جائز إلَّا أن تسرف فيه، فالله لا يحبُّ المسرفين ولو حتَّى في العبادة، حينما ذهب بعض الصحابة إلى بيوت أزواج النبيِّ ﷺ يسألونهنَّ عن عبادة رسول الله ﷺ، فشرحن لهم طريقة النبيِّ ﷺ في العبادة، وأنَّه ينام ويقوم، ويصوم ويُفطر، ويتمتع بما أحلَّ الله من الطيِّبات، فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر؟! فأحدهم قال: أمَّا أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثاني: وأمَّا أنا فأصوم الدَّهْر ولا أُفطر، والثالث قال: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج أبدًا.

عَلِم النبيُّ ﷺ بمقالتهم هذه فجمعهم وخطب فيهم وبين لهم خطأهم وعوج طريقهم، قال لهم: «**إنَّما أنا أعلمُكم بالله وأخشاكم له، ولكنِّي**

QaradawiBooks.com

أصوم وأُفطر، وأقوم وأنام، أقــوم بعض الليل وأنام بعض الليل، وأتزوَّج النساء، فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي»[1].

وهكذا ثبَّت النبيُّ ﷺ هذا المنهج الوســط، فسُنَّته ﷺ تعني: منهجه في فهم الديــن وتطبيقه، وكيــف يعامل ربه ﷻ، ويعامل نفســه وأهله والناس من حوله، معطيًا كل ذي حقٍ حقَّه، في توازن واعتدال، فلم يدع النبي ﷺ للمسلمين أن يحرِّموا على أنفسهم ما أحلَّ الله.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائــدة: ٨٨]، ما معنــى الطيب؟ الطيب هو كل ما تســتطيبه وتســتلذه الأنفس الســليمة وليس الأنفس الغويَّة، الطيِّبات تعني المســتلذات، ربنا خلق أشــياء يستلذها الإنسان بفطرته، يتلــذذ بالأكل الطيب، ويتلذذ بالمشــرب الطيب، كما قال أهل الكهــف: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ [الكهــف: ١٩]، ينظر الطعــام الزكي الطيب فيأتي بشــيء منه، والنبي ﷺ كان يســتعذب له المــاء، تعرفون أن مياه المدينة كلها من الآبار، ومياه الآبــار هذه بعضها يكون فيه ملوحة زيادة عن اللازم، فــكان النبي ﷺ يســتعذب البئر الَّذي تكــون مياهه عذبة، وأحيانًا يضع بعض التمرات ليخفف من ملوحة ماء البئر، يسمونه النبيذ، والنبيذ الحلال أن توضع التمرات في المــاء ولا يطول مكثها في الماء لئلا تصبح مسكرًا، لا مانع من هذا.

ولا مانع في أنَّك تلبس الثوب الحسن والنعل الحسن، أحد الصحابة كان رجلًا يحبُّ الجمال، يحبُّ التأنُّق في كلِّ شــيء، ما يحبُّ أن يفوقه أحدٌ بشــراك نعل، يحبُّ أن يلبس أحسن حذاء وأحســن قميص، حتَّى

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

QaradawiBooks.com

شراك النعل ـ وهو الرباط الَّذي يربط به الحذاء ـ ما يحبُّ أن يكون رباط نعل حذاء أحدٍ أحسنَ من رباط نعل حذائه، قال: يا رسولَ الله، إنِّي رجل حُبِّب إليّ الجمال، وأُعطيت منه ما ترى، حتَّى ما أحبُّ أن يفوقني أحد بشراك نعلي ـ أو قال: بشِسْعِ نعلي ـ أفمن الكبر ذلك؟ قال: «**لا، ولكنَّ الكِبْرَ من بَطِرَ الحقَّ، وغَمَطَ النَّاس**»[١]. وفي الحديث الآخر: «**إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس**»[٢].

فالله لا يكرهك لأنَّك تحبُّ الشيء الجميل، وليس من الكبر أن تحبَّ الشيء الجميل، إنَّما الكبر حقًّا هو أن تردَّ الحقَّ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وأن تغمط النَّاس يعني تحتقرهم، تعتبر نفسك أنت أحسن وأفضل من النَّاس كلهم، لكن المؤمن الحق يرى نفسه أقل النَّاس، إن كان عالمًا يقول: الجاهل أحسن منِّي لأنَّه عصى الله عن جهل وأنا عصيتُه عن علم، إن كان شابًّا يقول: والله الشيخ أفضل منِّي لأنَّه أطاع الله قبلي، وإن كان شيخًا كبيرًا يقول: الشباب أفضل منِّي لأنَّه أخف ذنوبًا منِّي وهو شاب طائش أما أنا فشيخٌ مصيبتي كبيرة، وهكذا المؤمن يجعل نفسه هو الأقل، هذا شأن الإنسان المؤمن.

إنَّما أن تحتقر النَّاس فهذا هو الكبر، النبي ﷺ يقول: «**المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يَحْقِره، بحسْب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[٣].

---

(١) رواه أبو داود في اللباس (٤٠٩٢)، وابن حبان في الزينة والتطيب (٥٤٦٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والحاكم في اللباس (١٨١/٤)، وصحَّح إسناده، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦٢٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨]، كان من أوصاف النبيِّ ﷺ في كتب أهل الكتاب التوراة والإنجيل: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، المحرمات الَّتي كانت على اليهود بسبب ظلمهم وأكلهم أموال النَّاس بالباطل جاء الإسلام وفك أسر البشريَّة من هذه الأشياء، وأحلَّ كلَّ طيِّب وحرَّم كلَّ خبيث، لا يحرِّم الله إلَّا ما فيه مضرَّة على الإنسان في نفسه أو على أسرته أو على المجتمع، في جسمه أو في روحه أو في عقله، لم يحرِّم شيئًا طيِّبًا، أحلَّ الطيِّبات وحرَّم الخبائث، ووضع عنهم الآصار والأثقال والتكاليف الشاقَّة الشديدة الثقيلة، ولذلك علمنا الله في آخر سورة البقرة أن نقول: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

من أحكام اليمين:

كان بعض الصحابة حرَّموا طيِّبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم وحلفوا على ذلك فلمَّا نهاهم النبيُّ ﷺ عن ذلك قالوا: يا رسولَ الله، كيف نصنع بأيماننا؟ فنزلت هذه الآية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩][1].

الأيمان الَّتي حلفتموها هذه إمَّا أيمان لغو لأنَّها حلف على معصية أو لم تريدوا بها حقيقة الأمر، كما قالت السيِّدة عائشة رضي الله عنها: أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٥] في قول الرجل: لا والله، وبلى والله[2].

(١) رواه الطبري في التفسير (٥١٧/١٠، ٥١٨)، عن السدي مرسلًا.

(٢) رواه البخاري في الأيمان والنذور (٤٦١٣).

QaradawiBooks.com

مثلما يكون عند الواحد منَّا ضيف فيقول له: والله لِتأكلْ كذا، أو والله لِتشربْ كذا، وهكذا، فهذه يمين لغو، وكذلك اليمين ساعة الغضب الشديد تعتبر لغوًا، إنَّما اليمين الَّتي فيها مسؤوليَّة وتبعة اليمين المنعقدة.

قسم الفقهاء الأيمان إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: يمينُ لغوٍ لا اعتبار لها.

والقسم الثاني: يمين غموس، وهي أن يحلف الإنسان وهو يعلم أنَّه كاذب، يأكل حقَّ غيره، عليه دَيْن لفلانٍ ويحلف ما عليَّ دَيْن، رأيتُ فلانًا وهو يعمل كذا؟ وقد رآه فعلًا ثمَّ يحلف أنَّه ما رآه، فهذه أيمانٌ كاذبة وقد اشتهرت عند النَّاس، العلماء سمَّوها: اليمين الغموس، ما معنى غموس؟ يعني تغمس صاحبها في الإثم في الدُّنْيا وفي جهنَّم في الآخرة والعياذ بالله.

والقسم الثالث: اليمين المُنْعَقِدة الَّتي يعقد الإنسان العزم عليها في أمر مستقبَل أن أفعل كذا أو لا أفعل كذا، إذا فعل ما عزم على فعله أو ترك ما عزم على تركه فبها ونعمت، إذا حنث في يمينه هناك كفَّارة، ما كفَّارته؟ ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، انظر إلى الإسلام ينتهز الفرص، يجعل من أخطاء النَّاس مددًا للمساكين، أطعم عشرة مساكين أو اكسوهم، أو حرَّر رقبة، أعتق عبدًا لله ﷻ، لا تجد رقبة أَطْعِمْ سِتِّين مسكينًا، ينتهز الفرصة ليأخذ بأيدي هؤلاء الضعفاء ليُطْعِمَهم من جوع، ويُيَسِّر عليهم من عُسر.

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾، كثير من النَّاس يظنُّ أنَّ كفَّارة اليمين هي صيام ثلاثة أيام، ويقول لك: سهلة سأصوم ثلاثة أيام. لا، الكفَّارة ليست صيام ثلاثة أيام، الكفَّارة إطعام عشرة مساكين، فإذا كان فقيرًا ولم يجد إطعام العشرة المساكين يصوم ثلاثة أيام.

QaradawiBooks.com

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩]، ربُّنا من رحمته أنَّه جعل لهذا اليمين المنعقدة على المستقبل هذه كفارة.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾، احفظ يمينك، لا تفرِّط في الأيمان، لا تحلف على كل صغيرة وكبيرة، ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقد ذمَّ الله بعض المشركين فقال: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، حلَّاف أي: كثير الحلف على كلِّ حاجة يحلف ويحلف، لا تعرض اسم الله لمثل هذا.

﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩]، هكذا يُبيِّن الله لنا الأحكام، ويُبَيِّن لنا الآيات، ولا يدعنا غُفْلًا، ولا يتركنا سُدًى، بل يبيّن لنا الحلال من الحرام، والصواب من الخطأ، والحقّ من الباطل، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثاني عشر
النداء الحادي عشر للمؤمنين

تحريم الخمر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

نعيش الليلة مع النداء الحادي عشر في هذه السورة، فقد اشتملت هذه السورة الكريمة ـ سورة المائدة ـ على ستَّةَ عشرَ نداءً إلى جماعة المؤمنين، يقول الله تعالى في هذا النداء: هذا النداء في ظاهره أمر، وفي باطنه نهي، فقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] أمر، ولكن معناه نهي، أيْ: لا تقرُبوا شيئًا من هذه الأشياء.

﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ﴾، الخمر هو: كلُّ مسكر، كل ما يلابس العقل، ويُخرِجه عن طبيعته المميزة الحاكمة فهو خمر، كما قال أمير المؤمنين عمر على المنبر: الخمر ما خامر العقل[1].

كل ما خامر العقل ولابَسه، وغشيه ودسَّاه، ودخل عليه فأخرجه عن طبيعة الإدراك والتمييز، والحكم السليم فهو خمر، يمكن يكون من عنب،

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٤٦١٩)، ومسلم (٣٠٣٢)، كلاهما في التفسير، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

يمكن يكون من بصل، يمكن يكون من لبن، يمكن يكون من تمر، يمكن يكون من حشيش أو أفيون وهذه الأشياء، هذه كلها تدخل في باب الخمر.

و«الميسر» هو القمار، و«الأنصاب» هي: الأوثان أو أشياء توضع عند الأصنام تُذبَح عليها، و«الأزلام» هي: الأقداح الَّتي كانوا يستقسمون بها، إذا أرادوا سفرًا أو تجارة، أو مشاركة أو زواجًا أو غير ذلك، يذهبون إلى الاستقسام ليسألها يعمل أو لا يعمل، هي الَّتي تعطيه الرأي، هذه الأقداح الصمَّاء هي الَّتي توجهه وتأمره وتنهاه، على واحد منها مكتوب: «افعل» أو «لا تفعل»، والآخر أبيض.. ليس فيه «افعل» أو «لا تفعل»، لو خرج هذا يعيده مرَّة ثانية. الإسلام يقول لك: إذا أردت أمرًا استخر واستشر، استخر الخالق واستشر الخلق، ما خاب من استخار ولا ندم من استشار.

﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠]، هذه الأنصاب كلها رجس من عمل الشيطان، الرجس هو: الخبيث والقذر، الشيء الَّذي تنفر منه النفس.

يقول الإمام القرطبي في تفسيره للآية: فهم الجمهور من تحريم الخمر، واستخباث الشرع لها، وإطلاق الرجس عليها، والأمر باجتنابها: الحكم بنجاستها.

وخالفهم في ذلك: رَبِيعَة، والليث بن سعد، والمُزَني صاحب الشافعي، وبعض المتأخِّرين من البغداديِّين والقرويِّين، فرأوا أنَّها طاهرة، وأنَّ المُحَرَّم إنَّما هو شربها.

وقد استدلَّ سعيد بن الحدَّاد القرويُّ على طهارتها: بسفكها في طرق المدينة، قال: ولو كانت نجسة لما فعل ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، ولنهى رسول الله ﷺ عنه، كما نهى عن التخلِّي في الطرق[1].

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/٢٨٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأزيد على ذلك: بأنَّ الحَفَاء كان منتشرًا بينهم، فالرجسيَّة هنا كالرجسيَّة في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، فقد اقترن بالخمر ما يدلُّ على أنَّ الرجسيَّة هنا ليست حسيَّة، بل معنويَّة، فقد اقترنت الخمر بالميسر والأنصاب والأزلام، وكلُّها طاهرة بالإجماع.

للأسف بعض النَّاس المتعالِمين في عصرنا من العِلمانيين، الَّذين يحسبون أنفسهم على الإسلام زورًا وبهتانًا، ويكتبون في أمور إسلاميَّة، منهم من يقول لك: لم تُذكر الخمر في آية الأطعمة المحرمة، ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فقلت له: يا أخي هذه الآية في المطعومات، والخمر في المشروبات، ثمَّ لو تفكر لوجد أنَّ الله حرَّم الخنزير فقال: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] يعني: جعل العلة الرجسيَّة الَّتي في لحم الخنزير، وفي الخمر قال: ﴿رِجْسٌ﴾ وزاد عليها إنَّه ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠]، فأيّ نهي أشد من هذا؟ رجس ومن عمل الشيطان، والشيطان لا يأمر إلَّا بالفحشاء والمنكر، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ١٦٩] ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]، ولذلك القرآن شدَّد في تحريم الخمر وما تبعها في هذه الآية، قرن الخمر بالأنصاب وبالأزلام.

ثم قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، هؤلاء المتعالمون يقولون: الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، ولم يقل: حُرِّمت عليكم الخمر والميسر...،

QaradawiBooks.com

مثل ما قال في آية أخرى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، كأن التحريم ليس إلَّا بلفظ التحريم! حسنًا.. حينما قال الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يقل: حرَّم عليكم الزنى، هل معناها أنَّ الزنى حلال؟ التحريم يكون بصيغٍ شتى.

وكلمة: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ لمن تتبَّع مواردها في القرآن الكريم يجد أنَّ الكلمة لا تأتي إلَّا عقب الشرك والأوثان، وكبائر الإثم والفواحش، الله تعالى يقول: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والطاغوت هو كل ما يُعبَد ويُعظَّم من دون الله، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١]، ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

من تتبَّع القرآن يجد كلمة «الاجتناب» لا تأتي مع الآثام الصغيرة والذنوب الصغيرة، إنَّما تأتي مع الشرك أو كبائر الإثم والفواحش، لأن كلمة «اجتنبْ» أشد من كلمة «اترُك» أو «حرَّمْتُ»؛ لأنَّ التحريم قد يكون لشيء صغير، المُحَرَّمات منها صغائر، إنَّما الاجتناب مع الكبائر، «اجتنبْ» يعني: اجعلْ بينك وبين هذا الشيء جانبًا، ليس المقصود فقط «لا تفعل»، بل «لا تقترب منه»، ابتعد منه، فهي شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فليس معناها: لا تزنِ فقط، لا تزنِ ولا تقترب ممَّا يؤدِّي إلى الزنى، لا تختلِ بامرأة أجنبية، لا تتبرج المرأة، لا تفعل الأشياء الَّتي يمكن أن تؤدِّي إلى الزنى، كذلك كلمة: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أيْ: ابتعدوا عن كل ما يؤدي إلى الخمر.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن هنا لعن النبيُّ ﷺ في الخمر عشرًا: عاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه وساقيها، وكل من ساهَم فيها من قريب أو بعيد، وهذا معنى: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

فالَّذين يماحكون ويجادلون بالباطل في أنَّ كلمة: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ لا تدلُّ على الحرام هؤلاء لا شكَّ في ضلال مبين، ومن العجب أن طالبًا ناقشني، قال لي: أنا أريد أن تأتي إليَّ بنصٍّ من القرآن يدلُّ على أنَّ الخمر حرام. قلت: هل من الضروري أن آتيك بنصِّ القرآن؟ آتيك بالسُّنَّة: «**كلُّ مُسْكِرٍ خمر، وكلُّ خمر حرام**»[1]. قال: لا، أنا أريد من القرآن. قلتُ له: الله تعالى يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فهمتَ هذه الآية؟ قال: نعم. خذ الآية التالية، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، حرَّم في هذه الآية الإثم، والآية الأخرى تقول: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩].

قال هذا الطالب: سلَّمتُ لك. قلتُ: سبحان الله، هذه الآية أوَّل آية نزلت في التحريم، التحريم نزل على مراحل، أوَّل مرحلة منها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والمرحلة الثانية: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، ثمَّ جاءت الآية الحاسمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]،

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٠٣)، وأحمد (٤٦٤٥)، عن ابن عمر.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فقال الصحابة: قد انتهينا يا ربّ[١]. وكان بعضهم قد أمسك بالكأس في يده، شرب منه بعضًا وبقي منه بعض، فسمع منادي رسول الله ﷺ ينادي: ألا إنَّ الخمر قد حرمت. فلم يسع هذا الشارب إلَّا أن يسكب بقية الكأس على الأرض[٢]، ولم يقل ما قال امرؤ القيس قديمًا حينما جاءه خبر مقتل أبيه وهو في مجلس الشراب فقال: لا صَحْو اليومَ، ولا سُكْر غَدًا، اليوم خمرٌ، وغدًا أمْرٌ[٣].

لم يكتف الصحابة بهذا، بل ذهبوا إلى بيوتهم وجاؤوا بما فيها من خمور وأراقوها في طرقات المدينة، شقوا القِرَب الَّتي كانت فيها الخمر، لأن الكلام لمن؟ للمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، كلمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذه هي الَّتي حفزتهم على امتثال الأمر واجتناب النهي.

لو جاء الإسلام من أوّل الأمر وقال: امتنعوا عن الخمر، لقالوا: والله لن ندخل في الإسلام، إنّما أبقاهم على هذا الأمر وأخذهم بالتدريج، حتَّى نزلت الآية الحاسمة، وكان جواب المؤمنين على هذا البيان الحاسم: انتهينا.. انتهينا يا رب.

وقد آمن كثير من الحكومات بأضرار الخمر على الأفراد والأسر والأوطان، ومنهم من حاولوا أن يمنعوها بقوَّة القانون والسلطان، الولايات المتحدة الأمريكية في فترة من الفترات وجدت أنَّ الخمر ضارة

(١) رواه أحمد (٣٧٨)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الأشربة (٣٦٧٠)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٩)، والنسائي في الأشربة (٥٥٤٠)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٦٤)، ومسلم في الأشربة (١٩٨٠)، عن أنس.

(٣) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (١٠٩/١)، نشر دار الحديث، القاهرة، نشر ١٤٢٣هـ، ومجمع الأمثال للميداني (٤١٧/٢)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

بالمجتمع، مفسدة له، ضارة به أخلاقيًّا، وضارة به اقتصاديًّا، وضارة به أسريًّا، وضارة به اجتماعيًّا، فأصدروا تشريعًا بتحريم الخمر، وأصدروا ملايين الإعلانات والمنشورات للتنفير من شرب الخمر، ووظَّفوا الشرطة والجيش وكل القوى لتحارب تهريب الخمر من أي جهة كانت، ولكن بعد مدَّة من الزمن فشلت المنشورات والإعلانات والجيش والشرطة والأساطيل، وتغلَّب الَّذين يتاجرون في الخمر والَّذين يروِّجونها والَّذين يتناولونها، وسقط هذا التشريع ورجعوا فأباحوها، فشلوا ونجح الإسلام وحده في محاربتها والقضاء عليها، لأن الإسلام أقام هذا على أساس الإيمان.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فالإيمان هو أساس المجتمع المسلم، هي العقيدة الَّتي يقوم عليها البناء كله.

وعلى طريقة الإسلام في سدِّ الذرائع إلى الحرام، حرم على المسلم أن يبيع العنب لمن عرف أنَّه سيعصره خمرًا.

وعلى هذه السُّنَّة أمر المسلم أن يقاطع مجالس الخمر، ومجالسة شاربيها، فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقعدْ على مائدةٍ تدارُ عليها الخمر**»(٤).

إنَّ المسلم مأمور أن يغير المنكر إذا رآه، فإذا لم يستطع أن يزيله، فليزل هو عنه، وليبأ عن موطنه وأهله.

وممَّا رُوِيَ عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنَّه كان يجلد شاربي الخمر ومن شهد مجالسهم، وإن لم يشرب معهم. وروَوْا أنَّه رفع إليه قوم شربوا الخمر، فأمر بجلدهم، فقيل له: إن فيهم فلانًا، وقد كان

(٤) رواه أحمد (١٤٦٥١)، وقال مُخَرِّجوه: حسن لغيره. والترمذي في الأدب (٢٨٠١)، وقال: حسن غريب. والحاكم في الأدب (٢٨٨/٤)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

صائمًا، فقال: به ابدؤوا، أمَّا سمعتم قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠][1].

ثم بيَّن القرآن أنَّ العِلَّة الأولى في تحريم الخمر والميسر هي: إيقاع العداوة والبغضاء في المجتمع، رغم ما لهما من مضارَّ ومساوئَ أخرى لا تخفى، فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١].

وقد جاء في الحديث تسمية هذه الآفات: «داء الأمم»، كما أنَّ الحديث سماها: «الحالقة»، حالقة الدِّين لا حالقة الشَّعر، وذلك لخطرها على الجماعة وتماسكها المادي والمعنوي، وفي هذا يقول ﷺ: «**دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين**»[2].

(١) رواه الطبري في التفسير (٣٢١/٩).

(٢) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٩٥): حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثالث عشر
تصحيح المفاهيم

فرغنا الليلة من تلاوة سورة المائدة، وسورة المائدة سورة مدنيَّة، من أواخر ما نزل من القرآن، وورد عن جُبَير بن نُفَيْر، قال: دخلتُ على عائشة فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ قال قلت: نعم. قالت: «فإنَّها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلُّوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه»[1].

والمائدة هي معجزة لسيِّدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، ولذلك هذه السورة من السور المنوِّهة بشأن المسيح، لم يوجد للمسيح ولا لموسى عليهما الصلاة والسلام ـ وهما من أولي العزم من الرسل ـ سورة صريحة بأسمائهما، رغم أن بعض العلماء قال عن سيِّدنا موسى: كاد القرآن أن يكون لموسى ولبني إسرائيل، وذلك من كثرة ما ذكرت قصَّة موسى وقصة قومه في القرآن الكريم، مع أنَّ في القرآن سورة باسم نوح وإبراهيم ويونس وإبراهيم ويوسف، ولكن لم يوجد سورة باسم موسى، وكذلك لم يوجد سورة باسم المسيح عيسى عليه السلام.

ولكن في القرآن ثلاث سور تنوِّه بشأن المسيح عيسى عليه السلام، منها سورة المائدة، لأنَّها تذكر معجزة من معجزات المسيح عيسى لم تذكرها

(١) رواه أحمد (٢٥٥٤٧)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح. والنسائي في الكبرى (١١٠٧٣)، والحاكم (٣١١/٢)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، كلاهما في التفسير.

QaradawiBooks.com

الأناجيل نفسها، فمن العجيب أنَّ القرآن الكريم ذكر آيات بينات، ومعجزات باهرات للمسيح عليه السلام لم تُذكر في الإنجيل نفسه، منها نزول المائدة، ومنها: أنَّه كان يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، لم يذكر الإنجيل هذه المعجزة، فالقرآن يذكر أشياء للمسيح لم يعرفها المسيحيون أنفسهم.

هذه السورة تنوِّه بشأن المسيح عيسى ابن مريم، وهناك سورة مريم تنوِّه بشأن أم المسيح عيسى ابن مريم، حتَّى إنِّي قلتُ في أحد المؤتمرات في الحوار الإسلامي المسيحي: لا يوجد عندنا في القرآن سورة باسم آمنة بنت وهب أمّ رسول الله ﷺ، ولا سورة باسم خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ وأول من آمن به، ولا سورة باسم فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، بينما فيه سورة باسم مريم، فانظروا إلى القرآن الكريم وكيف يمجد رسل الله وأنبياءه إلى هذا الحد.

وسورة آل عمران نوَّهت بأسرة المسيح عيسى ابن مريم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۞ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧]، فأسرة المسيح هم آل عمران، وهم عمران والد مريم، وامرأة عمران، أم مريم جدة المسيح.

QaradawiBooks.com

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [المائدة: ١١٠].

المهم أن سورة المائدة هذه من أواخر ما نزل من القرآن، وقد تميَّزت هذه السورة بكثرة ما جاء فيها من الخطاب الإلٰهي للجماعة المؤمنة، وهو قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، أكثر سورة نزلت فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ سورة المائدة، فيها ستَّة عشر نداء، وبدأت بهذا النداء، أوَّل ما بدأت السورة تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وفي الربع الأوَّل منها خمسة نداءات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ١١].

وفي الربع قبل الأخير ثلاثة نداءات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ثمَّ يأتي النداء الأخير في السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وقفتنا هذه الليلة مع آيات من هذه السورة الكريمة، وهي قول الله تبارك وتعالى:

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣ ـ ١٠٥].

شدَّد القرآن النكير على مشركي العرب في شركهم وأوثانهم، وفي تحريمهم على أنفسهم من الطيِّبات من أنواع الحرث والأنعام ما لم يأذن به الله، فتحريم الحلال قرين الشرك، ومن تحريمهم الطيِّبات على أنفسهم: تحريم البحيرة والسائبة، والوصيلة والحام، ولم يجعل لهم عذرًا في تقليد آبائهم في هذا الضلال.

فقد كانوا في الجاهليَّة إذا ولدت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، شقُّوا أذنها ومنعوا ركوبها، وتركوها لآلهتهم، لا تُنحر ولا يُحمل عليها، ولا تُطرد عن ماء أو مرعى، وسمَّوها «البَحِيرة» أي مشقوقة الأذن، وكان الرجل إذا قدم من سفر، أو برأ من مرض أو نحو ذلك سيَّب ناقته وخلَّاها، وجعلها كالبحيرة، وتسمى «السائبة»، وكانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكرًا فهي لآلهتهم وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، وتُسمَّى «الوَصِيلَة» وكان الفحل إذا لَقَّح ولدُه قالوا: قد حمى ظهرَه، فلا يركب ولا يحمل عليه.. إلخ، ويُسمَّى «الحامي» وفي تفسير هذه الأربعة، أقوال كثيرة تدور حول هذا المحور.

وفي سورة الأنعام مناقشة تفصيليَّة لما زعموا تحريمه من الأنعام من إبل وبقر وضأن ومعز، ساقها القرآن في أسلوب تهكمي ساخر ولكنَّه

QaradawiBooks.com

مفحم: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

وفي سورة الأعراف مناقشة أخرى يُنكر الله فيها على المحرِّمين زينة الله والطيِّبات الَّتي أخرجها الله لعباده، ويبيّن فيها أصول المحرّمات الدائمة فيقول تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۞ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣].

وهذه المناقشات في السور المكيَّة الَّتي تُعنى دائمًا بإثبات العقيدة والتوحيد والآخرة، تدلُّنا على أنَّ هذا الأمر ـ في نظر القرآن ـ ليس من الفروع والجزئيَّات، وإنَّما هو من الأصول والكليَّات، وفي المدينة ظهر بين أفراد المسلمين من يميل إلى التشدُّد والتزمُّت وتحريم الطيِّبات على نفسه، فأنزل الله تعالى من الآيات المحكمة ما يُوقفهم عند حدود الله، ويردُّهم إلى صراط الإسلام المستقيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التقليد الأعمى للآباء والأجداد وراء تحريم المشركين على أنفسهم طيِّبات ما أحلَّ الله لهم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

جاء الإسلام بتحرير العقل من أسر هذا التقليد الأعمى، بحيث يُلغي المرءُ عقلَه الَّذي آتاه الله إيَّاه، ليستخدمه في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإثبات الوقائع، وتمييز الأمور بعضها من بعض، وإيجاد البدائل عند اللزوم، جاء الإسلام بقرآنه العظيم، وبسنَّة نبيِّه الكريم، ليدعو العالمين أن يُعمِلوا عقولهم الَّتي استودعهم الله إيَّاها، فلم يُودِعهم إيَّاها ليسجنوها، أو ليعطلوها، أو يضعوا في طريقها عقبات ومعوّقات، بل ينبغي أن تُفكر وتعمل بكل طاقتها، وبكل حريتها، وبكل ما آتاها الله من إمكانات.

ومن المهمِّ هنا: التحرر من تقليد الغير، أيا كان هذا الغير، وأول التحرر من القيود التقليديَّة قيد التحرر من اتِّباع الآباء والأجداد، فكثيرًا ما وقف هذا الحاجز دون الاستماع والإنصات الحق إلى دعوات أنبياء الله تعالى ورسله، فيما جاؤوا به من البيِّنات والهدى للنَّاس.

فتجد هودًا عليه السلام يدعو قومه إلى التوحيد، وترك ما هم عليه من بطر وتجبّر وتظالم، متكلمًا معهم بالحُسنى، فما كان منهم إلَّا أنْ قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وكذلك وقف الكثيرون من الأقوام المختلفة مثلَ هذا الموقف الغبيِّ من رسل الله إليهم، ومنهم مشركو العرب، حين جاءهم خاتم رسل الله مُحَمَّدٌ، فدعاهم إلى توحيد الله، والشهادة له بالرسالة، وتبنّي مكارم

QaradawiBooks.com

الأخلاق الَّتي جاء بها من ربه، فرفضوا هذه الدعوة الخيّرة البصيرة وقالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وفي مقام آخر قالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذا هو موقفهم الثابت الَّذي لا يتحرَّك: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ ـ ٢٤].

بهذه المناقشات العقليَّة المضيئة والمنيرة يخاطبهم القرآن، ليعمل على زحزحة هذه العقول الجامدة، كأنَّها الحجارة أو أشدُّ قسوة، فلم يُسلِموا إلَّا بعد مشوار طويل، سقط فيه من سقط، ونجا فيه من نجا.

ثم قال الله تعالى في النداء قبل الأخير من هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ونحن نقف وقفات مع هذا النداء لأن كثيرًا من النَّاس يفهمونه خطأ، يفهمون أنَّ الإنسان عليه نفسه فقط، فلا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وإذا رأى الفساد عمَّ وطم، وإذا رأى الظلم قد بلغ ما بلغ، وأنَّ المعاصي قد وصلت عنان السماء فعليك نفسك، لا تُعنى بغيرك، كن في نفسك، هذا ما يفهمه بعض النَّاس من قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

والعجيب أنَّ هذا الفهم الخاطئ ظهر منذ عصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وأصحاب السنن: أنَّ سيِّدنا

QaradawiBooks.com

أبا بكر الصِّدِّيق، الخليفة الأوَّل رضي الله عنه، صعد المنبر وقال: يا أيُّها النَّاس، إنَّكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**»(١).

سيِّدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول: أنتم تقرؤون هذه الآية وتُفَسِّرونها على غير ما أراد الله بها، تفهمون أن قول الله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، يعني: أنَّه لا شأن لكم بأحد، اتركوا الأمور تجري في أعنَّتها، ودعوا الظالم يظلم، والطاغي يطغى، والجبَّار يَتَجبَّر، والمفسد يفسد في الأرض، ولا عليكم إلَّا أنفسكم، لا تسألون إلَّا عن أنفسكم فقط، ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، لكنني سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول غير هذا، يقول: إنَّ النَّاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، ويمنعوه من ظلمه، عمَّهم الله بعقاب من عنده، لأنَّه كما يقولون: الرحمة تخُصُّ والنقمة تعُمُّ.

خطر السكوت على المنكر:

العذاب إذا نزل يأخذ الجميع، يأخذ الَّذي ارتكب الظلم، والَّذين سكتوا على ارتكاب الظلم، لأنَّ الإسلام لا يريد من النَّاس أن يسكتوا على الظلم، ويرضوا بالظلم، لأنَّ الظلم إذا سُكت عليه تمادى وتفاقم خطره، وازداد واتَّسع، ولو أنَّ النَّاس من أوَّل الأمر أخذوا على يد الظالم سيرتدع، ولن يُقلده غيره في ظلمه.

---

(١) رواه أحمد (١)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي (٣٠٥٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤٠٠٥)، كلاهما في الفتن، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٥٦٤)، عن أبي بكر الصديق.

QaradawiBooks.com

فالمعاصي والمنكرات أشبه بالحريق، حينما تظهر شرارة نار في مكانٍ ما ويسارع النَّاس إلى إخماد هذه النَّار وإطفائها، بوضع الماء أو التراب عليها، فإنَّها سرعان ما تنطفئ جذوتها، بأدنى جهد وبأسرع وقت، لكن لو تركوها دقائق معدودات تتسع وتلتهم الأخضر واليابس، ويحتاج إطفاؤها إلى جهد أكبر، ووقت أطول، ولو تركت أكثر تزداد وتزداد، وقد لا يقدرون على إطفائها.

الظلم والمعاصي والمنكرات أشبه بالنار، لكنَّ النَّار تأكل الأحجار والمباني، والمعاصي والمظالم تأكل الإيمان والأخلاق والمعاني، وقد تأكل الأخضر واليابس من أخلاق الأُمَّة وفضائلها وإيمانها إذا تركها النَّاس، لذلك لا يوجد في الإسلام كلمة: «أنا ما لي»، أو «أنا ما لي دعوة»، لا، كل مسلم له دعوة، كل مسلم له دور في مقاومة المنكر يجب أن يقوم به، إذا سكتَ عن المنكر سينتهي المنكر إليه، إذا لم تسارع إلى الحريق سيصل إلى دارك.

أحيانًا بعض النَّاس من أجل أنَّه مغتاظ من إنسان يرمي فتيلًا مُشْتَعِلًا على سطح بيته، وعندنا في مصر ـ أنا من أهل القرى ـ البيوت في أهل القرى مليئة بالأحطاب والأخشاب، فعندما يرمي الفتيل يحدث الحريق، وعندما يشعر أحد بذلك يصرخ فيقوم أهل الحي جميعًا برجالهم ونسائهم، النِّساء يأتين بأواني الماء، ويناولون الرجال ليطفئوا الحريق، ولو لم يطفئوها لأكلتهم جميعًا، وفعلًا بعض القرى أحرقت عن آخرها، أحرقت كلها بسبب إهمال الأول، الَّذي لم يهب لإطفائها، رآها بعيدة عنه فاسْتَشْرَت حتَّى أتت على القرية بكاملها، وقد تكون الرياح قوية فتنقل الحريق من مكان إلى مكان فتصعب السيطرة عليه.

QaradawiBooks.com

المجتمع كركاب سفينة:

المعاصي والمنكرات أشبه بهذا الحريق، لو سَكَتَّ عنه سيأكلك، لا بدَّ أن يسارع النَّاس إلى إنكار المنكر، الرسول ﷺ شبه طبقات المجتمع من المطيعين والعصاة، والأخيار والأشرار شبههم بركاب السفينة، فقال: «**مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله والواقعِ فيها كمَثَلِ قَوْمٍ استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الَّذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ مَنْ فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا**»[1].

«**مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ**»، يعني من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وحدود الله يعني التجاوزات من المعاصي والمخالفات وترك الطاعات، «**وَالوَاقِعِ فِيهَا**»، يعني الواقع في المعصية، مثل هؤلاء «**كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ**»، يعني اقترعوا على سفينة من يكون في الطابق العلوي ومن يكون في الطابق السفلي، «**فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها**»، ناس في الطابق العلوي، وناس في الطابق السفلي، «**فكان الَّذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا**»، لو نخرق خرقًا في السفينة يدخل منه الماء فنُريح ونستريح، بدل أن نؤذي النَّاس بطلوعنا ونزولنا ومرورنا عليهم، فقال ﷺ: «**فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجَوْا جميعًا**».

(١) رواه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، عن النعمان بن بشير.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لأنَّ الماء حين يدخل يغرق الطابقين العُلوي والسفلي، فلو تركوهم وقالوا: لا شأن لنا بهم، هم أحرار في طابقهم، هلك الجميع، فهم ليسوا أحرارًا في ذلك، فالمحنة مشتركة، والمصالح مشتركة، والأضرار مشتركة، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، هلك الجميع، هلك من هم في الطابق العلوي، ومن هم في الطابق السفلي، وإن يأخذوا على أيديهم ويمنعوهم من هذا العبث، ومن هذه الرحمة الحمقاء، نجَوْا جميعًا.

مع أنَّ الَّذين فعلوا ذلك فعلوه بحُسن نية، يريدون ألَّا يُتعبوا من فوقهم بالطلوع والنزول، لكن حتَّى حُسن النية هذا لا يشفع لهم، ولا ينبغي أن يُترك من يعبث في المجتمع ولو بغرض شريف، فكيف إذا كان العبث في المجتمع بارتكاب المنكرات، وانتهاك الحرمات، وظلم النَّاس بعضهم لبعض، هذا لا يجوز أن يُسكت عليه بحال.

الفريضة الغائبة في مجتمعات المسلمين:

ولذلك كان من الفرائض الأساسيَّة في الإسلام فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه فريضة غائبة في مجتمعات المسلمين، الله تعالى حينما فضل هذه الأُمَّة على الأمم قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فقبل أن يفضِّل الأُمَّة بالإيمان بالله، فضَّلها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنَّها أُمَّة صاحبة رسالة، فالأُمَّة لا بدَّ أن تأمر وتنهى، والفرد لا بدَّ أن يأمر وينهى.

عندما نقرأ: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، هل بهذا ننجو من الخسر؟ لا، لا بدَّ من: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ما معنى تواصوا بالحق؟ يعني كل واحد يُوصي غيره بالحق، بالتمسك بالحق، والدفاع عن الحق،

QaradawiBooks.com

وألَّا يسكت عن الحق، يُوصي غيره ويقبل الوصيَّة من غيره، هذا معنى التواصي، والتواصي تفاعل ومشـــاركة في الفعل، فهو يوصِي ويوصَى، ليس هناك أحد أصغر من أن يوصِي، ولا أحد أكبر من أن يوصَى.

ولما كانت التوصيَّة بالحق ستجلب الأذى للموصي والموصَى قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، لا بدَّ أن يوطّن نفسه على الصبر، كما قال لقمان لابنه وهو يعظـــه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمـــان: ١٧]، اصبر على ما أصابك، ما دُمت تأمر بالمعـــروف وتنهى عن المنكر لا بدَّ أن يصيبـــك البلاء، ولا بد أن تتعرض للإيذاء، فاصبـــر على ما أصابك، ولذلك قال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]، لا حق بغير صبر.

فالفرد عليه أن يأمر وينهى، والأُمَّة عليها أن تأمر وتنهى، وإلا باءت بلعنة الله وســـخطه، كمـــا قال تعالى عـــن بني إســـرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ لمـــاذا؟ قـــال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائـــدة: ٧٨]، كيـــف كان عصيانهم واعتداؤهم؟ قال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، كانوا لا ينهى بعضهم بعضًا عن المنكر، كل واحد منهم يجامل صاحبه ويسكت عنه.

ولذلك جاء في الحديث الَّـــذي رواه أبو داود وغيـــره: «**أوَّلُ ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتَّقِ الله ودعْ ما تصنع، فإنَّه لا يحلُّ لك، ثمَّ يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمَّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بَعْضِهم ببعض**»[1].

(١) سبق تخريجه صـ٤٥٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول له: اتَّق الله ودعْ ما تصنع. فيرى الرجل مقيمًا على المعاصي، فلا يمنع ذلك أن يكون في الغد قعيده وجليسه وأكيله وشريبه، وكأنَّها كلمة «اتَّق الله ودعْ ما تصنع» هذه مجرَّد كلمة يقولها وينتهي الأمر، كيف تأمره وتنهاه ثمَّ تؤاكله وتجالسه، إذا لم تستطع أن تزيل المنكر فزل أنتَ عن المنكر، ابتعد عن المنكر، فلمَّا فعل بنو إسرائيل ذلك لعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام.

درجات تغيير المنكر:

تغيير المنكر درجات، كما جاء في حديث أبي سعيد الخُدْري عن النبيِّ ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليُغَيِّره بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان**»[1].

ويقول النبيُّ ﷺ: «**ما من نبيٍّ بعثه الله في أُمَّة قبلي إلَّا كان له من أُمَّته حواريُّون وأصحاب، يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره، ثمَّ إنَّها تخلُف من بَعْدِهم خُلُوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خَرْدل**»[2].

التغيير باليد هذا من شأن كلِّ ذي سلطان في سلطانه، في بيتك لا تسمح بالمنكر، زوجتك ترتكب المنكر وأنت في البيت! أو ابنك الصغير الَّذي لك مسؤوليَّة عليه! لا يجوز هذا، لا يجوز أن تسمح بالمنكر في بيتك، كل ذي سلطان في سلطانه، في شركتك إذا كانت لك شركة لا تسمح للموظفين أن يرتكبوا الحرام فيها، أو إذا كنت واليًا في

(١) سبق تخريجه صـ٤٤٠.

(٢) رواه مسلم (٥٠)، وأبو عوانة (٩٨)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

ولاية فلا تسمح للمنكرات أن تُرتكب، كل ذي سلطان في سلطانه عليه أن يُغير المنكر بيده، يعني بالأمر، بالإلزام.

والتغيير باللسان هذا عمل العلماء في المقام الأول، فالعلماء يُغيِّرون بألسنتهم، يقولون للناس: هذا حلال وهذا حرام. هذا معروف وهذا منكر. هذا خير وهذا شر. هذا يجوز وهذا لا يجوز. ومعظم النَّاس يُغيِّرون بلسانهم، لكن أحيانًا حتَّى التغيير باللسان لا يستطيعه الإنسان، ففي هذه الحالة يكون التغيير بالقلب، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

ما معنى التغيير بالقلب؟

والتغيير بالقلب يعني: أن تغضب لارتكاب المنكر، أن يذوب قلبك كما يذوب الملح في الماء، أو يغلي صدرك كما يغلي المرجل ـ أي القِدْر ـ فوق النار، عندما ترى المنكر ولا تستطيع تغييره، وهذا يعمل شحنة شعورية عاطفية انفعالية، إذا تمادى بها الزمن لا بدَّ أن تنفجر، وهذا عمل إيجابي، فأنا غضبان وأنت غضبان وهذا غضبان وهذا وذاك، فلا بدَّ أن يُحدث هذا ثورة على الظلم، ولا يمكن السكوت الدائم على هذا، ولذلك سمَّاه تغييرًا بالقلب، وهذا يعني أنَّه سيغير بالفعل، هذا هو المطلوب.

إذا أدَّيتَ ما عليك، وأمرتَ بالمعروف، ونهيتَ عن المنكر، ودعوتَ إلى الله، وقلتَ الحق ولم تخف لومة لائم، ولم يستجب لك النَّاس فلا شيء عليك، لقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

QaradawiBooks.com

بعض الصوفيَّة يحتجُّون بهذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، على أنَّه لا يضرُّ المسلم ضلال الضالِّين إذا اهتدى هو إلى الحقِّ، وهؤلاء هم الصوفيَّة «الانزوائيون» أو «الانسحابيُّون» الَّذين يفرُّون من ميدان الجهاد ضدَّ الطغاة المتجبِّرين، أو لا يدخلونه أصلًا، تاركين الطغيان يمارس نشاطه في إفساد البلاد، وإذلال العباد، والفسوق يعمل عمله في أخلاق النَّاس وضمائرهم، كما تعمل النَّار في الحطب، والغزو الفكري يُفسد عقول الأُمَّة، ويشوِّه تصوراتها، ويُفسد عليها ثقافتها، ويحرِّف دينها، ويضلِّلها عن هُويَّتها، وهم واقفون مُتَفَرِّجون، لا يحرِّكون ساكنًا، ولا يساعدون متحرِّكًا على الحركة، بل يثبِّطون المتحرِّكين، متذرِّعين بدعاوى شتَّى، ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من العقل ولا النقل برهان.

ويقولون: هذه إرادة الله في الكون، فهل نقف ضدَّ إرادته ومشيئته؟ وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهل نحن مكلَّفون أن ننظِّم ملكه على هوانا؟ إنَّه سبحانه أقام العباد فيما أراد! فدَعِ الخلق للخالق، ودَعِ الملك للمالك!

فالآية حينما تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ليس معناها: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا ما معنى قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فهل يكون الإنسان مهتديًا، إذا ترك فريضة مثل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، والتَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصبر، والنَّصيحة في الدِّين؟! «**الدِّينُ النَّصِيحة**»[1].

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٥)، عن تميم الداري.

QaradawiBooks.com

فلا يجوز للمسلم بعد هذا أن يترك المعروف يضيع، والمنكر يشيع، على الأقل يُغيّر بلسانه، أو بقلبه، وهكذا تبيَّن أن هذا الفهم السيئ للآية قد ظهر منذ عهد الخليفة الأوَّل أبي بكر الصدِّيق، وقد أنكره وردَّه، ومَن تأمَّل الآية الكريمة عَلِمَ أنَّها ترد على مَن استدل بها؛ لأنَّها تربط نفي الضرر بالاهتداء، ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ومَن ترك فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومقاومة الظلم والفساد لم يكن مهتديًا بيقين.

من شروط إنكار المنكر:

ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط، من هذه الشروط:

أولًا: أن يكون عالمًا بما يأمر به، وعالمًا بما ينهى عنه.

ثانيًا: ألَّا يُنكر في الأمور الخلافية، كما يفعل بعض النَّاس، كل همهم الإنكار في الأمور الخلافية، كتطويل الثياب، وارتداء النقاب، وموضوع اللحية، وغيرها من الأمور الخلافية، علينا أن نُشغل أنفسنا بالأمر المتَّفق عليه، الَّذي أجمعت عليه الأُمَّة، والأُمَّة لم تضِع بسبب ترك الأمور الخلافية، إنَّما ضاعت الأُمَّة بسبب التهاون في الأمور المُجمَع عليها من فرائض ومحكمات هذا الدين.

ثالثًا: اللين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الله تعالى لموسى وأخيه هارون حينما أرسلهما إلى فرعون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، كذلك لا بدَّ من أخذ الأمور بالتدرج.

المهمُّ أنَّ الآية ليس معناها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنَّه يقول: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ولكن إذا أمرتَ

QaradawiBooks.com

ونهيتَ، دعوتَ ونصحتَ ولم يستجب لك النَّاس فهل عليك ذنب؟ لا، هنا يقول الله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، إذا كنتَ أدَّيتَ ما عليك، وأمرتَ بالمعروف، ونهيتَ عن المنكر، ودعوتَ إلى الله، وقلتَ الحق ولم تخف لومة لائم، ولم يستجبْ لك النَّاس فلا شيء عليك، لقول الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد ٤٠].

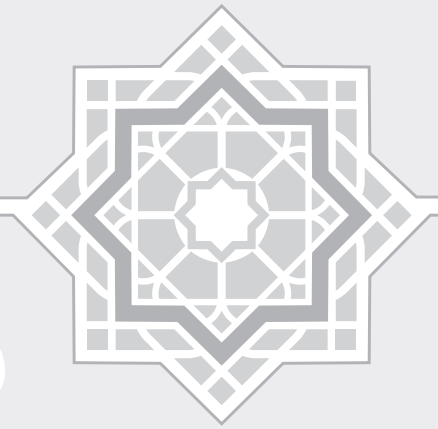
ما عليك إلَّا أن تبذر الحَب وبعد ذلك ترجو الثمار من الرب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة



دروس في تفسير

سورة الأنعام



QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الدرس الأوَّل
أهداف سورة الأنعام

فرغنا الليلة من الاستماع لسورة الأنعام، وسورة الأنعام من السور المكيَّة، الَّتي تُعنى بترسيخ أصول العقيدة، وأصول الفضائل ومكارم الأخلاق، وقد نزلت سورة الأنعام ـ كما يقول علماء القرآن ـ جملة واحدة، لم تنزل مُفرَّقة، لم تنزل منجَّمة؛ وإنَّما نزلت دفعة واحدة، وهذا ممَّا تميزت به هذه السورة عن غيرها من السور الكبار، وذلك أنَّها تعالج موضوعا مهمًّا رُمز إليه بـ «الأنعام»، والأنعام هي: الإبل والبقر والغنم، وهي الَّتي تُهدَى إلى الكعبة في الحج، وهي كذلك الَّتي يضحِّي بها النَّاس في عيد الأضحى.

سورة الأنعام سُمِّيتْ بهذا الاسم؛ لأنَّ هذا يرمز إلى معنى مُهِمٍّ اشتملت عليه السورة، وهو أنَّ الوثنيِّين المشركين في الجاهليَّة، قد حرَّموا كثيرًا من الأنعام على أنفسهم، حرَّموا بعضها وأحلُّوا بعضها، ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وبعضهم جعلوا بعضها لله وبعضها لشركائهم، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ولهم في ذلك

تخريفات كثيرة جدًّا، وهـذا التحريم لِما أحل الله تطاول على سـلطان الألوهيَّة، لأن الَّذي يملك حق التحليل والتحريم هو الله وحده، لأن هذا من حاكميَّة الله لهذا الكون.

سورة التوحيد:

وسـورة الأنعام هي سـورة التوحيد، فهي تُعنى بترسـيخ أصول العقيدة، وأصول الفضائل ومكارم الأخلاق، فقد اشتملت على عناصر التوحيد الأساسيَّة الثلاثة: ألَّا تبغي غير الله ربًّا، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعـام: ١٦٤]، ولا تتَّخذ غير الله وليًّا، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعـام: ١٤]، ولا تبتغي غير الله حكمًا، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

العنصر الأوَّل «ألا تبغي غير الله ربًّا»:

العنصر الأوَّل من عناصر التوحيد: ألَّا تبغي غير الله ربًّا، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وهذا يعني: إبطال الأرباب المزعومة الَّتي اتَّخذها النَّاس قديمًا وحديثًا، في الشرق والغرب، سواء أكانت من الحجر والشجر، أم من الشمس والقمر، أم من الجنِّ والبَشر.

وتُعلِن الثورة على المتألِّهين في الأرض، المسـتكبرين بغير الحقِّ، الَّذين أرادوا أن يتَّخذوا عباد الله عبيدًا لهـم وخَوَلًا، «لا إلَهَ إلَّا الله»، هو الإعلان العام لتحرير الإنسان من الخضوع والعبوديَّة إلَّا لخالقه وبارئه، فلا يجوز أن تعنـو الوجوه، أو تُطَأْطَأ الـرؤوس، أو تنخفض الجباه، أو تخشع القلوب، إلَّا لقيُّوم الأرض والسماوات.

QaradawiBooks.com

ومن هنا كان النبيّ ﷺ يختم رسائله إلى الملوك والأمراء والقياصرة من النَّصارى بهذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وكانت كلمة «ربُّنا الله» إعلانًا بالعصيان والتمرُّد على كل جبَّار في الأرض، ومن أجل هذا تعرَّض موسى للتهديد بالقتل، وقام رجلٌ مؤمن من آل فرعون يدافع عنه ويقول: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]؟! وتعرَّض محمَّدٌ ﷺ وأصحابُه للاضطهاد والأذى، والإخراج من الديار والأموال، ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

العنصر الثاني «ألَّا تتخذ غير الله وليًّا»:

والعنصر الثاني من عناصر التوحيد: ألا تتَّخذ غير الله وليًّا، ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، ومعنى لا تتَّخذ غير الله وليًّا: رفض الولاء لغير الله وحزبه، فليس من التوحيد أن يزعم زاعم أن ربَّه هو الله، ثمَّ يتجه بولائه وحبِّه ونُصرته لغير الله، وربَّما لأعداء الله، الله تعالى يقول: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

إنَّ حقيقة التوحيد لمن آمن بأن ربه هو الله: أن يخلص ولاءه لله ولمن أمر الله تعالى بموالاته، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن هنا أنكر القرآن على المشركين أنَّهم قسموا قلوبهم بينه تعالى وبين الأنداد الَّتي اتخذوها من الأصنام والأوثان، فجعلوا لها من الحبّ والولاء مثل ما جعلوا لله.. ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٩]، إنَّ الله تعالى لا يقبل الشركة في قلوب عباده المؤمنين، فلا يجوز أن يكون بعض القلب لله وبعضه للطاغوت، وأن يكون بعض ولائه للخالق، وبعضه للمخلوق.

إنَّ الولاء كلَّه والقلب كلَّه يجب أن يكون لله، صاحب الخلق كله، والأمر كله، وهذا هو الفرق بين المؤمن والمشرك، المؤمن سَلَّم لله، خالص العبوديَّة لله، والمشرك موزع بين الله وبين غير الله: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

العنصر الثالث «لا تبتغي غير الله حكمًا»:

والعنصر الثالث من عناصر التوحيد: ألا تبتغي غير الله حكما، ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ومعنى لا تبتغي غير الله حكمًا: رفض الخضوع لكلِّ حُكم غير حكم الله، وكلِّ أمر غير أمر الله، وكلِّ نظام غير نظام الله، وكلِّ قانون غير شرع الله، وكلِّ وضع أو عُرف، أو تقليد أو منهج، أو فكرة أو قِيمة لم يأذن بها الله.

ومَن قَبِلَ شيئًا من ذلك حاكمًا كان أو محكومًا، بلا إذن من الله وسلطان، فقد أبطل عنصرًا أساسيًّا من عناصر التوحيد، لأنَّه ابتغى غير الله حكمًا، والحكم والتشريع من حقِّ الله وحده، لهذا قال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].

QaradawiBooks.com

وهذا العنصر إنَّما هو في الواقع مقتضى إفراد الله تعالى بالربوبيَّة والإلٰهيَّة، فإنَّ من اتخذ أحدًا من عباد الله شارعًا وحاكمًا، يأمر بما يشاء، وينهى عمَّا يشاء، ويحلِّل ما يريد ويحرِّم ما يريد، وأعطاه حق الطاعة في ذلك ولو أحلَّ الحلال: كالزنى، والربا، والخمر، والميسر، وحرَّم الحلال: كالطلاق، وتعدد الزوجات، وأسقط الواجبات: كالخلافة، والجهاد، والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله وغيرها.

مَن اتخذ مثل هذا حكمًا وشارعًا، فقد جعله في الحقيقة ربًّا يُطاع في كل أمر، ويُنقاد له في كل ما شرع. وهذا ما جاء به القرآن وفسَّرته السنّة النبويَّة.. فقد جاء في سورة التوبة عن أهل الكتاب قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فكيف اتَّخذوهم أربابًا وهم لم يسجدوا لهم ولم يعبدوهم عبادة الأوثان؟ يجيب عن ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من قصَّة إسلام عدي بن حاتم الطائي، وقد كان تنصّر في الجاهليَّة وقدم إلى المدينة، وتحدَّث النَّاس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنقه صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾. قال عدي: فقلت: إنَّهم لم يعبدوهم! فقال ﷺ: «**بلى، إنَّهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيَّاهم**»[(١)].

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥)، وقال: حديث غريب. والطبراني (٩٢/١٧)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

QaradawiBooks.com

قال ابن كثير: «وهكذا قال حذيفة بن اليمان[١]، وعبد الله بن عباس[٢]، وغيرهما في تفسير: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّهم اتبعوهم فيما حلَّلوا وحرّموا.

وقال السُدِّي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، أي: الَّذي إذا حرّم الشيء فهو الحرام، وما حلّله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ[٣].

إن الَّذي له حق الحكم في شؤون عباده والتشريع لهم في أمور دينهم إنَّما هو الله وحده، العليم بخلقه، الرحيم بهم، الخبير بما يُصلحهم وما يُفسدهم، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

من هنا قرر القرآن الكريم أنَّ الحكم ـ بمعنى التشريع ـ ليس إلَّا الله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

كما اعتبر القرآن التحاكم إلى غير الله ورسوله خروجًا عن حقيقة الإيمان، ودخولًا في طاعة الشيطان: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢١٣/١٤).

(٢) المصدر السابق (٢١٢/١٤).

(٣) تفسير ابن كثير (١٣٥/٤).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التشريع المطلق لله وحده:

هكذا أكدت سورة الأنعام على المقوِّمات الأساسيَّة للتوحيد، ومنها توحيد الحاكميَّة، ألَّا يبتغي غير الله حكمًا.

معنى لا حكم إلَّا لله؟ يعني: لا يُشرِّع ولا يملك سلطة التشريع المطلق إلَّا الله، قد يكون عند بعض النَّاس تشريع ولكن فيما أذن به الله، أمَّا ما لم يأذن به الله لا يحق للبشر أن يُشرعوا فيه، ولا أن يُحلِّوا أو يُحرِّموا، لذلك يقول الله تعالى عن المشركين: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ﴾ [الشورى: ٢١].

هناك أشياء أذن الله بها، وأشياء لم يأذن الله بها، هناك أشياء تركها التشريع دون نص، منطقة عفو، ليس فيها أمر ملزم، ولا نهي ملزم.

فإذا وجدنا شيئًا لا نصَّ عليه فهذا دليل على أنَّ الله يريد هذا الأمر عفوًا سماحًا، منطقة سعة ومرونة، وهذه يملؤها الفقهاء عن طريق القياس على المنصوص عليه، عن طريق الاستصلاح والعمل بالمصلحة المرسلة، عن طريق الاستحسان، عن طريق مراعاة العرف، عن طريق الاستصحاب، كما يبحث ذلك علم أصول الفقه.

القرآن يُنكر على المشركين تحريم الحلال:

المهم أنَّ القرآن يشدِّد في مسألة تحريم الحلال، لا يجوز لأحد أن يُحرِّم الحلال ويُضيِّق على النَّاس ما وسَّع الله ﷻ، على غرار ما فعل المشركون في الجاهليَّة، وهذا من إغراء الشيطان، كما قال الله حكاية عنه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: ١١٩]، يقطعون آذان الأنعام، ويقولون: هذه سائبة، وهذه وصيلة، وهذا حام. وهذا

QaradawiBooks.com

ما أنكره القرآن عليهم بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

ولهم خرافات كثيرة في هذا الأمر، يُحرِّمون ما أحل الله، ويُحلِّون ما حرَّم الله، أحلُّوا ما حرَّم الله فقتلوا أولادهم سفهًا بغير علم، كما قال القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، زيَّن لهم شركاؤهم وشياطينهم قتل أولادهم، فانظروا كيف قتلوا أولادهم من أجل الإملاق، من أجل الفقر الواقع، أو خشية الفقر المتوقّع، كأن الأولاد ينقصون الرزق، ولذلك يقول ربُّنا: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ويقول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـًٔا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٣١].

ولذلك سيِّدنا عبد الله بن عبَّاس يقول: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠][1]، يعني: من أراد أن يعرف جهالة العرب وضلالة العرب، فلينظر كيف استحلوا قتل الأولاد سفهًا بغير علم، وحرَّموا على أنفسهم ما رزقهم الله من الأنعام افتراءً على الله.

مناقشة القرآن للمشركين فيما حرَّموه:

ولذلك ظلَّ القرآن يناقشهم فيما حرَّموه هذا مناقشة تفصيليَّة، يقول: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٥٢٤).

QaradawiBooks.com

﴿ٱثْنَيْنِ ۖ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٤].

وبعد ذلك قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

هذه هي الأطعمة الأربعة الَّتي حرَّمها الله: الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أُهلّ لغير الله به، والَّذي أُهلّ به لغير الله هو ما ذكر عليه اسم غير اسم الله، اسم الأصنام وهذه الأوثان، وما ذُبِح على النصب، هذا هو الحرام، فلم تحرِّمون على النَّاس ما أحلَّ الله لهم؟ من أين جئتم بهذا التحريم؟

القرآن اعتبر تحريم الحلال أمرًا خطيرًا، ولذلك جاء في الحديث الَّذي رواه الإمام مسلم، وهو حديث قدسي، يقول الله ﷻ: «**إنِّي خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[1].

الشياطين هم مَن بعُد بهم عن الفطرة، فطرة التوحيد، وهم من حرَّموا عليهم ما أحلَّ الله لهم، عسَّروا ما يسر الله، وضيَّقوا ما وسَّع الله، ولذلك لمَّا بعث الله النبي ﷺ برسالته كان من ضمن رسالته كما يقول القرآن أنَّه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(١) سبق تخريجه صـ٧٣٩.

QaradawiBooks.com

حُرِّمت على اليهود بعض الطيِّبات بظلمهم:

اليهود بسبب ما ارتكبوا من مظالم حرَّم الله عليهم بعض الطيِّبات، كما قال القرآن: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

والنَّصارى حَرَّم عليهم أحبارُهم ورُهبانهم بعض الأشياء، ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانيًّا في الجاهليَّة ثمَّ أسلم وحسن إسلامه، وجاء إلى النبيِّ ﷺ فوجده يقرأ سورة التوبة، فلمَّا سمع النبيَّ ﷺ يقرأ قول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾، قال رضي الله عنه: يا رسولَ الله، لم نعبدهم. أي: لم نكن نُصَلِّي لهم. فقال له النبيُّ ﷺ: «**أليس يُحَرِّمون ما أحلَّ الله فتُحَرِّمونه، ويُحلُّون ما حرَّم الله فتستحلُّونه؟**» قال: بلى، قال: «**فتلك عبادتُهم**»[1].

اتَّخذوهم مُشَرِّعين، فأصبحوا يُحِلُّون الحرام، ويُحَرِّمون الحلال، وهذا هو اتِّخَاذهم أربابًا، هذا نوع من العبادة، فلمَّا جاء النبيُّ ﷺ بعثه الله ليُحرِّر النَّاس من هذا كلِّه، فكان عنوان رسالته في التوراة والإنجيل ـ كما ذكر القرآن ـ أنَّه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فلا يحلُّ إلَّا طيبًا، ولا يحرم إلَّا خبيثًا.

---

(١) سبق تخريجه صـ٧٧٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحلُّ والحرمة في الإسلام:

ولذلك الحلُّ والحرمة في الإسلام ليس اعتباطًا، لا يمكن أن يحل الله شيئًا خبيثًا، ولا يحرم شيئًا طيبًا، لا بدَّ أن يكون في هذا الحرام خبث وضرر، قد يكون ضررًا على الفرد، قد يكون ضررًا على الأسرة، قد يكون ضررًا على المجتمع، قد يكون ضررًا ماديًّا، قد يكون ضررًا معنويًّا، قد يكون ضررًا في المدى القصير، قد يكون ضررًا على المدى البعيد، في المستقبل الطويل، قد نعلم هذا الضرر وقد لا نعلمه.

الناس في عصرنا اهتدوا إلى بعض الحِكم من تحريم الخنزير، قالوا: إنَّ فيه ديدانًا معيَّنة، وفيه كذا، وفيه كذا. ولكن نحن لا نعلم بالضبط ما الحكمة في تحريم الخنزير، الله تعالى قال: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، أي: خبيث، ما هو خبثه؟ الله أعلم، إذا كان بعد مضي ثلاثة عشر قرنًا أو أكثر اكتشف النَّاس بعض الديدان فلا ندري ماذا سيكشف الغد، إنَّما نحن نقول فيما حرمه الله علينا: سمعنا وأطعنا. هذا شأن المؤمن، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

تشديد القرآن في تحريم الحلال:

لا نتَّبع الأهواء فَنُحِلَّ الحرامَ ونحرِّمَ الحلال، خصوصًا تحريم الحلال، فقد جاءت سورة الأنعام تشدد في تحريم الحلال بالذات، يقول الله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، لأنَّك لا تشهد على باطل، ثمَّ

QaradawiBooks.com

بيَّن الله ما المحرمات فقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

وهكذا بيَّن لهم ما المحرمات، وأنها ليست الأشياء الَّتي حرمها المشركون، وهكذا أراد الله تعالى أن يبين للنَّاس أنَّ التحريم من حقه وحده، كما أنَّ التحليل من حقه وحده، التحريم الديني، أي: الَّذي له صفة الدوام والاستمرار، إنَّما هناك منع جزئي، كأن يمنع ولي الأمر أشياء منعًا جزئيًّا، هذا ممَّا أذن الله فيه، كأن يقول ولي الأمر للنَّاس ـ مثلًا ـ زراعة الشيء الفلاني يلزم أن تكون بالمقدار الفلاني، يقول مثلًا: زراعة القطن تكون في محافظات معينة، بمقدار معين. حتَّى لا يتجه كل النَّاس لزراعة القطن ـ مثلًا ـ ويتركوا محاصيل أخرى يحتاج إليها المجتمع.

سيدنا عمر كان يمنع أكل اللحم يومين متتالين، لماذا؟ حتَّى يتوفَّر اللحم بقية الأسبوع، وكان يأتي «مَجْزَرَة» الزبير بن العوَّام بالبقيع - ولم يكن بالمدينة سواها - فإن رأى من خرج عن هذا المنع ضربه بالدرة، وقال له: «هلا طويت بطنك يومين!»[1]، منع الذبح في بعض الأيام من أجل أن تتوافر اللحوم في الأيام الأخرى.

(١) ذكره ابن المبرد الحنبلي في محض الصواب (٣٧٧/١)، تحقيق عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية المنورة، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

وقد تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلِّ سبيلها. فكتب إليه: أتزعُمُ أنَّها حرامٌ فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنَّها حرام، ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن[١].

ويرى الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ صنيع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حذارًا من أن يقتدي النَّاس بحذيفة في ذلك، فيزهدوا في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني[٢]. عندما يبحث كل واحد عن امرأة جميلة من النساء الكتابيات الجميلات الحسناوات، ويترك بنات المسلمين بائرات كاسدات، وخصوصًا في المجتمعات الصغيرة.

لذلك حرَّم بعض المفتين في بعض الأقليات الإسلاميَّة على الشباب أن يتزوجوا إلَّا من بنات جنسهم، لأن الشاب المسلم عندما يتزوج غير مسلمة، والمسلمة لا يجوز لها أن تتزوج إلَّا مسلمًا، فماذا تفعل هي إذن؟ عندما يذهب الشباب إلى غيرهن معناه أنهن يُتركن عوانس لا يتزوجن، فالمنع الجزئي لأسباب معينة يجوز، إنَّما التحريم الديني المطلق من شأن الألوهيَّة.

مجال الحلال واسع ومجال الحرام محدود:

ومن المعروف أنَّ المحرَّمات محدودة، أمَّا الحلال فمجاله واسع جدًّا، المحرمات أشياء محددة، ولذلك نحن دائمًا حينما نكتب في أمر الحلال والحرام، نبيِّن الحرام، لأنَّ الأصل أنَّ كلَّ شيءٍ حلال إلَّا أشياء معينة، فنستطيع أن نحدِّد الحرام، ولا نستطيع أن نحدِّد الحلال، الله تعالى يحرِّم كذا وكذا، ثمَّ يبيِّن أن ما عدا ما ذُكر فهو حلال.

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص (٤٠٣/١).

(٢) تفسير الطبري (٣٦٦/٤).

QaradawiBooks.com

كما نجد ذلك في قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣، ٢٤]، ثمَّ قال بعدها: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، أي: ما عدا ذلك فهو حلال.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ [المائدة: ٣]، ثمَّ يقول: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٥]، أي: ما عدا ذلك فهو حلال.

فمن فضل الله تبارك وتعالى علينا أنَّه ضيَّق دائرة المحرمات، وأنَّه لم يُحرِّم علينا إلَّا خبيثًا ضارًّا، علِمَه من علِمَه، وجهِلَه من جهِلَه.

كان النَّاس يلومون الإسلام أنَّه حرَّم الربا، وجاء الاقتصاديون الآن يقولون: إنَّ الربا هو سبب الأزمات الاقتصاديَّة، وسبب خراب العالم، وإنَّه لا يمكن أن يسود الرخاء في العالم إلَّا إذا كانت الفائدة صفرًا، يعني: تنعدم الفائدة الربوية، وهذا قاله أحد أعمدة الاقتصاد، إذا صارت الفائدة صفرًا يكون العالم في خير.

الاعتدال في تناول الحلال:

كل ما حرمه الإسلام فهو ضار، وكل ما أحله الإسلام فهو طيب، ولكن حتَّى الحلال حينما نتناوله يجب أن نتناوله باعتدال، كما قال الله

QaradawiBooks.com

تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ليس معنى أنَّ الشيء حلال أن تفتح ذراعيك فيه، لا، لا بدَّ من الاعتدال، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، أي: لا تتجاوز في الحلال، ولا تتجاوز كذلك ما لك إلى ما ليس لك فتأكل حق غيرك، فهذا كله من الاعتداء، ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

كما حملت السورة بشدَّة على الَّذين يهدرون أجزاء من الثروة الحيوانيَّة، أو الزراعية اتباعًا لأقاويل ما أنزل الله بها من سلطان، فحرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۞ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۞ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وناقشت السورة مناقشة مفصّلة حُسن استغلال الموارد الاقتصاديَّة والإمكانات الماديَّة، بحيث لا نهدر شيئًا منها، والمحافظة عليها باعتبارها أمانة يجب أن تُرعى، ونعمة يجب أن يُشكر الله تعالى، باستخدامها أحسن استخدام وأمثله.

تكرار كلمة «قُلْ» في السورة:

كما نجد ونلاحظ في هذه السورة الكريمة تكرار فعل الأمر «قُلْ»، هذه الكلمة تكررت في السورة (٤٤) مرة، وهذا يدل على أنَّ محمدًا ﷺ

QaradawiBooks.com

ليس هو منشـــئَ القرآن، هناك ســـلطة أعلى منه تأمره وتنهاه وتقول له: ﴿قُلْ﴾، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ [الأنعـام: ١١]، ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعـام: ١٢]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۞ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٨ ـ ١٥٠].

وهكذا نجد الأوامر المســـتمرة «قُلْ»، وهذا يدل على أنَّ محمدًا ﷺ مأمور من جهة أعلى منه، هي الَّتي تعلّمه وترشده وتلقّنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثاني

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]

نقف الليلة عند هذه الآيات من سورة الأنعام، وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٤ ـ ١١٦]، صدق الله العظيم.

هذه الآيات من سورة الأنعام تحدّثنا عن صورة من صور التوحيد، لا يظنُّ النَّاس أنَّها سورة تتحدث عن تربية الأنعام وسقاية الأنعام ونحو ذلك، لا، بل هي سورة التوحيد، ذكرت الأنعام بنسبة ما كان يعتقده فيها أهل الشرك من أشياء تتصل بالوثنيَّة والآلهة، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۞ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ

QaradawiBooks.com

وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩]، إلى آخر ما قالوه في هذه الأنعام.

فالسورة هي سورة التوحيد، ولذلك عُنيتْ ببيان التوحيد، وتأكيد التوحيد، وتثبيت التوحيد، وذكرت السورة أنَّ التوحيد أنواع ثلاثة، أوَّل توحيد يسمونه: «توحيد الربوبيَّة»، وأنا أيضًا أسميه: «توحيد الربوبيَّة»، أو «توحيد الخالقيَّة»، ألَّا تتخذ غير الله ربًّا، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

أنَّه لا خالق إلَّا الله، ولا رازق إلَّا الله، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

هذا النوع من التوحيد كان يعترف به مشركو العرب، ومع هذا يدَّعُون أن هناك آلهة تُعبد، وهذه الآلهة شفعاؤهم عند الله، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

وأمَّا النوع الثاني من التوحيد فهو «توحيد الإلٰهيَّة»، توحيد العبادة، ألَّا تتَّخذ غير الله وليًّا، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤]، أن تقول: إنَّ الله هو الَّذي خلقنا ورزقنا ثمَّ تعبد غيره! هذا

QaradawiBooks.com

لا يصح أبدًا، لا بدَّ من توحيد العبادة، فهـذا التوحيد هو الَّذي دعا إليه الرسل جميعًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحـل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبيـاء: ٢٥]، فيـه إلٰه واحد يجب أن يُعبد، وما عداه كلها مخلوقات لا تستحق أن يسجد لها البشر، أو يسألوها، ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

هذا هو «توحيد الإلٰهيَّـة»، أو توحيد العبـادة، والتوحيد الثالث في سورة الأنعام ألَّا تبتغي غير الله حكمًا، كما أنَّ لله الربوبيَّة والخالقيَّة، وكما أنَّ لله تعالى الإلٰهيَّة والعبادة فلا يُعبد غيره، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحـة: ٥]، الله ﷻ له الحاكميَّـة، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعـام: ١١٤]، فالحاكميَّة هذه مـن ألوان التوحيد الَّتي جاء بها الإسـلام، وهـذا ما عُني بـه الإمام المـودودي في الهند وباكستان وبنجلاديش وهذه المناطق كلها، وعُني به الأستاذ الشهيد سيِّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكنَّهم لم ينفردوا بذلك؛ لأنَّ كتب أصول الفقه الإسلاميَّة كلها ـ حتَّى كتب المعتزلة ـ تقر أنَّ الحاكميَّة لله، الرسول ليس حاكمًا، هو مبلغ عن الله، فيه أحكام مطلوب من الرسول أن ينفذها، مطلوب من ولي الأمر أن ينفذها، مطلوب من الزوجة فـي تعاملها، مطلوب من الأب أن ينفق على أولاده، كل هؤلاء ليسوا حكامًا، الحاكم الحقيقي هو الله ﷻ.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾، الحَكَم غير الحاكم، الحاكم من ينفذ الحُكم، سواء كان أهلا للحُكم، أو ليس أهلًا له، إنَّما الحَكَم هو من يسـتحق الحُكم، لازمٌ أن يكون عنده عقل، ولازم أن يفـرق بين الحُكم الأصلي والحُكـم الفرعي، والحُكم

QaradawiBooks.com

لمن يستحق والحُكم لمن لا يستحق، ومتى يحكم لهذا ومتى يحكم لهذا، وما هي موانع الحُكم، لا يتبع الهوى، ولا يتبع المحسوبية لفلان وفلان، هذا هو الحَكَم، الَّذي قال عنه الشاعر:

مَا أَنْتَ بالحَكَمِ التُّرضَى حُكُومَتُه ولَا الْحَكِيمِ ولا ذي الرأْيِ والجَدَلِ[1]

ليس كل حكم تُرضَى حكومته، ولذلك كان الله الحَكَمُ العدل، هو الَّذي يحكم بين النَّاس حُكْمًا يُمَثِّل العدل المطلق، ومن عدا الله يمكن أن يجور قليلًا أو كثيرًا، قريبًا أو بعيدًا، ولكن الحَكَم العَدَل هو الله تعالى.

كلُّ الرسالات السماويَّة الَّتي بعث الله بها رسله، وأنزل بها كتبه، نزلت لتُحَقِّق هدفًا واحدًا كبيرًا، هو أن يقوم النَّاس بالعدل، الله تعالى يقول في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، كل الرسالات وكل الكتب وكل ما جاء من قِبل الله ﷻ هذا لماذا؟ ليقوم النَّاس بالقسط، النَّاس هم من أنفسهم يقومون بالعدل، فالعدل هو الَّذي قامت به السماوات والأرض، ولذلك ليس هناك من يحكم بالعدل إلَّا الله، فهل يطلب الإنسان حكمًا غير الله مهمته أن يضع العدل في مثل هذه الموازين الَّتي لا تسقط أي شيء مهما كان صغيرًا أو دقيقًا، عدل كامل مطلق؟! هذا ما جاء به الإسلام، وما جاء به القرآن، وما جاءت به سنة الرسول ﷺ، وما أثبته النبي والصحابة من بعده، والتابعون لهم بإحسان، وأئمَّة الإسلام، الحكم العادل.

لا حاكم غير الله، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾، الله فصَّل أحكامه في كتابه، الأحكام الَّتي شرعها الله

(١) البيت للفرزدق وهو شاهد نحوي مشهور، انظر: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (٨٠/١٣)، تحقيق محمد عوض مرعب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

لعباده في الأمور الأُسرية، فقه الأسرة، أو ما يسمونه: «الأحوال الشخصيَّة»، وفقه المجتمع، العلاقة بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، أو ما شرعه الله تعالى في المبادلات بين النَّاس، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أطول آية في كتاب الله في كتابة الدَّين، وهذا يعني أنَّ الله تعالى عُني بالمعاملات بين النَّاس، ولذلك حرَّم الربا، وحرَّم أكل أموال اليتيم، وحرَّم الاعتداء على الضعفاء من النَّاس، وحرَّم كل ما فيه ظلم للبشر، وهناك أيضًا أحكام تتعلق بالجنايات، اعتداء النَّاس بعضهم على بعض.

هناك أشياء تعتبر مقاصد أساسيَّة للإسلام، الإسلام جاء ليحافظ على: «الدين والنفس والنسل والعقل والمال»، وزاد بعضهم «العِرض»، وبعضهم زاد ما يتعلَّق بالفرد من الحريَّة والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعيَّة، هذه الأشياء كلها هي المقاصد الأساسيَّة الَّتي جاء بها الإسلام، أنزل الله القرآن مفصِّلًا لهذه الأشياء.

وتأتي سنَّة النبيِّ ﷺ لتزيد هذا التفصيل وتضع ضوابط، ليس هناك أمر همل، لا، كل شيء له ما يُبَيِّنه، ويجعله في غاية الإحكام والإتقان، فمن يبتغي غير الله حكمًا وهو الَّذي أنزل إلى الأُمَّة الكتاب مُفَصَّلًا؟!

الذين آتيناهم الكتاب:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأنعام: ١١٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اليهود والنَّصارى الَّذين عرفوا القرآن وآمنوا به، القرآن يُعبر عن هؤلاء بعبارات، أحيانًا يقول: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٤]، عرفوا نصيبًا وجهلوا نصيبًا آخر، حفظوا شيئًا وغابت عنهم أشياء، فهم يعرفون بعض الحق ولا يعرفون الحق كلَّه،

QaradawiBooks.com

فهؤلاء أوتوا نصيبا من الكتاب، وأحيانًا يعبر بـ«الذين أوتوا الكتاب»، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وهذا أحيانًا يكون مدحًا، وأحيانا يكون ذمًّا، إنَّما الَّذي فيه مدح مطلق التعبير بـ«الذين آتيناهم الكتاب»، كما في الآية هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

فقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: أنَّ الله آتاهم الكتاب وفهموه وعرفوه، ووثقوا به، وآمنوا به، ولذلك قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فالذين يعرفون الكتاب حق معرفته آمنوا به، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، يعرفون هذا معرفة واضحة، لأنَّه أشارت إلى ذلك الكتب الَّتي أنزلها الله من قبل القرآن، كما في التوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فهذا ممَّا عرفوه في كتبهم، وكتب اليهود والنَّصارى فيها تعريف بالنبي ﷺ، حاولوا أن يزيلوا هذه الأشياء، ولكن إلى الآن بقيت أشياء بحث فيها الباحثون من المسلمين ومن غير المسلمين المنصفين ممَّن ليسوا متعصبين فتبيَّن أنَّها في رسالة مُحَمَّد ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: لا تتشكك أبدًا مهما قال هؤلاء وافتروا، إيَّاك أن يعتري قلبك أي ريب، لأنَّ ما عندك هو علم اليقين، وعين اليقين، وحقُّ اليقين، لا ريب في ذلك.

QaradawiBooks.com

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، القرآن كلمة الله، تمَّت كلمة الله صدقًا في الأخبار والمواعيد، وعدلًا في الأحكام والتفاصيل، لا يقول الله إلَّا صدقًا، ولا يحكم إلَّا عدلًا، فما جاء في القرآن عن الآخرة وما فيها، وما وعد الله به المؤمنين، وما توعد به الكافرين، كل هذا حق لا ريب فيه، لا يمكن أن يستريب فيه مؤمن أبدًا، وما جاء فيه من أحكام وأوامر ونواهٍ ومعاملات وهذه الأشياء كلها عدل، لأن الله لا يُتصوَّر منه إلَّا العدل، لماذا يظلم الناس؟! هل هو أقرب من الأغنياء دون الفقراء؟! هل هو أقرب إلى الحكام دون المحكومين؟! هو ربُّ الجميع، فلا بدَّ أن يكون معهم على سواء، فالعدل المطلق هو عند الله.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، لا يهمك أن بعض النَّاس يقف ضدَّك، وبعض النَّاس يُشَنِّع عليك، وبعض النَّاس يقولون: مجنون، وبعض النَّاس يقولون: أضغاث أحلام، وبعض النَّاس يقولون: شاعر، وبعض النَّاس يقولون: كاهن، وأحيانًا تختلط عليهم هذه الأشياء، لا تهتم بهؤلاء جميعًا، أكثر من في الأرض إذا اتَّبعتهم أضلوك عن سبيل الله، لأن أكثرية النَّاس لا تتبع الحق، والأقليَّة دائمًا هي المؤمنة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

فلا عليك من هذه الأكثريَّة الضالَّة، فلو وجدت أكثر النَّاس يقفون ضد رسالتك، فلا يفتّ ذلك في عضدك أبدًا، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أكثر من في الأرض يتبعون أهواءهم،

QaradawiBooks.com

ويتبعون شياطينهم، قبل هذه الآية بآيات قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣]، فلو اتَّبعت أهواء هؤلاء لن تصل إلى حقٍّ، ستضلُّ السبيل، وتخسر الدليل، وتذهب يمينًا وشمالًا، كن مع الحقِّ دائمًا.

أكثر من في الأرض يَضِلُّون عن سبيل الله:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

أي: إن توافق وتجاري أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ ـ وهم الكفَّار ـ يصرفوك عن دينك لو أطعتهم.

ولقد ذمَّ القرآن الأكثرية إذا كان أصحابها ممَّن لا يعقلون، أو لا يعلمون، أو لا يؤمنون، أو لا يشكرون، كما نطقت بذلك آيات وفيرة من كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

في حين مدح القرآن القلَّة المؤمنة العاملة الشاكرة، كما في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦]، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

QaradawiBooks.com

اتباع الظن والخرص وراء ضلال أكثريَّة أهل الأرض وإضلالهم عن سبيل الله:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، أكثرية هؤلاء النَّاس ما يتَّبعون في عقائدهم وأصول شرائعهم إلَّا الظن والتخمين بحسب عقولهم الضالَّة، والظن أكذب الحديث، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦]، وهم يتبعون ظنونهم، ويتبعون أهواءهم، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، لقد قال الله لسيدنا داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، لا تتبع العواطف والمشاعر والأهواء المختلفة ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، أي: يكذِبون؛ لأنَّهم يُحَرِّمون ويُحَلِّلون من عند أنفسهم. وحقيقة الخرص ـ كما قال الراغب في «مفردات القرآن» ـ «أنَّ كلَّ قولٍ مَقُولٍ عن ظنٍّ وتخمين يقال: خَرْص، سواء أكان مطابقًا للشيء أو مخالفًا له، من حيث إنَّ صاحبه لم يقُلْه عن علمٍ ولا غلبة ظنٍّ ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظنِّ والتخمين، كفعل الخارص في خَرْصه، وكلُّ مَن قال قولًا على هذا النحو قد يُسمَّى كاذبًا، وإن كان قوله مطابقًا للمَقُول المُخْبَر عنه»[1].

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني مادة (خ. ر. ص).

QaradawiBooks.com

فالخَرْص نوعٌ من الظنون، لا تقوم على بيِّنة ساطعة، ولا على حقٍّ بيِّن، ولا على عقلٍ واضح، لا معه شيء من الأرض، ولا شيء من السماء، فهؤلاء يتَّبعون الظنَّ، ويَتَّبعون الخَرْص، لا تَتَّبع الخارصين، ولا تَتَّبع الظانِّين، ولكن اتَّبع الحقَّ الَّذي جاءك من ربِّك، وإن اتَّبعت الحقَّ سرت على الرشد، وسرت على السبيل البيِّن المستقيم، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الدرس الثالث
ضلالات الجاهليَّة في التحليل والتحريم

نحن على موعد مع كتاب الله، وموعدنا الليلة مع آيات من سورة الأنعام، وسورة الأنعام هي سورة التوحيد، سورة جاءت تقرر عقائد التوحيد، وتحارب معتقدات الشرك ومزاعم الوثنيين الَّذين حرَّموا كثيرًا ممَّا أحلَّ الله من الزروع ومن الأنعام.

تحريم المشركين لما أحلَّ الله من الأنعام:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: وجعل كفار مكَّة بعض ما خلق ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾: الزرع ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿نَصِيبًا﴾: جزءًا وقسمًا يصرفونه إلى الضِّيفان والمساكين، وجعلوا لشركائهم الأصنام نصيبًا، يصرفونه إلى سَدَنتها، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾ لآلهتهم وأصنامهم ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

تزيين سَدَنة الآلهة الَّتي يعبدها المشركون لأتباعهم قَتْل أولادهم:

وزيَّنت لهم شياطينهم قتل أولادهم فقتلوهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما زُيِّن لهم ما ذُكر من ذبح القرابين لله والأصنام، وَجَعْل الأصنام شركاء لله ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾:

QaradawiBooks.com

رؤساؤهم من الجنّ والسَّدنة والكهَّان، فهم شركاء لهم في الضلال والقتل لـلأولاد ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: ليُهلكوهم في عـذاب جهنَّم ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: ليخلطـوا عليهم دين إبراهيـم، بما يُدخلون فيـه من الأباطيل والضلالات، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

تحريم المشركين لما أحلَّ الله من الأنعام:

وزيَّنت لهم كثيرًا من الأباطيل فاتبعوهم واتَّبعوا خطوات الشيطان فيها، فحرَّموا كثيرًا من الـزروع وحرَّموا كثيرًا مـن الأنعام: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۞ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩].

خسران الكفَّار بما ارتكبوه من قتل الأولاد وتحريم الأنعام:

خرافات ما أنزل الله بها من سـلطان، لا يصدقهـا عقل ولا يأتي بها نقل، ومع هذا فعلوها، وكما ورد عن ابن عبَّاس قال: من أراد أن يعرف ضلالة العرب فليقرأ قـول الله تعالـى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠][1].

قتلوا أولادهم واسـتحلُّوا الحرام، بل هو من أكبر المحرمات. القتل في نفسه جريمة، فكيف إذا قتل نفسًا بريئة؟ قتل نفسًا زكية؟ وكيف إذا كان المقتول ابنًا والقاتل أبًا؟ الأب الَّذي من المفترض أنَّه يدافع عن ابنه

(١) سبق تخريجه صـ٧٨٢.

QaradawiBooks.com

ويفديه بروحه؛ فإذا به يقتله، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أحلُّوا الحرام وحرَّموا الحلال ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

الجنَّات المعروشات وغير المعروشات:

ثم قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

بعد أن بيَّن ضلال العرب وسفههم وقلة أحلامهم بيَّن الحقائق الَّتي جاء بها الإسلام، وكما ذكرنا عن سيِّدنا عمر أنَّه قال: إنَّما تنقض عرى الإسلام عروةً عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهليَّة[1].

ولذلك يجب أن نعرف ضلالة العرب وكيف أحلُّوا الحرام وحرَّموا الحلال لنعرف ماذا جاء به الإسلام من هدى ونور وإصلاح للحياة.

يقول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، جنات معروشات هي جنات العنب، حدائق وبساتين العنب منها معروشات أي مسقوفة، ومنها غير معروشات أي: غير مرفوعات وغير مبنيَّات، لأن العنب منه ما هو معلق في الأشجار، ومنه ما لا يعلق ولا يحتاج إلى شجر، ويظهر على الأرض.

وقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، يعني هذا خلق الله، قد يقول قائل: نحن الَّذين نعمل الجنات

(١) مدارج السالكين (٣٥١/١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والبساتين ونصنع لها العريش وليس الله فكيف يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾؟ إذا كنت أنت من يعمل الحديقة وتنشئها فمن الَّذي أنشأك؟ ومن الَّذي خلقك؟ ومن الَّذي أعطاك القوة؟ ومن أعطاك العقل وعلَّمك ما لم تكن تعلم؟ إنَّه الله، فالله هو الفاعل في الحقيقة، ثمَّ من الَّذي خلق الأرض وهيّأها للزرع وهيّأها للغرس؟ لو كانت الأرض كلها فضة أو ذهبًا ما كانت صالحة للغرس ولا للزرع، النَّاس لن يأكلوا الذهب ولا الفضة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ومن الَّذي خلق البذرة الَّتي تبذر في الأرض فتأتي بعد ذلك بثمرة؟ من الَّذي فعل هذا؟ الله ﷻ، ومن الَّذي هيأ الماء ليسقي هذه البذرة؟ هو الله ﷻ، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١]، الله تعالى هو الَّذي هيأ هذا الماء.

ومن الَّذي هيأ الهواء ليستنشق النبات منه ما يحتاج إليه؟ ومن الَّذي هيأ له الحرارة من الشمس؟ ومن الَّذي خلق الشمس وسخرها؟ أتظن أنَّ هذه الجنات والزرع والنخل ينبت وينمو وحده؟ إنَّه يحتاج إلى أشياء كثيرة جدًّا من الضياء والهواء والماء والغذاء والحرارة وما يمتصه من الأرض وما يأخذه من الشمس، من الَّذي هيأ هذا كله؟ ولذلك استحق أن يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ [الأنعام: ١٤١]، كما قال في سورة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ نحن الَّذين أحييناها،

QaradawiBooks.com

ونحن الَّذين أخرجنا منها حبًّا ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ما عملته أيديهم، إنَّما عملته يد الله ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥]، كما قال تعالى في السورة نفسها سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١]، الأنعام والإبل والبقر والغنم وهذه المخلوقات من الَّذي عملها؟ عملتها يد الله، ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، الطفل الصغير يسحب الجمل أو يسحب الثور ويمشي وراءه، من الَّذي ذلّل هذا؟ الله هو الَّذي ذلّل الحيوان الضخم، عندما يثور الجمل لا يستطيع أحد الوقوف أمامه، وعندما يهيج الثور لا يقدر عليه أحد، فالله وحده هو الَّذي ذلل هذه الأنعام، ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٢، ٧٣].

فالله تعالى هو الَّذي خلق هذه الجنَّات وأنشأها، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ [الأنعام: ١٤١]، طعمه مختلف، هذا حلو وهذا حامض، وهذا مر، وهذا كذا، وهذا كذا، أنواع مختلفة، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، الأرض واحدة، والمالك واحد، والبستاني واحد، والزارع واحد، والماء واحد، ومع هذا يفضّل الله بعضها على بعض في الأكل، هذا من آيات الله ﷻ، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، تجد أشياء بعضها يشبه بعضًا، وأشياء متفردة في صفتها، في

QaradawiBooks.com

لونها، في رائحتها، في طعمها، ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

العناية بالجانب الجمالي:

لقد مرَّ أيضًا في هذه السورة ـ سورة الأنعام ـ قول الله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]، تمتَّعوا بالنظر إلى الثمر اليانع، لا تحرموا أنفسكم من هذه المشاهد، ربما لو رأيتموها في لوحة لقلتم ما أجمل هذه اللوحة الَّتي رسمها هذا الرسام، فلتنظر إليها على الطبيعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، انظر إلى جمال القطيع من الغنم (الضأن والمعز)، ومن الإبل ومن البقر حين تسرح أوَّل النهار وحين ترجع آخر النهار، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦] القرآن يلفت أنظارنا إلى أن نهتم بالجانب الجمالي، لا نكن متبلِّدي الحس، ننظر إلى هذه المصنوعات، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

الأديب المنفلوطي من الأدباء المعروفين يقول: الشاعر يرى الجمال في كل شيء، في الشمس إذا طلعت، وفي القمر إذا بزغ، وفي الصبح إذا تبدّى، وفي الليل إذا سجى، وفي كذا، وفي كذا. لأن الشاعر المفروض أن عنده إحساسًا زائدًا يحس بالجمال في كل شيء.

المؤمن أعمق إحساسًا من الشاعر، يرى الجمال في كل شيء، في النبتة إذا أورقت، والورقة إذا أزهرت، والزهرة إذا أثمرت، والثمرة إذا نضجت وأينعت، ينظر إلى هذا كله، ينظر في نجوم السماء، ينظر في الضحى والليل

QaradawiBooks.com

إذا سجى، ينظر في كل شيء ويرى فيه يد الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وينظر إلى ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

فالقرآن في سورة الأنعام يلفتنا إلى جمال المنظر يقول: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وفي هذه الآية يقول: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، الناحية الجماليَّة والناحية الماديَّة المنفعيَّة فيه، ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، تمتَّعوا بما هيَّأ الله لكم من الثمرات الطيبة، حينما تأكل الثمرة ـ وخاصَّة الثمرة الجديدة ـ أوَّل ما تأكل الثمرة الجديدة، أوَّل ما تتأمل التمرة أوَّل ما تنضج، أو العنبة أو الجوافة أو البرتقالة، أو أي شيء تأكل منه أوَّل ما ينضج قل: الحمد لله، قريب العهد بربنا. يعني هو لا زال جديدًا طازجًا من عند الله ﷻ، ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾، كل من ثمر الله واحمد الله ﷻ، ولذلك مطلوب منا حينما نأكل ونشبع، وحينما نشرب ونرتوي نقول: الحمد لله.

- «**الحمد لله الَّذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا مسلمين**»[(١)].
- «**الحمد لله الَّذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا**»[(٢)].
- «**الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه، ربنا**»[(٣)].
- «**الحمد لله الَّذي جعله** ـ الماء ـ **عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا**»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه صـ١٩.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٥)، وأحمد (١٢٥٥٢)، عن أنس.

(٣) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨)، عن أبي أمامة.

(٤) سبق تخريجه صـ١٩.

QaradawiBooks.com

كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، نعم أنت تمسك المحراث، وتغرس الحي وترويه، ولكن الله هو الَّذي يزرع، وهو الَّذي يشـق الحبَّة ويُخرج منها النبات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤ ـ ٦٧]، الله قادر على أن يسلِّط على الزرع صاعقة أو آفة سماويَّة تذهب به ولا يبقى لك شيء، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥ ـ ٦٧].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠]، لو شاء الله لجعله مرًّا علقمًا، فالله هو الَّذي يأتيك بهذا الماء العذب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْىِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ واشكروا الله عليه ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وشكر نعمة الله أن تُؤتي حقه يوم حصاده، كما أكلت من هذا الثمر وشبعت منه لا بدَّ أن تذكر غيرك، أن تفكر في الآخرين من حولك، أن تذكر أن هناك جياعًا لهم حق في مال الله الَّذي آتاك، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، الإنسان مستخلف في مال الله، هذا المال ليس في الحقيقة مالك، كيف يكون مالك؟ أنت لم تخلق الأرض الَّتي زرعت فيها، ولا أنت خلقت البذرة، ولا أنت خلقت الماء، ولا أنت خلقت الهواء، ولا أنت خلقت الضياء، ولا أنت هيَّأت الأسباب ووضعت السنن والقوانين الَّتي على أساسها ينمو الزرع

QaradawiBooks.com

وينبت ويُؤتي ثمره وأكله، من الَّذي عمل هذا؟ الله هو الَّذي عمل، فكيف تقول: إنَّ المال مالك؟ المال مال الله في يدك، فأعط من مال الله لعباد الله، لعيال الله، الخلق كلهم عيال الله، وأحب النَّاس إلى الله أنفعهم لعيال الله، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

الله ﷻ فرض الزكاة على النَّاس، وهذه الآية مكيَّة، سورة الأنعام قلنا: إنَّها سورة مكيَّة، والزكاة لم تكن فرضت في مكَّة، الزكاة ذات النُّصُب والمقادير والحول هذه شُرعت في المدينة، لأن المدينة هي الَّتي جاءت فيها التشريعات، القرآن المكي ليس فيه تشريعات مفصَّلة، فيه تشريعات مجملة، مثلًا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] هذا أساس لتشريع الجهاد، إنَّما الجهاد تفصيله سيأتي في المدينة.

فكذلك جاءت الزكاة في مكَّة مثل قول الله تعالى هنا: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ومثل قوله تعالى في وصف المؤمنين في سورة النمل: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]، وقوله تعالى في وصف المحسنين في سورة لقمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤]، وفي غيرها من السور، في سورة فصلت: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، من أجل أن يُقر الله هذا المبدأ.

الزكاة يعني إعطاء جزء من المال تطيب به نفسه ليأخذ بأيدي الفقراء، ويُغيث الملهوفين، ويُعين البائسين، هذا المبدأ قُرِّر في مكَّة المكرمة، لأن أصول الأشياء قُرِّرت في مكَّة ومنها هذا الحق، هذا حق غير معلوم، الحق المعلوم عُلِم بالزكاة، بعد ذلك جاء القرآن وجاءت السنة وبيَّنت المال الَّذي تجب فيه الزكاة والمقدار كم هو؟ العشر أم نصف العشر أم ربع العشر؟

QaradawiBooks.com

وكذلك بيَّن القرآن والسُّنَّة المصارف الَّتي تصرف فيها الزكاة، ثمانية مصارف، في سورة التوبة يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

بيَّن كل من القرآن والسُّنَّة متى تخرج الزكاة، أحيانًا يكون كل سنة وذلك في الأموال الحوليّة مثل النقود الَّتي تملكها تزكيها في كل حول، كل سنة يكون لك حول، أوَّل ما يكتمل عندك النصاب فهذا بداية حولك، وكل سنة اكتمل الحول عندك تُخرج الزكاة، اكتمل الحول عندك ـ مثلًا ـ يوم عشرة رجب إذن تُخرج الزكاة في اليوم العاشر من رجب، اكتمل الحول في أوَّل المحرم تخرج الزكاة في أوَّل المحرم، ومن حقك أن تُغيِّر حولك لكن تحسب حساب ذلك، لو فُرض أن في أوَّل رجب اكتمل النصاب وأنت تريد أن تخرج الزكاة في أوَّل رمضان لك هذا على أن تحسب حساب أن هناك شهرين فتخرج حساب الشهرين ثمَّ تثبت الحول على أوَّل رمضان.

هناك زكاة حوليَّة مثل التجارة، وهناك زكاة موسميَّة، مثل الزرع، الزرع هذا له موسم، فيوم الحصاد تُخرج الزكاة، الحصاد يختلف من زرع إلى آخر، هناك زرع في الصيف وزرع في الشتاء، وزرع في الخريف وزرع في الربيع، فحينما يكتمل ويأتي الحصاد هنا تُخرج الزكاة في يوم الحصاد، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وهناك من العلماء من يقول: إنَّ حقَّ الحصاد غير الزكاة، فيوم الحصاد يأتي الفقراء فتتطلَّع أعينهم إلى هذا الشيء وخصوصًا إذا كنت تحصد تمرًا أو فاكهة وأشياء ممَّا يؤكل في الحال، فيتطلع الفقير بعينه

QaradawiBooks.com

وقلبه إلى هذا الحصاد فأعطه ما تيسّر، هذا يسمونه حق الحصاد، لأن الزكاة هي أوَّل الحقوق وليست آخرها، هناك حقوق أخرى غير الزكاة، ذكرنا في آية «ليس البر» يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فوجدنا أنَّها ذكرت الزكاة وذكرت إيتاء المال، لذلك من العلماء من استدلوا بهذه الآية على زكاة الزرع، وقالوا: إنَّها وإن نزلت في مكة قررت أصل الواجب، ثمَّ جاء القرآن المدني فبيَّن ما أجمله القرآن المكي.

وقد ذهب كثير من السلف إلى أنَّ المراد بالحق هنا هو الزكاة المفروضة: العشر أو نصف العشر.

وقال آخرون: كان هذا شيئًا أمر الله به المؤمنين قبل أن تُفرض عليهم الصدقة المؤقتة (المحدودة)، ثمَّ نسخته الصدقة المعلومة: العشر أو نصف العشر.

إنَّ الاحتمال الأخير هو الظاهر بكل وضوح لكل من تأمل العلاقة بين النصوص.

هذه الزكاة، أو العشر كما يسميها بعض المذاهب، هي عشر ما خرج من الزرع إذا كان قد سقي بالمطر، أو سقي بالرَّاحة كما يقول الفلاحون في مصر، بالرَّاحة يعني ـ مثلًا في مصر ـ وصل ماء النهر للأرض المزروعة بسهولة، بدون آلة سقي وبدون جهد، لا «ساقية»، ولا «طنبور»، ولا «شادوف»، ولا «موتور» ونحو ذلك، فهذا فيه العشر، وإلا ففيه نصف العشر.

QaradawiBooks.com

ولذلك أخذ الإمام أبو حنيفة من هـذه الآية أنَّ الزكاة واجبة في كلِّ ما أخرجـت الأرض، الفقهاء والأئمَّـة مختلفون، منهم مَـن قصر زكاة ما أخرجه الله من الأرض علـى أربعة أصناف فقط من الحبوب والثمار، أو علـى ما يُقتات في حال الاختيـار لا غير، أو علـى ما يَيْبَس ويُكَال ويُدَّخر، وأخرجوا من دائرة الحق الواجب سـائر الفواكه والخضروات، ومزارع البُن والشـاي، وحدائق التفاح والمانجو، والقطن، أو الشاي أو المطاط في ماليزيا أو جوز الهند أو القطن وقصب السُّـكَّر وغيرها، ممَّا يدر على أصحابه الألوف بل الملايين، يقولون: ليس فيها زكاة.

حتى سـمعتُ فـي إحدى زياراتـي لبعـض الأقطار الآسـيويَّة أنَّ الشيوعيين يتَّهمون الفقه الإسلامي ـ أو الشـرع الإسلامي ـ بأنَّه يجعل عبء الـزكاة على صغار الـزرَّاع ـ وربَّمـا كانوا مسـتأجِرين للأرض، لا مُلاكًا ـ الَّذين يزرعون الذُّرة والقمح والشعير، ويُعفي من ذلك مالكي مزارع جوز الهند والشاي والمطاط ونحوها!

لكن ذهب الإمام أبو حنيفة إلى وجوب الـزكاة في كلّ ما أخرجت الأرض، وهذا هو الواجب لأن هذا هو الَّذي يؤكده عموم القرآن وعموم الحديث.

ومن هنا نقف وقفة إعجاب لإمام المالكية في عصره الإمام أبو بكر ابن العربي فقد شرح هذه الآية في كتابه «أحكام القرآن» وذكر المذاهب كلها ومنها مذهبه المالكـي، ولكنَّه لإنصافه ورسـوخه ضعَّفها جميعًا، وقال: أمَّا أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق، فأوجبها في المأكول قوتًا كان أو غيره، مأكولًا أو غير مأكول[1].

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٢٨٣/٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يعني حتَّى القطن والمطاط فيه زكاة، وهذا هو الواجب، الواجب أن تُخرَج الزكاة من كل ما أخرجت الأرض من حبوب وفاكهة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، والزرع تشمل كل المزروعات، وبيَّن النبي ﷺ ذلك في عموم قوله: «**وفيما سقت السماء العُشر**»(١).

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، لا تسرفوا في العطاء بحيث تبقون فقراء ويحتاج أولادكم، وأيضًا لا تسرفوا في التمتع بالأكل ومجاوزة حد الاعتدال، ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ بالاعتدال، وهو ما أمر الله تعالى به، وكما قال في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

النهي عن الإسراف:

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، لا يحرِّم الإسلام على المسلم الطيِّبات، بل أنكر على الَّذين حرَّموا الطيِّبات وزينة الله، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، أي: مَن له الحق في أن يحرِّم على النَّاس زينة الله؟ وأضاف هذه الزينة إليه سبحانه تشريفًا لها وتكريمًا.

فلم يمنع الإسلام الاستمتاع بالطيّبات وزينة الله، وإنَّما منع الإسراف، ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، من عباده المتجاوزين للحدود.

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٨٣)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

ومعنى هذا: أن يقف الإنسان عند قدراته، «على قدر لحافِك مُدَّ رجليك» كما يقول النَّاس، عِش في حدود استطاعتك، عِش في حدود الحلال، لا تنفق في الحرام ولا فلسًا واحدًا؛ فإن الإنفاق في معصية الله هو التبذير، وإن كان قليلًا.

لا تحاول أن تُنفق أكثر ممَّا تستطيع، لا يكن مصروفك أكثر من دخلك، فتضطر للاستدانة، والدَّين همٌّ بالليل، مذلَّة بالنهار، وقد لا تستطيع أن تسدِّد دَيْنك، فتضطر أن تُحدِّث فتكذب، وتعِد فتُخلف، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الرجل إذا غرم، حدَّث فكَذَبَ، ووعد فأخلف**»[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣٢)، ومسلم في المساجد (٥٨٩)، عن عائشة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الرابع
الهداية إلى الصراط المستقيم

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤].

قُلْ ـ يا رسولَ الله ـ للمشركين: إِنَّنِي دلَّني ربِّي إلى طريق واضح معتدل، وأمرني باتِّباعه والتزامه، فهو الدين الحقُّ الَّذي لا عِوَج فيه، إنَّني تميَّزت عنكم يا أهل الجاهليَّة بما هداني الله إليه.. هداني إلى صراط مستقيم، والطريق المستقيم، أو الخط المستقيم هو أقرب موصِّل بين نقطتين، البداية والنهاية، الطرق المتعرجة والملتوية طرق لا توصِّل إلَّا ببُعد، إنَّما الطريق المستقيم يوصِّلك إلى الهدف من أقصر طريق، وهذا هو طريق التوحيد، هذا هو طريق الله تبارك وتعالى.

الصراط المستقيم هو الَّذي يقوم على عبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وكما

QaradawiBooks.com

قال الله على لسان عيسى ابن مريم لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، هذا هو الصراط المستقيم الَّذي ندعو الله في سورة الفاتحة أن يهدينا إليه، نقرأ في الصلوات كل يوم على الأقل سبع عشرة مرَّة ـ لو اقتصرنا على الصلوات الخمس ـ ونقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

والصراط المستقيم يُضاف إلى مَن وضعه ونصبه، وهو الله ﷻ، فهو صراط الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقد يُضاف الصراط إلى النبي ﷺ، باعتباره الداعي إليه، والدال عليه، فهو صراط مُحَمَّد ﷺ، وقد يُفسَّر قوله هنا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] بأنَّه صراط النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول له: ﴿قُلْ﴾، فهو يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقد يُفسَّر قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] بأنَّه صراط الله تعالى، إضافة إلى الله، وأنَّ الله هو الَّذي يقول هذا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهو صراط الله باعتباره هو الَّذي نصبه ووضعه وشرعه، وهو صراط مُحَمَّد ﷺ باعتباره الَّذي يدعو إليه ويدل عليه، وهو صراط الَّذين أنعم الله عليهم؛ لأنَّهم هم الَّذين يسلكونه ويمشون فيه، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، كما جاء في آية أخرى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

QaradawiBooks.com

التوازن والوسطيَّة:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]، الصراط المستقيم صراط التوازن والوسطيَّة، لا يميل يمينًا ولا شمالًا، لا ينحرف إلى الإفراط ولا إلى التفريط، هو الَّذي يمثل الوسطيَّة دائمًا، لأنَّه أقرب الطرق، وهو الوسط دائمًا، وما كان على اليمين والشمال هو لا يكون الطريق المستقيم، ولذلك هو يمثل الوسطيَّة.

المسلمون بين الأديان هم الوسط دائمًا، اليهود يميلون إلى الإسراف في الماديَّة، والنَّصارى يميلون إلى الإسراف في الروحانيَّة، اليهود يميلون إلى الإسراف في التحريم والنَّصارى يميلون إلى الإسراف في التحليل، فقد كاد يكون كل شيء عندهم حلالًا، المسلمون يمثلون الصراط المستقيم، الَّذي هدى الله إليه محمدًا ﷺ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ما هو هذا الصراط المستقيم؟ ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، هذا الصراط المستقيم يتمثل في هذا الدين القيِّم، في قراءة حفص الَّتي نقرؤها: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، وفي قراءات أخرى: (دِينًا قَيِّمًا)، لغتان، وسواء قرئت: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، أو قرئت: (دِينًا قَيِّمًا) فالمعنى واحد[1]، وهو: أنَّ الإسلام دين قائم مستقيم، لا عوج فيه ولا أمت، ولا ميل ولا زيغ ولا انحراف، (دِينًا قَيِّمًا)، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤٣]، الدين القيِّم هو الدين الحنيف أيضًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) قرأ ابن عامر والكوفيون بكسر القاف وفتح الياء مخففة (قِيَمًا)، وقرأ الباقون بفتح القاف وكسر الياء مشددة (قَيِّمًا). النشر (٢/٢٦٧).

QaradawiBooks.com

ملة إبراهيم عليه السلام:

﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، هذا الدين هو ملَّة إبراهيم عليه السلام، والواقع أنه ملَّة الأنبياء جميعًا؛ لأن هذا الدين الَّذي هدى الله إليه محمدًا ﷺ هو الَّذي بعث الله به جميع الرسل وأنزل به جميع الكتب، وهو دين واحد لا يتغير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ليس عند الله دين آخر غير الإسلام، كل الأنبياء جاؤوا بالإسلام، وكل الأنبياء كانوا مسلمين، وهذا ما أعلنه القرآن وأكّده في غير موضع.

سيدنا نوح قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، يوسف عليه السلام يقول: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وموسى يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، السحرة حينما آمنوا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وحواريو عيسى قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

حتى ملكة سبأ «بلقيس» حينما أسلمت قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وحينما أرسل إليها سليمان يقول لها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

كل الأنبياء كانوا مسلمين، فالإسلام ليس دين مُحَمَّد ﷺ وحده، هو دين الأنبياء جميعًا، كل ما في الأمر أنَّ النَّاس حرَّفوا في هذا الدين الحنيف.. دين التوحيد.. هذا الدين السمح، أُدخِلت عليه أباطيل فجاء

QaradawiBooks.com

مُحَمَّد ﷺ ليطهّره ممَّا شـابه.. ممَّا دخل فيه.. ممَّا ليس منه، ويعيدَه إلى فطرته وأصالته ويتممه، كما قال: «**إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1]، وكما قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، هو ملَّة الأنبياء جميعًا، إنَّما خُصَّ بإبراهيم عليه السلام لأن إبراهيم اشتُهِر بالدفاع عن التوحيد، والوقوف في وجه الوثنيَّة وتحطيم الأصنام، ولقي ما لقي وقاسى ما قاسى في سبيل ذلك، حتَّى إنَّه أُلقي في النَّار من أجل تحطيمه الأصنام حينما جعلها جُذاذًا إلَّا كبيرًا لهم، وحينما ناقش القوم فأفحمهم ورجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنَّكم أنتم الظالمون، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، ثمَّ انتهوا، ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، حينما لم يجدوا قوَّة المنطق استخدموا منطق القوة، وهذا شأن الطغاة والجبابرة دائمًا، فإبراهيم اشتُهِر بأنَّه نبي التوحيد ورسول التوحيد ومحارب الوثنيَّة ومحطم الأصنام.

ثم إنَّ الملل الموجودة الكتابيَّة كلها تنتسب إلى إبراهيم، اليهود يقولون: نحن أتباع إبراهيم. والنَّصارى يقولون: نحن أتباع إبراهيم. والمسلمون يقولون: نحن أتباع إبراهيم. ولكن الَّذين اتبعوا إبراهيم بحق هم المسلمون، ولذلك يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، نحن أولى النَّاس بإبراهيم؛ لأن إبراهيم كان على ملَّة الإسلام ونحن الَّذين حافظنا على ملَّة الإسلام ورددناها إلى فطرتها وحميناها من الشرك ومن الشركيات.

---

(١) سبق تخريجه صـ١٩٤.

QaradawiBooks.com

الأدعية بالثبات على ملَّة إبراهيم:

جاء عن النبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو في الصباح والمساء: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمةِ الإخلاص، وعلى دينِ نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ، وعلى مِلَّةِ أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين**»(١). هذه من الأدعية المأثورة، النبيُّ ﷺ يفخر دائمًا بأنَّ مِلَّته حَنِيفِيَّة، يقول: «**بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمْحة**»(٢).

وقال في الغناء يوم العيد: «**لتعلَمَ يهودُ أنَّ في ديننا فُسْحَةً، إنِّي أُرْسِلْتُ بحنيفيَّةٍ سَمْحة**»(٣). وسئل: أيُّ الأديان أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: «**الحنيفيَّة السَّمْحة**»(٤). الحنيفيَّة نسبة إلى ملَّة إبراهيم حنيفًا. والحنف هو: الميل، إنَّه مال بهذه الملَّة عن الشرك إلى التوحيد، وعن الضلال إلى الهدى، وعن الغيِّ إلى الرشد، وعن الانحراف إلى الاستقامة.

الأمر بإخلاص العبادة وابتغاء رضا الله:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، هذا إعلان بأن يكون المسلم كله لله.. حياته

---

(١) رواه أحمد (١٥٣٦٠)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٩٧٤٥)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٤)، وصحَّح إسناد ابن السني النوويُّ في الأذكار (٢٢٥)، عن عبد الرحمٰن بن أبزى.

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٩١)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (٢٢٢/٨)، وحسن إسناده ابن حجر في تغليق التعليق (٤٣/٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٤٤١): رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف. وقال المناوي في فيض القدير (٣١٥٠): إنَّه لا ينزل عن رتبة الحسن. عن أبي أمامة.

(٣) سبق تخريجه صـ٣٩٥.

(٤) رواه أحمد (٢١٠٧)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح لغيره. والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٧)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

كلها لله، دينه ودنياه.. عبادته ومعاملته.. كل شيء لله، إنَّه عبد لله اضطرارًا، فليكن عبد لله اختيارًا، يجعل حياتَه كلها لله.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، الصلاة معروفة. النسك: أحيانًا يراد به الذبح، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦] والذبح لا يكون إلا لله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وأحيانًا يراد به العبادة، فالمراد بها: كل العبادات والطاعات والقربات ينبغي أن تكون لله، الصلاة لله، والعبادات كلها لله، لا يراد بها إلَّا وجه الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، المحيا والممات.. شؤون حياتك.. ما تفكر فيه لدنياك، وما تفكر فيه لأخراك. كل هذا يجب أن يكون لله.

مشكلة بعض المسلمين هي الازدواج: أن يجعل نصفه لله، ونصفه لغير الله، الله يريدك كلك له ﷻ.

الازدواج: أن تكون في المسجد لله، وبعدما تخرج من المسجد تكون للشيطان، الله لا يقبل هذه الشركة. لا بدَّ أن تكون لله في كل مكان وفي كل زمان، أن تكون لله الَّذي خلقك فسوَّاك فعدلك، في أيّ صورة ما شاء ربك، تكون لربك الَّذي سخّر لك ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، الَّذي أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، الَّذي أعطاك العقل لتفكر، والإرادة لترجح، والقدرة لتنفذ، الَّذي أعطاك أعضاء الجسم هذه الأدوات، يجب أن تكون لله تعالى الَّذي منحك هذا كله، من حقه أن تكون له ﷻ، لا يقبل أن تقسِّم حياتَك بينه وبين غيرك.

ومعنى أن تكون لله: أن تكون وجهتك الأساسيَّة لله، ليس المعنى أن

QaradawiBooks.com

تكون في المسجد ليلًا ونهارًا، حتَّى وأنت في عملك وفي سعيك وفي معاشك وفي مكتبك ومصنعك وجامعتك وديوانك أنت لله، يمكن أن تكون لله وأنت في عملك، يمكن أن تكون لله في كل الأمور إذا استقامت وجهتك وصحَّت نيَّتُك، وعشت في هذه الدُّنْيا جنديًّا لله.

إذا كان هناك أناس نذروا أنفسهم للشيطان، لخدمة الطاغوت، فجنِّد نفسك لخدمة الله ونصرة الله ﷻ لينصرك الله ﷻ، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فالمهم أن تكون لله.

مشكلة كثير من المسلمين هي هذه الازدواجية، ترى الإنسان في المسجد شيئًا ولكن في عمله شيء آخر، أو في الطريق شيء آخر، واحد يقرأ القرآن وتسمعه وتعجب لقراءته ولكنَّه حينما يتعامل مع النَّاس يتحول إلى شيء آخر، إلى إنسان آخر، أين هذا الإنسان الَّذي كان يتلو القرآن؟ أين هذا الَّذي كان يصلي؟ وأين هذا الَّذي كان يصوم؟ أصبح إنسانًا آخر، هو ذو وجهين، وذو حالين، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا.

لا بدَّ أن يعيش الإنسان لله، عِشْ لله، عِشْ في الدُّنْيا بقلوب أهل الآخرة، امشِ على الأرض وانظرْ إلى السماء، تعاملْ مع الخلق ولا تنسَ الخالق، هذا معنى أن تكون لله. اجعلْ حياتك لله؛ تكن كل أعمالك عبادات وطاعات، حتَّى الأعمال المباحة، حتَّى الأكل والشرب، حتَّى اللقاء مع الزوجة.. الاتصال الجنسي، كما جاء في الحديث الصحيح: «**في بُضْعِ أحدكم صدقة**». قالوا: يا رسولَ الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟ قال: «**أليس إذا وضعها في حرامٍ كان عليه وزر؟**» قالوا: بلى، قال: «**فكذلك إذا وضعها في حلالٍ كان له أجر**». وفي رواية: «**أتحتسبون الشرَّ، ولا تحتسبون الخير**»[1].

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

افتتاح الصلاة بهذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ..﴾

جاء في بعض الأحاديث أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول في افتتاح الصلاة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وورد أيضًا عدَّة أحاديث في افتتاح الصلاة، منها: الحديث المشهور: «**سبحانك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك**»[(١)].

ومنها حديث البخاري: «**اللهمَّ باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهمَّ اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد، اللهمَّ نقني من خطاياي كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدنس**»[(٢)].

وجاء هذا الحديث: «**وجَّهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوَّل المسلمين**»[(٣)].

النبيُّ ﷺ كان يقول: «**أنا أوَّل المسلمين**»، هل نقول نحن: أنا أوَّل المسلمين؟ بعض العلماء قال: نغيرها ونقول: «وأنا من المسلمين»، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، والبعض يقول: نبقيها. ويكون القصد من قول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأنا أوَّل المنقادين المذعنين، لأن الإسلام هو: الانقياد لله تعالى والإذعان له والتسليم، والإسلام هو: الاستسلام لله تعالى.

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٩)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٤٤)، ومسلم في المساجد (٥٩٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأحمد (٨٠٣)، عن عليّ.

QaradawiBooks.com

لا نبتغي غير الله ربًّا:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

من كرامة الإنسان في الإسلام: أنَّه أزال عنه وصمة التلوث بالخطيئة، الَّتي يولد عليها كل إنسان، كما هي دعوى المسيحيَّة، الَّتي زعمت أن خطيئة آدم ـ بالأكل من الشجرة المحرَّمة ـ وُرِّثت لبنيه ذكورًا وإناثًا، فلا يولد مولود إلَّا وفي عنقه هذه الخطيئة، ولا ينجو إنسان من إثمها وتبعتها إلَّا بكفارة وفداء، ولم يتحقق هذا الفداء إلَّا بصلب المسيح ـ فيما زعموا ـ ومن ثَمَّ كانت حتمية الإيمان بالمسيح فاديًا مخلصًا!

أمَّا الإسلام فقد ألغى هذا كله، وأعلن أنَّه «**ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة**»[1]، غير ملوَّث بخطيئة، أو مثقل بذنب.

كما قرر الإسلام بوضوح وحسم مسؤوليَّة الإنسان عن نفسه، فلا يجوز في منطق العدل الإلٰهي أن يحمل الابن وزر أبيه، أو الحفيد وزر جده: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

على أن معصية آدم نفسها، قد غسلتها التوبة، وانتهى أمره بالاجتباء والهداية من ربه، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

يقول الدكتور «نظمي لوقا»، المسيحي المصري في كتابه «محمد: الرسالة والرسول»: «إن أنسَ لا أنسَ ما ركبني صغيرًا من الفزع والهول

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

من جراء تلك الخطيئة الأولى وما سيقت فيه من سياق مروِّع، يقترن بوصف جهنَّم، ذلك الوصف المخيف لمخيِّلة الأطفال، وكيف تتجدد فيها الجلود كلَّما أكلتها النيران، جزاء وفاقًا على خطيئة آدم بإيعاز من حواء، وأنَّه لولا النجاة على يد المسيح الَّذي فدى البشر بدمه الطهور! لكان مصير البشريَّة كلها الهلاك المبين!

وإنْ أنسَ لا أنسَ القلق الَّذي ساورني وشغل خاطري عن ملايين البشر قبل المسيح: أين هم؟ وما ذنبهم حتَّى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟!»[1].

والحقُّ أنَّه لا يمكن أن يُقَدِّر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلَّا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة، الَّتي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضي في حياته مضي المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

إنَّ تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هي ولادة جديدة حقًّا، ورد اعتبار لا شكَّ فيه، إنَّها تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه.

* * *

(١) محمد الرسالة والرسول صـ ٧٥، نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

دروس في تفسير
سورة الأعراف

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الدرس الأوَّل
التجمُّل وستر العورة في الصلاة وعند التوجه إلى المسجد والنهي عن الإسراف في المأكل والمشرب

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢]

الخطاب في هـذه الآية الكريمة لبني آدم، لأبناء البشـر جميعًا، وهو أحد نداءات أربعة في سورة الأعراف بهذا العنوان: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، هو نداء إلى الإنسانيَّة، إلى البشريَّة كلِّها، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، اتجاه جديد في كتابٍ سماوي، وفي دينٍ سـماوي، فقد عرف النَّاس من الأديان أنَّها تدعو إلى التقشـف، وتُرغِّب في الحرمان، وتزهّد في طيّبات الحياة، حتَّى استقرّ في أذهان النَّاس وفي أنفسهم من قديم، بل إلى اليوم ظلَّ عند الكثيرين مفهوم أنَّ الدين ضدُّ العمران، ضـدُّ الزينة، ضدُّ الطيِّبات، ولكن القرآن أكَّد غير هذا، وقرر غير هذا، منذ نادى في النَّاس، منذ نادى في بني آدم: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١].

نسخة تجريبية

الجاهليَّات القديمة تُحرِّم الطيِّبات:

كان النَّاس في الجاهليَّات المختلفة: الجاهليات الفارسيَّة، والجاهليات الرومانية، والجاهليات العربيَّة، وغيرها، كانوا يتقشَّفون ويحرِّمون على أنفسهم الطيِّبات، وأبرز مثل في العرب لذلك أنَّهم كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة في الحج! لا يلبسون شيئًا، يطوفون عراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل! يقولون: لا نطوف ببيت الله بثياب عصينا الله فيها. كما يحرِّمون على أنفسهم كثيرًا من الطيِّبات.

فجاء القرآن يخالف عن هذا ويعارض هذا، وينادي بأخذ الزينة وإباحة الطيِّبات: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، لقد أباح الإسلام للمسلم، بل طلب إليه أن يكون حسن الهيئة، كريم المظهر، جميل الهندام، متمتعًا بما خلق الله من زينة وثياب ورياش.

الغرض من الملبس في نظر الإسلام أمران: ستر العورة، والزينة، ولهذا امتنَّ الله على بني الإنسان عامَّة بما هيَّأ لهم بتدبيره من لباس ورياش فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾ [الأعراف: ٢٦].

فمن فرَّط في أحد هذين الأمرين: الستر أو التزين، فقد انحرف عن صراط الإسلام إلى سبل الشيطان، وهذا سر النداءين اللذين وجَّههما الله إلى بني آدم ـ بعد النداء السابق ـ يحذرهم فيهما من العُرْي، وترك الزينة، اتباعًا لخطوات الشيطان، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

QaradawiBooks.com

وقد أوجب الإسلام على المسلم أن يستر عورته الَّتي يستحي الإنسان المتمدين بفطرته من كشفها، حتَّى يتميز عن الحيوان العاري، بل دعاه إلى هذا التستر وإن كان منفردًا بعيدًا عن النَّاس، حتَّى يصير الاحتشام له دينًا وخلقًا، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسولَ الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال: «**احفظْ عورتَك إلَّا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك**». قلتُ: يا رسولَ الله، فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟ (أي في السفر ونحوه) قال: «**فإنْ استطعتَ ألَّا يراها أحد فلا يَرَيَنَّها**». فقلت: فإذا كان أحدنا خاليًا (أي منفردًا)؟ قال: «**فاللهُ تبارك وتعالى أحقُّ أن يُسْتَحْيَا منه**»[1].

ومن هذه الآية وأمثالها أخذ فقهاء المسلمين أنَّ من السنَّة أن يتزيَّن الرجل إذا ذهب إلى المسجد وخاصَّة في الجمع والأعياد، عند ملتقى النَّاس يتزيَّن بأحسن الثياب، وأبهى الحلل، ويتطيب ويتسوَّك، ليكون طَيِّبَ الملبس، طَيِّبَ الرائحة، هكذا يأمر الإسلام أبناءه.

من الأخطاء الَّتي يرتكبها البعض أنَّهم يذهبون للصلاة بثياب المهنة، بملابس العمل، وهذا لا ينبغي، فقد حثَّ الإسلام على أخذ الزينة عند كل مسجد: ﴿**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ**﴾ [الأعراف: ٣١]، كان الحسن بن علي رضي الله عنه إذا ذهب إلى المسجد لبس أبهى ما عنده، وأخذ زينته، فكأن بعضهم استغرب هذا التصرف، فقال: أتزيَّن لربي، أمَّا سمعتم الله تعالى يقول: ﴿**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ**﴾ [الأعراف: ٣١][2].

---

(١) رواه أحمد (٢٠٠٣٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الحمام (٤٠١٧)، والترمذي في الأدب (٢٧٦٩)، وقال: حسن. والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٨٩٧٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٠)، وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٧٠).

(٢) تفسير الآلوسي (٣٤٩/٤)، تحقيق علي عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

QaradawiBooks.com

لو كان الإنسان يريد أن يقابل وزيرًا، أو أميرًا، أو رئيسًا، ألا يتجمَّل له، ويلبس أحسن ما عنده؟ فليتجمَّل لربه، فالله أحقُّ من تزين له، فهو القائل ﷻ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

والنبيُّ ﷺ نهى أن يذهب المسلم إلى صلاة الجماعة في ثوب المهنة، ملابس العمل، فإنَّه يكون بها من آثار العمل والعرق ما بها، وأرشد إلى الاغتسال والتنظُّف والتطيُّب، تقول عائشة رضي الله عنها: كان أصحاب رسول الله ﷺ عمال أنفسهم، وكان يكون لهم أرواح، فقيل لهم: «**لو اغتسلتم**»[(١)].

ولا يظنُّ مسلم أنَّ التجمُّل باللبس الحلال، والظهور بالمظهر الطَّيِّب، يدخل في دائرة الكبر أو الاختيال أو الغرور، الَّذي ذمَّه الله ورسوله، فقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»[(٢)]. فالكبر من الخصال النفسية الَّتي تتعلق بنفس المسلم، ولا صلة لها بحسن الثياب ولا جمالها، ولا حرص الإنسان على أناقتها، وتجمله فيها.

التوسُّط في الأكل والشرب:

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، هذه قاعدة هامة أيضًا في الحياة الاجتماعيَّة، أن يأكل النَّاس من طيِّبات ما خلق الله، وأن يشربوا ما أنزل الله من ماء، وألَّا يسرفوا، الاستمتاع بالطيِّبات مشروطٌ بهذا، ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، الممنوع السرف والاختيال، لا تتجاوز الحدَّ فتضرَّ نفسك، وتجور على غيرك.

شأن المؤمنين هو التوسُّط والاعتدال، لا طغيان: لا تجاوز عن الحدِّ، ولا إخسار: لا نقص عنه، ولا تطفيف فيه.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٠٧١)، ومسلم في الجمعة (٨٤٧)، عائشة.

(٢) سبق تخريجه صـ٧٤٤.

QaradawiBooks.com

لم يمنع الإسلام الاستمتاع بالطيِّبات وزينة الله، وإنَّما منع الإسراف، ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، الله لا يحبُّ المسرفين من عباده، المتجاوزين للحدود.

آثار البِطنة:

ومن هنا حذَّر النبي ﷺ من البِطْنة.. من امتلاء البطن، فقال: «**ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنه، بحَسْبِ ابنِ آدم لُقَيْمَات يُقِمْنَ صُلْبَه، فإن كان لا محالة، فثُلثٌ لطعامه، وثُلثٌ لشرابه، وثُلث لنَفَسِه**»[(١)]. وقال: «**كلوا، واشربوا، وتصدَّقوا، والبسوا، في غير إسرافٍ، ولا مخيلةٍ**»[(٢)].

وتجشَّأ رجلٌ عند النبيِّ ﷺ، فقال له: «**كفَّ عنَّا جُشَاءك، فإنَّ أكثرهم شِبَعًا في الدُّنيا، أطولهم جوعًا يوم القيامة**»[(٣)]. والجشاء أو التجشُّؤ: تنفُّس المعدة من كثرة الأكل.

ولهذا قال بعض الأطباء القدامى: إنَّ الله جمع نصف الطبِّ ـ أي: الطب الوقائي ـ في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، فإنَّ معظم ما يصيب النَّاس من أمراض هو من البِطنة والشره.

---

(١) رواه أحمد (١٧١٨٦)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات، غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقدام، فإن صح سماعه منه فالحديث صحيح، وإلا فمنقطع. والترمذي في الزهد (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، والحاكم في الرقاق (٣٣١/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٢٨/٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥)، عن المقدام بن معديكرب.

(٢) ذكره البخاري معلقًا بصيغة الجزم (١٤٠/٧). ووصله أحمد (٦٦٩٥)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٨)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠١٥)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

إنَّ امتلاء المعدات يؤدِّي إلى كثير من الأمراض وإلى السمنة وتثاقل البدن، ثمَّ إنَّ له أيضًا آثارٌ في الناحية النفسيَّة والعقليَّة، حتَّى قال القدماء: إيَّاكم والبِطْنة، فإنَّها تذهب الفطنة.

وقال عمر رضي الله عنه: إيَّاكم والبطنةَ في الطعام والشراب فإنَّها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما فإنَّه أصلح للجسد، وأبعد من السَّرف، وإنَّ الله ليبغض الحَبْر السمين، وإنَّ الرجل لن يهلك حتَّى يؤثر شهوتَه على دِينه[1].

وللبطنة أثرها أيضًا في الناحية الروحيَّة، لهذا قالوا: من أكل كثيرًا نام كثيرًا، ومن نام كثيرًا فاته خير كثير.

أكلَّما اشتهت نفسك شيئًا ملأت به بطنك! يجب أن يكون الإنسان مقاومًا لشهوته، هذه آفة في المجتمعات حينما يشتري النَّاس كلَّ ما يشتهون، تفسد المجتمعات، والمجتمعات الآن تقيد الاستهلاك بأمور كثيرة، حتَّى لا يسير النَّاس وراء شهوات البطون واللباس والتزين والمباهاة ونحو ذلك.

الفرق بين الإسراف والتبذير:

وفرقٌ بين الإسراف والتبذير، الإسراف هو تجاوز الحد في الحلال، وأمَّا التبذير فهو إنفاق في الحرام، فلو أنَّ رجلًا عنده مال قارون وأنفق درهمًا واحدًا في معصية، كان ذلك تبذيرًا، وهو محرَّمٌ ومنهيٌّ عنه، قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

(١) رواه أبو نعيم في الطب النبوي (١٢٧).

QaradawiBooks.com

الدرس الثاني
استنكار تحريم الزينة والطيِّبات

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣].

أنكر الله على الَّذين يحرِّمون زينة الله والطيِّبات من الرزق فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]؟ أي: مَنِ الجريء المتعدِّي الَّذي يُحرِّم هذه الطيِّبات ويُحرِّم هذه الزينة؟ مَن له الحق في أن يحرِّم على النَّاس زينة الله؟ وانظروا إلى هذه الإضافة الكريمة: ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، أضافها الله تعالى إلى ذاته تشريفًا وتكريمًا، فهي زينة الله الَّتي أخرجها لعباده، هو أخرجها، كيف يُخرجها لهم ثمَّ يُحرمها عليهم؟ لا، إنّه يُحرِّم ما فيه مَضَرَّة، ويُحرم ما فيه سرف، وما فيه تجاوز، وما لا تصلح الحياة به.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، تسمية ملذات الدُّنْيا ونعمها ومتعها: «طيبات»، هذه التسمية نفسها فيها إغراء بالاستمتاع بها، إنَّها طيبات وليست خبائث، بل هي من حقّ المؤمنين وحدهم، وإنَّما يكون غيرهم معهم في الدُّنْيا تَبَع لهم، وفي الآخرة تكون

QaradawiBooks.com

خالصة لهم، لا يَشـرَكهم غيرهـم، حيث يكون الآخرون فـي النَّار وبئس القـرار، ﴿قُلْ هِيَ﴾ أي: الطيِّبـات ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعـراف: ٣٢]، هي للمؤمنين في الدُّنْيا قد يَشرَكهم غيرهم فيها، أمَّا في الآخرة فهي خالصة لهم، فكيف تُحرَّم عليهم إذن؟ الزينة الَّتي هي زينة الله، والطيِّبات الَّتي هي الحلال من المتع من شتَّى متع الدُّنْيا ونعيمها.

أصول المحرمات:

ثم جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ليبيّن المحرمات الَّتي حرَّمها الله على عباده أشـياء معدودة، فالحلال هو الأصل، وأمَّا الحرام فهو الاستثناء، هناك محرَّمات لا تختلف باختلاف الملَّة والدين، وهي أصول المحرَّمات، كما في هذه الآية؛ لأنَّه لا يُتصور أن يأتي دين يبيح الظلم، لا يُتصور أن يأتي دين يبيح للنَّاس أن يأكل بعضهم حقوق بعض، لا يُتصور أن يأتي دين يبيح الشرك بالله ﷻ، لا يُتصور هذا، ولذلك قالـوا: إنَّ الملل كلها جاءت بالكليَّات الخمس، وهي: المحافظة على الدين، وعلى النفس، وعلى العقل، وعلى المال، وعلى العِرض، فهذه كلها أمور محفوظة في كل دين.

ويقول المفسرون في الوصايا العشـر الَّتي وردت في سورة الأنعام كما جاء عن ابن عبَّاس: إنَّها في كل مِلَّة[1]. وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٣٢/٧).

QaradawiBooks.com

وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۞ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

هذه أمور الأديان كلها اتفقت عليها، الشرك بالله، عقوق الوالدين، قتل النفس، قتل الأولاد، الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، الاعتداء على اليتيم، على ماله أو على شخصه، تطفيف المكاييل والموازين، محاباة الأقارب، ظلم الأباعد، نقض العهود، هذه كلها أشياء محرَّمة في جميع الأديان.

وهناك محرَّمات يُحرِّمها دين ويحللها دين، كما حكى القرآن عن المسيح عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

هناك ـ مثلًا ـ محرَّمات حرَّمها إسرائيل «يعقوب» على نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وهناك أشياء حرَّمها الله على اليهود عقوبة لهم، كما قال عز وجل: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۞ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

فالأشياء الَّتي حُرِّمت على سبيل التأديب والعقوبة من الله عز وجل يأتي دين آخر يُحلُّها، ومن هنا كان من أوصاف النبي ﷺ، ومن عنوان رسالته في الكتب القديمة التوراة والإنجيل، ما ذكره الله سبحانه في سورة الأعراف:

QaradawiBooks.com

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كان الله قد حرَّم عليهم بعض الطيِّبات لسبب ما، أو وضع في أعناقهم أغلالًا عقوبة لهم على ما ارتكبوه من جرائم، فيأتي الدين الآخر يخفف ويزيل هذه الآصار، ويضع هذه الأغلال، فمثل هذا هو الَّذي تختلف فيه الأديان والرسالات، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

كذلك في العبادات، كان عندهم عبادات معينة، فيأتي الدين الآخر فيخفف بعض العبادات، أو يزيد فيها، أو شيء من هذا.

كذلك الأنظمة المتعلقة بالمواريث والمعاملات، والأشياء الَّتي من هذا النوع، تختلف من دين إلى دين، مثلًا في أيام آدم عليه السلام كان يُباح للأخ أن يتزوج أخته، وطبعًا كان هذا ضرورة، لأنَّه لو لم يتزوج الإنسان أخته كيف يتكاثر هذا النوع الَّذي يريد الله أن يعمر به الأرض؟!

لا سبيل إلى التكاثر ما دام الجميع من رجل واحد وامرأة واحدة، والجميع أبناء لأب واحد وأم واحدة، وبنات لأب واحد وأم واحدة، فلا بدَّ من إباحة الزواج بالأخت، فهذه اقتضاها الأمر زمن سيِّدنا آدم.

ثم بعد ذلك لما تكاثر النَّاس اقتضى الأمر تحريم هذا، فهذا من الأمر الَّذي يختلف باختلاف الأديان، حتَّى جاءت الديانة الخاتمة الخالدة، وهي ديانة مُحَمَّد ﷺ، الَّتي يتبع التحريم فيها الخبث والضرر، ويتبع الحل فيها الطيب، فالطيِّبات مباحة، والأشياء الضارة محرَّمة، وهذه هي رسالة الإسلام، وشريعة مُحَمَّد ﷺ.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثالث
تصحيح مفاهيم الجاهليَّة

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

جاء القرآن، وجاء الإسلام، وجاء مُحَمَّد ﷺ لينشئ حياة طاهرة، وينشئ مجتمعًا مثاليًّا نموذجيًّا مؤسسًا على البر والتَّقوى، على العدل والإحسان، على الإيمان بالله والإيمان بالإنسان، على القيم والأخلاق، ولهذا تتبع لوثات الجاهليَّة، وفساد الجاهليَّة، فسادها في العقائد، وفسادها في الأخلاق، وفسادها في الأنظمة ليقيم مكانها أنظمة صالحة، وأخلاقًا صالحة، وعقائد صالحة، يُؤَسِّسها على تصور سليم للإنسان فردًا ومجتمعًا، للكون المنظور والكون غير المنظور، للحياة، الحياة الأولى والحياة الآخرة، لله بارئ الكون وواهب الحياة وخالق الإنسان.

هذا القرآن الَّذي نستمتع بتلاوته والاستماع إليه يُنشئ هذه الحياة، يُنشئ هذا التصوُّر، يُنشئ هذه الجماعة النموذجيَّة، يُنشئ هذه الأُمَّة الَّتي لا نظير لها، الجاهليَّة أفسدت أفكار النَّاس ومفاهيمهم، وأفسدت آدابهم

نسخة مجانية

وتقاليدهم، وأفسدت أخلاقهم وقِيَمهم، وأفسدت أنظمتهم وقوانينهم، وجاء الإسلام ليضع مكان هذا كلَّه الصالح من هذه الأمور.

في الجاهليَّة كانوا يمشون عراة، ويطوفون بالبيت الحرام عراة، ويزعمون أنَّ الثياب الَّتي عصوا الله فيها لا ينبغي أن يطوفوا بها بيت الله فيطوفون بالبيت الحرام عراة رجالًا ونساء، يزعمون أن هذا يقربهم إلى الله زلفى، وقد حكى القرآن عنهم هذا فقال: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]، هل يأمر الله بالعُرْي؟! لقد جاء الله بالستر، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ [الأعراف: ٢٦]، الشيطان هو الَّذي يريد أن ينزع عن بني آدم لباسهم، يريد أن يكشف عوراتهم وسوآتهم، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فكما أنَّ الله لا يأمر بالفحشاء لا يحرِّم على النَّاس الطيِّبات الَّتي خلقها لهم.

وُجد في النَّاس من قديم في الأمم كلها شرقيَّة وغربيَّة دينيَّة وغير دينيَّة من يحرِّم على النَّاس الطيِّبات، من يعذب الجسم لترقى الروح، وجدنا أديانًا مثل البوذيَّة، ومثل البرهميَّة في الصين وفي الهند وغيرها، ومثل الفلاسفة الرواقيين في اليونان، ومثل الفلسفة المانوية في فارس، كل هؤلاء كانوا يعملون على أن يكونوا ضد الجسد، في زعمهم ليكونوا مع الروح لا بدَّ من مقاومة الجسد وأي تمتع للجسد بما خلق الله من طيبات.

كذلك الرهبانيَّة المسيحيَّة، المسيحيَّة ابتدعت الرهبانيَّة، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد: ٢٧]، كانت رهبانيَّة قاسية عاتية تُنفِّر من كل الطيِّبات، حتَّى إنَّهم كانوا يبتعدون عن ظلِّ المرأة، ليس المرأة فقط كشخص بل حتَّى ظلها، ولو كانت أُمَّه أو أخته، وكانوا كذلك

QaradawiBooks.com

يبتعدون عن النظافة، ويعتقــدون أنَّ النظافة تبعدهم عن الله، وأنَّ القذارة تقربهم من الله، حتَّى قال بعضهم: يرحم الله القِدِّيس فلانًا لقد عاش عُمرَه ولم يقترف إثم غَسْل الرِّجْلين. وقال آخر: لقد كان من قبلنا من القِدِّيسين والرهبان والقسس يعيش أحدهم طول عمره لا يَبُلُّ أطرافه بالماء، ولكنَّنا أصبحنا وأأسفاه في زمن يدخل النَّاس فيه الحمامات[1].

فسدت النَّاس وأصبحت تدخل الحمامات، وعدوى دخول الحمامات جاءتهم من المســلمين في الأندلــس، هم في أوربا تأثَّــروا بالأندلس، ما كانوا يعرفون الحمامات، كان في قرطبة ســتمائة حمام عمومي، من يزور منكم اليمن ويزور صنعاء القديمــة الَّتي جعلوها الآن محميَّة يجد في كلِّ حارة حمام عامٌّ، غير الحمامات الشخصيَّة والمنزليَّة.

الجاهليَّة أفســدت الحياة على النَّاس، حرَّمت عليهم الطيِّبات، فجاء الإســلام يُصحح هذه المفاهيم، ويُصحح هذه الأوضاع، ويقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعــراف: ٣١]، النداء لبنــي آدم معناه نداء للبشــر كلهم، لأن آدم هو أبو البشــريَّة، كأنَّــه يقول: «يا أيُّهــا الناس»، و«يا أيُّها الناس»، مثل «يا عبادي»، كلها نداء لهذا النوع من الخليقة.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعــراف: ٣١]، حتَّى العبادة الَّتي يظن النَّاس أنَّها محل التقشــف والبعد عن التجمــل والتزين، فيقول الله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، تزيَّنوا وتجمَّلوا عندما تذهبون إلى المساجد، وأقل شيء ستر العورة، يعتبر فريضة في كل المذاهب، لا يجوز أن تذهب وأنت عارٍ كما كان الجاهليُّون يفعلون حتَّى في بيت الله الحرام.

(١) ماذا خســر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحســن الندوي صـ ١٥١، نشر مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر.

QaradawiBooks.com

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، تجمَّلوا فإنَّ الله جميل يحبُّ الجمال، كان الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما حينما يذهب إلى المسجد يتجمَّل ويتزيَّن ويُرَجِّل شعره ويُهَذِّب لحيته ويتطيَّب، فقيل له: ماذا تفعل؟ قال: أتزيَّن لربِّي، ألا تتزيَّنون حينما تلقون أمراءكم؟ فأنا أتزيَّن لربِّي. قالوا له: من أين لك هذا؟ قال: من قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١][(١)].

فالزينة مطلوبة من المسلم، المسلم مطلوب منه أن يتجمَّل وأن يتزيَّن، كما قال أحد الصحابة للنبيِّ ﷺ عندما سمعه يقول: «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر**» قال: يا رسولَ الله، إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال، الكبر بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»[(٢)].

الله جميل يحب الجمال في كل شيء، الكبر ليس هذا، الكبر أن ترد الحق، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، إذا نصحه أحد نصيحة يستكبر أن يستمع له، وغمط النَّاس معناه احتقار النَّاس، دائمًا يظن أنَّه أحسن من غيره، والنبي ﷺ يقول: «**بحَسْبِ امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم**»[(٣)].

﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ تزيَّنوا وتجمَّلوا واستمتعوا بالطيِّبات ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ [الأعراف: ٣١]، كل واشرب ممَّا خلق الله من طيِّبات هذه الدُّنيا، لماذا خلق الله الطيِّبات أخلقها ليحرمها عليك؟ ما كان ليخلقها إذا

(١) سبق تخريجه صـ٨٣١.

(٢) سبق تخريجه صـ٧٤٤.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

كان سيحرِّمها، هو يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، خلق لكم لتستمتعوا وتنتفعوا بها، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

لماذا ذكر القرآن الأشياء الطيبة وامتنَّ بها علينا؟ ذكر القرآن الفاكهة، قال الله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ مواد سكريَّة ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] كالمُرَبَّيَات والعصائر وهذه الأشياء.

امتنّ الله تعالى بأن خلق لنا الأنعام نأكل من لحومها: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، ونشرب من ألبانها: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وامتنَّ الله علينا بالعسل، عسل النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

وامتنَّ بالسمك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]، كل هذه الأشياء ذكرها القرآن، ما معنى ذلك؟ معناها أنَّ الله خلقها لنستمتع بها، فلنأكل ولنشرب ولنشكر ولنقل: الحمد لله. ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]، «**إنَّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلةَ فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»[1].

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤)، وأحمد (١١٩٧٤)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

ذكر الإمام ابن الجوزي عن أحد الصوفيَّة أنَّه امتنع من أكل نوع من الحلوى، وقال: لأنِّي لا أقوم بشكره. فَقَالَ الْحَسَن البصري: هَذَا رجل أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد[1]. إنَّ كلَّ شيء من عند الله نعمة عظيمة، فكلوا واشربوا لكن بشرط ألَّا تعتدوا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، معنى الاعتداء هنا: أنَّك تترك الحلال وتأكل الحرام، تأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو تشرب الحرام، تشرب الخمر أو تتناول المخدرات والمسكرات والدخان وهذه المضرات، كل ما يضر بالإنسان فتناوله حرام، لأنَّك تقتل نفسك والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩]، هناك قتل سريع وهناك قتل بطيء، من ينتحر انتحارًا بطيئًا، مثل الَّذي يشرب الدخان هذا إنسان يقتل نفسه لكن بالتدريج، يقتل نفسه قتلًا بطيئًا، كل هذه محرمات، لا تأكل الحرام.

والحرام أيضًا أن يكون الشيء من حق غيرك حتَّى ولو كان هو حلالًا في ذاته، ستأكل لحمًا أو فاكهة مثلًا فهي حلال في ذاتها ولكنَّها إذا كانت ليست ملكًا لك وكانت ملكًا للغير فهذا نوع من الاعتداء، ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، قف عند الحلال، ولكن حتَّى الحلال ليس مباحًا لك بإطلاق، ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، لا تسرف، قف عند حدود الاعتدال.

الإسراف محظور في كل شيء حتَّى في العبادة، لو أسرفت في العبادة يقول لك: قف، «**إنَّ لجسدَك عليك حقًّا، وإنَّ لعَيْنَك عليك حقًّا،**

(١) تلبيس إبليس صـ ١٣٦، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

وإنَّ لزوجَك عليك حقًّا، وإن لزَوْرِك عليك حقًّا»[١]، حتَّى العبادات، فما بالك بالمباحات؟ لا بـدَّ أن تقف في المباحات عنـد حدود الاعتدال ولا تُسرف في المقدار، أمَّا لو كان حرامًا فلا يجوز ولو كان درهمًا واحدًا أو لقمة واحدة، ولذلك هذا يسمى التبذير، التبذير إنفاق المال في الحرام ولو كان درهمًا واحدًا، إنَّما الإسراف هو التعدي والتجاوز في الحلال.

ضبط الاستهلاك:

الإسلام يضبط استهلاك الإنسـان، الاقتصاديون يُسَمُّون هذه حالات الاستهلاك. هناك إنتاج، وهناك استهلاك، يقول الاقتصاديون دائمًا: نريد ترشيد الاستهلاك. كيف نرشِّد الاستهلاك؟ الإسلام هو أعظم من يُرشِّد الاستهلاك، لا تسرف، لا تأكل نصف الشيء ثمَّ ترمي الباقي في صندوق القمامة كمـا يفعل كثير مـن النَّاس، هنـاك ناس يبحثون عـن اللقمة فلا يجدونها، هناك ناس تبحث في براميل وصناديق القمامة لعلَّها تجد لقمة تسدُّ بها رمقها، وأنت تأكل نصف الطبق وترمي الباقي! هذا إسراف لا يجوز، يقول أنس ﷺ: كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاما لعق أصابعه الثلاث، وقال: «**إذا سـقطت لقمة أحدكم فليُمِطْ عنهـا الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان**»، وأمرنا أن نَسْلُتَ القصعة، قال: «**فإنَّكم لا تدرون في أيِّ طعامكم البركة**»[٢].

لقمة سـقطت لا تقل: نرميها، لا، خذها، امسحها وكلها، ولا تتركها للشيطان، الشـيء الَّذي يمكن الانتفاع به إذا تركته دون أن تنتفع به فقد تركته للشـيطان، انظروا، حتَّى اللقمة؟ ما قيمة اللقمة؟ اللقمة مهمة، إذا

---

(١) سبق تخريجه صـ٦٣٨.

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٤)، وأحمد (١٢٨١٥).

QaradawiBooks.com

كان الإسلام يُشرع لألف وخمسمائة مليون مسلم فانظر كيف يكون الحال عندما ترمى ألف وخمسمائة مليون لقمة في كل وجبة في القمامة، وقد يتكرر ذلك في ثلاث وجبات، فكم لقمة تُرمى في اليوم الواحد؟ أربعة آلاف وخمسمائة مليون لقمة، فإذا كان نصف طبق فكم يكون؟ هذا إسراف، الإسلام يعلمك كيف تُرشِّد الاستهلاك.

الاعتدال في الطعام والشراب:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، الاعتدال مطلوب، الاقتصاد مطلوب، «**ما عال من اقتصد**»[(١)]، لن يفتقر مقتصد، النَّاس وهي تشرب الماء تشرب شيئًا من الكوب وترمي الباقي، أو يشرب من الزجاجة شيئًا ثمَّ يتركها فتُرمى ولا يستفاد منها، بعض الإخوة هنا في بعض الأحيان يأتي لي بزجاجة ماء أشرب منها قليلًا وأتركها بجانبي، وعندما أريد أن اشرب مرَّة أخرى يأتي لي بزجاجة أخرى جديدة، لماذا يا أخي تركت الأولى ولن يستفيد منها أحد؟ دعني أشرب من زجاجة واحدة، لا أحد يبالي، يجب أن يكون عند الإنسان المسلم إحساس تجاه هذه الأمور، كل شيء له قيمة.

لا تفتح الحنفيَّة ثمَّ تدع الماء يسقط منها بدون فائدة وأنت تستطيع أن تتوضأ في دقيقتين، هناك من يتوضأ في عشر دقائق أو ربع ساعة والماء نازل والعالم في حاجة إلى قطرة الماء، يقولون: الحروب القادمة ستكون من أجل الماء؛ لأن الماء محدود في الأرض والحاجة إليه كثيرة،

(١) رواه أحمد (٤٢٦٩)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني في الكبير (١٠/١٠٨)، والأوسط (٥٠٩٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٤٨): رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، وفي أسانيدهم إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف. عن عبد الله بن مسعود.

QaradawiBooks.com

ولكن النَّاس لا تبالي، تفتح الحنفيَّة وتدعها مفتوحة، لا، أنا والله عندما أريد الوضوء أغسل وجهي وأغلق الحنفيَّة حتَّى أشمر عن ساعدي ثمَّ أفتحها مرَّة أخرى، وهكذا أفتحها وأغلقها عدَّة مرات؛ الماء ليس شيئًا مجانيًّا كما تظنُّ.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، نحن في حاجة أن نعلّم الأُمَّة خلق الاعتدال والاقتصاد، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، إيَّاك والإسراف، فإنَّ الله لا يحبُّ المسرفين، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، الله لا يحبُّ المسرفين، كما لا يحبُّ المفسدين، كما لا يحبُّ الظالمين، كما لا يحبُّ الكافرين، لا تكن من هؤلاء الَّذين لا يحبُّهم الله، اعتدلْ في أكلك، في شربك، في إنفاقك، في كلِّ حياتك.

﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، من يملك حقَّ التحريم؟ الَّذي يملك حق التحريم والتحليل المطلق هو الله ﷻ، هو الخالق وهو المالك فمن حقِّه أن يُحَلِّل وأن يُحَرِّم، الخلق خلقه والملك ملكه والعباد عباده فمن أولى منه بالتحريم والتحليل؟ أمَّا أن يأتي بشر ويحرِّم على النَّاس لا يجوز، ولا يملك أن يحرِّم حتَّى ولو على نفسه.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وانظر إلى هذا التعبير، أضاف الزينة إلى الله، والإضافة إلى الله تحمل معنى التشريف والتكريم والتعظيم، كل شيء لله ﷻ، ولكن إذا قلت: «بيت الله» معنى هذا أنَّك شرفت هذا البيت وكرمته لأنَّك نسبته إلى أعظم من يُنسب إليه شيء،

QaradawiBooks.com

تقول: «ناقة الله» مثل ناقة صالح، كل النوق لله، وكل شيء لله، إنَّما هذه إضافة تشريف وتكريم، فإذا قال: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، معنى هذا أنَّ هذه الزينة لها قيمتها، لماذا تحرِّمها؟ الله هو الَّذي خلقها وأحلها لعباده، فلماذا تأتي أيُّها المخلوق الضعيف وتتطاول على ما ليس لك وتحرِّم هذا على عباد الله؟!

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، هو الَّذي أخرج هذه الزينة لعباده ليستمتعوا بها، مصادر الزينة في الكون الله هو الَّذي خلقها، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]، الله يمتنَّ علينا بهذه الأشياء، الله هو الَّذي خلق اللؤلؤ والمرجان والَّذي خلق الذهب والفضة، والَّذي خلق الأحجار الكريمة العقيق والماس وغيرها، هذه الأشياء من نعم الله لماذا تحرِّمونها؟!

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، الله خلق الطيِّبات ليبيحها للعباد ليشكروه عليها، ليعرفوا حقه عليهم، ليعرفوا مدى فضله وإحسانه إليهم، فيتقربوا إليه بالعبادة.

وكان من خصائص رسالة مُحَمَّد ﷺ كما ذُكِرت في كتب الأقدمين في التوراة والإنجيل أنَّه جاء يُحلُّ الطيِّبات ويُحرِّم الخبائث، في أيام بني إسرائيل حُرِّمت عليهم طيبات أُحلَّت لهم، حرمها الله عليهم عقوبة لهم، ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]، من أجل هذا كله حرَّمنا عليهم طيبات أُحلَّت لهم، فلمَّا جاء مُحَمَّد ﷺ أراد أن يرد الأمور

QaradawiBooks.com

إلى أصولها، هذه الأشياء الَّتي جاءت استثناء عقوبة لهؤلاء القوم جاء الإسلام ليرفعها، ولذلك كان من أوصافه ﷺ عند أهل التوراة والإنجيل أنَّه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ما عرفته الفطر السليمة والعقول الرشيدة ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ما أنكرته الفطر والعقول وجاء الشرع ليؤكده ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

حِلّ الطيِّبات:

كلُّ طيِّب أحلَّه الإسلام، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، طيِّبات المأكل، طيِّبات المشرب، طيِّبات الملبس، طيِّبات المسكن، طيِّبات الحياة الزوجيَّة، المسكن الواسع من الطيِّبات النبي ﷺ يقول: «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء**»[(١)]. النَّاس عبَّروا عن هذه الطيِّبات بقولهم: الدابَّة السريعة، والمرأة المطيعة، والدار الوسيعة.

فهذه كلُّها من الطيِّبات، الَّتي أحلَّها الله ﷻ ولم يحرم شيئًا منها، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، «**اللهمَّ اغفر لي ذنبي، ووسع لي في داري، وبارك لي في رزقي**»[(٢)]. البركة في الرزق، «**الدنيا متاع، وخير متاع الدُّنْيا المرأة الصالحة**»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه صـ٥٥٢.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٩٨٢٨)، وحسَّنه مخرجو المسند في هامش حديث (١٦٥٩٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٥)، وضعفه في غاية المرام (١١٢)، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) سبق تخريجه صـ٧٣٨.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لم ينظر الإسلام إلى الاستمتاع الجنسي على أنَّه شيء قذر أو شيء غير محبوب في الدين، لا، ما دام في حلال فهو حلال، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، كل متعة طيبة أباحها الله ﷻ.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، كلُّ ما فيه خبث، كلُّ ما يلحق بالإنسان من أجله ضررٌ على نفسه، على نسله، على عقله، على ماله، على عِرْضه، على الحياة من حوله يُحرِّمه الإسلام، لا يُحرِّم على النَّاس طيبًا ولا يحل لهم خبيثًا.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، كانت هناك تكاليف شاقة على من كان قبلنا، فرحم الله هذه الأمة بأن رفع هذه الآصار وهذه الأغلال، وعلَّمنا أن نقول في أدعيتنا في خواتيم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، الآصار والتكاليف الشديدة الَّتي كانت على من قبلنا أعفنا منها يا رب، ارحمنا منها، وجاء في الحديث الصحيح أنَّ الله تبارك وتعالى قال: «**قد فعلتُ**»[(١)]. يعني أجاب أدعية المؤمنين في خواتيم سورة البقرة.

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٢٦)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

فالله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأعراف: ٣٢]، لا يستطيع أحد أن يحرِّمها على عباد الله إلَّا الله والله أحلَّها لهم فقال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢]، الطيِّبات هذه حلال للذين آمنوا في الحياة الدُّنْيا يَشرَكهم فيها غيرهم، هذه الطيِّبات الَّتي يشترك غير المؤمنين مع المؤمنين فيها في الدُّنْيا خالصة للمؤمنين في يوم القيامة، لأنَّهم هم وحدهم الَّذين يستمتعون بالطيِّبات في ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، هذه هي آيات الله يفصلها لقوم يعلمون، لكي نعلم الحلال من الحرام، والمقبول من المرفوض عند الله ﷻ، ونهتدي بصراطه المستقيم، ونقف عند حدوده، ومن سعادة جَدِّك وقوفك عند حدك.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، ويجعلنا من ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، وصلى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الرابع
قصَّة شُعَيْب عليه السلام

حديثنا اليوم عن قصَّة مَدْيَنَ ونبيِّها سيِّدنا شُعَيْب عليه السلام في القرآن الكريم، نحن نقرأ قصَّة مدين وشعيب في سورة الأعراف، وفي سورة هود، وفي سور أخرى، وسيدنا شُعَيْب أرسل إلى قومين، أو إلى بلدين: إلى مَدْيَن، وإلى الأَيْكة.

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، كل الأنبياء يقول: أخوهم نوح، أخوهم هود، أخوهم صالح، أخوهم لوط، إنَّما هنا قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ولم يقل أخوهم شعيب؛ لأنَّه لم يكن من أصحاب الأيكة، إنَّما كان من أهل مَدْيَن، ولذلك عندما ذكر مَدْيَنَ قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

وأنا قلتُ من قديم من خمسين سنة تقريبًا: إنَّ الأخوّة ليست دينيّة فقط، أخوة قوميَّة، أخوة وطنيَّة، أخ عربي، وأخ مصري، وأخ فلسطيني، أو أخ قطري، إذا كان أخاك في وطن أو في قوم ولم يكن أخًا لك في الدِّين.

ومن هنا قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟

QaradawiBooks.com

فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۞ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۞ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۞ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۞ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٨٩].

أوَّل ما قال سيِّدنا شُعَيْب لقومه قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾، وهو أوَّل نداء ينادي به الرسول قومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾، التوحيد، كل الأنبياء جاؤوا بالتوحيد، هذه الكلمة تكررت من عدد من الأنبياء، ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾، توحيد العبادة، ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: الله أرسلني إليكم وأعطاني من البيّنات والأدلَّة ما يدل على أنِّي صادق، النبي يأتي يقول: أنا مبعوث من الله. أين أوراق اعتمادك؟ مَنْ يأتي إلى دولة ويقول: أنا سفير من دولة كذا إلى هذا البلد. يقال له: ما الَّذي يدل على أنَّك سفير؟ لا بدَّ من أوراق اعتماد تقدّم، الرسول الَّذي يقول: أنا مبعوثٌ من الله، سفير العناية الإلٰهيَّة، لا بدَّ أن يكون معه بينة، إمَّا معجزة، أو أشياء ظاهرة تثبت للنَّاس أن هذا لا شكَّ في صدقه، وسيدنا شُعَيْب كان معه هذه البيّنة.

QaradawiBooks.com

﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، سيِّدنا شُعَيْب يسمونه: «خطيب الأنبياء»، لأن له في القرآن كلمات قوية، وبليغة في نصيحة قومه، بحيث اعتبروه خطيب الأنبياء، لا يوجد نبي تحدَّث مع قومه حديثًا مفصَّلًا ومقنعًا وبليغًا مثل حديث سيِّدنا شعيب، وهو نبيٌّ من العرب.

الأنبياء العرب:

قالوا: إنَّ الأنبياء العرب أربعة، وهم: هُود وصالح وشُعَيب ومحمَّد عليهم الصلاة والسلام، سيِّدنا هود وصالح من العرب البائدة، فإنَّ العرب ثلاثة أنواع: عرب بائدة، وهم عاد وثمود، ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١]، هؤلاء عرب بادوا وانتهوا، ثمَّ العرب العاربة من بني يعرب بن قحطان من اليمن، ثمَّ العرب المستعربة، وهم الَّذين جاؤوا عن طريق سيِّدنا إسماعيل، تزوَّج بعربيَّة وأولاده تعرَّبوا، وأصبحوا عربًا، واستمرَّ التعريب والاستعراب.

فسيدنا شُعَيْب كان من العرب العرباء هؤلاء، وسمّي سيِّدنا شُعَيْب أيضًا في عصرنا: «رسول الاقتصاد»، في رسالة سيِّدنا شُعَيْب لقومه وجدوا أنَّ الرسالة تمتاز بمهارات اقتصاديَّة، اهتم بالجانب الاقتصادي، فقل لهم: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، لا تطفّفوا، ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣]، يعملون كيلًا للبيع، وكيلًا للشراء، وفي الشراء يزيد، وفي البيع ينقص، لا، ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣]، وهنا قال أوَّل شيء: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، كان

QaradawiBooks.com

قوم شُعَيْب أهل مدين يبخسون النَّاس أشياءهم، الحاجة الَّتي يريدون بيعها يغلون أسعارها إذا كانوا هم البائعين، والحاجة الَّتي يريدون شراءها يحاولون جاهدين أن ينزلوا أثمانها وقيمتها، وهذا لا يجوز، الأشياء يجب أن تعطى قيمتها الحقيقيَّة، لا تزيد ولا تنقص، مجرد اختلاف النَّاس في النظر هذا ممكن، إنَّما الاختلاف المجنون هذا في الأسعار بأنَّه يعلو فوق جدًّا وينزل تحت جدًّا فهذا لا يجوز.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، في الآية الأخرى في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣]، الاقتصاد يأتي بإصلاح الأرض، الله أمرنا أن نصلح الأرض، ولا نفسد فيها بعد إصلاحها، الله أصلحها أي: جعلها صالحة للزراعة وللصناعة وللسقيا ولتهيئة الأمور، فلا تأتي أنت فتفسدها، لا يجوز هذا، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، إذا كان الإنسان من أهل الإيمان لا يجوز أن يعمل على إفساد الأرض أبدًا.

تحذير شُعَيْب قومه من أخذ المال بالقهر والصد عن سبيل الله:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾: تُخوّفون النَّاس بأخذ حوائجهم، وأخذ المَكْس منهم، فقد كانوا قُطَّاع طُرقٍ وَمكَّاسين أيضًا، أو: لا تقفوا للنَّاس في طريق الحق، في طريق الخير، في طريق الإصلاح، لتفسدوا هذا الصراط، أي: تمنعوا النَّاس أن يسلكوا هذا الطريق وتدعوهم إلى الطريق الآخر، ليس هذا من شأن الإصلاح أبدًا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: طريقه الواضح ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بتوعُّدكم إياه بالقتل، أي: وتصرفون عن دين الله مَنْ آمن باللهِ، أي: تحاولون كفره بعد إيمانه.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتطلبون الطريق المُعْوَجَّة بالشرك والطغيان، ولا تريدون الصِّراط المستقيم.

تذكير شُعَيْب قومه بنعمة الله عليهم بتكثيرهم بعد أن كانوا قلة:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، من نعمة الله أن ينمِّي الجماعة، عندما تكون جماعة مباركة يزداد عددها، والجماعة الَّتي لا بركة فيها يُنقِص عددَها، الآن مشكلة الأوربيين والغربيين بصفة عامَّة أنَّهم ينقصون، كلُّ سنة ينقصون عمَّا قبلها، والمسلمون في هذه البلاد يزدادون، المسلمون شعب مبارك في نسله، النبيُّ ﷺ يقول: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فإنِّي مكاثرٌ بكم الأنبياء يوم القيامة**»[1].

فالأُمَّة الإسلاميَّة تكثر، والشعوب الإسلاميَّة في أوربا وهذه البلاد يزداد عددها، وهؤلاء ينقص عددهم، فالله تعالى يقول: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، الشاعر العربي عمرو بن كُلْثوم يقول في معلقته الشهيرة[2]:

مَلَأْنَا البَرَّ حتَّى ضاق عنَّا ونحن البَحْرُ نملؤه سَفِينَا

فالشاعر يفاخر بالكثرة، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

---

(١) رواه أحمد (١٢٦١٣)، وقال مُخَرِّجوه: صحيح لغيره. وسعيد بن منصور في الوصايا (٤٩٠)، وصحَّحه ابن حجر في فتح الباري (١١١/٩)، عن أنس.

(٢) انظر: ديوانه صـ ٩١، تحقيق إيميل بديع يعقوب، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

QaradawiBooks.com

﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، انظروا إلى الأمم حولكم، وإلى الأمم من قبلكم، الَّذين كذَّبوا الرسل وأفسدوا في الأرض ماذا كانت عاقبتهم، الله تعالى أنزل عليهم عقوبات أهلكتهم، ولم تبق منهم باقية، قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ولذلك سيِّدنا شُعَيْب قال لهم كما في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٩].

تهديد قوم شُعَيْب شعيبًا والمؤمنين معه ورده عليهم:

لمَّا سمع قوم سيِّدنا شُعَيْب هذا الكلام رد عليه الملأ منهم: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾، الملأ هم الكبراء من القوم، الَّذين يملؤون العيون مهابة، والملأ هم دائمًا ضد الأنبياء، في قصَّة سيِّدنا نوح: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وفي قصَّة هود مع قومه عاد: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وفي قصَّة سيِّدنا موسى مع فرعون: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

وكذلك هنا في قصَّة سيِّدنا شعيب: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، هذا شأن الملأ دائمًا، الملأ الَّذين استكبروا بأموالهم، استكبروا بأولادهم، استكبروا بأتباعهم وأشياعهم، هؤلاء المستكبرون قالوا لسيدنا شعيب: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، بعد أن جاء شُعَيْب بهذه التعليمات الصالحة، والأخبار الطيبة الَّتي تُجدد الحياة وتقيم العدل، وترفع راية الحق بين النَّاس، قالوا له: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، وقالوا له في الآيات

QaradawiBooks.com

الأخرى في سورة هود: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، ما الَّذي يضيرهم من هذا؟!

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، خيّروه بين أمرين أحلاهما مر، كما يقال، إمَّا أن تخرج من بلدتنا، أو تعود إلى ملتنا، ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، أبعد أن نجّانا الله من هذا الضلال، وهذا الكفر، وهذا الضياع، من عبادة أصنام أحيانًا نصنعها بأيدينا، أبعد هذا نعود في ملتكم؟! لا يمكن، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، لا أحد يقدر أن يُعيدنا إلى ما كنا فيه إلَّا أن يشاء الله شيئًا، الله سبحانه هو الوحيد الَّذي يقدر أن يعيدنا، أمَّا نحن فلا يمكن أن نعود إلى ملتكم، الإنسان بعد أن يعرف الإيمان بعد الكفر، يعرف نور الهدى بعد ظلمات الضلال، يعرف التوحيد بعد الشرك، كيف يعود إلى ما كان فيه؟! أنا لا أعبد إلَّا الله الَّذي خلقني، كيف أعود مرَّة أخرى لأسجد لحجر، أو أسجد لبقرة؟!

تعرفون أنَّهم في الهند يسجدون للبقرة، لماذا البقرة دون الثور؟! وإذا كان ذلك لما فيها من لبن فالجاموسة أكثر لبنًا وأكثر نفعًا منها، لا منطق لهؤلاء، فسيدنا شُعَيْب قال لقومه: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾، هكذا قال سيِّدنا شعيب، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾، كل شيء يعلمه الله ﷻ، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سرّ ولا علانية،

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾، من توكل على الله كفاه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٤٩]، فلا يخاف من أحد أبدًا.

﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾، الله يفتح بين النَّاس، لا يترك الله الأمر مطلقًا، بل لا بدَّ أن يقضي فيه، الفتح بيان مَن معه الحق ومَن معه الباطل، مَن يستحق النصر ومَن يستحق الهزيمة، ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾، الله خير الفاتحين لأنَّه لا يفتح إلَّا بالحق، لا يحكم ضد مظلوم، حكمه دائمًا بالحق، وهو خير الحاكمين كما قال سيِّدنا شعيب: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، فالله تعالى هو خير الحاكمين، وهو خير الفاتحين، وهو الفتاح العليم، ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾، كان الكفَّار من قوم شُعَيْب يحذِّرون المؤمنين من اتِّباع شعيب، ما الَّذي تكسبونه من ورائه؟ شُعَيْب هذا لا مال معه، لا يعطيكم أموالًا، ولا يستطيع أن يغنيكم، ولا يستطيع أن يعطيكم شيئًا ذا قيمة، فعلام تتبعونه؟! إذا اتبعتموه أنتم خاسرون.

إهلاك الله قوم شُعَيْب بالرجفة:

فرد الله عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أهلكهم الله، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، الرجفة هي الزلزلة الشديدة، أهل

QaradawiBooks.com

مدين أهلكتهم الزلزلة، وأصحاب الأيكة أخذتهم الظلَّة، كما قال الله في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، أهلك الله أهل مدين بالرجفة بالزلزلة، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، صرعوا وانتهت هذه الحياة.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ۞ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أنا عملت ما يجب عليَّ نحوكم، أنني أبلغتكم رسالات ربي، الرسول المرسل من الله ﷻ ليس عليه إلَّا أن يبلغ رسالات ربه للناس، لا يفرط فيها، لا يخفي كلمة، لا يكتم شيئًا، ليس عند الرسل شيء يُكتَم، لا يكتم شيئا أبدا، ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، وكل الرسل جاؤوا بالنصيحة لقومهم، كما قال النبي ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[1]، كما نصح سيِّدنا نوح لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وكما نصح سيِّدنا هود لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، كلهم نصحوا لله تعالى ولقومهم، معنى نصحوا أي: أخلصوا لهم القول، لم يخفوا عنهم أي حقيقة، بيَّنوا لهم تمام البيان، أقاموا عليهم الحجَّة، هذا شأن الأنبياء، كل الأنبياء.

﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، سيِّدنا صالح قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وسيدنا شُعَيْب

(١) سبق تخريجه صـ٧٧٠.

QaradawiBooks.com

قال: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، هو حزين طبعًا، ولكن لمَ يحزن؟ هؤلاء قوم كافرون، جحدوا بالحق الواضح الَّذي تبيَّنت كل ملامحه وظهرت أضواؤه ساطعة للناس، لم يخف عليهم شيء، فلماذا يحزن عليهم؟! الإنسان يحزن على من عنده عقل يفكر، من عنده رشد يتبيَّن، من عنده ضمير حيّ، أمَّا الَّذين يسمعون نصائح الأنبياء وكلمات الأنبياء ولا يعطونهم أذنًا تصغي إليهم، ولا عقلًا يفكر فيما قالوه، ولا ضميرًا يخشع لهذه الحقائق، هؤلاء لا يستحقون أن يحزن الإنسان عليهم، ولذلك قال سيِّدنا شعيب: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، هو قال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ولذلك كثيرًا ما نستعمل كلمة سيِّدنا شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ما جاء به شُعَيْب من إصلاح اقتصادي هو أساس الإصلاح، وليس قولهم: ﴿نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧]، فهذه نظريَّة الرأسماليَّة العمياء، الَّتي ترى أن كل واحد حر في ماله، كما قال قارون حينما قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧]، هذه نصيحة المؤمنين لكل من عنده مال وعنده ثروة، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، هذا مالي أتيتُ به بشطارتي ومهارتي، ليس لأحد حقّ فيه، مع أنَّ المال مال الله ﷻ، هو الَّذي يسهله للإنسان، هو الَّذي يخلقه، من الَّذي يُنبت النبات؟ أنت تضع البذرة في الأرض، فمن يحوِّل هذه البذرة إلى نبْتة تورق ثمَّ تصبح بعد ذلك شجرة ذات أغصان، ثمَّ تثمر؟ الله هو

QaradawiBooks.com

الَّذي فعل هذا كله، ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

فإذا كان قوم شُعَيْب ظنوا أنَّ المال مالهم وهم أحرار في التصرف فيه فهم مخطئون، لأنَّهم موكَّلون من الله، الله هو صاحب هذا المال، وهو خالق هذا المال، وهو الَّذي وكَّلهم وفوَّضهم، أو بالتعبير القرآني استخلفهم، ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧].

ولذلك النتيجة أن انتهى قوم شعيب، ولم يبق إلَّا المؤمنون منهم، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١، ٩٢]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

نسخة مجانية
غير مرخصة للبيع

غير مرخصة للطباعة

الدرس الخامس
سعة رحمة الله وعموم رسالة النبي ﷺ ووجوب متابعته

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨].

سعة رحمة الله ﷻ:

بعد أن تحدَّث القرآن عن أحداث موسى مع بني إسرائيل عن الحدث الخطير الَّذي ارتكبه بنو إسرائيل في غيبة موسى، وذلك أن اتخذوا عجلًا ليعبدوه، فغضب موسى وألقى الألواح، ثمَّ اتخذ من قومه سبعين رجلًا إلى الطور، وهناك أخذتهم الرجفة فأهلكتهم، فأحياهم الله بعد دعاء موسى، وفي هذه الآية يتحدث القرآن عن دعائه:

QaradawiBooks.com

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فقال الله تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

عذاب الله ينزل بالذين يفسقون عن أمره، ويخرجون عن طاعته، ويتجبَّرون على عباده، وهم الَّذين يفسقون عن أمر الله، كما أصيب هؤلاء الَّذين أصيبوا من قوم موسى، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ورحمة الله وسعت كل شيء، سبقت رحمتُه غضبَه، سأكتبها للذين يخشون الله ويتقونه، ويخافون عذابه ويرجون رحمته، يمتثلون ما أمرهم الله به، ويجتنبون ما نهاهم عنه، والَّذين يصدقون بآيات الله وبراهينه، ويؤمنون بما أنزل الله من كتاب، وما أرسل من رُسل، فلا يفرقون بين الرسل بعضهم وبعض، الإسلام يؤمن بجميع الرسل، لا يفرق بين أحد منهم، مصدرهم واحد، وآمرهم وناهيهم واحد، ومرسلهم واحد.

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾، رحمة الله في الدُّنْيا تشمل المؤمنين والكافرين، رحمته وعلمه عمَّت خلقه كله، كما قال الَّذين يحملون العرش ومن حوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، رحمته وسعت المؤمن والكافر، والصالح والطالح، وذلك لهوان الدُّنْيا عند الله، لو كانت الدُّنْيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء، ولكن الله اختص بها في الآخرة لمن يؤمنوا به، ويرجون لقاءه؛ فهم أحوج النَّاس إليها في هذا اليوم.

QaradawiBooks.com

﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، العذاب مخصص لأهله، أمَّا الرحمة فهي تسع كل شيء، كما يسع رزقه تعالى كل حي، من مؤمن أو كافر، ومن رحمته أنَّه لا يعاجل المشركين ولا العصاة بنقمته، بل يسع الجميع برحمته، ويدع لهم فرصة بعد أخرى لعلهم يتوبون.

ومن رحمته تعالى: أنَّه أمر الملائكة أن يستغفروا لبني آدم وهم يسبحون الله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].

فبنو آدم في أرضهم ينتفعون بهذه الدعوات من الملائكة في سماواتهم، وفي كل مكان كانوا، وذلك جزاء إيمانهم، ولكنَّهم ينالون هذه الفائدة باستمرار.

عموم رسالة النبي ﷺ ووجوب متابعته:

ثم خاطب الله رسوله محمدًا ﷺ، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

QaradawiBooks.com

الإسلام رسالة لكل الأزمنة والأجيال، ليست رسالة موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص، ينتهي أثرها بانتهائه، كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على مُحَمَّد ﷺ فقد كان كل نبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة، حتَّى إذا ما انقضت بعث الله نبيًّا آخر.

محمد ﷺ صاحب أعظم رسالة بعث الله بها نبيًّا، وصف الإمام الشهيد حسن البنا هذه الرسالة بكلمات أُعْجَب بها، يقول: إنَّها الرسالة الَّتي امتدَّت طولًا حتَّى شملت آباد الزمن، وامتدَّت عرضًا حتَّى انتظمت آفاق الأمم، وامتدَّت عمقًا حتَّى استوعبت شؤون الدُّنْيا والآخرة[1].

امتدَّت طولًا حتَّى شملت آباد الزمن، فهي رسالة الزمن كله، ورسالة العالم كله، هي رسالة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، كل الأنبياء جاؤوا بالإسلام، كلهم قالوا: نحن مسلمون.

وامتدَّت عرضًا حتَّى انتظمت آفاق الأمم، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]، كل النَّاس في كل العالم في كل الأزمنة جاءه مُحَمَّد ﷺ بهذه الرسالة؛ فهي رسالة عالميَّة.

إنَّها رسالة الخلود الَّتي قدَّر الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة، ويطوى بساط هذا العالم، فهي تتضمن هداية الله الأخيرة للبشريَّة، فليس بعد الإسلام شريعة، وليس بعد القرآن كتاب، وليس بعد مُحَمَّد ﷺ نبي.

(١) مقال: من وحي حراء للإمام حسن البنا، جريدة الإخوان المسلمون اليومية، السنة الأولى، العدد (١٦٨)، صـ ١، بتاريخ ٢٧ ذو الحجة ١٣٦٥هـ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٤٦م.

QaradawiBooks.com

ولم يسبق لنبي قبل مُحَمَّد ﷺ أن أعلن أن رسالته هي الخاتمة، وأنَّه لا نبي بعده، بل بشرت التوراة بمن يأتي بعد موسى، وبشر الإنجيل بمن يأتي بعد المسيح عيسى وهو: «الفارقليط»، الَّذي سيُبَيِّن كلَّ الحق، ولا يتكلَّم من عند نفسه.

إنَّها رسالة المستقبل المديد ولا شكَّ، وهي أيضًا رسالة الماضي البعيد، إنَّها ـ في جوهرها وأصولها الاعتقادية والأخلاقيَّة ـ رسالة كل نبي أُرسل، وكل كتاب أُنزل.

فالأنبياء جميعًا جاؤوا بالإسلام، ونادوا بالتوحيد، واجتناب الطاغوت. وهذا ما يقرره القرآن في وضوح وتأكيد: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

كل الأنبياء أعلنوا أنَّهم مسلمون، ودعوا إلى الإسلام، نوح قال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وإبراهيم وإسماعيل قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب فقالا: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ويوسف دعا ربه فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وموسى قال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وسحرة فرعون حين آمنوا بموسى، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وسليمان بعث لبلقيس وقومها: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، والحواريون قالوا لعيسى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

QaradawiBooks.com

إنَّها إذن ـ في جوهرها ـ رسالة كل نبي جاء من عند الله منذ عهد نوح إلى مُحَمَّد عليهم الصلاة والسلام، إنَّها رسالة الزمن كل الزمن، وإذا كانت هذه الرسالة غير محدودة بعصر ولا جيل ـ فهي كذلك غير محدودة بمكان ولا بأُمَّة، ولا بشعب ولا بطبقة، إنَّها الرسالة الشاملة، الَّتي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات.

إنَّها ليست رسالة لشعب خاص، يزعم أنَّه وحده شعب الله المختار! وأنَّ النَّاس جميعًا يجب أن يخضعوا له، وليست رسالة لإقليم معين، يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض، وتجبي إليه ثمراتها وأرزاقها، وليست رسالة لطبقة معينة مهمتها أن تسخر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو اتِّباع أهوائها، أو السير في ركابها، سواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم الضعفاء، من السادة أم من العبيد، من الأغنياء أم من الفقراء والصعاليك، إنَّها رسالتهم جميعًا، وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها، وليس فهمها ولا تفسيرها ولا الدعوة إليها حكرًا على طبقة خاصَّة كما قد يتوهم كثير من النَّاس. إنَّها هداية رب النَّاس لكل النَّاس، ورحمة الله لكل عباد الله، وهذا ما وضحه القرآن منذ العهد المكي، نقرأ في ذلك: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

زعم بعض المستشرقين أنَّ محمدًا ﷺ لم يكن يعلن في أوَّل أمره أنَّه مبعوث إلى النَّاس كافَّة، وإنَّما فعل ذلك بعدما أُتيح له الانتصار على قومه من العرب، حينما بدأ يُرسل إلى كسرى والنجاشي والمقوقس رسالاتٍ يدعوهم فيها إلى الإسلام.

QaradawiBooks.com

ولكن الآيات الَّتي ذكرناها ترُدُّ عليهم، فكلها ـ لسوء حظهم ـ من سور القرآن المكيَّة، ومثلها ممَّا نزل من أوائل القرآن ـ ممَّا يدل على عالميَّة الإسلام ـ كثير، ولكنَّه ﷺ لم يفرغ لإرسال الرسالة إلى الإمبراطوريات إلَّا بعد صلح الحديبية بدأ يُرسل لهؤلاء جميعًا الزعماء والرؤساء.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس السادس
المعتدون يوم السبت

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۞ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۞ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٧].

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾، قرية قريبة من البحر على الشاطئ، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾.

حرَّم الله ﷻ على بني إسرائيل العمل الدنيوي في يوم السبت، لا يعملون في هذا اليوم، لا يزرعون ولا يصنعون ولا يصطادون ولا يحترفون، وهم كذلك إلى اليوم، المتدينون منهم لا يعملون في يوم السبت، ولكن الله ﷻ أراد أن يختبر هؤلاء القوم ويبلوهم ويمتحنهم، امتحنهم بالحيتان، ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحيتان أي: الأسماك، الحوت هو السمك، كما في سورة الكهف قال فتى موسى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣]، كان معه حوت يحمله، وعندما جاء إلى المكان المعيَّن قفز الحوت في البحر، وكان ذلك آية من آيات الله.

فالحوت يعني السمكة، ولا زالت بعض البلاد العربيَّة إلى الآن تقول عن السمك: الحوت، حينما كنت في الجزائر كان إخواننا الجزائريون يقولون لي: تحب أكل الحوت؟ أنا كنتُ أظن أنَّ الحوت هذا مثل حوت سيِّدنا يونس، ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]، إنَّما الحوت فعلًا هو السمك، وهذه لغة القرآن، في سورة الأعراف هنا، وفي سورة الكهف.

المهم أنَّ حيتانهم تأتيهم يوم السبت شُرَّعًا، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرة طافية على سطح الماء، يكاد الإنسان أن يمسكها بيده، كان ذلك امتحانًا لهؤلاء اليهود، ولك أن تتصور حالة اليهودي الحريص على الدُّنْيا وعلى جمعها بكل وسيلة وهو يرى الأسماك أمامه ظاهرة طافية قريبة بحيث لو أدخل يده في الماء لأمسكها بكل يسر وسهولة، ولكنَّه ممنوع من هذا الأمر، كان هذا هو الابتلاء، أن ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾.

فهل كان هذا آية خارقة من آيات الله أم أن هذه الحيتان تعودت بحاستها الفطرية ـ وهذه المخلوقات الحية تحس وتشعر ـ أن يوم السبت لا يصل إليها أحد، ولا تمتد إليه يد، أحست وعرفت بفطرتها أن هذا اليوم لا يمتد إليها أحد، فأحست بالطمأنينة، فتأتي إلى الشاطئ وتلعب أمامهم وتطلع وتقفز وتنزل هكذا.

على كل حال سواء كان هذا من آيات الله الخارقة، أو كان هذا حسب سنن الله المعتادة، هذه الحيتان كانت تأتي كل يوم سبت شرّعًا، جمع

QaradawiBooks.com

شارع، كركّع وراكع، وسجّد وساجد أي: ظاهرةً على وَجْه البحر قريبة من الأيدي، وهذه عمليَّة تصيب اليهودي الحريص على المال بالجنون، فأخذ اليهود يفكرون ماذا يعملون في هذا الأمر، فقالوا: نحن حُرِّم علينا الصيد يوم السبت، لكن يمكننا عمل حيلة، وهي أن نضع الشباك يوم الجمعة بالليل، يعني ليلة السبت نضع الشباك وننصبها، ثمَّ تأتي الأسماك أو هذه الحيتان على عادتها فتدخل في الشباك فتمسك بها، فنأتي نحن يوم الأحد ونأخذها، وبهذا نكون قد تحايلنا على تحريم الصيد يوم السبت.

ولكن الله تعالى لا تروج عنده الحيل، لا يُخدع، لا، التحريم تحريم، ولذلك تُعتبر هذه من حيل اليهود، وجاء في حديث النبي ﷺ: «**لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَ الْيَهُود فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمِ الله بِأَدْنَى الْحِيَل**»[(١)]. لا يجوز للإنسان أن يحتال على المحرَّمات، لا، الحيل حيل، النَّاس الَّذين يحتالون على أكل الربا، أو ليعمل كذا الله لا تروج عنده الحيل، والعبرة بالمقاصد، ولذلك ذكر الإمام البخاري في: «كتاب الحيل»، هذا الحديث: «**إنَّما الأعمال بالنيَّة، وإنَّما لامرئ ما نوى**»[(٢)]، فالعبرة بالنيَّة، والعبرة بالمقاصد.

لا يجوز التحايل على الله ﷻ واستباحة ما حرم الله سبحانه، فاليهود تحايلوا وارتكبوا المحرَّم وفعلوا ذلك، وهم يعرفون في قرارة نفوسهم أن هذا لا يجوز.

---

(١) رواه ابن بطة في إبطال الحيل صـ ٤٦، وحسن إسناده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٩/٢٩)، وجوَّد إسناده ابن كثير في تفسيره (٢٩٣/١)، وقال في موضع آخر (٤٩٣/٣): ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا. وضعَّفه الألباني في غاية المرام (١١)، ثم حسَّنه في صفة الفتوى صـ ٢٨.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الحيل (٦٩٥٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

QaradawiBooks.com

انقسم النَّاس في هذه القرية ثلاثة أقسام:

قسم يُنكر هذا المنكر، ولا يقبله بحال من الأحوال، ويدعو هؤلاء القوم إلى ترك هذا الأمر.

وقسم ـ طبعًا ـ وقع في هذا المنكر وسقط فيه، واستحلّ الحرام واستمرأه.

وقسم ثالث سكت على المنكر وقال: لا فائدة من دعوة هؤلاء أو الإنكار عليهم أو وعظهم. والقرآن يقول هذا: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الجماعة الَّذين وعظوهم وزجروهم وأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر قامت فئة تقول: ما فائدة هذا الأمر؟ هؤلاء قوم حقت عليهم كلمة العذاب، ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فلم الدعوة؟ ولم الأمر والنهي؟ هل هذا يفيد؟ هذا لا فائدة منه، فماذا كان جواب هؤلاء الدعاة المصرّين على أن يأمروا وينهوا ويعظوا ويزجروا؟ كان جوابهم هذا الجواب الحكيم الموجز: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، هذا جواب كاف شاف.

مهما انتشر الفساد، ومهما استشرى المنكر، ومهما علت كلمة الباطل، ومهما تجبَّر الطغاة والظلمة والمفسدون، على الإنسان أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الله ويعظ ويذكِّر، ولا يقف صامتًا أو متفرجًا، قالوا: لا بد، لماذا؟ ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، الإعذار إلى الله بأداء الواجب وتبليغ الرسالة، هذا هو الأمر الأول، والأمر الثاني: لعلهم يتقون، نعظ هؤلاء النَّاس ونذكِّرهم وندعوهم لعلهم يقبلون.

QaradawiBooks.com

المسلم لا ييئس من أن يُصلح الله الفاسد، وأن يُقوِّم الأعوج، ويهدي الضال، ويتوب على العاصي، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، يقول النبي ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء**»(١). وهذا معناه أنَّ الداعية إلى الحق ينبغي أن يستمر في دعوته، ويمضي في خطته، ولا يتراجع عنها بحال، سواء نجح أم لم ينجح.

بعض النَّاس يقول: يا أخي ليس هناك فائدة من الدعوة، فقد صار لنا عشر أو عشرين سنة ندعو النَّاس والناس لم يستجيبوا، ولو لم يستجب لك أحد عليك أن تستمر في دعوتك، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وادع إلى ربك حتَّى يأتيك اليقين، استمر في دعوتك.

سيدنا نوح ظلَّ يدعو قومه ألف سنة إلى خمسين عامًا، حتَّى أخذهم الطوفان، وظلَّ أيضًا إلى أن مات، ألف سنة، وكلَّما دعاهم أعرضوا، حتَّى قال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: ٥ ـ ٩]، ومع ذلك ظلَّ يدعو.

فصاحب الدعوة عليه أن يدعو سواء نجح واستجاب النَّاس له، أو لم ينجح ولم يستجيبوا له، لأنَّ علينا الدعوة وعلى الله الهداية، كما قال الله لرسوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

---

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٤)، وأحمد (٦٥٦٩)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

ابذر الحب وارج الثمـــار من الرب، ضع الحبة فـــي الأرض الطيبة حسب ما ترى، وتعهدها بالرعاية والسقاية والتسميد والعناية، وأبعد عنها الآفات ما اســـتطعت، ولكن إذا جاءت آفة ســـماويَّة وأهلكتها هل بيدك شـــيء؟! كذلك الَّذين يحملون الدعوة إلى النَّاس يجب أن يستمروا في دعوتهم، الله لن يســـأل الدعاة لماذا لم تنجحوا، أو لمـــاذا لم تنتصروا، ولكن يســـألهم لماذا لم تعملوا؟ لماذا لم تحاولوا؟ لماذا لم تجتهدوا؟ فعلينا إذن الدعـــوة والوعظ، والأمر والنهي، والعمل المســـتمر، لماذا؟ ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، هذا هو السبب.

فماذا كانـــت النتيجة؟ كانت نتيجـــة الَّذين نهوا عن الســـوء وعن المنكر، ووعظوا وأمروا بالمعروف، كانـــت ثمرة ذلك أن نجَّاهم الله، وأمَّا الَّذين ظلموا أنفسهم وارتكبوا ما حرَّم الله عليهم رغم نصح قومهم لهم كانـــت النتيجة أنَّ الله أهلكهـــم وأخذهم أخذ عزيـــز مقتدر، قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، أخـــذ الله الظالميـــن ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ أي: عـــذاب شـــديد ذي بـــأس شـــديد ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

الذين ظلمـــوا وارتكبوا الحرام أُخذوا بالعذاب الشـــديد، والَّذين نهوا عن السوء أنجاهم الله، لكن الفئة الثالثة سكت عنها القرآن، وهم الَّذيـــن قالـــوا للدعـــاة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾، اختلف العلماء في شـــأنهم، فالبعض يقـــول بأنَّهم هلكوا، لأنَّهم لم يعظوا، والبعض قال بأنَّهم نجوا، لأنَّهم لم يشاركوا هؤلاء، وهم ينكرون عليهم، ولكن كل ما في الأمر أنَّهم يئسوا منهم، يعني:

QaradawiBooks.com

أنَّهم يرون أنَّ الوعظ لا يُفيد، ولذلك سيِّدنا عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما كان يرى ـ في أوَّل الأمر ـ بأن الله أهلكهم، ثمَّ ناقشه بعد ذلك تلميذه عكرمة فرجع عن قوله[١].

نجاهم الله تعالى لأنَّهم لم يشاركوا قومهم، بل بالعكس أنكروا عليهم بقلوبهم، فهم على الأقل كان عندهم أضعف الإيمان، وهو الإنكار بالقلب، كما في حديث النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٢]. فهؤلاء أنكروا بقلوبهم، ولم يشاركوا قومهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾، مسخهم الله قردة، لكن هل يا تُرى مسخهم الله قردة بالفعل؟ أي: من ناحية الخلق والبدن، وصارت أجسامهم أجسام القردة ووجوههم وجوه القردة؟ هذا هو رأي جمهور المفسرين، أم أن هذا المسخ هو مسخ خُلُق ونفس لا خَلْق وبدن؟ هذا هو رأي المفسر التابعي الكبير مجاهد[٣]، أنَّ المسخ لم يكن مسخ خَلق إنَّما كان مسخ خُلُق، وعلى كل حال تلك كانت عقوبة من الله تبارك وتعالى لهؤلاء اليهود الَّذين اعتدوا في السبت، ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٣/١٨٨).

(٢) سبق تخريجه صـ ٤٤٠.

(٣) انظر: تفسير مجاهد صـ ٢٠٥، تحقيق د. محمد عبد السلام أبو النيل، نشر دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م، وتفسير الطبري (٢/١٧٢، ١٧٣).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إعلام الله تعالى بأنَّه يسلط على بني إسرائيل كل مدَّة من يُذيقهم العذاب بسبب ظلمهم وانحرافهم:

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، إنَّ الله ﷻ تأذن وأقسم أن هؤلاء القوم لا يأتون إلَّا بالشدَّة، فهم دائمو الانحراف والإفساد والطغيان والعلو في الأرض، ولذلك كانت العقوبات القدرية الإلٰهيَّة لهم بالمرصاد، كما ذكرت ذلك أوائل سورة الإسراء أنَّهم كلَّما أفسدوا بعث الله عليهم قومًا أولي بأس شديد يلقنونهم درسًا، الله تعالى يقول: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٧].

الله تعالى أرسل على اليهود «بُختنصَّر» البابلي، وأنزل بهم من العذاب ما أنزل، ونفاهم إلى بابل، أسرهم سبعين سنة في بابل، وحرّق معابدهم، وهدم بِيعَهم، وفعل بهم الأفاعيل، وبعد ذلك سلَّط الله عليهم الرومان فقطَّعوهم في الأرض أممًا وشتَّتوهم، فلم تقم لهم قائمة، ثمَّ سلَّط عليهم بعد ذلك المسلمين، حينما نقضوا بيعة النبي ﷺ ومعاهدته فئة بعد فئة، بنو قينقاع، ثمَّ بنو النضير، ثمَّ بنو قريظة، بعد أن عاهدهم ليكون شأنهم شأن المسلمين في الأمور العامَّة، ولكنَّهم نقضوا العهود، وتعدوا الحدود، فكان ما كان من أمرهم.

QaradawiBooks.com

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

كان اليهود أوَّل الأمر لا يسكنون في القدس، منذ دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدينة القدس، وعقد عقْد الصلح مع أهلها النَّصارى، وكان ذلك بطلب من بطريك القُدْس «صفرنيوس»، الَّذي أصرَّ على ألَّا يسلِّم مفتاحها إلَّا إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب.

وجاء عمر وسُلّم مفتاح المدينة، وعَقَد معهم صلح «إيلياء» إذ كانت المدينة تُسمى في ذلك الوقت «إيلياء» ـ أو ما يُسمى في التاريخ باسم «العهدة العمرية» ـ وكان من شروطهم هذه العهدة أو هذه الاتفاقية: أنَّ النَّصارى طلبوا من عمر: ألَّا يساكنهم في مدينتهم «يهود»، كان هذا من الشروط المبدئيَّة الأساسيَّة[1].

معنى هذا أنَّ اليهود لم يكن لهم في هذه المدينة نصيب منذ فرّقهم الله في الأرض وقطَّعهم أممًا كما قال القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٧، ١٦٨].

وهذا معروف في التاريخ، من قرأ التاريخ وجد هذه الأدوار لليهود، حينما أفسدوا في الأرض وطغوا فيها وعلوا علوًّا كبيرًا وفعلوا ما فعلوا، قتلوا أنبياء الله، وتعدّوا على الحرمات، وكما قال القرآن: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] تاريخ اليهود حافل بقتل أنبياء الله، نشروا بالمنشار زكريا عليه السلام، وذبحوا ابنه يحيى عليه السلام.

(١) تاريخ الطبري (٦٠٩/٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بعد إفسادهم وطغيانهم وتعدِّيهم سلَّط الله عليهم أهل «بابل»، وجاء «بختنصر» كما يقول مؤرخو العرب، ودخل ديارهم، وجاس فيها، وحرَّق معابدهم وتوراتهم وكتبهم، وأخذهم أسرى إلى بابل مدَّة سبعين سنة، هذا معروف في تاريخهم.

ثم سلَّط الله عليهم الفرس، ثمَّ سلَّط الله عليهم الرومان وضربوهم ضربة قاضية، قُطِّعوا فيها في الأرض أممًا، وتفرَّقوا شذَر مذَر، ولم تقم لهم قائمة منذ ذلك اليوم.

ولذلك حينما دخل المسلمون «القدس» لم يتسلَّموا القدس من اليهود، إنَّما تسلَّموها من النَّصارى، وقد شارطوا المسلمين ألَّا يساكنهم فيها يهود.

ولذلك قالت الآية: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، الله يعاجلهم بالعقوبة إلَّا من تاب منهم، وتوبتهم أن يدخلوا في الإسلام، فالله ﷻ هكذا تأذن ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، ومن يقرأ التاريخ يجد أنَّ العقوبات الإلٰهيَّة وراءهم بالمرصاد.

والآن في عصرنا استكبروا في الأرض بغير الحقِّ، وعَلَوْا عُلُوًّا كبيرًا، وطغوا طغيانًا عظيمًا، وظهر أثر ذلك في احتلالهم فلسطين، طردوا أهل الأرض منها، وشرَّدوهم كل مُشرَّد، الأعراض هُتكت، والدماء سُفكت، والأراضي مُلِّكت، والحرمات انتُهكت، ولا زالوا إلى اليوم، أخرجوا القوم من ديارهم بغير حق، وأخذوا الدار بزعم أنَّ الله أعطاهم هذا، وهذا كله كذب لا يتسع الوقت لمناقشته، لأن الكلام الَّذي في التوراة لا يدل على ما زعموا، ولكن هم حاولوا أن يستغلوا بعض الكلام الَّذي في التوراة، بل حاولوا أن يستغلوا القرآن.

QaradawiBooks.com

الإرهابي الكبير «مناحم بيجن» لما ذهب إليه السادات وكلمه ردَّ عليه وقال: يا سيادة الرئيس، هذه الأرض الَّتي تقول عنها كتبها الله لنا، حتَّى إنَّ كتابكم القرآن نفسه يقول هذا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١] والآية تعني: أنَّه كتب لهم دخولها، أي: قدَّره سبحانه، وقد دخلوها بالفعل وأنفذ الله قدَره، بعدما ضرب عليهم التيه أربعين سنة جزاء نكوصهم، وقولهم لنبيهم ومنقذهم في وقاحة متناهية: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولا تعني الآية أنَّ الله كتب لهم البقاء الدائم فيها، وإلا لتناقض هذا مع الواقع، فقد أُخرجوا منها منذ ألفي سنة.

قلتُ لكم أمس: إنَّ من أخطر الأشياء وضع الأدلَّة في غير موضعها، فكلُّ واحد حتَّى «بيجن» يمكن أن يستغل القرآن لصالحه، فلهذا هؤلاء النَّاس بهذه الدعاوى الباطلة حاولوا أن يأخذوا أرض فلسطين ويطردوا منها أهلها، وفعلوا بهم ما فعلوا في «دير ياسين»، و«صبرا وشاتيلا»، وإلى اليوم، ولكن الله ﷻ لا بدَّ أن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب.

وإن شاء الله قد بدأت العقوبة الإلٰهيَّة بأطفال الحجارة، بثورة المساجد، بالانتفاضة الإسلاميَّة إن شاء الله، ستستمر هذه الانتفاضة حتَّى يستعيد القوم أرضهم، حتَّى تُستردَّ أرض الإسلام، أرض الإسراء والمعراج، أرض النبوات، الأرض الَّتي بارك الله فيها للعالَمين، ويعود المسجد الأقصى الَّذي أسره اليهود إلى اليوم ويمنعون النَّاس من الصلاة فيه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس السابع

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

ما أجدرنا أن نتأمَّل هذه الآية الكريمة ونقف عندها لنعرف أي صنف من النَّاس أولئك الَّذين أعدَّهم الله لدار البوار، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٩]، من هم الَّذين جعلهم الله وقود النَّار وحطب جهنم؟ من هم هؤلاء؟ ينبغي لنا أن نتعرف على أوصافهم وسماتهم حتَّى نتجنَّبها ونتوقَّاها ونحذر منها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: خلقنا لها أناسًا يستحقونها بأعمالهم، إنَّما دخلوا جهنم بما اقترفت أيديهم، بما كسبت أيديهم، بصنع أيديهم، فالله ﷻ قد فطر الإنسان فطرة سويَّة، هداه النجدين، وألهم نفسه الفجور والتَّقوى، وأنزل عليه الكتب وبعث له الرسل، وأقام عليه الحجة ووضَّح له المحجَّة، وأزال عنه التَعِلَّة، فليس هناك إنسان مجبور على أن يكون من أهل النار، إنَّما هو الَّذي يجرُّ نفسه إلى جهنَّم، فـ«اللام» في قوله تعالى: ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] تسمى «لام» العاقبة، أو «لام» الصيرورة كما يسميها علماء النحو، كما في قول الله تعالى عن موسى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، التقط آل فرعون موسى رجاء أن يكون لهم

QaradawiBooks.com

قرة عين، ولم يلتقطوه ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، ولكن كانت هذه هي العاقبة، وهكذا صار الأمر.

فهؤلاء عاقبتهم أنَّهم صاروا لجهنم حطبًا، ولكن الله خلقهم في الأصل ليعبدوه وليعرفوه، وليقوموا بحقه، وليعمروا أرضه، وليخلفوه في هذه الأرض، لهذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، بل ذكر الله ﷻ أنَّه لم يخلق السماوات والأرض إلَّا ليعرفه النَّاس بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما قال سبحانه في آخر آية من سورة الطلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ لماذا؟ ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

خلق الله الجن والإنس، بل خلق الله العالم علويَّه وسفليَّه ليعبده النَّاس ويعرفوه ويقوموا بحقه، ولكن طائفة من النَّاس، طائفة من المكلَّفين، من العالم المنظور والعالم المستور، من الجن والإنس، هؤلاء ـ للأسف ـ انحرفوا عن الطريق واختاروا طريق جهنَّم، وساروا في طريق الضلال، وهم ـ للأسف ـ ليسوا قليلًا ولكنَّهم كما وصفهم الله كثير: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أهل جهنم كثيرون، على حين قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، الصالحون قليلون والشاكرون قليلون، أمَّا الضالون فهم كثير، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

QaradawiBooks.com

نريد أن نعرف أوصاف هؤلاء الذين جعلهم الله حطب جهنَّم، الله ﷻ يريد أن يعرِّفنا عليهم حتَّى لا نكون مثلهم، وحتَّى نتوقى صفاتهم وسماتهم، يقول الله ﷻ في وصف هؤلاء: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، هؤلاء عطلوا الأجهزة الَّتي منحهم الله إيَّاها، الأجهزة الَّتي يطلون بها على هذا الكون وهذا العالم ليعرفوا فيه آثار نعمة الله وآثار قدرة الله وآثار رحمته، فيتعرفوا على الله من خلال آثاره في خلقه، هؤلاء النَّاس خرَّبوا هذه الأدوات أدوات العلم والمعرفة.

إنَّ الله ﷻ قد أعطى الإنسان العين ليبصر بها الآيات الَّتي في هذا الكون، والآذان ليسمع بها كلام رب هذا الكون، والقلب هذا العقل هذا الفؤاد ـ سمِّه ما تسميه ـ ليعقل به ويفقه ويبني النتائج على المقدمات، تلك هي أدوات المعرفة كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، أنعم عليكم بهذه النعم لتقوموا بشكرها، السمع والأبصار والأفئدة هذه هي الأدوات الَّتي بها يعرف الإنسان هذا الكون، وإذا عرف الإنسان نفسه وعرف هذا العالم من حوله عرف ربه بعد ذلك.

هؤلاء النَّاس لم يقدِّروا هذه النعمة حقَّ قدرها، ولم يقوموا بحقِّ هذه الأمانة الَّتي سيسألهم الله عنها يوم القيامة كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي لا تتبع ما ليس يقوم عليه برهان ولا حجة، لا تتبع الظنون والأهواء كالذين ذمَّهم الله تعالى من المشركين بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

QaradawiBooks.com

وكما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**إيَّاكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث**»(١).

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لا تتبع الظنَّ ولا تتبع الهوى، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، يريد الإسلام إذن أن ينشئ تلك العقليَّة العلميَّة لا تؤمن بشيء إلَّا ببرهان، ولا تتبع شيئًا إلَّا بحُجَّة، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ليست العقليَّة المقلِّدة الَّتي تقول: هذا ما وجدنا عليه آباءنا. أو الَّتي تقول فيما حكاه القرآن عنهم: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ومن هنا ينبغي للإنسان أن يستعمل هذه الأدوات، سمعه وبصره وعقله، ولا يخرِّبها ولا يعطِّلها كأولئك الَّذين جعلهم الله حطب جهنَّم، فإنَّهم خرَّبوا هذه الأدوات وعطَّلوها، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، هؤلاء لهم قلوب ولكن لا يفقهون بها، ما قيمة أن يكون لك قلب وعقل ولكنك لا تستخدمه، جمَّدتَه، علَّقتَه، عطلتَه فأصبح كالأداة المتروكة المهملة الَّتي يأكلها الصدأ، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، الله تعالى يقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فهؤلاء ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، لهم أعين ولكنَّهم لا يستخدمونها، وليس المقصود أنَّهم لا يبصرون الماديّات والحسيّات فهذا بصر لا يجدي، يمكن إنسان بصره مائة في

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

المائة أو ستَّة على ستَّة كما يعبر بعض النَّاس ولكن مع هذا لا ينظر، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣]، إنَّه ينظر ولكنَّه لا يبصر، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، إنَّه أعمى لأن قلبه قد عمي، لم يستخدم هذه الأدوات كما ينبغي.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، لا ينظرون بأعينهم آيات الله في الأنفس والآفاق، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، لا يستمعون إلى آيات الله ﷻ ولا إلى مواعظه، كما قال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، وكما في شأن الكافرين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، هذا هو الصمم والبكم والعمى، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

هؤلاء هم الَّذين خرَّبوا هذه الأجهزة الَّتي أعطاهم الله ﷻ إيَّاها ولم يقوموا بحق هذه النعمة العظيمة، نعمة السمع والأبصار والأفئدة، ومن هنا قال الله تعالى في شأن قوم من المشركين: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، أي إنَّ الجحود جعلهم لا يستفيدون من هذه الأجهزة والأدوات، لا أفادهم سمع، ولا أفادهم بصر، ولا أفادهم عقل، ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

QaradawiBooks.com

هؤلاء الَّذين هم حطب جهنم وصفهم الله ﷻ بعد أن خرَّبوا هذه الأدوات قال: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، انظروا، الإنسان قد يرتقي بإيمانه وأخلاقه وسلوكه فيكون أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة مفطورة على الطاعة، فالإنسان إذا جاهد هواه واستعلى على الطين الَّذي هو جزء من كيانه يصبح في مرتبة الملائكة أو أعلى مقامًا، ولكن الإنسان إذا غلَّب جانب الطين على جانب الروح وأخلد إلى الأرض واتبع هواه يصبح كالأنعام بل أضلّ سبيلًا، كما قال الله ﷻ في سورة أخرى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤]، هنا يقول: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

هذا هو وصف حطب جهنم ووقود النَّار من أولئك الَّذين عطَّلوا تلك الأجهزة الَّتي منحها الله إيَّاهم، ليطلُّوا بها على الكون، لتكون نوافذ للمعرفة، ولكنَّهم خرَّبوا هذه الآلات والأجهزة، فكان لهم قلوب ولكنَّهم لا يفقهون بها، وأعين لا يبصرونها، وآذان ولكنَّهم لا يسمعون بها، لأنَّه إذا لم يفقه بقلبه مهمته الَّتي خُلق لها، ولم يعرف الخالق الَّذي أوجده، فإن قلبه لم يعد قلبًا، أصبح لا معنى له، وكذلك إذا لم ير آثار الله في الكون، ولم يعتبر بها فهو أعمى وإن كان حادّ البصر، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وإذا كان لا يسمع قوارع المواعظ، ولا يسمع صوت الحق، فهو أصم، كما قال الله تعالى في صنف من الناس: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، خرَّبوا الآلات والأجهزة الإلٰهيَّة، فانتهوا إلى أنَّهم أصبحوا كالأنعام بل هم أضلُّ.

لماذا كانوا أضلَّ سبيلًا من الأنعام؟ لأنَّ الأنعام أحيانًا تستجيب للراعي، إذا دعاها أن تبتعد عن المكان الفلاني أو كذا تستجيب له

QaradawiBooks.com

وهؤلاء لا يستجيبون، ثمَّ إنَّ الأنعام لم تُؤت ما أُوتي الإنسان، لم تُؤت العقل الَّذي يفكر، ولا الإرادة الَّتي ترجِّح، ولا الأدوات الَّتي تنفِّذ، لم تُؤت الأنعام هذه الملكات والقوى العقليَّة والروحيَّة الَّتي أُوتيها هذا الإنسان الَّذي استخلفه الله في الأرض، الأنعام لم يُبعث لها رسول ولم ينزل عليها كتاب، فهي معذورة بعض العذر.

ومن ناحية أخرى فإنَّ الأنعام تُؤدي مهمتها، تقوم بدورها المطلوب منها في الحياة، هل رأيت بقرة تمردت على أن تُحلب، هل رأيت بعيرًا امتنع أن يُركب؟ الأنعام تقوم بوظيفتها الَّتي كُلفت بها، فهي تسقي الحرث، تحمل الأثقال، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]، الإنسان يركب الأنعام وهي صحيحة، ويأكلها وهي ذبيحة.

فالأنعام تقوم بمهمتها، ولكن مهمَّة الإنسان عبادة الله في الأرض وعمارتها وخلافة الله فيها ولم يقم بهذه المهمة، لهذا كانت الأنعام أهدى منه سبيلًا، وكان هذا النوع من البشر الَّذي تمرَّد على مهمَّته، وعطَّل أدواته، وسار في طريق الشيطان كان أضلَّ من الأنعام.

سبب التسفُّل إلى مستوى الحيوانيَّة:

الأنعام لم تُمنح من العقل والمواهب والنِّعَم ما مُنِح الإنسان، ولذلك انظر إلى هذا التذييل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، هذا هو مفتاح القضيَّة كلها، هذا هو سبب التسفل والتنزل والهبوط إلى مستوى الحيوانيَّة والأنعامية، أو أضل، إنَّها الغفلة، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

عمّ غفل هؤلاء؟ غفلوا عن الله ﷻ، وعن حقِّه، وعن ذكره؛ كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، انفرط أمره، وأصبح سائبًا، غير منضبط ولا مرتبط،

QaradawiBooks.com

واتبع هواه وشهواته. سبب هذا هو غفلة القلب عن ذكر الله. لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، نسي الله، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، أنساهم حقيقة ذواتهم، نسوا ما هم، ومن هم بنسيانهم الله، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: عاملهم معاملة من نسيهم، لأنَّه تعالى لا يشذُّ عن علمه شيء، ولا ينساه، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر. وإنَّما قال تعالى هذا من باب المقابلة تركوا الله فتركهم، ولّاهم ما تولوا.

وغفلوا ـ ثانيًا ـ عن آيات الله في الكون، وفي التاريخ، وهي تنطق بالعبرة لمن يعقل ويعي، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، ينظرون آيات الله من حولهم؛ عن أيمانهم وعن شمائلهم، من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومن أمامهم ومن خلفهم؛ ولكنَّهم لا يعتبرون بها، ليس لهم عين ترى، ليس لهم قلب يفقه، هؤلاء غفلوا عن آيات الله ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]. هذه هي الغفلة عن آيات الله ﷻ.

وغفلوا ـ ثالثًا ـ عن مصيرهم، الغفلة عن المصير الَّذي ينتظر كل إنسان، الله تعالى يقول عن قوم من الناس: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، يعلمون كثيرًا من ظواهر الحياة الدنيا؛ من قوانينها ومن أحوالها، ولكنَّهم أجهل النَّاس بالآخرة، أغفل النَّاس الآخرة، والآخرة هي القضيَّة المصيريَّة الأولى لكل إنسان، مهما عشت في هذه الدُّنيا، مهما عُمِّرت؛ فنهايتك الآخرة، يقول أبو العتاهية:

QaradawiBooks.com

نُـحْ عَلَى نَفْسِـكَ يَا مِسْـ كِـيـنُ إِنْ كُـنْـتَ تَـنُـوحُ
لـتَـمُـوتَـنَّ وإن عُـمِّـ ـرْتَ ما عُـمِّـرَ نُـوحُ[1]

الغفلة الَّتي يعيشها بعض النَّاس أصابت أفكارهم بالشلل، وقلوبهم بالعقم، وتعطل الإدراك لديهم، فكل همهم ملء البطون، وإشباع الشهوات، والتمتع بما يتمتع به الأنعام، وهؤلاء هم حطب جهنم ووَقود النار.

هذه «الغفلة» تمثِّل حجابًا كثيفًا تحول دون رؤية الحياة الدُّنْيا على حقيقتها، فهي تصغِّر أمر الآخرة، وتُعظِّم أمر الدُّنيا، وتبعِّد الأمر القريب، وتقرِّب الأمر البعيد، وبهذا تلتبس الأمور، وتتغبَّش الرؤية، ولهذا ذمَّ القرآن الغفلة، وجعلها وراء كلِّ شرٍّ، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

ولا غَرْو أن وجَّه الله تعالى رسوله، فقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

والمطلوب من السالك في منازل السائرين في الطريق إلى الله: أن يستبدل بالغفلة «اليقظة»، أعني يقظة القلب وبصيرته، بحيث يُزيح الغفلة عنه، لينتبه إلى ما يجب الانتباه إليه من ذكر الله والدار الآخرة.

(١) ديوانه صـ ١١٧، وانظر: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٣٣٠/٤)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

QaradawiBooks.com

ولا يُغْني عن هذه اليقظة: تحصيل العلوم والمعارف، الَّتي تزيد خبرته بالحياة الدُّنيا، وكيفيَّة الاستمتاع بما فيها، وهو ليس مذمومًا ما دام في الحدود المشروعة، ولكنَّه لا يبصِّره بالغاية الَّتي خُلق لها، والرسالة الَّتي يجب أن يؤدِّيها. ولهذا لا يكفي هنا هذا العلم وحده، لأنَّه علم بـ «ظاهر الحياة الدنيا» كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وهذا هو مفتاح المعضلة كلها: الغفلة عن الله، الغفلة عن آيات الله، الغفلة عمَّا في هذا الكون، إنَّهم لم يحيُوا هذه المواهب الروحيَّة، تركوها وغفلوا عنها حتَّى ماتت، فصدِئت قلوبهم، وماتت ضمائرهم، وعُطِّلت أجهزتهم، وخُرِّبت حواسهم، ﴿أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إذا كان أهل النَّار وحطب جهنم هم أولئك الَّذين خرَّبوا القلوب والأسماع والأبصار، فإنَّ أهل الجنَّة هم أولو الألباب الَّذين استعملوا هذه الأشياء ووصلوا بها إلى معرفة الله ومعرفة كونه، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الدرس الثامن

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠١]

فرغنا الليلة ـ أيُّها الإخوة ـ من تلاوة سورة الأعراف، وسورة الأعراف سورة مكيَّة، من طوال السور، وقد حفلت بمعاني كثيرة، وبقصص الأنبياء الَّذين أرسلهم الله إلى أقوامهم، فكذَّبهم أقوامهم، وانتهت القصَّة بعذاب الله تعالى ينزل بالمُكَذِّبين، وإنجاء الله تعالى للأنبياء والَّذين آمنوا معهم.

نقف في سورة الأعراف عند هذه الآيات الثلاث:

آية ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾:

الآية الأولى يقول الله تعالى فيها: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، هذه آية قصيرة موجزة، قال عنها العلماء: إنَّها جمعت مكارم الأخلاق، وإن كان هناك ـ للأسف ـ من العلماء من يقول: أوَّل هذه الآية منسوخ، وآخر هذه الآية منسوخ، والثلث الأوسط هو المحكم فيها، يعني قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾، قالوا: نسختها آية السيف، فليس هناك عفو، وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، نسختها آية السيف، هناك حاجة اسمها: آية السيف، قالها بعض العلماء، كأن الآية هذه هي نفسها سيف قطعت رقاب آيات كثيرة، مائة وعشرين آية، مائة وأربعين آية، مائتي آية.

QaradawiBooks.com

وهذا أمر عجب في الحقيقة كأنَّ الله تعالى أنزل الآيات في كتابه ليعمل النَّاس بها عشر سنين، والناس هؤلاء كانوا سبعين أو ثمانين مسلمًا، وبعد ذلك يلغى وجودها، هي موجودة في المصحف حسًّا ومعدومة معنى، هذا هو الكلام الَّذي يقولون عنه: النسخ، يعني تقرأ الآية ثمَّ تقول: يا ترى الآية هذه معمول بها أم غير معمول بها؟

فأي آية فيها مكارم الأخلاق يقولون لك هي منسوخة بآية السيف، قول الله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المعارج: ٥]، منسوخة بآية السيف، ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، منسوخة بآية السيف، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، منسوخة بآية السيف، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، منسوخة بآية السيف، ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٠]، منسوخة بآية السيف، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، منسوخة بآية السيف، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، منسوخة بآية السيف، آية السيف هذه قطعت رقاب الآيات الكثيرة، وهذا أمر في غاية العجب.

وأنا أومن أنَّ الله ﷻ إنَّما أنزل كتابه ليُعمل به لا ليُلغى، وإلا ما معنى أن تنزل هذه الآيات ليعمل بها عشر سنين، وبعد ذلك تنتهي، يعني يعمل بها في العهد المكي عشر سنين مثلًا، أو الثلاثة عشر عامًا، وبعض الآيات خمس سنين أو ثلاث سنوات أو سنتين ثمَّ تلغيها آية السيف، شيء عجيب والله، فبعض النَّاس يقول: كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار، والتولِّي والإعراض والكفِّ عنهم، فهو منسوخ بآية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]،

QaradawiBooks.com

نسخت مائة وأربعًا وعشرين آية، ثمَّ صار آخرها ناسخًا لأولها! وهو قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، كما يقول الإمام ابن العربي[١]. وهذا من غرائب النسخ، ولكن الحقيقة أنَّ الآية ليست منسوخة، لا أولها ولا آخرها ولا وسطها، هي آية محكمة، لأن الله ﷻ يأمرنا بهذه الخصال والفضائل الثلاث.

اتساع مجال العفو:

أول شيء: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، أي: خذ ما عفا لك من أخلاق النَّاس وأحوالهم وأعمالهم وتصرفاتهم، خذ ما سهل، لا تشدِّد على النَّاس، لا تكلفهم أكثر من طاقتهم، لا تتعنت معهم، كن سهلًا سمحًا في كل شيء، في بيعك وفي شرائك وفي قضائك وفي اقتضائك، ولذلك قال النبي ﷺ: «**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»[٢].

إذا قضى الديْن أو اقتضى الديْن هو سمح، إنسان سهل، كما كان النبي ﷺ أيسر النَّاس وأسمح النَّاس وأسهل النَّاس، وما خُيِّرَ النبيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اختار أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا[٣].

هذا خُلق محمود مطلوب من الإنسان في كل حالة من الأحوال، في السلم وفي الحرب، ومع المسلمين ومع غير المسلمين، ومع من يحب ومع من يكره.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤٠/٢)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٦)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) متَّفق عليه: رواه مسلم في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، خذ ما عفا لك، خذ ما سهل من أمور النَّاس، ومن أخلاق النَّاس، لا تكن متشدّدًا ولا متعسّرًا، «**يسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشِّروا، ولا تنفِّروا**»[١]، وقال النبي ﷺ: «**إن الله لم يبعثني معنتًا، ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلِّمًا مُيَسِّرًا**»[٢].

وقبل نزول آية التخيير طالب نساء النبي ﷺ بزيادة النفقة، لم يكن النبي ﷺ من المترفين ولا من المتنعِّمين، قالت عائشة: «ما شبع آل مُحَمَّد ﷺ في المدينة، من طعام البُرِّ ثلاث ليال تباعًا، حتَّى قبض»[٣]، «ولو أراد لشبع، ولكنَّه كان يؤثر على نفسه»[٤]، وقالت: «إن كنا لننظر إلى الهلال، ثمَّ الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين ـ يعني يرون هلال رمضان، ثمَّ هلال شوال، ثمَّ هلال ذي القعدة ـ وما يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار»[٥]. يعني لا يطبخون نهائيًّا، حتَّى ولو بدون لحم، لا يطبخون، لا بلحم ولا بدون لحم، فكيف كانوا يعيشون إذن؟ كانوا يعيشون على الأسودين، التمر والماء.

هكذا كانت حياته ﷺ، حتَّى بعد أن فتح الله له الفتوح وغنم الغنائم وتيسَّر الحال، فنساؤه قُلْنَ: تعالوا نطالب الرسول أن يزيد في النفقة، لقد أصبح سيد الجزيرة، فلماذا لا يوسِّع على أهله ونسائه كما يوسِّع سادات النَّاس وأشرافهم؟! فعملوا مظاهرة وقالوا: يا رسولَ الله سادات القوم وملوك العالم وكسرى وقيصر يوسِّعون على أهليهم ونسائهم، فنريدك أن توسع علينا في النفقة.

---

(١) متَّفق عليه: رواه مسلم في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.

(٢) سبق تخريجه صـ٥٠٧.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤١٦)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٢٥٢).

(٥) متَّفق عليه: رواه البخاري في الهبة وفضلها (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٢).

QaradawiBooks.com

فهجرهن الرسول ﷺ شهرًا، ونزلت آية التخيير بعد ذلك وهي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

نساء النبي ﷺ أصبحن مخيّرات، ولا بدَّ للنبيِّ ﷺ من تنفيذ أمر الله، وأول ما بدأ، بدأ بعائشة أحبَّ نسائه إليه، فقال لها: «**إِنِّي سأعرضُ عليك أمرًا لا تستعجلي فيه حتَّى تشاوري أبويك فيه**»، وتلا عليها الآيات، فقالت له: يا رسولَ الله وهل أُوثر عليك أحدًا، إنِّي أختار الله ورسوله والدار الآخرة، ثمَّ طلبت منه ألَّا يخبر أحدًا من نسائه بما اختارت، تمنت لو اخترن كلهن الحياة الدُّنْيا وزينتها، ويسرحهن سراحًا جميلًا، وتنفرد هي برسول الله ﷺ، فقال لها: «**إنَّ الله لم يَبْعَثْني مُعَنِّتًا، ولا مُتَعَنِّتًا، ولكن بعثني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»[1].

لا يجوز لي أن أتمنَّى هذا لهنَّ، أنا أتمنَّى أن يخترن كلهنَّ الله ورسوله والدار الآخرة، لأنَّه لا بدَّ أن يسهِّل ولا يشدد ولا يعنِّت، ولا يعسِّر، وفعلًا عرض عليهن هذا الأمر، وكلهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وهذا يدل على أنَّ محمدًا ﷺ لم يكن ـ كما يشيع المُنَصِّرون والمستشرقون والأفّاكون ـ رجل شهوات ورجل نساء، وهل من يعيش للشهوات يعيش على هذه الحالة من الشظف والخشونة وقلة التنعم؟! لا يمكن، ليست هذه حاله.

---

(١) سبق تخريجه صـ٥٠٧.

QaradawiBooks.com

مسؤوليَّة المسلم تجاه مجتمعه:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، خذ ما سهل من أخلاق النَّاس وأعمالهم، ولا تشدد عليهم ولا تتعنت، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، أي مر بكل ما هو معروف عقلًا وعرفًا وشرعًا، لأنَّه كما قلنا من قبل: المؤمن دائمًا مطلوب منه إصلاح نفسه ودعوة غيره، أصلح نفسك وادع غيرك، ليس في الإسلام كلمة: «وأنا مالي، خليني في نفسي، أنا ما لي دعوة بالناس»، لا، أنت مسؤول عمَّن حولك.

المسلم جزء من المجتمع، يهمه صلاح المجتمع، كما يهمه صلاح نفسه، وإذا فسد المجتمع قد يصل الفساد إليه، قد يصيب أهله، قد يصيب ولده، قد يصيب أبناءه، قد يصيب بناته، فلا بدَّ أن تسعى إلى الإصلاح، وذلك بأن تأمر بالمعروف، وطبعًا الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر، لأنَّ النهي عن المنكر هو أمر بالمعروف، كما يقولون: الأمر بالشيء نهي عن ضده. فإذا أمرت بالمعروف فقد نهيت عن المنكر، وهذا شأن الإنسان المؤمن، الله تعالى وصف المؤمنين فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، مر بالخير، مر بالحق، مر بكل ما يصلح النَّاس، وبكل ما تصلح به الحياة، للفرد وللأسرة وللجماعة. الأمر بالعطاء ومساعدة ذوي الحاجات، وفعل الخير مع كل النَّاس، كل هذا على المسلم أن يأمر به، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، لا بدَّ أيضًا أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر.

QaradawiBooks.com

موقف المسلم من الجاهلين:

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، من الجاهلون؟ الجاهلون هم: السفهاء، هم الَّذين يؤذون أهل الفضل من النَّاس بالإساءة في الكلام، بالسخرية، بالاستهزاء، بالتعدي، بالهمز واللمز، هؤلاء لا ينبغي للإنسان أن يهتم بهم، ولا يجعل لهم مساحة في حياته ولا في تفكيره، لأن الدُّنْيا أهون من أن يشغلها الإنسان بالرد على هؤلاء، والعمر أقصر من أن يضيع في مخاطبة هؤلاء، في رد السيِّئة بالسيِّئة، والسب بالسب، والشتم بالشتم، العمر نفيس، الوقت هو الحياة.

أتضيِّع حياتك في التعامل مع هؤلاء الناس؟! هؤلاء خير شيء لهم هو الإعراض عنهم، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، ولذلك يقول القرآن في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، لا يردون على الجهل بالجهل، ولا على السيِّئة بالسيِّئة، كما قال الله تعالى في وصف قوم مؤمنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، بهذا أطفأ النار، وحلَّ المشكلة بالإعراض، ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، هذا شأن الإنسان المؤمن، كما يقول الشاعر:

وإنْ بُليتَ بشخصٍ لا خَلاقَ له ... فكنْ كأنَّكَ لم تسمعْ ولم يَقُلِ[1]

كما يقول الناس: سُدَّ أذنًا من طين وأذنًا من عجين. ولا تدخل في مهاترة أنت وهو وتضيِّع عمرك وحياتك، فهذا لا يُجدي شيئًا، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

(١) البيت من لامية صلاح الدين الصفدي. انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٤٣٤/٢)، نشر مؤسسة المعارف، بيروت.

QaradawiBooks.com

في عهد سيِّدنا عمر جاءه رجل أعرابي من زعماء القبائل من البادية، اسمه: عيينة بن حصن الفزاري، فدخل على عمر وقال: هِيه يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتَّى همَّ أن يُوقع به، فقال له ابن أخيه الحر بن قيس وهو من النفر الَّذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، والقراء هم: الَّذين يحفظون القرآن، وكان حفظ القرآن يتضمن المعرفة بمعاني الآيات، فكلمة القراء يعني العلماء، فكان سيِّدنا عمر يقرّب العلماء، وكان الحر بن قيس من هؤلاء المقرّبين من سيِّدنا عمر، فلمَّا رأى عمر قد غضب من قول عيينة قال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، يقول سيِّدنا عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنه وهو راوي هذا الحديث: والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله[1]. فما سمع سيِّدنا عمر رضي الله عنه هذه الآية حتَّى نزل على قلبه برد وسلام، وذهب غضبه، وسكن غيظه، واطمأن قلبه، وأعرض عن الرجل.

كل من عصى الله فهو جاهل:

فالإنسان المؤمن يعرض عن الجاهلين، والجاهل هنا ليس المراد به الإنسان الأمي، لا، قد يكون معه دكتوراه ولكنَّه جاهل، لماذا؟ لأنَّه سفيه، هذه لا علاقة لها بالشهادات، إنَّما لها علاقة بالأخلاق، إذا كان الإنسان يتبع هواه وينطلق مع غرائزه ولا يُحَكِّم عقله في سلوكه فهو جاهل مهما أخذ من الشهادات، ولذلك نجد القرآن يعبر ويبين لنا من

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٢)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

هو الجاهل، فكل من عصى الله فهو جاهل، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء: ١٧]، ما دام عمل السوء فهو جاهل، جهل أمر آخرته، جهل أمر الرضا والسخط والجنة والنار ووقع في المعاصي، فلا أجهل منه، ﴿عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النحل: ١١٩]، فالجهل هو تحكيم الغرائز ونسيان العقل والمنطق.

ولذلك تجد سيِّدنا موسى لما قال لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، هنا الجهل ليس الجهل ضد العلم، ولكنَّه الجهل ضد الحلم، الجهل وضع الجَد في موضع الهزل، لا يليق به الجهل، إنَّه يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾، فهل في هذه لعب؟ أقول لكم: الله يأمركم، وتقولون لي: أتمزح معنا؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أن أضع الهزل في موضع الجِد، هذه سفاهة وحماقة لا تليق بإنسان يعرف قدر الله.

سيدنا يوسف حينما جاءت امرأة العزيز بالنسوة ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾، وأعطت كل واحدة منهن من الفواكه، ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾، فخرج عليهن وهنَّ يقطعن الفواكه ويأكلنها، وقد ظنن أنَّ يوسف هذا عبد كأي عبد، ربَّما كان أسود اللون أو مشوه الخِلقة، وإذا بهن يفاجئن بأنَّه إنسان آتاه الله الحسن والرجولة والمهابة، فدهشن لرؤيته حتَّى قطَّعن أيديهن دون أن يشعرن، ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ۝ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣١، ٣٢].

فماذا قال سيِّدنا يوسف؟ انظر إلى كلام سيِّدنا يوسف، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾، أقبل السجن ولا أقبل أن أقع في

QaradawiBooks.com

المعصية، ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فالجهل هنا هو ماذا؟ هو اتِّباع الهوى، اتِّباع الغرائز، المشي وراء الشهوات، هذا هو الجهل، ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فالمفروض أنَّ الإنسان يعرض عن الجاهلين، ويكبِّر دماغه ولا يمشي وراء النَّاس هذه ويضيِّع عمره معهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، افرض أنَّ الشيطان نَخَسَكَ نَخْسَةً وأرادك أن تردَّ السوء بمثله فاستعذْ بالله منه، لا تطاوع نَخَسَات الشيطان، ولا وسوسات الشيطان، ولا دفعات الشيطان، وكنْ مع الله، كنْ مع الرحمن لا مع الشيطان، كنْ مع نداء القرآن لا مع نداء الغريزة، ولذلك جاء في سورة «فصلت»: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦].

فإنَّ الغضبَ نزغة من الشيطان، ونخسة منه، يُثير الإنسان بها ويستفزُّه، فإذا هو يصبح كالوحش، بعد أن كان إنسانًا هادئًا، فالغضب من الشيطان، فإذا نزغ الشيطان في نفسك ونخسك، فلا تستسلم له، واستعذ بالله منه.

استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، وكان أحدهما يسبُّ، وهو مُغضَب قد احمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «**إنِّي لأعرفُ كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم**»[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١١٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٦١٠)، عن سليمان بن صُرَد.

QaradawiBooks.com

إنَّ مجرَّد هذه الكلمة تُذهب الشيطان الَّذي ينفخ في النفس، ويتحكم بالإنسان عند الغضب وعند الشـــهوة، فالشيطان يتحكَّم في الإنسان عند الشهوة وعند الغضب، وتستطيع أن تقهر الشيطان وأن تذلَّه، وأن تُضعف كيده، إذا قلت هذه الكلمة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

المؤمن إذا مسَّـه سوء من الشـيطان فأذنب اسـتغفر الله واستدرك ما فرط منه بالتوبة:

ثم قال الله تعالى في الآية التالية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، بيّنـــت الآية أنَّ المتَّقين ليســـوا أنبياء معصومين، ولا ملائكة مطهّرين، بل هم بشـــر من البشر، يُخطئون كما يُخطئ البشر، عندهم شـــياطينهم، وعندهم أنفسهم الأمّارة بالسوء، ولكنَّهم يمتازون بأنَّهم متيقظون لهذه الأنفس، لا يستسلمون لشهواتها، ولا يأتمرون بأهوائهـــا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، تذكروا جـــلال الله، تذكروا رقابة الله عليهم، تذكروا عين الله الَّتي ترى ولا تنام، تذكروا حساب الله لهم، وعقوبته لهم في الدُّنْيا وفي الآخرة، وتذكروا ضعفهم عن احتمال العذاب، فبهذا يُبصر المتقون الطريق، وينزعون عن الضلال والغيّ والانحراف.

تذكروا ذلك كله، فأبصـــروا الغاية، وأبصروا الطريـــق، فابتعدوا عن طريق السوء، ومشوا في طريق الخير، فإذا تذكروا ذلك ورجعوا، رجعوا إلى الله وتابوا إليه، وإن زلت أقدامهم وسقطوا في المعصية، فإنَّهم سرعان ما تستيقظ ضمائرهم، وتلومهم أنفسُـــهم، ويرجعون إلى ربهم، يَقْرَعون بابه تائبين مســـتغفرين، قائلين ما قال أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

QaradawiBooks.com

ليس معنى هذا أنَّ المتَّقين لا يقعون في المعصية، لا، إنَّهم يقعون في المعصية؛ كل إنسان قد يغلبه شيطانه، وقد تغلبه نفسه الأمّارة بالسوء، فيقع في حفرة الشيطان، ولكنَّه لا يستسلم، يرجع إلى نفسه ويلومها ويحاسبها، ويعود إلى ربه فيطلب منه التوبة والمغفرة، الله تعالى يقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، هؤلاء المسرفون على أنفسهم بالمعاصي والمظالم يسميهم الله تعالى عبادًا، لأنَّهم لم ينقطعوا عن عبادته وعبوديته بالمعصية.

فالتقيُّ هو إنسان كالناس، مخلوق من لحم ودم وعصب، ليس ملكًا ذا جناحين، مَيْزته عمَّن سواه أنَّه إذا وسوس له الشيطان وغرَّه بالله الغرور، سرعان ما يستيقظ ضميره، وسرعان ما ترجع إليه نفسه الراضية، اللوَّامة. وسرعان ما يحاسب نفسه ويراجعها.

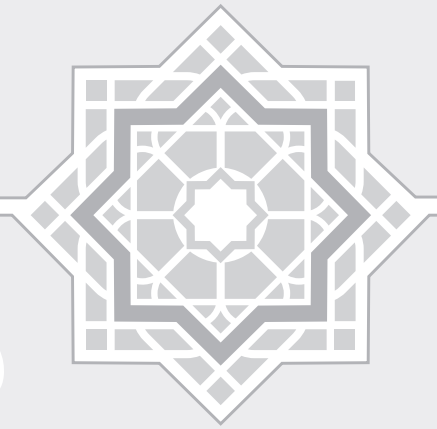
وصف الله تعالى المتَّقين الَّذين أعد لهم جنَّة عرضها السماوات والأرض فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فهؤلاء المتقون ليسوا معصومين ولا مطهَّرين من كل دنس، ولكنَّهم أوّابون إلى الله، رجّاعون إليه، وقد قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٥].

* * *

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي



الفهارس العامة



- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
آمِرُوا النساءَ في بناتهنَّ	٥٥٧
آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان	٨٤
إلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا	٦٠٨
أبهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض!	٤٠٣
أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم	٥٤٤
أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربّ	٤٦٩
أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابَيْن من قبلكم سمعنا وعصينا؟	٣٨٨
اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ	٦٥
أتقرأُ سورةَ البقرة؟ قال: نعم، قال: اذهبْ فأنت أميرهم	٣٨٦
اتَّقوا الله في النساء	٥٤٨
اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله	١٨٣، ٤٦٥
احفظْ عورتَك إلَّا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك. قلتُ: يا رسولَ الله	٨٣١
اخترْ منهن أربعًا وفارِقْ سائرَهنَّ	٥٦٧
أدِّ الأمانة لمن ائتَمَنك، ولا تخنْ من خانك	٦١٥
إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم	٣٩٤، ٤٣٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا	٤٤
إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النَّار	٣٨٩
إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر	٩٦
إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله	٣٢
إذا سقطت لقمة أحدكم فليُمِطْ عنها الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان	٨٤٥
إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصّنت فرجها	٥٥٨، ٥٥٩
إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظرِ الساعة قيل: كيف إضاعتها؟	٦١٤، ٦١٧
إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين	٤٤
اذهبْ فاطرحْ متاعك في الطريق	٦١٠
أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح	٥٥٢، ٨٤٩
أربع مَن كنَّ فيه، كان منافقًا خالصًا، ومَن كان فيه خصلة منهنَّ	٦٥٥
استعنْ بالله، ولا تَعْجِز	٢٩
استوصوا بالنساء خيرًا	٥٤٨
أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمةِ الإخلاص، وعلى دينِ نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ	٨٢٠
اصنعوا كلَّ شيء إلَّا النكاح	٣٠١
أعطيتَ سائر ولدك مثل هذا؟، قال: لا، قال: فاتَّقوا الله واعدلوا	٦٣٨
أفشوا السلام بينكم	٦١١
اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة	٤٨، ٣٨٦
أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا وألطفهم بأهله	٦٩، ٥٤٨
ألا لا يَمْنَعَنَّ أحدَكم رهبةُ النَّاس، أن يقول بحقٍّ إذا رآه أو شهده	٧١١
ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله	١٠٧
اللهمَّ اؤجُرْني في مصيبتي، وأَخْلِفْ لي خيرًا منها	٢٢٣

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
اللهمَّ أَجِرْنا من خزي الدُّنْيا وعذاب الآخرة	١٨٨
اللهمَّ أصلح لي ديني الَّذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي الَّتي فيها معاشي	٢٥٩
اللهمَّ أعنِّي على ذكرك، وشُكْرِكَ، وحُسْن عبادتك	٢١٩
اللهمَّ اغفرْ لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري	٥٨٦، ٥٨٧
اللهمَّ اغفر لي ذنبي، ووسع لي في داري، وبارك لي في رزقي	٨٤٩
اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ	٥٨٧
اللهمَّ باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب	٨٢٣
اللهمَّ ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض	٣٣١، ٤٧٠
اللهمَّ ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك، لا شريك لك، فلك الحمد	٢٠
اللهمَّ هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك	٥٦٨
أليس يُحَرِّمون ما أحلَّ الله فتُحَرِّمونه، ويُحلُّون ما حرَّم الله فتستحلُّونه؟	٧٨٤
أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم	١٢
أُمِرْتُ أن أقاتلَ النَّاس حتَّى يقولوا: لا إلٰه إلَّا الله، فمن قال: لا إلٰه إلَّا الله	٧١٨
أمُّك. قال: ثمَّ من؟ قال: ثم أمك. قال: ثمَّ من؟ قال: ثم أمك	٢٧٩
إنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ الصَّدَقَةُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ	٦٠٥
إنَّ الله تجاوز لأُمَّتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم يتكلَّموا، أو يعملوا به	٣٨٨
إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس	٧٤٤، ٨٣٢
إنَّ الله حينما خلق الجبال عجبت الملائكةُ من شدَّتِها	٣٥٠
إنَّ الله طيبٌ لا يقبل إلَّا طيبًا	٣٤٦
إنَّ الله فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحرَّم حرمات فلا تنتهكوها	١٢٠
إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم	٦٢، ١٠٧
إن الله لم يبعثني معنتًا، ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسِّرًا	٥٠٧، ٨٩٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلةَ فيحمده عليها	٨٤٣
إنَّ الله وملائكته وأهل السماوات والأَرَضين حتَّى النملة في جُحْرها	٥٠٧
إنَّ الله يحبُّ أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته	٣٩٥
إنَّ أوَّل ما دخل النقص على بني إسرائيل: كان الرجل يلقى الرجل	٤٥٣
أن تصلَ مَن قطعك، وَتعطيَ مَنْ مَنَعك، وتصفحَ عمَّن شتمك	٢٨١، ٦٠٥
إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له	٢١
إنَّ الرجل إذا غرم، حدَّث فكَذَبَ، ووعد فأخلف	٨١٤
إنَّ الشيطانَ ينفر من البيت الَّذي تُقْرأ فيه سورةُ البقرة	٣٢٣، ٣٨٦
إنَّ الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنَتان: صدقة وَصِلَة	٢٨٠
إنَّ الصدقةَ على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثِنْتان: صدقةٌ، وَصِلَة	٦٠٥
إنَّ في المال لحقًّا سوى الزكاة	٢٣٧
إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد	٨٧٤
إنَّ قلوب بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبُها كيف يشاء	٤٠
إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا، فهو في سبيل الله	٣٤٧
أن الله حينما خلق الجبال عجبت الملائكةُ من شدَّتِها	٣٥٠
إنَّ لجسدَك عليك حقًّا، وإنَّ لعَيْنَك عليك حقًّا، وإنَّ لزوجَك عليك حقًّا	٨٤٤
إنَّ لله مائةَ رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجنِّ والإنس والبهائم والهوامِّ	٣٣٣
إنَّ من أشرِّ النَّاس عندَ الله منزلةً يوم القيامة: الرجلُ يُفضي إلى امرأته	٥٥٨
إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوْا ظَالِمًا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ	٧٦٣
أنّ النبيَّ ﷺ قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، فقال: عدلًا	٢٠٢
إنَّ هذا القرآن مأدُبةُ اللهِ، فتعلَّموا من مأدبته ما استطعتم	٦٩٨
أنا العاقب فلا نبي بعدي	٦٦٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
أنتم أعلمُ بأمْرِ دُنْياكم	٣٧٦
أنتم توفون سبعين أُمَّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله	٦٣١
أنتَ ومالُك لأبيك	٥٥٥
انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا عجبوا ودهشوا	٦٤١
إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلَّا أجرت عليها	٣٤٦
إنَّما الأعمال بالنيَّة، وإنَّما لامرئ ما نوى	٨٧٢
إنَّما أمرتُكم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن	٣٠١
إنَّما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي	٣٧٦
إنَّما أنا أعلمُكم بالله وأخشاكم له، ولكنِّي أصوم وأُفطر، وأقوم وأنام	٧٤٢
إنَّما أهلك من كان قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه	٦١٧
إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق	١٩٤، ٨١٩
إنَّما بعثتم مُيَسِّرين ولم تبعثوا مُعَسِّرين	٣٩٥، ٤٥٠
إنَّما الطاعة في المعروف	٣٠٣، ٦١٩
إنَّما هلك من كان قبلكم بالتشديد؛ شدَّدُوا على أنفسهم، فشدَّد اللهُ عليهم	٧٤١
إنَّما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكنَّ في الجاهليَّة ترمي بالبَعْرَةِ	٣١٥
إنِّي أرسلت بحنيفيَّة سمحة	٣٩٥
إنِّي إنَّما ظننتُ ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظنِّ، ولكن إذا حدَّثتكم عن الله شي	٣٧٦
إنِّي خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم	٧٨٣
إنِّي سأعرضُ عليك أمرًا لا تستعجلي فيه حتَّى تشاوري أبويك فيه	٨٩٥
إنِّي لأعرفُ كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم	٩٠٠
إنِّي والإنسَ والجنَّ في نبأٍ عظيم، أخلق ويُعْبَد غيرى، أرزق ويَشْكُر سواي	٥٨٨
أوَّلُ ما دخل النقص على بني إسرائيل	٧٦٧
أولئك الَّذين غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم ترَ عين	٤٦٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إيَّاكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث	٨٨٤
الإيمانُ أن تؤمنَ باللهِ، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث	٢٣٦
الإيمان بضعٌ وسبعون شُعبة، والحياءُ شعبة من الإيمان	٦٨
أين الليل إذا جاء النهار؟	٤٧٠
أيؤذيك هوامُّ رأسك؟ قال قلت: نعم. قال: فاحلق، وصم ثلاثة أيام	٢٥٠
ب	
بحَسْبِ امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم	٨٤٢
بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمْحة	٨٢٠
بلى، إنَّهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام، فاتبعوهم	٧٧٩
ت	
تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله، وسُنَّتي	٦٢٠
تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فإنِّي مكاثرٌ بكم الأنبياء يوم القيامة	٨٥٦
تصدق رجل من دينار، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره	٤٧٤
تُطعم الطعام، وتقرأ السلامَ على من عرفت ومن لم تعرف	٦١١
تعبدُ اللهَ ولا تُشْركُ به شيئًا، وتقيم الصلاةَ، وتؤتي الزكاة، وتصل الرَّحِم	٥٠٠
التَّقوى هاهنا، التَّقوى هاهنا، التَّقوى هاهنا	٦١، ١٠٧، ٤١٧، ٤٣٧، ٦٨١
ث	
ثلاثة لا يدخلون الجنَّة: مدمن الخمر، ومصدِّق بالسحر، وقاطع الرحم	١٨٤
ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلِّقها	٣٧٤
ج	
جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم	٣٦٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ح	
حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله	٤٦٠
حسبنا الله ونعم الوكيل	٥١٧
الحسنةُ عندي بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة	٣٣٢
الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني	١٢
الحمد لله الَّذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور	١٩
الحمد لله الَّذي أذهب عنِّي الأذى وعافاني	٢٠
الحمد لله الَّذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين	١٩، ٨٠٧
الحمد لله الَّذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا	٨٠٧
الحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصَّالحات	١٩
الحمد لله الَّذي جعله عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا	١٩، ٨٠٧
الحمد لله الَّذي عافاني ممَّا ابتلاك به، وفضَّلني على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلًا	٢٠
الحمد لله على كلِّ حال	١٩
الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه، ربنا	٨٠٧
خ	
خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي	٥٤٨
د	
دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة	٧٥٥
دعوني ما تركتكم، إنَّما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم	١٧٢
الدنيا متاع، وخير متاع الدُّنْيا المرأة الصالحة	٥٥٨، ٧٣٨، ٨٤٩
الدُّنيا ملعونة ملعون ما فيها إلَّا ذكر الله	١٣
الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ	٧٧٠، ٨٦٠

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ر	
ربِّ اغفرْ لي وتبْ عليَّ، إنَّك أنت التوَّاب الرحيم	٥٨٦
رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى	٨٩٣
ردَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتُّل	٧٤١
س	
سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك اللهمَّ اغفرْ لي	٥٨٦
سبحانك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلٰه غيرك	٨٢٣
سبق درهم مائة ألف قالوا: وكيف ذاك يا رسولَ الله؟	٤٧٣
السلام عليك أيُّها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين	٢٦٦
ش	
شاور ﷺ أم سلمة يوم الحديبية	٣١٢
ص	
صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء	٦٥٤
صدقة السر تطفئ غضب الرب	٣٥٩
الصلواتُ الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان	٤٧٩
صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا	٢٠٤
صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا	٦٣٨
ط	
الطاعون رجسٌ أرسل على طائفة من بني إسرائيل	٥٠٢
ظ	
الظلمُ ثلاثةٌ: فظلمٌ لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه الله	٥٨٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ع	
عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله	٦٤٥
على ابن آدم الأوَّل كفل من دمها	٦٨٦
على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، ما لم يُؤمر بمعصية	٦١٩
العمرة إلى العمرة كفَّارة لما بينهما، والحجُّ المبرورُ ليس له جزاء إلَّا الجنَّة	٣٣٣
ف	
فإذا رأيتم الَّذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الَّذين سمَّى الله، فاحذروهم	٤٠٢
فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك	٢٩٩، ٥٥٨
فأقامني وراءه، خدي على خدِّه	٥٤٩
فإنَّما بعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين	٤٥٩
في بُضْعِ أحدكم صدقة. قالوا: يا رسولَ الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر	٨٢٢
فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح. أنت أوَّل الرسل إلى أهل الأرض	٤١٠
ق	
قال الله ﷻ: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقتُ الرحم، وشققتُ لها من اسمي	٢٨٠
قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت	٤٦٩
قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد	١٢
قد فعلتُ	٨٥٠
قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها	٢٧٥
قولوا: سمعنا وأطعنا وسلَّمْنا. قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم	٣٩٥
ك	
كان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل	٣٦١
كان رجل يكتب بين يدي رسول الله ﷺ	٣٨٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض	٣٠٤
كفَّ عنَّا جُشَاءك، فإنَّ أكثرهم شِبَعًا في الدُّنيا، أطولهم جوعًا يوم القيامة	٨٣٣
كل ابن آدم خطَّاء	٤٩٦
كلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه باسم الله فهو أبتر	١٣
كلُّ بني آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التَّوَّابون	٤٦٨
كلُّ كلام أو أمرٍ ذي بال لا يُفْتَح بذكر الله، فهو أبتر. أو قال: أقطع	١٤
كلُّ مُسْكِرٍ خمر، وكلُّ خمر حرام	٧٥٢
كلا والله لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر	٤٥٣
كلاكما محسن، ولا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا	٤٦٦
كلكم ضال إلا من...	٢٤٥
كلوا، واشربوا، وتصدَّقوا، والبسوا، في غير إسرافٍ، ولا مخيلةٍ	٨٣٣
كنتُ أشرب وأنا حائض، ثمَّ أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ	٣٠٤
كنتُ سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يُبصر به، ويده الَّتي يبطش بها	٧٠٤
ل	
لا إيمان لمن لا أمانة له	٦١٥
لا تتمنَّوْا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا	٢٦٧
لا تجدون أولئك خياركم	٥٦١
لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا	٤٤٢
لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَ الْيَهُود فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِم الله بِأَدْنَى الْحِيَل	٨٧٢
لا ترجعوا بعدي كُفَّارًا يضرب بعضُكم وجوه بعض	٤٤٢
لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين	٤٥٩، ٧٠٣
لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ	٤٠٨

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لا تقولوا للمنافق سيد، فإنَّه إن يك سيِّدًا فقد أسخطتم ربكم ﷻ	٩٠
لا صلاة لِفَرْدٍ خلف الصف	٣٣
لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	٤٤
لا ضرر ولا ضرار	٣٨١، ٥٩٤
لا طاعة في معصية الله	٣٠٢
لا، ولكنَّ الكِبْرَ من بَطِرَ الحقَّ، وغَمَطَ النَّاس	٧٤٤
لا يجلد أحدُكم امرأتَه جلدَ العبد، ثمَّ يجامعُها في آخر اليوم	٥٦٠، ٦٠٢
لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر	١٣٦، ٨٤٢
لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنةً (أي: لا يبغض) إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر	٥٥٠
لا يقبل اللهُ صدقةً من غُلول	٣٤٦
لا يؤمن أحدكم حتَّى يحب لأخيه ما يحب لنفسه	٦٨
لتتَّبعُنَّ سَنَن من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع	٤٢، ٤٤٢
لتعلمَ يهودُ أنَّ في ديننا فُسْحَةً، إنِّي أُرْسِلْتُ بحنيفيَّةٍ سَمْحة	٨٢٠
لجميع أُمَّتي كلِّهم	٥٨٤
لقد علمت أنَّك أحب أرض الله إليه، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت	٢٨٩
لقنوا موتاكم ـ أي: مُحْتَضَريكم ـ لا إلٰه إلَّا الله	٣٢٧
لكلِّ غادرٍ لواءٌ يوم القيامة	٦٥٤
للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته	٥٨٩
لله مائةَ رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجنِّ والإنس والبهائم والهوامِّ	٣٣٣
لما أصيب إخوانكم بأُحُد، جعل الله ﷻ أرواحهم في أجواف طير خُضْر	٥١٢
لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن	٢٥١
لو اغتسلتم	٨٣٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لولا القِصاصُ لضربتُكِ بهذا السِّوَاك	٥٦٠، ٦٠١
لولا أنِّي رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك	٢١٧
ليس أولئك بخيارِكم، ولن يضربَ خيارُكم	٦٠٠
ليس الخبر كالمعاينة	٣٤١
ليس الشديد بالصُّرَعة، إنَّما الشديد الَّذي يملك نفسه عند الغضب	٤٧٦
ليس مِنَّا من تطيَّر أو تُطُيِّر له، أو تكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له	١٨٤
ليس منا مَن دعا إلى عصبيَّة، وليس منا مَن قاتل على عصبيَّة	٤٤٣، ٦٤١
ليس مِنَّا مَن لطم الخدودَ، وشقَّ الجيوبَ، ودعا بدعوى الجاهليَّة	٢٢٤
م	
ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام	١٢٠
ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة	٥٩٨
ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام	٧٣٨
ما شبع آل مُحَمَّد ﷺ في المدينة، من طعام البُرِّ ثلاث ليال تباعًا، حتَّى قبض	٨٩٤
ما ترون أنِّي صانع بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم	٤٧٨
ما تقولون في الزنى؟ قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة	٦٠٩
ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتَّى ظننتُ أنَّه سيُوَرِّثه	٦٠٨
ما ضرب رسولُ الله ﷺ امرأةً له ولا خادما	٥٦١
ما عال من اقتصد	٨٤٦
ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنه، بحَسْبِ ابنِ آدم لُقَيْمَات يُقِمْنَ صُلْبَه	٨٣٣
ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة	٨٢٤
ما من نبيٍّ بعثه الله في أُمَّة قبلي إلَّا كان له من أُمَّته حواريُّون وأصحاب	٧٦٨
ما من نفسٍ تُقتل إلَّا كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كفلٌ من دمها	٦٨٥

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ماذا معك من القرآن؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة	٣٢٣
المائدة من آخر القرآن تنزيلًا فأحلُّوا حلالها وحرِّموا حرامها	٦٨٩
مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله والواقعِ فيها كمَثَلِ قَوْمٍ استهموا على سفينةٍ	٧٦٥
مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي على قومٍ تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نار	١٦٠
المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يَحْقِره	٤٤٣، ٧٤٤
معك سورة البقرة؟ قال: نعم. قال: اذهبْ فأنت أميرُهم	٤٧
ملعونٌ من أتى امرأتَه في دبرها	٣٠٢
من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يُصلِّي من الليل	٣٨٩
من استعملناه على عمل فرزقناه رزقًا ـ منحناه راتبًا ـ	٥٩٢
من تردَّى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردَّى فيه خالدًا مخلدًا فيها	٥٩٣
من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيِّب، ولا يقبل الله إلَّا الطيِّب	٣٤٤
من توضَّأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده	٣٣٢
من حجَّ فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُق، رجع من ذنوبِه كيوم ولدتْه أُمُّه	٢٥٣، ٣٣٣
من رأى منكم منكرًا فليُغَيِّره بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه	٤٤٠، ٧٦٨، ٨٧٦
من سرَّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فلْيقرأْه على قراءة ابن أمِّ عبد	٥٨٩
من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة	٦٨٦
من سُئل عن علمٍ فكتمه، أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجامٍ من نار	٢٣٢
من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من ذنبه	١٤٥، ٣٣٣
من عَقَدَ عُقدةً ثمَّ نفث فيها فقد سَحَر، ومن سَحَر فقد أشرك	١٨٢
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﷻ	٣٥٨، ٧٢٣
من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدَّم من ذنبه	٣٣٣
من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه	٣٨٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى	٥٦٨
من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ فلا يؤذِ جاره	٦١٠
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقعدْ على مائدةٍ تدارُ عليها الخمر	٧٥٤
مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ	٦٠٦
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ جاره	٦١٠
من كظم غيظًا وهو قادر على أن يُنفذه، دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق	٤٧٧
من مُحَمَّد رسول الله إلى مُسَيْلِمة الكذَّاب	٧١٦
مَن يذهب في إثرهم؟	٥١٧
المؤمن من أمنه النَّاس على دمائهم وأموالهم	٦٨
ن	
ناوليني الخُمْرة من المسجد. قالت: يا رسولَ الله، إنِّي حائض	٣٠٣
نحن أحق بالشك من إبراهيم	٣٤١
نهى عن الأغلوطات	٢٣٢
هـ	
هل تسمع النداء بالصلاة؟. قال: نعم. قال: فأجب	٣٣
و	
واعلم أنَّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأنَّ النصر مع الصبر	٢٧٦
والذي نفسي بيده إنَّها لتعدل ثلث القرآن	٣٢٤
والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب، فيحطب، ثم آمر بالصلاة	٣٣
والَّذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون	٤٦٨
والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم	٣١١
وَالمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلَّا شَرْطًا حَرَّمَ حَلَالًا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا	٦٥٣

QaradawiBooks.com

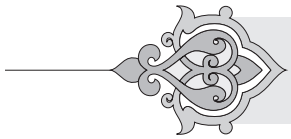
الحديث	رقم الصفحة
وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه	٦٨٣
وإنِّي خلقتُ عبادي حُنَفَاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دِينهم	٧٣٩
وجَّهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين	٨٢٣
ورجل تصدق صدقة فأخفاها، حتَّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه	٣٥٩
وفيما سقت السماء العُشر	٨١٣
وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا	٥٥١
ولن يضرب خيارُكم	٥٦١
ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن	٤٨٦
وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم	٥١٠
وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله	٥٦١
وماذا أعددتَ لها؟ لماذا تسأل عن الساعة؟ هل أنت مستعدٌّ لها؟	٦٢٩
ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن	١٨٨
ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه	١٤٥
ومن كظم غيظه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة	٤٧٧
ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنةٌ كاملة	٣٨٨
وهذه سُبُل، على كُلِّ سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه	٣٧
ي	
يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟. قال: الله ورسوله أعلم	٣٢٤
يا أبا هُرَيْرة، ما فعل أسيرك البارحة؟	٣٣٨
يا أصحابَ سورة البقرة	٣٨٧
يا جابرُ، ما لي أراك منكسرًا؟	٥١٥
يا حنظلة، ساعةٌ وساعة	٧٣٨

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
يا عبادي إنِّي حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما	٦٣٧
يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته، فاستهدوني أهدكم	٤٠
يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ	٢٤٥، ٥٨١
يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج	٥٦٩
يا معشرَ المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهليَّة وأنا بين أظهركم؟!	٤٣٥
يا معشرَ يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا	١٤٨
يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك	٤٠
يُجاء بالرجل يومَ القيامة فيُلقى في النَّار، فتندلقُ أقتابُه	١٦٠
يد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار	٥٦٤
يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا	٣٩٥، ٨٩٤
يقول الله: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني	٥٨٨
اليهود مغضوب عليهم، والنَّصارى ضالون	٤٦٢، ٧٣١
يؤتى بأنعمِ أهلِ الدُّنْيا من أهل النَّار يوم القيامة، فيصبغ في النَّار صبغة	٢١٠، ٥٢٣

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com



فهرس الموضوعات

❖ **من الدستور الإلهي للبشرية** ٤

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥

• **مقدمة** ٧

• **دروس في تفسير سورة الفاتحة** ٩

❖ **في رحاب سورة الفاتحة** ١١

القرآن أنزله الله للتدبُّر ١٢

بداية التفسير ١٢

أسماء سورة الفاتحة ١٢

قواعد التوجيه للحياة الإسلاميَّة في سورة الفاتحة ١٣

القاعدة الأولى: المسلم يبدأ أعماله باسم الله ١٣

ما تضمَّنته البسملة من أسماء الله الحسنى ١٥

اجتماع اسمَيْ «الرحمن الرحيم» في القرآن ١٦

القاعدة الثانية: الاعتراف بالجميل لربِّ العالمين ١٧

معنى الحمد ١٧

الحمد على النِّعَم ١٧

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الحمد والشكر ١٨
القرآن يُعلِّمنا أن نحمد الله على نعمائه الكثيرة ١٨
ليس في القرآن كله: «إنَّ الحمد لله» ٢٠
معنى الربوبيَّة ٢١
معنى العالَمين ٢٢
معنى الربوبيَّة ٢٣
«ربُّ العالمين» تأكيد للنزعة العالميَّة في الإسلام ٢٣
تكرار «الحمد» في القرآن ٢٥
القاعدة الثالثة: الرحمة الواسعة الدائمة ٢٥
القاعدة الرابعة: الله وحده المالك ليوم الجزاء ٢٦
الجمع بين الترغيب والترهيب ٢٧
تقرير قضيَّة المصير ٢٧
لا شفاعة يوم الحساب إلَّا بإذن الله ٢٨
القاعدة الخامسة: حقيقة التوحيد إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة ٢٨
تقرير توحيد الإلٰهيَّة وتوحيد الخالقيَّة ٢٩
لماذا قدَّم الله العبادة على الاستعانة؟ ٣٠
الفاتحة جامعة معاني القرآن، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جامعة معاني الفاتحة ٣١
الإسلام دين جماعي ٣٢
القاعدة السادسة: الهداية أعظم ما يطلب العبد من ربه ٣٤
أنواع الهداية ٣٤

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أولًا: الهداية البيانيَّة ٣٥
ثانيًا: الهداية التوفيقيَّة ٣٦
ما الصراط المستقيم؟ ٣٧
إلى من يُنسب الصراط المستقيم؟ ٣٨
كيف يسأل المسلم الهداية وهو مهتدٍ؟ ٣٩
القاعدة السابعة: انقسام النَّاس مع الصراط المستقيم إلى ثلاثة أقسام ٤٠
طريق المسلم طريق متميّز ٤١
اليهود والنَّصارى بين الإفراط والتفريط ٤٣
كلمة «آمين» ليست من الفاتحة ٤٤

• دروس في تفسير سورة البقرة ٤٥

❖ الدرس الأوَّل: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ٤٧

فضل سورة البقرة ٤٧
الحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾ ٤٨
﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ ليسا من أسماء النبيِّ ﷺ ٤٩
أقوال المفسرين في معنى الأحرف المقطعة ٤٩
الحروف المقطعة إشارة إلى الإعجاز القرآني ٥٠
رأيي الَّذي أطمئنُّ إليه في معنى الحروف المقطعة ٥١
الحروف المقطعة سِرٌّ من أسرار الله ٥٢
﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ٥٢
الكتاب هو القرآن، وهو الفرقان، وهو الذكر ٥٢

QaradawiBooks.com

القرآن مقطوع بأنَّه من عند الله ٥٤
من تأثير القرآن على المرضى وغيرهم ٥٥
حفظ الله للقرآن الكريم ٥٧
الوقف الَّذي أستريح إليه ٥٨
أنتم النَّاس أيُّها الأتقياء ٥٨
الأتقياء هم الَّذين ينتفعون بالقرآن ٥٩
❖ **الدرس الثاني: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾** **٦٠**
مفهوم التَّقوى وثمراتها ٦٠
معنى التَّقوى ٦١
التَّقوى أساسها القلب ٦١
أعمال الجوارح من ثمرات التَّقوى ٦٢
سورة البقرة تُعنى بالمتَّقين ٦٣
اتَّق الله حيثما كنتَ ٦٥
❖ **الدرس الثالث: صفات المتَّقين** **٦٦**
الإيمان بالغيب ٦٦
حقيقة الإيمان الإسلامي ٦٧
الإيمان في القرآن ٦٧
الإيمان في السُّنَّة ٦٨
إيمان سحرة فرعون ٦٨
الإيمان بالغيب دلالة على الرشد الإنساني ٦٩
أعظم الإيمان بالغيب: الإيمان بالله ٧١
القرآن يذكر أركان الإيمان مجملة ومفصلة ٧١

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إقامة الصلاة ٧٣
الإنفاق من رزق الله ٧٣
الإيمان بما أنزل الله على رسله ٧٤
اليقين بالآخرة ٧٤
معنى اليقين ومراتبه ٧٦
جزاء تحقيق التَّقوى هو الفلاح ٧٧
❖ **الدرس الرابع: الكفَّار المعاندون وجزاؤهم الدنيوي والأخروي** ٧٨
إعراض الكفَّار والختم على قلوبهم وأسماعهم ٧٨
معنى الإنذار ٧٩
الكفار أغلقوا عقولهم وحواسهم عن الإيمان ٨٠
الختم على القلوب جزاء دنيوي من الله على إعراضهم ٨١
جزاء الكافرين المعرضين في الآخرة ٨١
❖ **الدرس الخامس: صفات المنافقين وأقسامهم وضرب الأمثال لهم** ٨٢
أصناف ثلاثة من البشر تجاه هداية القرآن ٨٢
المنافقون الخطر الأكبر على المجتمعات ٨٣
أقسام النفاق ٨٤
نفاق العقيدة هو المقصود في هذه الآيات ٨٤
المنافق له وجهان ٨٥
اهتمام القرآن بذكر المنافقين ٨٥
حديث سورة آل عمران عن المنافقين ٨٧
المنافقون يطلبون العزَّة عند أعداء الإسلام ٨٧

غير مرخص للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

تخلُّف المنافقين عن الجهاد مع رسول الله ٨٩
المنافقون أبواق للكافرين ٩٠
صفات المنافقين في سورة البقرة ٩١
ادِّعاء الإيمان ٩١
المنافقون مرضى القلوب ٩٢
جزاء خداع المنافقين وكذبهم ٩٢
ادِّعاء الإصلاح ٩٢
تطاولهم على المؤمنين واستهزاؤهم ٩٣
المنافقون أولياء للشياطين وأعداء الأمة ٩٣
استهزاء الله بالمنافقين ٩٤
خسران المنافقين ٩٤
مثلان للمنافقين في القرآن الكريم ٩٥
تحذير النبيِّ من النفاق الأصغر والأكبر ٩٦
المنافقون يريدون أن يجعلوا الأمة تابعة ٩٧
❖ **الدرس السادس: نداء الله تعالى للنَّاس كافة ٩٨**
نداءات القرآن ٩٨
نداء بني آدم ١٠٠
نداء عباد الله ١٠٠
نداء الإنسان ١٠١
الحقائق الأولى في الإسلام ١٠١
الأمر بعبادة الرب الخالق وحده ١٠٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة موازنة
QaradawiBooks.com

عبادة الله وحده هي دعوة الأنبياء جميعًا ١٠٢
معنى الرب ١٠٣
معنى الخلق ١٠٤
معنى العبادة ١٠٥
مجالات العبادة ١٠٥
الربط بين الخلق والعبادة ١٠٦
العبادة تؤهِّل للتقوى ١٠٦
ما معنى التَّقوى؟ ١٠٧
من نعم الله على عباده ١٠٨
لا تجعلوا لله أندادًا ١١٠

❖ **الدرس السابع: ضرب الأمثال وموقف المؤمنين والكافرين منه ١١١**
الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن ١١١
من أوصاف الفاسقين ١١٣
١ ـ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ١١٤
٢ ـ يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ١١٤
٣ ـ يفسدون في الأرض ١١٤

❖ **الدرس الثامن: من موجبات الإيمان ١١٥**
المخاطب بهذه الآيات ١١٥
كيف يكفر النَّاس بربِّهم الَّذي خلقهم؟ ١١٦
سِرُّ الحياة دليل على وجود الله ١١٧
بعد الحياة موت، وبعد الموت حساب ١١٧

نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

النعمة تدلُّ على المنعِم ١١٨
كلُّ ما في الأرض حلال إلَّا ما حرّمه نصٌّ قاطع ١١٩
دعوة إلى التأمل في الكون واكتشاف مغاليقه ١٢١
كيف نفهم معنى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ١٢٢
السماوات السبع ١٢٢
التسوية للخلق جميعًا ١٢٣
❖ **الدرس التاسع: قصَّة خلق آدم ١٢٤**
قصَّة الإنسان الأوَّل (آدم عليه السلام) ١٢٤
معنى ﴿جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ ١٢٥
الأولى في تفسير معنى الخليفة ١٢٦
تعبير «الإنسان خليفة الله في الأرض» من تعبيرات السلف ١٢٧
خلافة الأرض لآدم وذريَّتِه من بعده ١٢٧
كيف علم الملائكة أنَّ الإنسان سيفسد في الأرض؟ ١٢٨
تصوُّر الملائكة للخلافة في الأرض ١٢٩
إنِّي أعلم ما لا تعلمون ١٢٩
تعليم آدم الأسماء كلها ١٣١
تعليم آدم الأسماء كلِّها ١٣١
قيمة العلم في الإسلام ١٣٢
المراد بعلم أسماء الأشياء ١٣٣
عرض الأسماء على الملائكة ١٣٤
إثبات الله للملائكة استحقاق آدم للخلافة ١٣٤

غير مرخص للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس العاشر: تتمَّة قصَّة آدم ١٣٥**

تكريم الإسلام للإنسان ١٣٥

سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وعناده ١٣٦

هل كان إبليس من الملائكة؟ ١٣٧

المعركة بين الشيطان والإنسان ١٣٧

عالَم الغيب ١٣٩

أمر الله آدم وزوجه بسُكنى الجنَّة وعدم الأكل من الشجرة ١٤١

سُنَّة الازدواج في الكون ١٤١

التكليف لآدم وزوجه جميعًا ١٤٢

غواية الشيطان لآدم وزوجته ١٤٢

القرآن حمَّل آدم مسؤوليَّة الأكل من الشجرة ١٤٢

الهبوط إلى الأرض ١٤٣

الفرق بين معصية آدم وإبليس ١٤٣

المنهاج الَّذي ينبغي أن يسير عليه آدم وذريته ١٤٤

❖ **الدرس الحادي عشر: بنو إسرائيل في القرآن الكريم ١٤٥**

تهنئة بقدوم رمضان ١٤٥

وقفات مع التفسير الموضوعي ١٤٦

بنو إسرائيل في القرآن ١٤٦

التديُّن الصحيح ١٤٧

حديث سورة آل عمران عن بني إسرائيل ١٤٧

إعراضهم عن تحكيم التوراة ١٤٨

نسخة إلكترونية غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

ردُّ المسلمين عن دينهم ١٤٩
الدسُّ والوقيعة بين المسلمين ١٥٠
حديث سورة النساء عن بني إسرائيل ١٥٠
أساليب اليهود في رد المسلمين عن دينهم ١٥١
توجيه الأسئلة المتعنتة للنبيِّ ﷺ بقصد تعجيزه ١٥٢
من جرائم اليهود التي ذكرها القرآن ١٥٢
الجريمة الأولى: طلبهم من موسى أن يروا أرنا الله جهرة ١٥٢
الجريمة الثانية لبني إسرائيل: عبادتهم العجل ١٥٣
الجريمة الثالثة: مخالفتهم أوامر الله ١٥٣
الجريمة الرابعة: نقضهم لميثاق الله ١٥٤

❖ الدرس الثاني عشر: من وصايا الله لبني إسرائيل ١٥٦

▫ الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتحذير من مخالفة الأعمال للأقوال ١٥٦

الزكاة شقيقة الصلاة ١٥٦
النكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله ١٥٩
العلم إنَّما يراد للعمل به ١٦١

❖ الدرس الثالث عشر: كفران بني إسرائيل ١٦٣

كفران بني إسرائيل بنعم الله ١٦٣
الخطاب في الآيات للمعاصرين للنبيِّ ﷺ ١٦٤
سوء أدب بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام ١٦٤
استبدال حياة الهوان بحياة العزَّة ١٦٦
عقاب الله لهم لسوء أدبهم ١٦٦

غير مرخصة للبيع
نسخة محتبية
QaradawiBooks.com

أساس مثوبة الله تعالى: الإيمان والعمل الصالح ١٦٨
لا يسع أحدًا الكفرُ برسول الله ﷺ ١٦٩

❖ **الدرس الرابع عشر: قصَّة البقرة** **١٧٠**
تشديد بني إسرائيل على أنفسهم فشدَّدَ الله عليهم ١٧٠
لماذا كان الأمر بذبح البقرة؟ ١٧٣
الطبيعة الإسرائيليَّة طبيعة قاسية ١٧٣

❖ **الدرس الخامس عشر: تكذيب بني إسرائيل للأنبياء** **١٧٥**
موقف بني إسرائيل من أنبيائهم وكتبهم ١٧٥
معنى الكتاب ١٧٦
اليهود يُحكِّمون الهوى ولا يتَّبعون الهدى ١٧٦
دعوى اليهود بأنَّ قلوبهم مغلقة ١٧٧
اليهود يستفتحون على المشركين بمحمد ﷺ ثمَّ يكفرون بنبوَّته ١٧٨
لماذا كفر اليهود بالنبي ﷺ ؟ ١٧٨

❖ **الدرس السادس عشر: تحريم الإسلام للسحر** **١٨١**
كلام العلماء عن: «هاروت وماروت» ١٨١
موقف الإسلام من السحر والسحرة ١٨٢
مقاومة الإسلام للسحر والسحرة ١٨٣

❖ **الدرس السابع عشر: ظلم الكفَّار في حق الله وحق عباده** **١٨٦**
أشدُّ أنواع الظلم ١٨٦
عُمَّار المساجد ١٨٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

عموم الآية لكل من منع إعمار المساجد بالعبادة ١٨٧
الجهات كلُّها لله ١٨٩
تنزيه الله عن الصاحبة والولد ١٨٩
❖ **الدرس الثامن عشر: الإسلام دين الأنبياء جميعًا ١٩٣**
معنى الإسلام ١٩٣
اختلاف الشرائع ١٩٥
❖ **الدرس التاسع عشر: تحويل القبلة ١٩٧**
محاولة اليهود تشكيك المسلمين في عقيدتهم ١٩٧
الأمّة الإسلاميَّة هي الأمَّة الوسط ١٩٩
المسلمون أُمَّة واحدة ٢٠٠
معنى وسطيَّة الأُمَّة ٢٠٠
الأُمَّة المحمَّديَّة شاهدة على النَّاس ٢٠١
الحكمة من تحويل القبلة ٢٠٢
القبلة عنوانٌ وحدة الأمَّة ٢٠٥
لا تخفى على الله خافية ٢٠٥
❖ **الدرس العشرون: نعمة بعثة النبي مُحَمَّد ﷺ ٢٠٩**
منزلة النعم الدينيَّة ٢١٠
النبيُّ ﷺ أعظمُ نِعْمَةً ٢١١
نعمة الرسول تستحقُّ الذِّكْر والشكر لله ٢١١
مهمَّات النبيِّ ﷺ ٢١٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

القرآن ليس من كلام مُحَمَّد ﷺ ٢١٣
القرآن غيَّر العرب ٢١٣
المهمَّة الثانية ٢١٥
معنى التزكية ٢١٥
جناية الجاهلية على الإنسان ٢١٧
المهمة الثالثة ٢١٧
أنواع الحكمة ٢١٧
وجوب ذكر الله تعالى وشكره ٢١٨
❖ **الدرس الحادي والعشرون: الابتلاء طبيعة الحياة الدنيا ٢٢١**
بلاء ممزوج باللطف ٢٢١
أجر الصابرين ٢٢٢
استرجاع أمِّ سَلَمَة ٢٢٣
من مظاهر الجزع عند المصيبة ٢٢٣
❖ **الدرس الثاني والعشرون: الأكلُ من الطيِّبات ٢٢٥**
معنى الطيِّبات ٢٢٥
المحرَّمات محدودة ٢٢٦
الحكمة من تحريم بعض الأطعمة ٢٢٧
الضرورات تبيح المحظورات ٢٢٨
عاقبة كتمان آيات الله واستبدالها بمتاع الحياة الدُّنْيا ٢٢٩
حرمة كتمان العلم ٢٣١

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثالث والعشرون: حقيقة البرِّ كما بيَّنها القرآن الكريم ٢٣٤**

سبب نزول الآية ٢٣٤

مفهوم البرِّ يشمل العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ٢٣٤

لماذا نُصِبَتْ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مع كون ما قبلها مرفوعًا ٢٣٥

الإيمان بالله هو الأساس ٢٣٥

هل في المال حقٌّ غيرُ الزكاة؟ ٢٣٧

❖ **الدرس الرابع والعشرون: وجوب صوم رمضان والحكمة منه ٢٣٩**

نداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ٢٣٩

نداء جديد ٢٤٠

نداء يعلي قيمة الإيمان ٢٤٠

بناء المجتمع المسلم في سورة البقرة ٢٤١

معنى: كتب عليكم ٢٤٢

تكرار لفظ «كُتِبَ» في القرآن ٢٤٢

فرض الصيام ٢٤٣

الصيام فرضه الله على الأمم السابقة ٢٤٤

ما الصيام؟ ولماذا فرضه الله علينا؟ ٢٤٤

❖ **الدرس الخامس والعشرون: في رحاب آيات الحج ٢٤٧**

وجوب إتمام الحج والعمرة ٢٤٨

الأمر بإخلاص النسك لله ٢٤٨

ماذا يصنع المُحْصَر؟ ٢٤٩

محظورات الإحرام ٢٤٩

QaradawiBooks.com

فدية الحلق أو التقصير ٢٥٠
حج التمتع والهدي الواجب فيه ٢٥١
ماذا يفعل المتمتع إذا لم يجد الهدي؟ ٢٥١
ليس لأهل مكَّة ولا القريبين منهم تمتع ٢٥٢
وقت الحج ٢٥٢
أشياء ينبغي أن يطهر الحاج منها حجه ٢٥٢
التزود للحج ٢٥٤
خير الزاد التَّقوى ٢٥٤
الاتِّجار في موسم الحج ٢٥٥
ترفُّع قريش في الجاهليَّة عن الوقوف في عرفات ٢٥٦
أقسام النَّاس في الطلب من الله ٢٥٧
الإسلام دين التوازن ٢٥٨
أخسر الناس ٢٥٩

❖ الدرس السادس والعشرون: محاربة الإسلام للفساد والمفسدين ٢٦١

الإفساد السياسي ٢٦٢
الإفساد الاقتصادي ٢٦٢
الإفساد الأخلاقي ٢٦٣
الإفساد الاجتماعي ٢٦٣
الإفساد الأمني ٢٦٣

❖ الدرس السابع والعشرون: الإسلام دين السلام ٢٦٥

مدلولات كلمة: «السلام» ٢٦٥

QaradawiBooks.com

الإسلام يكره الحرب ٢٦٧
الإسلام ليس متعطِّشًا للدماء ٢٦٧
وجوب الأخذ بشرائع الإسلام جملة ٢٦٧
تحذير القرآن من خطوات الشيطان ٢٧٠
❖ **الدرس الثامن والعشرون: هدايات الله تعالى للبشريَّة ٢٧١**
الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ٢٧١
ثبات المؤمنين أمام الشدائد والمحن ٢٧٤
❖ **الدرس التاسع والعشرون: مفهوم الأسرة في الإسلام ٢٧٨**
الترابط الأسري في الإسلام ٢٧٨
الوصيَّة بالأقربين ٢٧٩
تأكيد السُّنَّة على حقوق الأقارب والأرحام ٢٨٠
الإسلام أمر بالتكافل بين ذوي القربى ٢٨١
الحضارة الحديثة وإضعاف الروابط الأسريَّة ٢٨٢
❖ **الدرس الثلاثون: المعركة بين الحق والباطل مستمرة ٢٨٣**
نهج القرآن في بيان الأحكام ٢٨٣
أسئلة الصحابة كانت عمَّا ينفعهم ٢٨٤
أسئلة لا معنى لها ٢٨٥
سبب نزول الآية ٢٨٥
جواز قتال الدفع في الأشهر الحرم ٢٨٧
سبب نزول الآية ٢٨٨

نسخة مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

معنى الفتنة ٢٩٠
المعركة بين الحق والباطل مستمرة ٢٩١
المعركة بين الحق والباطل مستمرة ٢٩٢
لن يستطيع المشركون ردَّ المسلمين عن دينهم ٢٩٢
خطر الردَّة وواجب المسلمين تجاهها ٢٩٤
جزاء من يرتد عن دينه ٢٩٤
وعد الله للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ٢٩٥

❖ **الدرس الحادي والثلاثون: تحريم الزواج من المشركين وتحريم إتيان المرأة في حال حيضها ٢٩٦**
زواج المسلم بالمشركة ٢٩٦
زواج المشرك بالمسلمة ٢٩٧
الحكمة من تحريم زواج المشركين والمشركات ٢٩٧
زواج المسلم بالكتابية ٢٩٨
تحريم إتيان المرأة الحائض ٣٠٠
معنى الاعتزال في الحيض ٣٠١
تحريم إتيان المرأة في دبرها ٣٠٢
العلة من تحريم إتيان المرأة الحائض ٣٠٣
طهارة الحائض ٣٠٣
جواز الجماع بعد الطهر ٣٠٤
الله يحبُّ التوَّابين ويحبُّ المتطهِّرين ٣٠٥
الاستمتاع بين الزوجين ٣٠٥

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثاني والثلاثون: الرضاع وعناية الإسلام بالطفل ٣٠٧**

الرضاع حقٌّ من حقوق الطفل ٣٠٧

إنْ مات الأب قام بحقوق المُرْضِعة والطفلِ وارثُه ٣٠٩

النهي عن الإضرار ٣٠٩

تشاور الوالدين في شأن الفطام قبل السنتين ٣١٠

الحياة الأسريَّة تقوم على الشورى ٣١١

الاسترضاع وحكمه ٣١٢

عناية الإسلام بالإنسان من مهده إلى لحده ٣١٢

❖ **الدرس الثالث والثلاثون: من أحكام المرأة المتوفَّى عنها زوجها ومتعة المطلقات ٣١٣**

النساء اللائي تُوُفِّي عنهن أزواجهن ٣١٣

القول بنسخ الآية ٣١٤

عناية الإسلام بالمتوفَّى عنها زوجها ٣١٥

ختام الآية ٣١٦

حقُّ المتعة للمطلقة ٣١٦

❖ **الدرس الرابع والثلاثون: قصَّة الملأ من بني إسرائيل ٣١٩**

أسلوب القرآن القصصي ٣١٩

❖ **الدرس الخامس والثلاثون: آية الكرسي ٣٢٢**

من فضائل سورة البقرة ٣٢٢

فضل آية الكرسي ٣٢٣

QaradawiBooks.com

تفاضل الآيات والسور ٣٢٤
لا يوجد كتاب ديني تحدث عن الله مثل القرآن ٣٢٥
آية الكرسيِّ كلُّها وصف لله وثناء عليه ٣٢٦
إثبات الحياة والقيومية لله ﷻ ٣٢٨
ذكر اسمَي الحي القيوم في القرآن ٣٢٩
نفي النوم ومبادئه عن الله ٣٢٩
تفرد الله بالمِلْك والمُلْك ٣٣٠
الشفاعة لله وحده، ولا يشفع أحد إلَّا بإذنه ٣٣١
سَعَة علم الله تعالى ٣٣٤
عدم إحاطة المخلوقات بأدنى شيء من علم الله ٣٣٥
سعة الكرسي ٣٣٥
كلمة عن عالم الغيب ٣٣٦
لا يؤود الله حفظ السماوات والأرض ٣٣٧
عظمة الربِّ وعلوِّه ٣٣٨
آية الكرسي حفظ للمؤمنين من الشيطان ٣٣٨

❖ **الدرس السادس والثلاثون: مراحل اليقين ٣٤٠**
اليقين في قلب الخليل ٣٤٠

❖ **الدرس السابع والثلاثون: فضل الإنفاق في سبيل الله وآدابه ـ ١ ـ ٣٤٣**
الإنفاق في سبيل الله ٣٤٣
المال والإنفاق قوام نهضة الأمم ٣٤٥
من يتصدَّق بالحرام كمن يُطهِّر النجاسة بالبول ٣٤٥

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

المراد بسبيل الله ٣٤٦
فضل الإنفاق في سبيل الله ٣٤٧
حرمة المنِّ والأذى بالصدقة ٣٤٨
الرياء من أوصاف من لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ٣٤٩

❖ **الدرس الثامن والثلاثون: الإنفاق في سبيل الله في سورة البقرة:**
أحكامه وآدابه ـ ٢ ـ ٣٥١
ممَّا ينفق المسلم ٣٥٣
إخراج الزكاة من كل ما أخرجت الأرض ٣٥٣
شبهة الشيوعيِّين على فريضة الزكاة ٣٥٤
كم ينفق المسلم من ماله ٣٥٥
لماذا الإنفاق ٣٥٦
الإنفاق لإعلاء كلمة الله ٣٥٨
متى ينفق المسلم؟ ٣٥٨
الزكاة في المستغلات ٣٥٩
متى ينفق؟ وكيف ينفق؟ ٣٥٩
فضل العلانيَة في إنفاق الفرض ٣٦٠
الإخلاص في الإنفاق ٣٦٠
المحافظة على الإنفاق من المن والأذى ٣٦٠
تضاعف الإنفاق في شهر رمضان ٣٦١

❖ **الدرس التاسع والثلاثون: حكمة الله ﷻ ٣٦٣**
سياق الآية ٣٦٣

QaradawiBooks.com

اسم الحكيم في القرآن ٣٦٣
معنى الحكمة ٣٦٤
حكمة الله في شرعه وخلقه ٣٦٥
الله مصدر كل حكمة ٣٦٦
حكمة لقمان ٣٦٨
الحكمة بداية الخير ٣٦٨
وما يذكر إلَّا أولو الألباب ٣٦٩

❖ **الدرس الأربعون: آية المداينة ٣٧١**
تعدُّد موضوعات سورة البقرة ٣٧١
أبلغ ردٍّ على العِلمانيين ٣٧٣
الأمر بكتابة الدَّيْن ٣٧٤
عناية الله بأمر عباده ٣٧٥
الإسلام دين ودولة ٣٧٥
العدل في كتابة الدين ٣٧٧
النهي عن امتناع الكاتب عن الكتابة ٣٧٧
الذي يملي وثيقة الدَّيْن هو المَدِين ٣٧٧
وليُّ المدين السفيه هو الَّذي يلي الوثيقة ٣٧٨
الشهادة على الدين ٣٧٨
للمرأة أهليَّة مثل ما للرجل ٣٧٩
تكريم الإسلام للمرأة ٣٧٩
النهي عن الامتناع عن أداء الشهادة ٣٨٠

QaradawiBooks.com

الحرص على كتابة الديون والعزم على ذلك ولو كان الدَّيْن صغيرًا تافهًا ٣٨٠
استثناء التجارة الحضارة من الأمر بالكتابة ٣٨١
الإشهاد على البيع الناجز ٣٨١
لا ضرر ولا ضرار ٣٨١
أهميَّة التَّقوى في حفظ الحقوق ٣٨٢
خطأ في فهم هذه الآية ٣٨٣

❖ **الدرس الحادي والأربعون: خواتيم سورة البقرة ٣٨٥**

فضل خواتيم سورة البقرة ٣٨٧
هيمنة الله على الكون ٣٨٧
خوف الصحابة من آية ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ ٣٨٨
التأكيد على أركان الإيمان ٣٩٠
إيمان والتزام وسمع وطاعة لله ولرسوله ٣٩٣
الإسلام دين اليسر ٣٩٣
الدعاء المستجاب ٣٩٥

• **دروس من سورة آل عمران ٣٩٧**

❖ **الدرس الأوَّل: المحكم والمتشابه في القرآن ٣٩٩**

التعريف بالسورة ٣٩٩
القرآن محكَم ومتشابِه معًا ٣٩٩
معنى المحكم والمتشابه ٤٠٠
من يعلم المتشابه من القرآن؟ ٤٠١

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الرسوخ في العلم هو وقوفهم عند ما يعلمون ٤٠١
التحذير من اتِّباع المتشابهات ٤٠٢
❖ **الدرس الثاني: أسرة آل عمران عليهم السَّلام ٤٠٥**
احتفاء القرآن بعيسى المسيح ٤٠٥
الاصطفاء لله تبارك وتعالى ٤٠٨
اصطفاء آدم ٤٠٩
آدم أبو البشريَّة ٤٠٩
نبوة آدم عليه السلام ٤١٠
النبوة اصطفاء ٤١١
نوح أوَّل رسول أرسل إلى قوم مكذبين ٤١١
اصطفاء آل إبراهيم ٤١٢
اصطفاء آل عمران ٤١٣
عناية القرآن بالأمَّهات الصالحات ٤١٤
امرأة عمران تنذر ما في بطنها نذرًا خالصًا لله ٤١٤
أهميَّة قبول الأعمال ٤١٥
امرأة عمران تضع أنثى ٤١٧
استعاذة أمِّ مريم وقبولها ٤١٩
نهج القرآن في قصصه ٤٢٠
نشأة مريم وإكرام الله لها ٤٢١
الكرامة ثابتة لأولياء الله ٤٢٢
الفرق بين الكرامة والمعجزة ٤٢٣

نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

دعاء زكريا عليه السلام أن يهبه ذريَّة طيبة ٤٢٤
البشارة بيحيى عليه السلام ٤٢٥
تعجُّب زكريا من البشارة بيحيى بعد بلوغه الكبر وعقم امرأته ٤٢٥
❖ **الدرس الثالث: من أماني اليهود وضلالاتهم ٤٢٧**
موقف أهل الكتاب من الإسلام ٤٢٧
كفر أهل الكتاب بآيات الله ٤٢٨
إنكار على أهل الكتاب وتذكير للمؤمنين ٤٢٩
مكايد طائفة من أهل الكتاب لإخراج المسلمين عن دينهم ٤٣٠
زعماء اليهود والنَّصارى يوصون أتباعهم ألَّا يؤمنوا إلَّا لمن تبع دينهم ٤٣١
الفضل بيد الله عز وجل ويختص برحمته من يشاء ٤٣٢
❖ **الدرس الرابع: تقوى الله حقّ تقاته والاعتصام بحبله ٤٣٤**
سبب نزول الآيات ٤٣٤
التَّقوى أساس الوحدة ٤٣٧
حبل الله المتين ٤٣٨
نعمة الأخوة في الله ونعمة الهداية إلى الإيمان ٤٣٨
المسلمون أصحاب رسالة ٤٣٩
الدعوة إلى الخير ٤٤٠
تحذير القرآن من التفرق والاختلاف ٤٤١
خطورة التفرق في الدُّنْيا والآخرة ٤٤٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الخامس: الأمة الإسلاميَّة خير أمة أخرجت للناس ٤٤٥**

خطاب للجماعة المؤمنة ٤٤٥

معنى ﴿كُنتُمْ﴾ ٤٤٦

خيريَّة الأمة في الدُّنْيا والآخرة ٤٤٧

معنى الأمة ٤٤٧

الخطاب في الآية لأُمَّة الإسلام ٤٤٧

الأمة الإسلاميَّة خير الأمم ٤٤٨

أمة الدعوة وأمة الإجابة ٤٤٨

من الَّذي أخرج الأمة المسلمة؟ ٤٤٩

لماذا أخرج الله هذه الأمة؟ ٤٥٠

أسباب تفضيل الأمة ٤٥١

معنى المعروف والمنكر ٤٥٢

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٥٣

صلاح النفس وإصلاح الغير ٤٥٤

الإيمان بالله ٤٥٥

خيريَّة الأمة باقية ٤٥٥

دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان ٤٥٧

لا يستطيع اليهود الإضرار بالمؤمنين ٤٥٨

ضرب الذلَّة والمسكنة على اليهود ٤٦١

السبب في ضرب الذلَّة والمسكنة على بني إسرائيل وإحاطة غضب الله بهم ٤٦٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس السادس: التحذير من أكل الربا والدعوة إلى المسارعة إلى المغفرة والجنة** **٤٦٣**

النهي عن أكل الربا ٤٦٣

اتِّقاء النَّار المعدة للكافرين ٤٦٥

طاعة الله ورسوله تُنال بها رحمة الله ٤٦٥

الترغيب في المسارعة إلى مغفرة الله وجنته ٤٦٦

سعة الجنة ٤٦٨

معنى «التَّقوى» ٤٧١

صفات المتَّقين ٤٧٢

الإنفاق في السرَّاء والضرَّاء ٤٧٢

كظم الغيظ والعفو عن الناس ٤٧٥

المسارعة إلى التوبة والإنابة ٤٧٨

جزاء المتَّقين ٤٨١

❖ **الدرس السابع: من دروس غزوة أحد ـ ١ ـ** **٤٨٢**

وقع الهزيمة يوم أُحُد على نفوس الصحابة ٤٨٢

التسرية عن المؤمنين ٤٨٣

الاعتبار بسنن التاريخ ٤٨٤

من قوانين النصر ٤٨٥

سنة التداول ٤٨٧

لا يدخل الجنَّة إلَّا من بذل النفس والمال في سبيلها ٤٨٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة معاينة
QaradawiBooks.com

تمنِّي الصحابة بعد بدر الموت في سبيل الله ٤٩٠
يموت الرسل وتبقى دعوتهم ٤٩٠
❖ **الدرس الثامن: من دروس غزوة أحد ـ ٢ ـ ٤٩٢**
الرسول المجاهد ٤٩٢
بين غزوة بدر وأحد ٤٩٣
الهزيمة في أُحُد كانت من عند أنفسهم ٤٩٤
محاسبة النفس (النقد الذاتي) ٤٩٤
موقف أتباع الأنبياء في القتال مع أنبيائهم ٤٩٥
انتصار المؤمنين في أوَّل المعركة يوم أحد ٤٩٦
الفرق بين نقد الذات وجلد الذات ٤٩٧
عتاب الله للمسلمين في بدر على قبول الفداء كان أشد من عتابه لهم في أحد .. ٤٩٧
مَيْز الخبيث من الطيب ٤٩٨
الأيام دُوَل ٤٩٩
❖ **الدرس التاسع: الأمر بالشورى ٥٠٠**
رفق النبي ﷺ ولينه ٥٠٠
مجالات الشورى في الإسلام ٥٠١
مشاورة عمر الصحابة في طاعون عَمَواس ٥٠٢
حرص الإسلام على الشورى حتَّى في حياة الفرد ٥٠٣
العزم والتوكل على الله ٥٠٣
سنة الأنبياء في اتخاذ الأسباب ٥٠٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس العاشر: امتنان الله على المؤمنين ببعثة رسوله من أنفسهم ٥٠٥**

حال العرب قبل الإسلام ٥٠٥

مكانة النبي ﷺ ومكانة رسالته ٥٠٧

مهامُّ النبيِّ ﷺ ٥٠٧

رسول من أنفسكم ٥٠٨

المهمَّة الأولى: تلاوة آيات الله ٥٠٨

المهمَّة الثانية: التزكية ٥٠٩

المهمَّة الثالثة: تعليم الكتاب والحكمة ٥٠٩

والمهمَّة الرابعة: أن يُعلِّم النَّاس ما لم يكونوا يعلمون ٥١٠

❖ **الدرس الحادي عشر: فضل الشهادة في سبيل الله ٥١٢**

سبب نزول الآيات ٥١٢

الشهداء أحياءٌ عند ربهم ٥١٣

الإنسان يجهل الكثير ٥١٣

الإنسان الراشد هو الَّذي يؤمن بالمغيَّبات ٥١٤

فرحة الشهداء بما هم فيه ٥١٥

استبشار الشهداء بإخوانهم ٥١٥

استجابة الصحابة في أحد لله والرسول ٥١٦

ثبات الصحابة ٥١٧

جزاء ثباتهم ٥١٧

تخويف الشيطان المؤمنين أولياءَه ٥١٨

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثاني عشر: حقائق أربع ٥١٩**

▫ «**الموت والجزاء والنجاة وحقيقة الحياة**» **٥١٩**

حقائق أربع ٥١٩

شمول الموت ٥١٩

الدنيا ليست دار جزاء ٥٢١

الفوز الحقيقي هو النجاة من النار ٥٢٢

الحياة الدُّنْيا متاع الغرور ٥٢٤

• **دروس في تفسير سورة النساء ٥٢٧**

❖ **الدرس الأوَّل: عناية القرآن بالمرأة وحقوقها في سورة النساء ٥٢٩**

سورة النساء أطول سورة بعد البقرة ٥٢٩

عناية القرآن بأمر النساء ٥٢٩

سور عُنيت بأمر النساء ٥٣٠

الجاهليَّة العربيَّة ظلمت المرأة ٥٣١

الجاهليَّة حرمت المرأة من الميراث ٥٣٥

الحكمة من تفاوت الذكر والأنثى في الميراث ٥٣٧

ليس تفاوت الذكر والأنثى في الميراث مطلقًا ٥٣٨

الصداق حقٌّ للمرأة على الرجل ٥٣٩

❖ **الدرس الثاني: تكريم القرآن للمرأة في سورة النساء ٥٤١**

أساس قيام الأسرة في القرآن ٥٤٥

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثالث: حقوق المرأة الماليَّة ومعنى القوامة وعلاج النشوز ٥٥٣**

قوامة الرجل على المرأة ٥٥٥

القوامة لا تعني الاستبداد ٥٥٧

علاج الإسلام للنشوز في الأسرة ٥٥٨

❖ **الدرس الرابع: تعدُّد الزوجات ٥٦٦**

سبب نزول الآية ٥٦٦

التعدد قبل الإسلام ٥٦٧

من أجل هذا شُرِعَ التعدُّد ٥٦٩

التعدُّد ليس ضد المرأة ٥٧٠

دعاة التغريب لا يرحِّبون بتعدُّد الحليلات ٥٧٢

الإسلام جاء بالعتق لا بالرقِّ ٥٧٤

هل التعدُّد هو الأصل؟ ٥٧٦

لماذا أباح الإسلام للرجل التعدُّد ولم يُبَحْ للمرأة؟ ٥٧٨

❖ **الدرس الخامس: الآيات المُبَشِّرات في سورة النساء ٥٨٠**

أهداف التشريع الإسلامي ٥٨١

الآية الأولى من المُبَشِّرات ٥٨٣

الآية الثانية من المُبَشِّرات ٥٨٤

الآية الثالثة من المُبَشِّرات ٥٨٤

الآيتان الرابعة والخامسة من المُبَشِّرات ٥٨٥

استغفار الأنبياء ٥٨٦

مُبَشِّرات أخرى ٥٨٧

غير مرخصة للبيع
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس السادس: النهي عن أكل أموال النَّاس بالباطل وعن قتل النفس ٥٩٠**

❖ **الدرس السابع: حقيقة القوامة ومعالجة النشوز ٥٩٦**

الوقفة الأولى ٥٩٦

الوقفة الثانية ٥٩٧

الوقفة الثالثة ٥٩٨

❖ **الدرس الثامن: الحقوق العشرة ٦٠٤**

حقُّ الأقرباء ٦٠٤

حقُّ اليتامى والمساكين ٦٠٧

حقُّ الجار ٦٠٧

حقُّ الصاحب بالجنْب وابن السبيل وما ملكت أيْماننا ٦١٢

لا يحبُّ الله من كان مختالًا فخورا ٦١٣

❖ **الدرس التاسع: أداء الأمانة والحكم بالعدل ٦١٤**

القرآن يذكر الأمانة بصيغة الجمع ٦١٥

العدل لكل الناس ٦١٦

طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله ٦١٧

❖ **الدرس العاشر: طاعة الله ورسوله وثمرات الصحبة والمعية ٦٢٢**

تفاوت النَّاس في اتِّجاهاتهم وأهدافهم ٦٢٢

العقل السويُّ يوصل إلى الإيمان بالله ٦٢٣

الطاعة المطلقة لله ٦٢٤

طاعة الرسول ﷺ ٦٢٥

الأمر بطاعة الرسول ﷺ ٦٢٦

QaradawiBooks.com

ثمرة طاعة الله والرسول ٦٢٨
شرف الصحبة والمعية ٦٢٨
الصِّدِّيقون ٦٣١
الصالحون الَّذين عملوا الصالحات ٦٣٢
❖ **الدرس الحادي عشر: القيام بالقسط والشهادة لله تعالى ٦٣٤**
نداءات المؤمنين في سورة النساء ٦٣٤
نقف هذه الليلة عند هذا النداء الإلٰهي ٦٣٦
إقامة الشهادة لله ٦٤٠
الشهادة بالحقِّ على النفس والوالدَين والأقربين ٦٤٠
التحذير من اتِّباع الهوى ٦٤٢
• **دروس في تفسير سورة المائدة ٦٤٩**
❖ **الدرس الأوَّل: النداء الأوَّل للمؤمنين في سورة المائدة ٦٥١**
مع النداء الأوَّل في هذه السورة ٦٥٣
❖ **الدرس الثاني: حِلّ الطيّبات ٦٥٧**
الأكل من ذبائحهم بكل شروطنا أم بشروطهم؟ ٦٦٠
❖ **الدرس الثالث: من وجوه إعجاز القرآن وحفظه وتعريف بالطالب الحافظ الصغير عبد الله شغَّالة ٦٦٥**
رسالة عامَّة خالدة ٦٦٦
الله تعالى ضمن حفظ القرآن ٦٦٧
حفاظ القرآن من الأطفال ٦٦٨

غير مرخص للبيع
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الرابع: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]** **٦٧٠**

الوقفة الأولى ٦٧٠

الوقفة الثانية ٦٧١

الوقفة الثالثة ٦٧١

الوقفة الرابعة ٦٧٢

الوقفة الخامسة ٦٧٢

الوقفة السادسة ٦٧٢

❖ **الدرس الخامس: قصَّة ابْنَي آدم** **٦٧٨**

من مهامِّ الرسول ﷺ: تلاوة آيات الله ٦٧٨

مخافة الله ﷻ ٦٨٢

الإنسان يتعلم ممَّن هو دونه ٦٨٤

ابن آدم الأوَّل هو أوَّل مَن سَنَّ القتل ٦٨٥

الخير والشرُّ قديم ٦٨٦

❖ **الدرس السادس** **٦٨٩**

❖ **الحكم بغير ما أنزل الله** **٦٨٩**

عناية سورة المائدة بالمجتمع المسلم ٦٨٩

سورة المائدة من آواخر ما نزل ٦٨٩

تميُّز المجتمع المسلم بالحكم بما أنزل الله ٦٩٠

مسؤوليَّة الأمة عن تطبيق شرع الله ٦٩١

أوصاف من لم يحكم بما أنزل الله ٦٩١

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ٦٩٣

غير مرخص للطباعة
نسخة خاصة
QaradawiBooks.com

لا خيار للمسلمين في الحُكم بما أنزل الله ٦٩٣
الحكم بما أنزل الله مقتضى عقد الإيمان ٦٩٤
التدرُّج في تطبيق الشريعة ٦٩٥
القرآن والسياسة ٦٩٦

❖ **الدرس السابع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ ...﴾ ٧٠٠**

❖ **الدرس الثامن: مواجهة الردَّة ٧١٣**

❖ **الدرس التاسع: أهل الكتاب في سورة المائدة ٧٢٦**

❖ **الدرس العاشر: النهي عن تحريم الطيّبات ٧٣٤**

❖ **الدرس الحادي عشر: منهج الإسلام في التمتع بالطيِّبات ٧٤٠**

من أحكام اليمين ٧٤٥
قسم الفقهاء الأيمان إلى ثلاثة أقسام ٧٤٦

❖ **الدرس الثاني عشر: النداء الحادي عشر للمؤمنين ٧٤٨**

تحريم الخمر ٧٤٨

❖ **الدرس الثالث عشر: تصحيح المفاهيم ٧٥٦**

خطر السكوت على المنكر ٧٦٣
المجتمع كركاب سفينة ٧٦٥
الفريضة الغائبة في مجتمعات المسلمين ٧٦٦
درجات تغيير المنكر ٧٦٨
ما معنى التغيير بالقلب؟ ٧٦٩
من شروط إنكار المنكر ٧٧١

QaradawiBooks.com

• **دروس في تفسير سورة الأنعام** **٧٧٣**

❖ **الدرس الأوَّل: أهداف سورة الأنعام** **٧٧٥**

سورة التوحيد ٧٧٦

العنصر الأوَّل «ألا تبغي غير الله ربًّا» ٧٧٦

العنصر الثاني «ألَّا تتخذ غير الله وليًّا» ٧٧٧

العنصر الثالث «لا تبتغي غير الله حكمًا» ٧٧٨

التشريع المطلق لله وحده ٧٨١

القرآن يُنكر على المشركين تحريم الحلال ٧٨١

مناقشة القرآن للمشركين فيما حرَّموه ٧٨٢

حُرِّمت على اليهود بعض الطيِّبات بظلمهم ٧٨٤

الحلُّ والحرمة في الإسلام ٧٨٥

تشديد القرآن في تحريم الحلال ٧٨٥

مجال الحلال واسع ومجال الحرام محدود ٧٨٧

الاعتدال في تناول الحلال ٧٨٨

تكرار كلمة «قُلْ» في السورة ٧٨٩

❖ **الدرس الثاني: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾** [الأنعام: ١١٤] **٧٩١**

الذين آتيناهم الكتاب ٧٩٥

أكثر من في الأرض يَضِلُّون عن سبيل الله ٧٩٨

اتباع الظن والخرص وراء ضلال أكثريَّة أهل الأرض وإضلالهم عن سبيل الله ... ٧٩٩

QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثالث: ضلالات الجاهليَّة في التحليل والتحريم** ٨٠١
تحريم المشركين لما أحلَّ الله من الأنعام ٨٠١
تزيين سَدَنة الآلهة الَّتي يعبدها المشركون لأتباعهم قَتْل أولادهم ٨٠١
تحريم المشركين لما أحلَّ الله من الأنعام ٨٠٢
خسران الكفَّار بما ارتكبوه من قتل الأولاد وتحريم الأنعام ٨٠٢
الجنَّات المعروشات وغير المعروشات ٨٠٣
العناية بالجانب الجمالي ٨٠٦
النهي عن الإسراف ٨١٣
❖ **الدرس الرابع: الهداية إلى الصراط المستقيم** ٨١٥
التوازن والوسطيَّة ٨١٧
ملة إبراهيم عليه السلام ٨١٨
الأدعية بالثبات على ملَّة إبراهيم ٨٢٠
الأمر بإخلاص العبادة وابتغاء رضا الله ٨٢٠
لا نبتغي غير الله ربًّا ٨٢٤
• **دروس في تفسير سورة الأعراف** ٨٢٧
❖ **الدرس الأوَّل: التجمُّل وستر العورة في الصلاة وعند التوجه إلى المسجد والنهي عن الإسراف في المأكل والمشرب** ٨٢٩
الجاهليَّات القديمة تُحرِّم الطيِّبات ٨٣٠
التوسُّط في الأكل والشرب ٨٣٢
آثار البِطنة ٨٣٣
الفرق بين الإسراف والتبذير ٨٣٤

QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثاني: استنكار تحريم الزينة والطيِّبات** **٨٣٥**

أصول المحرمات ٨٣٦

❖ **الدرس الثالث: تصحيح مفاهيم الجاهليَّة** **٨٣٩**

ضبط الاستهلاك ٨٤٥

الاعتدال في الطعام والشراب ٨٤٦

حِلّ الطيِّبات ٨٤٩

❖ **الدرس الرابع: قصَّة شُعَيْب عليه السلام** ٨٥٢

الأنبياء العرب ٨٥٤

تحذير شُعَيْب قومه من أخذ المال بالقهر والصد عن سبيل الله ٨٥٥

تذكير شُعَيْب قومه بنعمة الله عليهم بتكثيرهم بعد أن كانوا قلة ٨٥٦

تهديد قوم شُعَيْب شعيبًا والمؤمنين معه ورده عليهم ٨٥٧

إهلاك الله قوم شُعَيْب بالرجفة ٨٥٩

❖ **الدرس الخامس: سعة رحمة الله وعموم رسالة النبي ﷺ ووجوب متابعته** ... **٨٦٣**

سعة رحمة الله عز وجل ٨٦٣

عموم رسالة النبي ﷺ ووجوب متابعته ٨٦٥

❖ **الدرس السادس: المعتدون يوم السبت** **٨٧٠**

انقسم النَّاس في هذه القرية ثلاثة أقسام ٨٧٣

إعلام الله تعالى بأنَّه يسلط على بني إسرائيل كل مدَّة من يُذيقهم العذاب بسبب ظلمهم وانحرافهم ٨٧٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة محتبية
QaradawiBooks.com

❖ الدرس السابع: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ٨٨١

سبب التسفُّل إلى مستوى الحيوانيَّة ٨٨٧

❖ الدرس الثامن: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠١] ٨٩١

آية ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ٨٩١

اتساع مجال العفو ٨٩٣

مسؤوليَّة المسلم تجاه مجتمعه ٨٩٦

موقف المسلم من الجاهلين ٨٩٧

كل من عصى الله فهو جاهل ٨٩٨

المؤمن إذا مسَّه سوء من الشيطان فأذنب استغفر الله واستدرك ما فرط منه بالتوبة ٩٠١

• فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٩٠٥

• فهرس الموضوعات ٩٢١

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com